

تاريخ الأدب العربي

للكاتب المشهور والباحث

تأليف

أحمد حسن الزيات

عضو مجمع اللغة العربية

اهداءات ٢٠٠١

الأستاذ الدكتور / محمد المتاح منصور

تأريخ الأدب العربي

للمدارس الشافعية والعلمية

تأليف

أحمد بن الزبير

عضو مجمع اللغة العربية

الطبعة السادسة والعشرون

مزيدة منقحة

بآخر الكتاب ذيل لغوي يفسر ما غمض من الألفاظ والتركيب

دار الثقافة

بيروت - لبنان

الفهرس

مقدمة

صفحة

٣ أدب اللغة . تاريخ الأدب . فائدة تاريخ الأدب . تقسيم تاريخ الأدب . العرب ومواطنهم وطبقاتهم وقبائلهم المشهورة . أحوال العرب الاجتماعية والسياسية والفنية والعقلية في الجاهلية .

الباب الأول — العصر الجاهلي

١٣ الفصل الأول — نشأة اللغة العربية : الفئات السامية . اختلاف اللهجات وسببه .

أطوار تهذيب اللغة العربية . الأسواق . أثر مكة وعمل قريش .

١٨ الفصل الثاني — النثر : تقسيم النثر . أنواع المأثور منه . الحكمة . الوصية . الخطاب .

مميزات النثر الجاهلي . الخطابة ودواعيها . أسلوبها . طرائقها فيها : أشهر الخطباء .

٢٠ قيس بن ساعدة الإيادي . حياته . أسلوبه . نموذج من كلامه .

٢١ عمرو بن معد يكرب اليبس . حياته . صفته ومثله . نموذج من كلامه .

٢٣ نماذج من النثر الجاهلي . الأمثال . الحكم . الخطب . الرسائل .

٢٨ الفصل الثالث — الشعر : تعريفه وأوليته . الشعر والعرب . أنواع الشعر وأغراضه .

سبب خلو الشعر العربي من النقص . للاعلام المشهورة : مميزات الشعر الجاهلي : الرواية والمطقات .

٣٣ نماذج من الشعر الجاهلي .

٤٥ الفصل الرابع — الشعراء الجاهليون وطبقاتهم . مكانتهم . من تكسب بالشعر منهم .

تقسيمهم باعتبار الزمن والإقامة .

٤٦ امرؤ القيس : نشأته وحياته . شعره . نموذج منه .

٤٩ النابغة الذبياني : شعره ومميزاته .

٥٢ زهير بن أبي سلمى : نشأته وحياته . شعره ومميزاته تحليل موجز لحقيقته .

٥٦ الأعشى : شعره ومميزاته تحليل موجز لحقيقته .

٥٨ عنتر بن شداد : شعره ومميزاته تحليل موجز لحقيقته .

٦١ طرفة بن العبد : شعره ومميزاته تحليل موجز لحقيقته .

٦٤ عمرو بن كلثوم : شعره ومميزاته تحليل موجز لحقيقته .

٦٦ الحارث بن حذرة : شعره ومميزاته تحليل موجز لحقيقته .

(ب)

صفحة

- ٦٨ لبيد بن ربيعة : نفاة وحياته . شعره وبجراته . نموذج منه .
 ٧١ حاتم الطائي : أخلاقه . شعره .
 ٧٥ أمية بن أبي الصلت :
 ٧٨ نفاة الخط في بلاد العرب ، البصرة والكوفة .
 ٧٩ جدول أسسل الخطوط السامية .

الباب الثاني - عصر صدر الإسلام والدولة الأموية

٨٠ الفصل الأول - الأدب الإسلامي :

العوامل المؤثرة في الأدب الإسلامي .
 حال الجزيرة العربية قبل الإسلام . معنى الجاهلية والإسلام . تغير العقيدة العربية
 بالإسلام . ضعف الأمر الإسلامي في الأعراب وتأثيره . أثر الفتح في حياة العرب . أثر
 الخصومة السياسية في الأدب .

٨٦ الفصل الثاني - مصادر الأدب الإسلامي :

(١) القرآن الكريم : أساويه . إيجازه . أفراسه ومنايه . تأنيده . قراءاته
 جمعه وتداوله . نيس من نوره .

٩٥ (٢) الحديث : منزلته الدينية . قيمته الفنية والتاريخية . اختلافه من
 القرآن في ذلك . الحديث والوضع . أثر الحديث على علمه
 في الأدب والاسلوب . أسلوب الحديث .

٩٦ (٣) الشعر الجاهلي : (٤) الأدب الجاهلي :

١٠٢ الفصل الثالث - أنواع الأدب الإسلامي

(١) الشعر : حاله في عهد النبوة . معركة الحجاج بين الفريسيين والمسلمين . أثر الدين والحضارة
 فيه . تحليل نمطه الشعر في العراق والحجاز على عهد بني أمية وبيان خطرهما وأثرهما
 في الإنتاج العقل للعرب . المصيبة والثورة والحزبية وأثرهما في وفرة الشعر . تأثير العصر
 بالحياة الجديدة في معانيه وأفراسه . اختلاف مظاهر الحياة في العواصم العربية لاختلاف
 الأحوال السياسية والاجتماعية . خصائص الشعر في العراق . الاخل وجبر وقرظقه .
 تحليل مذاهم في الحياء . الشعر السياسي ومذاهم فيه . شعر الشجعة . شعر الحوارج

صفحة

١٣٧ نموذج من الشعر الأموي .

١٣٧ الفصل الرابع - الشعراء وطبقاتهم :

١٤٦ الشعراء المختصر موزون :

١٤٦ كعب بن زهير : نفاثته وحياته . شعره : نموذج منه .

١٤٩ الحنفاء : حياتها ، وشعرها .

١٥٢ حسان بن ثابت : نفاثته وحياته ، شعره .

١٥٥ الحنيفة : : : : : .

١٥٧ الشعراء القوي سلا موزون :

١٥٧ عمر بن أبي ربيعة : نفاثته وحياته ، شعره . نموذج من شعره .

١٦١ الأختل : : : : .

١٦٤ الفرزدق : : : : .

١٦٧ جرير : : : : .

١٧١ الطرماع بن حكيم : : : : .

١٧٦ (٧) الشعر : الخطابة :

الخطباء :

١٧٧ محمد رسول الله : مولده ونشأته وبعثته . فصاحته . أثر الحديث في الفن والأدب .

١٨١ عمر بن الخطاب : نفاثته وحياته . صفاته ومواهبه . نموذج من مهوره وخطبه .

١٨٥ علي بن أبي طالب : : : : أخلاقه ومواهبه . نموذج من كلامه .

١٨٨ سبلان وائل : : : : نموذج من خطبه .

١٨٩ زياد بن أبيه : : : : أخلاقه ومواهبه . نموذج من كلامه . خطبته البتراء .

١٩٢ الحجاج بن يوسف : : : : : خطبه .

١٩٦ (٣) الكتابات : تدوين المواقف . تأثر الأسلوب العربي بالأسلوب الفارسي .

الكتاب :

١٩٧ عبد الحميد بن يحيى : نفاثته وحياته . أثره في الكتابة . أسلوبه . نموذج من شعره .

٢٠٤ - المتن ونصوصه النابية .

الباب الثالث - العصر العباسي

٢١٠ خطره وأثره وعيقاته . اختلاطه من العصر الأموي . أثر الحضارة الأرمينية . انتقال الخلافة إلى بني العباس على يد القيس (٨) .

٢١٧ الفصل الأول - اللغة وآثار الفتح والسياسة والحضارة فيها . ما اكتسبته العربية من الفارسية وغيرها . ضمتها عند امتلاء الأعاجم على بغداد .

٢١٥ الفصل الثاني - الشعر :

المكتبة : أثر الحضارة الفارسية فيها . أساليبها . نزوعها إلى الإطناب

والزخرف . سريان الغنى إليها . طبقات الكتاب ، طريقة ابن للفتح ، طريقة الجاحظ . طريقة ابن السيد : طريقة القاضي الفاضل .

الخطابة : المجهاد : داود بن علي (٨) شبيب بن شيبة :

٢١٩ نماذج من الشعر : التوقيعات . المطلب . الرسائل . اللقائات .

٢٢٦ الفصل الثالث - الكتاب :

٢٢٦ ابن للفتح .

٢٣٠ الجاحظ .

٢٣٣ ابن العميد .

٢٣٧ صاحب ابن عباد .

٢٣٩ الحارثي .

٢٤١ بديع الزمان الهمداني .

٢٤٥ الحريري .

٢٤٧ القاضي الفاضل .

٢٥٠ الفصل الرابع - الشعر :

أثر الحضارة والسياسة في الشعر . أثر الحضارة في شكله ووزنه وغرضه ، أثر ترجمه العلوم في الشعر . الشعب السياسي والشعر . تمضيده الحفقاء للشعر : نظم هذا التصعيد وضروره . حالة الشعر في عهد السلاجقة .

٢٥٤ نماذج من الشعر العباسي : الحماسة . اللدح . الرثاء . المجهاد . الوصف . الحكم والأمثال . الاعتذار والاستعطاف .

٢٦٣ الفصل الخامس - الشعراء المولودون :

٢٦٣ شعراء بغداد :

٢٦٣ يشار بن برد .

٢٦٨ أبو المتألمية .

٢٧٢ أبو نواس .

٢٧٦ ابن الرومي .

٢٨١ ابن المعتز .

٢٨٥ الشريف الرضي .

٢٨٧ الطنبراني .

٢٨٩ الشعراء والشعراء في الشام : الشام في عهد بني أمية . الشام في عهد بني حنابلة .

٢٩٠ أبو عامر .

٢٩٤ الجعفي .

٢٩٧ اللطفي .

٣٠٢ أبو فراس .

٣٠٦ أبو العلاء المعري .

٣٠٧ الشعراء والشعراء في الأندلس : عبد الرحمن الداخل : مياسة الأمازيغيين في الأندلس

فدحا في الشام . حضارة الأندلس وأثرها في الشعر . انتشار اللغة العربية في أسبانيا .

أثر الشعراء العرب في الشعر الإسباني ، وأى الفرج في الشعر العربي .

٣١٦ نماذج من الشعر الأندلسي .

٣٢١ ابن عبد ربه . المقدم القريب .

٣٢٤ ابن حاتم الأندلسي .

٣٢٩ ابن وهب .

٣٣٥ ابن مديني السعدي .

٣٣٩ ابن خفاجة الأندلسي .

٣٤٢ لسان الدين بن الخطيب .

الشعر والكتابة والعلوم والفنون في مصر على عهد الفاطميين :

٣٤٩ الشعراء في مصر .

٣٥٠ جمال الدين بن التيمي .

٣٥٤ ابن الفارض .

٣٥٦ جمال الدين زهير .

٣٥٩ الفصول المأوسى - المأوس :

الترجمة والتأليف : رزق المأوس وانتشارها . أثر العرب فيها .

٣٦١ المأوس المؤدية - علم المؤدية :

٣٦٢ الأدباء . الأصمى :

٣٦٣ أبو الفرج الأصبهاني . كتاب الأغاني .

٣٦٥ علم النحو . الكوثرى والبصريون . منطق الفلاس بينهم . النحو في عاقبة أمره .

٣٦٧ النجاة .

٣٦٧ مزيو .

٣٦٨ الكسائي .

٣٦٩ الفراء .

٣٧١ ابن الحارث .

٣٧١ علم اللغة . للمجيب :

٣٧٢ الفريسيون . الخليل بن أحمد .

٣٧٤ ابن دريد .

٣٧٦ علوم البيان .

٣٧٧ التاريخ . نشأته وتطوره .

٣٧٨ مذمت العرب في التاريخ .

٣٧٨ ابن الأثير .

٣٧٩ المأوس المشرقية - علم المشرقية :

٣٨٠ المحدثون . البخاري .

٣٨٠ مسلم بن الحجاج .

٣٨١ علم الفقه .

٣٨٢ الفقهاء . أبو حنيفة النعمان .

٣٨٢ مالك بن أنس .

٣٨٤ محمد الشافعي .

٣٨٦ أحمد بن حنبل .

٣٨٦ المأوس العقلية - الفلسفة :

٣٨٨ الفلاسفة .

٣٨٩ ابن سينا .

٣٩٠ الفيزيائي .

٣٩١ ابن رشد .

(د)

صفحة

٣٩٤ الفصل السابع — الفحص والمقامات في المؤدب العربي :

قصة مترة (د) الحكايات ، ألف لية ولية .

٣٩٧ الأمثال . كلية ودية .

٣٩٩ المقامات وكتبتها .

الباب الرابع — العصر التركي

٤٠١ بعد سقوط بغداد . كيف خلفت القاهرة بغداد وقرطبة .

٤٠٤ أعلام هذه الفترة . نوايع هذه الفترة على الإجمال .

٤٠٦ سنن الدين الحلبي .

٤٠٧ ابن منظور .

٤٠٩ أبو الفداء .

٤١٠ ابن خلدون .

٤١٣ عائشة البهاوية .

الباب الخامس — العصر الحديث

٤١٦ الفصل الأول — نظرة عامة . حالة مصر في أواخر القرن الثامن عشر ، فزو

ناطين لمصر وأثره الأدبي ، أعمال محمد علي ، جهود إسماعيل في عصر النهضة ، أثر الاحتلال الإنجليزي في التعليم .

٤٢١ الفصل الثاني وسائل النهضة الحديثة :

٤٢١ المدارس ، الجامعة الأزهرية . الجامعات المصرية : الطباعة . الصحافة . التمثيل .

الجامعة الأزهرية ، الجمع العلمي العربي بمصر — مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

٤٢٩ الفصل الثالث — الشعر :

الكتابة — فن النص والروا

٤٣٣ الفصل الرابع : أساليب النهضة الحديثة في مصر وإقليم العراق والشرب :

٤٣٧ الكتاب .

٤٣٧ جمال الدين الأفندي : حياته وأعماله ، نموذج من كلامه .

٤٤١ الأستاذ الإمام محمد عبده . نفاة وحياته . صفاته وأخلاقه . أثره في النهضة والأدب .

أثره في العلم والدين . نموذج من نثره .

٤٤٨ الشيخ علي يوسف . نفاة وحياته . أخلاقه وفضله . أسلوبه وعلمه . نموذج من نثره .

٤٥٣ إبراهيم الموصلي : نفاة وحياته . أسلوبه . آثاره .

صفحة

- ٤٥٣ حفي ناصف : نفاثه وحياته : أخلاقه . نثره وشعره . مؤلفاته . نموذج من شعره .
 ٤٥٦ باثقة البادية : نفاثا وحياتها . سكاتها وحياتها في العلم والأدب . نموذج من كلامها .
 ٤٥٨ مصحاني لطيف للنفوس . نشأته وحياته . أخلاقه . أسلوبه . مؤلفاته وأدبه .
 مترجماته : نموذج من نثره .
 ٤٦٢ عبد العزيز شاويش... نفاثا وحياته . أخلاقه . أسلوبه . مؤلفاته . نماذج من نثره .

الادباء

- ٤٦٦ ناصيف اليازجي ... نفاثه وحياته نثره وشعره ، علمه ومؤلفاته . نموذج من كلامه .
 ٤٦٨ أحمد فارس القدياني ... » » » مؤلفاته . نموذج من كلامه .
 ٤٧٢ بطرس البستاني ... » » » علمه وعمله ... » » »
 ٤٧٤ إبراهيم اليازجي ... » » » أدبه وعلمه . نموذج من كلامه .
 ٤٧٦ حزة فتح الله ... » » » أخلاقه وعلمه . نموذج من كلامه .

الخطابة والخطباء

- ٤٧٨ عبد الله التميمي ... نشأته وحياته : أخلاقه ومواهبه . نموذج من كلامه .
 ٤٨١ مصطفى كامل ... » » » نموذج من خطبه ... » » »
 ٤٨٣ محمد زحلول ... » » » متركته في الخطابة . نموذج من نثره .

٤٨٨ الفصل الخامس - الشعراء

الشعراء

- ٤٩٠ محمود سامي البارودي نشأته وحياته . شعره ومؤلفاته . نموذج من شعره .
 ٤٩٤ إسماعيل صبري ... » » » » » » »
 ٤٩٨ أحمد شوقي ... » » » »
 ٥٠٢ محمد حافظ إبراهيم ... » » »
 ٥٠٦ جميل صدق الزهاوي ... » » »
 ٥١٠ شامية في الاستعراق والمستعرقين . تاريخ الاستعراق ، أشهر المستعرقين ...
 ٥١٥ ذيل في نغمير الألفاظ التورية والقرابة كيب الناصفة ... » » » » » » »

تاريخ الازب العربي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتبنا هذا الكتاب على خير ما رجونا من التحصيل والتلخيص ، وجزنا القلم عن وجهه ومزاد القول رحب وبجال البحث مستفيض ، فأجلنا على رغبتنا حال الأدب في المصور الخلسة ، ولا حيا في العصر العباسي وهو أرق عصور الإسلام ، ومشرق نور الحضارة ، ومهبط وحى العلم ، وزيق شباب الله ، وقوقا بالطالب عند درس ، وترقيما مناعن قسه ، واجتزاء ببسط النرض ونهج السبيل ليمعن فيها الناشئ البارئ بلفظه مسدد الخطى مؤيد المزعمة ، حتى يقف على أطوار لسانه ، ويكشف عن أسرار بيانه . ولا نكذبُ الله فقد كان لنهاج التعليم في هذا البلد وزهاده الناشئين في الإفاضة ، أثر قوى في هذا الإيجاز . فكلمتنا المتعقب ، إذا رأى في هذا الموجز إجمالا أو إغضالا ألا يبسط بالنكير لسانه ، فإن هذا العلم في العربية وليد ، والبحث فيه طريف جديد . ونحن إنما كتبناه ناشئة الأدب لانتحوله ، وألما فيه بأصوله لا بفصوله . وكلتنا المتعلم ، إذا استوعاه بالهرس ، واستقرأه بالحفظ ، ألا يقف في الطلب عنده ، والألا يقصر عليه جهده ، فأنما هو عمالة لفنان وبُلااة صاد وعلالة مشوق .

* * *

ذلك ما قدمنا به الطبعة الأولى لهذا الكتاب منذ خمسة وأربعين عاما . وإنه ليشالج صدورنا أن نقول اليوم إن دراسة تاريخ الأدب في الديار المصرية وفي غيرها من الأقطار العربية ، قد أخذت تنتشر وتوسع وتعمق ؛ فنأهجه نتفح وتعدل ، ومباحته تحقق وتحلل ، ومدروسه يتقصون في تفصيله ، ودارسوه يتبارون في تحصيله : لذلك نزعنا في هذه الطبعة إلى شيء من التعمق والبسط ، راجين أن يكون في هذا العمل بعض النفاذ لشباب العرب في العراق وابنان والأردن والسعودية واليمن والجمهورية العربية المتحدة والسودان وليبيا ونونس والجزائر والمغرب

مقدمة

أدب اللغة

أدب اللغة ما أثرَ من شعرائها وكتفائها من بدائع القول المشتمل على تصور الأخيلة الدقيقة ، وتصور المآل الرقيقة ، مما يهذب النفس ويرقق الحس ويثقف اللسان . وقد يطلق الأدب على جميع ما صنف في كل لغة من البحوث العلمية والفنون الأدبية ، فيشمل كل ما أنتجته خواطر العلماء وقرايح الكتّاب والشعراء . والآداب العربية أغنى الآداب جماء ؛ لأنها آداب الخليفة منذ طفولة الإنسان إلى إضمحلال الحضارة العربية . فما كانت لغة مُضرَ بعد الإسلام لغة أمة واحدة ، وإنما كانت لغة لجميع الشعوب التي دخلت في دين الله أو في كنفه ، أو دعواها معانيهم وتصوراتهم ، وأفضوا إليها بأسرار لغاتهم ؛ ثم جابت أقطار الأرض تحمل الدين والآداب والحضارة والعلم ، فصرعت كل لغة نازاتها ووسعت علوم الأولين وآداب الأقدمين ، من يونان وفرنس ويهود وهنود وأحياء ، واستمسكت على عرك الخطوب تلك القرون الطويلة ، فشهدت مصارع اللغات حولها وهي مرفوعة الرأس رابطة الجأش ترث نتاج القرائح وثمار العقول من كل أدب ونحلة ، فكانت لغات الأمم على اختلافها كالجدول والأنهار ، تتألف ، ثم تتشعب ، ثم تتجمع ، ثم تصب في محيط واحد هو اللغة العربية .

تاريخ الأدب

تاريخ الأدب علم يبحث عن أحوال اللغة وما أنتجته قرائح أبنائها من بليغ النظم والنثر في مختلف المصور ، وعما عرض لهما من أسباب الصعود والهبوط والاندثار ، ويعنى بتاريخ الفايهين من أهل الكتابة واللسان ونقد مؤلفاتهم وبيان

تأثير بعضهم في بعض بالفكرة والصناعة والأسلوب^(١) .

ذلك تعريف تاريخ الأدب بمعناه الأخص ، أما تعريفه بمعناه الأعم فهو وصف مسلسل مع الزمن لما دوّن في الكتب وسجل في الصحف ونقش في الأحجار تمييزاً عن عاطفة أو فكرة ، أو تعليماً أو فن ، أو تخليداً لحادثة أو واقعة ، فيدخل فيه ذكر من نبغ من العلماء والحكماء والمؤلفين وبيان مشاربهم ومذاهبهم وتقدير مكانتهم في الفن الذي تعاطوه ليظهر من كل ذلك تقدم العلوم جميعاً أو تأخرها .

فائدة تاريخ الأدب

لتاريخ الأدب التأثير البالغ في حياة الأمة . فإن المحافظة على اللغة وما فيها من ثمار العقل والقلب أحد الأحاسيس التي يدي عليها الشعب وحده ومجده وفخره . فإذا حرمت شعباً آدابه وعلومه الجليلة للورثة فقطعت سياق تقاليده الأدبية والقومية حرمته فوام خصائصه ونظام وحدته ، وقُدته إلى العبودية العقلية وهي شر من العبودية السياسية ، لأن استعباد الجسم مرض يمكن دواؤه ، ويرجى شفاؤه ، أما استعباد الروح فهو الموت للقومية التي لا يقدر على إحيائها طبيب .

(١) تاريخ الأدب بهذا المعنى علم حديث النشأة ، ابتدعه الإيطاليون في القرن الثامن عشر وظل مجهولاً في الشرق حتى اشتد . خلاله بالقرب ، فسكان أول من نقله إليه لمفقور له الأستاذ حسن توفيق العدل على أثر هودنه من ألمانيا وقيامه بتدريسه في دار العلوم . أما العرب فقد توسعوا في تأليف كتب التراجم للأدباء والشعراء والعلماء وضموا في ذلك مذاهب حتى تدل على تبرزيم في هذا النوع . ككتاب وفيات الأعيان لابن خليكان ، وفوات الوفيات للكتبي ، ونية الوعاة للسيوطي ، ومعجم الأدباء لياقوت ، وتاريخ الحكماء للقطبي ، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، وولائد العقيان للفتح بن خالان ، ونفع الطيب للقرى ؛ ولكن نسبة هذه الكتب إلى تاريخ الأدب كنسبة الحجارة إلى القصر الشديد ؛ لأنها أخبار مفردة غير مرتبطة لتظهر ما بين الشعراء أو الكتاب من علاقة بالصناعة والفن والأسلوب ، ولأن ذكر ما هرا الظلم والنثر من تحول وتقلب . وما يجده من ذلك في كتاب السبعة لابن رشيق وللثلاث السائل لابن الأثير ، وللقائمة لابن خلدون ، والفهرست لابن البدیم ، ليس إلا نبذاً يسيرة ولحمة وجيزة وردت مبتثرة لاصلة بينها ولا رابط ، ولذا كانت أسباب سبذ كرها عند السلاطين على مذاهب العرب في التاريخ . راجع تفصيل ذلك في كتابنا : (في أصول الأدب) ، القاهرة سنة ١٩٥٠ .

تقسيم تاريخ العرب

التاريخ الأدنى وثيق الصلة بالتاريخ السياسي والاجتماعى لكل أمة، بل قل إن كليهما لازم للآخر مؤثر فيه ممد له . غير أن الأول إنما يسبق الثانى كاتسبق الفكرة العمل والرأى المزعجة : فكل ثورة سياسية أو نهضة اجتماعية إنما تمدها وتمدها ثورة فكرية تظهر أولاً على ألسنة الشعراء وأقلام العلماء لقوة الحس فيهم ، وصفاء النفس منهم ؛ ثم ينتقل تأثيرهم وتطورهم إلى سائر الناس بالخطابة والكتابة فتكون الثورة أو النهضة .

لذلك آثرنا أن نجارى كثرة كتابتنا فى تقسيم تاريخ أدينا إلى خمسة أعصر على حسب ما نال الأمم العربية والإسلامية من التقلبات السياسية والاجتماعية وهى :
(١) العصر الجاهلى ، ويتبدى باستقلال المدنانين عن العيين فى منتصف القرن الخامس للميلاد ، وينتهى بظهور الإسلام سنة ٦٢٢ م .
(٢) عصر صدر الإسلام والدولة الأموية ، ويتبدى مع الإسلام وينتهى بقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ .

(٣) العصر العباسى ، ومبدؤه قيام دولتهم ومنتهاه سقوط بغداد فى أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ .

(٤) العصر التركى ، ويتبدى بسقوط بغداد وينتهى عند النهضة الحديثة سنة ١٢٢٠ هـ .

(٥) العصر الحديث ، ويتبدى باستيلاء محمد على على مصر ولا يزال .

العرب ومواطنهم وطبقاتهم وقبائلهم المشهورة

العرب أمة من الأمم التى اصطلح المؤرخون^(١) على أن يسموها سامية

(١) أول من استعمل هذا الإصطلاح هو المؤرخ الألمان فردريك شلوسر فى كتابه التاريخ العام وقد تولى سنة ١٨٦٠ .

(نسبة إلى سام بن نوح) وهى البابلية والآشورية والعبانية والفينيقية والآرامية والحبيشة . امتدت هذه الشعوب فى الأصل مهداً واحداً نشأت فيه وتفرقت منه . وتبين هذا المهد لا يزال موضع الخلاف وموضوع البحث : فبعض يقول إنه العراق ، وبعض يرجح أنه جزيرة العرب ، وآخرون يزعمون أنه الحبيشة . ومما يمكن الخلاف فى مهد الساميين فقد نزحوا منه فى غابر الدهر ، فسكن البابليون والآشوريون العراق ، والفينيقيون سواحل سورية ، والعبانيون فلسطين ، والأحباش الحبيشة ، والمغرب شبه جزيرتهم . وهى واقعة إلى طرف الجنوب الغربى من آسيا . ويمسدها من الشمال سورية ، ومن الشرق الفرات وجهة من المحيط الهندى ، ومن الغرب البحر الأحمر . ثم يقسمها جبل السراة الممتد من اليمن إلى أطراف بادية الشام قسمين : غربياً وشرقياً ؛ فالغربى يهبط من سفح ذلك الجبل إلى شاطئ البحر الأحمر فيسمى النور لانخفاضه أو تهامة لحره ، والشرق يصعد إلى أطراف العراق والساوة فيسمى نجداً لارتفاعه ، ويفصل بين النور ونجد يدعونه الحجاز لحجزه بينهما . أما ما ينتهى به نجد فى الشرق حتى يصل إلى الخليج العربى من بلاد اليمامة والكويت والبحرين وعمان فيسمى بالعروض لاعتراضه بين اليمن ونجد ؛ وما يمتد وراء الحجاز إلى الجنوب يسمى اليمن إما لوقوعه على يمين السكبية ، وإما ليمنه .

وفى هذه الأقسام توزع الشعيان المريان : شعب قحطان ، وشعب عدنان . فأما القحطانيون فسكنوا اليمن وكانت لهم فيه عمارة عظيمة وحضارة زاهرة . فلما نبت بهم مرابيهم تمزقوا فى البلاد ، فذهب من كهلان ثعلبة بن عمرو ونحو الحجاز فغلب اليهود على يثرب ، وكان من أنقابه الأوس والخزرج . ثم احتل حارثة ابن عمرو وهو خزاعة الحرم . ومن عمران بن عمرو نخوعمان ، فبنوه أزد عمان . واستوطنت قبائل نصر بن الأزد تهامة وهم أزد شنوءة ؛ ووقف بنو جفنة بن عمرو بالشام فأقام بها هو وبنوه فكان منهم النساسة . ونزل بنو ظلم بالحيرة ومنهم نصر

ابن ربيعة أبو الناذرة وأما المدثانيون فسكنوا الحجاز وما يأسره إلى ريف العراق ، فأقامت بطون قريش في مكة وضواحيها ، ويطون كثافة في تهامة ، واحتلت ذبيان ما بين نياء وحوران . وسكنت ثقيف الطائف ، وهوازن شرق مكة ، ونزل بنو أسد شرق نياء وغربي الكوفة ، وبنو تميم بادية البصرة . واستوطنت قبائل تغلب الجزيرة الفراتية . وحلت سائر بكر بن وائل طول الأرض من النجاة إلى البحر ، فأطراف سواد العراق قالأبلة ، فهبت .
والمؤرخون يرجعون العرب إلى ثلاث طبقات :

بائدة : وهم الذين درست أخبارهم وطمست آثارهم ، فلم يسجل لهم التاريخ إلا صفحات مشوهة لا تنفي ظناً ولا تثبت حقيقة . وأشهر قبائلهم : عاد وعمود وطسم وجديس . « فأما عمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ^(١) » وأما طسم وجديس فتفانوا كاي زعمون في حادثة نسائية خرافية . وعامية : وهم اليمنيون المنتمون إلى يعرب بن قحطان المذكور في التوراة باسم يارح بن يقطان . وبزعم العرب أنه أصل لسانهم ، ومصدر بيانهم ، وبذلك يفتخر حسان بن ثابت في قوله :

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب
أينما فصرتم مُعربين ذوى فُـرْ
وكنتم قديماً مالكم غير عجمة كلام وكفتم كالبهايم في القفر
ومن اليمنيين بطون حير - وأشهرهم زيد الجمهور وقضاة والسكاسك ، ويطون كهلان - وأشهرهم همدان وطيه ومذحج وكندة ولخم . ومن لخم بنو المنذر الحيرة والأزد . ومن الأزد الأوس والخزرج في المدينة والمساكنة في الشام . وكانت لحير السيادة على اليمن فنهج الملوك والأقيال .

تم مستمرة : وهم ولد اسماعيل عليه السلام ، نزل بالحجاز حوالى القرن

التاسع عشر قبل الميلاد ، ثم صاهر ملوك جُرم ، فكان له بنون وأعقاب ضلوا في مجاهل الزمن فلم يعرف التاريخ منهم على التحقيق إلا عدنان ، وإليه ينتهى عمود النسب العربى الصحيح . وأشهر قبائل هذه الطبقة ربيعة ومُضر وأنار وإياد . فن ربيعة عبد القيس ومنها بكر وتغلب ابنا وائل . ومن مضر انشعبت قيس عيلان وطلون إلياس بن مضر . فأما قيس عيلان فأشهر بطونها وازن وغطفان ؛ ومن غطفان عيس وذيان ابنا بغيض . وأما أولاد إلياس فافترقوا ، فهم بطون تميم بن مر ، وهذيل بن مدركة ، وبنو أسد بن خزيمه ، وطلون كنانة بن خزيمه ، ومن كنانة قريش : ثم انقسمت إلى بطون شتى فهم جُحجُ وسهم ونخزوم وعبد الدار وعبد مناف^(١) . ثم كان من عبد مناف عبد شمس ووفل والمطلب وهاشم ، ومن هاشم عبد المطلب : وبنوه عشرة منهم عبد الله أبو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأبو طالب والد على رضى الله عنه ثم العباس . فالملوون ينتسبون إلى على ، والعباسيون إلى العباس . وأما الأمويون فليسوا من بنى هاشم وإمامهم من بنى عبد شمس أخيه . وإلى هذه الطبقة يرجع الفضل فيما تكلم به من لغة ، وما تتجمل به من بيان ، وما تدرسه من أدب ، وما نمتقده من دين .

أحوال العرب اوسمائية والسياسة والربنية والعقلية في الجاهلية :

إن لجو الإقليم أثرًا طبيعياً في حياة أهله ، فهو الذى ينجع لهم صنن معاشهم ونظام اجتماعهم ، ويكون الكثير الغالب من أخلاقهم وطباعهم . والربنية شبه جزيرة جافة قاحلة قلما يجودها الخيش وتواتها العيون ؛ فهي لاتصاح للزروع الدورية ، ولا تلتأم الحياة الحضرية . ومن ثم كان أهلها بدوا^(٢) بانقطرة يعيشون تحت الخيام على رعى الأنعام قِطامون من لحما ولبنها ، ويكتسبون

(١) يدل على أن البداوة خصيصة العرب في التاريخ القديم أن لفظ العرب يراد به في اللغات السامية معى البدو والبادية .

يصوفها وورها ، ويتفقون بها مواقع القطر ورياض الأرض يُسمونها فيها . ويرددونها بين أوديتها وفيانها ؛ إلا قرى شاتعصروا لقيامهم على البيت الحرام ، وإيلانهم رحلة الجن والشام ؛ وإلا القحطانيين لحظ ديارهم من الحصب والطرق ، ووفرة مائتله أرضهم من الحب والتمر . فإذا خلقت السماء وأحلت وجوه الأرض أكل بعضهم بعضاً بالإغارة والنزو . وجرة ذلك عليهم فساد القلوب ودوام الحروب وذهاب الأمن ونشأت الألقه . ولم يُنكب الجاهليون مثل الحرب والجدب ، فهم لذلك يتمدحون بالبأس والساحة ، ويقبجون بالأسن والقصاحة ، ويؤثرون الذكر ويثدون^(١) الأنثى ، ويتكاثرون بالفر العديد ، ويمتزون بالقرابة الواشجة .

ثم كان من ألقهم حياة الظلم والتجوال ؛ وتوزع همهم بين الجدال والقتال ، أن غلبت عليهم الحرية والمصيبة والوحشية ، فلم تكن لهم مدنية اجتماعية ، ولا حكومة سياسية ولا أنظمة عسكرية ولا فلسفة دينية . وإنما كان مجتمعهم مجتمع القبيلة والجماعة ، لا مجتمع الشعب والأمة ؛ والحكومة كانت لرؤساء العشائر يملكون بالإرث ويحكمون بالعرف ، فلم تكن ألبرشية^(٢) كحكومة الإغريق ، ولا ملكية كحكومة المصريين والفرس ؛ اللهم إلا في الحيرة والشام فقد كان لهم ملوك متوجون ولكنهم غير مستقلين ؛ فالأخمينيون في الحيرة يقيمون الأكاسرة ، والساسانيون في الشام يقيمون القياسرة . وإذن فمأني الحضارة والرأى العام والأرستقراطية والديمقراطية والإقطاع لا أفاظ لها عند العرب والساميين جميعاً . والنظام العسكري حتى بعد الإسلام كان غير ثابت ولا منظم ، لأن للموسية

(١) لم يكن وأد السات طام في جيم الشعوب وإنما كان خامساً يبيض البائل تيم وأسد ، يفعله من يفعل منهم خشه القفر وإلى ذلك أشار الكتاب في قوله : (ولا تغتلبوا أولادكم خشية إيمانهم نحن نرزقهم وإياكم) .

(٢) الألبرشية Oligarchie حكومة ينصهر السلطان فيها في يد بس الأسر القوية .

والتجرد عن الشخصية - وهما الركناان الأساسيان في العمكرية - بضادان
لإعجاب العربي بنفسه واعتداده بشخصه . والدين كان دين بساطة وسذاجة وتشف،
فلم يكن للعرب ما كان للأغريق من تعدد الآلهة وضخامة الهياكل وإقامة التماثيل
ووفرة الأساطير وفلسفة العقائد ، وإنما كان بقية أثرية من دين إبراهيم جاءتهم
من وراء القرون عن طريق الوراثة مشووعة لتطاول الهدد وتحكم الجهالة وعدم
القرار ، فحالت في نفوسهم إلى عبادة الأصنام وتنظيم الأوثان^(١) ونصبها على
السكمية تقرباً بها إلى الله على زعمهم . وهذه الوثنية كانت دين الكثرة من
العرب . أما القلة فكان بعضها على اليهودية في البين وفي يثرب وما جاورها
من أرض خيبر وتبء ، وبعضها على النصرانية بلجران والحيرة وفي قبائل
طبيء والفسانة بالشام .

أما الأسرة وهي نواة القبيلة فقد كان حالها أشبه بحال الأسرة للصربية الرقيقة
اليوم : تتألف من الأبوين والأولاد والحفدة والرقيق . وكان سلطان الأب مطلقاً
على أهله : يملك عليهم اللوت والحياة والبيع والاتقاء ، فربما وأد ابنته خوف
الفقر ، وانتقى من ابنه خوف العار . وكان للزوجة المكانة السامية الثانية في
الأسرة ، يحلها الزوج في نفسه ، ويشاركها في أمره ، ويتفنى باسمها في شعره ،
ويغفر الابن بنسبته إلى أمه كما يغفر بنسبته إلى أبيه . وكان عقد الزواج هو الرباط
الغالب بين الرجل والمرأة ، وللارجل وحده حق الطلاق ما لم يشترط عند العقد
خلاف ذلك . ثم كان لم أنواع أخرى من الزواج هي أشبه شيء بالمساخنة لا يعقدها
إلا أولو الدعارة من الشباب . ويقرب من هذه الأنواع زواج كانت تعقده
السيوف والأسنة . وذلك أن أحدهما يلتقي رجلاً معه طليقة وليس من قبيلته
ولامن أحلافها، فيتقاتلان ، فإذا قهره أخذهامته سبية واستحلها بذلك . وكانوا
(١) الصنم ما كان على صورة إنسان من حجر أو فضة أو ذهب ، والوثن ما كان
جبراً غفلاً من الصنم .

يعددون بين الزوجات إلى حد غير معروف ، ويجلون الزوج من امرأة الأب ،
ومحرمون البناء بالبت والأخت والعمة والخالة . أما علاقة أبناء الأسرة بأبناء
القبيلة فجماعها مدلول هذه الكلمة الجاهلية : (أنصر أخاك ظلالاً أو مظلوماً)
على ما بين أبناء العم من تنافس وتباغض . ولكن الواحد للقبيلة والقبيلة للواحد .

وأما حالهم القليلة فقد كان التباينة في اليمن والمناخ والنساسة في الشمال
على حط من العلوم يدل عليه ما أقاموه من الدود ، وأحيوه من الأرض ،
وعمره من المدن . ولكن درجة رقيهم ، وحقيقة علومهم ، لا تزالان سرّاً
مطويّاً في جوف الأرض رءاء كشف عنه التنقيب عن الآثار بعد قليل ^(١) .

أما المدنانيون فقد كسبهم قوة الملاحظة ، وكثرة التجارب ، واضطراب
الحاجة ، طائفة من العلم المبني على التجربة والاستقراء والهم . فمروا الطب
والبيطرة والنجل لاتصالها بالحرب ؛ ولاحظوا الأنواء والنجوم والرياح لملاقتها
بالكلأ والنيث ، ولهتدوا بهافي ظلمات البر والبحر ؛ وعرّوا الأنساب والأخبار
والأشمار ، بحافظة على عصيتهم ، ونحداً بمفاخرهم ، وتخليداً لما ترمم ؛ ومهروا
في القراسة ^(٢) والقيافة ووصف الأرض ، لكشف الدق فيهم ، وطلب المخابر

(١) تدل الدلائل على أننا الآن في بدء عهد موفى لكشف آثار المتقدمين . فقد كان من
تأخر الحرب العالمية الأولى أن انقسم التنقيب الإنجليزى والفرنسى في بلاد العرب . وهما الأريون
واللوزيون من رءاء بنين من آثار الحضرة القديم في قراب فلسطين وسوريا ولبنان والعراق .
وقد بدت بتأثير النجاح في كشف الأستاذ مونتيفي الفرنسى لآثار جبل رمي آدم
مدينة فينيقية .

(٢) القراسة هي الاستدلال بالأمور الظاهرة على الأمور الخفية ؛ كالاستدلال بشكل القمر
ولونه وقوله على حاله ، فيستدلون بأشكال الجين على الذكاء ، وبسور القنا على البناء ، وبسبب
العين على الشج ، وينظرون التفتين على الإسراف في الحب والبشخ الخ .
والقيافة تسميان : لينة الأثر . وهي الاحتذاء إلى المخابر بأثار لدهم . وقيافة البصر ،
وهي الاستدلال بجثة الإنسان وحسك أمثاله على تبه .

منهم . ثم قادم الجانب الروحي فيهم إلى الاعتقاد بالسكينة^(١) والرافة والزجر ، فزغروا إلى السكينة في أمراضهم ، واستغنوا الرافين في أغراضهم ، حتى ذهب الإسلام بكل ذلك .

وحدة القول أن المجتمع العربي خارج القبيلة كان مفككا من الجهات السياسية والاقتصادية واللغوية ، مرتبطا من الجهات الخلقية والعقلية والأدبية . ولو ساغ لنا أن نحكم على العرب بمقتضى انتمهم وأدبهم لوجدنا لهم نفوسا كبيرة وأذهانا بصيرة وحسكة خيرة ومعارف واسعة كَوْنُوا أكثرها من نتاج قرائعهم ونار تجاربهم ؛ فإن انتمهم وهى صورة اجتماعهم لم تدع معنى من المعانى التى تتصل بالروح والفكر والجسم والجماعة والأرض والسماء وما بينهما إلا استوعبت أسماءه ورتبت أجزائه^(٢) . ووضع اللفظ لشيء دليل على وجوده وعلمه . ولم يرد ما يكون النمنم اللغوى إلا بمد تمدن اجتماعى راق فى حقيقته . وإن لم يرق فى شكله ، عام فى أثره وإن لم يعم فى أهله .

(١) السكينة والرافة مطالمة القريب والإنذار بالمحاذات الماضية والآنية وقد يخصون الكاهن يعلم المستقبل ، والراف يعلم الماضى . وكانوا يزعمون أن لهم أنبياء من الجن يسترقون السمع ويأتونهم بالأخبار ، فاشتد اعتقاد العرب فيهم وكثر التجاوزم إليهم ، يستشيرونهم فى المصلات ، ويستفتونهم فى الضمومات ، ويستطونهم فى المال ؛ ويستشيرونهم فى الرزى . ومن أشهرهم السكائن حتى وسطيح ، والرافان الأبلق الأسدى حراف تجمد ورياح ابن حجة حراف البمامة .

والزجر هو الاستدلال بصوت الحيوان وحركته وحالته على المحاذات ؛ فكان الرجل يصعد إلى الطائر مثلا فيرميه بحصاة أو يصيح به فإن ولاء طيراته مياسته مثلا تقابل به ، وإن ولاء مياسته تقاضم منه وتطير .

(٢) تجمد الامثلة على ذلك فى كتاب فقه اللغة لشمالي وكتاب المختص لابن سيدة .

الباب الأول

المعجم الجاهلي

الفصل الأول

نشأة اللغة العربية

اللغة العربية إحدى اللغات السامية . انشبت هي وهن من أرومة واحدة ، نبتت في أرض واحدة . فلما خرج الساميون من مهدهم لتكاثر عددهم اختلفت لغتهم الأولى بالاشتقاق والاختلاط ، وزاد هذا الاختلاف انقطاع الصلة وتأثير البيئة وتراخي الزمن حتى أصبحت كل لهجة منها لغة مستقلة .

ويقال إن أحيار اليهود هم أول من فطن إلى ما بين اللغات السامية من علاقة وتشابه في أثناء القرون الوسيطة ، ولكن علماء الشرقيات من الأوربيين هم الذين أئتمروا هذه العلاقة بالنصوص حتى جعلوها حقيقة علمية لا إيهام فيها ولا شك .

والعلماء يردون اللغات السامية إلى الآرامية والسكمانية والعربية ، كما يردون اللغات الآرية إلى اللاتينية واليونانية والسنسكريتية . فالآرامية أصل الكلدانانية والآشورية والسريانية ، والسكمانية مصدر المبرانية والقينقية ، والعربية تشمل المعصرية النصحى ولهجات مختلفة تكلمتها قبائل اليمن والحبشة . والراجح في أترأى أن العربية أقرب للصادر الثلاثة إلى اللغة الأم ، لأنها بانتمز لها عن العالم صلت مما أصاب غيرها من التطور والتنثير تبعاً لأحوال العمران .

وليس في مقدور الباحث اليوم أن يكشف عن أطوار النشأة الأولى للغة العربية ، لأن التاريخ لم يسايرها إلا وهي في وفرة الشباب والنماء . والنصوص

الجبرية التي أخرجت من بطون الجزيرة لا تزال لتندرتها قليلة الفناء ؛ وحدثت هذه الأطوار التي أتت على اللغة فوحدت لهجاتها وهذبت كلماتها معلوم بأداة النقل والنقل ، فإن العرب كانوا أميين لا تربطهم تجارة ولا إمارة ولا دين ، فكان من الطبيعي أن ينشأ من ذلك ومن اختلاف الوضع والارتجال ، ومن كثرة الحلق والترحال ، وتأثير الخلطة والاعتزال ، اضطراب في اللغة كالترادف ، واختلاف اللهجات في الإبدال والإعلال والبناء والإعراب وهنأت للنطق كجميعه^(١) قضاة ، وطمطانية خير ، وفتح هذيل ، وعمنة تميم ، وكشكشة أسد ، وقطمة طيء ، وغير ذلك مما باعد بين الألسنة وأوشك أن يقسم اللغة إلى لغات لا يتفاهم أهلها ولا يتقارب أصلها .

ولغات العرب على تمددها واختلافها إنما ترجع إلى لغتين أصليتين : لغة الشمال ولغة الجنوب . وبين اللغتين بون بعيد في الإعراب والضمائر وأحوال الاشتقاق والتصريف ، حتى قال أبو عمرو بن العلاء : « ما لسان خير بلساننا ولا لغتهم بلغةنا » . على أن اللغتين وإن اختلفتا لم تكن إحداهما بمعزل عن الأخرى ، فإن القحطانيين جلا عن ديارهم بمدسل المرم — وقد حدث عام ٤٤٧م كما حققه غلازر الألماني — وتفرقوا في شمال الجزيرة واستطاعوا بما لهم من قوة وبما كانوا عليه من رقي ، أن يخضعوا المدنانيين لسلطانهم في العراق والشام ، كما خضعوا من قبل لسلطانهم في اليمن . فكان إذن بين الشعبين اتصال سياسي وتجاري يقرب بين اللغتين في الألفاظ ، ويحانس بين اللهجات في المنطق ، دون أن تتغلب إحداها على الأخرى ، لقوة القحطانيين من جهة ، ولاعتصام المدنانيين

(١) البصيرة قلب الياء بيا بعد الين ويد الياء للشدة فيقولون في الراعي : رامج وفي كرسى : كرسج : والطمطانية جعل أم بدل آل في التصريف فيقولون في البحر : أمير ، وفي الصيام : أمصيام . والمضنة جعل الماء ميتا فيقولون : أمل الله الحلال ، بدل : أحل الله الحلال . والمضنة إبدال الميم من الميمزة إذا وقعت في أول الكلمة . فيقولون في أمان . عمان . والكشكشة جعل الكاف شونا في خطاب لأؤت فيقولون في عليك : عليكش والقطمة حذف آخر الكلمة فيقولون يا أبا الحسا في الحسن .

بالصحراء من جهة أخرى . وتطاول الأمد على هذه الحال حتى القرن السادس
للميلاد ، فأخذت دولة الحيريين تدول وسلطاهم يرول تغلب الأحباش على اليمن
طوراً وتسلط الفرس عليه طوراً آخر . وكان المدنايون حينئذ على قيعض هؤلاء
تنبها لهم أسباب النهضة والألفة والوحدة والاستقلال ، بفضل الأسواق والمج
ومنافسهم للحميريين والفرس ، واختلاطهم بالروم والحبشة من طريق الحرب
والتجارة ، فعرضوا لنهم وأدمهم على حير القليلة للفوية ، ثم جاء الإسلام
فساعد العوامل للتقدمة على نحو اللهجات الجنوبية وذهب القومية اليمنية ،
فاندثرت لغة حير وآدابهم وأخبارهم حتى اليوم .

لم تغلب لغات الشمال على لغات الجنوب لغسب ، وإنما استطاعت كذلك
أن تبرز إنما جنته عليها الأمية والمهجية والبدواة من اضطراب اللطق واختلاف
الذلالة وتمدد الوضع ، فتغلبت منها لغة قريش على سائر اللغات لأسباب دينية
واقتصادية واجتماعية أهمها :

(١) الأسواق : وكان العرب يقيمونها في أشهر السنة للبياعات والتسوق
وينتقلون من بعضها إلى بعض ، فتدعوهم طبيعة الاجتماع إلى للتارضة بالتقول ،
وللفاوضة في الرأى ، وللباهة بالشعر ، والمباهاة بالقصاحة ، والمفاخرة بالحماد وشرف
الأصل فكان من ذلك للعرب معونة على توحيد اللسان والمادة والدين والخلق ،
إذ كان الشاعر أو الخطيب إنما يتوخى الألفاظ العامة والأساليب الشائعة قصداً
إلى إفهام سامعيه ، وطعماً في تكثير مشاييمه . والرواة من ورثته يطربون شعره
بين القبائل وينشرونه في الأعحاء فتنتشر معه لهجته وطريقته وفكرته .

وأشهر هذه الأسواق عكاظ^(١) ومجنة وذو المجاز . وأولاهن أشهر فضلا

(١) عكاظ قرية بين مكة والطائف . بينها وبين مكة ثلاث مراحل اتخذت سوقاً منذ سنة
٤٠٠ للميلاد ، ثم بقيت في الإسلام إلى أن نهجها الغوارج سنة ١٢٢٩ هـ . ومجنة موضع أسفل
مكة بطريق أسفل . ذه المجاز بقى خلف عرفات . ولقد سبق الإغريق العرب إلى أمثال =

وأقوى أثرأى تهذيب العربية . كانت تقوم هلال ذى القعدة وتستمر إلى العشرين منه ، فتعد إليها زعماء العرب وأسماء القبول المتاجرة والنافرة ومفاداة الأسرى وأداء الحج . وكان كل شريف إنما يحضر سوق ناحيته إلا عكاظ فإنهم كانوا يتوافدون إليها من كل فج ، لأنها متوجههم إلى الحج ، ولأنها تقام في الأشهر الحرم ، وذلك ولأرب سرقوتها وسبب شهرتها . وكان مرجعهم في الفصل بينهم إلى محكين اتفقوا عليهم وخضعوا لهم فكانوا يحكون لمن وضع بيانه وفصح لسانه .

(٢) أثر مكة وعمل قريش :

كان لموقع مكة أثر بالغ في وحدة اللغة ونهضة العرب ، لأنها كانت في النصف الثاني من القرن السادس محطاً للقوافل الآتية من الجنوب تحمل السلع التواجر من الهند واليمن فيبتاعها المسكيون ويصرفونها في أسواق الشام ومصر . وكانت جواذ مكة التجارية آمنة لحزمة البيت ومكانة قريش ، فكان تجارهم يخرجون بقوافلهم الوفرة وغيرهم الدفترآتين ، فينزلون الأسواق ويهبطون الآفاق فيستفيدون بسطة في العلم ، وقوة في الفهم ، وثروة في المال ، وخبرة بأمور الحياة . وهي مع ذلك متجبرة للعرب ومثابة للناس يأتون إليها من كل فج عميق رجالا وعلى كل ضامر ليقضوا مفاسكهم ويشترؤا مراقهم مما تنتجه أو تجلبه . ذلك إلى أن قريشا أهلها وأسماءها كانوا المسكانتهم من الحضارة وزعامتهم في الحج ، ورياستهم في عكاظ ، وإبلاغهم رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى حوران

== لهذه الجامعة باحة عادم في الجناسيوم لإلألاب الدينية الأولية التي كانوا يجذبونها كل أربع سنين كلا حيوا ميكل المشتري Jupiter في أولمبية . وكانوا يجرمون القتال على أنفسهم في أناتها على نحو ما يفعل العرب في الأشهر الحرم . فلما امتدت في لهم الأمر وتأيد للاله كانت عافة أمرها أن أصبحت أندية لإنشاء أحمارهم وعرض أنسكارهم . ومن أثر ذلك يطلق لفظ الجناسيوم على دور التلميح في أوروبا وعلى الأخص في ألمانيا .

أشد الناس بالقبائل ارتباطاً ، وأكثرهم بالشعوب اختلاطاً . كانوا يخلطون بالحبشة في الجنوب ، وبالفرس في الشرق ، وبالروم في الشمال . ثم كانوا على أئارة من العلم بالكتب للفرقة : باليهودية في يثرب وماجاورها من أرض خيبر ونياء ، وبالنصرانية في الشام ونجران والحيرة ؛ فتهيأت لهم بذلك الوسائل لتقافة اللسان والفكر . ثم سمعوا للناطق المختلفة ، وتدبروا للمعاني الجديدة ، ونقلوا الألفاظ للمستعذنة ، واختاروا لنفسهم من أفصح اللغات ، فكانت أعذتها لفظاً ، وأبلغها أسلوباً ، وأوسعها مادة ^(١) ، ثم أخذ الشعراء يؤثرونها وينشرونها حتى نزل بها القرآن الكريم قائم لها القديوع والغلبة .

(١) ذكر صاحب المقد الفريد أن معاوية قال يوماً لجسائه أي الناس أفصح ؟ فقال رجل من الساط بأمر المؤمنين ، قوم قد ارتفعوا عن رثة العراق ، ونباسروا عن كشكة بكر . ونباسروا عن نشفة تلب ؛ ليس فيهم غفمة قضاة ولا طمطانية حير : قال من هم ؟ قال هو ملك بأمر المؤمنين قريش .



الفصل الثاني النثر

النثر أسبق أنواع الكلام في الوجود اقرب تناوله ، وعدم تقيده ، وضرورة استعماله . وهو نوعان : مسجّع إن ألزم في كل فقرتين أو أكثر قافية ، ومرسل إن كان غير ذلك . وقد كان العرب ينطقون به مبرأ غير ملحون لقوة السليقة ، وقبل الرواية ، وقلة الاختلاط بالأعاجم . ألهم الإهتات للنطق فقد اختلفت لأسباب طبيعية في الترفيق والتفخيم والإبدال والإمالة . ولم يكن الرواة من مثورهم على كثرته إلا بما علق بالذهن لفاسته وبلاغته وإيجازه ، كالأمثال والحكم والوصايا والخطب والوصف والأقاصيص .

فاللحجة مقطعة من القول أو مرسله نذاتها تنقل عن وردت فيه إلى مشابهه بدون تنيير . وهذا النوع خاص بالعرب لانتزاعه من حياتهم الاجتماعية وحوادثهم الفردية ، كقولهم : وافق شئ طيبة . ولأمر ما جدد قصير الله . ويداك أو كتاك وفوك تفخ . وقد تماقت العلماء على جمعها وشرحها . وأشهر هؤلاء الليداني المتوفى سنة ٥١٨ هـ ، فقد جمع كتابه : [مجمع الأمثال] من نحو خمسين كتاباً ، وكاد يستوعب فيه للأثور من القديم وللشهور من الحديث ورتبه على حروف المعجم .

والحكمة قول رائع موافق للحق سالم من الحشو . وهي ثمرة الحكمة ونتيجة الخبرة وخلاصة التجربة ، كقولهم : اخطأ زاد المجهول . من سلك الجبلد أرين المثار . عي صامت خير من عي ناطق .

والخطبة والوصية كلثاما يراد بها الترفيب فيما ينفع وعما يضر ، إلا أن الأولى

تكون على ملاء من الناس في الجامع والواسم . والأخرى تكون لقوم معينين في زمن معين ، كوصية الرجل لأهله عند النفقة أو الموت .

مميزات النثر الجاهلي

يمتاز النثر في الجاهلية بمجراته مع الطبع ، فليس فيه تكلف ولا زُخْرُف ولا غُلُو . يسير مع أخلاق البدوى وبيئته ، فهو قوى اللفظ ، متين التركيب ، قصير الجملة ، موجز الأسلوب ، قريب الإشارة ، قليل الاستعارة ، سطحي الفكرة . وربما تساوت فيه الحكيم والطردت الأمثال من غير مناسبة قوية ولا صلة متينة .

الخطابة

الخطابة كالشعر لحمتها الخيال وسدأها البلاغة . وهي مظهر من مظاهر الحرية والقروسية ، وسبيل من سبل التأثير والإقناع . نحتاج إلى ذلاقة اللسان ونصاعة البيان ، وأناقاة اللمعة ، وطلاقة البديهة . والعرب ذوو نفوس حساسة وإباء ، وأولو غيرة ونجدة . فكان لهم فيها القدم السابعة والقدح المملئ . وقد دعاهم إليها مادعا الأتم البدوية من الفخر بحسبها ونجارها ، والدود عن شرفها وذمارها ، وإصلاح ذات البين بين الحيين ، والسفارة بين رهوس القبائل وأقباها ، أو بين الملوك ومالهم . وكانوا يدربون فتيانهم عليها منذ الحداثة ، ويحرصون على أن يكون لكل قبيلة خطيب يشد أزرها ، وشاعر يرفع ذكرها . وربما اجتمع الصفتان في واحد .

أما أسلوبها فكان رائع اللفظ ، خلاب العبارة ، واضح المنهج ، قصير السجع ، كثير الأمثال . وم إلى قصارها أميل لتسكون أعلق بالصدور وأذيع . ومن عادتهم فيها الوقوف على نشز من الأرض أو القيام على ظهر دابة ،

ورفع اليد ووضعها ، والاستمانة على المبارة بالإشارة ، واتخاذ المحاصر بأيديهم ؛
والاعتقاد على الصفاح والرماح أو الإشارة بها .

وكانوا يحبون من الخطيب أن يكون حسن الشارة ، جدير الصوت ، سليم
اللتلق ثبت الجنان . وأشهر خطبائهم في هذا العصر قس بن ساعدة الإيادي ،
وعمر بن كلثوم التميمي ، وأكثم بن صيفي التميمي ، والحارث بن عباد البكري ،
وقيس بن زهير العبسي ، وعمر بن ممد يكرب الأيدي ، وحبنا أن نترجم
لخطيبين من أعلامهم ووقوفاً بالطالب عند الفرض من هذا المختصر .

الخطباء

قس بن ساعدة الإيادي

المتوفى سنة ٦٠٠ م

ميانه : هو أسقف بجران وخطيب العرب وحكيمها وحكمتها . كان يؤمن
بالله ويدعو إليه بالحكمة والموعظة الحسنة . ويقال إنه أول من خطب على
شرف ، واتسكا على سيف ، وقال في خطبه أما بعد . سمع النبي صلى الله عليه
وسلم في عكاظ فأتى عليه . وروى أنه قال فيه : « رحم الله قسا إني لأرجو
يوم القيامة أن يبعث أمة وحده » . وكان يفد على قيصر من حين إلى حين
فيكرمه . ولكنه صدف عن الدنيا وعاش على الكفاف يمد الله ويمط النفس
حتى توفي سنة ٦٠٠ م ، وقد عمر طويلا .

أسلوبه : إن صبح ما أثر عنه من النثر فقد كان أسلوبه مطبوعاً مسجوعاً ،
شديد الروعة ، متخير اللفظ ، قصير القواصل . يمد فيه إلى ضرب الأمثال
واستنتاج المعبر من مصارع العنقاء وظواهر الكون . وله شعر يجمع إلى الجزالة
روعة التعبير وقوة التأثير كما يتجلى ذلك فيما سنورده من كلامه .

قال من خطبته في سوق عكاظ :

أيها الناس اسمعوا وعوا ، إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو
آت آت . إيل داج ، ونهار حاج ، وسما ذات أبراج ، ونجوم تهر ، وبحار ترخر ،
وجبال مرسان ، وأرض مدحاة ، وأنهار مجراة . إن في السماء ظهرا ، وإن في الأرض
لهيρα . ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟
يامعشر إياد ، أين الآباء والأجداد ، وأين الفراعنة الشداد ؟ ألم يكونوا أكثر
منكم مالا وأطول آجالا ؟ طعنهم الدهر بكل كلة ، ومزقهم بتطاولة .

في الدهيين الأولي ن من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد الموت ليس لها مصادر
ورأيت قوى نحوها يسى الأصغر والأكابر
لا يرجع الماضي إلى ولا من الباقيين غابر
أيقنت أنى لا يحا له حيث صار القوم صائر

ومن حكمهم : من عيرك شيئا ففيه مثله . ومن ظلمك وجد من يظلمه . وإذا
نهيت عن الشيء فابدأ بنفسك . وكان عف القيلة مشترك النفي . ولا تشاور
مشغولا وإن كان حازما ، ولا جائعا وإن كان فهما ، ولا مذعورا وإن كان
ناحما . ومن شمعه قوله يرى أخوين له وقد وقف على قبريهما يدبر سمعان :

خليلي هبا طالما قد رقدتما أجدا كما لا تنفيان كراكما
ألم تملأ أي بسمان مفرد ومالي فيه من حبيب سواكما ؟
أقيم على قبريكما لست بارحا طوال الليالي أو يحجب صداكما
جري للموت مجرى اللحم والمظم منكما كأن الذي يسقى العقار سقاكما !

فلو جُمِلت نفسٌ لنفسٍ وقايةٌ لجلتُ بنفسى أن تكون فداكا
سأبكيكما طول الليالى وما الذى يرد على ذى عوة إن بكأكما

عمرو بن معد يكرب الزبيدى

للتوفى سنة ٦٤٣ م

حياته : عمرو بن معد بكرب الزبيدى فارس المين وخطيب العرب وبطل
القادسية ، ينهى نسيه إلى قسطنطين ويكفى أبانور . لقي النبي صلى الله عليه وسلم
لدى معصرته من تبوك سنة تسع من الهجرة فأسلم هو وقومه ، ولكن قابلا
شاب فى الجاهلية الجلاء ، ورتج فى الدماء والأشلاء ، واستهتر فى اللهو والصهبا ،
لا يقبل على الدين بإخلاص وصدق ، فارتد بعد إسلامه . ثم رجع إلى الحق
وجاهد فى سبيل الله حتى جهاده . ثم شهد القادسية وعمره على ما قيل عشرين
ومائة ، فأبلى فيها بلاء حسنا . ثم توفى فى أواخر خلافة عمر بن الخطاب سنة ٦٤٣ م .

صفته ومنزته : كان قويا بدنيا أكولا ، وكان سيدا مطاعا وبطلا شجاعا
وخطيبا شامرا . يعد فى الطبقة الثانية من الشعراء ، وفى الأولى من الخطباء ،
ويطلب فى شعره التحدث عن نفسه بالشجاعة . يقال إن النعمان بن النضر أرسله
فحين أرسل من سراة العرب إلى أنوشير وأن بلدائن ليكون كلامهم بين يديه
مصداقا لحواره فى العرب واقتضاه بهم وتقضيه إليهم فألقى هذه الخطبة :

إنما لار بأصغريه : قلبه ولسانه ، فبلاغ للطلق السداد ، وملوك النجمة
الارتداد ، وعضو الرأى خير من استكراه الفكرة ، وتوقيف الخبرة خير من
اعتساف الخبرة . فاجهد طاعتنا بلفظك ؛ واكظم بادرتنا بحلمك ، وألن لنا
كفكفك يلمن لك قيادنا ، فإننا أناس لم يوقص صماتنا قراع مناقير من أراد
لنا قضا ، ولكن مدعا حمانا من كل من رام لنا هضا .

ومن شعره قوله في أبي المرادى وقد توعدده :

أعذلَ شِكتي بذي ورمحي وكلُّ مُعَلَّصٍ سلس التمياد
أعذلَ إنما أفنى شبابي وفرَّح عاتقِي قتل العباد
تمناني ليلتاني أني ودِدْتُ وإينا مني ودادي
ولو لاقيتني ومعى سلاحي فكشف شعْمَ قلبك عن سواد
أريد حياتَه ويريد قتلِي عَذِرَكَ من خيلك من مُراد
وقوله :

ليس الجمل بمنزَّر فأعلم وإن ردَّيت بُردا
إن الجمل معادن ومناقب أوزن مجدا
أعددت للعبدان سا بمةً وعداء علقدي
نهذاً وذا شُطْبٍ يقدَّ الأبيض والأبدان قدا
كم من أخ لي صالح برأته بيدي لحدا
ما إن جزعت ولا هله مت ولا يرد بكاي رشدا
ذهبَ الدين أحهم وبقيت مثل السيف فردا

نماذج من النثر الجاهلي

من امرئال

قالت العرب في أمثالها :

(إذا سَلَسَ الجملُ فَالْتَيْبُ هَدَرَ) أي إذا سلم ما ينتفع به هان ما لا ينتفع به .
(إن كنت ربحاً فقد لاقيت إعصاراً) يضرب للمدل بنفسه إذا منى بمن هو أدنى منه

(إنك لا تخفى من الشوك العنب) أى لا تجد عند ذى اللبث سوء جملا .
 (ذكرنى فوك حمارى أهلى) أصله أن رجلا خرج يطلب حمارين ضالاه ،
 فرأى امرأة فأعجبته ، فتسلى الحارين . فلما أسفرت
 عن وجهها رأى فيها قبيحا فقال هذا المثل .

(تجشأ لقمان من غير شيع) يضرب لمن يدعى مالىس يملك .
 (رمقى بدائها وانسلت) يضرب لمن يُعير الآخر بما يُؤهره .
 (رب كلة تقول لصاحبها دعنى) يضرب فى الهوى عن الإكثار مخافة الإجهار
 (أسر حسوا فى ارتشاء) يضرب لمن يريك أنه يمينك وهو يجر النفع
 إلى نفسه . وأصله أن الرجل يؤتى بالبن فيظهر
 أنه يريد الرغوة خاصة فيشر بها وهو فى ذلك
 يقال من اللبن .

أوسمهم سببا وأودوا بالابل) أصله أن رجلا أغير على إلهة فأخذت ، فلما
 توارى المفيدون بها صعدا ككة وجعل يسبهم ثم
 رجع إلى قومه فسألوه عن إلهه ، فقال هذا للتل .
 (أحسقا وسوء كيلة ؟ .) يضرب لمن يجمع بين خصلتين مكروهتين .
 (قد يحمل المير من دعر على الأسد) يضرب لمن يأخذ الدهش والرؤع فحمله على
 مالىس من طبعه .
 (قبل الرقى يراش السهم .) يضرب للاعتماد للأمر قبل نزوله .

من الحكم

ومن حكم العرب قولهم : - صارع الرجال تحت بروق الطمع . كلم اللسان
 أنسكى من كلم اللسان . رب عجلة تهب ريثبا . العتاب قبل العقاب . التوبة

تفلس الحوبة من ملك الجدد أمن النار . أول الحزم الشورة . رب قول اتقذ
من صول . أبجز حرث ما وعد . أترك الشر يتركك . من ضاق صدره اتسع لبانه .
يدك منك وإن كانت شلاء . رب ملوم لا ذنب له . من مأمته يؤتى الحذر .

الخطب

قال هانيء بن قبيصة الشيباني لقومه بحرهم ، وهو يدلك على مذهب
الجاهليين في الفتر من تفكك الماني وضعف ارتباط الملج :

يا مشركر أهالك معذور ، خير من ناج فرور . إن الحذر لا ينجي من
القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر . اللية ولا الدنية . استقبال الموت خير من
استدباره . الطمن في ثمر الصحور ، أكرم منه في الأعجاز والظهور . يا آل بكر ،
قاتلوا فما من المنايا بد ! .

وخطب عبد الطلب عند سيف بن ذي يزن بعد انتصاره على الحيشة قال :
إن الله تعالى أيها الملك أحلك محلا رفيقا ، باذخا شامخا ، وأنبطك مديقا طابت
أرومته ، وعزت جرمومته ، ونبل أصله ، ويسق فرعه ، في أكرم مدن وأطيب
موطن . فأنت أبيت الأمن رأس العرب وربيمها الذي به تمصب ، وملكها الذي
به تنقاد ، وعمودها الذي عليه البلاد ، ومعقلها الذي إليه تلجأ البلاد . سلفك خير
سلف ، وأنت لنا بعتة خير خلف ، ولن يهلك من أنت خلفه ، ولن يخيل من
أنت سلفه . نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذي
أبهجنا بكشف الكرب الذي فدحنا فتنن وفد التهيئة لا وند المرزنة .

من الرصايا

أوصى زهير بن جناب الكلبي بنيه قال :

يا بني قد كبرت سنى ، وبلغت حرصا من دهري ، فأحكمتي التجارب ،

والأمور تجربة واختبار . فاحفظوا على ما أقول وعوه . وإياكم والخور عند
للصائب ، واتوا كل عند البواب ، فإن ذلك داعية للنم ، وشئانة للعدو ،
وسوء ظن بالرب . وإياكم أن تكونوا بالأحداث مقترين ، ولها آتين ، ومنها
ساخرين ، فإنه ماسخر قوم قط إلا ابتلوا ، ولكن توقموا ، فإن الإنسان في
الدنيا غرض تعاوده الرماة . فقصر دونه ، وعجاوز أوضمه ، وواقع عن يمينه
وشماله ، ثم لا بد أن يصيده .

وأوصت أعرابية ابنتها ليلة زفافها قالت :

أى بنية ! إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لكك منك . ولكنها
تذكرة للنافل ، وممونة للعاقل . ولو أن امرأة استفتت عن الزوج لفتى أبوها ،
وشدة حاجتهما إليها ، لكنت أغنى الناس .

أى بنية ! إنك فارت الجوالدى منه خرجت ، وخلقت المش الذى فيه
درجت ، إلى وكرلم ترفقيه ، وقرين لم تألفيه . فاحلى على عشر خصال تكن لك
ذخراً : احببيه بالشفاعة ، وعاشريه بحسن السمع والطاعة ، وتمهدى موقع عينيه
فلا تقع عينه منك على قبيح . ثم اعرفى وقت طعامه ، واهدنى عند منامه . فإن
حرارة الجوع ملهبة ، وتنقيص النوم مبغضة . ثم انق مع ذلك الفرح أمامه
إن كان ترحاً ، والاكتئاب عنده إن كان فرحاً ، فإن الخصلة الأولى من التقصير ،
والثانية من التكدير . وكوى أشد الناس له إعظاماً ، يكن أشدهم لك إكراماً .
واعلم أنك لانتصلين إلى ماتحين حتى تؤزى رضاه على رضاك ، وهواه على
هواك ، فبأحبيت أو كرهت . والله يخير لك .

وأوصت أعرابية ولدها قالت :

أى بنى ! إياك والهميمة ، فإنها تزرع الضميمة ، وتفرق بين المحبين . وإياك
والتعرض للديوب فتتخذ غرضاً . وخاليق الا يثبت الغرض على كثرة السهام ،

وقلنا اعتورت السهام غرضاً إلا كلمته حتى يعي^(١) ما اشتد من قوته وإلباك
والجود بدينك والبخل بمالك . وإذا هرزت فاهرز كريماً يلن لهزتك ، ولا تهزز
لثيماً فإن الصخرة لا ينفجر ماؤها . ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك
فاعمل به ، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه ، فإن المرء لا يرى عيب نفسه .
ومن كانت مودته بشرة وحالف ذلك منه فله ، كان صديقه منه على مثل
الريح في تصرفها . والقدر أفتح ما تعامل به الناس بينهم . ومن جمع الحلم
والسخاء فقد أجاد الصلة رَبطها وسر بالها^(٢) .

(١) يعي : يصف .

(٢) كل توب رقيق يشبه اللحفة . والسر بال التنبص .



الفصل الثالث

الشعر

تعريفه وأوليه

الشعر هو الكلام للوزون المقفى المدبر عن الأخيلة البديعة والصُّور المؤثرة البليغة . وقد يكون نراً^(١) كما يكون نظماً . والشعر أقدم الآثار الأدبية ههنا . لعلاقته بالشعور وصلته بالطبع ، وعدم احتياجه إلى رقى في العقل ، أو تعمق في العلم ، أو تقدم في للدنية . ولكن أوايته عند العرب مجهولة ، فلم يقع في سماع التاريخ إلا وهو محكم مُقَصَّد . وليس مما يَسُوغ في العقل أن الشعر بدأ ظهوره على هذه الصورة الناصبة الرائعة في شعر الهمائل بن ربيعة وامرئ القيس ، وإنما اختلفت عليه المصنُّ وتقلبَت به الحوادث وعملت فيه الألسنة حتى تهذب أسلوبه وتشعبت مفاحيه^(٢) ولظنون أن العرب خطوا من الرسل إلى السجع^(٣) ومن السجع إلى الرجز ، ثم تدرجوا من الرجز إلى القصيد . فالسجع هو الطور الأول

(١) العرب يرفقونه بهذا المعنى كما مره العبران واليونان والفرنج فقالوا : « الشعر شئ تجبئ به سدورتا فتخذه على ألسنتنا . وقال حسان لابنه : « شعر روب الكعبة » حين صممه صنف زنبورا لسمه بقوله : كأنه ملتف لي بردى حيرة » فهم يظنون الشعر على القتر للسجوع للفتل على الخيال المؤثر في الوجدان . وعلى هذا النحو سموه القرآن شعراً والرسول شاعراً .

(٢) مما يدل على أن الشعر قدح العهد قول امرئ القيس :

مرجاً على الطلل القديم لئلا
يبكى الديار كما يبكى ابن حزام
وقول منيرة :
حل خادر الشعراء من مقدم
وقول زمير :
ما أرانا نقول إلا مواراً
أو مهاداً من قولنا مكروراً

(٣) قال الباقلاقي في كتابه إعجاز القرآن : إن العرب بدأوا بالشِّر وتوصلوا منه إلى الشعر وكان منورهم عليه في الأصل بالاتفاق غير مقصود إليه ، فلما استحسنوه واستطابوه ورأوا الأسباع تألفه والنفوس تنبته تبعوه وتملوه وتكفوا له .

من أطوار الشعر توخاه الكهان مناجاة للآلهة ، وتقييداً بالحكمة ، وتمعية للجواب .
 وقتنة للسامع . وكهان العرب ككهان الإغريق هم الشراء الأولون ، زعموا
 أنهم مهبط الإلهام ، وأنحياء الآلهة ، فكانوا يسترحسونها بالأناشيد ، ويستلمونها
 بالأدعية ، ويخبرون الناس بأسرار الغيب في جبل مقفأة موقفة أطفوها عليها
 اسم السجع تشبيها لها بسجع الحمامة لما فيها من تلك النغمة الواحدة البسيطة .

فلما ارتقى فيهم ذوق الفناء ، وانتقل الشعر من اللابد إلى الصحراء ، ومن
 الدعاء إلى الخداء ، اجتمع الوزن والقافية فكان الرجز^(١) .

ثم تعددت الأوزان بتمدد الألحان ، فكان للحماسة وزن ، وللغزل وزن ،
 وللمزج وزن ، وهكذا إلى سائر الأوزان التي حصرها الخليل بن أحمد في
 خمسة عشر وزناً^(٢) سماها بمجوراً .

فأنت ترى أن الشعر مصدره الفناء ، وفي أخذهم السجع من هديل الحمامة .
 والرجز من إيقاع مشي الناقة ، ولفظ الشعر من (شير) العبرية بمعنى الترتيلة
 أو التنبؤية ، وقولهم إلى الآن : أنشد الشعر بمعنى ألقاه ، ما يؤكد ذلك .

الشعر والحرب

العرب أشعر الساميين فطرة ، وأبلىهم على الشعر قدرة ، لانساع لسانهم للقول ،
 وملامة يشتم للخيال ، وصفاء قريحتهم ، وسذاجة معيشتهم ، وقوة عصبيتهم

(١) الرجز أول ما نظمته العرب الخداء : والقالب في التثنى أنه مأخوذ من سم الجمل
 وحزته ، لشدة اللاواقفة بين تفضيه وخلوته . وبزعم العرب أن أول من نال من الله ضرر بن نزار
 حين سقط عن جبل فأنكسرت يده فخلوه وهو يقول : وايداه ! وايداه ! وكان من أحسن
 خلق الله صوتاً ، فأصفت الإبل إليه وجدت في السير . فقطعوا على هذا الوزن لمن الخداء
 وسموه الرجز . ومن أمثله قول الرازي .

دع للطايا نسف الجنوا إن لما لنياً حياً حنيها وما اشتكت نوباً
 يشهد أن قد فارقت حياً ما حملت إلا فني كشيء يسر عما أعلنت نصياً
 لو ترك الفوق لنا فلوباً إنني لأتولوا بين أنبيا إن التريب يسد القريباً
 (٢) زاد الأحمس عليه مجراً بعد ذلك سياه للتدارك .

وكل حريتهم ، وخلق جزيرتهم مما يصد الفكر عن التأمل ، ويعوق ذهنه عن التفكير ، فهم بين الصحراء والسماء في فضاء من الانهائية يملأ ذهن والنفس خيالاً وجلالاً وروعة . وهم فوق ذلك ذوو هوس شاعرة ، وطباع نائرة ، يستفزهم الرغب والرهب ، ويزدهيم الطرب والغضب ، فلم يتركوا شيئاً بحول في النفس أو يقع تحت الحس الانظموه ، فكان الشعر ديوان علومهم وحكمهم ، وسجل وقائهم وسيرهم ، وشاهد صوابهم وخطأهم ، ومادة حوارهم وسمهم وكانوا كلهم يروونه ، وجلهم يقرضونه غفو الهدية وقيض الخاطر^(١) حتى روى عنهم من الشعر الوجداني ما لم يرو عن أمة من أمم الأرض مثله . فلا بدع إذا كان الشاعر ينوهم ويرشدهم ، والبيت الواحد يقيمهم ويقدمهم . والأمثال في التاريخ مستفيضة على تأثير الشعر في نفوسهم ، ومنزلة الشاعر من قلوبهم ، كحديث الأعشى مع الملتقى وحسان مع بنى عبد لئدان ، والحطيئة مع بنى أنف الناقة .

أنواع الشعر وأغراضه

أنواع الشعر ثلاثة : شعر غنائى أو وجدانى Lyrique وهو أن يستمد الشاعر من طبعه وينقل عن قلبه ويعبر عن شعوره . وشعر قصصى Epique وهو نظم الوقائع الحربية والمفاخر القومية في شكل قصة ، كالإلياذة والشاهنامة . وشعر تمثيلى Dramatique وهو أن يمدد الشاعر إلى واقعة فيتصور الأشخاص الذين جرت على أيديهم وينطق كلا منهم بما يناسبه من الأقوال . وينسب إليهم

(١) هل أن من الشراء من كانوا يروون . ويتعنون فصولهم ميد الشعر ذلك . كزعمه وعدي بن الرفاع والحطيئة . قال عدي بن الرفاع :
وقصيدة قد بت أجمع بيتها حتى أقوم ميلها وسنادها
نظر للتفت في كسوب قنائه حتى يقسم تلاله متاعدا
وقال سويد بن كراع :
أبيت بأبواب الفواقي كأنما أصادى بها سرىا من الوحش ترما

ما يلاحظه من الأفعال . واختلفنا أسبق هذه الأنواع إلى الظهور ؛ لأن الشعر أصله الغناء كما علت . والإنسان إنما يشعر بنفسه قبل أن يشعر بغيره ، ويتمنى بمواقفه قبل أن يتمنى بمواقف سواه ^(١) .

ولما كان الشعر مادته الخيال ، والخيال غذائه الحس ؛ والعربي لا يرى من المنظر غير وجوه البادية ، ولا يسمع من الأفاقيص إلا البطولة والحرب ، ولا يعرف من الجمال إلا جمال المرأة ، أبدع في وصف ما شاهده من حيوان وسهل وجبل ، وأجاد التعبير عن عاطفة الحاسة يوم الخصومة والجلد ، وتفنن ما شاء له الحب في التشبيب والفرل : فالشعر العربي غنائى محض ، لا يعنى الشاعر فيه إلا بتصوير نفسه ، والتعبير عن شعوره وحسه . والمواقف تتشابه في أكثر القلوب ويكاد التعبير عنها يتفق في أكثر الألسنة . ومن ثم نشأ فيه التكرار ، وتوارد الخواطر ، والسرقة ، ووحدة الأسلوب ، وتشابه الأثر . وكان من الحق أن يقول زهير :

ما أرانا نقول إلا معاراً أو معاداً من لفظنا مكروراً

أما الشعر القصصى والتمثيلى فلا أثر لها فيه ، لأن مزاويلهما تقتضى الروية والفكرة ، والعرب أهل بدئية وارتجال ؛ وتطلب الإلحاح بطيائع الناس ، وقد شنوا بأنفسهم عن النظر فيمن عداهم ؛ وتفرقت إلى التحليل والتعويل ، وهم أشد الناس اختصاراً للقول وأقلهم تعمقاً في البحث . وقد قل تعرضهم للأسفار البعيدة والأخطار الشديدة ، وحرمتهم طبيعة أرضهم ، وبساطة دينهم ، وضيق خيالهم ، واعتقادهم بوحداية لهم ، كثرة الأساطير وهى من أغزر ينابيع الشعر القصصى ، فزخرت بحور الشعر العربى بالفخر والحاسة والمدح والمجاء والثناء والعتاب والفرل

(١) جاء في كتابات تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ، وكتاب (فى الأدب الجاهلى) والمجلد فى تاريخ الأدب العربى . أن الشعر القصصى أسبق من الغنائى ، وهو زعم لا مصدر له ولا دليل عليه . فإن العلماء يكادون يحملون الغنائى أسلاً والقصصى والتمثيلى شكليته من أشكاله .

والوصف والاعتذار والحكمة ، وخلاصع انصاعه وتشمب أغراض من الملاحم
المطولة^(١) التي تعلن المآخر القومية وتشيد بذكر الأبطال والقروسية كالإلياذة^(٢)
للليونان ، والإنياد للرومان ، ومهاجراته للهوند ، والشاهنامة للفرس .

مميزات الشعر الجاهلي

وعونة الصحراء وخشونة العيش ، وحرية الفكر ، وطبيعة الجو ، وسذاجة
البدو ، كل أولئك طبع الشعر الجاهلي بطابع خاص ووسم بسمه ظاهرة . فن
خصائصه الصدق في تصوير الماطقة ، وتمثيل الطبيعة ، فلا يجد فيه كلفا بالزخرف
ولا تكلفا في الأداء ؛ فكثير لذلك الإيجاز ، وقل المجاز ، وندرت المبالغة وضعت
العناية ببيان الفكر على سنن المنطق واقتضاء الطبع : فملائق الماني واهنة
واهية ، ومساق الأبيات مفكك مضطرب . فإذا حذف أو قدمت أو أخرت
لا تشمر القصيدة بشو به أو قص ؛ وذلك لأن البدو بطبيعتهم يمزجهم النظر

(١) قال صاحب الفن السائر في مرض كلامه عن الإمالة وعجز الشاعر عنها : « إن
وجدت العجم يفضلون العرب في هذه التكنة . فإن شاعرهم يذكر كتابا مصنفا من أوله إلى
آخره خمرأ وهو شرح لمسى وأحواله . ويكون مع ذلك في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة
القوم كما فعل الفردوسي في نظم الكتاب للعروب بشاعناته ، وموسون ألف بيت من الشعر
يشتمل على تاريخ الفرس ، وهو قرآن القوم . وقد أجمع فسحاؤهم على أنه ليس في لنهم
أفصح منه ، وهذا لا يوجد في اللغة العربية على الصاعها وتشمب فنونها ، وعلى أن لغة العجم
بالنسبة إليها كقطرة من بحر .

(٢) الإلياذة ملحمة يونانية نظمها هوميروس في حروب طروادة . وهي تمثل الحضارة
اليونانية القديمة أصدق تمثيل . والإنياد L'énéide ملحمة نظمها فرجيل أكبر شعراء
الرومان (٧٠ - ١٩ قبل الميلاد) . لقد بها إلياذة هوميروس فأبدع . وللهيادراته ملحمة
هندية نظمها (نياسه) أحد كهان الهنود باللسان السنسكريتي قبل الميلاد بقرون يشب فيها
المحروب التي نشبت بين البانفادس والسكروروس ؛ وهي تبين مائتي ألف بيت : والشاهنامة
ملحمة فارسية نظمها المسى بن إسحق الفردوسي للتوق سنة ٤١١ هـ في تاريخ الأكاسرة
وأخترهم ، ووصف الحرب التي اشتملت بين أهل إيران وأهل طوران . وقد قلبا إلى العربية
فقرأ التفتح بن علي البنداري الأصمباني وقدمها إلى خزانة أحد الملوك الأيوبيين . وقد نشرها
وقدم لها وأعياها وعليها المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام سنة ١٩٣٤ بالقاهرة .

الفلسفي فلا يرون الحوادث والأشياء إلا مجردة لا ينظمها - لك ولا تجمعها علاقة .
ومن ثم كانت وحدة النقد عند أدباء العرب البيت لا القصيدة . ومنها احتمال
الغريب ومقارنة التركيب وجزالة اللفظ ؛ لتأثرهم بمظاهر المظلة والقوة البادية
في طباعهم ونظام اجتماعهم . والابتداء بذكر الأطلال والديار ، لأنهم أهل خيام
ومضارب ، وألأف اجتماع وظنن ، فلا يكاد الشاعر يمر بمكان حتى يذكر عهداً
قضاء فيه ، وأحبة رحلوا عنه . فتنبهه الذكرى فيحييه ويبيكه . والشعر الجاهلي
على الجملة كثير التشابه قليل التنوع يجري في حابة واحدة من السماع والتقاليد .

الرواية والملفات

للروى من الشعر الجاهلي على قصر عهده للمروف يفوت الجمع وتضييق عنه
الحافظة . على أن كثيرين من رواته ذهبت بهم حروب الفتح فذهب معهم شعر
كبير منه . قال أبو عمرو بن السلاء : ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله .
ولوجاءكم وانفرا الجاءكم علم وشعر كثير . ولكن هذه الكثرة متهمة وروايتها
مرعبة ، فإن الشعر لم يدون إلا في أوائل القرن الثاني للهجرة ؛ وإن في قله على
الألسنة ، طوال هذه الأزمنة ، مظنة للتبديل والاختلاق والتزويد . وفيما روى
عن حماد الراوية وخلف الأحمر بن عبيد بن الشعر واقتملها إياه مساع لهذا الظن .
ولعل القصائد التسع والأربعين التي جمعها أبو زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب
أصح الشعر القديم رواية وأصدقها تمثيلاً لأسلوبه ومهاجته . وأبعد هذه القصائد
مدى في الرواية ، وأوفرها حفظاً من الحفظ والمنايا ، الملفات أو للذهبات
أو السوط . وعن على الرأي الثالب سبع قصائد يزعم جمهور المؤرخين أن العرب
اختارنها فكتبها بماء الذهب على القباطي ، ثم علقها بالكعبة إجماعاً بها وإشادة
بذكورها . وقد بقي بعضها إلى يوم فتح مكة وذهب بالبعض الآخر حريق أصاب
الكعبة قبل الإسلام : وأصحابها هم امرؤ القيس ، وزهير بن أبي سلمى ، وطرفة
ابن العبد ، ولييد بن ربيعة ، وعنقرة بن شداد ، وحمرو بن كلثوم ، والحارث

ابن حِلْزَة . ومن الناس من ينكر تعليقها على الكعبة فيرد دليل قائم ولا حاجة مقنعة .
 فن المتقدمين أبو جعفر النحاس ^(١) المتوفى سنة ٣٣٨ هـ ومن المتأخرين المستشرق
 الألماني ^(٢) مولدكي Moeldke . على أن تعليق الصحائف الخطيرة على الكعبة
 كان سنة في الجاهلية بقي أثرها في الإسلام . فن ذلك تعليق قریش الصحيفة التي
 وكدوا فيها على أنفسهم مقاطعة بني هاشم والطلب لحمايتهم رسول الله (ص) حين
 أجمع على الدعوة ؛ وتعليق الرشيد عهده بالخلافة من بعده إلى ولديه الأمين
 والمأمون ، فلم لا يكون الأمر كذلك في هذه القصائد مع ما علت من تأخير الشعر
 فيهم ومكانة الشعراء منهم ؟ على أن لهذا الأمر نظائر في أدب الإغريق ، فلن
 القصيدة التي قالها بَنْدَار زعيم الشعر الفصاني يمدح بها دلاجوراس قد كتبوها
 بالذهب على جدران معبد أثينا في ملوس ^(٣) .

مما رجع من الشعر الجاهلي

قال امرؤ القيس :

وقد أغتدى ، والطيرُ في وكناتها لَنَيْثٍ من الوَسْئِ رائده خال
 تحامدُ أطرافُ الرماحِ تحامياً وجادَ عليه كلُّ استَحَمٍ هطال
 بمججلة قد أترَزَ البحرُ لحماً كَمَيْتٍ كأنها هراوة منوال
 ذَهَرَتْ بها سِرْها ثقياً جلودُه وأكرَّهه وشيُّ الأبرود من النخال

(١) قال أبو جعفر النحاس في شرحه للقصائد : واختلفوا في حم هذه القصائد السبع
 فقبل إن العرب كان أكثرهم يجتمع بها وظنوا عديون الأعمار ، فإذا استحسن ذلك لصيغة
 قال معلقوها وأثبتوها في خزائني . وأما قول من قال إنها علفت في الكعبة فلا يعرفه أحد
 من الرواة .

(٢) وضم الأستاذ مولدكي كتاباً في هذا الموضوع رجوع فيه أن للمقاتلات سناماً للتعصبات ؟
 ولما سماها ساد الراوية بهذا الاسم تقييدها لها بالفلاتد التي تعلق في الحور ؛ واستدل على ذلك
 بأن من أسماءها السموط ومن معاني السموط الفلاتد . ودأبه على هذا الرأي الأستاذ كاهلان
 حيار الفرنسي مؤلف الأدب العربي بلسنته .

(٣) انظر دائرة معارف لاروس في كلمة (بَنْدَار) .

كَانَ الصَّوَارَ إِذْ نَجَاهَدَنَ غَدَوَهُ
لِجَالِ الصَّوَارِ ، وَاتَّقِينَ بِرَهَبِ
فَكَادَيْتُ مِنْهُ بَيْنَ ثَوْرٍ وَنَسْجَةٍ
كَأَنِّي يَفْتَحُهُ الْجَنَاحِينَ لِقَوَّةِ
تَخَفُفُ خِزَانِ الْأَنْيَمِ بِالضَّحَى
كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَبَاسًا
فَلَوْ أَنَّ مَا أَسَى لَأَدْنَى مَعِيشَةٍ
وَلَكِنَّا أَسَى لِحَدِّ مُؤْتَلٍ
وَمَا لَرَدِّ مَادَامَتِ حُشَاةُ نَفْسِهِ

على جزى - خيل نيمول بأجلالٍ
طويل القرا والرَّوق أخسَ ذبالٍ
وكان عدائى إذ رَكِبْتُ عَلَى بَالِي
على عجل منها أطايطه شلالٍ
وقد حَبَرْتُ منها ثَعَالِبَ أَوْدَالٍ
لدى وَكْرَهَا - الْعُقَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي
كفانى - ولم أطلب - قليلٌ مِنَ اللَّالِ
وقد يدرك المجدَ للوئِلَ أمثالِ
بُدْرِكَ أطرافِ السُّطُوبِ وَلَا آلِ

وقال النابغة الذبياني من قصيدته التي يملح بها النعمان ويستذر إليه :

أَنَا - أَبَيْتُ اللَّهُنَ - أَنْكَ لُمْنِي
بِقَالَةٍ أَنْ قُلْتُ : سَوْفَ أَنَا لَهُ ،
لِمَسْرَى - وَمَا عَمِرَى عَلَى بَيْنِ -
أَقَارِعُ عَوْفٍ ، لَا أَحَاوِلُ غَيْرَهَا
أَنَّا كَ أَمْرًا مُسْتَقْبَلًا لِي بِنُصَّةِ
أَتَاكَ بِقَوْلِ هَلْهَلِ النَّسَجِ كَاذِبِ
أَنَّا كَ بِجَوْلٍ لَمْ أَكُنْ لِأَقْوِهِ
حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرِكْ لِنَفْسِكَ رِيَّةَ
بِمَصْطَحَاتٍ مِنْ لِحَافٍ وَثَبْرَةٍ
حَمَامًا تَبَارَى الرَّيْحَ خُوصًا بِهِنَّهَا

وذلك التي نَسَبْتَكَ مِنْهَا السَّامِعِ
وذلكَ مِنْ تَقَاهِ يَثَلُكَ رَائِعُ
لَقَدْ نَطَقْتُ بَطْلًا عَلَى الْأَقَارِعِ
وُجُوهُ قُرُودٍ تَبْنِي مَنْ مَجَادِعِ
لَهُ مِنْ عَدُوٍّ مِثْلَ ذَلِكَ شَافِعِ
وَلَمْ يَأْتِ بِالْحَقِّ الَّذِي هُوَ نَاصِعُ
وَلَوْ كُتِبَتْ فِي سَاعِدِي الْجَوَامِعِ
وَهَلْ يَأْتِنَنَ ذَوَائِمُهُ ، وَهُوَ طَائِعِ
يُرُونَ إِلَّا ، سَيْرُ مَنْ التَّدَافِعِ
كُنْ رِزَايَا بِالطَّرِيقِ وَدَائِعِ

عليهم شعثٌ عُمِدُونِ لِحْجَهُمْ فَمَنْ كَأَطْرَافِ الْحَيِّ خَوَاضِعُ
لَكَفَتْنِي ذَنْبُ امْرِئٍ ، وَتَرَكْتَهُ كَذَى الْمُرْيُكُوِيْ غَيْرُهُ وَهُوَ رَانِعُ
فَإِنْ كُنْتُ لَازِدَ الصَّغْنِ عَنِ مُكَذِّبٍ وَلَا حَلْفِي عَلَى السَّيِّئَةِ نَافِعُ
وَلَا أَنَا مَأْمُونٌ بِشَيْءٍ أَقُولُهُ وَأَنْتَ بَأَمْرِ - لَا مَحَالَةَ - وَاقِعُ
فَإِنَّكَ كَالْقَلِيلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنْ لَلْتَأَى عَنكَ وَاسِعُ
خَطَاطِيفُ حُبْنٍ فِي حَبَالٍ مَتِينَةٍ تَمُدُّ بِهَا أَيْدِيَّ إِلَيْكَ نَوَازِعُ
أَتَوَدُّ عِبْدًا لَمْ يَحْنِكْ أَمَانَةٌ وَتَتْرَكَ عَبْدًا ظَالِمًا وَهُوَ ضَالِعُ
وَأَنْتَ رَبِيعٌ يُبْدِشُ النَّاسَ سَيِّئُهُ وَصِفَتْ أَعْيُنُهُ النِّتْيَةَ قَاطِعُ
أَبِي اللَّهِ إِلَّا عَدْلُهُ وَوَفَاءُهُ فَلَا التَّكْرُ مَعْرُوفٌ وَلَا الْعُرْفُ ضَانِعُ
وَتُسْقَى إِذَا مَا شِئْتَ غَيْرَ مُعَرَّرِدٍ يَزُورُهُ فِي حَانَتِهَا الْمَسْكُ كَانِعُ
وَقَالَ دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَةِ^(١) فِي رِثَاءِ أَخِيهِ :

أَرِثْ جَدِيدَ الْحَبْلِ مِنْ أُمَّ مَمْبِدٍ بِعَاقِبَةٍ ، أَمْ أَخْلَفْتَ كُلَّ مَوْعِدٍ
وَكُنْتَ ، وَلَمْ أَتَّخِذْ إِلَيْكَ نَوَالِمًا وَلَمْ تَرْجُ مَنَّا رَدَّةَ الْيَوْمِ أَوْغَدٍ
كَأَنَّ حَمُولَ الْيَمَى إِذْ مَتَّعَ الصُّحَى بِنَاصِيَةِ الشَّحْنَاءِ عَصْبَةَ مِذَوْدٍ
أَوْ الْأَنْأَبُ الدَّمُ الْبَحْرُومُ سَوْفُهُ بِكَابَةِ لَمْ يَنْخَبِطْ ، وَلَمْ يَتَمَضَّدِ
فَقُلْتُ لِمَارِضٍ وَأَسْحَابِ عَارِضٍ وَرَهْطِ بَنِي السُّودَاءِ وَالْأَوَامِ شَهْدِي
عَلَانِيَةً : ظَنُّوا بِأَنِّي مُدَجِّجٌ سِرَاتِهِمْ فِي النَّفَارِسِيِّ الْمُرْدِ

(١) دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَةِ شَاعِرُ فَارَسٍ سَيِّدٌ ، أَحَدُكَ الْإِسْلَامَ وَلَمْ يَسْلَمْ . قَتَلَ بَنُو هَظْلَفَانَ أَخَاهُ
مَعْدَاةً لَأَيِّ دُرَيْدٍ أَغَارَ عَلَيْهِمْ وَاسْتَأْنَقَ إِلَيْهِمْ ، فَتَزَلَّ مَعْدَاةُ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ لِيَقْدِمَ التَّغْنِمَةُ
فَنَهَاهُ دُرَيْدٌ عَنَّا أَنْ تَلْحَقَ بِهِمْ فَطَعَانُ لِلْمَوْتِ ، فَأَيُّ ؟ وَبَقِيَ حَتَّى أَحْرَقَتْهُ الْحَبْلُ فَتَنَّهُ هَمْسُ .
وَأَرَادَ دُرَيْدٌ إِتْقَانَهُ فَلَمْ يَبْقَ عَنْهُ ، وَبَقِيَ جَمْعُهُ حَزِينًا يَرْتِيهِ حَتَّى لَامَتْهُ فِي ذَلِكَ إِبْرَاهِيمُ أُمُّ مَعْدٍ
طَائِفًا ، وَقَالَ فِيهَا وَلِي رِثَاءُ أَخِيهِ الصَّمَةِ .

وقلت لهم : إنَّ الأحاليفَ هذه
ولما رأيت الخيلَ قبلاً كأنها
أمرهمُ أمرى بمنصرَجِ الهوى
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى
وهل أنا إلا من غزوة ؟ إن غوت
دعاني أخى والليل يبقى وبينه
أخ أرضحتى أمه من ليلاتها
فجئتُ إليه والرماحُ تنفضه
وكنت كذاتِ البورِ يمت فأقبلت
فطاعتُ عنه الخيلَ حتى نهيتُ
فقال امرئى آسى أخاهُ بنفسه
تنادوا فقالوا : أَرَدْتَ الخيلَ فارساً ؟
فإن يكُ عبدُ الله خلى مكانه
ولا برماً إنما الرماحُ تناوحتُ
وتخرج منه صيرةُ القرَّ جزاةً
كميش الإزارِ خارج نصف ساقه
قليلٌ تشكَّيه للصيات ذاكُرُ
إذا هبط الأرضَ القضاءَ تزيَّنتُ
وكم غارة بالليل واليوم قبله
سلم الشغلِ عبأُ الشوى شنجُ النساءِ

مظنية بين السَّارِ وتهدي
جرادٌ يُبارى وجهه الرمح مُتهدى
فلم يستميلوا الرُّشد إلا ضحى الند
غوايتهم أنى بهم غيرُ مهتدى
غويت وإن ترشدُ غزوةً أرشدُ
فما دعانى لم يمدنى بقُدُ
بشدى صفاء بيننا لم يحدد
كوقع الصيامى فى النسيج المدد
إلى قطع من جلد يؤججلد
وحق علانى حالكُ اللون أسود
ويلم أن الرء غديرُ غحد
قلت : أَعْبَدُ الله ذلكم الردى ؟
فأكان وقافاً ولا طائش اليد
برطبِ العضاء والفرع للنفذ
وطولُ السرى دُرَى عَصَبٍ مهتد
صبورٌ على الضراء طلاعُ أنجد
من اليوم أعقابَ الأحاديث فى غد
لرؤيته كالماتم المتلبد
تداركها متى بيديَّ محرد
طويلُ القرأ نهدُ أسيلُ القلد

يفوت طویل القوم عقد حذاره
و كنت كآنى و اتقى بمصدر
له كل من يلقى من الناس واحدا
وهون وجدى أنى لم أفل له :

وقال علقمة بن عبدة النخعي (١) :

طعنا بك قلب في الحسان طروب
يكلفنى لئلى ، وقد شط وليها
مُعممة ، ما يستطاع كلامها ،
إذا غاب عنها البعل لم تفسر سره
فلا تصدلى بينى وبين ممر
حقاك يمان ذو حى و عارض
وما أنت ؟ أم ما ذكرها ؟ ربيعة
فإن تسألونى بالنساء فأنى
إذا شاب رأس للره أو قل ماله
يُردن ثراء اللال حيث علينه
فدعها وسل المم عنك بجسرة
إلى الحارث الوهاب أصلت ناقتى

وقال عبد بنوث الحارثى النخعي (٢) :

ألا تلومانى كفى اللوم ما بيا
فأ لكما فى اللوم خير ولا بيا
ألم تعلمنا أن اللامسة ضمها
قليل ، وما لوى أخى من شائنا

(١) حاتم جاحل من طبقة امرئ القيس ومعاوية ، تولى قبل الإسلام بزن طویل.

(٢) حاتم طرس من طرائق لومه ، أسرته هم الربيع يوم الكلام وهو يومين يوم الاثنين

فيا راكباً إذا عرضتَ قبلنَّ
أبا كرب والأيمتين كليهما
جزى الله قوى بالكلاب ملامة
ولوشئت نجحتى من الخيل هداة
ولكننى أحمى ذمار أهلكم
أقول وقد شدوا لسانى بيسمة
أمعشريم قد ملكتم فأسجسجوا
فإن تغلبنى تغتلبوا بى سيداً
أحقاً عباد الله إن لست سامماً
وتضحك منى شينة عبسبة
وقد علمت عرسى مليكة أنى
وقد كنت نحر الجزور، وممثل الـ
وأعمر للشرب الكريم مطيى
وكنت إذا ما الخيل شمسها القنا
وعادية سوام الجراد وزعتها
كأنى لم أركب جواداً ولم أقل
ولم أسبأ الزقى الروى ، ولم أقل
وقال ذو الإصبع المدوانى .

لى ابن عم على ما كان من خلق
أزرى بنا أننا شالت نامتنا
يا عمرو لا تدع شعى ومتفصلى

ندامى من نجران أن لا تلافيا
وقيساً بأعلى حضرموت البانبا
بريحهم والآخرين للوليا
ترى خلفها الحـ والجياد تواليا
وكان الراح يخطفن المصاميا
أمعشريم أطلقوا عن لسانيا
فإن أناكم لم يكن من بوانيا
وإن تطلقونى تمرونى بماليا
بشيد الرعاة للزبين الثاليا
كان لم ترى قبلى أسيراً بمانيا
أنا الليث معدوا على وعاديا
عطى ، وأمضى حيث لاحت ماضيا
وأصعد بين القينتين ردائيا
ليبقا بتصرف القناة بمانيا
بكفى وقد أئعوا إلى العواليا
لنخيلى : كرمى غشى عن رجاليا
لأنصار صدق أعظموا ضوء ناريا

مختلفان : فأقلبه : وقيلنى
غالى دونه ، وخلته دونى
أضربك ، حتى تقول المامة : اسقونى

لاما بين حكم الأفاضل في حسب
ولا تقوت عيالي يوم مسغبة
إني لمرك ما باني بذى علق
ولا لسانى على الأدنى بمنطق
عفت يونس إذا ما خفت من بلر
عنى إليك ، فأتى برأعية
كل امرئ راجع يوما لشيمته
إنى أتى أتى ذو عافضة
وانتم معشر زبد على مائة
فإن علمتم سبيل الرش فأنطقوا
ماذا على وإن كنتم ذوى رحي
لو تشربون دى لم يرو شاربكم
الله يعلمنى ، والله يعلمكم
قد كنت أوتيكم نصحي وأنصحكم
لا يخرج الكره منى غير مابية
وقال الأقوه الأودى :

البيت لا يبنى إلا له عهد
فإن تجمع أوتاد وأعمدة
لا يصلح الناس فوصى لاسرانه لم
تهدى الأمور بأهل الرأى ماصلحت
إذا تولى سرته الناس أمرهم
ولا عباد إذا لم ترس أوتاد
وما كن يلفوا الأمر الذى كادوا
ولا سراة إذا جهالم سادوا
فإن تولت فبالأشرار تنقاد
نما على ذلك أمر القوم فازدادوا

وقال ودّك بن ثُميل المازني :

وويد بن شيان بعض وعيدكم تلاقوا جياداً لانعيد عن الوعى
تلاقوا غداً خيلى على سفوان عليها السكاة الفر من آل مازن
إذا ما عدت في اللأزق للتداني تلاقوم فصرفوا كيف صبرهم
ليوث طمان عند كل طمان مقاديرهم وصالون في الرزوع خطوم
على ما جئت فيهم يد الخدائن إذا استنعدوا لم يسألوا من دعاهم
بكل رقيق الشفرتين يمان لأية حرب أم بأى مكان

وقال زهير بن أبى سلمى يمدح هرم بين سنان :

وأبيض فياض يدهاء غمامة على ممتقيده ما تنب فواضله
أخى قبة لايهلك الخمر ماله ولكته قد يهلك المال فاته
تراه إذا ما جشسه مهللاً كأنك تعطيه الذى أنت سائه

وقال أيضاً :

وفهم مقامات حسان وجوهم وأنديّة يفتابها القبول والفعل
ولن جشهم أقيت حول بيوتهم مجالس قد تشفى بأعلامها الجمل
على مكثهم رزق من يعترهم وعند المقلين الساحة والبذل
سعى بدهم قوم لى يدركوهم فلم يفعلوا ولم يلبسوا ولم يألوا
فما كان من خير آوه فأعما توارثه آباء آبائهم قبل
وهل يذبت الخطى إلا وشيجه وتفرس إلا فى منابها النخل ؟
وقال الأعشى يمدح الخلق :

لمرى لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمروزيين يصطليها وبات على النار الندى والحق

رضيحي لجان ندى أم تقاسما
تري الجود يجرى ظاهراً فوق وجهه
يداه يدا صدق فكف مبيدة
وقال تأبط شراً يمدح ابن عم له ويسته بما يمدح به الجاهليون من الصفات :
إني لمهد من ثنائي قفاصد
أهز به في ندوة الحى عطفه
قليل التشكى للهم يصيبه
يظل عموماً وعمى بغيرها
ويسبق وقد الريح من حيث يفتحي
إذا حاص عينيه كرى النوم لم يزل
ويحتمل عينيه ربيته قلبه
إذا هزه في وجه قرن نهالت
يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهدى
وقال عمرو بن المذبل العمدي :

ولاترج خيراً عند باب أين مسمع
ونحن أقفا أمر بكر بن وائل
وما تستوى أصحاب قوم تورمت
وقال ليبد بن ربيعة بن النعمان :

ألا تسألان المرء ماذا يحاول
أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم
ألا كل شيء ما خلا الله باطل
وكل أناس سوف تدخل بينهم
أعجب فيقفى أم ضلالً وماطل ؟
بلى ، كل ذى لب إلى الله واسل
وكل نصيب لا محالة زائل
دويهة تصغر منها الأنامل

بأسهم داج عَوْضُ لا شفرق
كما زان من المندوأنى رونق
وكف إذا ماض بالمال تنفق
به لابن عم الصدق شمس بن مالك
كا هز عطفي بالهجان الأوارك
كثير الهوى شقى النوى والسالك
جحيشاً وبهرورى ظهور الممالك
بمنخرق من شدة التدارك
له كالى من قلب شيخان فانك
إلى سلة من حد أخلق صائك
نواخذ أفواه للثلا الضواحك
بميت اعتدت أم النجوم الشواك

وكل امرئ يوماً سيعلم غيبه
إذا المرء أسرى ليله خال أنه
يقول له إن كان يقسم أمره
فعل أنى لست مدرك ما مضى
فإن أنت لم ينفعك علمك فانتسب
وإن لم تجد من دون عدنان والها
وقال عدى بن زيد العبادى :

أيها الشامت للمير بالله
أم لديك العهد الوثيق من الأيا
من رأيت المتن خلدن أم من
أين كسرى كسرى للوك أبوسا
وأبو الغضر إذ بناء وإذ دج
شاده مرمراً وجهه كل
وتبين رب الخورنق إذ أشد
سره حاله وكثرة ما يمد
فارعوى قلبه فقال وما غم
ثم بعد الفلاح والملك والأمة
ثم أضحوا كأنهم ورق جف
وقال امرؤ القيس فى معلقته يصف الليل :

وليل كوج البحر أرخى سدوله
فقلت له لما تعلى بهابه
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى
فيا لك من ليل كان نجومه
على بأنواع الهدوم ليتلى
وأردف أعجازاً وناء بكل كل
بصبح ، وما الإصباح منك بأمثل
بكل مغار القتل شدت ببذل

وقال فيها يصف جواده :

وقد اعتدى والطير في وكفاتها
بمجرد قيد الأوابد هيكلا
بكر مفرقة مقبل مدبر معا
كجلود صخر حطه السيل من عل
له أبلا ظلي وساقا نماسة
وارخاء سرحان وتقريب تنقل

وقال طرفة بن العبد يصف السفينة :

كان حـ دوج لللكية غدوة
خلأ سفين بالنواصف من (ددر)
عدو لية أو من سفين ابن يامن
يجور بها الملاح طورا ويهتدى
يشق حباب الماء حيزومها جيا
كما قسم التراب للفايل باليد
وقال أبو صخرة الليواني :

فما نطفة عن حب مزن تقاذفت
به جنبتا الجودي والليل داس
فلما أقرته العصاب تنفست
شال لأعلى مائه فهو فارس
بأطيب من فيها وماذقت طعمه ،
ولكنني فيما ترى العين فارس
وقال الأعشى :

ماروضة من رياض الحزن مشبة
خضراء جاد عليها مسيل هطل
بضاحك الشمس منها كوكب شريق
موزر بعيم البيت مكتهل
يوما بأطيب منها نشر رائحة
ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل
وقال للتلحس جرير بن عبد المزني من قصيدة :

وكنا إذا الجبار صرّ خده
أقنا له من خده فتقوما
لدى الحلم قبل اليوم ما تفرع العصا
وما علم الإنسان إلا ليحما
ولو غير أخوال أرادوا تقيصتي
جملت لهم فوق المرانين ميسا
وما كنت إلا مثل قاطع كفه
بكف له أخرى فأصبح أجذما
فلما استعاد الكف بالكف لم يجد
له دركا في أن تبينا فأحجا
يداه أصابت هذه حتف هذه
فلم تجد الأخرى عليها مقدما
قأطرق فطراق الشجاع ولو يرى
مساغا لآبائه الشجاع لصمما

الفصل الرابع

الشعراء الجاهليون وطبقاتهم

كل قبيلة كانت تحرم على أن يكون لها شاعر وقائد وخطيب ، ولكن الشاعر كان أكرم عليها وأحب إليها من هذين . فكانت إذا نبغ فيها شاعر تصنع الولائم وتقيم الأفراح وتهبها القبائل . وذلك لأن الشعراء يقودون قومهم بقولهم ، وينصنعون عنهم يوم حفلهم ، ويغزلون ما ترم على العصور ، وينقشون مفاخرهم في الصدور ، لا يبتغون على ذلك جزاء ولا صلة . على أن نقرأ منهم نكبوها بالشعر فنض ذلك من أقدارهم ، وإن لم يفيض من أشعارهم ، كالنابغة مع النعمان ، وزهير مع هرم بن سنان ، والأعشى مع لالوك والسوقة^(١) . وكان لكل شاعر رابوة يلازمه ملازمة التليذ لمهامه . ينهج طريقه وينشر شعره ؛ ونابغو الشعراء قضوا عهد الثقافة والرائة في الرواية ، فكان امرؤ القيس رابوة أبي دؤاد الإيادي ، وزهير رابوة أوس بن حجر ، والأعشى رابوة للسبب بن علس .

والشعراء باعتبار الزمان أربع طبقات: جاهليون، وهم من عاشوا قبل الإسلام أو أدركوه ولم يقولوا فيه شيئاً يذكر ، كامرئ القيس وزهير وأمية بن أبي الصلت وليبد . ومختصرمون ، وهم الذين اشتهروا بالشعر في الجاهلية والإسلام ، كالخنساء وحسان بن ثابت . وإسلاميون : وهم الناشئون في الإسلام الباقيون على سليقتهم في العربية ، وهم شعراء بني أمية . ومولودون : وهم الذين فسدت

(١) اتجم الأعشى أطراف البلاد بشعره حتى قصدهم لوك العجم فأنابروه . وفي ذلك يقول :

وطوفت لدمال آفاله عمات وحسن وأوريشم
أتيت النجاشي في أرضه وأرض النبط وأرض العجم

فيهم ملكة اللسان فمالجوها بالصناعة وهم شعراء بنى العباس .

وهم باعتبار الإجادة في رأى النقاد ثلاث طبقات : امرؤ القيس وزهير والنابغة ،
وهم رجال الطبقة الأولى . والأعشى ولييد وطرفة ، وهم رجال الطبقة الثانية ؛
وعنترة وحديد بن الصمة وأميرة بن أبي الصلت ، وهم رجال الطبقة الثالثة . وهذا
التقسيم لا يخلو من ضلال ونحس ، لاختلاف القرون وجمال القدماء بقواعد النقد .

امرؤ القيس

نشأته ومبائه

هو الملك الضليل ذو القروح جندح بن حجر الكندي ، ولد أُمَيْلَ
للنبت كريم الأبوة والأمومة : فأبوه سليل الملوك من كندة ، وملك بنى أسد .
وأمه أخت كليب ومهمل ابني ربيعة . فشب في حجر النعم ودرج في مهد
للسراوة ؛ إلا أنه نشأ نشأة النواة يماقر الراح ويمازل النساء ويمشق اللهو ويقول
للشعر . ثم أطلق لنفسه العنان في المجون ، وقد عما تسمو إليه النفوس الكبيرة
فطرده أبوه ، وكان أصغر أولاده . تخرج في زمرة من أخلاط العرب وذوئهم
يرتادون الرياض والفدُر فإذا صادفوا غديراً خيسوا عليه وطفقوا يلعبون ويمارقون
ويصيدون ؛ حتى إذا نصب للماء وذوى العشب تحولوا عنه إلى غيره . ولم تزل تلك
حاله حتى بلغ دمون من أرض اليمن . وهناك أتاه نسي أبيه وقد قتله بنو أسد غيلة
لاستبداده بهم وسوء سيرته فيهم . فقال امرؤ القيس : « ضيعني أبي صغيراً ،
وحناني دمه كبيراً . لا يحسو اليوم ولا سكر غداً . اليوم خمر ، وغداً أمر » ثم
آلى ألا يأكل لحماً ولا يشرب خمرأ ولا يدهن بدهن حتى يقتل من بنى أسد
مائة ويميز نواصي مائة . فلما أجهت الليل شام برقاً فقال :

أرقت لبرق ليليل أهل يضيء سناء بأعلى الجبل

أتانى حديث فكذبته بأمر تزعزع منه القل
بقتل بنى أسد ربهـم ألا كل شيء سواء جلال

فلما كان من القد استنجد أخواله بكرأ وتقلب وسار إلى بنى أسد فأوقع بهم .
ثم طلبوا أن يقدوه بمائة من وجوههم فأبى ؛ فتخاذلت عنه بكر وتقلب . وطلبه
للنذر بن ماء السماء لموجدة كانت في نفسه على قومه ، وأمدته كسرى أنوشروان
بجيش من الأساورة فتفرقت جموعه خوفاً من النذر . وسار هوفى القباثل يطلب
النصر حتى سدت عليه وجوهه . فلجأ إلى السمومل بن عاديا اليهودى فاستودعه
دروعه وطلب منه كتاباً إلى الحارث بن أبى شمر النسائي ليوصله إلى قيصر . فلما
بلغ قيصر الروم وهو يومئذ جستنيان أكرم وقادته وطعم أن يكون امرؤ القيس
قوة له في العرب ، يرضى له الأمور ويضعف نفوذ الأكاسرة . فجزه بجيش
وسيره ، ثم بدا له فأعاده . ونزلت بأمرى القيس علة جلدية فتقرح جسمه وسهرا
لحمه . والمؤرخون يزعمون أنه لما فصل بالجند دخل الطاح الأسدى على قيصر
فوشى به وحمله عليه انتقاماً منه لقتله أباه : فبعث إليه قيصر بحلة وشى مسمومة
وقد بلغ أقرة من بلاد الروم فأصابه ما أصابه . ويستدلون على ذلك بقوله :

لقد طمح الطاح من نحو أرضه ليلبسى من دائه ما تلبسا
وبدلت قرحا داميا بعد صحة فيالك نعى قد تحولت أبؤسا
فلو أنها نفس تموت سوية ولكنها نفس ناقط أنفسا

ولما غشيت سكرة الموت قال : رب جفلة متعجرة ، وطمنة مسحفرة ،
وخطبة محجرة ، تبقى غداً بأقرة ! ثم مات ودفن بجبل عسيب سنة ٥٦٠ م ^(١) .

(١) من القل أن محمد التواريخ لوفيات الشعراء والمطباء من الحاملين فإن القوم لم
يكنوا بها على شيء من العلم تاريخهم ولا شعره ، وإنما كانوا يدرجون بمراثيمهم للمروفة .

شعره

نشأ امرؤ القيس نجدياً وإن كان يمتنعاً ، ففرع بين بني أسد في صميم
العرب اخلّص ، فسمع الأشعار ورواها ، وتطلعت نفسه إلى مساجلة الشعراء فقال
الشعر على حدائثه . وكان جزل الألفاظ كثير الغريب جيد السبك سريع
الخطر بديع الخيال بليغ التشبيه . وقد فتحت الأسفار والأخطار والمحاطة قريحته
فاحتبط العاني الجديدة . ونهج للذاهب الحديثة . وارتسمت في شعره محدثات
عصره فتبنت إليه ابوغه وتفوقه وجاهه ، فقالوا إنه أول من وقف على الأطلال
وبكى على الديار وشبّ بالنساء ، وشبهن بالما والظباء ، وأجاد وصف الليل
والليل لإدمان ركوبه وكثرة أسفاره . وإنك لتجد في شعره صورة كاملة من
حياته وخلقه . ففيه عزة للوك ، وتبذل المملوك ، وعريضة للاجن ، وحمة
النائر ، وشكوى للوتور ، وذلة الشريد ، وهو بإجماع الرواة زعيم الجاهليين
للأسباب التي مرت بك .

نماذج من شعره

من خير ما أثر عنه مملقته التي سارت في الناس مسير المثل نظمها في حادثة
وقعت له مع ابنة عمه عذرة ، ثم استطرد إلى وصف الليل ونمت الفرس وذكر
الجون والصيد . قال في مطلعها :

فقابك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط الاوى بين الدخول فحول
وقد مر شيء منها في النماذج . ومنها في التنزل :

أظلم مهلاً بعض هذا التدلل	وإن كنت قد أزميت هجرى فأجلى
أغرك منى أن حبك قاتلى	وأنك مهما تأمرى القلب يفعل
وما ذرفت عينك إلا لتضربى	بسهيك فى أعشار قلب مقتل
فإن كنت قد ساءت منى خليفة	فلى ثياب من ثيابك تنسل
تسلت عمايات الرجال عن الصبا	وليس فؤادى عن هواها بمنسل

وقال من قصيدة يذكر فيها رحلته مع عمرو بن قيسة إلى قيصر :

إذا قلت هذا صاحب قدر ضيته وقرت به العينان بُدلت آخر
كذلك جدى لأصاحب واحدًا من الناس إلا خافى وتغبرا
تذكرت أهل الصالحين وقد أنت على جل بنا الركاب وأعفرا
ولما بدت حوران والآل دونها نظرت فلم تنظر بعينيك منظرًا
تقطع أسبابُ الأبنان والهو عشية غادرنا حماة وشيزرا
بكي صاحبي لما رأى الربّ دونه وأجن أنا لاحقان بقيصر
قلت له : لا تبك عينك إنما نحاول ملكا أو نموت فمئذرا

النابة الذيباني

نشأته وحياته

هو أبو أمامة زياد بن معاوية ، ولقب بالنابة لأنه لم يقل الشعر حتى احتك ، ثم نجى الناس بشعر بذبه الشعراء وكان له منه مادة لاتقطع فشبهوه بالماء النافع . وهو أحد سرائر بني ذبيان ومن ذوى مثالهم ، ولكن تسكبه بالشعر غص من قدره وطأطأ من إشرافه . اتصل بالنعمان بن المنذر فاستخلصه إليه وأسبح نعمته عليه حتى أكل وشرب في آنية الذهب والفضة من جوارحه . وما زال النابة يتبسط على النسيم ، ويتفيا ظلال الخفض ، حتى درج بالهمية بينهما بعض حساده متذرعين إلى الوشاية بقصيدته في وصف المعجزة زوج النعمان . فوكرت السعاية في نفس الملك فتوعده ، فنبأ الشاعر بنفسه إلى الشام ولاذبعمر بن الحارث الأصغر الفسائي ، فنزل عنه في جباب مريع وأمن شامل ،

فزاد ذلك في حقد النعمان عليه لانتجائه إلى أعدائه ومنافسيه . وما زال الثابفة عند بني غسان يصلحهم بالهدر ويصلونه بالذهب حتى بلغه أن النعمان عليل ، فرجع يطلب الشفاعة إليه ، ورجع البراءة عنه ، مقدماً بين يديه مع شقيقه تلك القصائد الخالدة في الاعتذار ، فاستلّت ماني نفس الملك وأحلتته معه في المكان الأول ، وبقي في حال حسنة حتى أروعته الكبر وقيلده الحرّم وسُمّ الحياة وقال :

المرء يأمل أن يميد ش وطول عيش قد بضره
تفنى بشاشته ويبقى بعد حلو العيش مره
وتغشوه الألم حتى لا يرى شيئاً يسره
كم شامت بنى إن هلك ستُ وقائل : لله دره

وكانت وفاته في السنة الثامنة عشرة قبل الهجرة .

شعره

الثابفة أحد فحول الشعراء الثلاثة الذين لا يشقُّ غبارهم ، ولا تلتحق آثارهم ، وهم امرؤ القيس وهو زهير . ويمتاز من صاحبيه بديع كفايته ، ودقيق إشارته ، وصفاء ديباجته ، وقلة تكلفه ، وموافقة شعره لموى النفوس . ولهذا لم ينسَ الناس بشعر أحد في الجاهلية وصدر الإسلام بمثل ما غنوا به من شعره . وقد أحادق وصف ليل الخائف ، واعتذار الجاني ، ومدح المحمم ، إجادة لا يتعلق بها درك ، إلا أنه كان يُقوى^(١) في شعره ويقول : إن في شعري عاحة

(١) ألقى الشاعر إذا خالف بين القولين برفع يمين وجرا آخر . كقول الثابفة في قصيدته للنجدة
سعد الصيد ولم ترد إسقاطه فتناوله واعتنقها باليد
بمخضب رخص كُتبت بنائه عن يكاد من الطائفة بعد

لا أحديها ؛ حتى سمع مفتياً يذني بآيات من شعره فيها إقواء ، ففطن إلى ذلك ولم يعد إليه . وقد عرف شعراء العرب له تلك المكانة السامية في الشعر فقدموه في عكاظ واحتسكوا إليه في الخصومات الأدبية فكان يقضى بينهم موثق القضاء مطلع الحكم .

نموذج من شعره

قال من قصيدته في مدح عمرو بن الحارث النسائي :

كلني لهم يا أئمة ناصب	وليل أقاليه بطل الكواكب
وصدر أراح الليل عازب	تضاعف فيه الحزن من كل جانب
على عمرو نعمة بعد نعمة	لوالده ليست بذات عقارب
وثقت له بالنصر إذ قيل قد غزت	كتائب من غسان غير أشائب
إذا ما غزوا بالجيش خلق فوقهم	عصائب طير تهتدى بمصابب
فهم يتساقون المية بينهم	بأيديهم يبيض رفاق للضارب
ولا هيب فيهم غير أن سيوفهم	بهن فلول من فراع الكتائب
لهم شيمة لم يسطها الله غيرهم	من الجود ، والأحلام غير عواذب
رفاق النعال طيب حُجَراتهم	يُحِبُّونَ بالزَّيْمَانِ يوم السباب
ولا يحسبون الخسير لا شتر بده	ولا يحسبون الشرَّ ضربة لازب

زهير بن أبي سُلَی

نشأته ومياله

نشأ زهير بن أبي سُلَی بن ربيعة بن رباح المزني في أقارب أبيه من بني غطفان،
وژم بشامة بن الندير خال أبيه، وكان رجلاً مقعداً عقيماً حكياً قد اشتهر بسداد
الرأى وجودة الشعر ووفرة اللال، فاعترف من شعره وتأثر بمله وحكمه، وظهر
ذلك جلياً فيما رصح به شعره من درر الحكمة. ولما مشى الحارث بن عوف وهرم
ابن سنان الثريان بالصلح بين عيس وذبيان وأطفأ نار الحرب باحثاً لهما ديوات القتل
عن الحيين، وقد بلغت ثلاثة آلاف بئر، استنزته هذه الأريمية فدمجها بمملته.
ثم تابع مدحه لهرم بن سنان وأطرب في ذلك حتى أقسم هرم ألا يمدحه زهير ولا يسهله
ولا يسل عليه إلا أعطاه عبداً أو وليدة أو فرساً. فاستحيا زهير من كثرة ما كان
يقبل منه، وأصبح إذا رأى من الناس قال غموا صباحاً إلا هراً، وخيركم
استغفرت. وقال عمر بن الخطاب لبعض أولاد هرم: أنشدني بعض مدائح زهير
في أبيك، فأثندته. فقال عمر: إنه كان ليصن فيكم القول. فقال: والله
ونحن كما نحسن له العطاء. فقال عمر: قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم.
وكان زهير على جدته رحب الأناة راجح الحصة شديد الرأى شديد الورع
مؤثراً لاسلم مؤثماً بالله ولليوم الآخر. يشهد بذلك قوله في مملته:

فَلَا تَكْتُمَنَّ اللَّهُ مَا فِي صَدُورِكُمْ لِيُخْفِيَ وَمَعَهَا يُكْتُمَنَّ اللَّهُ يُعَلِّمُ

يُؤَخِّرُ فَيُوضِعُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخِرُ لِيَوْمِ حِسَابٍ أَوْ يَسْجُلَ فَيُنْقِمُ

وقد عجز زهير حتى نيف على ثلاثة كما يؤخذ من قوله:

يَدَالِي أَنِّي عَشْتُ تَسْعِينَ حَبَةً ثِيَاباً وَعَشْرًا عِشْتَهَا وَثَمَانِيَا

وتوفي قبل الهجرة بإحدى عشرة سنة وقد أسلم ولدها كعب وبخير.

شعره

بيت زهير عريق في الشاعرية : فأبوه وخاله ، وأختاه سلى والخنساء ،
وولدها كعب وبجير ، من الشعراء المذكورين ، وذلك ما لم يكن لغيره .
وهو كما علمت أحد الثلاثة القصور . وفي الناس من يفضله على امرئ القيس
والثابئة ، لأن شعره يمتاز بصدق اللمحة ، وخلوه من الحواشي والتعقيد ، وبعده
عن سجع القول وهجر الحديث ، وجمعه الكثير من الماني في قليل من الألفاظ .
وهو واحد من الشعراء في إجابة اللح وضرب للثل وإرسال الحكمة . وزهير
من عبيد الشعر الذين تملوه وتحموه . وله قصائد تعرف بالحوليات يزعمون
أنه كان ينظمها في أربعة أشهر ويهذبها في أربعة ، ثم يمرضها على خاصة الشعراء
في أربعة ، فلا ينشدها الناس إلا بعد حول .

تحليل موهبة لعلقمة

موضوع معلقته كما علمت مدح الحارث بن عوف وهرم بن سنان للرَّيَّين
على سميها بالصلح بين عيسى وذبيان . واسكنه افتتاحها على عادة الجاهليين
بالوقوف على أطلال الأحبة ونحيبها ونفثها الذكريات من خلال آثارها ،
فوقف على الدمن البكم الدوارس من ديار أمَّ أو في بدران أتى على عهد بها
عشرون سنة فلم يعرفها إلا بعد مشقة .

فلما عرفت الدار قلت لربها ألا عيم صباحاً أيها الربع واسلم

ثم تملت في خاطره ظمائن الحيات متعللات تنعشن سدول صفيقة
النسج ، وكلة وردية الحواشي ، فيقبهن بيمصره الحزين وقلبه الواله ، فيصف
حاصلكنه من طروق وما نزلته من منازل حتى يبلغن المنزل الذي أردته ،

وما أجل أسلوبه في استحضار هذه الذكرى ، حتى لكانها مائة مليون
فلو تبصّر صاحبه قليلا لآها :

تبصّر خليلي هل ترى من ظمائن تحمّلن (بالعلاء) من فوق (جرنم)
تلوّن بأعماط عيشاق وكاة وراء حواشيهام مشاكهة الدم
بكرن بكورا واستعرن بسعرة فهن لوادى الرس كاليد في القم
وفيهن ملهى للهديق ومنظر أنيق لمين الناظر التوسم
فلما وردن الماء زرقا جمانه وضمن عصى الحاضر التخبم
ثم انتقل على طريقة الاقتضاب إلى الرجلين اللذين حقنا بالصلح دماء
المشيخة فقال لهما :

يمينا أنعم للسيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم
تداركنا عسا وذيان بدما تقاونا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلنا إن نترك السلم واسما بمال ومعروف من الأمر نسلم
فأصبح يمرى فيهم من تلادكم معانم شقى من إفال المزئم
ثم قطع المدح مؤقتا ايدعو النصوص إلى السلم في لين ورفق ، ولكنه
ذكر الحرب فاشتد وأنكر ما فجر على الناس من أوزار وأضرار :

وما الحرب إلا ما علمتم ودقتم وما هو عنها بالحديث الرجم
مضى تيمثوها تيمثوها ذميمة وتضر إذ ضريتوها فخرم
فتحرككم عرك الرحا بشغالها وتلقح كشافا ثم تحمل فتقم
فتنزل لكم ما لتنل لأهلها قزى بالعراق من قنيز ودرم
ثم عاد إلى رجلية ففى في مدحهما على ما رأيا من صدق لم يمدناه ،
ووصفهم "ضمضم بالجناية وعززه عليها :

وكان طوى كشعاً على مستكنة فلا هو أبداها ولم يصحجم
وقال سأقضى حاجتي ثم أتقى عدوى بألف من ورائي ملجئ
فشد ولم تفزع بيوت كثيرة هي حيث ألفت رحلها أم قنعم
هي أسد شاكي السلاح مُقْدَفٍ له لِبَدٌ أظفاره لم تُقَلِّم
رعوامار عوامن ظمئهم ثم أوردوا غاراً تسيل بالرماح وبالقلم
قصفوا مطايا بينهم ثم أصدروا إلى كلالٍ مُستَوِيلٍ متوخم
ثم غلبت عليه نزعة الإنسانية وطيبته الفلسفية فوقف موقف الحكيم
يهرم بالحياة ويفكر في الموت ويمط بالتجارب :

رأيت النابا خبط عشواء من نصب تته ومن تُخطيء يمرّ فيهرم
ومن هاب أساليب النابا يبلله ولو نال أساليب السماء يسل
ومن يحمل للمروف من دون عرضه يفره ، ومن لا يتقى الشتم يشتتم
ومن يحمل للمروف في غير أهله يمد حده ذمّاً عليه ويندم
ومما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تحقى على العاس تعلم
وكانن ترى من معجب لك شخصه زيادته أو نقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ، ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والعلم
وإن سناه الشيخ لا حِمَّ بعده وإن الفتى بسد السفاهة يحلم

الأعشى

قصته وحياته

هو أبو بصير ميمون بن قيس بن جندل أحد أمراء الشعر المتكسبين به القاتلين في أكثر ضروبه . نشأ بالجماعة في قرية تسمى مفقوحة ، وقَف الشعر من طريق الرواية على خاله للسَّيب بن علس ، حتى إذا حصَف عقله وارتاض لسانه ، انتجع أطراف البلاد وغشى أبواب الملوك بمدحهم ويستجديهم . وفد على بني عبد الملك بن ملك بنجران فأكرموا ثواءه وأجزلوا عطاءه ، واكتسب من خلاطهم إيمان الفقار ، والتأثر ببعض الأفكار ، فظهر شيء من ذلك في شعره ولا سيما وصف الخمر . وطال عمر الأعشى حتى أبيضت عيناه من الكبر . وسمع بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم فصنع في مدحه قصيدة وعزم الرحلة إليه بالجهاز ، فأوجس القرشيون خيفة من إسلامه : وقال لهم أبو سفيان : والله لئن أتى محمداً أو أتبعه كيضرَّ منَّ عليكم نيران العرب بشعره ، فاجموا له مائة من الإبل ، فقلعوا ، وأخذها الأعشى ورجع ؛ حتى إذا دنا من الجماعة سقط من فوق ناقته فدقت عنقه .

شعره

من الرواة وذوى البصر بالشعر من يحمل الأعشى رابعا لامرئ القيس وزهير والنابغة . ويقولون : أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب . وهذا وإن كان موضعاً للخلاف يدل على مكانة الرجل . وفي الحق أنك تجد في شعره ما لا تجد في شعر غيره من رونق الحسن ، وطلاوة الأسلوب ، والبراعة في وصف الخمر والإجادة مع الطول . . . وكان لشعره جلبة في السمع وروعة في النفس وأثر في الناس ، فسي قدامك صنّاعة

المرب . ولقد أمر بشعره وأذل ؛ وقصته مع الحلق^(١) ، وقرّنت القرشيين من إسلامه بـدلان على ذلك .

نموذج من شعره

ومن جيد شعره قصيدته اللامية التي علها بعضهم من اللقات ومطلها :
ودّع هرة إن الـكب مرّعل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل ؟
ومنها :

أبلغ يزيد بنى شيلان مالكة أبا نبيتِ أنا تفكّ تأكل
ألت متنياً من نحت أنلتا ولست ضارها ماألت الإبل
كناطح صخرة يوماً ليوها فلم يضرها وأوى قرنة الوعل
لقد زعمت بأنا لا قاتلكم إنا لأمثالكم يا قومنا قتل
قالوا الطراد ، قلنا تلك عادتنا ، أو تنزلون فإنا معشر نزل

ومن قصيدته التي أعلها المدح الرسول قوله :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وبثّ كما بات السليم مسجداً
وما ذاك من عشق النساء وإنما تناسيت قبل اليوم خلة مهجداً
ولكن أرى الهمر الذي هو خائن إذا أصلحت كفاى عاد فأفسدا
شباب وشيب واضرار وثروة فله هذا الهمر كيف ترددا

(١) الحلق وجعل من مشوري الرب وفرائهم ، كان أبا ثمانى بنات هوانس لم يقدم لخلبتهن أحد لكان أيمن من الخول والفقير . فافترحت عليه امرأته أن يضيف الأضيء معه فيسجد بذكره في شعره فيلبه . فأخافه وبحر له ثلاثة على قره ، فدفعه الأضيء بقصيدة بليغة من شيء منها في التماذج وأفسدما في مكاذب فلم يبق عام حتى لم يبق جارية من بناته إلا وهي زوج لبيد كرم .

ومنها :

فَأَلَيْتَ لَا أُرَىٰ لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ وَلَا مِنْ وَجَىٰ حَتَّىٰ تَلَاقَىٰ عَمْدًا
مَتَىٰ مَاتَنَاحِي عِنْدَ بَابِ ابْنِ هَاشِمٍ تُرَاحِي وَتَلْقَىٰ مِنْ فَوَاضِلِهِ نَدَىٰ
نَهَىٰ يَرَىٰ مَا لَا يَرُونَ وَذَكَرَهُ أَغَادُ لَعْمَرَىٰ فِي الْبِلَادِ وَأَعْبَدَا
لَهُ صَدَقَاتُ مَا تَنْبُثُ وَنَائِلٌ وَلَيْسَ عَطَاءُ الْيَوْمِ بِعِنَمَةٍ غَدَا

عنصرة ابن شداد

نَسَاءُ وَمِيَاءُ

هو أبو المثلّس عنصرة بن عمرو بن شداد العبسي ، نَجَلَهُ أب شريف وأم حبشية تدعى زُبَيْبَةَ ، فهو من هُجُفَاءِ الْعَرَبِ وَأَغْرَبِهِمْ ، فَاثْتَفَىٰ مِنْهُ أَبُوهُ مِنْذُ وَلَادَتِهِ عَلَى عَادَتِهِمْ فِي أَبْنَاءِ الْإِمَاءِ ، وَلَكِنَّهُ نَزَعَ بِنَفْسِهِ عَنْ حَالِ الْعِبُودِيَةِ ، وَأَخَذَ يَبْرُوزُ نَفْسَهُ عَلَى الطَّرَادِ وَالْفُرُوسِيَةِ حَتَّىٰ غَدَا مِسْمَرِ حَرْبٍ وَقَائِدَ كَثِيرَةٍ . وَاتَّفَقَ أَنْ بَعْضَ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ أَغَارُوا عَلَى عَبَسَ فَاسْتَأْقُوا إِلَيْهِمْ ، وَتَبِعَهُمُ الْبَسِيونَ وَعَنْتَرَةُ فِيهِمْ . فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ : كَرَّ بِاعْتَرَةِ . فَأَجَابَهُ وَهُوَ يَحْمَدُ عَلَيْهِ اسْتِمْلَاهُ إِيَّاهُ : الْمَبْدُ لَا يَحْسَنُ الْكَرَّ ، وَإِنَّمَا يَحْسَنُ بِالْخَلْبِ وَالصَّرِّ . فَقَالَ : كَرَّ وَأَنْتَ حَرَّ . فَكَرَّ وَقَاتَلَ قَتَالًا شَدِيدًا حَتَّىٰ هَزَمَ لِلنَّيَرِ بْنِ وَاسْتَرْجَعَ الْإِبِلَ ، فَاسْتَلْعَقَهُ أَبُوهُ . وَأَخَذَ اسْمَهُ مِنْذُ يَوْمَئِذٍ يَسِيرُ وَذَكَرَهُ يَطِيرُ حَتَّىٰ أَصْبَحَ مُضْرِبُ الْمَثَلِ فِي الْإِقْدَامِ وَالْجُرْأَةِ . وَلَهُ فِي تَقْلِيلِ شَهْرَتِهِ وَشَجَاعَتِهِ رَأْيٌ حَصِيفٌ لَا بَأْسَ بِذِكْرِهِ . قَالَ لَهُ قَائِلٌ : أَنْتَ أَشْجَعُ النَّاسِ وَأَشْدَعُهُمْ ، فَقَالَ لَهُ : لَا . قَالَ فَيَاذَا شَاعَ لَكَ هَذَا فِي النَّاسِ ؟ قَالَ : كُنْتُ أَقْدِمُ إِذَا رَأَيْتُ الْإِقْدَامَ عَزَمًا ، وَأَحْجَمُ إِذَا رَأَيْتُ الْإِحْجَامَ حَزَمًا ، وَلَا أَدْخُلُ مَوْضِعًا لَا أَرَىٰ لِي مِنْهُ مَخْرَجًا . وَكُنْتُ أَعْتَمِدُ الضَّمِيفَ الْجَبِيانَ فَأَضْرِبُهُ بِالضَّرْبَةِ الْهَائِلَةِ يَطِيرُ لَهَا قَلْبُ الشَّجَاعِ فَأَثْنِي عَلَيْهِ فَأَقْتُلُهُ .

قاد عنقرة كئاثب عيس في حرب داحس وانبراء فأحسن التقياد ، وبانح
أوج السيادة . ثم تنفس به العمر حتى وهن عظمه ورق جلده وقتل حواله
سنة ٦١٥ م .

شعره

لم يرو عن عنقرة في حال رفعة من الشعر جيد ولا ردى . لأن اليهودية ترين
على القلوب وتطغى ، ضرام المواطف ، فلما استأجقه أبوه وحالفه الفوز في حربه ،
واستولى حب عيلة على قلبه ، جاش الشعر في صدره وجرى على لسانه في الفخر
والحرب والحب ، نجاء بالله جيب اللطرب . تجمد لشعره حلاوة النزل ومتانة الفخر ،
إلا أن أكثره مدخول النسب لا يمت إليه إلا بشابه الأسلوب والفرض . فن
شعره الذى لا دخل في أصله معلقته الرقيقة النخعة التى نظمها دفعا عن شاعريته
وإثباتا لفصاحته : فقد حدثوا أن رجلا من عيس سابه فذكر سواده وأمه ، فقال
له عنقرة : « إني لأحضرُ اليأس ، وأوفى للفنم ، وأعف عند المسألة ، وأجود
بما ملكت يدي ، وأفضل الخطة الصياء » . فقال له الساب : أنا أشعر منك .
فقال : ستم ذلك . ثم غدا على الناس عندهيته للشهورة فقطع خصمه ونقض حكمه .

نموذج من شعره

قال من معلقته :

ولقد شربت من المدامة بدما	ركد المواجه بالشؤف الملم
فإذا سكرت فأنى مستمك	عالى ، وعرضى وافر لم يكلم
وإذا صحت فلا أقصر عن ندى	وكما علت ثنائى وتكرمى
ومدبج كره الكفاة نزاه	لاؤمن هربا ولا مستسلم
جادت يداى له بما جل طعنة	بمقرب صدق الكموب مقوم

فشكت بالرمح الأسم نياحه
فتركت جزر السباع ينشئه
لما رأيت القوم أقبل جمعهم
يدعون عنق والرماح كأنها
مازلت أرميهم بثغرة نحره
فأزور من وقع القنا بلبانه
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى
ولقد شفى نفسى وأبرا شقمها
والخيل تقضم الفار هوابسا
وقال أيضا :

بكرت تخوفنى الخوفَ كأنى
فأجبتها إن اللية منهل
فأقضى حياك لا أبالك وأعلى
إن اللية لو تمهل مثلت
إنى امرؤ من خير عبس مصبا
وإذا الكتيبة أحجبت وتلاحظت
والخيل تعلم والقوارس أنى
والخيل سامة الوجـ وه كأنما
ولقد أبيت على الطوى وأظله
أصبحت عن قرص الخوف بمزل
لا بد أن أسقى بكأس المنهل
أنى امرؤ ساسوت إن لم أقتل
مثلى إذا نزلوا بضك المنزل
شطرى ، وأحى سارى بالننصل
أنتيت خيرا من معم محول
فرقت جمهم بضربة فيصل
تسقى قوارسها نقيع الحنظل
حتى أنال به كريم للأكل

طرفة بن العبد

شأن وميانه

نشأ طرفة بن العبد بن سفيان البكري بئيا من أبيه ، فكفله أعمامه . فأهلوا تربيته وأسأوا أده . فشب ميالاً إلى الدعة والتبطل ، عاكفاً على اللهو والغر . مولداً بالرقوع في أعراض الناس . وقد دعاه نزع الشهاب أن يهبوا الملك عمرو بن هند على اضطرابه إلى رضائه ، وانفقاره إلى حبائه ، فاحتقدها عليه عمرو وأضمر له سوء . حتى إذا جاءه مع خاله للتلس يستجديان فضله - وكان للتلس قد هجاه أيضاً - هش لقاتهما يريد أن يؤمنهما ، وأمر لكل منهما بصلة وأحلمها بكتابين على عامله بالبحرين ليستوفيها منه . فلما كانا في طريقهما إلى العامل داخل للتلس من الصحيفة وسواس وم ، فالتبس من يقرأها له فإذا فيها : « بملك اللهم ، من عمرو بن هند إلى للكثير ، إذا أتاك كتابي هذا مع التلّس لاقطع يديه ورجليه ثم ادفنه حياً » فالتقى الصحيفة في النهر ، ثم قال لطرفة : ملك والله مثلها ، فقال كلا ما كان ليكتب لي مثل ذلك . وأخذ وجهه حتى أتى العامل بالبحرين فقتله وعره ست وعشرون سنة ^(١) .

شعره

كان طرفة مفذاً لحدائث متروفاً للأذن ، مضطرباً للشعور ، حادالبادرة ، فنيخ في الشعر وعُلمن غولوه وهو دون العشرين . ولكنه كعمرو بن كلثوم لم يشتره إلا بمقتته . ولله كان مكثراً وجبل الرواة أكثر شعره . يمتاز طرفة بصدق

(١) بديل قول أحده الغريق تربية :

معدنا له ستا وعشرين حبة فلما توفى ما استوى سيداً غنيا
لجنا به لا رجونا لياحه على خير حال لا وليما ولا غنيا

الوصف ، واليعد عن التلويح ، إلا أنه كان معقد التركيب مبهم المعنى غريب
لفظ ، وتجيد ذلك كله واضحاً في معلقته التي ابتدأها بالفلز ، واستطرد إلى
وصف ناقته فوصفها بخمسة وثلاثين بيتاً من عيون الشر ومبتكره ، ثم أتمن
بعد ذلك في الفخر بنفسه ، وهي من أمتن الشعر وأبلغه ، وهاك تحليلها بإيجاز.

تحليل موجز لمعلقته

ابتدأها طرفة بذكر أطلال (خولة) وتشبيهها ببقية الوشم في ظاهر اليد؛
ثم وقف بها وقفة قصيرة تخيل فيها قباب الحبيبة غداة ظلمها فوصفها وصفاً
موجزاً ، ثم نعتها هي نعتاً جميلاً هاج في صدره ألم فنجاً من تذكاره واحتضاره
على ناقه وصف أعضائها وأوضاعها في إسهاب وإغراب وإجادة :

وإني لأمضي ألم عند احتضاره بهوجاء مرقال تروح وتنتدى
تبارى حناقاً ناجيات ، وأتبستْ وظليفاً وظليفاً فوق مؤر مُعبّد
صهايبية المثنون مُوجدة القرا بعيدة وخد الرّحل موارة اليد
وأطلعُ نهاضاً إذا صعدتْ به كسكان بُوصى بدجلة مُصمّد

ثم يفرغ لنفسه فيصقها باللهو في السلم وبالخطارة في الحرب فيقول :

إذا القوم قالوا: من قَتى؟ خلّت أنى عنيت فلم أكسل ولم أتبلد
ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد
فلن تبغى في حلقة القوم تلقى وإن تلتسنى في الحوانيت تصطد
وما زال تشراي الخور ولدتى ويى وإضاقى طربى ومُتلى
إلى أن نحامتى الشيرة كلها وأفردت أفراد البعير المبدّ
رأيت بنى غبراء لا ينكرونى ولا أهل هذاك الطرف المدد

ألا أيها الزاجري أحضر الوعى . وأن أشهد الذات هل أنت مُخلدى؟
 فإن كنت لا تستطيع دفع ميني فدعني أبادرها بما ملكت يدي
 ثم يملن في صراحة وصدق أن غايته من الدنيا إنما هي الخمر والحب والتجعة؛
 ولولا هذه الذات الثلاث ما رغب الحياة ولا رهب الموت .

ولولا ثلاث هن من عيشة الفنى لعمرك لم أحفل متى قام عودى
 فمن سبقي المازلات بشرية كُتبت متى ما تُلّ بالماء تزيد
 وتقصير يوم الحزن والحزن معجب بهكمة تحت الظماء للعمد
 وكركرى إذا نادى المضاف مُحبباً كسيد النضى ذى السورة التورد
 ثم يدعوه استعجاله الازدة ومبادرته الهوى وإتلافه المال واقتصامه الخطر انهازاً
 لفرصة الحياة واستمتاعاً بقصر العمر إلى نوع من الفلسفة فى البخل واللوث فيقول:
 أرى قبر نحام بجحيل بماله ككفر غوى في البطالة مفسد
 أرى الموت يمتام الكرام ويصطفى عقيلة مال القاحص للتشدّد
 أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة وما تنقص الأيام والاهرُ يفقد
 لعمرك إن الموت ما أخطأ الفنى لكما الطول المرخى وثنياء باليد
 متى ما يشأ يوماً يفسده لحظه ومن يك في حبل الميتة يفقد
 وبعنى الشاعر بمد ذلك زارياً على ابن عمه ، شاكياً من ظلم قومه ،
 مفتخراً بحسن بلائه وقوة عزمه :

فالى أرائى وابن عمى مالكا متى أدن منه ينأ عنى ويبعد
 وظلم ذوى القسرى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام للهند
 أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيداً غداً ، ما أقرب اليوم من غدا

أنا الرجل الصَّربُ الذي تعرفونه خشاشٌ كُرَّاسُ الحِمَّةِ للتعرفه
إذا ابتدر القوم السلاح وجدتنى منيماً إذا بَلَّتْ بَقَاعُهُ يَدِي
فلو كنتُ وغلا في الرِّجال لضررتُ مداوَةً ذِي الْأَصْعَابِ وللتوحد
ولكن نفي عن الرِّجال جرائق عليهم وإقْدائى وصدق ومعتدى
ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

عمرو بن كلثوم

نشأته وحياته

نشأ عمرو بن كلثوم بن مالك النخعي بالجزيرة القراتية بين ذوى الحسب
الباب من تغلب ، وشبَّ على خلال المظاء عزيز النفس أبى الضمِّ ذَرِبَ اللسان .
وما كاد يناهز الخامسة عشرة من عمره حتى كان طريقة قومه وقائد قبيلته . وكان
قطباً لرحا الحروب التي دارت بين بكر وتغلب من جراء البسوس وأبلى فيها البلاء
الحسن حتى تصالح الحيان لآخر مرة على يد عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة من
آل اللندر . على أن أمَدَ ذلك الصالح لم يبال ، فانشقت الدماء بين وجوههم
ونزَّتْ في ردوسهم الحفيظة ، وتلاحوا في مجلس عمرو بن هند ، فقام الحارث
ابن حِزَّة شاعر بكر وألقى مملقته للشهيرة فسقط هو إلى قومه ، وكانت
ضليمة مع التتاليين . فانصرف ابن كلثوم موغز العذر على ابن هند . وحدث
بعد ذلك أن لاث قال لبعض خاصته . أتعلون أحداً من العرب تأنف أمه
من خدمة أمي ؟ فقالوا لا نعلمها إلا أيلى أم عمرو بن كلثوم ، فإن أباهما مهمل
ابن ربيعة ، وعمها كليب بن وائل ، وسلمها كلثوم بن عتاب فارس العرب ، وابنها
عمرو بن كلثوم سيد قومه . فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستنزيهه
ويسأله أن يزيّر أمه أمه . فأقبل عمرو وأمه من الجزيرة في جماعة من تغلب .

وأمر الملك برواقه فضرب ما بين الحيرة والفرات ، وأرسل إلى وجوه مملكته
فحضروا وكان عمرو بن هند قد أغرى أمه أن تستخلم ليل بنت مهمل في قضاء
أمر . فلما دخلت عليها الرواق واطمأن بها المجلس ، قالت لها : ناوليني الطبق .
فأجابتها : لنقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها . فلما ألحت صاحبت ليل : واذلاه !
فسمعها ولدها فثار به الغضب وقتل ابن هند في مجلسه . ثم عاد توأ إلى الجزيرة
فأنشد قصيدته المملقة . واستهالها بذكر الخمر والفرز ، ثم وصف فيها أمره مع
عمرو بن هند ، واقتخر بنفسه وقومه . ولقد تجاوبتها الجامع وتناقلتها الألسنة
وأكثر بنو تغلب من إنشادها وروايتها حتى قل فيهم الشاعر .

الهي بنى تغلب عن كل مكرمة قصيدةً قالها عمرو بن كلثوم
يفخرون بها مذكراً أو لم يذكروا
وكانت وفاته في أواخر القرن السادس للميلاد .

شعره

عمرو بن كلثوم شاعر غمر البديهة ، رائق الأسلوب ، نبيل الغرض ؛ إلا أنه
مقل . لم يتقلب في فنون الشعر فلم يرخ العنان لسليقته ، ولم يطع سلطان قريحته .
وكل ما روى عنه مما قلته وبعض مقطوعات لا تخرج عن موضوعها .

نموذج من شعره

قال من مملقته :

أيا هند فلا تجعل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا
بأننا نورد الرأيت بيضا ونعدهن حرأ قد رويننا
ورثنا المجد عن عليا معدة نطاعن دونه حتى بيننا

كان سيوفنا منا ومنهم	مخارق بأيدى لاهينا
إلا لا يجهل أحد علينا	فذهل فوق جمل الجاهلينا
بأى مشيئة عمرو بن هند	تطيع بنا الوشاة وتزدرينا ؟
فإن قناتنا يا عمرو أعيت	على الأعداء قبلك أن تلينا
وقد علم القهائل من معدة	إذا قُيبَ بأبطحها بُنيينا
بأنا المطمعون إذا قدرنا	وأنا المهلكون إذا اجلينا
وأنا اللانعون لما أردنا	وأنا النازلون بمحيث شينا
وأنا التاركون إذا سخطنا	وأنا الآخذون إذا رضينا
ونشرب إن وردتنا ماء صفوا	ويشرب غيرنا كدراً وطينا
إذا ما اللدك سام الناس خفوا	أبيننا أن نهر الخسف فينا
لنا الدنيا ومن أسمى عليها	ونبطش حين نبطش قادرينا
ملأنا البحر حتى ضاق عنا	وماء البحر نملأه سفينا
إذا بلغ القنطام لنا صهي	نخر له الجبار ساجدينا

الحارث بن حلزة

نشأته وحياته

هو أبو الظلم الحارث بن حلزة اليشكري البكري . كان في بني بكر مكان عمرو بن كلثوم في بني تغلب . وقد اشتهر مثله بمقامته التي يقال إنه ارتجلها عموا الساعة في حضرة الملك عمرو بن هند يستدنى بها عطفه ، وينضع فيها عن قومه . وكان من أمرها أن بكرًا وتغلب بعد أن وضعوا أسلحتهم أمام عمرو بن هند

على أن يأخذ من الفريقين رهائن ليقيمهما للبنى عايمين الباغى ، تراشق الحيان
بالتهم^(١) ورمت تغلب بكرة بالنسر ، وتدافع الفرغان إلى عمرو بن هند وتلاحوا
أمامه ، وكان هواه مع التغلبين . فاستقر ذلك الحارث بن حازم وكان حاضرا .
فابتدء قصيدته ابتدأها وأنشدها وهو متكئ على قوسه . فيقولون إن كفه
اقتطعت وهو لا يشعر من الغضب . وقد أجاد في مدح الملك حتى استولى على رأيه ،
ومال به إلى حزبه ، واستل من قلبه سخيمة غرسها تهوور النعمان بن هرم زعيم
قومه . وعمر الحارث طويلا حتى زعم الأصمى أنه أنشد هذه القصيدة وله من
العمر خمس وثلاثون ومائة سنة .

شعره

كل ما بين أيدينا من شعره معلقته وبعض مقطوعات يسيرة لا تملل شهرته
ولا تميز طبخته . فهو في هذا كما قلنا أشبه بطرفة وعمرو بن كلثوم . على أن
مطلوته بلغت مكان الإعجاب لإحكام نسجها وتسميع فنونها ، وأرتجالها في موقف
واحد . وقد قال أبو عمرو الشيباني . « لو قالها في حول لم يتم » ويقولون : إنه
أنشدها من وراء ستور ليرصه ، فأمر الملك برفعها استجسا لها وتسكرة له .
بدأها بالنزل ثم وصف ناقته وغير التغلبين مواقع ظهورها عليهم فيها ، وآتى على
كثير من أيام العرب ، ومدح عمرو بن هند ، واقتصر بقومه وحسن بلائهم عنده .

مؤرجع من شعره

قال من معلقته :

إن إخواننا الأرقام يغلو ن علينا في قيلهم إخفاه

(١) وسبب هذه التهم أن الملك بشى بعض حاجه برك من تغلب فملكوا . فادعت
تغلب أن قتياتهم نزلوا على ماء بكر فسلموه عنه وحلوه على البداء فانزوا مطعنا . وعارضت
بكر بأنهم سقوه ومدوم الطريق فنزلوا وملكوا .

يَحْلُطُونَ الْبَرَىءَ مَتًّا بَذَى الدَّاءُ ب ولا يَنْفَعُ الْخَلَىءَ الْخَلَاءُ
 أَيُّهَا النَّاطِقُ الْمَرْقَشُ عَنَّا عند عمرو وهل لَدَاكَ بقاء ؟
 لَا تَحْكُنَا عَلَى غِرَاتِكَ إِنَا قبل ما قد وشى بنا الأعداء
 فَبَقِينَا عَلَى الشَّنَاءِ تَنْبِيءِ سَنَّا حَصُونٌ وَعَزَّةٌ قَعَاءِ
 مَلِكٌ مُقْسَطٌ وَأَفْضَلُ مِنْ بِيءِ شى ومن دون ما لَدَيْهِ الثَّنَاءُ
 أَيْمًا خَطَّةٌ أَرْدَتْهُمُ فَاذْوُ ها إِلَيْنَا تَسَى بِهَا الْأُمْلَاءُ
 فَاتْرَكُوا الطَّيْنِجَ وَالتَّمَاشَى وَإِذَا مَا تَتَمَاشَا فَقَى التَّمَاشَى الدَّاءُ
 وَاذْكُرُوا حِلْفَ ذِي الْجَازِ وَمَا قَدَّ م فِيهِ الْعُودُ وَالْكَفْلَاءُ
 وَاعْلَمُوا أَنَّهَا وَإِيَّاكُمْ فِي مَا اشْتَرَطْنَا يَوْمَ اخْتَلَفْنَا سَوَاءِ
 أَعْلَيْنَا جَنَاحَ كَنْدَةَ أَنْ يَفِ نَمَ فَازِيَهُمْ وَمَتَّا الْجَزَاءُ ؟
 وَمِنْهَا فِي وَصْفِ التَّاهِبِ لِرَحِيلِ :

أَجْمَعُوا أَمْرَهُ عِشَاءَ فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ
 مِنْ مَنَادٍ وَمِنْ مَجِيبٍ وَمِنْ تَهْ هَالِ خَيْلٍ خِلَالِ ذَلِكَ رُغَاءُ
 وَمِنْهَا :

لَا يَقِيمُ الْعَزِيزُ بِالْبَلَدِ السَّمِ لِي وَلَا يَنْفَعُ الدَّلِيلُ النَّجَاءُ
 لَيْسَ يَنْعَى مَوَاتِلًا مِنْ حَذَائِرِ رَأْسِ طُودٍ وَحَرَّةٍ رَجَاءُ

لَيْسَ بِنَ رَيْبَةٍ

شَأْنُهُ وَمَعِيَّتُهُ

هو أبو بَقِيلِ أَيْدُ بْنُ رَيْبَةَ الْمَامِرِيُّ . نَشَأَ رَيْبُ بْنُ الْفَدَى وَالْبَاسُ . فَأَبُوهُ
 رَيْبَةُ الْمَعْتَرِينَ ، وَعَمُّهُ مُلَاعِبُ الْأَسَنَةِ فَارِسُ مَضَرَ . وَسَبَبُ قَوْلِهِ الشَّعْرُ أَنَّ الرَّيْبَ

ابن زياد أمير عيس ، وم أخواله ، دخل على النعمان بن المنذر فذكر بالسوء
بني عامر وهم قومه . فلما دخل العامريون على الملك وعلى رأسهم ملاعب الأسة
خض منهم ، وذوى وجهه عنهم ، فقال ذلك من بني عامر وشق عليهم . وكان ليبيد
يومئذ صغيراً فسالهم أن يشركوه في أمرهم فاستصروه . ولما ألح في المسألة أجابوه .
فوعدهم أن ينتقم لهم بهجاء الربيع حتى يحول بينه وبين مناداة الملك . فقالوا له
إنا نبولك . فقال : وماذا ؟ قالوا : تشتم هذه البقة . وأمامهم بقة دقيقة القضبان ،
خليلة الورق ، لاصقة بالأرض ، تُدعى الثربة . فقال : « هذه الثرة لاندكي ناراً ،
ولا تؤهل داراً ، ولا تسرجاراً ؛ عودها ضئيل ، وخيرها قليل ، وفرعها قليل .
أقبح البقول مرغى ، وأقصرها فرعاً ، وأشدّها قلماً » فأذنوا له فجهاد بأرجوزة
مُقدِّمة أولها . مهلاً أبيت الأمن لأننا كل مع الخ .

ففر منه الملك ومقته وطرده وأكرم العامريين وأدناهم . قالوا وكان هذا
أول ما اشتهر به ليبيد . ثم أخذ يقول الشعر قصاره وطواله ، حتى ظهر الإسلام
فأقبل على الرسول في وفد من قومه فأسلم ، وحفظ القرآن وهجر الشعر ، حتى
زعموا أنه لم يقل بعد الإسلام إلا بيتاً واحداً وهو :

الحمد لله إذ لم يأتني أجل حتى ليست من الإسلام سربالا
وقد كنت عدّ جاهلياً وإن عرّ في الإسلام طويلاً .

ولما مُصرت الكوفة ذهب إليها في خلافة عمر وأقام بها حتى توفي في
أول خلافة معاوية سنة ٢١ من الهجرة . وقد عاش بآقل خسا وأربعين سنة
ومائة حتى قال بحق :

واقدمت من الحياة وطولاً وسؤال هذا الناس كيف ليبيد

شعره

كان ليبيد ضافاً الجود ، وافر اللب ، نبيل النفس ، جم الروة ، مُشيع

القلب . فسالت أخلاقه وعواطفه في شعره ، وتمثلت مبادئ النبيل والكرم في نغمة ؛ وجاء نظمه فخم البشارة ، منضداً لا يفتقر ، قليل الحشو ، مزداناً بالحكمة العالية والموعظة الحسنة والكلم النوايح . ولعله أحسن الجاهليين تصرفاً في الرثاء وأقدرهم على تصوير عواطف الحزون الصابر . انتظر رائق وأسلوب مؤثر .

وأما معلقته فهي قوية الألفاظ متينة الأسلوب ، تصور حياة البادية وأخلاق البدو ، وتصف هوى النفوس الماجة ومطمح القلوب الكبيرة .

بناها بوصف الطول وذكرى الحبيبة ، ثم أطال في وصف ناقته على نحو ما فعل طرفة ، ثم مضى يصف حياته وملذاته وجوده وبأسه حتى انتهى إلى التفخر بقومه ، وكل ذلك في صدق وإخلاص وقصد .

نموذج من شعره

قال في معلقته :

إنا إذا التقت الجامع لم يزل	معا إرازٌ عظيمة جشامها
ومقسمٌ يعطى المشيرة حقها	ومتمذمرٌ لحقوقها هضامها
من معشر سنت لهم آباؤهم	ولسكل قوم سنة وإمامها
لا يطعمون ولا تبور قمامهم	إذ لا تميل مع الهوى أحلامها
فاقنع بما قسم الملك فإنما	قسم الغنائق بيننا علامها
وإذا الأمانة قُسمت في مصر	أوفى بأوفر حفظا قسامها
فبني لنا بيتاً رفيعاً سمك	فما إليه كهلها وغلامها
وم السعاة إذا المشيرة أفضلت	وم فوارسها وهم حكامها
وم ربيعٌ للمجاور فيهم	والمرمات إذا تطاول عامها

وقال يرى أخاه إريد :

تبلىنا وما تبلى النجوم الطوالع	وتبقى الديار بعدنا والمصانع
وقد كنت في كفاف جار مضنة	ففارقني جار بأربد نافع
فلا جزع إن فرق الدهر بيننا	فكل امرئ يوماً به الدهر طاج
وما الناس إلا كالديار وأهلها	بها يوم خلّوها سراحوا بلاع
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه	يمحور رماً بعد إذ هو ساطع
وما اللال والأهلون إلا ودائع	ولا بد يوماً أن ردّ الودائع
وما الناس إلا عاملان فعامل	يُتَبَرُّ ما يبقى وآخر رافع
فمنهم سعيد آخذ بنصيبه	ومنهم شقي بالمعيشة قانع
لمسركم لتدري الضوارب بالخصى	ولا زاجرات العير ما الله صانع

حاتم الطائي

نشأته ومبائه

حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي توفى أبوه وهو وليد فنشأته أمه وكانت كثيرة المال ، نقاحة اليدين بالنوال ، لائق مما علك شيئاً ، فحجر عليها إختونها وحبسوها سنة عليها تذوق طعم اليأس ، وتذكر فضل النقي . فلما أطلقوها وملكوها قطعة من مالها أنها امرأة من هوازن مستعجدة ففتحها إياها وقالت : منى من الجوع ما آليت معه ألا أمتع سائلاً شيئاً .

ربته هذه الأم الوهوب ، فورثته هذا الخلق وغذته بلبانه ، فشب على الندى يهرئه وينلوفيه حتى بلغ منه حد السفه . فكان وهو غلام عند جدته يخرج طعامه ، فإذا وجد من يؤاكله أكل وإلا طرحه . فساء منه هذا التبذير فألحقه

بالإبل ، فربّه ذات يوم عبيدين الأرض وبشرين أبي خازم والثابتة القدياني
وهم في طريقهم إلى النمان فاستقروا ، فتعر لكل منهم بغيراً وهو لا يعرفهم .
فلما نسموا له فرق فيهم الإبل وكانت قرابة ثلاثمائة وجاء جدّه مبتهجاً
يقول له : « طوّقتك مجد الدهر طوق الحمامة » وحدّثه بما صنع ، فقال له :
إذن لا أسألك . فقال : إذن لا أبالي . ثم قال من أبيات :

وإني لعفّ القفر مشترك الفنى وتارك شكل لا يوافقه شكلى
وأجعل مالى دون عرضى جنةً لنفسى وأستغنى بما كان من فضلى
وما ضرني أن سار سعدٌ بأهله وأفردني في الدار ليس معي أهلى

وفشا ذكر حاتم في الجود ، وجرت سماحته مجرى المثل ، وروى عنه في ذلك
الأعاجيب وأكثرها من صرف الحديث ^(١) وماسييل الرواة في أخبار حاتم
في الجود إلا سيّلمهم في أشعار أمية في الدين ، وعنترة في الحماة ، وأبي التماهي
في الزهد ، وأبى نواس في المجون : يقتلون للشئ من ذلك لنرض من الأغراض
ثم يمزونه إلى من هو أشبه به من هؤلاء .

(١) قلص عليك من تلك الأخبار خيراً يستند إلى إحدى زوجتيه التوار أو ماوية؟ ويحتاز
ببلاغة تعبيرة وحسن تصويره ، وهو أشبه شيء بقصيدة لوجود في ديوانه (سير المهجور)
منها (الناس الفقراء) Les Pauvres رقد ترجمتها في كتابي : (مختارات من
الأدب الفرنسي) فالت الرواية :

« أما بقينا سنة القسرت لها الأرض واغبر أدنى السياه . وراحت الإبل حديدا حماير ،
وضفت الراضع على أولادها فابض بقلمرة . وحلقت السنة للال وأيقنا بالهلاك . فأنانا لني ليه
صنر ببيعة ما بين الطرفين إذ تضافى صبيحتا حوما : عباد الله وعدى وسفانة ، فقام حاتم إلى
الصبيين وقت أنا إلى الصبية . فوافة ما سكوة إلا بعد مدأة من الليل . وأقبل يلقى بالمحدث
لفرفت ما يريد ، فتناومت . فلما تهوّر النجوم إذ شيء قد رفم كسر البيت ثم عاد فقال .
من هذا ؟ فقالت أنا حارثك قلانة . أنا أنتيك من عند حبة بتناووز عواء الغتاب من الموح .
فما وجدت مولا إلا عليك أبا عدى انقال احليم فقد أشمكت الله وإلام . فاقبلت للرأة تعمل
إتبن وعشى حانها أربة كأنها نامة حولها رثالها ، فقام إلى فرسه لوجاً ليتة عدية ، فخر ؟
ثم كشف من جعبه ودفع اللعبة إلى المرأة فقال لها : حانك . فاجتمنا على النسم نثرى ونأكل =

وكان حاتم كما قال ابن الأعرابي منقراً . إذا قاتل غلب ، وإذا ساق سبق ،
وإذا ضرب بالقداح فاز . وكان إذا أهل الشهر الأهم (رجب) - وكانت مضر
تمتظمه في الجاهلية - نحر كل يوم عشرة من الإبل فأطعم الناس واجتمعوا إليه .

ثم ببى حاتم على النوار ثم على ماوية بنت عفزر إحدى بنات الملوك من
اليمين ، فوكله منهما عبد الله وسفانة وعدي ؛ وقد أدرك هذان الإسلام فأسلما .
ولم يزل حاتم على حاله في إطعام الطعام وإنهاب المسال حتى مضى لسبيله
سنة ٦٠٥ م .

أخوه

كان حاتم على خلق عظيم قل من أوتيته في الجاهلية : كان طويل الصمت
رقيق القلب جم المروءة لم يقتل قط واحداً أمه ، ولم يظلم ضميماً من بني عمه :
فإنى وحدي رب واحد أمه أجرت فلاقتل عليه ولا أسر
ولا أظلم ابن العم إن كان إخواني شهوداً وقد أودى بإخوته الدهر

وقد وصفته سفانة ابنته يوم قامت بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم
ترجو أن يحل عنها وهي سبية قالت : كان أبي يفك العاني ويحیی المرمار
وإرى الضيف ويفرج عن المكروب ويظلم الطعام ويفشى السلام ولم يرد طالب
ساجدة قط . فقال لها الرسول (ص) يا جارية هذه صفة المؤمن ، لو كان أبوك
إسلامياً لترحمنا عليه . خلوا عنها فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق .

== ثم جل دعى في المي يأتهم بيتاً بيتاً فيقول : هيا أيها القوم ! عليكم بالنار . فاجتمعوا
والنعم في أنوبه ينظر إلينا ، فوافه ماذا من مشقة وإنه لأحوج إليه منا . فأسجنا وما على
الأرض من الفرس إلا عظم وحائر . . وسوسم للشفقة في هذا الصنيع أن حاتم كان يهود بكل
شيء . فاعلموا لرسه وسلاحه .

شعره

لا جرم أن الانسان ترجح القلب ، والشعر مرآة الشعور . وما قدمناه لك من أخلاق حاتم تجده متمثلاً في شعره ، مؤثراً في قرْضه ؛ فلنقله سهل رقيق ، وأسلوبه محكم وثيق ؛ وغرضه سامٍ شريف ، على غير ما نهده في شعراء الهادية : وقدك قال ابن الأعرابي : « جوده يشبه شعره » ومعنى ما يقول أنه غزير البحر فياض بالأمثال والحكم الداخلة في باب الجود والعدل فيه ، وجمال الذكر والحرص عليه . وما ترى من التفاوت في شعره إنما يرجع إلى كثرة اللدوس عليه والنسب زوراً إليه ، وهو من شعراء الطبقة الثانية . وقد جمع شعره في ديوان وطبع بليدن ويروت .

نموذج من شعره

قال من قصيدة له :

أماوى إن المال غادٍ ورائح	ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوى إنا مانعٌ فبين	وإما عطاء لا يثبتنه الزجر
أماوى ما ينفي الثراء عن الفقى	إذا حشرت يوماً وضاق بها الصدر
أماوى إن يصيحُ صدائى بقفرة	من الأرض لأماء لدى ولا خر
ترى أن ما أنفقت لم يكُ ضرفى	وأن يدي بما مجلت به صفر
أماوى إن المال إنما بذلته	فأوله شكر وآخسره ذكر
وقد يعلم الأقوام لو أن حاتماً	أراد تراء المال كان له وفر
وقال أيضاً :	

تعلم من الأذنين واستيقن ودم
ولن نستطيع الحلم حتى تحلما

وفسك أكرمها فإنك إن تهن
أمن في الذي تهوى التلاد فإنه
قليلاً به ما يحمذك وارث
مقى ترقى أضغان المشيرة بالأنى
وعوراء قد أعرضت عنهما لم تضر
وأغفر عوراء الكرم ادخاره
ولن يكسب الصلوك مجد ولا غنى
لما الله صملوكا مناه ومه
ومن معانيه الجلية قوله :

إذا كان بعض اللار رباً لأهله فإني بحمد الله مالى ممد

أمية بن أبى الصلت

تأثر وعبار

أبو عثان أمية بن أبى الصلت التقى كان يمارس التجارة طوال عمره ،
فهاجرة إلى الشام وتارة إلى اليمن . وكان مغطوراً على التدين ، فلقى في بعض أسفاره
بعض القسيسين والرهبان فسمع شيئاً من الأسفار الأولى فالتبس الدين وليس
لنسوح وحرم الخمر وشك في الأوثان وطمع في النبوة ، وقال في دين إبراهيم .
كل دين يوم القيامة عند الله - إلا دين الحليفة زور
فلما بُعث الرسول صلى الله عليه وسلم سخط في يده وكفر به حسداً وقال :
إما كنت أرجو أن أكونه . فنزل فيه قوله تعالى . (وَأَنْزِلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي
آتَيْنَاهُ آبَاءَنَا فَأَنْسَخْ مِنْهَا فَأْتِبَهُمُ الشَّيْطَانَ فَكَانَ مِنَ الْمَتَابِينَ) . ثم أخذ

محرض على الرسول ويرى قتل أعدائه في واقعة بدر ، فعفى عن زوايا شعره في ذلك . وكان إذا سمع الرسول شعره في التوحيد يقول : آمَنَ لسانه وكفر قلبه . ثم قرأ أمية بابتته إلى أقصى اليمن وعاد إلى الطائف فمَلَقَتْهُ هناك أوهاقُ اللية . وقد قال لما أخذته غشية الموت وأفاق منها : ليبيكا ليبيكا ! هأنذا الدبيكا . لا مال يقديني ، ولا عشرة تنجيني ! إن تنفر الهم تنفر جما ، وأى عبد لك لا أُلما ؟ ثم أقبل على من حضر وقال :

كل عيش وإن تطاول دهرًا منتهى أمره إلى أن يزولا
ليني كنت قَبْلَ ما قد بدا لي في رموس الجبال أرمي الوعولا
اجمل الموتَ نَصْبَ عينيك واحذر غَوَاةَ الدهر ، إن للدهر غولا
وأكثر تاريخ هذا الشاعر من زور الحديث وتلفيق الرواة .

شعره

انصرفت قريحة أمية إلى الممانى الدينية فاشتهر بها أمره ، واصطبغ بها شعره ، فوصف الله وجلاله ، وذكر الخشر وأهواله ، ونست الجنة والنار ولللائكة ، ونظم حوادث التوزاة كغراب سدوم وقصة اسحاق وإبراهيم ، وأدخل في الشعر معاني وأساليب ، وفي اللغة ألقاظًا وتراكيب ، لم يألها الشعراء ولم يعرفها العرب ، بعض ذلك من العبرية وبضه من محدثاته ، فكان يسمى الله عز اسمه بالسُلَاطِيط والتفَرُّور ، والسماء بالصاقورة والحاقورة ، ويزعم أن القمر غلافًا يدخل فيه يوم الخسوف اسمه الساهور ؛ ولذلك كان الأقويون لا يمتنعون بشعره .

ومذهب ابن أبي الصلت في شعره لم يصمد في عصره ، فتحله العلماء ما جاء على شاكلته ولم يعرفوا قائله . ورواة الشعر يمدونه في الطبقة الأولى ، ولكن ما بين أيدينا من شعره لا يؤيد هذا الرأي ، فإن أكثره قلبي اللفظ سيخيف

للتسج نأبي الثقافية ، إلا أن يكون الزمان قد مضي على أجوده فقد قال الحجاج
على اللبر : « ذهب قوم يعرفون شعر أُمَيَّة ، وكذلك اندراس الكلام » .

نحوذج مره شعره

قال يعاتب ابنك له كان قد عقه :

غذوتك مولوداً ومُنتك يا فمًا	تَمَلِّ بِمَا أَجْنَى عَلَيْكَ وَتَهْلُ
إذا ليلة نابتك بالشجوى لم أبت	لشكواك إلا ساهراً أَعْمَلُ
كأني أنا المطروق دونك بالقي	طرقت به دوني ، فعمي تهمل
تخاف الردي نفسي عليك وإنني	لأعلم أن الموت حتم مؤجل
فلما بلغت السن والناية التي	إليها مدى ما كنت فيك أؤمل ،
جعلت جزائي غلظة وفظاظة ،	كأنك أنت للنعم التفضل

ومن قوله :

الحمد لله مُمَسَّنا ومُصْبِحنا	بالحمد صَبِحنا ربنا ومَسَّنا
رب الحقيقة لم تنفد خزائنه	مملوءة ، طَبَقَ الآفاق سلطاننا
ألا نهي لنا مفا فيضخبرنا	ما بعد غايقتنا من رأس عياننا
وقد علمنا لو أن العلم ينفعنا	أن سوف يلحق آخرانا بأولانا

نشأة الخط في بلاد العرب

الخط مظهر من مظاهر الحضارة، وأثر من آثار الاجتماع والتجارة. فذلك كان أسبق الأمم إليه المصريون والفينيقيون. وأجمل الناس به البدويون، فلم يعرفه العرب إلا في الجلمة التي عرقها الحضارة وارتقت فيها العبارة وهي البين. كان البينيون يستعملون خطاً يسمونه للسند باسم لغتهم، يكتبونه حروفاً مفصلة ويزعمون أن الوحى نزل به على كاتب هود. ولكن المكتشفات الأثرية وعلم مقارنة اللغات أثبتت أن الخط الفينيقي مصدر الخطوط السامية، وأن الآراى والسند بأنواعه^(١) مشتقان منه، ومن الآراى اشتق الخط النبطي، وحران، والسطر، نحيلي السرياني في العراق، وهذان الخطان هما الأصلان للخط العربي، فمن الأول تولد الشكل النسخي، ومن الثاني تولد الشكل السكوفي، وكان يعرف قبل الإسلام بالحيري نسبة إلى الحيرة. وقد تعلم عرب الشمال الأول أثناء رحلاتهم إلى الشام، وتعلموا الآخر من الأنبار: تعلمه بشر بن عبد الملك الكندي أخو كندير بن عبد الملك الكندي صاحب دومة الجندل؛ وخرج إلى مكة فصار حرب بن أمية جد معاوية، فله جماعة من القرشيين فكثرت من يكتبه منهم. ولما مضت الهكوفة^(٢) وشاع استعماله في الكتابة على مسجدها وقصورها ناله شيء من النظام والزخرف فسمى بالسكوفي.

(١) أنواع الخط السندى: السفري والتمودي والحلياني والنبطي، والحيري في الجنوب.

(٢) أمر بتدويرها الخليفة عمر بن الخطاب رأى العرب قد اكتفت وجوههم وخذلتها وخزمتها للعائين وحجة: أمر سعد بن أبي وقاص أن يرزق العرب منزلاً يربوا يربوا لا يبعول بينه وبينهم فيه بحر ولا جسر. فوقع اختياره على موضع السكوفة فسكنه به في الحرم سنة ١٨ هـ. ثم أذن الخليفة أن يبنى بيوتاً من القصب فأحرقت، فأعاد بناها بالبن من إذته. وفي هذا العام نكح بنت الأبنية بالبصرة: وقد تزوجها السليمان سنة ١٤ هـ، فصار الجوان منذ يومئذ مركزين حريين تجاريتين لهما في تاريخ الإسلام والأدب مكان ظاهر.

[illegible]

الباب الثاني

عصر صدر الإسلام والدولة الأموية

الأدب الإسلامي

مؤامره ، مصادره ، أنواعه ، طائفه

تركنا العصر الجاهلي والجزيرة العربية يهدر جوفها من ضرم الحياة هدير الجيم للكفلوم . وزيد بجوفها الحجاز بعد ماخذ النشاط العربي في الجنوب باستيلاء الفرس على اليمن ، وفي الشمال بإفنائهم إمارة الاضميين في العراق ، فارتد تيار النهضة العربية إلى الحجاز وتدفق في مدنه ، ولاسيما مكة ؛ لأن مكة يومئذ كانت مثابة العرب لوجود البيت ، ومقلّ الروية لاعتصامها بالمعراء من النفوذ الأجنبي ، وجمع الثروة لوقوعها في طريق القوافل الآتية من الجنوب تحمل متاجر الهند واليمن إلى الشام ومصر ؛ فهي سوق تجارية ومحجّة دينية يؤمها العرب من أطراف الجزيرة يشتررون منها السلع الأهلية والأجنبية ، ويقضون مناسك الحج ، ويشهدون موسم عكاظ ، ويتذوقون في ظلال الأشهر الحرم — وهي الهدنة العامة للقدس — نعمة السلام وقد الهدوء ، ويصلون بينهم ما قطعته أسنة الرماح في الفترات والحروب وكانت قريش قطب الرحا لهذه الحركة الدينية والاقتصادية والاجتماعية لولايتها على السكبة ، ورياستها في عكاظ ، وزعامتها في التجارة ، وغناها من الإيلاف ، ونقلها في البلاد ، وتبرسمها في الأمور ، وصلتها بمختلف الشعوب ، فأخضعت العرب لسلطانها بالدين والشرف والمال ، وفرضت عليهم لغتها وأدبها ، فكادت الهجرات بفعلها تتحد في لهجة واحدة ، والقلوب بدليلها تتجه نحو غاية واحدة وكان اليهود في أثرهم واليمن فوق نشاطهم الصناعي والزراعي يشيعون كل الربا وينشرون تماثيل التوراة

وأخبار النبوات . وكانت النساطرة واليعاقبة من المسيحيين يشيرون بالإنجيل ،
ويعدون إلى الحياة الأخرى ، ويحملون معهم تأثير اليونان والرومان في الفلسفة
والتشريع ، ويهينون الأذهان لكلمة الله . وكان الشعراء ينتقلون من سوق إلى
سوق ، ومن ماء إلى ماء ، ينشدون أهازيج الحاسة على أوتار المصيبة ، فيؤرثون
نار المداوة والخلاف بين القبائل من جهة ، ويذيمون وحدة الخلق والعدوة الالة
من جهة أخرى ، ويمهدون للنفوس الرغبية السجينة سبيل النهوض إلى الغاية
التي يدعوم إليها الله ، ثم كان الأعراب في قفار البادية يفتك بهم الجهل والجذب
والحرب ، ويعانون إلى ذلك عنز الكبراء ، وأثرة الشيوخ ، وقد الأمن ،
وتوزع الثروة على مقتضى السيادة والقوة . ناهيك بما يقاسوه في أرزاقهم من
نخش الربا وأكل الشح وتطفيف الكيل وكلب الزمان . فكان من جراء
هذه المادية القبيحة ، والطبيعة الشحيحة ، والنظام الفاسد ، أن نهيت الطبايع
السليمة إلى حياة أرقى ومثل أعلى ممام فيه . ولكن العرب كما قال ابن خلدون :
« أصعب الأمم اهتداداً بعضهم لبعض ، لانغلظة والأثرة وبعد الهمة والنافسة
في الرياسة ، قلما تجتمع أهواؤهم . ومن أجل ذلك لا يحصل لهم الملك إلا بصبنة
دينية من نبوة أو ولاية أو أثر من الدين على الجملة » . وكان ذلك فصلا طريق
الإصلاح الذي خرج منه العرب إلى العالم ليبلغوه الرسالة وبمحكوه ، فقد كان
ظهور الإسلام في ذلك الحين نتيجة محتومة لتلك الحال ، ونقضا صريحا لتلك
الحياة . تعرف ذلك جليا من تسمية القرآن للدين بالإسلام ولما قبله بالجاهلية .
ففي تلك التسمية كل الفرق بين الحياتين والعقليتين في المبدء والغاية ، إذ الجهل
معناه السفه والحية والأثرة وهي ملاك الأخلاق في الجاهلية ، والإسلام معناه
السلام والتسامح والاقبال إلى الله - وهي قوام الدين الجديد الذي يقول :
(وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون
قالوا سلاما) . وبمعنى ذلك قول عمرو بن الأهتم يفاخر الأحناف بن قيس ،

وقد اجتمعا للرياسة بين يدي عمر بن الخطاب : « إنا كنا وأنتم في دار جاهلية ، فكان الفضل فيها لمن جهل ، فسفكنا دماءكم ، وسبينا نساءكم ؛ وإنا اليوم في دار الإسلام والفضل فيها لمن علم . فنفر الله لنا ذلك » فقلب على الأحف . فالإسلام إذن قد قلب العقيلة العربية قلباً ، وشن على الجاهلية حرباً ، ورسم للاجتماع مثلاً أعلى يخالف ما لقوه ، ويناقض ما عرفوه .

فالشجاعة ، والشهامة ، والكرم للوفى إلى السرف والتلف ، والتفاني في الإخلاص لقبيلة والقسوة في الاعتقام ، والتأثر عن تمدى على النفس أو على الأهل بالقول أو بالفعل ، هي أصول الفضائل عند الجاهلية ، أما الإسلام فقد جعل للتل الأعلى للإنسان الخضوع لله والانقياد لأمره ، والقناعة والتواضع ، ومجانبة التكاثر والتفاخر ، ثم الصبر . وقد قال الله تعالى : « إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاتُمْ » وقال الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع : « إِنْ أَلَّهِ تَعَالَى قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَحْوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَضَّرَهَا بِالْأَبَاءِ . كُلُّكُمْ لَأَدَمٍ وَأَدَمٌ مِنْ تَرَابٍ ، لَيْسَ لِمَرْءٍ عَلَى عَجْبِي فَضْلٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى » فانت بذلك المعصية القومية والجنسية ، وأصبحت السيادة للدين لا للنسب ، والإخاء في الله لا في المصب . وهذا التغير في العقيلة يستلزم حتماً تغير ما يصدر عنها من فكر وتصور وقول : فالشاعر الذي كان يستلهم شيطانه قصائد المفاخرة والمنافرة والمجاء ؛ والخطيب الذي كان يستقطر من لسانه سموم العداوة والبغضاء ، والفارس الذي كان يرتع ليله ونهاره في القماء والأشلاء ؛ والرئيس الذي كان يعيش على امتياز الرؤساء ؛ والنبي الذي كان يتعجر ويترى بدماء الفقراء ، وقفوا جميعاً صامتين معصتين لدعوة الإسلام لا يقولون ولا يفعلون إلا ما يأمر به الله أو يقره الرسول . وأصبح القرآن والحديث دستور الأمة ، يسبان الفرائع ، ويرسمان الآداب . ويهذبان الأخلاق ، ويقرآن في القلوب للشركة المحرمة كلمة التوحيد وحقيقة الدير ، ويضيئان نظاماً جديدة للأمة وتناير

ما كان عليه العرب من قبل ، وتسار ماسيكونون عليه من بعد . فضاقت دائرة الشمر في عهد الرسول لموت العصبية وقوة الروح الدينية ، وانضوت الخطابة تحت لواء القرآن تدعو إليه ، وتقابل الوافدين عليه ، وتسهر على هديه وتقتبس من نوره . واقتضت الدعوة الكبرى نظام الرسائل فنشأت على نمط جديد ، وفُتت الأمية لحاجة الدين إلى الكتابة وتشجيع النهي عليها بدمومة بدر ، ونقل الدواوين كلها إلى العربية . وأخذ المعادون للدين يمارضون القرآن ويجادلونه ، والموالون له يحفظونه ويدارسونه . ودعا اتساع رقعة الإسلام إلى استنباط أصول الأحكام من مصادر الدين ، والاجتهاد بالرأى فيما لم يرد فيه نص . فتجلى صفاء العقيدة العربية ذات للنطق الموهوب فيما قضى به على عمر وزيد بن ثابت وعبد الله بن عباس وعبد الله ابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل ؛ وازدادت هذه الروح الفقهية المنطقية صفاء وجلاء بعد ذلك فيما شجر من الخلاف بين المالويين والأُمويين والصَّوارج على أثر الخصومة بين علي ومعاوية .

على أن من الغرآن قول إن تعاليم الإسلام قد بلغت إلى كل نفس وأثرت في كل قلب حتى يكون تغير العقلية العربية تاماً من كل وجه ، فإذن ذلك إن صدق على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين أسلموا قبل الفتح لا يصدق على من أسلم من بعده ، ولا على الأعراب المتمردين بطبيعتهم على كل قيد من دين أو قانون أو سلطان ، فكانوا لخصائهم وغلظ قلوبهم أشد كفرةً ونفاقاً وأجدر ألا يملوا حلود ما أنزل الله على رسوله . وكان من زعمائهم من يقبل على الإسلام كقيس بن عاصم ، لا على أنه الدين الحق ، ولكن على أن يكون له الأمر بعد الرسول . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنَّ مثلَ ما بشئى به الله من الهدى والى الهدى كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والشجر الكثير . وكان منها أجابٌ أسكت الماء فنفع الله به الناس فشرىوا منه وسقوا وزرعوا . وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي

قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً » . ومصدق هذا الحديث الكريم ثابت في بقاء البدو على زرعهم الجاهلية من مهاجرة وحمة وشراب ، وحدث الردة على أثر وفاة الرسول ، وشيوع الفناء والشراب والغزل في مدن الحجاز ، وانبعثت المصيبة وزاعها بين الفصحائيين والمدنانيين ، وبين الهاشميين والأمويين ، واشتدادها في عهد بني أمية . وهذا يفسر لنا بقاء الشعر الأموي على نمط الشعر الجاهلي في طريقته وطبيعته دون أن يتأثر بروح الإسلام لا كثيراً ولا قليلاً ، إذ كان جمهور الشعراء إنما يصعدون عن البادية ويمهرون عن نوازي المعبية في الأحزاب والقبائل .

* * *

لم يكن تأثير الإسلام في العقلية العربية والفنون الأدبية آتياً من جهة عقيدته وشرعته وروحه فحسب ، وإنما أثر فيها كذلك من جهة ما نشأ عنه من الفتوح والنزاع على الإمامة . فن أثر الفتوح خروج العرب من جزيرتهم إلى الجهاد ، وانتشارهم في مختلف البلاد ، واستيلائهم على ممالك كسرى وقصر ، وامتزاجهم بالأجناس المتعددة ، وتأثرهم بالمدنيات والمقليات المختلفة ؛ فقد فتحو العراق وهو وارت حضارة قديمة وموطن أم عظيمة ونحل كثيرة ، ومهروا فيه البصرة والكوفة . وفتحو فارس وهي إحدى الدولتين اللتين حكمتا العالم القديم يومئذ وأثرنا في عقله وأهله . وفتحو الشام وقد سادت فيه الثقافة الرومانية والديانة النصرانية بعد ما خلف فيه القينيقيون والسكنانيون وللمريون واليونان والفنانيون آثاراً ظاهرة في العادات والاعتقادات والنظم ؛ وفتحو مصر وهي مهد للدين والفن ، وجمع الحضارتين اليونانية والرومانية ، ومثلتي الفلسفتين الشرقية والغربية ؛ وفتحو بلاد المغرب إلى جبل طارق ، ثم ما وراء النهر إلى كاشغر . وسكان هذه الممالك يرجعون إلى أصول سامية وحامية وآرية ، ويدفون بأديان سماوية وأرضية ، وبسكلمون بلغات فارسية وقبطية وعبرية وسريانية ويونانية

ولأينية ، فأخضعهم العرب إخضاعاً مادياً وأدبياً وروحياً من طريق الفتح والفتنة والدين ، وخضع العرب لهم خضوعاً عقلياً وجنسياً باقتباس مدنيهم وعقليتهم وجنسيهم من طريق المجاورة والصاهرة والاسترقاق ، وكان من ذلك التفاعل هذا الامتزاج العجيب الذي تولدت منه العلوم الشرعية والفنون الأدبية والحضارة الإسلامية التي طبقت الأرض ومهدت لرق الإنسان الحديث .

هذا أثر الفتوح . وأما أثر الخصومة في الإمامة فذلك الجدل العنيف بين الفرق الأربع التي نجت عن الخلاف في الخلافة بين علي ومعاوية ، ذلك الجدل الذي اتسع به أفق الفهم العربي بالاحتجاج والاستنتاج ، إذ كان اعتاده على تأويل القرآن ، واقتهال الأحاديث ، واستخدام الشعر في إثارة العصبية وتغيير الرسائل في القضايا السياسية والوصايا الدينية ، وعقد المناظرات وإلقاء الخطب . ففي المجاز حزب يؤيد ابن الزبير ، وفي الشام حزب يعضد بني أمية ، وفي العراق الشيعة يدعون إلى بيت الرسول ، والخوارج ينكرون ويكفرون هؤلاء جميعاً . ولكل حزب من هذه الأحزاب كما تلت رأى في الخلافة ، ونظر في الدين ، وحجة من الكتاب والسنة ، وعدة من الخطابة والشعر . وحسبك أن تقرأ بعض جدلهم في الطبري والقند الفريد وشرح المنهج لابن أبي الحديد والكمال للمبرد ، لتعلم أثر هذا الخلاف في عقلية العرب ، وأثر هذه العقيدة في فنون الأدب نستخلص مما تقدم أن أهم العوامل المؤثرة في الأدب الإسلامي هي : خلود العصبية الجاهلية في عهد الرسول ، ثم استمرارها في عهد بني أمية ، ونشوء الروح الدينية ، وتغير العقيدة العربية ، وتغير الأحوال الاجتماعية والاقتصادية ، وظهور الأحزاب السياسية ، واتساع الفتوح الإسلامية وتأثير الأمم الأجنبية بلغاتها وعاداتها واعتقاداتها وأدبها ، ثم أساليب القرآن ، والحديث ، والمأثور الصحيح من الشعر الجاهلي والأمثال . وقد أجهلت القول في آثار هذه العوامل اعتماداً على تفصيلها حيناً نعرض لكل فن على حدة ، فلندع ذلك الآن ولننتقل إلى مصادر الأدب الإسلامي .

مصادر الأدب الإسلامي

نستطيع أن نحصر هذه المصادر في القرآن ؛ والحديث ، والأدب الجاهلي وما نقل من الأدب الأجنبي .

١ - القرآن الكريم

القرآن أول كتب دون في اللغة العربية ؛ فدراسته ضرورية لتاريخ الأدب ؛ لأنه مظهر الحياة العقلية والحياة الأدبية عند العرب في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للمسيح . وهو واضح النثر الفنى ومنبع للمعاني والأساليب والمعارف التى شاعت في أدب ذلك العصر . نزل بأسلوب بديع لا عهد للأذن ولا للأذهان بمثله ؛ فلا هو موزون مقفى ، ولا هو سجع يشجزأ فيه المعنى في عدد من الفقر ، ولا هو مرسل يقطع أسلوبه دون تقطيع ولا نسجع ؛ إنما هو آيات مفصلة متزاوجة يسكت عندها الصوت ويسكن الأذن لاستقلالها بالمعنى وانسجامها مع روح القارىء . وجدناه . فلما سمع العرب وهم زعماء القريض وأمرأء البيان أكبروه وأنكروه ، وحجزوا عن أن يردوه إلى نوع من أنواع الكلام اللعوبة ؛ فقالوا مضطربين : إنه شعر شاعر أو فيل ساحر أو سجع كاهن . ووصفهم إياه بأنه نوع من هذه الأنواع التى تشترك في فتنة العقل دليل على فله القوى في نفوسهم . والقرآن باعتباره كتاباً أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، لا يجرؤ النقد البيانى على أن يطير في جنباته . وباعتباره معجزة الرسول تحدى به العرب أن يأتوا بسورة من مثله ، تورع المسلمون عن أن يقلدوه فراراً من تهمة المعارضة ، وتنزيهاً لكلام الخالق أن يتشبه به كلام الخلق . وما لاريب فيه أن بعض المشركين والمنتهئين قلعارضوه بطلا الحجة ، وأنها جملته ، على نحو ما ورد عن مسيلة : « يا ضفدع بنت ضفدع ! نعى ماتقين ، فلالماء تكلدوين ، ولا الشارب

تمنّين » ، ولكن الرواة أغفلوا ذلك إما تورعاً وإما تزلفاً ، كما فعلوا بمعارضة ابن المقفع والتمني وأبي الملاء إن صحّ أنهم فعلوا ذلك . وهناك طائفة من متأخري الكتاب حاولوا الجري على أسلوب القرآن إعجاباً به فاحركوا في النفوس غير السخر والسخر لنزولهم عن رتبته وعجزهم عن لحاقه فكفوا . ولذلك لم يكن تأثير القرآن كبيراً من جهة إحداثه مذهباً كتابياً يتبعه الناس ويدور عليه المقفد . أما تأثيره القوي فكان في نقله النثر من تلك الجمل القصيرة للسجوة المنككة إلى تلك الصورة الأنيقة التي تقرأها في أحاديث الرسول وخطبه وكتبه ، وفي خطب الصحابة والتابعين ورسائلهم : بجلّ متزاوجة ، متناسقة ، متطابقة ، متخيرة الألفاظ ، حسنة التآليف ، رائعة التشبيه ، منطقية الغرض ، تنفذ من العقل والقلب إلى الصميم . كذلك أترقى النثر بوضعه المثلّ لمعالجة القصص والوصف والاشترار والجلد النتج والموعظة الحسنة ، واستحدثته ألفاظاً وتراكيب وموضوعات لا يعرفها العرب ، فغلّت آية على طوال القرون قوة للخطيب وحلية للنشئ ، برصع بها كلامه فتمتيز بطلاوتها ونفاستها كما تتميز المأثرة الفريدة في عقد من الجزع :

أسلوبه

نزل القرآن متّجّياً في نحو ثلاث وعشرين سنة على حسب ما يعرض من الحوادث ؛ منها ثلاث عشرة سنة في مكة نزل في خلالها ثلاث وتسعون سورة ، وعشرة بالمدينة بعد الهجرة نزل فيها إحدى وعشرون . هذه السور الأربع عشرة ومائة تختلف في موضوعها وأسلوبها باختلاف الزمان والمكان والحادث ، فكان من الحوادث والقضايا ما ينزل فيه الآية والآيات ، ومنها ما ينزل فيه السورة وكان الصحابة يحفظون أو يكتبون ما ينزل كلاً على حدة ، فلم يكن القرآن إذن خاصاً لقانون التآليف من وحدة الموضوع ووحدة الأسلوب وعقد الأبواب على مقتضى الأغراض ، وإنما تجمّع على هذه الصور ودوّن بعد وفاة الرسول تبماً

لما كان يحمده الكاتبون أولاً فأولاً محفوظاً في الصدور أو مسطوراً في الصحف. ثم رتب بوجه التقريب على حسب الطول والقصر لا على حسب تنزيهه ولا على حسب موضوعه، فتكررت بعض القصص لئلا يكيد الإنذار أو لتشابه الأسباب، وتَشَقَّتْ وحدة الموضوع والأسلوب لنزوله متفرقاً في مكانين مختلفين وأزمان متراخية وأغراض متعددة، وهو في ذلك يختلف عن التوراة والإنجيل.

تشتمل السور المكية — وهي ثلثا القرآن — على أصول الدين. وتشتمل المدنية على أصول الأحكام. وأصول الدين بُجِّعَها الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، والانتباه بالمعروف والانتهاز عن المنكر؛ وهي أمور تتصل بالمعاطفة والوجدان؛ فالدعوة إليها والحث عليها يقتضيان الأسلوب الشمري القوي الموثق الفعال بالقلب بقصصه الواعظة، وحكمه البالغة، وأمثاله السامية، ووعده الخلاب، ووعيده الخيف، ولذلك نجد أسلوبها قصير الآي، كثير السجع، رائح التشبيه، قوي المجاز. وأما أصول الأحكام من عبادات ومعاملات فهي موضوع السور المدنية، والتمييز عنها يقتضى الأسلوب المحكم الجزل الهادي؛ وهدهد البيان يستلزم طول الجمل، وتفصيل الآي، ووضوح الفرض. على أن القرآن لا يصطنع في التشريع أساليب الفقه ولا تعريفات القانون، وإنما يسوق الأحكام في معارض الدعاية والمداية، لأن قصده الأول إما هو إعلان التوحيد وإظهار الدين، وتطهير القلوب من أضرار الضلالة والجهالة والشرك؛ ولأن الدولة الجديدة لم تكن في عهد الوحى من الاتساع ونشوب الاجتياح بحيث تطلب التشريع التفصيل.

إعجازه

تناصرت الأدلة وانقد الإجماع على أن القرآن معجز، وإنما الخلاف في سبب إعجازه. فمن قائل إنه شرف الفرض، وتنوع القصد، والإخبار بالنبى. ومن قائل إنه القصاحة الرائعة، والمذهب الواضح، والأسلوب الموثق

ونحن إلى هذا الرأي أميلُ . فإن القوم الذين تحدّوا به لم يكونوا فلاسفة ولا فقهاء حتى يكون عجزهم عن الإتيان بمثله معجزة ، إنما كانوا بُلغَاء مصادم ، وخطباء مصاقع ، وشعراء خولاً . وفي القرآن من دقة التشبيه والتمثيل ، وبلاغة الإجمال والتفصيل ، وروعة الأسلوب ، وقوة الحجاج ، ما يُعجز طَوَقَ البشر ، ويرى للمعارضين بالشُّكَّات والخَصَر .

لغة

لغة قريش هي الأصل في لغة القرآن ، لأنّ النبي وُلِدَ فيها وُبِعِثَ منها ؛ ولأنّ لغتها تفضل سائر اللغات بحلاوة الجرس ودقة الوضع وإحكام النظم ، وقيلانها تُشرف سائر اللغات بمجوار البيت وسقاية الحاج وعمارة للسجد ، ولكنه نزل كذلك بلغة بني سعد بن بكر ؛ لأنّ الرسول (ص) استرضع فيهم ، وهي إحدى لغات المعز^(١) من هوازن وأفصحها ، لقوله صلى الله عليه وسلم أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ، وأنّي نشأت في بني سعد بن بكر .

وجاء في القرآن بمض ألفاظ من لغات عربية أخرى كقوله تعالى « لا يُلَيْتُكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً » أي لا ينقصكم بلغة بني هبس . ثم وقع فيه من غير لسان العرب أكثر من مائة كلمة ترجع إلى لغات الفرس والروم والنبط والحبشة والبربر والسريان والقبط ، كالجبب والاستريق والسفدس والقسطنطين والزيجيل ، وقد عقلها العرب على لسانهم ، وأجروها على أوزانهم ، فصارت بذلك عربية .

أغراض ومعانيه

علت أن من القرآن ما نزل بمكة ومنه ما نزل بالمدينة . فالسكي من سورة يشتمل على أهم ما جاء الرسول من أجله : فقيه توحيد الله بذكر صفاته وتمجيد

(١) يقال لخولاء أيضاً عليا هوازن ؛ وهم سعد بن بكر ونضر بن معاوية وثقيف : وفيهم يقول عمرو بن العلاء ، أفصح العرب عليا هوازن وسلي بن سليم .

آياته ، وتأييد الرسول بتحدى للكافرين ، وضرب الأمثال بأحوال الفارين ،
ورفض الأوثان وما يحصل به من عادات واعتقادات ، وإثبات اليوم الآخر وما يتصاق
به من جنة ونار وتبشير وإنذار ، ثم الإذن لرسول الله أن يجاهد الشرك بالسيف .
وأما للدنى منها فيستاز بوصف المفازي وذكر أسبابها ، وما يستفيده
للمؤمنين من نتائجها وأعطائها ، ومن الشرائع الدينية كالصلاة والزكاة والصوم
والحج ، والاجتماعية كالأحوال الشخصية والمعاملات المدنية والحقوق الجنائية ،
وما تستهمه من قصاص وحدود ، وفي كل ذلك ترى الألفاظ مؤتلفة مع المعاني ،
والمعاني متفقة مع الأغراض ، اتفاقاً دونه الفن والمطلق وليس فورة إلا قدرة الله !

تأثيره

شغل المسلمون بالقرآن وفرغوا له ، فكان دعاءهم في المسجد ، ونظامهم
في البيت ، ومنهاجهم في العمل ، ودستورهم في الحكومة . فسرى هديهم
فيهم مسرى الروح ، ونزل وصية منهم منزلة الطبع ، وأتروى أسنتهم وأفندتهم
وأنظمتهم ما لم يؤثروه كتاب سماوى آخر في أهله . فأما تأثيره في اللغة وأدبها —
وهو ما بسطنا الآن ذكره — فبأنه خالط من القوم قلوباً قاسية فألأنها ، وطباعاً
جافية فأرقها ، وأحلاماً طافية فأقرها ، فكسب تلك اللغة عذوبة في اللفظ ،
ورقة في التركيب ، ودقة في الأداء ، وقوة في المطلق ، وثروة في المعاني ، ووسع
دائرة اللغة باستحداثه الألفاظ الدينية كالصلاة والزكاة والقيام والركوع والسجود
والوضوء والمؤمن والكافر الخ . واقتضائه علوماً جديدة كالنحو والصرف
والاشتقاق لدفع المعنى عنه والمعاني والبيان والهديم لتقرير الإعجاز فيه ، وعلى
الغنى والأدب لتفسير غريبه وتوضيح مشكله ، والتحديث والأصول والفقهاء
والتفسير لاستنباط أحكام الشرع منه . وهو الذى ضمن بقاءها تلك القرون
العديدة ، ونشرها في مجاهل الأصمقاع البعيدة ، مصداقاً لقول الله تعالى :
« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » وحفظ القرآن يستلزم حفظ لفظه .

قراءات

لم يكن امتزاج الالفات ولا اتحاد الهمجات تاماً من كل وجه عند انبثاق نور الإسلام^(١) ؛ وإنما بقي على نواحي الألسنة لحون مختلفة كالفتح والإمالة، والإظهار والإدغام ، والمد والقصر ، وتحقيق الهمز وتخفيفه ، وترقيق الحرف وتقسيمه ، وضم الماء والميم في نحو عليهم واليهم . فلما نزل القرآن بلغة قریش ولهجتهم لم يستطع من عداهم من العرب أن يتعلموا في الزمن اليسير على الفطرة اللغوية ، واللهجة الأمية ، فقرأوه بلحونهم وأقرم^(٢) الرسول على ذلك تيسيراً للقراءة وتسهيلاً على الناس .

فلما اختبأت الألسنة ، واضطربت السلائق ، وزاغت القلوب بعد اتساع الفتح وانتشار العرب وانشعب الفرق ، نشأ من جهلهم بالهجاء ، ومن شدة اختلافهم في المنطق والأداء ، ومن جرأة ذوى الملل والمراء ، قراءات لم تظاهرها العربية ولا صحة السند ولا رسم للصنف ، فتجرد قوم في المائة الأولى لضبط القراءات وحصر وجوها وتبيين مذاهبها ، وجملوا علماً كافضوا يومئذ بالحديث

(١) يدل على ذلك خطب الولود الذين وفدوا على الرسول (س) فقد بلم من اختلافها عن لغة قریش أن قال على (رس) رسول الله وقد سمعته يخاطب وفد بني نهد : يا رسول الله نحن بنو أب واحد وتركنا تكلم ولقد العرب بما لم تفهموا كثرة فقال عليه الصلاة والسلام : أهبل ربي فأحسن تأديب .

(٢) روى عن عمر بن الخطاب قال سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة التفران في حياة رسول الله (س) فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأها على حروف كثيرة لم يقرأها رسول الله (س) كذلك ، فكذبت أساوره في الصلاة - فبشرت حتى سلم - فلما سلم ليجه برهائه . قلت من أقرأ هذه السورة التي سمعتك تقرأها ؟ قال : أقرأها رسول الله (س) قلت : كذبت فوالله إن رسول الله (س) لم يقرأها بهذه السورة . فاطلقت به أقنوده إلى رسول الله (س) قلت : يا رسول الله إنى سمعت هذا يقرأ سورة التفران على حروف لم يقرأها ، وأنت أقرأني سورة التفران ؟ فقال رسول الله (س) : أقرأها يا هشام . فقرأ عليه القراءة التي سمعت يقرأها فقال : هكذا أتزلت ، ثم قال : اقرأ يا عمر . فقرأت القراءة التي أقرأني رسول الله (س) فقال : هكذا أتزلت ، ثم قال : إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف . فقرأوا ما ييسر منها . والراد بالأحرف الالفات التي تختلف بها لهجات العرب .

والتفسير . واشهر من هؤلاء ومن الطبقة التي وليتهم سبعة تنسب إليهم القراءات إلى اليوم هم : عمرو بن العلاء (١٥٤) وعبد الله بن كثير (١٢٠) ونافع ابن نعيم (١٦٩) وعبد الله بن عامر (١١٨) وعاصم بن بهلة الأسدي (١٢٨) وحزرة بن حبيب الزيات (١٥٦) وعلى بن حمزة الكسائي (١٨٩) وتلك هي سبع القراءات المتفق على صحتها إجماعا . وهناك ثلاث قراءات تليها في الصحة والتواتر وهي قراءة أبي جعفر اللذان (١٣٢) وقراءة يعقوب بن اسحاق الحضرمي (١٨٥) وقراءة خلف بن هشام . وماسوى هذه المشر فثاذ .

محمد وشرويه

نزل القرآن معجا كاقلفا في ثلاث وعشرين سنة لوقائع موجبة وأحوال داعية . وأعلن ختامه في السنة العاشرة من الهجرة قبل وفاة الرسول بثلاثة أشهر ، وبعد أن رتب آيه وتمت سورة ؛ إلا أنها لم تجمع في مصحف واحد في حياته ، وإنما توفي رسول الله والقرآن إمامسطور في العسب والاختاف والأكتاف ، وإمامذكور على السنة الصحابة . ولما قتل من قرائه سبعون في غزوة البمامة ، فزع للمسلمون وأشفق عمر أن يذهب القرآن بذهاب حفاظه ، فقدم إلى أبي بكر في جمعه . فتردد الخليفة وقال : « كيف أقبل أمراً لم يفعله رسول الله ولم يعهد إلينا فيه عهداً » . فازال عمر يداوره حتى أقنعه . وعهد بذلك إلى زيد بن ثابت أحد كتبة الوحي وصاحب الرضة الأخيرة على الرسول ، نجسه من السطور والصدور . وكتبه مصفاً أودعت عند أبي بكر وعند عمر من بعده . ثم كانت هذه المصحف في خلافة عثمان عند حفصة بنت عمر زوج النبي . فلما اتسعت رقعة الدولة وانتشر القرآن في الأرض اختلفوا في قراءاتهم اختلفوا في لهجاتهم ، وفخر بعضهم على بعض . عمن قرائته وصدق روايته ؛ فضنى عثمان أن يختلفوا في دلالاته كماختلفوا في تلاوته ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث

ابن هشام ، ففسخوا تلك الصحف في مصحف واحد ورتبوا سورہ على العلو والقصر ، واقتصروا فيه على لغة قريش لنزول القرآن بها . وأمر عثمان الناس أن يكتبوا مصاحف من هذا المصحف ، وبث في كل أقرق واحد منها ، وكانت سبعة فأرسلها إلى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة وحبس بالمدينة واحداً ، وهو مصحفه المسمى بالإمام ، ثم أمر بجمع ما عدا ذلك فأحرق .

فيس من نوره

قال الله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْإِيمَانِ وَتَنْهَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ؟ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ . كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ . قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى . وَتَمَثَّلَ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَنْوَالَهُمْ أَتْقَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَذَكُّرًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَتَمَلِ جَنَّةٍ يَرْبُوهُ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَاتَتْ أَكْطُلًا ضَمَقِينَ فَإِنْ لَمْ يُصْبَهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ . وَأَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا تُفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ . إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَآبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ . مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَلِدْهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا يَصِيرَ . قُلْ لَا يَسْعَى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ وَلَا يُغْنِي عَنْكُمْ شَيْءٌ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ . إِنْ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُثَبِّرُوا مَا يُنْفِقُونَ . قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ . لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ . مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ . وَلَا يَحِقُّ الْمُسْكِرُ السَّبِيحُ إِلَّا بِأَهْلِهِ . إِنَّمَا يَنْفَعُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ؛ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْفَعُكُمْ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ اللَّهُ فَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا . وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ

وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ . كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْةٌ . تَحْسِبُهُمْ جَمِيْعًا وَقَلُوْهُمُ شَيْءٌ . كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُوْنَ . وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشْبٌ مُّسَدَّدٌ ، يَحْسَبُوْنَ كُلَّ صَبِيْعَةٍ عَلَيْهِمْ . فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . وَقَفَىٰ رَبُّكَ أَتَّعِبُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَانًا ، إِنَّمَا يَبْلُغُنَّ عِنْدَكَ الْكَبِيرَ أَحَدُهُمْ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرٌ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيْمًا . وَأَخْفِصْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبُّ أَرْحَمَهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي فِي صَغِيرٍ . رَبُّكُمْ أَكْبَرُ بِمَا فِي قُلُوبِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ الْإِلَٰهِيْنَ غَفُوْرًا . وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِيْنَ وَابْنَ السَّبِيْلِ وَلَا تَبْذُرْ رِزْقَكَ يَدَيْكَ . إِنْ الْبَصِيْرَيْنِ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِيْنِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوْرًا . وَإِنَّمَا نُزِّلَتْ عَنْهُمْ أَنْبَاءٌ رَّحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوْهَا . قُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّنْهُ يَسُوْرًا . وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُوْلَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْ كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْضُوْرًا . إِنْ رَبُّكَ يَبْسُطَ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِبَيَادِهِ خَبِيْرًا بَصِيْرًا . وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ ، خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطِيْئًا كَبِيْرًا . وَلَا تَقْرَبُوا الزُّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيْلًا . وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوْمًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَقْضُوْرًا . وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيْمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنْ الْعَهْدُ كَانَ مَسْئُوْلًا . وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيْمِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيْلًا . وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ

أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا . وَلَا تَدْرِي فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَعْرِفِي الْأَرْضَ
وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا . كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا .

— ٢ الحديث

الحديث هو قول رسول الله أو حكاية فله أو حديث الصحابة عنه . فهو
في للزلة الثانية من كتاب الله فيما يتعلق بالدين والثقافة ، وأغزر بتأنيب التشريع
في العبادات والحقوق ، وأقوم طريق يؤدّي إلى فهم القرآن : بوضوح إشكاله ،
وفصل إجماله ، ويقيد إطلاقه ، ويخصص عمومته . والأحاديث التي نضت من
رسول الله قليلة ، ولكنها موسومة بطابع البيان والإلهام والعمق ، لنشأته
في قريش ، واسترضاعه في بني سعد وهي أفصح القبائل العربية ، وتصله من
لغة القرآن وإطلاعه على لغة العرب ، وقدرته القطرية على ابتكار الأساليب
المالية ، ووضع الألفاظ الجديدة لما استحدث من المبادئ الدينية والفقهية ؛ ولكن
قيمتها اللغوية ودلالاتها التاريخية لا تسمو إلى مكان القرآن في ذلك ، لأن القرآن
كان يدوّنه عند نزوله كتبة الوحي ، وكونه كلام الله جعل الاحتفاظ بنصه فرضاً
على المسلمين ، « فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه » . أما الحديث
فلم يدون إلا حوالى منتصف القرن الثاني للهجرة ، وكان قبل ذلك إنما يروى
من القاكرة ، والذاكرة كثيراً ما تخون ، فبالله من تغيير الكلمات واختلاف
الروايات أكثر مما نال الشعر الجاهلي . وزاد في ذلك أن العلماء أجازوا رواية
الحديث بلحنى لاستحالة المحافظة على اللفظ في نقله مشافهة طوال هذه السنين .
وقامت الخصومات السياسية ، ونجست الفرق الدينية ، فاستجاز أولو الأهواء
الكذب على الرسول ، فوضوا ألوف الأحاديث تأييداً لدعوتهم وترجيحاً
لنزعهم . واستباح قوم وضع الأحاديث للوافقة لمبادئهم وقواعد الفضيلة .
وحجبتهم أن الناس لا يأخذون إلا بنص الكتاب أو ما تورس السفة ؛ فلأولاً

الكتب بأحاديث الترغيب والترهيب وتمدوا ذلك إلى وضعها في فضائل الأشخاص واللدن والسور لدعوة سياسية أو نزعة عصبية أو غاية دينية ، كالأحاديث للوضوعة في فضل قريش على العرب ، وفضل العرب على السجم ، وتفضيل بعض الصحابة على بعض ، والمقولة في بعض التفاسير في فضائل السور ترغيباً للناس في دراسة القرآن حين لهمنا عنه بالفقه والسير . ومن طريق الوضع أدخلوا في الحديث طائفة كبيرة من الحكم للأئمة عن العرب ، والآراء للنقولة عن السجم ، فآثرت في الخطابة والجدل والشعر تأثيراً غير قليل .

كان عمر وبعض الصحابة لا يرون التوسع في رواية الحديث انقاء لخطر الوضع وحرصاً على كتاب الله أن يجر هذا الوضع إلى الاختلاف فيه أو الانشغال عنه . وقد قال عمر لمقرئيه بن كعب ولئن حوله من الصحابة حين خرجوا إلى العراق : إنكم تأتون أهل قرية لم يروى بالقرآن كدوى النحل ، فلانضدوم بالأحاديث فنشلولم . جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله (ص) . ونظن أن ذلك الخوف هو الذي صرفه أيضاً عن الإشارة بجمع الحديث كأشعار بجمع القرآن حتى لا يكون بجانب كتاب الله كتاب آخر يشاركه العناية ؛ فقد روى الزهري عن عروة بن الزبير أن عمر أراد أن يكتب السنن واستشار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشار عليه عامتهم بذلك ، فليث شهراً يستخير الله في ذلك شاكاً فيه . ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال : إني كنت قد ذكرت لكم من كتابة السنن ما قد علمتم ، ثم تذكرت فإذا ناس من أهل السكتب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، وإني الله لا أنس كتاب الله بشيء .

فكان من جراء ذلك الخوف هذه القوضى التي شوهت جمال الدين ، وموهت حقائق التاريخ ، وساعدت على نشر الفتنة ، ولم يفتنوا إلى درتها إلا حين استفضل نشر واتشر الأمر وأصبح العطب لدائها مسجلاً .

ليس من همّ الأديب أن يعنى عناية الفقيه والفنوى والفنوى وللورخ بما نال الحديث من اختلاف وتبديل ، ولا بما نال المحدثين من جرح وتعديل ، فإن الأدب إنما يعتبر الأحاديث صادقة وكاذبة مذهباً من مذاهب القول ومصدرأ من مصادر المعنى لها الأثر البالغ فيه . وليس من شك في أن الوضعين كانوا يقلدون أسلوب الرسول ويتوخون استعمال كلماته واصطلاحاته ، حتى لا نجد بين أكثر الأحاديث إلا فرق ما بين صدق النسبة إلى الرسول وكذبها . هذا من جهة الشكل ، أما من جهة الموضوع فإن الأحاديث الصحيحة كانت طريق العلم والإرشاد ، والأحاديث للوضوعة كانت طريق الرأي والاجتهاد ؛ لأنها آراء فردية اجتهدية نسبها أصحابها إلى الرسول لتصل من قلوب الناس محل الثقة ، فكانت طريقاً لبسط الفقه ، وتهذيب الخلق ، ونشر الثقافة ، ونشوء الرأي المجتهد بجانب السنة الصحيحة في التشريع .

أسلوب الحديث

الحديث كما يدل عليه اسمه لا يخرج عن هذا النوع المادى للمألف القدى يلاً كل مجلس ويتناول كل موضوع . ومن مستلزماته عدم التخصيص وقلة التنكير واختلافه باختلاف اللقائات والأحوال ؛ ولكن أحاديث الرسول وإن كانت فيص الم خاطر وعفو البديهة ، يبدو عليها أثر الإلهام وسمية المقربة وطابع البلاغة . وأسلوبها أقرب إلى أسلوب عصر النبوة منه إلى أسلوب القرآن ، وإنما يمتاز بإشراق ديباجته واتساق عبارته وتساوق ألفاظه وفقره لأداء معنى واضح معين ، ومطابقة مدلوله لمقتضى الحال ، وملاءمة لنته لفئة المخاطب . وأشد ما يكون ذلك ظهوراً حين يخاطب الوفود ، فالرسول يستعمل الغريب ، ويأتمز السجع ، ويذكر ألفاظاً من مهجور اللغات تيمناً لما جرى على لسان الوافدين عليه : من ذلك حديثه مع طهفة بن أبي زهير النهدي ، ومع لقيط بن عامر بن الملقق ، وذلك من حسن أدبه وسمو بلاغته وقوة تأثيره^(١) .

(١) انظر العهد الفريد ص ١٨١ ج ١ .

أما أكثر الأحاديث فإن عليها رواء الطبع وجلال النبوة ورونق الفصاحة. وللرسول قدرة عجيبة على التشبيه والتمثيل وإرسال الحكمة وإجادة الحوار ، وتلك مبرة الرسل من قبل ولا سيما للشيخ ، لأن الرسلين في مقام للمهين ؛ وأنجع ما يكون في التعليم طريقة التمثيل والمحاورة ، كقوله عليه السلام : « إِنْ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى . لِلْؤْمَنِ هَيْئٌ لَيْسَ كَالْجَلِّ الْأَنْفِ إِنْ قِيدَ انْقَادَ ، وَإِنْ أُتْنِخَ عَلَى صَفْرَةٍ اسْتَفْخَ أَصْحَابِي كَالنَّجُومِ بِأَيْمِهِمُ اقْتَدَيْتُمْ اهْتَدَيْتُمْ . لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ : تَقْدُو خَاصًّا وَرَوْحَ بَطَانًا . مَثَلُ لِلْؤْمَنِ كَالنُّعْطَةِ لَا يَأْكُلُ إِلَّا طَيِّبًا وَلَا يَطْعَمُ إِلَّا طَيِّبًا . إِنْ كُمْ لَنْ تَسْمُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ فَسَوْهُمْ بِأَخْلَاقِكُمْ . لِلْؤْمَنِ آلَفٌ مَأْلُوفٌ . وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يَأْوَلَفُ . إِنْ أَحْبَبَكُمْ إِلَى وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجَالِسُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا ، لِلْمُطَاوُنِ أَوْ كُنَافًا ، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ . وَإِنْ أَبْغَضَكُمْ إِلَى وَأَبْغَضَكُمْ مِنِّي مَجَالِسُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، الثَّرَاوُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَضَفِّقُونَ . إِيَّاكُمْ وَخَضِرَاءَ اللَّهِ مِنْ الْمَرَاةِ الْحَسَنَاءِ فِي الْمُنْبَتِّ السَّوْدِ . الْمَرَاةُ كَالضَّلَعِ إِنْ رُمِيَ قَوَامُهَا كَسَرَتْهَا . النَّاسُ كُلُّهُمْ سَوَاسِيَةٌ كَأَسْنَانِ الْمِشْطِ . جَنَّةُ الرَّجُلِ دَارُهُ . إِنْ قَوْمًا رَكِبُوا سَفِينَةً فَاقْتَسَمُوا ، فَصَارَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَوْضِعٌ ، فَتَقَرَّرَ رَجُلٌ مِنْهُمْ مَوْضِعَهُ بِقَاسٍ ، فَقَالُوا لَهُ مَا تَصْنَعُ ؟ قَالَ هُوَ مَكَانِي أَصْنَعُ فِيهِ مَا أَشَاءُ فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدَيْهِ نَجَّوْهُ وَجَاءُوا ، وَإِنْ تَرَكُوهُ هَلَكُوا هَلَكُوا » .

وأثر الأسلوب النبوي فاش في كلام الصحابة وخطبهم ، وعلى الأخص في أسلوب من اشتد خلاطهم به أو كثرت روايتهم عنه ، كالإمام عليّ وأبي هريرة . فمن قول الإمام عليّ كرم الله وجهه : « الْوَلَانُ الْخَطَايَا خَيْلُ شَمْسٍ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا وَخُذِمَتْ لِحْجَمًا فَتَقَعَّتْ بِهِمْ فِي النَّارِ . وَإِنْ تَقَرَّوْا بِطَايَا ذُلٍّ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا وَأُعْطُوا أَرْضُهَا فَأَوْرَدَتْهُمْ الْجَنَّةَ . حَقٌّ وَيَاطُلُ ، وَلِكُلِّ أَهْلٍ شَقْلٌ مِنَ الْجَنَّةِ » .

والنار أمّامة . ساعٍ سريع نجا ، وطالب بطل . رجا ، ومقصر في النار هوى .
اليمين والشمال مَصَلَّة ، والطريق الوسطى هي الجادة » .

وأما أبو هريرة فأكثر الناس حديثاً عن الرسول «ص» حتى بلغ ما رواه أربعة
وسبعين وثلاثمائة وخمسة آلاف ، أكثر لفظها وأسلوبها له وإن كانت جارية
على أسلوب السنن . وقد ارتاب بعض الصحابة في كثرة ما روى فقال :
« إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ، والله الموعود .
كنت رجلاً مسكيناً أخدم رسول الله على ملء بطنى ، وكان المهاجرون
يشغلهم الصَّق في الأسواق ، وكان الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم ،
وكنت أؤم رسول الله فأشهد إذا غابوا ، وأحفظ إذا نسوا » .

٣ - الشعر الجاهلى

وجد النثر في القرآن الكريم والحديث الشريف خطبة جديدة ومنهما
قياساً فجلّعلها دليله ومدده ، ومضى في طريق الاستقلال والاكتمال والتطور .
وانتقل الشعر إلى الإسلام مع العرب فلم يجد منه قبولاً حسناً ولا صدراً رحيماً ،
مخافة من عصبيته وجاهليته على وحدة المسلمين وألفة العرب ، فظل ينافق
كالأعراب وهواه كله في البادية ، يتنزع منها أخيلته وطرقه وصوره . وإذن
لا نستطيع أن نقيم الشعر الإسلامى إلا بالرجوع إلى منبعه ومشرعه ، وقد ألمنا
بالشعر الجاهلى إلمامة تندينا عن استئناف البحث فيه ، فلننتقل إلى المصدر الرابع وهو .

٤ - الأدب الأجنبى

تقع جزيرة العرب بين مدينتين من أعظم مدنيات العالم هما : مدينة القرس
في شرقها ، ومدينة الرومان في غربها ، وبينهما اختلاط من قديم الزمن

خلف بعض الآثار في اللغة والأدب من طريق التبادل للادى والمعنوى ؛ ولكن هذا الاختلاط أصبح بمدلن فصهما الإسلام امتزاجاً شديداً تداخلت به اللغات والأفكار والعقائد حتى صار مورداً فياضاً من موارد الأدب ؛ فقد دخل القوم في دين الله ، ودخل كثير من سبائهم في بيوت العرب ، واضطروا إلى تعلم العربية والتكلم بها ، ولكن هؤلاء وأمثالهم لم يغيروا إلا السننهم ، أما أخيلتهم وتصوراتهم وتعبيراتهم فقد ظلت على الجبلية الأولى : يفكرون بالفارسية أو الرومية ، ويتكلمون أو يكتبون بالعربية ، ولعائهم مرسومة القواعد ، وآدابهم واضحة المناهج ، وحضارتهم مشرقة الجوانب ؛ فلم يكن بد من تأثر الآداب العربية بالآداب الأعجمية والمقلية الآرية ، وأظهر ما يكون هذا التأثير في اللغة والتشريع والأخلاق والشعر والرسائل والتقصص .

فاللغة قد انتسجت مادتها بما اقتبسته من الألفاظ الفارسية للتعبير عما لم يعرفه البدوي تدوين المداوين ، وتنظيم الحكومة ، وسياسة الملك ، ومقتضيات الحضارة ، من أداة وطعام وزينة ، ووضعت قواعدها على منهج النحو السرياني ، وقام على ضبطها وبسطها الأعاجم . وقد عقد السيوطي في كتابه المزهرف فصلاً لما أخذ العرب من الفارسية والرومانية والسريانية والقبطية . ولكن اللغويين خلطوا في ذلك لجهلهم بهذه اللغات ، ففسبوا إلى بعضها ما ليس منها . وغالى الفرس في ردأكثر المبررات إلى لضمهم عصبية أو جهالة ، حتى زعموا أن الرسول تكلم بالفارسية ، ورووا في ذلك حديثين أحدهما قوله : إني جابراً صنع لكم سوراً ، أى ضيافة ؛ والآخر قوله : المنب دو ، والتربيك : أى في تناولهما شتى وفرادى ، وذلك في عميق العلماء لأصله . وقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين أن أهل المدينة عرفوا الألفاظ من قوم من الفرس نزلوا فيهم ، فيسمون البطيخ . خريز ، والسميط أى المتوف الصوف : رؤدق . وإن أهل الكوفة يسمون المسحاة بال ، والسوق : بازار ، وذلك كله فارسي . وقد حكى أبوهمدية الأعرابي بعض ألفاظاً أعجمية كانت فاشية

لمعه فأنكرها ؛ وذكر منها على سبيل المثال قوله :

يقولون لى شنبذ ولست مشنبذا طوال اليسانى ما أقام نير
ولا قاتلا زودا ليعجل صاحبي ويشتان فى قسولى على كبير
ولا تاركنا لحنى لأتبع لحنهم ولودا صرف الدهر حيث يلور

والنشرع تأثر فى تفاصيله بفقهاء الرومان ، والأخلاق اعتمدت كثيرا على ما نقل من حكم اليونان عن طريق السريان ، والشعر والنثر قد أخذ بقطاعاتها جماعة من الموالى ، كزباد الأعجم ، وأبى العباس الأعمى ، وموسى شهبوات ، وإسماعيل بن يسار من الشعراء ؛ وسالم مولى هشام ؛ وتلميذه عبد الحميد بن ربي ، وصديقه ابن اللقاع من الكتاب . وقد قال أبو هلال المسكوى : « من تعلم البلاغة بلغة من الفئات ثم انتقل إلى لغة أخرى أمكنه فيها من صنعة الكلام ما أمكنه فى الأولى . وكان عبد الحميد الكاتب قد استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها من اللسان الفارسى فحوّلها إلى اللسان العربى » .

وأما القصص ، وهى هنا حكاية التفسير والأثر والخبر تمليا وموعظة ، فقد شابه شئ مما كانوا يسمونه العلم الأول . يريدون به ما أخذوه من أخبار الأمم وأحوال الأنبياء ، والتذر الأولى عن أسلم من أهل الكتاب ، كعبد الله بن سلام الذى أسلم عند هجرة النبي إلى المدينة ، وكعب الأحمار الذى أسلم فى خلافة عمر ؛ أو من اللوالى كوهب بن منبّه أحد الأبناء الذين عاشوا فى اليمن ففرقوا أخبار اليهود ، واتصلوا بالمبشّة ففرقوا أخبار النصارى . وكان هو يعرف اليونانية . فأتبع بذلك علمه ، وكان أول من صنف قصص الأنبياء فى الإسلام . ثم طاووس ابن كيسان التامى ، وموسى بن سيار الأسوارى . وقد قال الجاحظ فى موسى هذا إنه من أعاجيب الدنيا : كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان مجلسه المشهور فيقطع العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية

من كتاب الله وضمرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالقارسية ، فلا يدري بأى لسان هو أبين .

وتأثير أدب الموالى فى أدب العرب أكبر وأظهر من تأثير أدب اليونان والرومان فيه ؛ لأن اليونان والرومان لم يدخلوا فى الدين ولا فى العربية حتى يكون تأثيرهم مباشراً ؛ بل ظلوا مستقلين غير متصلين إلا بمقدار الصلات الاقتصادية . والعرب تقرب صدهم باليدأوة وجهلهم بالافانث ، واشتغالهم بالفتوح والخصومات ، وتمصهم لأدبهم لم يفكروا فى هل شىء من أدب هؤلاء وأولئك .

وأما الفرس فقد انتقلوا إلى العرب ذاتاً ومعنى ووطناً ، فاندجوا فيهم وامتزجوا بهم وأثروا بأنفسهم فى دينهم ولغتهم من غير طلب ولا وساطة . وانصرف للعرب إلى سياسة الملوك وقيادة الجند وأقصوا عنهم الموالى ، فكف هؤلاء على تحصيل العلوم الشرعية واكتساب الفنون الأدبية ، فكان منهم رواة الحديث ، وحلة الفقه ، وكتبة الدواوين ، وقلة الشعر ، وعلماء النحو واللغة ، وبذلك اتصلوا بسببتنا ، وفى أدبهم فى أدبنا ، كما تنفى شأيب للطرفى فى حباب المحيط .

أنواع الأدب الإسلامى

الشعر

الشعر فى عهد الرسول :

ظهر الإسلام وقد تمحك فى حياة العرب جاهلية قاسية وعقالية جافة وعصبية مفرقة فكان الشعر مظهر هذه الصفات وبلغتها . فلما أعلن الرسول الحرب على هذه الأخلاق تمهيداً لألفة القلوب ووحدة العرب ، كان من الطبيعى أن يُنفض الإسلام رأسه إليه ، وألا يشجع الناس عليه ؛ فى القرآن : « ولشعرهم ينههم ألفاؤون . وما علمناه الشعر وما ينبغي له » ، وفى الحديث . « لأن

يحتل . جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير له من أن يمتلئ . فله شعر أ ، « فازور جانب المسلمين ' عن قرض الشعر وروايته ، على علمهم بأن الدين لم يكرهه على إطلاقة ، وإنما كره منه ذلك النوع الذي يمزق للشملى ويثير دقات القلوب . ثم شغل الإسلام العرب جميعا بالهجرة العظمى : فن مؤيد ومن معارض واشتدت الخصومة بين الرسول وبين قريش ، فجرحوا عليه الأسيئة والألسنة ، ولكن شعراء العرب وقفوا موقف الحلياد والقرص ينتظرون نتيجة المعركة بين التوحيد والوثنية ، وبين الديمقراطية والأرستقراطية ، وبين محمد وقريش ، فلم ينامر في الخصومة إلا الشعراء القرشيين ، وقد كانوا قلالا قبل الإسلام لشواغل الحضارة والتجارة ، فصاروا كثارا كبده لدواعى النزاع والمعارضة ، بدأ هذه الحملة منهم عبد الله بن الزبير وعمر بن العاص وأبوسفيان ، فأذوا الرسول وأتباعه بقوارص المجهاء ، فهاج ذلك من شاعرية المسلمين وودوا لو يأذن لهم الرسول بمساجلتهم ؛ فاهوا إلا أن قال لهم : « ماذا يمنع الذين نصرنا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ » حتى نهض للقرشيين نفر من الصحابة ، فيهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، وشموها حربا كلامية جاهلية . لم يهاجم المهاجمون فيها بفضائل الوثنية ، ولم يدافع المدافعون بفضائل الاسلام ، حتى تقول إن الشعر قد خطا في مذاهب الفن خطوة جديدة ، بل كانوا يهاجمون على النمط المعروف من الفخر بالأنساب والتبجح بالسؤدد . يدل على ذلك قول الرسول لحسان : « اذهب إلى أبي بكر فهو أعلم بمثالب القوم » ، وقوله : « كيف تهجو قريشا وأنا منها ؟ فقال : « أسلك كما أسل الشعرة من العجين » .

فليس من شك في أن الشعر ظل على عهد الرسول جاهليا . فلما خضعت قريش وسائر العرب للدين الجديد بدلتى ، خرس الألسنة اللاذعة وفر للشعر الجاهلى ثانية إلى البادية . وانصرف المسلمون إلى حفظ القرآن ورواية

الحديث وجهاد الشرك ، فَخَفَّتْ صوت الشعر لثة الدوايح إليه ، فما كان يظهر إلا الحين بعد الحين في صادق للدح والرتاء . وساهل الرسول في معاهه حتى أتاب عليه ، وحتى قاله فيه . « إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة » .

الشعر في عهد الراشدين :

تلك كانت حالة الشعر في عهد النبوة ، وأما حاله بعدها فأقل شيئا وأحس مسكنا لذهاب للمارضة ولشددة الخلفاء في تأديب الشعراء ، وانصراف بهم العرب إلى الفتوح ، ولكن الذين قد بدأ يفعل في النفوس ، ومظاهر الحصار . قد أخذت تؤثر في الأذهان ، فظهر أثر ذلك ضئيلا في شعر المخضرمين ككعب بن زهير والحطيئة ومن بن أوس والنايفة الجعدي ، ولكنه أثر لا يتمدى بعض الألفاظ الإسلامية كالمر وف والتكر والصلاة والزكاة والجنة والنار والمهاجرين والأنصار . ولذلك نرى من اللبائفة جبل المخضرمين طبقة ممتازة ؛ فإن شعرهم استمر المذهب الجاهلي لم يتأثر بالإسلام إلا تأثرا عرضيا كضعف الأسلوب في شعر حسان ، أو قلة الإنتاج في قريحة لييد ، أو كثرته في الحطيئة والنايفة الجعدي مثلا ، والأشبه بالحق أن نقرر ما أشرنا إليه من قبل ، وهو أن الشعر العربي ظل في الجاهلية والإسلام واحداً في مظهره وجوهره ونوعه حتى أواخر عهد بني أمية . والتأثير الذي ناله من الموالى والسياسة والحصار والدين لم يعطه إلى طرق جديدة وإنما وسع في معانيه ومناحيه ؛ فتوسى بعض أغراضه كالحجاء ، وميز بعضاً آخر كالنزل . وهل يمكن التجديد في الشعر وجل الشعراء ما بما باترن من البادية ، والخلفاء يتعصبون للبادية ، والرواة والأدباء والفقهاء يطلبون الله والشعر في البادية ؟ فضلاً عن أن العرب بطبيعتهم يميلون إلى التقليد ويميلون القديم المأثور من سؤدد وحق وأدب : فليس من سبيلنا أن نتكلف البحث المعقيم في القرن الأول عن مذهب شمرى جديد يصح أن يكون أساساً لأدب عربي

جديد ، فإن مذهب عمر بن أبي ربيعة في القرن لا يختلف عن مذهب امرئ القيس إلا في اللامى الحضرية ؛ ومذهب جرير والفرزدق في الهجاء لا يختلف عن مذهب الحطيئة والشناخ إلا في اللامى السياسية . فلنفسر الجهد إذن على تحليل نهضة الشعر في العراق والحجاز على عهد بنى أمية وبيان خطرها وأثرها في الإنتاج العقلى للعرب .

كانت القحطانية والمدنانية ، والعلوية والبكرية ، والهاشمية والأُموية ، والروية والشموية ، تضطرم في نفوس المسلمين اضطرام البركان قبيل أن يثور . ولكنها كانت نضف حيناً وتشتد حيناً تبعاً لسياسة القائم بالأمر ونظام حكمه ؛ فالقبائل كانت تنزل منازلها في البلاد على هذه الفكرة ، والبيصرة والكوفة تخطلطان على هذه الفكرة ، واخلاف ينبجم في فارس والشام والعراق والأندلس من هذه الفكرة ، وكلها تدور على الزعامة والإمامة ، فمن كان سيداً في الجاهلية يريد أن يكون سيداً في الإسلام ! كأن العرب لم يفهموا من الدين الجديد إلا أنه طريق إلى السلطان وسبيل إلى الثلبة والثروة والحكم ليس غير . ولما ذكر أن بعضاً من شيوخ القبائل كقيس بن عاصم والأحنف بن قيس كانوا يرضون على الرسول أن يدخلوا في دين الله لا على أنه الدين الحق ، بل ليكون لهم الأمر من بعده !

ظلت هذه الروح المصبية مكثومة في عهد الشيخين لأخذاً بالأمور بالحزم والعدل ، ولانصراف العرب إلى المنعم عن طريق الجهاد والفتح فلما ولى الأمر عثمان وهنت اليد الصرفة فسندتها يد أخرى ، وتشتت الرأي فلم يصدر عن الخليفة وحده ، وحكم آله الناس بعصيتهم الأُموية لا بقوميتهم العربية وكان المسلمون يؤثذ قد أعمت عليهم الفتوح والمنعم للتراث إلى حد البطر ؛ فاستبقت الفتنة وقامت الثورة وانتهت بمقتل عثمان ، وتجددت الخصومة على أثر ذلك بين على ومعاوية .

وقتل الإمام فتخرج الأمر وانشقت العصا وانصرف العرب عن جهاد المد والى جهاد أنفسهم بالسنان والسيف. وتفرقوا أحزاباً وشيماً بعضها الدين وبعضها الدنيا. ففى الشام حزب يشايح بنى أمية. يريى لم الأمر ويمكنهم فى الملك؛ وفى الحجاز حزب بناصر ابن الزبير، يؤيده فى دعواه وينصره فى دعوته؛ وفى العراق حزب يشايح أهل البيت ويطلب لهم بمقتهم فى الخلافة. وهناك حزب ديمقراطى ينكر الأحزاب ويكفر الزعماء ويقول بالشورى فى الخلافة. وفى الأحزاب الأربعة توزعت أهواء السليين وآراؤهم لإطاعة قليلة لئمت الحياد وأرجأت الحكم بين المختلفين إلى قضاء الله يوم الدين وهم المرجئة. واتصلت بين الأحزاب المنسومة، وأعنف فيها الخصوم؛ ولكن معاوية بعد أن تم له الأمر كان يصانع معارضيه بالدهاء والمطاء والإغضاء والحزم، حتى استوثق له الأمر طيلة حياته إلا من جهة الضوايح؛ فلما مات أفاق خصومه من خدر سياسته فزعزعوا عرشه؛ حتى إذا وهى أحرکه مروان وبنوه فسندوه واقتصدوه. وفى زمن عبد الملك اشتدت الممارسة واستمرت الحروب، وكثر اللطالبيون بالخلافة، وانبسط سلطان العرب، وزخرت موارد الفنى. واكتمل شباب الجيل الذى نشأ فى الإسلام، واعتدى بشمر الفتوح، واحتتمتع بمجال الحضارة، واختلط بأعماش شتى من الناس، وساهم بيده ولسانه فى هذه الفن، فبلغ الأدب العربى غاية ما قدر له أن يباح. فهل يمكن أن يظل الشعر بنجوة عن هذه الحياة الصاخبة، والمصيبة الغالبة، والأحزاب المتعارنة، والأهواء المتضاربة. والشعر العربى ربيب الخصومة والجدل، تيمشه العربية وقويه الهراش وتوحيه شياطين الفرقة؟ الواقع أنه كان وقود هذه الفن ولسان هذه الأحزاب، يصطلحنونه كما نصطلحن نحن الصحف اليوم، فيتناضل عن مدانه، ويدافع عن آرائه، ويصطلحن بصبغة المقيدة التى يدعوا إليها وينافح عنها. وإذا علمت أن العرب جميعاً ساهموا فى هذه الخصومات، وأن أكثرهم يقول الشعر وخصوصاً فى هذه الأزمان، وأن الأمويين استألوا بالمال هوى الشعراء، وأوقدوا

يهمهم نار التنافس والهجاء ، وأن الشعر أصبح صناعة متميزة يعيش عليها بعض الناس ، وأدركت سبب وفرة الشعر وكثرة الشعراء في عصر عبد الملك ، إذ بلغ عدد الفحول المائة . وليس من شك أن الشعر وإن حافظ على طريقته وطبيعته قد تأثر بهذه الحياة الجديدة تأثراً ظاهراً في معانيه وأغراضه ، ولكن هذه الحياة لم تكن كلها نزاعاً سياسياً ولا جدالاً دينياً حتى يقف تأثره عند هذا الحد ، وإنما كان لها مظاهر أخرى يحسن أن نشير إليها قبل أن ندل على آثارها في الشعر .

نظرة عامة

في العراق :

كان من الطبيعي أن تختلف مظاهر هذه الحياة في المواسم العربية لاختلاف الأحوال السياسية والاجتماعية فيها فالعراق كان منذ القدم متحججاً لخطوط العربية لخصبه ونباتاته ووفرة ظله ومائه . وقد لاذ العرب قبل الإسلام بأطرافه وأريافه والسان واليد فيه للفرس . فأنشأوا إمارة المناذرة . فلما فتحوه في عهد عمر نزحوا إليه وأنشأوا على حدود البادية البصرة والكوفة . وكان في العراق ميراث وقر من العلم والأدب والدين خلفته الأمم الفارسة ، ولم يؤث المراق ما أوتيت مصر من قوة الهضم والتمثيل حتى يحيل سكانه إلى جنسية واحدة وعقلية واحدة ، فانطعمت الأهواء فيه على الفرقة ، والنفوس على التنافر . وأتى إليه العرب بالمصيبة الجنية والنزاريه ، ووقفت فيه الأحداث الإسلامية الجبلى كواقعة الجبل ومصرع الائمة والقادة ، وما نجم عن ذلك من قيام الشيعة والخوارج ، واشتداد المعارضة لبني أمية ، واستحكام الخلاف بين البصريين والكوفيين في السياسة والدين والعلم ، فكانت البصرة عنانية ، والكوفة بعد استقرار الإمام على بها علوية ، والجزيرة القرانية إما نصرانية وإما خارجية ، لأنها مسكن ربيعة وهم كما قال الأصمى رأس كل فتنه . ومن ربيعة بنو تغلب الذين قال فيهم الإمام علي : « يا خنازير العرب !

والله أن صار هذا الأمر إلى "لا تضعن عليكم الجزية . " فكان الشعر العراقي صورة لهذه الحياة الثائرة المتنافرة ، فهو قوى عنيف يكثر فيه الهجاء والفخر ، وتتلون فيه المعصية القبليّة ألوانا شتى من التحزب للسكان والعقيدة والجنس ، وتتغلب فيه النزعات الجاهلية على التعاليم الإسلامية ، وتنفيذ نفحات بدوية وصلات أموية ، فيزدهر ويتشرب حتى يشغل كل لسان ويحتل كل مكان ويمر عن كل مبدأ .

في الحجاز :

والحجاز منبع الإسلام كان أشبه ببتايح الهر : يفيض منه الماء الصافي في سكّون ورفق ، حتى إذا بعد مجراه اعترضته الشلالات وتقسّمت التيارات ، فشكلت غير ه ، واشتد هديره ، وتوزعت الجدول والأفنية ، فيضه في سباح الأرض ، ويضه في الرياض ، فروى بعضاً وأغرق بعضاً . وانتقلت منه الخلافة والمعارضة والعلم إلى العراق والشام وبقي هو كما كان وكما هو الآن يقبل اللال وللوننة من كل قطر . واتخذت سياسة الأمويين أن يقتلوا فيه شباب الهاشميين فلا يتركونه إلا ياذن ، وسلطوا عليهم الترف ، وشغلهم بالمال عن الملك ، وخلوا بينهم وبين الفراغ ، وقد ورثوا مع ذلك عن آبائهم المجاهدين منافع الفتح من أموال ورقيق ، وفي أهل الحجاز ملاحاة ظرف ووداعة نفس ولطافة حس وفصاحة لسان ومحبة لهو ، فتسلطوا على النسيم ، وعكفوا على القنة ، وقطلوا أيامهم بالمناودة والمناجاة ، وذهبوا في حياة الجحور كل مذهب . ووصل الحج بينهم وبين العسان والقيان ، واستهوت هذه الحال المنين فوفلوا إلى مكة وللدينة من أقطار الدولة حتى اجتمع منهم في وقت واحد كما يقول أبو الفرج الأصبهاني « ابن سُرَيْج ، والذريض ومعبّد وحنين ، وابن محررز ، وجيلة ، وهيت ، وطوبّيس ، والبال ، وبرد القواد ، ونومة الضحى ، ورجة ، وهبة الله ، ومالك ، وابن عائشة ،

وابن طييرة، وعزة الميلاء، وحياة، وسلامة. وبليلة، ولة العيش، وسعيدة، والزرقاء، وابن مسجح، وحتى غلب الفناء على أعمال الناس وميوله، فقد حدث الإمام مالك عن نفسه قال. نشأت وأنا غلام أتبع للفنين وأخذ عنهم، فقالت لي أمي: يا بني إن المنى إذا كان قبيح الوجه لا يلتفت إلى غنائه، فدع الشفاء والطلب الفقه فإنه لا يضر معه قبح الوجه. فتركت للفنين وأتبع الفقهاء فبلغ الله بي عز وجل ما ترى. من ذلك شاع الحب في مدن الحجاز ورقت هواطف بنييه، فسلخوا بالشعر مسالك النزل الحضري الرقيق الصادق، حتى كاد هذا الفن لافتتاحهم فيه يبتدىء بهم وينتهي إليهم.

في السام :

وأما السام فكان بجملة من الثورات النفسية والأزمات السياسية لخضوعه لبني أمية وإخلاصه لهم وانصرافه إلى تأييدهم، فلا هو مضطرب المواقف كالحجاز، ولا هو مضطرب الأهواء كالعراق، وقد أمن الخلفاء جانبه فتركوه لشأنه دون أن يثيروا عصبية خلاف، أو يهيجوا طماعيته لشتم، فبقى الشعر من جراء ذلك راكداً في نفوس أهله لا يبعثه باحث، ولا يتوفر على دراسته وروايته باحث. وأكثر ما كان فيه من ذلك إنما كان يفد إليه من العراق والحجاز مع الشعراء الذين يمزجهم سخاء القصر أو دهاؤه، والأدباء الذين يطلبهم الخلفاء من البصرة كلما عضلهم مسألة في الفقه والنحو والأدب.

خصائص الشعر في العراق

لعل الشعر العراقي الإسلامي أصدق ما يصور حياة البادية وأصبح ما يعبر من نفسية العرب؛ فإنه - وإن كان كما قلنا استمراراً للشعر الجاهلي يصدر عن دوافعه وينبع من منابعه - أتقى جملة وأبين علة وأصلح نسبة، لقربه من عصر التدوين

وانتماله بأسباب السياسة وأحداث التاريخ : وهو مظهر تلك الحياة المدنية الأولية
 اتى هيأها الإسلام للعرب لأول مرة : فجعل من الأشبات وحدة ظاهرها الجماعة
 والألفة ، وباطنها العداوة والفرقة ؛ فهم بحاجة بين الأفراد ، ومساجلة بين الأحزاب ،
 ومفاخرة بين القبائل ، ومدح للزعماء والخلفاء . وهذه الموضوعات بطبيعتها تقتضى
 اللفظ الجزل والأسلوب الرصين والعروض الطويل والصور البدوية ، وتعتمد
 فى المجاع على مثالب الآباء من جبن ومخل وقلة وذلة ، وفى المدح والتعظيم على ذكر
 أيامهم القاسية الماضية وما ظفر فيها أسلأنهم من التغلب والسلب . فالمجاء فى هذا
 المهد بأنواعه الخاصة والعامة يكاد يكون مظهره العراق ، لتكالب القبائل المتنامية
 عليه ، وظهور المذاهب المتباينة فيه ، وعلية البداوة والألفة والبطر على أهله ؛
 فشرأوه يبتدون به ويفتنون فيه ويميشون عليه ، وهو ينتحل الأسباب المختلفة ،
 ويرتدى الأنواب المتعددة ، فيكون شخصياً وقبلياً ووطنياً ودينياً وسياسياً ،
 ولكنه فى الواقع إنما يصدر عن باعث واحد هو المصيبة الموروثة والأحقاد القديمة
 وقد نبئت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

الأخطل :

فقاتل هذا البيت غياث بن غوث الأخطل صوت الجزيرة ولسان التغلبية ،
 وأديب النصرانية وشاعر الأموية ، كان أول ما غرزم به الشعر المجاع . هجا
 امرأة أبيه وهو صغير . وهجا كتب بن جعيل شاعر تغلب فأحمله وهو يافع ،
 وعلق به لقب الأخطل منذ شب لسفاهته ، ثم مضى يقرض الشعر فيما يشجر من
 الخصومة بينه وبين الناس ، أو بين قبيلته وبين القبائل ، حتى كان بين يزيد
 ابن معاوية وهو ولي قهده وبين عبد الرحمن بن حسان الأنصارى نقاول وجدل ،
 فطلب من كتب بن جعيل أن يهجو الأنصار ، فنهج أن يذم قوماً آووا
 رسول الله ونصروه ، وقال له : أدلك على الشاعر الفاجر الماهر (يريد الأخطل)

فهبها الأخطل الأنصار بالفلاحة والقرى والخمر ، وفضل عليهم قريشاً في قصيدته
الرائية ، وكاد يُشقى من ذلك على الخطر لولا عون يزيد . وبالغ الأمويون في
إيثاره وإكرامه ، وأمنن هوفى الفتح عنهم ، ففاضل الزبيريين بمد الأنصار ،
ووقف للقبائل القيسية فهتكت عنها حجاب الشرف قبيلة قبيلة بقصيدته التي مطلعها :
ألا يا أسلى يا همدُ همدَ بنى بكر وإن كان حياناً عدى آخر الدهر
لنأصبتها الأمويين المدا من جهة ، ولأقتحامها الجزيرة على قومه من جهة
أخرى . ثم ختم حياته بمالأة الفرزدق ومهاجاة جرير . والأخطل وإن كان
شديد التمسك بقصائده على وثيق صلاته بالخلفاء ، لم يشذ عن طبيعة العرب
في التدين ؛ فقد قال الأب لأمس اليسوعي في فصل كتبه عنه : « إن أثر
النصرانية في دين الأخطل ضئيل ، ونصرانيته سطحية ككل العقائد الدينية عند
البدو » ، فهو يذمن الخمر في حى الدين ، ويكثر المهجاء في حى الخليفة ، ويهاجم
القبائل في حى قلب ؛ ولكن هجاءه كان عفيف اللفظ لا يركب فيه من
الشغل ولا يتجاوز به حدود الخلق .

الفرزدق :

هو أبو فراس مام بن غالب الفرزدق الدارمي ثم النخعي نشأ كذلك بالبصرة
على قول المهجاء مع شرف أسرته وغنى قبيلته وعزة نفسه ؛ فكان يهجو بني قومه
لحدة طبعه وشراسة خلقه ، فيشكونه إلى أبيه فيضره . ثم لج في هجاء الناس
حتى استعدوا عليه زياداً وإلى المراق معاوية . فطابه فقر منه في مدن المراق
وقبائله ثم لجأ إلى المدينة أخيراً واستجار بواليهاميد بن العاص من زياد فأجاره .
فلما مات زياد عاد الشاعر إلى وطنه فشارك فيا وقع فيه من حروب وقتن بدموف
معاوية ويزيد ، حتى منى بمهاجاة جرير فشلت فكره وملأت عمره وصداوات
شعره . وظلت هذه المهاجاة أربعين سنة ونيفاً كان منها للناس مشقة . وللاسواس

مهزلة . وللأدب العربي ثروة ضخمة من الشعر لا تخلو على سقايتها وبذاتها من جمال وحكمة .

جيرر :

وكان جيرر بن عطية الخطيقي النيمي قد قال الشعر كصاحبه في الحدائق الباكورة ، وقاله مثلهما في الهجاء ، ولكنه بدأ بالرجز على نحو ما يكون من الرعاة وهو منهم . وكان خول عشيرته وضمة أسرته وفقرا يبه وحدة خلقه من العوامل التي ساعدت الطبع على نبوغه في الشعر وتفوقه في الهجاء وكان أول من نازله وأغصه غسان السليطي حين هجا قومه ، فاستغاث السليطي بالبعيث فأغاثه وهجا جيرراً ففقد جيرر قوله بالهجاء اللاذع ، ففاضل عنه الفرزدق لموجدة في نفسه على جيرر ، ونهاجى الشاعران النيميان من أجل ذلك . وفضل الأخطل والفرزدق على جيرر إمالة قاعه عن قيس ، وإمالة رشوة محمد بن عمرو إياه ، فهجاه جيرر . ثم هجاه الهجاء . من كل مكان حتى نصب له من الأقران ثمانون شاعراً ظهر عليهم جميعاً إلا الفرزدق والأخطل فإنهما ثبتا له وتازعا الغلبة . وانشعب الناس في أمر جيرر والفرزدق شعبتين تناصر كل منها أحد الشعارين . وكان بين الفرزدقيين والمجريين ما بين العلويين والأمويين ؛ يطلب كل منهم الملية لصاحبه بالدعاية والتمكيات والرغبة والرهبة والخلف ، يقوم الأولون بالمردود الآخرون بمقبرة بني حصن وقد وقف الشاعران كلٌّ بين أيديهم وأشياعه ينشد شعره ، وهم يكتبونه ، والرواة ينشرونه ؛ والأدباء والأمراء يفتاؤون ما يروى بالوازنة والنقد والحكم ، والأناصرا يحاولون رشوة الشعراء واسمات العلماء يعكفون على خدعهم ، فيقدروا صاحب الأثافي أن أحدهم تبرع بأربعة آلاف درهم وبفرس مر ، يفضل الفرزدق على جيرر . وليس أدل على اهتمام الناس بأمرهما واختلافهم في الحكم على شعرهما من أن يتهاذن الجيشان المختلان ساعة ليحكم أحد الخوارج الأدباء بين رجائيه

من رجال المهلب تنازعا في أسر جرير والفرزدق . فقد ذكر ابن سلام أن رجلين تنازعا في عسكر للمهلب في جرير والفرزدق وهو يازاء الخوارج ، فصارا إليه قتال لا أقول فيهما شيئا ، وكره أن يمرض نفسه لشرهما ، ولكن أدركا على من يهون عليه سقطهما : عبيد بن هلال ، وهو يومئذ في عسكر قطارى بن الفجاعة ، فأتيا فوقفا حيال المسكن فدعوا نخرج يمر ربحه ، وظن أنه دعى إلى المبارزة ، فقال له : أأفرزدق أشعر أم جرير ؟ فقال : عليكما وعليهما لعنة الله ! فقالا : نحب أن نخبرنا ثم نصير إلى ما تريد . فقال من يقول ؟ :

وطوى القيادُ مع الطراد بطونها على التجار بحضر موت برودا
قالا : جرير قال : هو أشعرهما .

وهناك طائفة أخرى من شعراء العراق كعبيد الراعي وأبي النجيم الميلى والراجز اتخذوا من الشعر ظفراً وناباً مزقوا بها الأعراض وأشاعوا هجر القول في الناس ، ولكن أحدهم لم يبلغ من سطوة الشعر ونهاية الذكر ما بلغ جرير والفرزدق والأخطل ، لأنهم كما قال أبو عبيدة : « أعطوا حظاً من الشعر لم يسله أحد في الإسلام : مدحوا قوماً فريوهم ، وذموا قوماً فوضوهم ، وهجاء قوم فردوا عليهم فأنهضوهم ، وهجاء آخرون فرغبوا بأنفسهم عن جواهرهم فأسقطوهم » .

مذهب الأخطل والفرزدق وجرير في الهجاء :

مذهبهم في الهجاء هو المذهب المتبع والطارز الثالب . حل أنهم يتفاوتون فيه فتفاوتهم في الطبقة والبيئة والطبع .

فالأخطل سيد في قومه ، كريم في نسبه ، نبيل في نفسه . يعاقر الظر ويمحاسن الملوك ويمحرم الدين ويحتمل في سبيله ضرب الأسقف وأذى السجن وإن كان لا يمتدح ولا يتزهّد . ومن أجل ذلك كانت لشته في الهجاء كما ذكرنا من قبل أنة

الخاصة ، لا ينف إلى القبيح ولا يستعين بالمجازى ، وإنما يهاجم القرن في صفات
الرجوة فينبى عنه الكرم والياس والجد والصدق كقوله في تيم :

وكنت إذا لقيت عبيد تيم وتيا قلت أيها السيد ا
لثيم المالمين يسود تياً وسيدهم وإن كرهوا مسود
وكقوله في كليب بن يربوع :

بئس المعاب وبئس الشرب شر بهم إذا جرى فيهم المزاء والسكر
قوم تناعت إليهم كل مخزية وكل فاحشة سُبَّت بها مضر
الآكلون خيث الزاد وحطم والسائلون بظهر الغيب ما الخير
وأقسم المجدحاً لا يخالقهم حتى يحالف بطن الراحة الشعر
ولما أغش هجاءه قوله في قوم جرير :

قوم إذا استنبح الضيفان كلهم قالوا لأمرهم بولى على النار
فتمنع البول شحاً أن تجود به ولا تجود به إلا بمقدار
والخبز كالعبر الهندى عندهم والقمح خسون أردباً بدينار

فترى أنه حتى في إقذاعه وإجماعه لا يتدلى إلى ذكر المثالب الخاصة والمعايب
الفردية ، وإنما يهاجم قبيلة انظم كلها فيقاييس بينها وبين قبيلته في السمو إلى
المال والسبق إلى النفايات ، وفي ذلك مجد بلاغه ومدده ، فلا يضطر اضطرار
جرير إلى ذكر الصفات الحماسا للقبيلة الحديثة من أقرب طريق . أنظر إلى قوله
لجرير :

يا ابن المراغة إن عُمى إذا قتل اللوك وفككا الأغلا
وأخوم السفاح ظمأ خيله حتى ورددن جى الكلاب نهالا

فانق بضائك باجرير فإيما متك نفسك في الغلاء ضللا
متك نفسك أن تكون كدارم أو أن توازي حاجبا وغلا
وإلى قوله هـ :

ولقد شددت على المرافقة سرجها حتى نزعت وأنت غير مجيد
وعصرت نعلتها لتدرك دارما هيات من أمل عليك بعيد
وإذا تصاغت الأمور هـ ارم طأطأت رأسك عن قبائل صيد
وإذا عدت بيوت قومك لم تجد بيتا كبيت عطارد ولبيد

فإذا نظرت إلى ذلك وجدت أن هجاءه أقرب ما يكون إلى المنافرة والفخر .
ومن الواضح أن هذا الهجاء العنيف المتفرع وأن أمض لا يجري مع هجاء جرير
في ميدان ، ولا يستوى وإياه عند العامة في ميزان ، فكيف إذا اجتمع إلى ذلك
خود الشيخوخة في الأخطل وحلة الشبيبة في جرير ؟ إن جريرا نفسه قد علل
وناء خصمه عنه في آخر الشوط بكبرسه ، فقد قال : « أدركته وانه ناب واحد ،
ولو أدركته وانه نابز لأكلني » . وقال في قصيدته الثونية التي هجأها الأخطل
على أثر تفضيله الفرزدق عليه .

جارت مطامع الرهان بنسايه روق شبيته وعرك فان
وإذا استثنينا هجاء الأخطل لجرير وجدنا أشهر أهاجيه إنما قالها في أغراض
قومية أو سياسية . ومن تلك الأهاجى الماثورة قصيدتان تلخصان مذهبه
وتصوران فنه : الأولى في هجاء القبايل القيسية ومطلمها .

ألا يا أسلى يا هند هند بني بكر وإن كان حيانا عدى آخر الدهر
والأخرى في مدح عبد الملك بن مروان وذم خصومه ومطلمها :
خف القطين فراحوامك أو بكروا وأزعجنهم نوى في صرفها غير

ومنها :

بنى أمية إني ناصح لكم فلا يبين منكم أمّا زفر
فلأن مشهده كفر وغائقة وما يُقَيَّب من أخلاقه وعَر
إن الدواوة تلقاها وإن كنت كالمُر يكن حيناً ثم يفتشر
بنى أمية قد ناضلت دونكم أبناء قوم هم آووا وهم نصروا
وقيس عيلان حتى أقبلوا رقصاً فهايموك جهاراً بمد ما كفروا
ضجوا من الحرب إذ عصفت غواربهم وقيس عيلان من أخلاقها الضعيف
والأخطل لعمرا نيتهم لم يستطع أن يتخذ من الإسلام سبباً للفضر ولا مادة
للجهاد ، فاكثفى يذكر مناقب آبائه ومطالب أعدائه . على أنه يستغل أحيانا
بعض ما أنكر الإسلام فيهجوه به وإن كان هو يستبيحه ؛ كقوله فى الأنصار
يرمهم بشرب الخمر .

قوم إذا هدر المصير رأيتهم حمراً عيونهم من المسطار
وكقوله فى كليب بن يربوع :
بئس الصحاب وبئس الشرب شربهم إذا جرت فيهم المزاء والسكر

أما الفرزدق فهو كالأخطل فى القذابة من قومه ، إلا أنه كان مريح الدواوة
فلا يوارى ، فاحش الدعاية فلا يحشم ، شديد الدعارة فلا يتعفف ، حاد البادرة
فلا يتلطف ؛ فهو فى هجائه يذكر المورات ، ويعلن الخفريات ، بألفاظها المارية
وأسمائها الصريحة حتى ليستحى الشاب أن ينشدها ، بله الفتاة الخفيرة . وما أظن
البدواة رضيعى الخلق وسلاطة اللسان وفجور النفس هى كل الأسباب التى أوجدت
هذا الهجاء السوقي الوقح ، فإن الخطيئة ومن سبقه على اتصافهم بهذه الأوصاف

لم يسفوا هذا الإسفاف ، فلا بد أن يكون لحياة العراق في ذلك العهد أثر قوى في ذلك . فالخلق العربي القوي قدوهت أو امره باتصال البدو بالحضر واختلاط العرب بالمجم ، والوازع الدينى قد ضعف بتقلب الأحزاب وضعف المصيبة ؛ والسلطان السامى يفض جفنيه ، ويضعك ميله شذقيه ، من هذه للهازل التى يثملها الشعراء والقبائل بالبصرة ، أقول القبائل لأن القبيلة كانت من وراء شاعرها تحتال لانتصاره بالمال والقتال والرعاية ، وربما يأتى كل رجل منهم باليهين والثلاثة فيرفد بها الشاعر كما فلت تيم في هاجاة شاعرها عمر بن لجأ لجوير . وكان أخش المجاء هجاء الفرزدق في جرير ، يرى قومه بضعة النسب ، وضعف الحيلة ، وأعاذ النعم ، ورعى الإبل ، وإتيان الأتق ، ويفتن في هذه للعائى اقتنائاً عجيباً : يرددها في كل قصيدة على صور مختلفة وأساليب شتى ، ولا يتعرج أحياناً من افتعال الحوادث للضحكة إمعاناً في السخر من للهجو والليل منه . وهذا غاية ما وصل إليه المجاعون وأهل التناذر في عصور الترف والخلاعة . وأدعى من ذلك أن يقذف خصمه بنوع من السباب الذى لا يعتقده هو ولا يصدق الناس ، إنما يعتمد إليه مبالغة في التهويل والتشهير على نحو ما يعمل الرعاع في الطبقات الوضيعة ، وذلك ما لم نمهد في المجاء من قبل . إذ كان الشاعر يرى جهة المحامن في المرء فيمدح ، أو جهة للساوى فيه فيذم ، وهو في كلتا الحالين صادق .

وقد يتدلى الفرزدق في المجاء إلى الدرك الذى لا تسميه رجولة ، فيقفض رثاء جرير^(١) لامراته بهجائها للقتع ، دون أن يرى للميت حرمة ولا للرأه كرامة ، كقوله :

كانت مناقفة الحياة وموتها	خرى عسلانية عليك وعار
فلئن بكيت على الأنان لقد بكى	جزعاً غداة فراقها الأعيار

(١) وهي القصيدة التى سطها .

تبكي على امرأة وعندك مثلها قصاه ليس لما عليك خار
وليكفينك قد زوجتك التي هلكت موقعة الظهور قصار
إن الزيارة في الحياة ولا أرى ميتاً إذا دخل القبور يزار
ورأى الفرزدق في المرأة يدل على جفاء طبع وسوء آفة ، وربما دل أيضاً
على منزلتها في المجتمع العربي في ذلك العهد ، ولا نستنبط ذلك من قوله في زوجة
جرير فقد يكون للخصومة بعض الأثر في سوئه ، وإنما نستنبطه من قوله
في زوجته هو حين ماتت :

يقولون زُر حدراء والترب دونها وكيف بشيء وصله قد تقطعا
ولست وإن عزت على بزائر تراباً على مرموسه قد تضعضعا
وأهون مفقود إذا لوث ناله على المرء في أصحابه من تقنعا
يقول ابن خنيزر بكيت ولم تكن على امرأة عيني إخال لتدعما
وأهون رزء لأمريء غير عاجز رزية مرنج الروادف أفرما
على أن طبيعة المهاجاة مع جرير ، وشهوة الغلبة عند العامة ، ونفاد الممانى
في المجباء على طول المدة ، وبلادة الحس وهوان النفس باعتماد الذم ، قد دعت
الفرزدق كما دعت جريراً إلى التلذذ في الإقذاع والبذاء ، حتى خرج شعرها
في النقائض على قوته وجودته عن الحد المألوف بين السفلة . ولكن الفرزدق مع
تبذله كان يصيخ أحياناً إلى وازع الدين لتشيمه فيتوب عن قرص الشعر ،
ويكف عن هجاء الناس ، ويقيد نفسه ليحفظ القرآن ويقول :

ألم ترفى طاهدت ربى وأنى كبت رتاج قائماً ومقام
على قسم لا أشتى الدهر مسلماً ولا خارجاً من قى سوء كلام
أو يستعجب إلى داعي الشرف لحبه فيصدر في المجاء عن طبع أبي ونفس

كريمة ، فَنَسُو مَنايِهِ وَتَفَ أُنْفَاغَهُ ، كَقَوْلِهِ فِي مَناوِيهِ وَقَدْ حَبَسَ عِنْدَهُ مَالاً
لِأَحَدِ أَعْجَامِهِ بِعَدِّ وَفَاتِهِ :

أَبُوكَ وَعَمِي يَا مَعَاوِيَ أَوْرَثَا تَرَاثَا فَيَحْتَازُ الثَّرَاثَ أَقَارِبُهُ
فَمَا بَالُ مِيرَاثِ الْخُلَاطِ أَخَذْتَهُ وَمِيرَاثِ حَرْبِ جَامِدٍ لَكَ ذَاتُهُ
فَلَوْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِي جَاهِلِيَةٍ عَلِمْتَ مَنْ لِلرَّءِ الْقَلِيلِ حِلَابُهُ
إِلَى أَنْ يَقُولَ :

وَمَا وَلَدْتُ بِسَدِّ النَّهْيِ وَأَهْلُهُ كَثَلِي حَصَانٌ فِي الرِّجَالِ يَقَارِبُهُ
وَكَمْ مِنْ أَبٍ لِي يَا مَعَاوِيَ لَمْ يَزَلْ أَغْرِبِي بِأَرَى الرِّيحَ مَا أَزُورُ جَانِبُهُ
نَمَتُهُ فُرُوحٌ لِلْكَائِنِ وَلَمْ يَكُنْ أَبُوكَ أَقْنَى مِنْ عَيْدِ شَمْسٍ يَخَاطِبُهُ



أما الطائفة الكبرى فهي جرير ، لأنه كان مرسل المنان مطلق اللسان
لا يعمقه قيد ولا تسكبه شكية . فلهذا هو صاحب سياسة كالأخطل ، ولا صاحب
نحلة كالفرزدق ، ولا وارث مجادة كالإخمين . وإنما كان سوقياً ترهية رزقه الله
حدة الذهن ورقة الأسلوب وخبث اللسان ، وزاده المراسل صلابة عود ، وغزارة
فكر ، ومتانة شعر ، وسهولة فافية ، فيبلغ بالمجاء الفردى القبلى غاية في الإقذاع
والإقناع والقوة . وربما كان أول من أكره الشعر على قبول الأساليب العامية
للبيتة في المجاء كذكر الدورات وهتك المحارم ، فاضطر خصومه إلى أن
يكلوه بأصطلاحه ، ويقانلوه بسلحاه ، وأصبح بمدح المجاء في التراق لا يفعل
في النفوس إلا مشوباً بهذا القدر . وما مهاجاة بشار وحاد إلا ضرورة من هجاء
جرير والفرزدق .

كان جرير لامعته ويثته ، وللاصحاب التي ذكرناها من قبل في معرض

الكلام عن الفرزدق ، يصطنع في المجاء أساليب الدهاء ، فيعير الأخطل بالقلف والخزير والشكر ؛ ويقذف البيث في أمه وهي أمة سجستانية ؛ ويهاجم الفرزدق في جدته فيتهمها بجير القمين ، وفي أخته جمن فيريسيها بإبدال بنى منقر إياها على إثر حادثته مع غلياء بنت طلحة حفيدة قيس بن عاصم ، ويشهر بقومه في إختفار عمرو بن جرموز لئلا يمتهم في قتل الزبير ، ثم يسقط عيونه بالصغيرة وهفواته الدنيا فيجسمها بالمباينة والتزبد ، كصبرته النابية للرومي ، وزيجته القالية من نوار .

وكان الفرزدق يذهب في هجائه مذهب الفخر بآبائه ، فيمدد أيامهم الظافرة ، ويمدد مفاخرهم القابرة ، فلا يستطيع جرير مجاراته في هذا المضمار ، فيعمد إلى قرض الفخر الملف بالسخرية اللاذعة والفحش الموجد ، وإذا أخذ جرير هذا المأخذ لا يقام له . اقرأ على سبيل المثال قصيدة الفرزدق التي مطلعها :

إن الذي سلك السماء بنى لنا بيتا دعاءه أحرز وأطول

تبعده يقول بمد هذا البيت :

بيتا زُرارة محب بفنائنه
لا يحبني بفناء بيتك مثلهم
فيمحيه جرير في تقيضته لها :

أخرى الذي سلك السماء مجاشعا
بيتا محم قينسكم بفنائنه
قتل الزبير وأنت عاهد حبه
وأفك غدرك بالزبير على منى
بات الفرزدق يستجبر لنفسه
ويقول الفرزدق :

حلل للملوك لباسنا في أهلنا
والسائبات إلى الوغى تشر بل

فيحييه جرير :

لا تذكروا حلل للوك غانكم بعد الزير كهاتس لم تنيل
ويقول الفرزدق :

أحلامنا تزن الجبال رزاة وتخالنا جثا إذا مانجمل
خادع بكفك إن أردت بناءنا نهان ذو المصبات هل يصلح
خالي القى غصب للوك غوسهم وإليه كان حياء جنة ينقل
إنا لضرب رأس كل قبيلة وأبوك خلف أمانه يقتل
فيحييه جرير :

كان الفرزدق إذ يسود بحاله مثل القليل بمود تحت القرمل
وانغر بضية إن أمك منهم ليس ابن ضبة بالمعم الخول
أبلغ بنى وقبان أن حلومهم خفت فلا يزنون حبة خردل
أذرى بحلمهم القباش فأنتم مثل القراش عشرين نار المصطل
ويقول الفرزدق :

وهب القصائدلى النوايح إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجروول
ثم يمضى بعدد الشعراء الفحول ويقول :

دفعوا إلى كتابهن وصية فودعن كآهن الجلدل
فيحييه جرير :

أعدت للشعراء سماء ناقما فسقيت آخرم بكأس الأول
لما وضعت على الفرزدق ميسى وصنى البيت جدعت أنف الأخطل
حسب الفرزدق أن يسب مجاشع ويسد شعر مرقش ومهلل

فأنت تلاحظ أن جريراً يرغب في الطريق السهل ، ويطفيء حرارة الجلد ببرودة المنزل ، ويقابل السكىّ المهاجم في سلاحه ولأمنته ، وهو في توب للهرج وبزّه وضحكته .

ولجرير قدرة بارعة على تتبع الخضم في حياته الخاصة والعامة ، فينسقط أخباره ، ويتلطف حوادثه . ثم يعلنها في شعره تشهيراً به وفضيحة له :

ينزوج الفرزدق من حدراء بنت زريق بن بسطام على حكم أبيها ؛ فيقول جرير :
يا زريق قد كنت من شيبان في حسب يا زريق ويحك من أنكحت يا زريق
أنكحت وملك قينا في استه حم يا زريق ويحك هل بارت بك السوق
يارب قاتله بسد البناء بها : لا الصهر راض ولا ابن القين مشوق

فيقبل أهلها عليه ويقولون له ماتت ، كراهة أن يهلك أعراضهم جرير ، فبدأ جرير إلا أن يعلن الحقيقة في قوله :

وأقسم ما ماتت ولكننا التوى بحدراء قوم لم يروك لها أهل
ويعبث الفرزدق في المدينة عبث الشباب ويعترف بذلك في قوله :
هما دلتان من ثمانين قامة كاقصص باز أقم الریش كاسره
فيقول له جرير :

تدليت تزني من ثمانين قامة وقصرت عن باع العلاء والمكارم
ويضرب الرومي في حضرة سليمان بن عبد الملك فينبو عنه سيفه فيقول له جرير :

سيف أبي رغووان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم
ومثل هذه الأخبار لطرافتها وجدتها تعلق بالنفوس وأسير على الألسنة ،

كصنف الأحزاب نجعل من حياة خصوصها اليومية مادة لجدالها ، وموضوعاً
لنقدتها ونضالها . وجريز أطول ما عرس بالمجاء وغامر في الخصومة لاذبح
السخرية ، فاحش المعابة ، مر التهم ، ومن ذلك كان يتصور الفرزدق ويستمع
لونه كلما وردت المربد قصيدة لجريز . وأى تهكم أمض وآلم من مثل قوله :

يَأْتِيَنَّهُمْ إِنْ يَبُوتَكُمْ تَيْمِيَّةٌ قُسُ الْعَادِ قَصِيْرَةُ الْأَطْنَابِ
قَوْمٌ إِذَا حَضَرَ الْمُلُوكَ وَفُودُهُمْ نَتِفَتْ شَوَارِبُهُمْ عَلَى الْأَبْوَابِ
وقوله :

زَعَمَ الْفَرَزْدَقُ أَنْ سَيَقْتُلُ مَرْبَعًا أَبْشَرَ بِطُولِ سَلَامَةٍ يَا مَرْبِعُ
وقوله :

وَالْتَغْلَبَى إِذَا تَصَلَّحَ لِلْقَرَى حَكَ اسْتَهَ وَتَمَثَّلَ الْأَمْثَلَا
وقوله :

فَقَتَلَ الْفَخْرُ يَا ابْنَ أَبِي خَلِيدٍ وَأَدَّ خَرَاَجَ رَأْسِكَ كُلِّ عَامٍ
لَقَدْ عَلَقْتَ بِمِثْلِكَ رَأْسَ ثَوْرٍ وَمَا عَلَقْتَ بِمِثْلِكَ بِالْأَجَامِ

وكان المجاء كان في جريز غريزة يرى الناس عنها لأدنى سبب وعلى غير
معرفة ، فقد دخل على الوليد بن عبد الملك وعنده عدى بن الرقاع العاملي ، فقال
له الخليفة . أتعرف هذا ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين . فقال : هذا رجل من عاملة .
قال جريز : التي يقول فيها الله : (عاملة ناصبة تصلي ناراً حامية) ، ثم قال بيتاً
قبيحاً ورد عليه عدى بمثله فهجاه جريز بقصيدة منها ذلك البيت المشهور :

وَابْنَ الْبُيُوتِ إِذَا مَالَزَ فِي قَرْنٍ لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ الْبُزْلِ الْقَنَاعِيسِ

ولعل ذلك راجع إلى ميل في طبعه أو إلى هذا الضرب من البذاء والإيذاء
فاشتهت أن تراه فيه ، حتى صُورت لها تلك للأمنية في الحلم ، فرأت وهي حامل

به أن حبلا نزل منها فصار ينب على الناس فيخنتهم واحداً بعد واحد . فلما تأولت رؤياها قيل لها إنك تلدين ولها يكون شديد الهجاء والبلاء على الناس والشعراء ، فسمته لذلك جريراً . وسواء أأرأت أمه هذه الرؤيا أم افترتها ، فقد كان لها ولا ريب أثر قوى في توجيه قريحته منذ طفولته .

وهجاء جرير على الجملة ضعيف الفخر لبعد مستقاء فيه ، وما استطاع الفرزدق أن يصجزه إلا في مشواره ، فهو يقول له بحق :

غلبتك بالفقأ والمعنى وبيت الحنبي والخافقات

يريد بالفقأ أو اللقيء قوله :

ولست ولو فقات عينك واجداً أباك إن عد الساعى كدارم
وبالمعنى قوله :

وإنك إن تسمى لتدرك دارماً لأنت المعنى يا جرير للكلف
وبالمعنى قوله :

يتكا زرارة محتب بفنائه ومجاشع وأبو الفوارس نهشل
وبالخافقات قوله :

وأين تفضى المالكات أمورها بحق وأين الخافقات الاوامع
والفرزدق يريد بهذه الآيات الإشارة إلى القصائد التى تضمنتها وهى من عيون شعره ومتين فخره .

وضف جرير في الفخر إنما يرجع إلى الموضوع لا إلى الأسلوب ، فإنه أجمل خصومه صياغة ، وأوفرهم بلاغة ، وأرقهم لفظاً ، وألطفهم مدخلا ، وأكثرهم اقتناعاً . ولسهولة شعره وقلة غريبه تفق عند العامة والشعراء ، دون الرواة والعلماء . وهجاء هؤلاء الأقران الثلاثة إذا استثنينا منه المائى الجديدة والهجاء الشديدة والتصوير البارع ، لم يخرج عن ممت الهجائين الفحول كالحبل القريشى ، وحسان

ابن ثابت ، والحطينة ، في الابتداء بوصف الطلل والفرل ، والاعتماد على الفاعلة والمفارقة ، وتلصص العيوب من خبايا الماضي ، والاتصال المتعصب من معنى إلى معنى . وأشد ما يعيب هجاء جرير والفرزدق كثرة التكرار ، فإن كلا الرجلين إنما يهجو صاحبه بطائفة من الحوادث والصفات ذكرناها من قبل ، فلا تراه يعدل عنها ، ولا يكاد يزيد عليها ، وإنما يرددها في كل قصيدة أو غيبة في أساليب شتى وقواف مختلفة . فإذا قرأنا لكل واحد منها واحدة منهم لا يضيرنا بعد ألا نقرأ غيرها . كذلك إذا ألمنا بهجاء الأخطل والفرزدق وجرير فقد ألمنا بسائر الهجاء في هذا الطور ، لأنه مصوغ من مادته ومضروب على مثاله . على أن أساليب شعراء العراق في الهجاء الحزبي تختلف عنها في الهجاء الفردي ، فبينما في هذا لا يترفعون عن المجو ولا يتورعون عن الكذب تراهم في ذلك يذهبون مذهب الجاهليين ، فيفخرون بالنسب ، ويتكاثرون بالعدد والمال ، ويؤثرون اللفظ الشريف والأسلوب العف ، بيد أنهم ينفون في الفخر حتى ليجعلونه في الدين والحكم والعلم والموطن .

قال أعشى همدان وهو من أنصار ابن الأشعث :

اكسح البصرى إن لاقيته	إنما يكسح من قل وذل
واجعل الكوفي في الخليل ولا	تجعل البصرى إلا في النفل
وإذا فخرتمونا فاذكروا	مافلنا بكم يوم الجمل
بين شيخ خاضب عثوته	وفى أبيض وضاح رقل
جاءنا ينظر في سابعة	فدبحناه ضحى ذبح الجمل
وعفونا فسنيم عقونا	وكفرتم نمة الله الأجل

ومن هجائه السياسي الديني قوله مرمزاً في الهجاء :

شطت نوى من داره بالإيران إيران كسرى ذى القرى والريحان

إن حقيقاً منهم الكذبان كذابا الماسى وكذابٌ ثان
 أمكن رب من حيف همدان إنا سمونا لكفور الفتان
 حين طفى بالكفر بمد الإيمان بالسيد التطريف عبد الرحمن
 سار بجمع كاذبى من قحطان قتل لحجاج وليّ الشيطان
 يثبت لمجس مذبح وحمدان فإنهم ساقوه كأس الديفان
 ولمحقوه بقرى ابن مروان

وهذا النوع من المجاع قليل التفوق والبقاء ، كثير النفاق والرياء ، لطمع
 الشمرء في حياء الخلفاء وإيثارهم في القالب سلامة البدن على سلامة العقيدة .
 وليس المجاع الحزبى إلا صورا من صور الشعر السياسى الذى نفق في هذا
 العصر . وما نزعهم بهذه التسمية أن الإسلاميين قد وقفوا على مذهب في الشعر
 جديد القصد والناية ، فإن مساجلة الخصوم بالشعر كانت مألوفا في عصر الجعالة
 مشروعة في عهد الفتوة ؛ إنما نقصد بالشعر السياسى طائفة من المعانى الجديدة
 استوحشتها خواطر الشمرء من اختلاف الأحزاب في الرأى ، وتنازع الزعماء
 على الحكم . جاءت هذه المعانى الجديدة على النهج القديم في صور مختلفة ،
 نستطيع أن نردها إلى أربع .

١ - في صورة المدح المشوب بالتهريض والتمريض كقول أبى العباس الأعمى :

أبى أمية لا أرى لكم شبرا إذا ما التفت الشيعُ
 سعة وأحلاماً إذا نزع أهل الخلوم فضرها النزع
 أبى أمية غير أنكم ، والناس فيها أطمعوا طمعوا .
 أطمعتمو فيكم عدوكم فما بهم في ذاكم الطمع
 فلو أنكم كنتم لقومكم مثل الذى كانوا لكم رجوما
 عما كرهتم أو كرههم حذرُ العقوبة ، إنها نزع

وكقول الحكيم :

بنى هاشم رهط النبي فإني بهم ولم أَرْضِ مراراً وأغضب
خففت لهم من جناحي مودة إلى كنف عطفاه أهل ومرحب
وأرى وأرى بالمدواة أهلها وإنى لأؤذى فيهم وأؤنبُ

وكفة الأمويين في هذا الباب أرجح ، لما تجمع لهم من الترتيب في الليل ،
والترهيب بالملك ، والتعليق لهوى النفوس ، فدحهم ونصرهم أكثر الشراء
في عصرهم ، إما دفعا لشهرهم ، وإما طمعا في خيرهم ، حتى الذين شايخوا
خصومهم من الزبيريين والمويين لم يستطيعوا حبس إمامهم عن عطايا القصر .

٢ — وفي صورة المجاهد كما مر ، وكما قال أعشى ربيعة لعبد الملك .

آل الزبير من الخلافة كالتى عجل النتائج بحملها فأحالتها
أو كالضمايف من الحولة حلت مالا تطيق فضيحت أحمالها
قوموا إليهم لا تناموا عنهم كم للفؤاة أطلتم إسمائها
إن الخلافة فيكولا فيهم مازلتُم أركانها وثمائها
أمسوا هلى الخيرات فلامنلقا فانقض يمينك فافتتح أفعالها

٣ — وفي صورة اقتراح لسياسة واستطلاع لرأى ، كقول مسكين الدارمى ،
وقد أوعز إليه معاوية أن يقترح البيعة من بعده لابنه يزيد ليعلم رأى قومه
في ذلك .

إليك أمير المؤمنين رحلتها تثير القطار ليلا وهن هجود
الآليت شرى ما يقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سعيد

بنى خلفاء الله مهلاً فأبنا يبوئها الرحمن حيث يريد
 إذا اللبر الغربي خلاه ربّه فإن أسير المؤمنين يزيد
 فلما أتم إنشاده قال له معاوية : فظفر فيها قلت يا مسكين ونستخير الله .
 ومثل ذلك حدث من عبد الملك ، فقد أراد أن ينقل ولاية العهد من أخيه
 عبد العزيز إلى ابنه الوليد ، فأمر النابغة الشيباني أن يقرح ذلك في حضرة
 الناس فقال :

لا يملك أولى بملك والده ونجم من قد عصاك مطرَح
 داودَ عدل فاحكم بسيرة ثم ابن حرب فإنهم نصحو
 وهم خيار فاعمل بسنتهم واحيَ بخير واكدهج كأكدحوا
 فابتسم عبد الملك ولم يحكم ، فعلم الناس أن ذلك أمره .

٤ — ثم في صور جدل في رأى أوبيان لمذهب ؛ فن الجدل السياسى ما وقع
 بين كعب بن جليل والنجاشي في الفاضلة بين علي ومعاوية ، فقد قال كعب :

أرى الشام تكره ملك الرا ق وأهل العراق لهم كارهينا
 وكل لصاحبه ميفض يرى كل ما كان من ذاك دينا
 وقالوا على* إمام لنا فقلنا رضينا ابن همد رضينا
 وقالوا نرى أن تدبوا لهم فقلنا لهم لا نرى أن ندبنا
 وكل* يسر بما عهده يرى غث ما في يديه سمينا
 وما في على* بمستحب ينال سوى ضمه المحدثينا
 وليس براض ولا ساخط ولا في النهاية ولا الأمرينا
 ولا هوساء ولا هوسر ولا بد من بعد ذا أن يكونا

فلما بلغ ذلك الإسلام دأباً أمر العجاشي أن يجيبه فقال :

دَعَنْ معاوى ما لم يكونا لقد حقق الله ما نَعُدُّونا
أناكم على أهل العراق وأهل الحجاز فما تصنمونا ؟
يرون الطعان خلال السجاج وضرب القوارس في الققع دينا
هو هزموا المجمع جع الزيد وطلحة وللمشر الناكثينا
فإن يكره القوم ملك العراق قدِّمًا رضينا الذي تكروهنا
فقولوا لكعب أخى وائل ومن جبل للفث يوماً سميناً :
جسَّم علينا وأشيعاه نظير ابن هند ألا تستصحبونا ؟
ومن البيان للذهي قول كثير عزة يشرح عقيدة الشيعة في الإمامة :
ألا إن الأئمة من قریش ولأمة الحق أربعة سواء :
على والثلاثة من بني هم الأسباط ليس بهم خفاء
فبط سبط إيمان وبر وسبطٌ خبيثه كبرلاء
وسبط لا يذوق للوث حتى يقود الخيل يقدمها الاواء
تصيب لا يرى فيهم زماناً برضوى عنده حصل وماء
وكتول ثابت قطبة ، وهو من شراء الأمويين ، يفصل مذهب الإرجاء :

يا هند فاستمعي لي إن سيرتنا أن نعبد الله لم نشرك به أحداً
نرجى الأمور إذا كانت مشبهة ونصدق القول فيمن جارأوعندا
للسلحون على الإسلام كلهم وللشركون استبوا في دينهم قلدا
ولا أرى أن ذنباً بالغ أحداً في الناس شركاً إذا ما وحلوا الصمدا
إلى أن قال :

كل الخوارج غلط في مقالته ولو تمبّد فيما قال واجتهدا
أما عليّ وعثمان فإنهما عبدان لم يشركا بالله مذهباً
الله أعلم ما قد يحضران به وكل عبد سيقى الله منفرداً

هذه جملة المعارض التي عرضت بها المآني السياسية . ولما كنت تلاحظ من
هذه الأمثلة أنها في الغالب مهملات النسخ ، نائية القافية ، بادية التكلف ، تشبه
من بعض الوجوه نظم المتن في الشعر التلمیسی وعلة ذلك أن اتصالها بالوجدان
ضعيف ، وأن أكثرها إما يصدر عن طبع مكره ، أو شمول مائل ، أو قرينة
كافية . والفرق بين شعر الأخطل والفرزدق وجبر ، وبين شعر هؤلاء الذين
ذكرنا كالفرق بين من يعبر عن شعوره وحسه ، ويدافع عن قبيله ونفسه ، وبين
من يتصل لسانه بقلب غير قلبه ، ويدفعه طمعه إلى ممالأة حزب غير حزبه .

على أن من شعراء الأحزاب من قالوا الشعر عن عقائد دينية ، وعواطف
نفسية ، ونوازع عصبية ، فكان لشعرهم جمال الإخلاص وروعة اليقين وقوة
الحقيقة ، أولئك هم شعراء الشيعة والخوارج . فحق علينا ونحن في مقام البحث
في شعراء العراق أن نديم النظر ساعة في أشعارهم ، لنستشف من خلالها صور
مذاهبهم وأفكارهم .

شعر الشيعة :

ورث عليّ بن أبي طالب بحكم مولده ومروءته مناقب النبوة ، ومواهب الرسالة ،
وبلاغة الوحي ، وصراحة اللؤم ، وبساطة الجهاد ، فأجمع الناس على إجلاله
وكادوا يطبقون على حبه حتى من كتب عنه من الأوربيين قد شاركوا المسلمين
في هذه الماطفة ؛ فقد قال فيه الكاتب الإنجليزي كارايل : « أما ذلك الفتي
على فلا يسمك إلا أن تحبه . ركب الله في طبعه النبيل منذ الحداث ، وتبجلى
في خلالة الكرم طوال عمره ، ثم طبعه على العمل ونفاذ المهمة وصراحة الهمس ،

وآتاه سر القروسية وجراة اليت ، وكل أولئك في رقة قلب وصدق إيمان وكرم
غمال تليق بالقروسية للسبعية . ثم سار على في خصومته وخلافته وسياسته
على ضوء هذه الأخلاق ، فاقاؤف الأثرة ، ولا حاول القرقة ، ولا راقب
الفرصة ، ولا أثار العصبية ، ولا استخدم المال ، وإنما أخلص النية للمرين ،
ومحض النصيحة لمتان ، وأعذر بالحجة لماوية . ولسكن دنيا الفتوح كانت
قد أخذت على هذه تتجاهل دين البساطة والزهد . ولم تعد السياسة الدينية وحدها
قادرة على كبح النفوس المتفوتة ببال معاوية في الشام ، وبراء الافدين في العراق ،
فانتشر أمره وانصدت خلافته . ثم قتل مظلوماً في محرابه ؛ فكان محباه وممانه
تاريخياً دائماً لافضيلة المذبة والنفس المطننة الشهيدة . ثم ورث بنيه وأهليه
ذلك المزم الثائر وهذا الجذ المائر ، فذب الموت للحسن سراً في كأس مذعوفة ،
وقتل الحسين قتلة لا يزال يرعد من هولها الدهر .

وتلاحقت الفواجح الأموية فصرع زيد وقتل يحيى ، واقتذت المنايا الرواصد
في اختلاج بى على ، وهم يقابلون هول الفوائل الظاهرة والباطنة بالشجاعة
والصبر والاحتساب ، حتى أسفرت حول وجوههم طفاوة من التنزيه والتفديس
وتخلت محبتهم قلوب المسلمين ، ولا سباً لشيمة ، فإن ندمهم على خذلانهم إياهم ،
والمهم لما رأوا من اضطهادهم وأذاهم ، رفقا في نفوسهم ذلك الحب حتى أشرفابه
على مقام العبادة . ثم ظهر ذلك الحب في صور من العقائد : فقالوا بالصوية ،
وجعلوا الإمامة من أصول الدين وحصروها في على وبنيه ، وطعنوا في إمامة
الشحن . ولم يهيباً لهم السلطان ، ولم تسفهم القدرة ، فاعتمدوا على أصالة
القلوب وترقيتها بالبكاء والندب ، وتصور الآلام ، وإعلان الفضائل ، فاصطنع
شمرهم بالحزن العميق ، والرثاء النائح ، والمدح المبتهل ، والعصبية الحاقدة . على أن
هذه الخصائص لم تكن واضحة في شمر أوائل الشيمة وضوحها في شمر الأواخر
منهم ؛ فإن تغلغل الفكرة في أصل العقيدة ، وتذكيل الحاكمين بآل البيت ،

واضطهاد الولاة للشيعة ، إنما تدرجت قسوة وقوة مع الزمن ، فضلاً من
قلة شعراء الشيعة في هذا العصر لإفساد الأمويين الضائر بالحديد والذهب ، فشرم
بدأ ولاد صادقاً ، ومدحاً خالصاً ، وهجاء مرأ ، ثم اشتد فصار مفاصلة جريئة ،
ومعارضة شديدة ، ومناقشة قهينة ، ودعاية حزبية . ولعل ذلك يجعل لك فيلما
ذكرناه وفيما سنذكره من الأمتة . فن التمييز عن العاطفة القوية الساذجة قول
أبي الأسود الدؤلى :

يقول الأردلون بنو قشير طوال الدهر لأنسى عليا
بنو عبد النبي وأقربوه أحب الناس كلهم إليا
أحبهم كعب الله حتى أجيء إذا بُعثت على هويي
فلن يك جهنم رشداً أرسبه ولست بمضطىء إن كان غييا

ومن للدح والفاضلة قول آيين بن خزيم الأسدى .

نهاركم مكابدة وصوم وليكم صلاة واقتراء
الجمعكم وأقواما سواء وينسككم وبينهم المواء ؟
وم أرض لأرجلكم وأنتم لأرؤسهم وأعينهم سماء

ومن الهجاء قول ابن مفرغ الحميرى :

ألا ابلى معاوية بن صخر مقلقة من الرجل البياى
انتضب أن يقال أبرك عفت وترضى أن يقال أبرك زانى ؟
فأنشد أن رحلك من زياد كرحم القيل من ولد الأمان
وأشهد أنها ولدت زياداً وصخر من سمية غير داني

وقول عبد الله بن هشام السولى فى يزيد بن معاوية :

حُبينا النيط حتى لو شربنا دماء بنى أمية ما رويها

لقد ضاعت رعيتكم وأنتم تصيدون الأرناب غافلين
ومن المناقشة الجدلية قول الكهيت في الخلافة :

يقولون لم يورث ولولا ترانه لقد شرّكت فيه بحيل وأرحب
ولا انتقلت عضوين منها يحارب وكان لعبد القيس عضو مؤرب
فإن هي لم تصلح لحي سوامي إذن فذوو القربى أحق وأقرب
فيالك أمراً قد تشئت جمعه وداراً ترى أسبابها تنقضب
تبدلت الأشرار بسد خيارها وجد بها من أمة وهي تلب

ويكاد الكهيت بن زيد الأسدي يقصائده الهاشميات يكون الشاعر القذ
لبن هاشم ؛ فقد مدحهم واحتج لهم ودافع عنهم بلسان صادق واعتقاد خالص
ونفس جريئة وقريحة سمحة . ولما أهدر هشام بن عبد الملك دمه لجأ على
ما أرجح إلى التقيّة في شعره على عادة الشيعة ، فقال من كلمة يمدحه فيها .
فالآن صرتُ إلى أميّة والأمور إلى المسابر
يا ابن العقائل للعقائل والحجاجة الأخابر
من عهد شمس والأوكا بر من أمية فالأكابو
لكم الخسلافة والإلا ف برغم ذي حسد وواغر

ومهما يقل الكهيت فإن عاطفة شعراء الشيعة محتفل كما قلنا مكظومة بالطمع
والخوف حتى تنهّجس في عهد بني العباس ففتات غيظ ، وحسرات حزن ، وعبرات
ألم في شعر السيد الحميري ، ودعبل الخزاعي ، ودبك البجن ، ومطيع بن إلياس ،
وأبي الشيص ، والمكوك ، وآخرهم .

سمر الخواص :

وأما الخواص - وجمهورهم من البدو البغاة والسذج - فقد قام أمرهم على

الصلاية في الرأي ، والكابرة في القول ، والاشتطاط في الحكم ، والتشدد في الدين ، والنلوف في العيادة ، والقسوة في المعاملة ، والاعتماد على الحرب . شايخوا علياً وآزروه حتى قبل التحكيم ، فقالوا له : حَكَّمْتَ الرجال ولا حكم إلا الله ! ثم حرجوا عليه وأبوا أن يرجعوا إليه إلا إذا أقر على نفسه بالكفر ونقض ما عاهد معاوية عليه . فأبى غلثهم ما سألوا ، وأوقع بهم يوم النهروان ، فزاد ذلك في حقهم عليه وخلافهم له ، فاقترعوا به واغتالوه . واستعرضوا أعمال الخلفاء وعقائد الناس ، ففظأوا بعضاً وكفروا بعضاً . ثم ذهبوا إلى أن الخلافة تصح في غير قريش وفي غير العرب ، وأن العمل جزء من الإيمان ، فحرصوا كل الحرص على أداء السمائر واجتناب الكبائر ، ولاذوا بكور الجبال يدعون جبراً إلى مذهبهم دون مواربة ولا تقية ولا هودة ؛ فكانوا في الدين كما قال صاحبهم أبو حنزة الشاري : « أنضاء عبادة وأطلاح سهر . قد أكلت الأرض أطرافهم ، واستغفوا ذلك في جنب الله . فإذا كان الجهاد ورعدت الكتيبة بصواعق الموت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ومضى الشاب منهم قد مات حتى اختلفت رجلاه في عنق فرسه ، ونخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فإذا أنفذ الرمح جعل يسمى إلى قاتله ويقول : « وجعلت إليك ربّ لنزى »

وكانوا مع هذا الورع الشديد والخشية البالغة يقسون على مخالفتهم ، فلا يرجعون ضيف المرأة ، ولا براءة الطفل ، ولا شيخوخة الحرم ، ولا وشائج الرحم ، لأنهم - كما ظنوا - باعوا أنفسهم وأمورهم لله بأن لهم الجنة ، فقطعوا أسباب الحياة ، وأماوتوا عواطف الدنيا ، وقاتلوا وقتلوا في سبيل هذا المذهب وتلك النهاية . وهم اصراحة بداوتهم ، وشدة عصبيتهم ، وخلوص عقيدتهم وما تقتضيه دعوتهم من إيمان الحجاج والمنظرة أسلس الناس منطقاً ، وأروعهم كلاماً ، وأمتهم شعراً . ولكن الشمر كان عديم في الحل الثاني من الخطابة ، لقيام أمرم على الإقناع والجدل بآيات الله وأحاديث الرسول ؛ وغناء الشمر في ذلك قليل . فإذا ما برز الخارجي

للخشم ، أو هجم على الموت ، أو وقع في الأسر ، جاشت نفسه بمتين الرجز ،
أو رصين القصيد ، يضمه وصفه للعرب ، وولاه للقتال ، وزهده في الحياة ،
واستخفافه بالموت ، وشوقه إلى الشهادة ، وطمأه إلى النجاة ، في لفظ جزل
وأسلوب قوى . ولما يدور شعرهم على غير ذلك . فن الرجز قول ابن أم حكيم :

أحل رأماً قد ستمت حمله وقد ملكت دهنه وغسله

الآ فتي يحصل عنى قتله !

ومن القصيد قول ماذ بن جوين يمرض قومه وهو أسير :

الأيها الشارون قدحان لأمري شري نفسه لله أن يترحلا
أقم بدار الضاثنين جم - الله وكل امرئ منكم يصاد ليقتلا
فشدوا على القوم المداة فإنها أقامتكم للذبح رأيا مضلا
ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التي إذا ذكرت كانت أبر وأعدلا
فياليتنى فيكم على ظهر سائح شهدت القصيرى دارعا غير أعزلا
فيأرب جمع قد فلت ، وغارة شهدت ، وقرن قد تركت مجدلا
وقول الطرماع بن حكيم :

لقد شقيت شقاء لا انقطاع له إن لم أفر فوزة تنجى من النار
والنار لم ينج من لهيها أحد إلا النبيب بقلب الخلفى الشارى
أو القى سبقت من قبل مولده له السعادة من خلاقتها البارى
وقوله :

وأسى شهيدا نازيا في عصابة يصابون في فح من الأرض خائف
فوارس من شيطان ألف بينهم نعى الله نزالون عند الزواحف

إذا فرقوا دينا هبوا فرقوا الأذى وصاروا إلى مباد ما في الصحاف

وكقول قَطْرَى بن الفجاءة في يوم دولاب :

فلم أرى يوما كان أكثر مَقْصَماً يبيع دما من فائظ وكليم
وضاربة خدًا كريمًا على فتي أغر نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولاب ولم تترك موطنًا له أرض دولاب ودير حميم
فلو شهدنا يوم ذاك وخيلنا تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعيم

وقليلا ما يحادل الخوارج بالشعر ويقارعون بالمجاء ، لاعتماد في الجدل
على الخطابة ، وفي التراجع على السيف . ومن هذا القليل قول بعضهم في الجدل
وقد هزم أربعون منهم ألفين لابن زياد :

ألفنا مؤمن فيما زعتم ويقتلكم بأسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة ينصروننا

وقول عمران بن حطان في هجاء الإمام :

لله حر للراصد القدى سفكت كفاء مهجة شر الخلق إنسانا
أسمى عشية غشاه بضربته مما جناه من الآثام عُرْيانا

وما حله على ذلك إلا أنه من القمّة لضمه عن الحرب لكبر سنه
فجاهد بلسانه .

نماذج من الشعر الأموي

قال قَطَرُ بْنُ النُّجَّاءِ :

أقول لما وقد طارت شاماً من الأبطال ويحك لن تراهي
فإنك لو سألت بقاء يوم هل الأجل الذي لك لم تُطاعي
فصبراً في مجل للوت صبراً فما نيلُ الضلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عذر فيطوى عن أخى الضنح اليراع
سبيل للوت غاية كل حي فداعيه لأهل الأرض داع
ومن لا يعتبط بسأم ويهرم وتسد له الفسوف إلى انقطاع
وما للمرء خير في حياة إذا ماعد من سقط المتاع

وقال عبد الله بن قيس الرقياتي في قريش :

حبذا العيش حين قومي جميعاً لم تفرق أسورها الأهواء
قبل أن تطعم القهائل في ملـك قريش وتشتت الأعداء
أيها المشفى فناء قريش بيد الله عمرها والفساء
إن تودع من البلاد قريش لا يكن بسدم لحي بقاء

وقال الحطيئة يمدح بنيض بن لؤي :

نزور امرأ يؤتى على الحمد ماله ومن يؤت أمان الحامد يُحمد
يرى البخل لا يبق على المرء ماله ويعلم أن البخل غير مُخلد
كسوب وميتلاف إذا ما سألته تهلل فأهز اعزاز الهند
متى تأته تمشوا إلى ضوء غاره تجد خير نار عندها خير موقد

وقالت الخنساء :

دلّ على معروفه وجهه بورك هذا هادياً من دليل
نحسه غضبان من عزه ذلك منه خلق ما يحول
ويقلّته مشرّ حرب إذا ألقى فيها وعليه الشليل
وقال الكميّ^(١) الأسدي يمدح مسلمة بن عبد الملك :

فاغاب عن حلم ولا شهد الخطا ولا استعذب الموراء يوماً فقامها
وتفصل أيمان الرجال شمائله كما فصلت يميني يديه شمائلها
وما جَمَّ للعروف من طول كرمه وأمرأ بأفعال الندى واقضائلها
ويتنزل النفس للصونة نفسه إذا ما رأى حقاً ابتذائلها
بلوناك في أهل الندى فضلتهم وباعك في الأبرار قديماً فطائلها
فأنت الندى فيما يوبك والندى إذا انطود عدت عقبة القدر مالها
وقالت ليلي الأخيالية ترى توبة :

لمرّك بالموت عارٌّ على الفقى إذا لم تصبه في الحيسة الماير

(١) هو الكميّ بن زيد الأسدي ولد سنة ٦٠ هـ بالكوفة ولما في قومه بني أسد تلقى اللغة وتفت الأدب وعلم الأنساب وشأنه الأهراب وتلقى أخبار العرب عن جدّين له أحركتا الجاهلية . ثم قال الشعر وهو صفيّر ولكنه كان يحكى أن بذبه حتى أشد الفرزدق حيثما منه وسأله حكمة فيه أينفره أم يطويه ، فأمره بإذاعته فأذاعه . ونظم لمسانده الهاشميات يظهر فيها تسمية لأولاده على وجه صحيح لهم ويدافع عنهم . ولما تالم بالأذى حكيم السكابي حاصر الجيامة هجاء الكميّ وهجاء الجيامة وجاء ؟ فنضب خالد بن عبد الله القسري وإلى العراق وكان يماينا نسبي إلى بني هشام وأسمه شمره لى ذم بني أمية ومدح بني هاشم فأمره بقتله فسجنه ، ففر الكميّ من سجنه حتى لحق بالشام ولأذى بنير معاوية بن هشام فأمنه الخليفة وعما عنه . ولبت الكميّ على مدح بني هاشم وذم الجيامة فأثار الحموية بين العدنانيين والقيسطين وأرث المناوأة الكامنة في صدور الأئمين ، فالتمت الهوة وتفرقت الكلمة ودامت هذه الفتنة حتى أوسط الدولة العباسية ، وكانت وفاة الكميّ سنة ١٢٦ هـ .

وما أحد حَيٍّ وِزن عاش سالماً
فلا الحى مما أحدث الدهرُ مَهْتَبٌ
وكل جديد أو شهاب إلى بلى
وكل قريفي ألفةٍ لتفترق
فلا يُبْعِدَنَّكَ اللهُ يا توب هالكاً
فأليت لا أنفك أبكيك مادعت
وقال أبو ذؤيب المذَلِّي يرى بنيه الخسة وقد هاجروا إلى مصر فهل كوا

في عام واحد :

أَمِنَ للثون وريها تتوجع
قالت أمانة ما لجمك شاحياً
فأجبتها إرني لجمي إنه
أودى بَنِيَّ فَأَعْقَبُونِ حَسرة
فالعين بدمعٍ كان حِداقها
فبهيتُ بدمعٍ يعيش ناصب
سبقوا هَوَىً وأَعْقَبُوا لهوامُ
وقد حرصت بأن أدافع عنهم
وإذا اللية أنشبت أغفارها
وتجسدى للشامتين أُرهمُ
حتى كآنى للحوادث مَرَوَةٌ
وقال جرير يرى ابنه :

قالوا نصيبك من أجر فقلت لم
كيف العزاء وقد فارقت أشبال

فارتضى حين كف الدهر من بصرى وحين صرت كمظم الرمة البالى
وقال مالك بن أسماء في الهجاء :
لو كنت أحمل دفناً يوم زرتكم لم ينكر الكلب أنى صاحب الدار
لكن أتيت وديح للسك يقفنى وعبر المند أذكيه على النار
فأنكر الكلب ربحى حين أبصرنى وكان يعرف ربح الرق والقار
وقال آخر :

أقول حين أرى كعباً ولحيته لا بارك الله في بضع وستين
من السنين تولاهم بلا حسب ولا حياء ولا قدر ولا دين
وقال عبد الرحمن بن الحكم :
لما الله قيساً قيس عيلان إنها أضاعت ثور السمين وولت
فشاول بقيس في الطمان ولا تسكن أخاها إذا ما للشرفية سلت
وقال الطرماح بهجو بني تميم :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القعلا ولوسلكت سبل الكارم ضلت
ولوان برغزناً على ظهر نملة يسكر على صفى تميم لوت
وقال حنيد بن حديد المرى يصف ليل صول :

في ليل صول تناهى العرض والطول كأنما ليله بالليل موصول
لا فارق الصبح كفى إن ظفرت به وإن بدت غرّة منه وتحجبل
لساهر طال في صول تملله كأنه حية بالسوط مقتول
مضى أرى الصبح قد لاحت مخايله والليل قد مزقت عنه السراويل
ليل تمير ما ينحط في جهة كأنه فوق من الأرض مشكول

نجومه رُكِّدْ ليست بزائلة كأنما هن في الجو القناديل
ما أقدر الله أن يذني على شحطٍ من داره الحزنُ عن داره صولاً
الله يطوى بساط الأرض بينهما حتى يرى الربيعُ منه وهو مأهول

وقالت الخنساء تعصف سباقاً كان بين أبيها وأخيها :

جارى أباه فأقبلا وهما يتماوَّران ملاءة^(١) الحضر
حتى إذا نزت القلوب وقد لزت هناك المذر المذر بالضر
وعلا هتاف الناس أيهما ؟ قال الجيب هناك لا أدري
برزت صحيفة وجهه والده ومضى على غلوائه يجرى
أولى فأولى أن يساويه لولا جلال السن والكبر
وما وقد برزا كأنهما صقران قد حطَّا إلى وكر

وقال الفرزدق يصف ذئباً صادفه أثناء سفره فأطعمه من زاده :

وأطلسَ عيال وما كان صاحبها دعوت لنارى موهنا فأتانى
فلما أتى قلت ادن دونك إننى وإياك فى زادى لمشتركان
فبت أقدُّ الزاد بينى وبينه على ضوء نار مرّة ودخان
وقلت له لما تكشر ضاحكاً وقائم سيق من يدى بمكان
تمش فإن عاهدتنى لا تخوننى فكن مثل من ياذبُ بصطحان
وأنت امرؤ ياذب والنذر كنتما أخيين كانا أرضاً بلبان
ولو غيرنا نبهت تلتبس القرى رماك بسهم أو شبة حنان

(١) لللاءة : الثياب . والحضر : العدو الشديد .

وقال بعض المجازين يصف حال امرأته عندما علمت بزواجه من غيرها :

خبروها بأني قد تزوجت فظلت تكاتم النيط سراً
ثم قالت لأختها ولأخسرى جزها : ليته تزوج عشرا !
وأشارت إلى نساء لديها لا ترى دونهن للسرسرا :
ما قلقي كأنه ليس مني وعظاي كأن فيهن قترا ؟
من حديث نما إلى فظيع خلت في القلب من تلظيه جراً
وقال مروة بن أذينة في النزول :

إن التي زعمت فؤادك ملها خلقت هواك كما خلقت هوى لها
بيضاء باكرها النسيم فصاعها بلياقة فأدقها وأجلها
حببت تحيتها فقلت لصاحبي : ما كان أكثرها لنا وأقلها !
وإذا وجدت لها وساوس سلوة شفع الضمير إلى الفؤاد فسلها
وقال جميل بن معمر :

وإني لأرعى من بُثينة بالذي لو أبصره الواشي لقرت بلبله
بلا ، وبألا أستطيع ، وبألني ، وبالأمل للرجو قد خاب آمله
وبالنظرة المجل ، وبالحول تنقضي وأاخره لا نلتقي وأوائله
وقال أيضاً :

وما زلتُم يابن حتى لو اتني من الشوق أستبكي الحمام بكى ليا
إذا خدرت رجلى وقيل شفاها دعاء حبيب كنت أنت دعائيا
وما زادني الذأى المفرق بعدكم سلوا ولا طول التلاقي تقاليا
ولا زادني الوشون إلا صباية ولا كثرة النامين إلا تماديا

لقد خفت أن ألقى المنية بفتة وفي النفس حاجات إليك كلها
وقال يزيد بن الطثرية .

بنفسى من لومر برّد بفانه على كبدى كانت شفاء أنامله
ومن هابنى فى كل أمر وهيبته فلا هو يعطينى ولا أنا سائله
وقال قيس بن ذريح :

فإن يحجبوها أو يحلّ دون وصلها مقالة ولش أو وعيد أمير
فلم يمنعوا عيني من دائم البكا ولم يذهبوا ما قد أجن ضميرى
وقال كثير من قصيدة يذكر فيها هجران عزة وسلوانه .

وما كنت أدري قبل عزة ما البكا ولا موجعات القلب حتى تولت
وكانت لقطع الحبل بينى وبينها كناذرة نلنا فأوقت وحلت
ولم ياق إنسان من الحب ميمّةً تمّ ولا غباء إلا نجلت
أريد الثواء عندها وأظنها إذا ما أطلنا عندها للكثّ ملت
فأأنصفت ، أما النساء فبفقت إلى ، وأما باللوال فضلت
بكلفها التّيزان^(١) شتى ومابها هوانى ، ولكن للمليك استذلت

هيناً مريثاً غير داه تخامر لعزة من أعراضنا ما استعطت
فوالله ما قاربت إلا تباعدت بهجر ولا أكثرت إلا أقلت
فإن تسكن المّة فأهلاً ومرحباً وحقت لها المنى لدينا وقتت
وإن تسكن الأخرى فإن وراءنا منادح لو صارت بها العيس كُلت

(١) يريه زوجها .

أسيئ بنا أو أحسن لا مَكْرَمَةٌ لدينا ولا مَقْلَبَةٌ إِنْ تَقَلَّتْ
فأنا بالداعي لعزة بالجوى ولا شامت أن نملُ عِزَّةَ زاتِ
فلا يحسب الواشون أن صبايقى بعزة كانت غمرة فتجلى
فوالله ثم الله ما حل قبلها ولا بعدها من خُلَّةٍ حيث حَلَّتِ
فيا عجباً للقلب كيف اعترافه وللنفس لما وُطئت كيف ذلتِ
وإني ونهيمى بعزة بعدما تَخَلَّيْتُ ما بيننا وتَحَلَّتِ
لكالمربى ظلَّ الغمامة كلما تبوأ منها للعقيل اشمعلتِ
فإن سأل الواشون فيم هجرتها قَلَّ نفسُ حر سُلَيْتِ فقلستِ
وقال جرير على لسان يزيد .

فأنت أبى ما لم تكن لى حاجةً فإن عرضت أيقنت أن لا أباليا
وإني لمزور أعللُ باللى لىالى أرجو أن مالك ماليا
بأى نجاد تحمل السيف بعدما قطعت القوى من عمل كان باقياً؟
بأى سنان تظعن القوم بعدما فزعت صفائاً من قناتك ماضياً؟
وقال مالك بن أسماء بهتذر .

لكل جواد عِرة يستقبلها وعِرة مثلى لا تقال مدى الدهر
فهبنى لا حجاج أخطأت مرة وجُرت عن المثلى وغيت بالشمر
فهل لى إذا ماتت عندك توبة تدارك ما قد فات فى سالف الممر؟
وقال الخطيب .

أنتى لسان فكذبها وما كنت أحسبها أن تُقالا
بأن الوشاة بلا حُرمة أتوك فراموا لديك الحالا

فجئتكَ مستذراً راجياً لعفوك أُرهبُ منك النكالا
فلا تسمعنْ في مقالِ المدي ولا تؤكِّلني هُدَيْتَ الرجالا
فإنك خير من الزبرقان أشد نكالا وخير نوالا
وقال حسان بن ثابت :

المال يَفْشِي رجالاً لا طَبَّاحَ بهم كالسيل يَفْشِي أصولَ المدنِ البالي
أصون عرضي بمالي لا أدنسه لا يارك الله بعد العرض في اللال
أحتمل للمال إن أودى فأجمه ولست للعرض إن أودى بمحتمل
الفقر يُزْرِى بأقوام ذوى حسب ويقضى بثلثم الأصل أنذال
وقال كَثِير :

ومن لا يَمْنَعُ عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه يمت وهو غائب
ومن يتَّبِعْ جاهداً كل عترة يجدها ولا يسلّم له الدهرَ صاحب
وقال كعب بن زهير :

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني سَمَى النقي وهو منخوه له القدرُ
يسمى النقي لأمر ليس يدرُكها والنفس واحدة والمهم منتشرُ
فالمرء ما عاشَ ممدوداً له أمل لا ينتهى العمر حتى ينتهى الأثر
وقال النابغة الجعدي :

ولا خير في حِلْمٍ إذا لم تكن له بواذرُ تحمى صفوه أن يكدرُ
ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن له حليمٌ إذا ما لورد الأمرُ أصدرُ

الشعراء وطبقاتهم

ننخ في هذا العصر على قصره زهاء مائة شاعر كان لهم السهم الربيع في نهضة العرب الدينية والسياسية والاجتماعية ، لقوة الدعاية في الشعر ، وتأثير الفصاحة في العرب ، وشدة العصبية في الولاة . وشعرهم وإن سار على جناح الجاهلية أسمى خيالا وأقرب مثالا وأوثق معنى وأغزر معنى من المتقدمين ؛ لتأثرهم بالدين والحضارة كما علمت . وهم إما مخضرمون ككعب بن زهير والخنساء وحسان ابن ثابت والحطيئة ؛ وإما إسلاميون كعمر بن أبي ربيعة والأخطل وجريز والفرزدق والكميت والطرمّاح وكثير وذو الرمة . وكلهم صريح العربية ، صحيح اللبنة ، فصيح اللهجة ، في الشعر والنحو حجة .

وأشهر هؤلاء الشعراء كما ذكرنا من قبل ثلاثة ملأوا بقاء السياسة ، وشهوة للنافسة ، فزقوا ستائرهم وفرقوا عشايرهم ، وأشاعوا هجر القول في الناس ، ولم يترض لهم أحد إلا اقتضح ؛ وهم جرير والفرزدق والأخطل . وقد انقطعوا للشعر والتكسب به ، والتف حول كل منهم طائفة تفتخر به وتنصر له . ويكاد الناس لا يختلفون إلا فيهم ، ولا يقنون التفاضل إلا بينهم .

الشعراء المخضرمون

كعب بن زهير

التوفي سنة ٢٤ هـ

تأثر وميانه

هو أبو عقبة كعب بن زهير بن أبي ساسي الدؤني . نشأ أبوه على الأدب والحكمة فشَبَّ فصيحاً شاعراً . ولما ظهر الإسلام خرج هو وأخوه بجير إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بدا له فتأخر وتقدم بحجر ، فسمع كلام رسول الله وأسلم . فنضب كعب لإسلامه ونهاه ، وهجاه وهجا رسول الله معه بأبيات يقول فيها :

ألا أبلغا عنى بحجراً رسالةً فهل لك فيما قلت وبمك هل لك ؟
سفاك بها للآمون كلاً رويّةً فأنهك الآمون منها وعكاً
ففارقت أسباب الهدى وانبتت على أى شئ وبغى غيرك دلماً
على مذهب لم تلت أماً ولا أباً عليه ولم تعرف عليه أخاً لك
فإن أنت لم تفعل فست بآسف ولا قاتل إما عثرت كلاً لك !

فأهدر الرسول دمه ، وأرجف الناس بقتله . وأشفق عليه أخوه فدفعه بالإسلام والتوبة والتول بين يدى الرسول يطلب رضاه وعفوه . فلما استيأس كعب من الجبر والنصير جاء إلى المدينة ، وتوسل بأبي بكر إلى الرسول . ودخل في الإسلام ، ومدحه بلاميته الشهورة ، فمفا عنه وأمنه وخلع عليه برّدته ؛ فازالت في أهله حتى اشترها مساوية منهم بأربعين ألف درهم ، وتوارثها الخلفاء الأمويون فالعباسيون حتى آلت مع الخلافة إلى بنى عثمان .

صغره

نشأ كعب في روضة الشمر وباحة القريض فرسخت فيه ملكته ، ونجست في صغره شاعريته . فأخذ يقرضه وهو دون الراهقة . فنهاه أبوه مخافة أن يروى عنه ما لاخير فيه فيلزمه تارده . فكان كعب يأتى أن ينتهر ، وباح أبوه في منعه حتى امتحنه امتحاناً شديداً طمأنه على نضج قريحته وسلامة طبعه ؛ فتركه لنفسه فتتعمم أبوابه ، وسلك شعابه ، وآتى منه بالجيد الرصين والرائق اللجب . وأوشك أن يسامى أباه لولا غرابية في ألفاظه ، وتعميد في تراكيبه ، وتصور في مظهره ؛

ومن كل ذلك برى أبوه . وما يدل على مكانة كعب وقيمة شعره أن الخطيئة
وهو من تابهى الشعراء توسل إليه أن يقوّه بذكره في شعره حتى يشهر ، فقال :
فمنّ لقولنا شأنها من يحوكها إذا مامضى كعب وقوّز جزول^(١)
كفيتك لاتاقى من الناس واحداً تنخل منها مثل ماقتخل

مخروج من شعره

من صيون شعره مشوّبه التي مدح بها الرسول ، ومطلعيها :
بانت سعادُ قتلى اليوم متبول مُتيمّ إثرها لم يُقدّ مكبول
ومنها :
وقال كلّ خليل كنت آله
قلت خلوا سبيلاً لا بالكم
كل ابن أتى وإن طالّت سلامته
أنبت أن رسول الله أوغدى
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم
ومن قوله :

السامع الدم شريك له
مقالة السوء إلى أهلها
ومنّ دعا الناس إلى ذمه
ومطعم للأكول كالآكل
أسرع من مفتدر سائل
فمروه بالحق وبالباطل

(١) جزول : اسم الخطيئة .

الخنساء

للقواف: سنة ٢٤ هـ

ميلها

هي السيدة ثَمَاضِر بنت عمرو بن الشريد السُلَمية. والخنساء لقب غلب عليها:
نبتت في دوحه الشرف، وازدهرت في روضة الفضل، فكان أبوها وأخوها
معاوية وصغير سادات سليم من مضر. وكانت بارعة الجلال والأدب فخطبها
دُرَيْد بن الصَّمّة سيد هوازن وفارس جُشَم، فردته وآثرت للزَّوْج في قومها.
ولما قُومَ من الدهر ركني بيتها بموت أخويها معاوية وصغير جزعت عليها
أشد الجزع، وبكتهما أحرَّ البكاء، ورثتهما بأبلغ الرثاء، ولاسيا صغير لما بابتة
من كثرة إحسانه، وشدة حنانه، وقوة جنانته. ثم وفدت في قومها على الرسول
صلى الله عليه وسلم فأسلمت، وأنشدته فاهتز لشعرها واستزادها بقوله: هيه
يا خنساء! وكان الظن أن تنهت الخنساء بعد إسلامها دموع الجزع على أبيها
وأخويها تعزيًا بالدين وعزوفًا عن سنة الجاهلية، إلا أن وجدها على صخر كان
وراء الصبر وفوق العزاء؛ فلم تزل تبكيه وترثيه حتى ابيضت عيناها من الحزن.
وكانت تقول: كنت أبكي له من النار، وأنا اليوم أبكي له من النار. على أن
السن والزمن والدين مازالت بهذه السكيد القريحة حتى اندملت؛ فوجدت
الخنساء في شيخوختها آسيًا من رَوْحِ الله ومواسيًا من فضله، فقبلت مصرع
بنينا الأربعة صابرة محسبة وقد حرضتهم على القتال في حرب القادسية
فاستشهدوا جميعًا. فلم تزد على أن قالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم،
وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته. ثم توفيت بالبادية عام ٢٤ هـ.

شعرها

ليس في شوارع العرب قبل الإسلام وبمده من تفوق الخنساء في رصانة شعرها ، ورقة لفظه ، وحلاوة جرّسه ، وربما ضارعت في هذه الصفات الشعراء الفحول . ويرى النابغة وجريز وبشار أنها أفضل من الرجال ، لما في شعرها من قوة الرجولة ورقة الأنوثة . وقد غلب في شعرها الفخر والرثاء . أما الفخر فلأن أباهما أمثله قومه ، وأخوها خير مضر ؛ وأما الرثاء فلنصيحتها فيهم وطول وجدها عليهم . والأسى يذق الشعور ، ويرق الملاحظة ، ويفتح القريحة في الرجل ، فكيف به في المرأة ؟ وكانت لا تقول إلا للبيتين أو الثلاثة قبل مقتل أخوها ، فلما قتلها قاض الدمع من عينها ، والشعر من قلبها ، فأنث في رثائها بالمعجب للمعجز . وظلت الخنساء في شعرها بدوية جاهلية ، فلم تتأثر بالإسلام كثيراً ولا قليلاً .

تمتدح من شعرها

قالت ترى أخاها صخرًا :

أعيفٌ جوداً ولا تجمداً	ألا تبكيان لصخر الندى ؟
ألا تبكيان الجريء الجليل	ألا تبكيان الفتى السيدا !
رفيع العمد طويل النجا	در ساد عشيرته أمردا
إذا القوم مدوا بأيديهم	إلى المجد مد إليه يدا
فقال الذي فوق أيديهم	من المجد ثم انتهى مُصمدا
يمده القوم ما علم	وإن كان أصنرم مولدا
وإن ذكر المجد ألقينه	تأزر بالمجد ثم ارتدى

وقالت ترضيه أيضاً .

ألا يا صخرُ إن أبكيتَ عيني فقد أضحكنتي زمناً طويلاً
دَفَعْتُ بِكَ الْغُلُوبَ وَأَتَيْتَ حَيَّ فمن ذا يدفع الغلظ الجليل ؟
إِذَا قَبِحَ الْهِكَاءُ عَلَى قَتِيلٍ رأيت بكاءك الحسنَ الجميلاً
وقالت ترضى وتفتخر :

تَمَرَّقَتِ الدَّهْرَ نَهْشاً وَحَزْناً وأوجسني الدهر قرعاً وغمزاً
وَأَتَيْتُ رِجَالِي فَهَادُوا مِمَّا فأصبح قلوبهم مستغزاً
كَأَن لَمْ يَكُونُوا حَتَّى يُتَقَى إذا الناسُ في ذاك من عُرْيزاً
وَحِيلَ تَسَكَّدَسُ بِالْأَرَاغِينِ وتحت المعجاجة يمجزن مجزاً
بِإِبْيَاضِ الصَّفَاحِ وَسُورِ الرَّمَاحِ فبالبيض ضرباً وبالسر وخزاً
جَزَزْنَا نَوَاصِيَ فِرْسَانِهَا وكانوا يظنون ألا تجزأ
وَمَنْ ظَنَّ مِنْ يَلَاقِي الْحُرُوبِ بألا يُصَلِّبُ فَقَدْ ظَنَّ عَجْزاً
نَمَفَ وَنَمَرَفَ حَقَّ الْقَرِي وتخذ الخلد دُخْرًا وكزراً
وَتَلْبِيسَ فِي الْحَرْبِ نَسِجَ الْحَدِيدِ وفي السلم تلبس خزاً وبرزاً
ومن قولها :

إِنَّ الزَّمَانَ وَمَا يَفْنَى لَهُ عَجَبٌ أتق لنا ذنباً واستؤصل الراس
إِنَّ الْجَدِيدِينَ فِي طَوْلِ اخْتِلَافِهَا لا يفسدان ولكن يفسد الناس

حسان بن ثابت

للتوفى سنة ٥٤ هـ

نشأته ومياله

هو أبو الوليد حسان بن ثابت الأنصاري، ولد بالمدينة ونشأ في الجاهلية، وعاش على الشعر، فكان يمدح للناذرة والفساسة ويتقبل صلاتهم. ولكنه بالغ في مدح آل جفنة من ملوك غسان وأكثر من انتجاعهم. فأغدقوا عليه العطايا، وملأوا يديه بالنعيم، ولم ينكروه بعد إسلامه وتصرم، فجاءته رسلهم تنزيها بالهدايا من القسطنطينية. ولما هاجر رسول الله إلى المدينة أسلم حسان مع الأنصار واقطع إلى مدحه والضح عنه. وذلك أن الرسول حينما اشتد عليه أذى قريش بالهجاء قال لأصحابه: ما يمنع الذين نصروا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بأسننتهم؟ فقال حسان: أنا لها. وضرب بلسانه الطويل أرنبة أنفه وقال: والله ما يسرنى به مقول ما بين بصرى وصدعاء والله لو وضعت على صخر ألقته، أو على شجر خلقتة قال له النبي «ص»: كيف تهجم وأنا منهم؟ فقال: «أسلكت منهم كما تسل الشجرة من المجين»: فقال: اهجمهم ومك روح القدس. فهجمهم فألهم وأبكهم ووقعت كلماته منهم موقع السهام في غسق الظلام، فاشتهر بذلك ذكره، وارتفع قدره، وعاش ما عاش موفور الكرامة مسكن في الحجابة من بيت المال، حتى توفى سنة ٥٤ للهجرة بالنفا من العمر مائة وعشرين سنة، وقد كف بصره في أعقاب أيامه.

شعره

كان حسان في الجاهلية شاعر أهل البدن، وفي البعثة شاعر النبوة، وفي الإسلام شاعر الباطنية. وكان يغل في شعره الفخر والحماة والمدح والهجاء،

وكلها أغراض تمتنعى اللفظ النغم والأسلوب القوى ، فبدأ عليه أن من الحوشية والوحشية ذهب بمجيء الإسلام . ثم سكنت عوامل الشعر في نفسه بسلامة الدين وموت الأحقاد وتهدم السن ، فما كانت تتحرك إلا زياداً عن النبي ودفاعاً عن الأنصار من حين إلى حين . ولكن كثيراً من شعره في هذا الطور كان خشيباً ، فكثرت به السقط ، وقلت فيه الجزالة ، وغلبت عليه السهولة ، فرأى الأصمعي أن شعره لم يقوَ إلا في الشر ، فلما جاء الإسلام بالخير ضعف . وهو في شعره يضارع ابن كثّوم في التفرّج بقومه وللباهة بنفسه ، مع أنه كان جباناً مخلوع القلب .

نموذج من شعره

قال في الهجاء :

ألا أبلغ أبا سفيان عني مفكّلةً فقد برّح الخلفاء
بأن سيوفنا تركتك عبداً وعبد الدار سادتها الإمام
هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء
أنهجه ولسن له بكفه ؟ فشركا تليركا القداء
لنا في كل يوم من ممدٍ سبابٍ أو قتال أو هجاء
لساني صارم لا عيب فيه وبحري لا تكدره اللداء
فإن أبي ووالدتي وعرضي لعرض محمد منكم وقاء
وأقبل على الرسول وفد من نعيم يفاخره وعليهم الزبرقان بن بدر ، فلما
أشدوه أمر حسناً أن يجيبهم فقال .

إن القذائب من فير وإخوتهم قد يفتوا سنة للناس تُنَجِّحُ
قوم إذا حاربوا ضرروا عدوم أوحاولوا انقع في أشياهم نفوم

سجية تلك فيهم غير مُحدثة
لا يرفع الناسُ ما أوهت أكتفهم
إن كان في الناس سباقون بدمهم
أعفت ذُكرت في الوحي عفتهم
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم
وقال يلدح جبلة بن الأيهم :

لله درُّ عصابة نادتهم
يمشون في الخلل للضايف نسجها
والخالطون ققـيرم بنعيمهم
أولاد جفنة حول قبر أبيهم
يسقون من ورد البريص عليهم
يسقون درياق الرحيق ولم تكن
بيض الوجوه كريمة أحسابهم
فلبثت أزماناً طوالاً فيهم
ومن قوله :

وإن أمراًو يمسى بصيحُ سلما
وقال أيضاً :

رُبَّ علم أضاعة علم للما
ما أبالي أنبَّ بالحزن تيس
ل وجهل غطى عليه النعيم
أم لحاني بظهر غيبٍ لثيم

الخطبة

للتوفى سنة ٥٩ هـ

نسأله ومجابه

هو أبو مليكة جرؤل بن أوس العبسي ، وفد في بني عبس دعيًا لا يعرف له نسب ، ولا يصله بالشرف سبب . فشب محروما مظلوما مذبوما لا يجد مدداً من أهله . ولا سنداً من قومه ؛ فاضطر إلى الشعر يجلب به القوت ويدفع به العدو ان وينتقم به لنفسه من بيئة ظلمته وطاردته . واصطاح عليه عوامل الشر فجعلت منه صورة للردية فكان كما وصفه الأصمعي سيء الخلق ، ذئب النفس ، فاسد الدين ، سئولا ، ملحفاً ، جشعاً ، كثير الشر ، قليل الخير ، بخيلاً ، دميماً ، قصيراً ، رث الهيئة ، متدافع النسب في القبائل . وقد بلغ من أزمه أن هجا أمه وامراته وبنيه حتى نفسه . فلما جاء الإسلام أسلم ثم ارتد ثم عاد مزعزع العقيدة ، فلم يستطع الدين أن يرفع هذه النفس الوضيعة ، ولا أن يقل هذا القول الجريء البذيء . فترجس لسانه في أعراض الناس . واشتدت وقيعته فيهم . حتى الزرقان ابن بدر صاحب رسول الله وعامل عمر بن الخطاب لم يعصمه منه إكرامه جواره وإحسانه إليه ، فالأبنيض بن عامر خصمه عليه ، ومدح بني أنف الناقة وذم الزرقان ، فاستمدى عليه أمير المؤمنين عمر ، فحبسه ، واستشفع إليه بشعبه فأطلقه وحذره هجاء الناس . فقال . إذن يموت عيالاً جوعاً . هذا مكسبي ومنه ماشي . فاشتري منه الخليفة أعراس للسنتين بثلاثة آلاف درهم . فكف حتى مات عمر ثم عاد إلى طبعه ، ولبت على تلك الحال حتى أسكنه اللوت سنة ٥٩ هـ .

شعره

الخطبة شاعر متين الشعر ، غزير البحر ، رائق الأسلوب ، شرود القافية ،

متصرف في فنون القول ، من مدح وهجاء ونسب ونثر . ولولا خسارة طبعه ،
ودناة طمسه ، وقبح تبذله ، لما فضله في المخضرمين أحد ، فإنك لا تكاد تجد
في شعره ما يكثر في شعر غيره من سخافة في النسيج ، أو ركاكة في اللفظ ،
أو بُبُو في القافية ، ولكن شرف الكلام بشرف قائله .

والخطيئة كزهر معدود في عبيد الشعر الذين روّوا فيه وتجوّه . وقد يؤثر
عنه قوله . « خير الشعر الحولى للفقح المحكك » . ولما نجد في هجائه على
مراته فحشاً أو هجراً ، حتى عمى على أمير المؤمنين عمر قوله في هجاء الزرقان :
دَعِ اللّكَّارَ لا ترحلْ لَيْفِيهَا واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي
فلم يظن إلى موضع الهجاء فيه لدقته حتى دله عليه حسان .

نموذج من شعره

قال يهجو الزرقان بن بلز وقد زعم أنه أساء جواره فجول عنه إلى بنيض :
والله ما مشرّ لاموا امرأ جنباً في آل لأمى بن شماس بأكياس
ما كان ذنب بنيض لا أبالكُم في بائس جاء يحلو آخر الناس ا
وقد مدحكمُ عدداً لأرشدكمُ كبا يكون نسكُم متحى وإمرامى
لما بدا لى منكم عيب أنفكُم ولم يكن لجروحي فيكم آسى
أزمت يأساً مبيناً من نوالكُم وان يرى طارداً لبحر كايأس
جارّ لقومٍ أطلالوا هُونَ منزله وغادروه مقباً بين أرماس
ملوا قراء وهرته كلابهمُ وجرحوه بأنساب وأضراس
دع للكارم لا ترحلْ لَيْفِيهَا واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي
من يفعل الخير لا يدمُ جوارزه لا يذهب العرف بين الله والناس

وقال في اللدح :

يسوسون أحلاماً بعيداً أناتها وإن غضبوا جاء الحفيظة والجند
أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم من اللوم أوسدوا للسكان الذي سدوا
أولئك قوم إن بنوا أحدثوا البينا وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا
وإن كانت النماء فيهم جزوا بها وإن أنسوا لا كدروها ولا كدوا
مطاعين في الميما مكاشيف للدي بنى لهم آباؤهم وبني الجند
ويعاذني أبساء سمعت عليهم وما قلت إلا بالذي علمت سعد

الشعراء الإسلاميون

عمر بن أبي ربيعة

٢٢ — ٩٣ هـ

نشأته وحياته

هو أبو الخطاب عمر بن أبي ربيعة القرشي الخزومي . ولد بالمدينة ليلة مات
عمر بن الخطاب ، فكان يقال ، أي حق رُفِع ، وأي باطل وضع ، ثم شبل في نسمة
أبيه عبد الله عامل الرسول والتخلفاء الثلاثة من بعده . وكان سرياً غنياً ، فقلب
عمر في أعطاف النسيم ، ورتق في رياض القرف ، وخلأ ذُرْعَه من معالجة الأمور ،
قفرغ للشعر وقاله وهو صغير ، فما به له أحد من فحوله كجبر والفرزدق . وسقى
هو يروض قوافيه ويستطف أيّه حتى ارتاض له وألس . قال جرير وقد
سمع رأيته لثني مطلعها :

أمن آكل نَم أنت غاد فبكر غداة غدٍ أم راح فمَجَر

« ما زال هذا القرشى يهذى حتى قال الشعر ». وسلك ابن أبي ربيعة إلى الشعر طريقاً غير مألوفة ولا معروفة ؛ فقصده على وصف النساء وتزاورهن ومداعبه بمضامين لبعض بلفظ رشيق وأسلوب مبتكر ، فأولع به اللغنون والظرفاء ، وشغف به القيان والندماء ، وكثر غناء الناس به وروايتهم له حتى ضج الأثير والزهاد وقال ابن جرير : « ما دخل العوائق في خدورهن شيء أضر عليهن من شعر ابن أبي ربيعة » : ولم يقف شره عند ذلك ، وإنما كان يتعرض للنحوج فيشبب بالمقاتل والأميرات ، ويصفهن طائفات منجمرات ، فزهدت كرائم الأسر في أداة الفريضة خشية منه . وألوا الأمر بتمردون هذا الجهل بالحلم برعاية لأسرته ، وفجراً بشاعريته ، وترقباً لتوبته . ولكن الخليفة عمر بن عبد العزيز لم يسه الصبر على تماديه في المجون ، وإيمانه في الجاهلة ، ففناه إلى دَهْلِكَ إحدى جزر البحر الأحمر بين بلاد اليمن والحبشة ؛ وقد كانت متقى لبني أمية ، ولم يعد إلا بعد أن أقسم أنه يقاع عن صبوته ، ويخلص إلى الله في توبته . ولعل بلوفه المزمين قد أعانه على البر بقسمه ، فزهّد وتنسك . ومن الناس من يقول إن عمر كان عفيفاً بصف ولا يقف ، ويجوم ولا يرد ؛ ويذكرون أنه لما مرض مرضه الأخير جزع أخوه الحارث عليه جزعاً شديداً ، فقال له عمر : أحسبك إنما تجزع لما تظنه بي . والله ما أعلم أنى ركبت فاحشة قط فقال ما كنت أشفق عليك إلا من ذلك ، وقد سرّيت عني .

شعره

لشعر ابن أبي ربيعة قوطة في القلب ، وروعة في النفس ، لسهواته وأناقته لفظه ، وحسن وصفه ، وشدة أسره ، وقرب فهمه ، وملاءمته لموى النفوس في نعت الجمال ووصف المرأة . وقد ساعده نسبه ونشأته وترفيه على أن يقول في ذلك ما لم يجزوا أحد على قوله ؛ فسلك في النزل مسلك القصص : يصف

للتساء ويحكى حديثهن ومداعبتهن ويذكر أمره ممعن - فبهز الناس حتى حلهم
على الإقرار لقريش بالشعر ، وقد كانوا يسكرونه عليها ، ويرع الشعراء حتى قال
جرير : هذا والله الذى أرادته الشعراء فأخطأته وتطلت بوصف الديار .
على أنك لا تعبد فى شعره ما تعبد فى شعر جميل وكثير من الشهور العميق
والوصف الدقيق للعب ، وإنما هو تبع نساء يسره أن يخاطبن ويحادثن
ويتجمل لمن دون أن يفتح قلبه لواحدة منهن ؛ اللهم إلا أمره مع الزيات
على ابن عبد الله بن الحارث فإنه يشبه أن يكون حبا .

نموذج من شعره

قال من قصيدة فى التشبيب :

نحن إلى نعم فلا الشلل جامع	ولا الحبل موصول ولا أنت مقصر
فتى فانتظري أسماء هل ترفينه	أهذا لليرى الذى كان يذكر ؟
أهذا الذى اطريت نعتا فلم أكن	وعيشك أنساء إلى يوم أقبر
لئن كان إلام لقد حال بعدنا	عن العهد والإنسان قد يفتقر
رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت	فيضضى وأما بالمشى فيضمصر
أخا سفر جواب أرض تقاذفت	به فوات فهو أشعث أغبر
قليل على ظهر اللطية ظله	سوى ما بقى منه الرداء المخبر
وأعجبها من عيشه ظل غرفة	وربما ملئت الخدائق أخضر
ووال كفاها كل شيء يهيمها	فليست أشء آخر الليل تسهر
وليقة ذى دوران جشمى الكرى	وقد يجشم المولى الحب للفر
وبت رفيقا للرفاق على شفا	ولى مجلس لولا اليازة أوعر

قفلت أباديهم فلما أفونهم
 فلما قفلت الصوت منهم وأطفئت
 وغاب قهر كنت أرجو غيوبه
 ونقضت عني النوم أقبلت مشية ١١
 فحييت إذ فاجأها فتوالت
 وقالت وعضت بالبنان : فضحتني ا
 أرَيْتَكَ أَنْ هُنَا عَلَيْكَ أَلَمْ تَعَفْ
 فلما تقضى الليل إلا أقله
 أشارت لأختها أعيانا على فتي
 فأقبلتا طارتعا ثم قالتا :
 يقوم فينشئ بيننا متبكرأ
 فكان بجي دون من كنت أتقى
 فلما أجزنا ساحة الحى قلن لى :
 وقلن أهذا دأبك الدهر سادراً
 إذا جئت فامنع طرف عينيك غيرنا
 هديتاً ليهل السامرية نشرها
 ومن قوله :

ألا ليت أنى يوم تُقضى مديتى
 وليت طهورى كان ريقك كله
 ألا ليت أم الفضل كانت قرينتى

لئمت الذى ما بين عينيك والتم ا
 وليت حنوطى من مُشاشك والدم
 هنا أو هنا فى جنة أو جهنم

وكتب إلى الثريا وهي باليمن :

كُتِبَ إِلَيْكَ مِنْ بِلَدِي كَتَبَ مَوْلَاهُ كَدِ
كُتِبَ وَكَفَ الْعَيْنَةُ نِ بِالْحَسَرَاتِ مَقْرَدِ
يُورِقُ لَمِيبَ الشَّو قِ بَيْنَ السَّحَرِ وَالْكَبَدِ
فِيْمَسْكُ قَلْبَهُ يَد وَنَسَحَ عَيْنَهُ يَدِ

الأخطل^(١)

للتوفي سنة ٩٥ هـ

نشأته وهجائه

هو أبو مالك غياث بن غوث التغلبي : نشأ بالجزيرة الفراتية في قومه بني تغلب على النصرانية كأكثر أهل هذه القبيلة . ونجح في أمه وهو صغير ، فربته زوجة أبيه فأساءت تربيته . فشب سليط اللسان خبيث النية مدمناً للخمر . وبذت بواكير شعره منذ الحداثة ، فهاجى كعب بن جعيل شاعر تغلب فأخذه وهب ذكره يسير . ولما طلب يزيد بن معاوية وهو ولي العهد من كعب بن جعيل أن يهجو الأنصار لتعرض عبد الرحمن بن حسان لأخته في شعره ، خشى الأنصار ودله على الأخطل رجاء أن يفتكوا به ، فكان ذلك سبباً في صعود نجمه وذيوع اسمه . فإنه اتصل بيزيد وهجا الأنصار فنضبوا ، وشكوه إلى معاوية فحكهم فيه ، فطلبوا قطع لسانه . ولكن يزيد ترضاهم فمقوا عنه . وعرف له خلفاء بني أمية هذه اليد قدموه وأكرموه ، وبخاصة عبد الملك بن مروان ، لأنه استعان به على قبائل قيس وشعرائها لما لأنهم أعداءه من آل الزبير ، فسئل عليه

(١) راجع صفحة ١١٨ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ :

حجابه ، ووطأ له جنباه وأغرق عليه عطاه ، وسماه شاعر الخليفة : وبلغ من دالة
الأخطل على عيد ثلاث أنه كان يبيته وعليه جبة خز وفي عنقه صليب ذهب ولحيته
تفرض خمرأ فيدخل عليه بنير إذن . أما دخوله في الهاجاة بين جرير والفرزدق ،
فسببه أنه عرض بفضيل هذا حينما سئل أيهما أشعر . فلما بلغت حكمته
جريراً غضب وهجا الأخطل بأبيات منها :

يا ذا القباوة إن يشرأ قد قضى ألا تجوز حكومة النشوان

فرد عليه الأخطل في شيء من الضعف لتقدم سنة وفقر طبعه . وقد اعترف
بذلك جرير في قوله لابنه : أدركته وله ناب واحد ، ولو أدركته وله نابان
لأكلني ، وما زال الأخطل أثيراً عند بني أمية حتى أقصاه عمر بن عبد العزيز .
وكان يعيش حيناً في دمشق وحيناً في بلاد الجزيرة ، وتوفي في أول خلافة
الواحد سنة ٩٠ بالثمان من العمر سبعين سنة .

شعره

الأخطل أحد الثلاثة السابقين للتقدمين في هذا العصر ، وهم جرير والفرزدق
وهو . وقد اتفق الناس على أنهم أجود معاصريهم شعراً وأسيرهم ذكرراً ، ولكن
اختلفوا في أيهم أشعر إخوته . والحق أن لكل منهم مزية وميزة .

فالأخطل يمتاز بإجادة المدح ، ونمت الخمر ، وقلة البذاء في المعجاء . وسلامة
قصائده الطوال من القنط والقنط ، ومروءة طبعه على الروية والتفتيح : فقد
يلبث في مدائحه سنة . وربما بلغت قصيدته تسعين بيتاً فيقتصر منها بعد
التهديب على الثالث وأبى عليه طبيعته المرححة أن يقول في الرثاء : فلم يؤثر عنه
منه إلا أربعة أبيات في رثاء يزيد بن معاوية ، وهو سبب شهرته وأصل نعمته .
وكان غفوراً بنفسه ، لا يرى فوقه أحداً إلا الأعشى ، ولذلك كان يجرى على أسلوبه

نموذج من شعره

قال يمدح عبد الملك بن مروان :

تقضى فداء أمير المؤمنين إذا
انخاض الغمرة لليوم طائرُهُ
في نعمة من قرش يعصون بها
حشدٌ على الحق عيافاً لظنا أنفُ
لا يستقل ذوو الأضغان حربهم
شمسُ العداوة حتى يستفادَ لهم
هم الدين يبارون الرياح إذا
بنى أمية نماك مجلَّةٌ
وقال يهجو الأنصار :

وإذا نسبت ابن الفريضة خلقة
لنن الإله من اليهود عصابةً
قوم إذا هدر المعير رأيهم
خلوا المكارم لسم من أهلها
ذهبت قرش بللفاخر كلها
ومن قوله :

والناس مهم الحياة ولا أرى
وإذا افقرت إلى الدخا لم تجد
طول الحياة يزيد غير خيال
ذخراً يكون كصالح الأعمال

الفرزدق^(١)

للتوفى سنة ١١٠ هـ

نشأته ومبائه

هو أبو فراس هام بن غالب التميمي . كانت ولادته ونشأته بالبصرة ، فدرج في عش الأدب وشب في ربوع القصاحة ، وأخذ أبوه يرويه الشعر ويعلمه القريض حتى تفقت عنه قريحته ، وانطلق به لسانه ؛ فقدمه ذات يوم إلى أمير المؤمنين عليّ بعد واقعة الجمل مفتخراً بجودة شعره على صغره . فقال له عليه السلام أقرئه القرآن فهو خير له . فارتست هذه الكلمة في ذهن الفرزدق حتى كبر ، فصمم على حفظ القرآن ، فقيده نفسه وأقسم ألا يفلت حتى يحفظه ، وبرّ يمينه . ثم اتصل بولاته المصريين فنالهم بالمدح والمجاء ، وأجازوه بالإدناء والإقصاء . ومدح خلفاء الأمويين بالشام ولا سيما عبد الملك فوصلوه ولكنه لم يفتق عندهم لتشييمه لآل عليّ . وكان الفرزدق معاصراً للجري وكان بينهما تنافس وتحاسد . فأكاد يحقدّم المجاء بين جرير وبين شاعر آخر اسمه البعيث حتى وقف الفرزدق في صف البعيث وآزره . فناظ ذلك جريراً فنهجا الفرزدق ، ورد عليه هذا ، فاستطار بينهما المجاء عشر سنين ، ففتق ذهنيهما ، وأحد لسانيهما ، ونى فيهما قوة البادية والمجادلة ، وصدق النظر . وانتشبت الناس في أمرهما شميتين ، تناصر كل منهما أحد الشعارين . وجعل أحد أشياع الفرزدق أربعة آلاف درهم وفرساً لمن يغلبه على جرير ، وكان الفرزدق فاجراً ، فاحش النطق ، خبيث المجاء ، ضعيف الدين ، قادراً للمحصلات ، يأوى إلى ركن شديد من شرف حسبه ، وكرم نفسه . فاستعان بكل رذائله وفضائله على جرير فاهزمه ولا أسقطه

ثم كانت له مواقف محودة في القود عن آل علي تجلت فيها صراحته وشجاعته ، كوقفه يوم التقى بهشام بن عبد الملك في الحج ، وسمعه يقول حيناً رأى علي بن الحسين في موضع التبعة من الناس : (من هذا ؟) تجاهلاً لأمره ، وغضاً من قدره . فشق ذلك على الفرزدق ، فأجابه بقصيدته التي مطلعها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

فحبسه هشام ثم أطلقه بعد هجائه إياه . وتوفي الفرزدق بالبصرة سنة ١١٠ هـ وقد شارب المانة .

شعره

كان الفرزدق غفوراً بأصله مدلاً بأهله ، ولو لم يكن بجمعاده مآثر آياته حتى أمام الخلفاء ، فلب شعره في الفخر ؛ ولغة الفخر تقتضي الألفاظ الضخمة ، والأساليب القعصة ، والسكلم الغريب . وذكر أيام العرب وأنسابهم ، واحتذاء البادين في أساليبهم . لذلك أعجب به الرواة ، وفضله النحاة ، وقالوا : لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث العربية . على أنه طالما تألم من صلابه شعره ؛ ونمى أن تكون له رقة جريز لعززه ، ولجريز صلابته لطهره . وفي ذلك تأييد منه لحكم الأنخل عليهما بقوله : الفرزدق ينبت من صخر ، وجريز يعرف من بحر .

والفرزدق بمد ذلك في الهجاء مقذع ، وفي الوصف مبدع ، وفي المديح وسط ، وفي الرثاء متخلف .

نموذج من شعره

إذا اغبر آفاق السماء وكشفت
بيوتاً وراء الحى نكبها حرجف
وأصبح مبين الصقيع كأنه
على سررات الديب قطن مفدف

ترى جارنا فينا بخير وإن جنى
وكنا إذا نامت كليب عن القرى
لنا العزة القمصاء والهدد الذي
ترى الناس إن سرنا يسرون خلفنا
وإنك إذ نعى لتدرك شأونا
وقال أيضاً :

ومستنح طاولى الصير كأنما
دهوت بحمراء الفروع كأنها
وإن سفيه النار للمبتنى القرى
إذا مت فابكيى بما أنا أهله
وكم قاتل مات الفرزدق والندى
ومن قوله في مدح على بن الحسين :

هذا الذى تعرف البطحاء وطلاته
مذا ابن خير عباد الله كلمم
وليس قولك (من هذا) بضائره
إذا رأته قریش قال قائلها
يُغضِي حياء ويُمَقِّي من مهابته
يكاد يسكه عرفانَ راحته
ينشق نور الهدى عن نور غرته
من مشر حبهم دين وبنفسهم
والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا التقيُّ النقي الطاهر العلم
العرب تعرف من أنكرت والمعجم
إلى مكارم هذا ينهى الكرم
فا يكلم إلا حين يُقسم
ركنُ الخطيم إذا ما جاء يستلم
كالشمس يتجابه عن إشارتها التيم
كفرّ وقربهم منجى ومتمم

ومن أعيانه السائرة قوله :

فباعباً حتى كليب تُسبى كأن ألبها نهشل أو مُجاشع
وقوله :

وكنا إذا الجبار صعر خده ضربناه حتى تستقيم الأخادع
وقوله :

ترجى ربيع أن يجيء صغارها بخير وقد أعيا ربيعاً كبارها
وقوله :

قوارص تأتينى وتمحرونها وقد يملأ القطر الإناء فينعم
وقوله :

أحلامنا تزن الجبال رزاة وتغالنا جئنا إذا ما نهجل
وقوله :

ترى كل مظلوم إلينا قراره ويهرب منا جهده كل ظالم
جرير^(١)

للتوفى سنة ١١٠

نشأته وحياته

هو أبو حرزة جرير بن عطية الخطافى النخعي . ولد باليمامة لسبعة أشهر ،
ونشأ بالبادية ، فشب فصيح اللسان صحيح الوجدان مطبوع التريفة على الشعر .
ولما آتس في نفسه القدرة على قرظه ، والجرأة على عرضه ، ورد البصرة موطن
الفرزدق ينتجع الكرماء ، ويمتدح الكبراء ، ويمتار لأهله . فازدها ما رأى
على الفرزدق من حل النعمة ومظاهر الجاه بفضل الشعر ، وهو نعيم مثله ، فذهب
في قلبه دبيب الحسد له ، واشتغى أن يساويه في حسن حاله ، ووفرة ماله ،

(١) راجع صفحة ١٢٠ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ .

فتولدت من تنافسهما وتزاحمهما أسباب المهاجرة بينهما : وأراد جرير أن يراى قرنه عن كَسْب ، ففرك البادية واستوطن البصرة وغشى للربد ^(١) ، ودخل في كتف الحجاج فحسن موقعه عنده ، وطارت مدائحها فيه ، حتى بلغت عبد الملك فنفسه على الحجاج . وأحس الوالى رغبة التخليفة فأوفده مع ابنه محمد إلى دمشق ، فلما دخل جرير على عبد الملك استأذنه فى الإنشاد فأبى أن يأذن له ، وقال له بلمجة العاتب الخنق : إنما أنت للحجاج ! فما زال يتوسل إليه ، ويحتمل بالناس عليه حتى أنشده قصيدته التى مطلعها :

أصبحوا أم فؤادك غير صاح عشية مَمَّ صحبك بالرواح ؟
فلما وصل إلى قوله منها :

أسم خير من ركب للطايا وأندى العالمين بطون راح ؟
تبسم عبد الملك وقال : كذلك نحن ومازلنا كذلك . وأجازه بمائة لقعة وثمانية رءاء . وأصبح جرير بمد هذه القصيدة وحمود الأخطل آثر الشراء عند الخلفاء ولاسيما عمر بن عبد العزيز ، ولكن زلفاه لدى القصر أشعلت نار الغيرة فى قلوب مناضريه ، فشنوا عليه حرب المجاه وأرث هذه الحرب أغراض السياسة ، وتحريض الفرزدق ، وضيق خلق جرير ، وحب الناس لمشاهد الخصومة ! فنصب لجرير من هؤلاء الأفوان ثمانون شاعرا ظهر عليهم جميعا ^(٢)

(١) للربد سوق من أسواق البصرة كانت تعرف بسوق الإبل ثم عمرها الناس واتخذوها من زمن بن أمية منتدى للشعر والمطابة ، فألفت فيه حلقات للتأشيد والتأفاد ، وبحال الأدب وللناكرة وأنها الشراء والأشراف والرواة وطبقات شتى من الناس كل يوم المنافرة والمحاكة وتأريث نار الخصومة بين الشراء ، وكان لفتحولم فيها حلقات خاصة أشهرها - لقعة الفرزدق والرامس .
(٢) ظفر جرير هؤلاء جميعا بلسانه ، فلا هو ذو نسب كريم عمه بالفخر . ولا ذو مرة قوية تساعده بالهبة ، وهذا سر تفوقه وسبب تنصيبه ، روى صاحب الأغاني أن رجلا قال لجرير من أضر الناس ؟ فقال له : قم حتى أعرفك من هو ، ودخل به بيت أبيه عطية وقد أخذ منزلة فاعتقها وجعل يمس ضرعها ، لصاح به : أخرج يا أيتى ! فخرج شيخ حميم رث الهيئة ولد سال ابن المنزلى لحيته ، فقال جرير : أعرف من هذا الرجل ؟ قال الرجل : لا ! فالحذا أبى ، كان يضرع من ضرع المنزة تخافة أن يسمع صوت الحلب فيطلب منه ابن . وإن أضرع الناس من أضر بهذا الأب عاتين شاعرا وقار عليهم .

إلا الفرزدق والأخطل فإنهما نازعا الخلبة وثبتا له . ودامت هذه المهاجاة سجلا بينهم حتى توفى الأخطل ، ففرغ جرير للفرزدق وكانت بينهما النقائص^(١) المشهورة التي لمج بها الناس ، وشغل بها الشعراء . ثم بدا للفرزدق أن يكف ، فكف وتسلق حتى مات . ففضى جرير لسبيله بمله بيضه أشهر ودفن باليمامة سنة ١١٠ هـ .

شعره

برى جرير من خبث الأخطل وسكره ، ومن جفاء الفرزدق وبغره ، وتجميل بصفا الطبع ، ورقة الشعور ، ونقاء الجيب ، وصحة الدين ، وحسن الخلق ، فظهر أثر ذلك كله في شعره ، فامتاز بطلاوة الأسلوب ، وحلاوة الغزل ، ومرارة الهجاء ، وإجادة الرثاء ، وحسن التصرف في جميع فنون الشعر . فكان بذلك أظهر في سماء الشعر ، وأقرب إلى صفة الشاعر ، وأكثر أشياعا من الأخطل والفرزدق . فإن الأول لم يُجد إلا في المدح والهجاء والجر ، والثاني لم ينجح إلا في الفخر .

مخوفج من شعره

قل يهجو الفرزدق :

لقد ولدت أمّ الفرزدق مرقفاً نجاة بوزار قصير القوادم
يوصل حبليه إذا جنّ ليله ليرقى إلى جاراته بالسلام
تدايت تزي من ثمانين قامة وقصرت عن باع الملى والكارم
هو الرجس بأهل المدينة فاحذروا مداخل رجس بالغيبت عالم

(١) سميت بذلك لأن أحدهما يقول القصيدة فينقصها عليه الآخر ملزماً في ذلك ما التزمه صاحبه من الوزن القافية .

لقد كان إخراج القرزق عنكم
 طهوراً لما بين الصلوة وراقم^(١)
 ومن جيد قوله فيها :

تعالوا نحاكسكم وفي الحق مقنع
 إلى الغر من أهل البطاح الأكارم
 فإن قریش الحق لم تتبع الهوى
 ولم يرهبوا في الله لومة لائم
 أذكركم بالله من يسهل القنا
 ويضرب كبش الجحفل المتراكم ؟
 وكنتم لنا الاتباع في كل موقف
 وریش الذناب تابع للقوادم
 إذا عدت الأيام أخزيت دارما
 وتخزيك يا ابن القين أيام دارم
 وما زادني بُد للدى قرض مرّة
 ولا رق عطشى بالضرورس العواجم
 ومن قوله بمدح عمر بن عبد العزيز :

إنا نرجو إذا ما النيث أخلفنا
 من الخليفة ما نرجو من الطر
 نال الخلافة إذ كانت له قدرا
 كما أتى ربه موسى على قدر
 أذكر الجهد والبلوى التي نزلت
 أم فكفتي بالقي بلغت من خبري
 ما زلت بسلك في دار تعرفني
 قد طال بمدك إصمادي ومُنحدري
 لا ينفخ الحاضر المجهود بأدينا
 ولا يجود لنا بأدي على حضر
 كم بالمواسم من شـمـاء أرملة
 ومن يتم ضيف الصوت والبصر
 يدعوك دعوة ملهوف كأن به
 مسامن الجن أو رزأ من البشر
 عن يداك تكفي قَدَدَ والده
 كالفرخ في العش لم ينهض ولم يعطر

ومن أبياته التي تفرد بها قوله في الغزل :

إن العيون التي في طرفها حور
 قَتَلْنَا نَم لَمْ يَحِين قَتَلْنَا

(١) والهم حصن من حصون للبيعة .

يصبر من ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضف خلق الله إنسانا
وقوله في الغفر :

إذا غضبت عليك بسوئهم حبيت الناس كلهم غضابا
وفي المجاء :

ففض الطرف إنك من نهم فلا كعبا بلغت ولا كلابا
وفي التهكم :

زعم القززدق أن سيفتل مربعا أبشر بطول سلامة يا مربع
ومن جيد فخره قوله :

إن الذي حرم للكارم تنلها جعل الخلافة والنبوة فينا
مُضَرَّأِي وأبوللوك ، فهل لكم يا خزر تغلب من أب كائنا ؟
هذا ابن عبيد الله بن دمع خليفته لو شئت ساقكم إلى قطيعة

ويقال إن عبد الله لما بلغت هذه الأبيات قال : ما زاد ابن الراغبة على أن
جعلني شُرطِيَا . أما إنه لو قال : لو شاء ساقكم إلى قطيعة ، لاسقهم إليه !

الطَّرِمَاح

للتوفي سنة ١٠٠ هـ

نشأته ومجته

نشأ الطَّرِمَاح بن حكيم الطائي بدمشق في النصف الأخير من القرن الأول ،
وظل في الشام غفلا من الأغفال حتى بلغ حد الرجال فانتقل إلى الكوفة مع مَنْ
ورددها من جنود بني أمية ، ونزل في نيم اللات بن ثعلبة . وكان فيهم شيخ من

الشراء^(١) الأزارقة له سميت وهيئة ، فساكن مجالسه ويلابسه ؛ فوقفه على عقيدته ودعاه إلى طريقته ، فقبلها واعتقدها أشد اعتقاد وأصححه حتى نقي الله عليها . ثم عرف السكيت بن زيد الأسدي ، فتساها الوفاء ، وتساها الحجة ، وتمكنت بينهما الألفة على اختلاف ما بينهما في النسب والذهب والبلد ؛ فالطرماع قطعاني شامي خارجي ، والسكيت عدناني كوفي شيعي . وقد سأل بعض الناس السكيت عن سر هذا الاتفاق مع شدة الاختلاف فأجاب : « إنما اتفقنا على بنقض العامة » وهذا الجواب تصديق أو تطبيق للمثل اللاتيني القائل : « كل الشراء أرستقراطيون^(٢) » . وعاش الطرماع عيش الشراء على فضل الأغنياء . يمدح من يعطيه ويهجو من يمنه ، وهو مع ذلك عزيز النفس ، شريف الطبع ، بعيد الهمة لم يقفه اللال على حبه إزاء مواقف الضراعة والموان . دخل هو والسكيت على غنله بن يزيد للهلي ، فجلس لهما ودعاهما ، فتقدم الطرماع لينشد ، فقال له : أنشدنا قائماً . فقال : « كلا والله : ما قدّرُ الشعرُ أن أقوم له فيحط مني بقاى وأحط منه بضراعتي ، وهو عمود الفخر ، وبيت الذكر لمّا أثر العرب » فقيل له : تنحّ ودع السكيت ، فأنشد السكيت قائماً فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما خرج شاطرها الطرماع وقال له : أنت أبا ضييبة أبعدهمة ، وأنا أطف حيلة .

وكان الطرماع مع اعتداده بأمره وإعظامه لقدره ، ممجياً بشمره وفخوره به . سمع هو وصاحبه للسكيت أبياناً من ذي الرئة ، وكان معاصراً لهما ، فضرب

(١) الشعراء : الخوارج ، وهم طائفة ممن كانوا مع الإمام في حرب صفين ، علوه على قبول التحكيم بينه وبين معاوية فقتله ، ولكن التحكيم جرى على غير الحق فأباه ؛ فخرجوا عليه وقالوا له لم حكمت الرجال ؟ لاحق زلافة ، وكبار فرق الخوارج سميت : الأزارقة ، والنجيدان ، والصفريه ، والمباردة ، والأباضية ، والتمالية ، والباقرن فرومهم ، وكلهم يسمون على البراءة فمن عدلوا وعلى وينفرون ذلك على كل طائفة ، ويكفرون أصحاب الكبار ، وبرزون الفروج على الإمام إذا خالف السنفراً وجبا . ويزيد الأزارقة الذين ينتسب إليهم الطرماع تكفير على وصوب فضل ابن ملجم بالله . وقد علوا حتى كفروا الصحابة وسائر المسلمين ، وصاحبهم هو نافع بن الأزرق .

On Profanum vulgus ét arceo (٧)

الكيت صدر الطرماع وقال : هذا والله الديباج لا نسجى ولا نسجك
الكرايس « قال الطرماع : لن أقول ذلك ولو أقررت بمودته » .

وكان الطرماع رغيب العين بشره إلى اللال ، ويتشوف إلى الغنى ويقول :
أعقري ريب للنون ولم أنل من المال ما أعصى به وأطيع ؟
فدأب في سبيله وجد في تحصيله ، ودعا الله ألا يموت حتف أنه بل يموت
ميتة المجاهدين أو المجاهدين ، فيكون شهيد الدنيا أو شهيد الدين .

وفي ذلك قوله :

وإن لتقتاد جوادى وقارذف به وينفى العلم شتى المقاذف
لأكسب مالا أو أوول إلى غنى من الله يكفينا عذاب اختلاف
فيارب إن جئت وفاتى فلا تكن على شر جمع^(١) يعلو بخضر المطارذف
ولكن قبرى بطن نشر مقيله يحسو السماء في نسور عواكف
وأسمى شهيداً ثاوياً في عصابة يصابون في فجع من الأرض خائف
فوارس من شيطان ألف بينهم تقى الله نزلون عند التراجف
إننا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى وصاروا إلى ميعاد ما في المصاحف
ولكن الله لم يستجب دعاءه فأت على فرش وحل في نش .

شعره

نشأ الطرماع نشأة حضرية ، فأعرف البادية ولا لابس اليدو . ولكنه
حاش في الكوفة وألم بالبيعة فسمع الرواة والنحاة فيها يؤثرون الأدب الجاهل
ويقدمون الشر البدوى ، لأنه موضع الشاهد ، وموطن الغريب ، فوله ذلك فيه

(١) المريج : النش .

وفي السكيت حب الغريب وتكلف الحوشى ؛ فكان ينسقطه من الأعراب
ويتلقطه من الرُجَّاز ، ويستعمله فلا يقع به في مكانه . قال السجَّاج : كان
الطرماح والسكيت يسألاننى عن الغريب فأخبرهما به ثم أراه في شعرهما وقد
وضعه في غير موضعه . فقيل له : ولم ذلك ؟ فقال : لأيهما قرويان يصنفان
ما لم يريا . ومن ثم كان الأصمى وأو عبدة يميّيان شعرهما في الإسلاميين ،
كما تابا شعر عدى بن زيد وأمّية بن أبى الصلت في الجاهليين : وإليك لتري
أثر هذا الميل ظاهراً في شعره ، فبهذا يأتيك بالآيات الرقيقة الأنيقة المذبة ،
إذا به يرميك بالآيات النربية اليميدة الفجة ، فيشوه شعره وبكدر بحره : وقد
حثل ابن الأعرابي عن ثمانى عشرة مسألة من شعر الطرماح فلم يعرف منها
واحدة ! على أنه معدود في التحول من الشعراء الإسلاميين ، وله مذهب
معروف في الهجاء يركب له اللبائنة في تصنيف شأن اللجوء وتحقير أسره فكأنما
يوحى إليه : وكان السكيت وهو معاصره ومعاشره يُقِرُّ له بالنبوغ في نواح
كثيرة من نواحي الفضل ، فقد أنشد يوماً قول الطرماح :

إذا قُبِضت نفس الطرماح أخافت عرى المجد واسترخى عدان القصائد
فقال : إى والله ! وعدان الخطابة والرواية والفصاحة والشجاعة :

نموذج من شعره

الطرماح من أصحاب الملحاحات ، وملحمته تريك التفاوت بين السهل الطيبى
والهر المتكلف ، ومطامها :

قلّ في شطّ نهر وان اغتناضى	ودعاني هوى الميون المراضى
فقطر بئت للصبا ثم أوقه	ت رضاً بالتقى وذو البر راضى
وأراني المليك رشدى وقد كد	ت أخا هنجية واعتراض
غير مارية سوى ربّ القرة (-)	ثم ارعويت بعد البياض

ومنها :

وجرى بالذى أخاف من البين (م) صيدجى الضعى كأن نساء
 لمعت تنفوس كل ماض حيث تبحث رجله فى أباض
 سوف تدنيك من ليس سبتنا فعى قوداء أنفجت عضداها
 عن زحليف صيف ذى دحاض ويقول فى آخرها :

إننا مشر شماننا الصم نمر لذليل فى ندوة الحى
 ر إذا انطوف مال بالأخاض لم يفتنا بالوتر قوم ولقت
 مرائب لئلى النهاض لم يفتنا بالوتر قوم ولقت
 يم رجال برضون بالإغاض فلى الناس إن جهلت وإن شئ
 ت قصى بينا وبيدك قاض ومن قوله :

لقد زادنى حباً لنفسى أنى وأنى شقى بالانتم ولا ترى
 بنيفز إلى كل امرئ غير طائل ومن قوله يهجو بلى تميم :

لو كان ورد تميم ثم قيل لها أو أنزل الله وحياً أن يعذبها
 حوض الرسول عليه الأزد لم ترد لاعز نصر امرئ أضحى له فرس
 إن لم تعد لقتال الأزد لم تعد على تميم يريد النصر من أحد
 من خلقه خفيت عنه بنو أسد لو كان يخفى على الرحمن خافية

النَّشْرُ

الخطابة

كان ظهور الإسلام بالدعوة العظمى من أهم الأسباب التي بلغت بالخطابة غاية كمالها ، وجعلت الأمر في أيدي رجالها . فإن الدعوة إلى الدين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقمع الفتن ، وردع البدع ، وتمهيس الجند ، كل أولئك من أغراض الخطابة . وكان لما من آى القرآن وحججه معين لا ينضب ، ومدد لا يفقد . ولما اختلف المسلمون بعد مقتل عثمان وتمددت الفِرَق رقت الخطابة رقيًا عظيمًا ، لاعتقاد كل حزب عليها في نشر مصلحته ، وتأيد دعوته .

وأهم ما يميزها في هذا العصر عذوبة ألفاظها ، ومثانة أسلوبها ، وقوة تأثيرها واقتباسها من القرآن . واتهاجها منهجه في الإرشاد والإقناع ، وابتدائها بحمد الله والصلاة على رسوله .

وظل العرب على ما ألفوه في الجاهلية من لَوَثِ العامة واتخاذ المِخْصِرة والوقوف على نشر من الأرض والخطبة من قِيام ، إلا الوليد بن عبد الملك فإنه خطب وهو جالس .

وجملة القول أن ليس في عصور الامة عصرزها بالخطابة وحِزَل بالخطباء كهذا العصر لانصراف العرب عن الشعر إليها ، واعتقادهم في الدين والسياسة عليها . وأشهر خطبائه الرسول صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدون ، وسحبان بن وائل ، وزباد بن أبيه ، والحجاج بن يوسف ، وقطر بن العُبَاج .

محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

مولده وشأته وبشته

وُلد سيدنا محمد بن عبد المطلب بن هاشم القرشي في مكة صباح اليوم التاسع أو الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، لأول عام من حادثة القيل ، أو اليوم العشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١ للميلاد في مهديتيهم والمُدم ، قد استوفى أبوه غلْمَ حياته حين كان هو جنينا . ولم يكدي بمحو السادسة من عمره حتى استأثر الله بأمه ، فخصه بجلده ستين حضاة إعراز وعجبة . ثم أوصى به قبل وفاته إلى أبي طالب شقيق أبيه ، فكفله على رقة ساه وكثرة عياله . ولو جرى الأمر على منهاج الطبيعة لشب محمد على أخلاق اليتامى وعاد الجاهلية ، ولكن الله تولى تربيته وتهذيبه ، فشكله بالمقل الرجيع ، واخلق السميع ، والنفس الرضية ، والحياء الوقور ، والحلم الرقيق ، والصبر المطمئن ، والصفح الجليل ، واللسان الصادق ، والقامة الوثيقة ، والجأش القوى ، والفؤاد الجميع . ثم طهره من أرجاس الوثنية ، فلم يشرب الخمر ، ولم يأكل مما ذبح على النصب ، ولم يشهد للأوثان عيداً ولا حفلاً . وسمت نفسه الكبيرة على جداتها إلى ابتناء الرزق بحيلته وكده ، فتنصرف في التجارة على عادة قومه حاسراً لما من ساقه ويده . وشاعت له في الناس فضائل الصدق والحذق والأمانة ، فطلبت إليه السيدة خديجة بنت خويلد إحدى عتائل القرشيين وخبائهم أن يتجر في مالها ، فسافر إلى الشام مع خادمها ميسرة فتجست سفرته ورجعت صفته . ثم ارتد إلى مكة فهرز من عطف السيدة ما رأت من جزالة الرّج وأمانة الراحم فخطبته إلى نفسها ، وهي في سن الأربعين وهو في حدود الخامسة والعشرين ، فرضى زواجها ، وخطبها معه إلى عمها ، وكان لها من جليل الأثر في الإسلام سهم ربيع . ثم مضى الرسول يضرب في الآفاق إلى الأسواق يكسب لأهله ، ويمضي

ثروة وزوج ؛ ونفسه عازفة عن متع الحياة ، صادقة عن لذة العيش ، فلم يطمع في ثراء ولم يطمح إلى منصب ، بل كان يحلّي ذرعه من صوارف الدنيا القبايل الطوال فيمتسكف في غار حراء يصعد ويثأمل ، ويتجه بروحه الصافي اللطيف إلى اللا الأعلى حتى أوحى إليه في هذا الغار بالرسالة والمعجزة وعمره يومئذ أربعون سنة قريية وستة أشهر . فاقبل إلى زوجته مضطرباً فطمأنته وقالت له : والذي نفس خديجة بيده لا يحزبك الله أبداً ! إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتمين على نوائب الحق . وفتر الوحي مدة ، ثم نزل على قلبه الروح الأمين بقول الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) فقام بأعباء الرسالة والتبليغ ثلاث حجج في طي الخفاء . ثم أصر أن يصدع بالدعوة ، فمالن به أقريشاً وسفناً أحلامها ، وعاب أصنامها ، فكاشفوه بالعداء ، وقصدوه بالإيذاء . ونصبوا له الحبال ، وتربصوا به العوثر ، وهو يتلقى كل ذلك بمحنة الصبر وعدة الإيمان ، ومن ورائه عمه أبو طالب يذود عنه ويحميه ، وزوجه السيدة خديجة تؤاسيه وتقويه ، حتى سلخ على هذه الحال الشديدة عشر سنين . وفي السنة الماشرة من رسالته فجعه اللوت في المم الببيل ، وفي تلك الزوجة الفاضلة في يومين متقاربين ، فاشتد عليهما حزنه ، وخرج بعدها في مكة مقامه . فالتوى الهجرة بالمسلمين إلى المدينة — وقد أسلم فيها كثير من الأوس والخزرج — فأحس للشركون منه هذا المزم فاحذروا به ليقتلوه . ولسكنه خرج ليلة اجتماعهم على قتله هو وصديقه أبو بكر إلى المدينة تسكواهما أين لا تنفوقوا لا يقام لما بسبيل . فليناها يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٣ من مولده ، وهو يوافق اليوم الرابع والعشرين من سبتمبر سنة ٦٢٢ م . فكانت هذه الهجرة المباركة مبدأ كلمة وانتشار دعوته وتام نصرته . واستمر يجاهد للشركين . يجاهد لهم بالقرآن ، ويجاهد بهم بالسيف ، حتى انحسر الممى وانجلب الشرك وعلت شمس التوحيد في أفق الوجود . وحينئذ نزل قول الله تعالى : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ

دِيْنَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) فلم يأت
على نزول هذه الآية الكرمة ثلاثة أشهر حتى مرض الرسول بالحمى ولحق عليه
الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى يوم الإثنين ١٣ من ربيع الأول سنة ١١ هجرية ،
٨ من يونيو سنة ٦٣٢ ميلادية .

وصفه

وصفه بعض من رآه قال . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فاضلاً يعلو
وجهه ثلاثون القمر ليلة البدر ، أطول من اللربوع ^(١) وأقصر من للشذب ، عظيم
القامة ، رجل الشعر ، إن انفرت عقيقته فرق وإلا فلا يجاوز شعره شحماً أذنيه
إذا هو وفرة ؛ أزهر اللون ، واسع الجبين ، أزج الحواجب سوانج من غير
قرن ، بينهما عرق يدره الغضب ؛ أفنى العينين له نور يعلوه ، ومحسبه من يتأمله
أشم ؛ كث اللحية ، أدهج ، سهل الخدين ، ضليع الفم ، أشنب مقلج الأسنان ،
دقيق اللسرة ، كأن عبقه جيد دمية في صفاء الفضة ؛ معتدل الخلق بادناً ماسكاً
سواء البطن والصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس ، أشعر التراخين
والفكبين وأعلى الصدر ، طويل الزندين ، رحب الراحه ، شين الكفين والقدمين ،
سائل الأطراف ، سبط المصب ، خصان الأخمصين ، مسيح القدمين يفيو عنهما
للأه . إذا زال زال تقدماً ، ويخطو تكفوفاً ، ويمشي هوناً . ذريع للشيء ، إذا مشى
كأنما ينحط من صيب ، وإذا التفت التفت جميعاً . خافض الطرف ، نظره إلى
الأرض أطول من نظره إلى السماء . جل نظره للملاحظة . يسوق أصحابه ، ويبدأ
من لقيه بالسلام . وكان صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان دائم الفكرة طويل
السكوت ، يفتح الكلام ويغتمه بأشداقه ، ويتكلم بمجوامع الكلم ؛ دمثاً ليس
بالجاني ولا المهين . إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا نجب قلبها ، وإذا تحدث

(١) انظر شرح هذا كله في آخر الكتاب .

اتصل بها فغضب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشاح
وإذا فرح غصّ طرفه . جُلَّ ضحكه التبسم ، ويفتر عن مثل حب النعام .

فصاحة

تقلب رسول الله صلى الله عليه وسلم في أخلص القبائل متطافاً ولعذبها بياناً؛
فوكد في بني هاشم ، ونشأ في قريش ، واسترضع في بني سعد . فكان أفصح
العرب اساناً بالفطرة . وقد حدث بذلك عن نفسه فلم يزف حديثه ولم يدفع
قوله . وفصاحة الرسول أشبه بالإلهام والفيض ، فلم يعانها ولم يتكلفها ولم يرتض
لها ، وإنما أسلست له الألفاظ وأسمحت له المعاني فلم يند في لسانه لفظ ، ولم
يضطرب في أسلوبه عبارة ، ولم يمزج من علمه لغة ، ولم يثب عن خاطره فكرة .
وكان كلامه كما قال الجاحظ : الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه ،
وجلّ عن الصنعة ونزه عن التكلف . استعمل المبسوط في موضع البسط ،
والمقصور في موضع القصر ، وهجر الفريب الوحشي ، ورغب عن المجبن الشوق ،
فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُف بالعصاة ، وشُدَّ
بالتأيد ويسر بالتوفيق . ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أصدق
ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح من معناه ، ولا أبين عن نغواه ، من كلامه
صلى الله عليه وسلم .

أثر الحديث في اللغة والأدب^(١)

أما أثر هذه البلاغة الروحية والفصاحة النبوية في اللغة وأدبها فأبين من أن
يبين ، فإنه عليه الصلاة والسلام قد اجتمع له ما لم يجتمع لغيره من قوة الطبع

وحفاء الحس ومحض السليقة وثقوب القعن وتمسك اللسان ومؤازرة الوحي فكان يقتضب ويتجوز ويشفق ، وينهج للذاهب البيانية ، ويرتجل الأوضاع التركيبية ، ويضع الألفاظ الاصطلاحية ، فيصبح ما أمضاه من ذلك حسنة من حسنات البيان ، وسراً من أسرار اللسان ، يربد في ميراث اللغة ، ويرفع من قدر الأدب . كقوله عليه الصلاة والسلام : مات حنّفٌ أفنه ^(١) . الآن حيى الوطيس . هُدنة على دَحَن . يا خيل الله اركبي . لا يفتتح فيها عزازان . وقوله لحادى النساء : رويدك ارققاً بالقوارير ، وقوله في يوم بدر : هذا يوم له ما بعده . ناهيك بما استحدثه عليه الصلاة والسلام من أساليب الدين وألفاظ الشريعة مما لم يأت به الكتاب .

عمر بن الخطاب

نشأته وميقاته

ولد أبو حفص عمر الفاروق بن الخطاب القرشي بعد مولد الرسول صلى الله عليه وسلم بثلاث عشرة سنة ، ونشأ نشأة النتيان من قريش ، فرعى للماشية صغيراً ، ومارس التجارة والحرب كبيراً ، ثم أخذ نفسه بثقافة الأشراف من قومه ، فعلم الكتابة ، وتقلب في التجارات بين اليمن والحبشة جنوباً ، والشام والعراق شمالاً ، حتى فخم أمره وعظم قدره . واشتهر في الناس بيلاعة اللسان ، وثبات الجنان ، وقوة الشكمية ، ومضاء البريعة ، فبجست له قريش السفارة بينهم وبين قبائل العرب في السلم والحرب . ولما جاء الإسلام عارضه وناهضه ولجّ في الخصومة والإنكار على متبعية ، وللسلمون يومئذ لا يزدلون على خمسة وأربعين رجلاً وثلاث عشرة

(١) روى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أنه قال . ما سمعت كلاماً فرى من العرب إلا وسميتها من رسول الله (ص) . وسميته يقول . مات حنّفٌ أفنه وما سميتها من مرعى قبيلة . فوودوما إذ ذى لامية السموات للقبيرة دليل على أن هذه القصيدة مشحونة كلها أو بعضها .

امراً يجتمعون سرّاً في دار الأرقم الخزومي ، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الله أن يميز الإسلام به أو بأبي جهل ، فاختاره الله لهذه السعادة ، وشرح صدره للشهادة . وذلك أنه دخل على خَتَنِهِ بُوَيْبِهِ ويمذبه على إسلامه . فَلَمَحَتْهُ أخته وأخرجت له صحيفة فيها آيات من سورة طه ، فلما قرأها تعظمت في صدره وقال : آمين هذا قرأت قريش ؟ ثم سأل ابن الرسول ؟ فقيل له في دار الأرقم : قال عمر : « فأنيت فضربت الباب فاستجمع القوم . فقال لهم حمزة : ما لكم ؟ قالوا عمر ! قال : وعمر ! افتحوا له فإن أقبل قبلنا منه ، وإن أدبر قتلناه . فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج ، فقشده ، فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل مكة . قلت يا رسول الله أسأنا على الحق ؟ قال بلى ! قلت : فقيم الانتياء ؟ فخرجنا صفين أنا في أحدهما وحمزة في الآخر حتى دخلنا المسجد ففطرت قريش إلّى وإلى حمزة فأصابهم كآبة شديدة . فسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاروق يومئذ » .

كان ذلك سنة ست وعشرون سنة والأذى قد اشتد بلاؤه بالمسلمين فاحتمل منه نصيبه ، وعادى في الله صديقه ونسيبه ، حتى تسأل المؤمنون لِمَ إذاً إلى المدينة قارئ من المذاب والفتنة . فلم يشأ عمر الجري الباسل أن يخفى هجرته ، وإنما تقلد سيفه وتكسب قوسه وأنى السكبة ، وأشرف قريش بفنائها ، فطاف وصلى ، ثم أقبل عليهم وقال : « شامت الوجوه ! من أراد أن تشككه أمه ويبيّم ولده وترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي ! » فلم ينهه أحد . ولم يزل مع رسول الله صاحب الأمين يؤيده بسنانه ولسانه ، ويرى له الرأي فيقره القرآن في بعض الحوادث ، حتى قبض الرسول واختلف الأنصار وللهاجرون فيمن يكون الخليفة ، فأيد هو أبابكر حتى تمت له البيعة ، وقام منه في خلافته مقام المستشار المؤتمن والقاضي العدل ، حتى حضر الموت أبابكر فلم يجد غيره من عهد إليه بالخلافة فتولاها بقوة المؤمن المحاص ، وعزمه القوى الشجاع ،

وحكمة الشيخ الجرب ، وحكمة المبقرى الأريب ، ووضع يده على ملكوت كسرى وقبصر ، وطلق وحده وهو في قلب الصحراء الجديية يديره ويسومه . فيولى الولاية ، ويختار القضاة ، ويُنتَصَب القواد ، ويحرك الأجناد ، ويبعث الأمداد ، ويرسم الخطط ، ويخطط المدن ، ويسن السنن ، ويقسم الفيء ، ويقسم الحدود ، مما ينوء بالحكومات ويلجأ على المجالس . وكل ذلك في سداد رأى وتقوب ذهن وبمد نظر ومضاء عزم . وكل ذلك وهو يفقرش الفقراء ، ويسايش الدماء ، ويتدثر بالتوب انشأ ، ويقادى بالخل والزيت ، ولا تزيد نفقته من بيت المال على درهمين في اليوم . ولا تزال خلافته مثلاً من للثلث العليا في النظام والمدل والأمن . ولكن عمر القى أَرْضى الله والناس بمذله وفضله ، لم يُرَضْ عبداً مجوسياً اسمه لؤلؤة ، إذ نصح له أن يحسن إلى مولاة للنيرة بن شعبة ، وألا يستكثر عليه درهمين في اليوم يؤديهما إليه ، وهو بحار وقاش وحداد ، فاحتقد عليه هذه النصيحة ، ودبَّ إليه في النفس وهو قائم يصلي بالناس في القنجر فطمعته بمنجبر ذى نصلين طعنات كانت سبب موته . وذلك ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ هـ .

صفاته ومواهبه

كان أمير المؤمنين عمر طويلاً جسيماً ، أبيضَ شديد الحمرة ، أصلحَ أشيْبَ ، خفيف شعر المارضين ، أصهب مارتف السبال كبيره . وكان رفيقاً رفيقاً إلا إذا وجب الحق فلا تأخذه فيه هواة . وقَلَّ مَنْ سلم من كبار الصعابة وأشرف التبتال من درته (عساه) . وكان مُحَصِّدَ الرأى ، مُحَكِّمَ الحجة ، مُؤْتَقِ الحجة ، شديد الورع ، طاهر اليد ، واسع العلم ، حافل الخاطر بالحكمة ، بارع الفقه في الدين ، إذا ذكرتَ علياً بيلاغة اللسان ذكرته هو بيلاغة العقل . وحسبك أن تقرأ له هموده وكتبه للقضاة والولاية والقادة فترى منه الفقيه المجتهد ، والإدارى

الحازم والسياسي الخنك ، وكل ذلك دون تلقين ولا وحى ولا اعتداء ، وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء .

مفروض صدقه وخطبه

ذلك عهده إلى أبي موسى الأشعري حين ولاء القضاء ، وقد اعتبره جمهور من القضاة أساساً للنظام وقاعدة للأحكام وما أجدره بذلك ا

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس ، سلام عليك . أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة . فافهم إذا أدلى إليك فإنه لا يفهم تسكلم بحق لا فإذله . آس بين الناس في وجهك وكذلك ومجسك ، حتى لا يطلع شريف في حياءك ، ولا يياس ضعيف من عدلك . البيئة على من ادعى واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين إلا لصحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً . لا يمتنعك قضاء قضيته اليوم فراجت فيه نفسك وهديت فيه ارشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التنادى في الباطل . الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة . ثم اعرف الأشياء والأمثال فقس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها عند الله وأشبهها بالحق . واجمل لمن ادعى حقاً غائباً مداماً ينتهي إليه فإن أحضر بيئته أخذت له بحقه وإلا استحللت عليه القضية ، فإنه أننى للشك وأجلى للمنى . للسلهون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد ، أو مجرباً عليه شهادة زور ، أو ظنيكاً في ولاء أو نسب ، فإن الله تولى منكم السراوودراً بالبينات والأيمان . وإياك والفاق والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر ؛ فمن سحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس . ومن تخلق للانس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شأنه الله ، فما ظلك بثواب غير الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته ؟ والسلام .

ومن خطبة له رضى الله عنه :

أيها الناس ! إنه أتى على حين وأنا أخشَبُ أن من قرأ القرآن إنما يريد الله وما عنده . ألا وإنه قد خُيِّلَ إلى أن أقواماً يقرؤون القرآن يريدون ما عند الناس . ألا فأريدوا الله بقراءة تكلم وأريدوه بأعمالكم ، فإنما كنّا نعرفكم إذ الوحيُ ينزلُ ، وإذ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ، فقد رفع الوحيُ وذهب النبيُّ عليه السلام ، فإنما أعرفكم بما أقول لكم : ألا فن أظهر لنا خيراً ، ظننا به خيراً وأنتينا به عليه ، ومن أظهر لنا شراً ظننا به شراً وبفضناه عليه . اقتدعوا هذه النفوسَ عن شهواتها فإنها طُلعة . وإياكم ألا تقدعوها تنزع بكم إلى شرٍّ غاية . إن هذا الحقَّ قليلٌ مرى ، وإن الباطلَ خفيفٌ وبيّ ، وترك الخطيئةَ خيرٌ من معالجة التوبة .

على بن أبى طالب

للتوفى سنة ٤٠ هـ

وله أمير المؤمنين على بن أبى طالب قبل الهجرة بإحدى وعشرين سنة ، ورث مع الرسول في بيته تخفيفاً عن أبيه . ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة كان على مراهقاً ، فأمن به وشب على حبه ، وتمثلت أصول الدين في قلبه ، وخاطر بنفسه في سبيل الرسول ليلة هجرته ، وأبلى البلاء الحسن في تأييده ونصرته ، وشهد الفزوات كلها إلا تبوك فقد خلفه النبي فيها على أهله . فلما لحق الرسول بربه كان على يرى أنه أحق بمخالفته لمساكته من شرف القرابة والصهر . فلما بايع المسلمون أبا بكر وقام بعده من بعده عمر ، وأخطأته الشورى إلى عثمان ، تلاوص الجرة ثم سالها ، متحاملاً في كل ذلك على نفسه . وقتل عثمان بفايه للناس في الحجاز ، وامتنع معاوية وأهل الشام معه غضباً لقتل عثمان وقعوده على عن الفتنة .

وكان ما كان من الفتنة التي حَلَّتْ المُدَّ ، وأوهنت العُرى ، وقسمت للمسلمين إلى طائفتين تعادتا واقتلتا حيناً من الدهر . ثم قوت السيوف في الأغاد دون أن يستوثق الأمر لأحد الرجلين : واثمر ثلاثة من الخوارج بزعماء هذه الفتنة الثلاثة : معاوية وعمر بن الماص وعلي . فكان أمير المؤمنين نصيب ابن ملجم ، فقتله غيلة بمسجد الكوفة سنة ٤٠ هـ وقد مضى على خلافته أربع سنين وتسعة أشهر إلا أياماً .

أخبروه وصوابه

كان عليّ كرم الله وجهه قوى المضل صادق البأس شجاع القلب لا يزال أوقع على الموت أم وقع للموت عليه . وكان حجة في الفقه ، قدوة في الورع ، شديد الشكيمة في الحق ، قوى النعمة بالنفس ، لا يعرف الموادة في الدين ولا المرونة في الدنيا ؛ فكانت هذه الضلال الكريمة من أنصار معاوية الداهية في الخلاف عليه . ولا نعلم بعد رسول الله فيمن سلف وخلف أفصح من علي في المنطق ، ولا أبيل ريقاً في الخطابة . كان حكماً تنفجر الحكمة من بيانه ، وخطيباً تتدفق البلاغة على لسانه ، وواعظاً ملء السمع والقلب ، ومرسلاً يمد نور الحجة ، ومتكلماً يضع لسانه حيث شاء . وهو بالإجماع أخطب المسلمين وإمام المؤمنين ، وخطبه في الحث على الجهاد ، ورسائله إلى معاوية ، ووصفه الطاووس والخفاش والدنيا ، وعهده للأشتر النخعي إن صح ذلك ، تمد من معجزات لسان العرب ، وبدائع العقل البشري . وما ننظر ذلك قد سهياً له إلا لشدة خلاطه للرسول ومِرَّاته منذ الحداثة على الخطابة له والخطابة في سبيله .

موضوع منه كلامه

كلام أمير المؤمنين يدور على أقطاب ثلاثة . الخطب والأوامر ، والكتب والرسائل ، والحكم والوعظ . وقد جمعها على هذا النسق الشريف الرضي

في كتاب سماه (نهج البلاغة) لأنه كما قال بحق : « يفتح للناظر فيه أبوابها ،
ويقرب عليه طلابها ، فيه حاجة العالم والمتعلم ، و بنية البليغ والزاهد ، ويضوء
في أئمنائه من الكلام في التوحيد والعدل ماهو بلال كل غلة ، وجلاء كل شبهة »
والصحيح أن أكثر ما في هذا الكتاب منحول مدخول .

فن خطبه عليه السلام وقد قام إليه رجل من أصحابه فقال : نهيننا عن
الحكومة تم أمرتنا بها فلم ندر أي الأمرين أرشد . فصفق عليه السلام إحدى
يديه على الأخرى ثم قال : هذا جزاء من ترك العقدة ! أما والله لو أتي حين
أمرتكم بما أمرتكم به هللتكم على المسكروه الذي يحمل الله فيه خيراً ، فإن
استقمتم هديتكم ، وإن اعوججتم قومتكم ، وإن أبيتم تداركتكم ، لكانت
الوقت . ولكن بمن وإلى من ؟ أريد أن أدأوى بكم وأنتم دأى ، كناش الشوكة
بالشوكة وهو يعلم أن ضلما منها . اللهم قد ملت أطباء هذا الداء الدوى ،
وكلت الفرقة بأشطان الركي ! أبين القوم الذين دُعوا إلى الإسلام فقبلوه ،
وقرأوا القرآن فأحكموه ، وهيجوا إلى القتال فولّوا وله القحاح إلى أولادها ،
وسلبوا السيوف أغنادها ، وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً ، وصفاً صفاً ،
بعض هلك ، وبعض نجا ، لا يبشرون بالأحياء ، ولا يبرّون بالموتى . مره
الميون من البكاء ، حُص البطون من الصيام ، ذُبل الشفاء من الداء ، صفر
الألوان من السهر ، على وجوههم غيرة الخاشعين . أولئك إخواني الذاهبون !
فحقّ لنا أن نطلب إليهم وننفض الأيدي على فراقهم .

إن الشيطان يُسئ لكم طرقه ، ويريد أن يحل دينكم عقدة عقدة ،
ويطيقكم بالجماعة الفرقة . فاصدقوا عن رغباته وفشاته ، واقبلوا النصيحة بمن
أهداها إليكم واعتقلوها على أنفسكم .

ومن كلام له عليه السلام :

إلا وإن الخطايا خيل شمسٍ حُل عليها أهلها ، وخُلعت لجهنم فحمت بهم

في النار . وإن التقوى مطايا ذُكِّلَ جُلَّ عليها أهلها ، وأعطوا أزمَّها فأوردتهم الجنة . حقٌّ وباطل ، ولكل أهل ، فلئن أمر الباطل قديماً فعل ، ولئن قلَّ الحقُّ غرباً ولسل ، ولقلِّبنا أدبر شيء فأقبل . سُئِلَ مَنْ الجنة والنار أمامه . سأل سريعٌ نبيا ، وطالبٌ بطيء رجا ، ومقصرٌ في النار هوى ، اليين والشمال مضلة ، والطريق الوسطى هي الجادة ، عليها باقى الكتاب وآثار النبوة ، ومنها منفذ الستة ، وإليها مصير المآبة .

سحبان وائل

التوفى سنة ٨٥٤

شأنه وحياته

نشأ سحبان بن زفر بن إباد في الجاهلية بين قبيلة وائل من ربيعة ، ثم دخل في الإسلام عند ظهوره ، واتصل بمعاوية ، فحسَّنَ موقعه لديه ، واعتمد في يوم الكلام عليه . وكان سحبان خطيباً غمَّرَ البديهة ، قوى المارضة ، متصرفاً في فنون الكلام ، كما بما يتلو عن ظهر قلبه . وبه يضرب المثل في كل ذلك .

قدم على معاوية وفد من خراسان فطلب سحبان فلم يجدوه في منزله ، فاقتضب من حيث كان وأدخل عليه . فقال لمعاوية : تكلم . فقال : أحضروا لى عصا . قالوا وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين ؟ قال : ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه . فضحك معاوية وأمر له بها . فلما جاءته ركلها ولم ترق في نظره ، فجاءوه بمصاه ، وخطب من صلاة الظهر إلى أن حان وقت العصر ما تمنع ولا سمل ولا توقف ولا تلسكاً ولا ابتداء في معنى وخرج منه وقد بقي فيه شيء . فإزالت تلك حاله حتى دهش منه الحاضرون . فأشار إليه معاوية بيده فأشار إليه سحبان : لا تقطع على كلامي فقال معاوية : الصلاة ا قال

هي أمالك انحن في صلته وتحميد ، و وعد ووعد . فقال معاوية ا أنت اخطب
العرب ، قال سبحانه : والمعجم والجن والإنس . وهذه الحادثة تدل على قوته
وجراته وغزارة بصره ، ومعرفة قدره . ولكن للأثر من خطبه قليل في جانب
شهرة . ولعل خلوه من الجاه والرياسة ، وبعدة عن الأحزاب والسياسة ، وطول
خطبه ووحدة موضوعها صرف الرواة عنه . كانت وفاته في خلافة معاوية سنة ٥٥٤ .

تموزج منه فطلب

إن الدنيا دار بلاغ ، والآخرة دار قرار . أيها الناس اغذوا من دار بمرءكم ،
إلى دار مفرمكم ، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تحفى عليه أسراركم ؛ وأخرجوا
من الدنيا قلوبكم ، قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ففيها حياتكم ، وانهيها
خفتكم . إن الرجل إذا هلك ، قال الناس ما ترك ؟ وقالت للانسكة ما قدم ؟
فقلتموا بعضاً يكون لكم ، ولا تغفلوا كلاً يكون عليكم .

زياد بن أبيه

للتوفى سنة ٥٥٣

نشأته وحياته

كان العارث بن كلابة التقى طبيب العرب أمة بنى تدعى سمية ، وصيد
روى يسى عبداً . فزوج العبد من الأمة . فولدت على فراشه زياداً في السنة
الأولى من الهجرة ! وقد ضربت فيه بمرق أشب قنشا أريباً أدبياً . ولم يكد
أمر للسليق يتسع ويتسق حتى دلت عليه كفايته ، فاستكتبه أبو موسى الأشعري
والى البصرة من قبل عمر ، فصلى نبوغه وظهر حذقه . ثم تخلفت به الأمور
في عهد عمر حتى شاء أن يرحله عن عمله « لا غليظة ولا لعجز ، وإنما كره

أن يحمل على الناس فضل عقله » على أن عمر كان يستكفيه للهم من أموره فيستكفيه غير عاجز ولا مقصر . وخطب بين يديه يوماً في حضرة المهاجرين والأنصار خطبة لم يسمعوا مثلها . فقال عمرو بن العاص : لله در هذا الغلام ! لو كان أبوه من قريش لساق العرب بهصاه . وبلغ من إعجاب أبي سفيان به أن اعترف بعد إسلامه لأمية قريش وفيهم على أن زياداً ابنه ، اشتملت عليه أمه منه وهو مشرك ، ولكن خوفه من عمر منعه أن يلحقه بنسبه . ولما تولى الخلافة أمير المؤمنين على وجد في زياد اليد المصروفة ، والرأى الجريح ، واللسان القرب ، واستعمله ، فراض له الأمور ، وسد الثغور ، وأحكم السياسة . وحاول معاوية أن يستميله إليه فأعياه حتى قتل على ، فرأى أن يستخلص مودته باستلحاقه بنسب أبيه وادعائه أخاً له ، فصار يدعى بعد ذلك زياد بن أبي سفيان . ولكن كثيراً من الناس لا يعترف له بهذا النسب ، ثم ولاه معاوية المصريين ، وهو أول من جماله فكان يقيم في البصرة ستة أشهر وفي السكوة مثلها . كانت وفاته بالطاعون سنة ٥٣ هـ .

أخوه ومراهبه

كان زياد من فوى الأحلام الوافرة والأذهان الخاضرة واللسان النقيق . قال فيه الشعبي : ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يسئ إلا زياداً ؛ فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً .

وزياد من أقوى الممد التي قام عليها عرش بني أمية . رعى به معاوية وجوه الفتن فلم تشتت وشدّ السلطان ، واشتد في العقوبة ، فأخذ بالظلمة ، وعاقب على الشبهة ، وقتل المعلن ، واستصلح المسير ، وخافه الناس خوفاً شديداً حتى أمن بعضهم بعضاً ، وحتى كان الشيء يسقط من يد الرجل والمرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه ، ولا يفلق أحد بابه . وهو أول من أعلن الحكم العرفي

في الإسلام بخمائه المروفة بالبزاء^(١) وهي التي خطبها حين قدم البصرة .

مخروج من كلامه : خطبة السراء

أما بعد فإن الجهاد الجهاد ، والصلوة العمياء ، والنبي الموقى بأهله على النار ما فيه سفاؤكم ، ويشتمل عليه حلاؤكم . من الأمور التي يَنْبَتُ فيها الصغير ، ولا يتعاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ، ولم تسموا ما أعد الله من الثواب للكريم لأهل طاعته ، والمذاب الأليم لأهل معصيته ، في الزمن السرمدي الذي لا يزول . إنه ليس منكم إلا من طرفت عينه الدنيا . وسدت مسامحه الشهوات ، واختار الغاية على الباقية ، ولا تذكر أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه ، من ترككم الضميف بغير ، والضميفة المسلوقة بالنهار لا تنصر ، والمدو غير قليل ، والجمع غير مفترق . ألم يكن منكم شاة ينعون الفتوة عن دأج الميل وغارة النهار ؟ قربتم القرابة ، وباعدتم الدين . تتفكرون بغير السدر ، وتفوضون على السكر ، كل امرئ منكم يرد عن سفيبه صنع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو مصاداً ! ما أنتم بالحللاء ، ولقد اتبعت السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرمة الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كنوساً في مكائس الرب ، حرام على الطعام والشراب حتى أسوأها بالأرض هدماً وإحراقاً . إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف . وإنى لأقسم بالله لأخذن الولي بالولي والمقيم بالطاعن ، والمطيع بالعامي ، والصحيح بالسقيم ، حتى ياتي الرجل أخاه فيقول : أنج سداً فقد هلك سعيد ، أو تستقيم فئاتكم . إن كذبة الأمير بقاء مشهورة ، فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم مصيبي ، فإذا سمتموها منى فاعتمزوها في واعلموا أن عندي أمثالها . من نكب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب

(١) سميت كذلك لأنه لم يحمد الله فيها ، والبزاء اللطوعة للشومة .

من ماله فليأى ودأج الابل فإنى لا أوتى بمذبح إلا سفكت دمه . وقد أجلتكم فى ذلك بمقدار ما يأتى الخبير الكوفة ويرجع إليكم . وإيأى ودعوى الجاهلية ، فإنى لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه . وقد أهدمتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة . فمن أغرق قوماً أغرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه . ومن نهب قلباً نهبنا عن قلبه . ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً . فكفوا عن أيديكم . والسفككم أكف عنكم يدي ولسانى . ولا تظهر من أحدكم ريبة بخلاف ما عليه غامتكم إلا ضربت عنقه . وقد كان بينى وبين قوم إحناً فجلت ذلك ذبراً أذى ونمت قدسى . إنى لو علمت أن أحدكم قد قتلته الشل من بغضى لم أكشف له قناعاً ، ولم أهلك له سقراً ، حتى يبدى لى صفحته . فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم . وأهينوا على أنفسكم ، فرب مبتئس بقدمنا سيئس ، ومسرور بقدمنا سيبتئس .

أيها الناس ! إنا قد أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوكم بساطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بىء الله الذى خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحيينا . ولكم علينا العدل فيما ولينا . فاستوجبوا عدلنا وفيتنا بمناسحتكم لنا . وأيم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل منكم أن يكون من مَرَعَاى !

الحجاج بن يوسف

٤١ — ٨٩٥

شأء ومبائر

ولد أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفى سنة ٤١ فى مهاد الحول والقرقر . فزاول مع أبيه تعليم الصبية بالطائف ، إلا أن نفسه الرغبة الطامحة رأت به عن الضعة فلفت إليه بذكائه رَوَّح بن زنباع الجذامى أحد أعوان عبد الملك بن مروان

فجعله في سُرطته . ورأى الخليفة انحلال عسكره فشكا ذلك إلى رَوح بن زنباع فله على الحجاج ، فقلده إمرة الجند فسلكهم في النظام وردم إلى العنابة . ثم اشتهر أمره ونبه ذكره بقيادة الجنود إلى عبدالله بن الزبير ، وقد دعا إلى نفسه بالحجاز ، فحاصره بمكة ثم قتله وأزال ملكه . فتبقت كفايته وسست مكائنه في نفس عبد الملك ، فولاه العراق وهو يضطرب بفتنة الشيعة ، ويضطرم بثورة الخوارج ، فعسفهم عسفاً شديداً أذل أعناقهم ، وطأطأ إشرافهم ، وعاد بهم إلى حظيرة الجماعة يشعروا في أشلائهم ، ويخوض بهم في دمائهم .

وبقى طول حياته بالعراق دعامةً لملك عبد الملك وابنه الوليد يضبطه ويسطه حتى طبق ما بين الشام والصين . ثم مات بواسط سنة ٦٥ هـ .

أفولته ومراجه

كان الحجاج طامحاً إلى السلطان والمجد ، فسلك إليهما سبيل الظلم والقسوة ، وتذرع لئيلهما بالقصاحة والقوة ، ورزقه الله من طلاوة اللسان وقوة الجنان القسط الأفور ، فانتهى أمره إلى السلطان القاهر والملكة النافذة . قال له عبد الملك يوماً : كل امرئ يعرف عيوب نفسه ، فصف نفسك ولا تخف عني شيئاً . فقال : « أنا لجوج حقود حسود . ومتى كانت هذه الصفات في متسلط أهلك الحرب والنسل إلا أن يدين له الناس ويذلوا » وكان فصيحاً قوى الحججة لا يكاد يملده في ذلك أحد من أهل زمانه . قال مالك بن دينار : « ما رأيت أحداً أتينا من الحجاج : أنه كان يُبرق للغير فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه عنهم وإسائتهم إليه حتى لأحسبه صادقاً وأظنهم كاذبين » . مع أنه قتل منهم بالصبر مائة وعشرين ألفاً ، وتوفي وفي سجنونه منهم خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة .

عروج من خطبه

لما قدم الحجاج أميراً على العراق دخل المسجد مُتَمَنِّياً بهامة قد غطى بها
أكثر وجهه ، وصعد للثبر وهو متقلد سيفه مُتَنَكِّب قوسه ، ومكث ساعة لا يتكلم .
فقال الناس بعضهم لبعض : قبيح الله بنى أمية إذ تستعمل مثل هذا على العراق !
وهمَّ عُمَيْرُ بْنُ ضَبَابٍ الْبُرْجِيُّ أَنْ يَرْجِعَهُ ، ففقه الناس حتى يروا عاقبة أمره . فلما
رأى الحجاج عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه ونهض فقال :

أنا ابن جلا وطلائع الثنايا متى أضع العامة تعرفوني
يا أهل الكوفة إني لأرى رؤوساً قد أبيت وحن قطافها ، وإني
لصاحبها ! وكأنني أنظر إلى السماء بين المائم والليحي !

هذا وإن الشد فاشتدَّى زَيْمٌ قد لقها الليلُ بسواقِ حُطَمٍ
ليس براعى إبلٍ ولا غنمٍ ولا يجرار على ظهر وُضَمٍ

قد لقها الليل بمصَلَى أروَعِ خَرَّاجٍ من السَّوَى
مهاجر ليس بأعرابي

قد شَرَّتْ عن سَاقِهَا فَشَدُّوا وَجَدَتْ الحربُ بكم فجَدُّوا
والقوسُ فيها وَرَزَّ عُرْدٌ مثلُ ذِرَاعِ الْبَكْرِ أَوْ أَشَدَّ
لا بدَّ مما ليس منه بُدٌّ !

إني والله يا أهل العراق ما يُقَمِّعُ لي بالشَّانِ ، ولا يُفْضِرُ جانبي كَفْتَمَازِ
الْهَيْتَيْنِ . ولقد فُرِّتُ عن ذَكَاءٍ ، وفَقَّتْ عن تَجْرِيةٍ . وإني أمير المؤمنين
أطال الله بقاءه ، نر كنائنه بين يديه فنجم عيدياتها فوجدني أمرها عوداً

وأصلبها مكسراً فما كم بي لأنكم طلماً أَوْصَعْتُمْ فِي الْفِتْنَةِ ، واضطجعتم في مراقد الضلال .

والله لأحزمنكم حزن السَّكَّةِ ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ؛ فإنكم لسكاهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنتم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . وإني والله ما أقول إلا وفيت ، ولا أم إلا أمضيت ، ولا أخلق إلا فرئت . وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أغطيائكم وأن أوجهكم إلى محاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة . وإني أنسم بالله لا أجدر رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه .



الكتابة

كان أولياء العرب في الصدر الأول كتاباً بالطبع يملون أو يكتبون ما يريدون بأسلوب موجز ولفظ فصيح . فلما امتدّت خلال الخلافة وضاقت موارد الفنى اضطرب ضبط ذلك إلى إنشاء الدواوين فلوّنها عمر . ثم عهد الخلفاء بالكتابة فيها إلى العرب والموالي وللتعريب . وظلت كتابة الخراج في الأقاليم بلغة أهل مصر : ففي العراق وفارس بالفارسية ، وفي الشام بالرومية ، وفي مصر بالقبطية حتى حذقها من العرب طائفة صالحة سدوا حاجة الدواوين ^(١) فعوّلت كلها إلى العربية في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ^(٢) .

ثم نقلت أعباء الدولة على الخلفاء فآخذوا نواميس من كتاب العرب وأدباء الموالى ، وفي هؤلاء من وقف على أنظمة الفرس والروم فوضّعوا للرسائل قيوداً وحدوداً أو شكت أن تصير بها صفاعة .

أما أسلوبها فكان جزل الألفاظ ، نغم القرا كيب ، واقفاً عند الفرض ، خالياً من التطويل والتجسيل والمبالغة ، جارية فيه الضمائر على قانون الوضع ، فلا تستعمل ضمائر الجمع في كلام التكلم وخطاب الواحد . وكانت تُبدأ بالبسملة وقولهم : من فلان إلى فلان ، أما بعد . أو إني أحد إليك الله الذى لا إله إلا هو . ونختم بالسلام أو بقولهم : والسلام على من أتبع الهدى . فلما ولى الخلافة الوليد ابن عبد الملك أمر بتجويد القراطيس ، وتقويم الخطاب ، وألا يكتب عتلى ما تكتاتب به السوق . وجرى العمل على ذلك من بعده ، حتى استخلف

(١) المراد بالدواوين هنا دواوين الخراج لأن دواوين الجند ودواوين الرسائل كانت تكتب بالعربية منذ وضعت .

(٢) نقل دواوين الخراج في العراق صالح بن عبد الرحمن في ولاية الحجاج ، ونقله الشام أبو ثابت سليمان بن سعد كاتب الرسائل في خلافة الوليد بن عبد الملك ، وأما في مصر فأول من وليه ابن يربوع القزاري الحمصي في خلافة الوليد بن عبد الملك أيضاً .

عمر بن عبد العزيز ، ثم يزيد بن عبد الملك ، فعملها الورع ومقت البدعة على الرجوع بالكتابة إلى نهج السلف .

على أن نظام الكون وطبيعة الناس في هذا العهد أرباباً هذا الجود ، فجاء عبد الحميد الكاتب فأسهب في الرسائل ونعقها ورقها وأطال التعميدات في أولها وتبعه في ذلك سائر الكتاب . وجهة القول أن النثر في أربعين سنة خطا في سبيل الكمال بفضل الدين والفتوح خطوة واسعة ، فانتقل من السجعات القصيرة للفككة ، وللماني العامة الجملة ، إلى هذا الأسلوب المحكم الفخر ، للطرد السياق ، المختلف الفرض ، العميق الأثر ، كما ترى في رسائل الإمام علي وخطبه وهو تقدم سريع لم يظفر مثله الشعر .

الكتاب

عبد الحميد بن يحيى

شأنه وعبائه

نشأ أبو غالب عبد الحميد بن يحيى بالشام من سلافة غير عربية ، ونسب إلى بني عامر نسبة ولائية . تحف الكتابة على سالم مولى هشام بن عبد الملك وكان سره ، ثم أخذ يمارس تعليم العصبية محبوب إلى ذلك البلد بعد البلد حتى علم بمكائنه مروان بن محمد فاستكتبه أيام ولايته على أرمينية فكتب له ونفق عندهم : كدت بينهما للودة . فلما جاء الإشير بمباينة أهل الشام لمروان بالخلافة سجد لله شكراً وسجد أصحابه إلا عبد الحميد : فقال له مروان : لم لا تسجد ؟ فقال : ولم أسجد ؟ أعلی أن كنت معنا فطرت عنا ؟ فقال : إذن تطير معي . فقال : الآن طالب السجود . وسجد . فأتخذه مروان كاتب دولته . ولما هاله خفوق الألوية السود ودنو أنبياسهم وتناج القشل قال لعبد الحميد : قد احتجت أن تصير مع

عدوى ، وتظهر الغدر بى ، فإن إعجابهم بأدبك ، وحاجتهم إلى كتابتك ، تموجهم إلى حسن الفن بك . فإن استطعت أن تنفنى فى حياتى ، وإلا لم تمجز عن حفظ حُرُمى بعد مائى . فقال له عبد الحميد : إن الذى أشرت به على أنعم الأُمَين لك وأقبحهما بى وليس عندى إلا الصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك ، وأنشد :

أسيرٌ وفاء ثم أظهر غَدره فن لى بمذر يوسع الناس ظاهره ؟
ومكث معه حتى قتل مروان بمصر ، فلجأ إلى صديقه عبد الله بن القفع البحرى فاجأه الطلب وهو فى بيته . فقال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل منهما : أنا . مخافة على صاحبه . وأوشك الجند أن يقتلوا ابن القفع لولا أن صاح بهم عبد الحميد قائلاً : ترفعوا بنا فإن لكل منا علامات ، فوكلوا بنا بمضكم وليمض البعض الآخر إلى من وجهكم فيذكر له تلك العلامات . ففعلوا وأخذ عبد الحميد يقتل سنة ١٩٢ هـ .

أثره فى الكتابة

كانت الكتابة قبل عبد الحميد حديثاً مكتوباً لا ترجع إلى نظام ولا محور إلى فن ولا تمد فى الصناعات الشريفة . فلما تقلدها كانت الحال داعية والنفوس مهيأة إلى فن من الكتابة جديد ، فإن تشب أطراف الدولة ، وبدؤتمار الحضارة ، وزهو الفتر والخطابة ودنو الرمية من الفارسية وتخرج عبد الحميد على سالم مولى هشام ، وصلته الوثيقة بابن القفع ، كانت سبباً فى ظهور هذا النمط الجديد فى أسلوب عبد الحميد . فقد نوع الخطاب موافقة لحال المخاطب ، وأوجز وأطنب مراعاة لقتضى الحال ، وتفنن فى البدء والختام مطابقة للغرض ، وأطال التعميدات فى صدور الرسائل ، وسار على أثره المترسلون فأصبحت الكتابة صناعة محررة الأصول بميرة الفصول مينة القواعد .

أسلوب

أسلوب عبد الحميد عذب الموردي صافي الديباجة ، يسهى المشاعر ويفعل بالآداب
فعل السحر . وقد عرف الناس له ذلك حتى إن أبا مسلم الخراساني أبى أن يقرأ
الكتاب الذي كتبه إليه عن لسان مروان يستعجله به ويستميله ، ثم أحرقه
إشفاقاً على نفسه من تأثيره ؛ وكتب على جُذْأته منه إلى مروان :
محا السيفُ أقطارَ البلاغةِ واتضحى عليك ليوثُ الغاب من كل جانب

تموضع من شعره

كتب إلى أهله وهو مهزوم مع مروان :

أما بعد ، فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالسكره والسرور ، فمن ساعده
الحظ فيها سكن إليها ، ومن عصته بئسها ذمها ساخطاً عليها ، وشكاهم سزى بدأ
لها ، وقد كانت أذقتنا أطوبى استعطيناها ثم جمعت بنا غافرة ، ورعجتنا مولية ،
فملح عذبها ، وخشن لينها ، فأبعدتنا عن الأوطان ، وفرقتنا عن الإخوان ،
فالدار نازحة ، والطير بارحة . وقد كتبت والأيام تزيد نامنكم بدءاً ، وإليكم وجداً ؛
فإن تم الهبة إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا . وإن بلعنا ظفر جارخ
من أظفار عدونا ترجع إليكم بذل الإسار ، والقل شر جار . نسأل الله تعالى الذي
يمز من يشاء ويذل من يشاء ، أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة ، في دار آمنة ،
تجمع سلامة الأبدان والأديان ، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين .

وقال من وصيته للكتاب ، وفيها دلالة على أن الكتابة صارت صناعة ،
وأن الكتاب أصبحوا جماعة .

..... وإياكم والكبر والشغف والعظمة ، فإنها عداوة مجتلية من غير
إحقة ، وتماثوا في الله عز وجل في صناعتكم وتواصوا عليها بالتي هي أليق لأهل

الفضل والعدل والنبل من سلفكم . وإن نجا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه
وواسوه حتى يرجع إليه حاله ، ويشوب إليه أمره . وإن أقعد أحدكم منكم الكُبر
عن مكسبه ولقاء إخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل نجرته
وقديم معرفته .

وكتب في التوصية بشخص : حق موصل كتابي عليك كفه على ، إذ
جعلك موضعاً لأمله ، ورآني أهلاً لحاجته . وقد أنجزت حاجته ، فصدق أمه .

نماذج من النثر

الحكم

من حكم أبي بكر رضي الله عنه قوله :

صنائع المعروف تقي مصارع السوء . الموت أهون مما بدمه وأشد مما قبله .
ثلاث من كنّ فيه كنّ عليه : البنى والنكث والمكر .

ولم يرض الله عنه : من كتم سره كان الخياط في يده . مُرَدُّ ذِي الْقِرَابَاتِ
أَنْ يَنْزَاوِرُوا وَلَا يَتَجَاوِرُوا . أشكوا إلى الله ضعف الأمن وخيانة القوى .
وقال على كرم الله وجهه : رأى الشيخ خير من جلد الغلام . الناس أعداء
ما جهلوا . قيمة كل امرئ ما يحسن .

الخطب

خطب الرسول صلى الله عليه وسلم ذات يوم فحمد الله بما هو أهله ثم أقبل
على الناس فقال :

أيها الناس ! إن لكم معالم فأنهوا إلى معالمكم . وإن لكم نهاية فأنهتوا
إلى نهايتكم ؛ فإن العبد بين مخافتين : أجل قدمضي فلا يدري ما الله فاعل به ،

وأجل باق لا يدري ما لله قاض فيه . فليأخذ العبدُ من نفسه لنفسه ، ومن دينه لآخرته ، ومن الشيعة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل المات . فوالقئ نفسُ محمد بيده ، ما بعد الموت من مستعقب ، ولا بعد الدنيا من دار ، إلا الجنة والبار . وقام أبو بكر يوم السقيفة وقد اختلف المهاجرون والأنصار في أمر خلافة محمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس ! نحن للمهاجرين أول الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم داراً وأحسنهم وجوهاً ، وأكثرهم ولادة في العرب . وأمشهم رحماً رسول الله صلى الله عليه وسلم . أسلمنا قبلكم وقُدُّمنا في القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى : (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ) فنعن للمهاجرين وأنتم الأنصار ، إخواننا في الدين وشركاؤنا في الفء ، وأنصارنا على العدو . آوَيْتُمْ وواسيتم فجزاكم الله خيراً ، فنعن الأمراء وأنتم الوزراء . لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش . فلا تنفَسُوا على إخوانكم للمهاجرين ما منعهم الله من فضله .

وصعد معاوية منبر المدينة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

يا أهل المدينة ! إنى لا أحب أن تكونوا خلقاً كخلق العراق : يَمَيِّبونَ للشئ . وم فيه . كل أمرىء منهم شيمة نفسه . فاقبلونا بما فينا . فإن ما وراءنا شرٌّ لكم ، وإن معروف زماننا هذا فمكرٌ زمان مضى ، ومفكرٌ زماننا معروف زمان لم يأت . ولو قد أتى فالرَّتُّ خَيْرٌ من الفتق ، وفي كلِّ بلاغ ، ولا مقام على الرزية .

وخطب الحجاج أهل العراق بددير المجاجم قال :

يا أهل العراق ! إن الشيطان قد استبطنكم فغالط اللحم والدم والمصعب عوالساع والأطراف والشاف ، ثم مضى إلى الأبخاخ والأصباح ، ثم ارتفع

فمَشَّشَ ، ثم باض وفرخ ، غشاكم نفاقاً وشقاقاً . وقد اتخذتموه دليلاً تنبؤونه ،
وقائداً تعليمونه ، ومؤمراً تستشيرونه . فكيف تنفعكم تجربة ، أو تنظكم وقمة ،
أو يحجزكم لإسلام ، أو يردكم إيمان ؟ أليس أمحاي بالأهواز ، حيث رُمتم المكر
وسميتم بالنذر ، وظننتم أن الله يخلد دينه وخلافته ، وأنا أرميكم بطرقى وأنتم
تتسللون ليّواذا ، وتهزمون سراصاً . ويوم الزاوية ! وما يوم الزاوية ! بها كان
فشلكم وتنازعكم وبراءة الله منكم ونكوص وليه عنكم ، إذ وليتم كالإبل
الشوارد إلى أوطانها ، النوازع إلى أعطانها ، لا يسأل المرء منكم عن أخيه ،
ولا يلوى الشيخ على بنيه ، حتى عضكم السلاح ، وقصمتكم الرماح ! ويوم دير
الجانج ! وما دير الجانج ؟ بها كانت المعارك والملاحم ، بضرب يزيل الهام عن
مقبله ، ويذهل الخليل عن خليله . يا أهل العراق ! أهل الكفريات والفدرات ،
والثورة بعد الثورات ! إن أبشركم إلى ثغوركم عظيم وخنتكم ، وإن أمنتم أرجفتكم ،
وإن خفتكم ناقضتم ، لا تذكرون خشية ، ولا تشكرون نعمة . هل استخفكم
ناكث واستفواكم غار واستنصركم ظالم واستمضدكم خالغ إلا وتقموه وآوتيموه
ونصرتموه ورضيتموه ؟ هل شغب شاغب أو نعب ناعب إلا كفتكم أشياءه .
وأنصاره ؟ ألم تنهكم المواعظ ؟ ألم تزعجكم الوقائع ؟

ثم التفت إلى أهل الشام فقال : يا أهل الشام ! إنا أنالكم كالظلم الذاب
عن فراخه ، ينقى عنها الدّر ؛ ويبعد عنها الحجر ، ويكنها من لاطر . يا أهل
الشام أنتم الجلبة والرداء ، وأنتم العدة والنطاء !

الرسائل

كتب أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى أمير المؤمنين عمر
ابن الخطاب ينصحانه .

من أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب ، سلام عليكم .

فإننا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فإننا ههناك وأمر نفسك لك
مهم ، فأصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة أحرها وأسودها ، مجلس بين يديك
الصديق والمدو ، والشريف والوضيع ، ولكل حصة من العدل فانظر كيف
أنت يا عمر عند ذلك . وإننا نحدرك يوماً تمنو فيه الوجوه وتحبُّ له القلوب ،
وتنقطع فيه الحبج ، بحجة ملك قهرهم بجبروته والخلق داخرون له ، يرجون
رحمته ويخافون عقابه . وإننا كنا نتحدث أن أمر هذه الأمة يرجع في آخر زمانها
أن يكون أخوانُ العلانية أعداء السريرة . وإننا نموذ بالله أن نزل كتابنا
سوى للنزل الذي نزل من قلوبنا ، فإننا إنما كتبنا إليك نصيحة لك والسلام .

وكتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى بعض إخوانه يماثبه:
أما بعد فقد عاقني الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك . وذلك أنك
ابتدأتني بلطف من غير خبرة ، ثم أعقبني جفاء من غير جريرة ، فأطمعني
أولئك في إخفائك ، وأياسني آخرئك من وفائك . فلا أنا في اليوم بجمع لك
الطراحاً ، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة . فسبحان من لو شاء كشف
بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة الشك فيك فأجدهمنا على اختلاف ، أو افترقنا
على اختلاف ، والسلام :

الوصايا

أوصى علي بن أبي طالب ولده الحسن قال :

أحفظ عني أربعاً وأربماً لا يضرك ما عملت معهن : أغنى النوى العقل ،
وأكبر الفقر الحق ، وأوحش الوحشة العُجب ، وأكرم الحسب حسن الخلق .
يا بني ! إياك ومصادقة الأحمق ، فإنه يريد أن يفتك فيضرك : وإياك ومصادقة
البخيل ، فإنه يبعد عنك أحوج ما تكون إليه . وإياك ومصادقة الفاجر ، فإنه

يبعدك بالثأف . وإيذك ومصادقة الكذاب ، فإنه كالسراب يقرب عليك الهيمد ،
ويبعد عنك القريب .

وأوصى قيس بن عامر النخعي بنيه عند احتضاره قال :

يا بني " احفظوا عني ثلاثاً ، فلا أحد انصح لكم مني : إذا أنامت فسوّدوا
كباركم ، ولا تسوّدوا صغاركم ، فيحقّر الناس كباركم وهوّنوا عليهم .
وعليكم بحفظ لئال ، فإنه منبهة للكريم ، ويستغنى به عن اللئيم ، وإياكم
والمأفة فإنها أخس كسب الرجل .

الحزن ونشوء العامة

كان من أثر الأسواق والحج وزعامة قريش أن توحّدت في الجاهلية لئلا
الحرب ، وتمثلت لمجآتها في لغة قريش ؛ فلم يبق إلا بعض اللحن على أطراف
المنطق . فلما جاء الإسلام ، ونزل بها القرآن ، وكان من بينها النبي الكريم
والقائمون بالأمر بعده ، تمت لها العلبة . فخفضت لها الألسنة ، وهويت إليها
الأفتدة ، وأصبحت نسان النبوة والملك ، ولغة الحضارة والعلم ، في أقطار المسلمين
كافة . ونا كان الإسلام انقلاباً عظيماً له تأثيره في الأخلاق والعباد ، وتغييره
في السياسة والاجتماع ، لم يكن لغة بذ من الخسوع له والتأثر به ، فاستمدت مادتها
ونشئت أغراضها بالتعبير عن عقائد الدين ، وأنظمة الملك ، ومقتضيات الحضارة ،
ومصطلحات العلوم . ونهذبت ألفاظها وورقت أساليبها عما أثر في طباع القوم من
بلاغة القرآن وبشاشة الإسلام ، وجمال المدنية ، وتنوع الناظر الحضارية ^(١) .

نم كان من أثر الإسلام في حياة العرب أيضاً أن عفا المصيبة ، وأزال

(١) حضارتين الفارسية والرومية السهم الأوفرل تهذيب اللغة وإصلاحها أيام الأمويين ،
فقد اتخذ للعلوم نساءد المرير وستور الديباج وزادته جاليتهم ومراقهم فزادت معها
الأنفاظ ، وورقت حواشيتها برفقة المبتعة وورقة مبتها .

الفوارق الاجتماعية وغير مقاييس السيادة فجعلها بالقوى والمبادء ، وجمع شتات القبائل على عقيدة واحدة ، وضم نشرهم تحت راية جامعة . ثم خرج بهم من شبه الجزيرة إلى جهاد الشرك بالقرآن والسيف ، فأوطأهم ديار كسرى وقيصر ، وأوغل بهم في الأرض نصراً وفتحاً حتى ركزوا أعلامهم في أقصى الشرق وأدنى الغرب . ومنذ يومئذ لم تعد العربية لغة إقليم واحد ولا لسان شعب واحد ، وإنما انحدرت مع الإسلام من بوادي الحجاز ونجد إلى حواضر البصرة والكوفة ودمشق وبغداد وقرطبة ومصر . واستفاضت على ألسنة المسلمين^(١) أحرم وأسودم ، ولتيرين أدنام وأبدم ، وليس في مقدور هؤلاء بطبيعة الخلق أن يعطوا بها كآلهما ، فارتضوا أنواعاً من الالفة ، وأحدثوا أوضاعاً من الخلط ، علفت بألسنة المتصنفين من العرب والفاشئين منهم بين اللوالب . ولذلك ظهر الالحن في الحواضر والمدن دون البادية ، فقد بقيت الالفة على خلوصها فيها حتى آخر القرن الرابع : بليت أعراض هذا البناء منذ زمن الرسول (ص) ثم أخذ يستفحل كلما توفرت أسبابه حتى فشا في الدولة الأموية فتشوا تداول الخلفاء والخاصة . وخيف منه على القرآن فوضعوا له النحر والشكل والإعجام والنقط . على أن كل ذلك لم يصمم الالفة ولم يصد عنها عادية الالحن ، فأمن العامة في التمهيف والتعريف حتى جعلوا الالفة لفتين : لغة الكتابة ولغة المحادثة كما هي الآن .

النحو

يروى للزورخون أن أبا الأسود الدؤلي للتوفى سنة ٦٨ هو واضع مبادئ النحو ،

(١) قال ابن خلدون : « ولا مبر الذين الفئات الأماجية وكان لسان الفاعين بالهوية الإسلامية مريباً مجرت كلها في جميع ممالكها ؛ لأن الناس تبع للسلطان وعلى دينه . فصار استعمال لسان البري من شعار الإسلام وطلاقة العرب . وعجز الأمم لغاتهم وألسنتهم في جميع الأمطار ولذلك صار لسان البري لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم وصارت الألسنة الأماجية دخيلة فيها وغريبة » .

وأن السبب الذي حدها إلى التفكير فيه هو نشوء اللحن وهجوم المجهة. وذكروا في ذلك أنه دخل يوماً على زياد بن أبيه وهو والي الرافدين ، قال له : « أصلح الله الأمير ! إنى أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم ففسدت ألسنتهم . أفتأذنلى أن أضع لهم ما يقيمون به كلامهم ؟ فأبى عليه ذلك زياد ثم عاد فأمره بما نهاه عنه ، لأنه سمع اللحن بأذنه من رجل دخل عليه يقول : « أصلح الله الأمير . توفى أبانا وترك بنون . . » فوضع أبو الأسود باب التعجب ثم باب الفاعل والمفعول ، وأخذ كلما سمع لحنه وضع القاعدة التي تصلحها . ثم تداوله منه أديان البصرة والسكوفة فحكوه وفصلوه كما سذك ذلك بعد . والثالب فى خلفنا أن أبا الأسود لم يضع النحر والنقط من ذات نفسه وإنشائه ، وإنما يرجع أنه لم بالسريانية (وقد وضع نحوها قبل نحو المربية) أو اتصل بقاصتها وأحبارها فساعدته ذلك على وضع ما وضع . وعلى أية حال فإن أولية النحر لا تزال مجهولة .

العلم فى العصر الأموى

لم تكن نفوس العرب مهتأة بعد إلى العلم ، ولا عقولهم ناضجة للبحث فيه ؛ وإنما توزعتهم عواطف الدين وشواغل الفتح ونوازع الأدب ، فاكثفوا منه بالضرورى الموروث كالتطب والنجوم حتى إذا هالهم اللحن ودهمتهم المجهة ، وتشعبت عليهم الأقضية ، وضمو النحر لضبط القرآن ، وللتفسير لحل مشكله ، والنقح لاستنباط الأحكام منه ، ودونوا الحديث خوفاً من ضياعه أو افتهله .

واقضت حكمة معاوية وحكمة خلفائه أن يستعينوا فى تأييد ملكهم وتثبيت حكمهم بتجارب الماضين وأخبارهم^(١) ، فألف عبيد بن شربة كتاب

(١) ذكر السعوى أن معاوية كان يجلس لأصحاب الأخبار فى كل ليلة من المساء إلى ثلث الليل ، فقصون عليه أخبار الصبح والغرب وسياستهم فى رمايلهم وسكانتهم فى حروبهم ثم ينام ثلث الليل ويقوم فتأنيه غلمان مرتبون وعندهم كتب قد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فيقرأون عليه ما بها من سير الملوك وأخبار الحروب وأنواع السياسات .

الملوك وأخبار الماضين لمعاوية ، وربما كتب غيره ، ولكن شيئاً من ذلك لم يأتنا علمه . أما ترجمة العلوم الأجنبية فلم تكن أحدًا في هذا العصر ، اللهم إلا خالد ابن يزيد حفيد معاوية ، فقد قيل إنه انصرف إلى العلم بعد فشله في الملك ، واستقدم جماعة من مدرسة الإسكندرية علوه الكيمياء وترجموا له شيئاً منها . وجملة القول في هذا العصر أن كان فيه نُضج الآداب الجاهلية ، ونشوء العلوم الإسلامية ، وبداية النقل من العلوم الأجنبية .

الخط بعد الإسلام

جاء الإسلام وما يكتب من العرب غير بضعة عشر رجلاً من قريش وبعض أهل المدينة وتجار اليهود . فلما كتب الله النصر للمسلمين على قريش في يوم بدر . وأخذَ بعض كتابهم أسرى ، قبل الرسول صلى الله عليه وسلم من هؤلاء أن يفتدى كل منهم نفسه بتعليم عشرة من أطفال المسلمين الكتابة ، فكثروا الكتابين من أهل المدينة وشاعت الكتابة بعد ذلك في العرب إطاعةً لأمر الرسول ، ورغبة في كتابة القرآن ، وطمأن في دخول الدواوين ، وانتشرت معهم في الأقطار المفتوحة .

وكان الخط في أول أمره خالياً من الإعجام والشكل ، حتى فشا الفحن وخيف منه على القرآن ، فضبط أبو الأسود الدؤلي في زمان معاوية أو آخر الكلم في المصاحف بالنقط ، فجعل علامة الفتحة نقطة من فوق الحرف ، وعلامة الكسرة نقطة من أسفل ، وعلامة الضمة نقطة بين يديه ، واستعمل الناس هذه النقط وكتبوها بعدد مخالف . فلما تنايرت أشكال الخط ، وتشابهت أوضاع الحروف ، قالتبت الجيم^(١) بالحاء ، والدال بالذال ، والسين بالشين ، أمر الحجاج نصر بن

(١) من أشكل ذلك أن يجوزاً جاءت الفرزدق وقالت له : إن استجرت بقر أبيك . فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : إن عمير بن زيد خرج بائناً ولا قره لبيرو ولا كاسب على سواء .

عاصم ويعجب بن يعمر تلميذى أبى الأسود فوضا الإعجام بالمداد الذى تكتب به الكلمة تميزاً للعرف بمضها من بعض . ثم جاء بمد ذلك الخليل بن أحمد فوضع الشكل على هذا الخط المعروف ، خل عمل قط أبى الأسود ^(١) .

وفى العصر العباسى ناله ما نال كل شىء فيه من النمو والتقدم . فقد تنافس الكتّاب فى تجويده ، وتقلدوا فى تنويعه ، وخالفوا بين أوضاعه فى بغداد وأوضاعه فى الكوفة ، باختراع الأقلام المختلفة كالقلم المرصع ، وقلم الذساح ، والقلم الراسى (نسبة إلى مخترعه ذى الراسين الفضل بن سهل) . ثم تعددت تلك الأقلام وتنوعت حتى نيفت أشكال الكوفى على عشرين شكلاً . أما الخط النسخى فقد كان مستملاً بين الناس فى غير الكتابة الرسمية حتى جاء أبو على محمد بن مقله المتوفى سنة ٣٢٨ فوجد هذا الخط ونمقه حتى تميز من أصله بالحسن والجمودة ، واستعمل فى كتابة المصاحف وأدخل فى الدواوين ، وجاء بعده على بن هلال المتوفى سنة ٤١٣ فزاد فى تزيينه وتحسينه حتى حل محل الكوفى . ثم تنوع الخط النسخى إلى عدة أقلام (كالطومار) وعرض قطعه أربع وعشرون

== فقال . وما اسم ابنك ؟ قالت : خنيس . فكتب إلى تميم :

تميم بن زيد لا تكونن حاجي يظهر فلا يما على جوابها

وهب لى خنيسا واحلب فيه منة ليرة أم لا يسوغ شرابها

فلك تميم فى اسم الرجل (خنيس) واستقرى أسماء رجاله فوجد ستة أسماءم بين خنيس

وخنيس وحبيش الخ فوجههم إليه .

(١) انصرفت الأم السامية فى خطوطها على رسم الحروف الساكنة دون الصوتية ، فلا يكتبون (نصر) (فارسا) كما يفعل اليونان والرومان والأمم الآرية الآن ، ودلوا فى مؤتلف الزمن على الأحرف المحذوفة من الكلمة ينقط فوق الحرف أو تحته على نحو ما فعل أبو الأسود فى الخط العربى . ولكن الخليل بن أحمد إن صح أنه واضع الشكل للحروف لم يستعمل النقط فى الدلالة على الحركات . وإنما استعمل الحروف الصوتية المحذوفة وعلى الألف والواو والياء . فاختصر من الألف الفتحة ، ومن الواو الضمة ، ومن الياء الكسرة . والحركات كما قال الإمام الرازى أياضاً للصوتيات . أما اللامات الأخرى كاللدة والوصلة والشمسة فقد وضعت فى العصر العباسى بعد زمن الخليل وهى رموز كانت تؤدى مسايتها ، فاللدة () من (مد) ، والوصلة (ـ) من (سل) ، والفتحة (ـ) من (شد) .

شعرة من شعر اليرزون . أو ثلاثة ملايين (والثلاثين) وعرضه ملايين (والنصف) وقياسه مليون ونصف (والثلاث) وعرضه مليون واحد . ثم تدرج الأقلام في الدقة ، فيجىء خفيف الثلث ، فالقوْلُو ، فالتوقيع ، فالرّاع ، فالمنقح ، فالنبار ، وهو أدقها ، وبه كانت تكتب بطائق الحمام المزاجل ونحوها ، ولا يزال الخط العربى يتنوع ويتفرع خضوعاً لنظم الطبيعة فى النشوء والرق . وكثير من الأمم التى استضأت بنور الإسلام واستمرت بلمنته يكتب به ، كالفارسية والأفغانية والأردية واللغات الأفريقية .

على أن اقتصر العرب فى خطهم على رسم الحروف الساكنة دون الصوتية قد أوقع القارىء فى لبس شديد ، فإن الكتاب قد برموا بالشكل وضاقوا به فتركوه فأصبح القارىء إذا رأى أمامه لفظ (علم) مكتوبة مثلاً لا يدرك كيف يقرأه إلا إذا فهم المقصود منه فى سياق الكلام . فهو يقرأ : عِلْمٌ أو عِلْمٌ أو عِلْمٌ أو عِلْمٌ أو عِلْمٌ . ولذلك يدعو كثير من المصلحين اليوم إلى إصلاح الخط العربى ، حتى غلبا بمضمم فدعا إلى اتخاذ الحروف اللاتينية كما فعلت تركيا بعد سقوط الخلافة . وقد رصد مجمع اللغة العربية بالقاهرة جائزة قدرها ألف جنيه لمن يبتكر طريقة لخط العربى تكمل نقصه وترفع قصوره . فجاءته من أكثر البلدان الشرقية والغربية طرق شتى نيفت على الألف ، ولكنها لم تصب الفرض الذى نصبه المجمع ، فألف فى عام ١٩٥٩ لجنة من بعض أعضائه ومن ذوى الاختصاص بوزارة التربية والتعليم فى الجمهورية العربية المتحدة قلبت الأمر على جميع وجوهه ثم اتفقت على بقاء الخط كما هو وأوصت باتباع الشكل كاملاً فى كتب التعليم الابتدائى ثم يقل بالتدرج فى الراحل المتأخرة حتى يقتصر منه على شكل ما يشكل من الكلمات ، وبأبوابها أخذ المجمع .

الباب الثالث

العصر العباسي^(١)

خطره وأثره ومميزاته

عصر الدولة العباسية هو عصر الإسلام الذهبي الذي بلغ فيه المسلمون من العمران والسلطان ما لم يبلغوه من قبل ولا من بعد. أثمرت فيه الفنون الإسلامية، وزدهت الآداب العربية، وتطورت العلوم الأجنبية، ونضج العقل العربي فوجد سبيلاً إلى البحث ومجالاً للتفكير. وملوك هذه الدولة يُنَوَّنَ، إلى العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم، انزعوا الخلافة قسراً من يد الأمويين بمؤنة الفرس، وأقاموا عرشها بالمرق، وتبوا منهم سبعة وثلاثون خليفة في خمسة قرون وبعض القرن، حتى ثلّ ذلك المرشح هلاكاً سنة ست وخمسين وسبائة، وما زالت حضارة الدولة وأدبها تهبط بهبوطها، حتى سقطت بقوتها.

وتختلف هذه الدولة عن الدولة الأموية بأحوال سياسية وعمرانية كان لها الأثرُ الظاهر في أدب القنة : فالدولة الأموية كانت عربية خالصة، تمصبت للعرب ولقوتهم وأدابهم، وجعلت قاعدتها دمشق على حدود بلادهم. ولكن جلودها وقوادها وكتابها وسائر عمالها من العرب، فلم يحدث في أدب القنة تأثير إلا ما اقتضاه التعرض واتساع العمران.

(١) ينسب هذا العصر إلى العباسيين على وجه من التليب اقوة أكرم فيه وبينهم فردهم منه؛ ولكن الكلام فيه يتناول العباسيين في بغداد، واليوهيين في فارس، والحمدانيين في الشام، والفاطميين في مصر وللقرب. والأمويين في الأندلس.

إلا أن هذه الأصناف على نياتها وتنايتها إنما كانت تأتم بهدي بغداد وتستمد منها فليس لها في التألب أدب مستقل، وذلك لا نذكرها إلا لئلا.

أما الدولة العباسية فقد اصطبلت بصيغة فارسية ، لأن الفرس هم الذين أوجدوها^(١) وأيدها ، فأخذت قصبتها بغداد أقرب الأمصار إلى بلادهم ، وأطلق الخلفاء أيدي الولاى فى حياسة الدولة فاستقلوا بشؤونها ، واستبدوا بأمرها ، وكالوا العرب من الحقارة والممانه صاعا بصاع . فضعت المصيبة العربية ، وعلا صوت الشعوبية ، ونتج من ذلك دخول العناصر الفارسية والتركية والسريانية والرومية والبربرية فى تكوين الدولة ، وبمازجهم بالزواج والتناسل ، واختلاط المدنية الآرية بالمدنية السامية ، ولكل منهما لغة وأخلاق وعادات واعتقادات أثرت فى الأخرى . ناهيك بما امتازت به هذه الدولة من إطلاق الحرية فى الدين ، وتعدد الفرق^(٢) وشيوع المقالات المختلفة فى الإلحاد والسياسة ، وتكاثر الجوارى والعلمان ، والاسترسال فى الخلاعة والمجون ، والتأنق فى الطعام واللباس ، والتنافس فى البناء والرياش . وكل ذلك له أثرين فى الأمة وآدابها سنعلمه فيما يلى من هذه السطور .

(١) كانت موقعة الزاب بين الفرسانيين و مروان بن محمد ردا غير حاسم على موقعة القادسية بين العرب والفرس ، فإن بنى ساسان الذين طأطأ الفتح من إشرافهم ، وخطم الأمويون بأقل أنوف إشرافهم ، لم يستطيعوا أن يرضوا الأمور لهم ، ولا أن يبدوا السلطان فيهم ؛ لأن العرب طبعهم بجاهلين الذين لا يزولان أبد الدهر . دحا الدين والأمة ، فوقفوا من الأمر عند التأمر من عصية الأمويين ، ونقل للامم منهم إلى السياسيين ، وأخذوا يمركون أيدي الخلفاء بما يريدون وبنو عباس يعرفون لهم تلك اليد ، ويحتلون منهم هذه الحالة ، حتى خشي طغيانهم أن يوجعوا الناس دور شككته يقتل أنى مسلم . ثم ما لبث أن عاد هذا الطغيان فاستدوا واشتد في عهد الرشيد فاستأمله يقتل البرامكة . ولكنه انتهى ثانية بالخلاف بين الأخوين الأمين والمأمون وما استتبع من الحرب بين الصنميين العربى والفارسى ، حتى بلغ قلمه فى عهد بنى بويه . فلم يخضد شوكتهم وظل هباء لا يذو سلجوق من الترك . على أن نفوذهم الأدبى والفيلسوفى كان أوسع وأعمق من أن يكسر منه هذا الفشل السياسى ، فظهر أثره فى اللغة والأدب والفقه والفلسفة والأخلاق وكان من هذا الأمر أولا ، ومن أثر العناصر الأخرى ثانيا ، هذه المضارة السياسية والادبية الإسلامية التى لازمت الطيب من القثيث .

(٢) نجت فى الأمة الإسلامية من غير أهل السنة فرق كثيرة يكسفر بعضها بعضا وانتميت كل فرقة إلى فرق متعددة ترى كل واحدة منها الحق معها دون الأخرى . ومن أشهر هذه الفرق المعتزلة ومعتزون فرقة ، والشيعة ومعتزلة ومعتزون ، والخواارج وهم سبع فرق وكل أولئك منهم جبرية ومنهم مشبهة ، ولكل شعبة لقب تعرف به .

الفصل الأول

اللفظ وأثر الفتح والسياسة والحضارة فيها

فتح العرب في أواخر الدولة الأموية أكثر المعروف حينئذ من الدنيا القديمة ، فامتد ملكهم من الهند والصين شرقاً ، إلى جبال بيرانس غرباً ، وأبسط سلطانهم على تلك الشعوب ، واستولى دينهم على الأقدسة ، وانضم على الألسنة ، فحبرت هذه الأمم المختلفة ، وامتزجت تلك العناصر المتباينة . وصاروا إلى تعلم اللغة والتكلم بها تقريباً من الفاتح ، واستدراراً للرزق ، وفتحها في الدين ، فسكنوا اللحن وسرت عدواؤه إلى الهادية وقد كان قاصراً على الحضارة . وبقى داء العجمة يستفصل بين العامة والصناع بالرغم من محاربة الأئمة وأولى الأمر لهذا الوفاء بعلوم السان وتبجيل العامية ومقت للتكلمين بها ، حتى نشأ في كل إقليم لغة عامية مؤلفة من العربية ومن لغة الإقليم الوطنية .

وقد اتسعت دائرة اللغة بما اقتضاه تمدن الدولة وغل العلوم عن الفارسية والمهندية واليونانية من المصطلحات العلمية والألفاظ الإدارية والسياسية^(١)

(١) لقد كثرت تلك الألفاظ للوضوح وللتبسيط حتى اضطرروا إلى أن يشعروا لها ببدن منجيات خاصة بها ككتاب التريفات للجرجاني (٨١٦ هـ) وكشاف اصطلاحات الفنون والعلوم الحديثة . فن الألفاظ للوضوح لرجوان المراجع مثلاً (المعصرى) للديارث ألقى لا وارت له (والاصطلاح) للآخض التي يطبقها السامان رجالاً فتصير له رقتها ، (والطبعة) ضجة تدفع إلى رجل مدى حياته فيسرها ويؤدى هديرها ، (والتركة) ما يترك الرجل من خراج سنة . ومن الألفاظ المنقولة : السكوز والحارة والإبريق والعمدة والموران والبطيخ والفز والعيابح والبالوت والعميروز والور والككوك والفالودج والمقلول ولزجيل والتربس والندرين وللك والنبر والبيطار والقرمز والحوز والفوز والولاب والطيلسان والفرسخ الخ من الفارسية ، والقبوس والرزفون والصلطكي والقيراط والأنبيق والصابون والميول والنفذة ولغة تاجيك والإقليم والقانون من اليونانية .

والاقتصادية وللنزلية . وكان لدار الحكمة التي أنشأها للأمن الفضل الأكبر في تهذيب الكتب المترجمة وتوحيد الأسماء للعربية . ثم رقت الألفاظ لانتفاش القوم في الحضارة ، وإخلاصهم إلى الترف ، وإيثار اللوالب للكلم السهل والأسلوب البين لأنهم حذفوا اللغة بالدراسة والصنعة ، لا بالتقنين والطبع .

واقتبست العربية من الفارسية غير الألفاظ كثيراً من الأساليب ، كالتهجيل في الخطاب ، والاحتشام مع المخاطب ، وإسناد الشيء إلى الحضرة والجنان والمجلس ، وإحداث الألقاب والسموت للخلفاء والوزراء والكتاتب والقواد ، كلسفاح والمصور والرشد وذو الرياستين وركن الدولة الخ ، والإسماب في العمود والرسائل ، وتأدية للمنى الواحد بألفاظ كثيرة وجمل مترادفة ، وغير ذلك مما زان اللغة من جهة وشأنها من جهة أخرى .

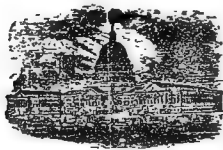
وما زالت اللغة تتسع وتنمو باتساع الملك وتقدم العلوم والحضارة ، وتنتشر وتسوفى حتى المدين وغل الخلافة وسلطان العرب ، حتى خلافة التتوكل على الله سنة ٥٣٣ هـ إذ استعمل أمر الأتراك الذين جلبهم المتصم من التركستان فأخذوا ينالون العرب ، وروائبون القوس ، وينتصبون السلطان . وكان الأمر الموالى بعد غلبة للأمن وهم شيمة فجاء للتوكل فعضد الأتراك ونصر السنة . فقاتل المتصران ، وتناضل المذهبان ، واجتنب كل منهما القتال والفوز بظهر العرب وكنت الخلفاء ، حتى ذهب جلال الخلافة من النفوس ، وزالت هيبتها من القلوب ، فاستشرف ولادة الأطراف إلى الاستقلال ، وبدأ بنو بويه ^(١) فوضوا أيديهم سنة ٣٣٤ هـ على شؤون الدولة في بغداد . وامتد نفوذهم إلى جل الممالك الشرقية

(١) بنو بويه ثلاثة إخوة أمجهم سياد ، خلفتهم السعفة وخلفتهم السيادة ، انتظروا في المناسب ، وتدرجوا في الحكم ، حتى انقسموا بينهم ملكة الرافدين العيسى والعربى ، وفارس والجزيرة ، فكان عماد الدولة أبو الحسن على ، وهو أكبرهم ، صاحب فارس ، وركن الدولة أبو على الحسن وهو أوسطهم ، صاحب عراق النجف . ومنز الدولة أبو الحسن أحمد ، وهو أصغرهم ، ملك العراق والأمواز وصاحب الأمر وأنهى في بغداد . وقد دام للحك فنيهم وبنوهم من سنة ٣٢٣ إلى سنة ٤٨٨ هـ .

الإسلامية ، فأخذ سلطان العرب والعربية يتراجع في الشرق ، وهبَّ أحفاد الأكَاسرة وأبناء المهقاهين يستردون مجد أجدادهم ، ويطاردون القنّة ونفوذها من بلادهم . وطلبوا إلى شعرائهم من أمثال الحقيق والقردوس أن يمددوا مفاخر الأسلاف بتأليف المنظومات القصصية والأناشيد القومية . ومن المعجب أن تم لهم ذلك سريعاً ، فإن المتنبى ، وهو من رجال القرن الرابع يقول وقد زار شعب يوان من بلاد الفرس :

مفاني الشَّعب طيّباً في المناني بمنزلة الربيع من الزمان
ولكنّ القتي العربيّ فيها غريبُ الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو صار فيها سليمان لسار بترجانات

ثم اقتدى بالفرس في ذلك الأتراك والأكراد . ولكن العربية بقيت في حِمى القرآن تدافع سيل الفارسية والتركية الجارف ، وقد عزّ النصير من أهلها ، حتى غلب التتار على بغداد فضلبت على أمرها وخضعت لقانون الطبيعة القاهرة ، بعد ما خلفت في تلك البلاد شرائع وعلومًا وآدابًا لم تقو على محوها الأيام .



الفصل الثاني

النشر

الكتابة

الإشياء تظهر للعقل ، ومرآة الخاطر ، يتأثر بما يتال المدارك والمشاعر من
طواامل الحضارة ، وتنتج العلم ، وظواهر العمران .
ولقد كان لذلك الانقلاب المباسى أثرٌ عظيم في العقول والميول ظهر على أقلام
الكاتبين وألسنتهم . فقد استبدلوا صيون المائى . وتخبروا شريف الألقاظ ، بما
لم يكن حوشياً ولا سوقياً ، فضحوا أبواب البديع ، وعذروا بالتعميق والتعميق .
ولما استبحر العمران ، وطما بحر الخراج ، واتسع نطاق الدولة ، ولم تعد
الكتابة مقصورة على الدواوين وإنشاء الرسائل كما كانت في الدولة الأموية ، بل
تمدت إلى أغراض شتى ، كال تصنيف والترجمة . والمقالات والمقدمات ، والمهود ،
والوصف ، والمفاخرة ، وإنشاء الكتب في الإهداء والاستهداء ، والتعارف قبل
اللقاء ، والشكر والتقاب والتمازى والتهانى والاستعطاف ، وغير ذلك من المعانى
الحضرية التى لم يهدأ أكثرها من قبل .

وحلت الكتابة محل الخطابة في قمع الأهواء ، وردع الأعداء ، وإطفاء
الفتن ، وتأليف القلوب . ثم تنوع الكتاب بتنوع الدواوين : فكان منهم
كتاب الخراج والنفقات ، وكتاب المظالم والقضاء ، وكتاب الجيش والشرطة ،
وكتاب الضياع والإقطاع ، وكتاب الرسائل ، وهؤلاء هم أساطين البلاغة
وأستاذو البيان ، وموضوع أدب اللغة ؛ لأن كتابة غيرهم لا تعتمد على فن
ولا تقوم على ذوق .

وظلت الكتابة في أول العصر العباسي على أسلوب عبد الحميد من الميل إلى الإيجاز^(١) والقصد في الفلو والتنميق ، ولا سيما في الرسائل والتوقيعات ، فإن النظر فيها أكثر ما يكون للخلفاء والوزراء ، عنهم تصدر ، وإليهم ترد . وكان جعفر بن يحيى يقول في إثارة الإيجاز . « إن استطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا » .

فلما نزع العرب إلى الترف ، وزاد اختلاطهم بالفرس ، أخذوا يتأقنون ويطلقون . وازداد ذلك بتراسخ الزمن حتى خرجوا عن أساليب القدماء ، وعاقبوا الجمل على اللحن الواحد ، ورأوا ذلك التكرار أبلغ للحن ، وأوقع في النفس . وانتقدوا مذهب الإيجاز في صدر الإسلام وبعده كقول يزيد بن مروان وقد تلكأ في بيته : « أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى فاعتمد على أيهما شئت » فقال ابن قتيبة في أدب الكاتب . « إن هذا لو قيل الآن لم يأت بالتأثير المطلوب . والصواب أن يطيل ويكرر ، ويُعيد ويُبدى ، ويحذر وينذر » . ثم مالوا إلى الازدواج والسجع ، وتضمين الأشعار والأمثال ، وكل ذلك جار مجرى الطبع لحسن التصرف في اللحن وقلة التكاف في اللفظ .

فلما ضعفت الخلافة وقام بالأمر غير أهله ، سرى الضعف إلى الكتابة ، فجهل أربابها الغرض منها ، ومالوا إلى زخرف القول وتدييع اللفظ بأنواع البديع ، وأوغلوا في ذلك حتى سمحت مبانهم وفسدت معانيهم ، فكانت موشة الظاهر مشوشة الباطن ، كسيف من الخشب في غمد من الذهب . ولينهم وقفوا بهذا الأسلوب عند الرسائل والهمود ، بل خرجوا به إلى تصنيف الكتب وتلويح العلوم ، كتاريخ المني والفتح القدسي .

وكتاب هذا العصر أربع طبقات نبقت كل طبقة في عصر من عصوره

(١) أسلوب عبد الحميد موجز إذا ووزن بما استحدث بعده من الأساليب ، ومطرب إذا ووزن بما قبله .

الأربعة^(١)؛ فالطبقة الأولى إمامها ابن المقفع . وطريقته تنويع العبارة ، وتقطيع الجملة ، والمزاوجة بين الكلمات ، وتوخي السهولة ، والمناجاة بالمعنى ، والازهد في السجع^(٢) . وقد حدد البلاغة فقال : « هي التي إذا شئها البهاول ظن أنه يحسن مثلها » . وقال لبعض الكتاب : « إياك وتذيق الوحش من الكلام طمعا في نيل البلاغة فإن ذلك هو العي الأكر » . وقال لآخر : « عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفة » . ومن رجال هذه الطبقة يعقوب ابن داود ، وجعفر بن يحيى ، والحسن بن سهل ، وعمر بن مسعدة ، وسهل ابن هرون ، والحسن بن وهب .

والطبقة الثانية إمامها الجاحظ . وطريقته أشبه بالطريقة الأولى في سهولة العبارة وجزالتها ، وإنما تمتاز بتقطيع الجملة إلى فقرات كثيرة مقفأة أو مرساة ، وزيادة الإطناب في الألفاظ والجل ، والاستطراد ، ومزج الجدل بالمرزل لدفع سامة القارىء ، وتحليل المعنى واستقصائه ، وتحكيم العقل والمنطق ، والاعتراض بالجل الدعائية : ومن رجال هذه الطبقة ابن قتيبة والمبرد والصولي .

والطبقة الثالثة إمامها ابن السعيد وطريقته أعلق بالذفس وأملك الوجدان لأنها شمر لا يعوزه إلا الوزن . وهي أشبه بالطريقة^(٣) الاتباعية عند الفرج . لتقيدها بقيود لابد من مراعاتها وتقلها على سائر الأساليب .

(١) يقسم العصر العباسي إلى أربعة أعصر تبعا لأحواله السياسية والاجتماعية ، فالعصر الأول من اجتهاده إلى خلافة التوكل سنة ٢٣٢ هـ . والثاني من خلافة التوكل إلى استقرار الدولة البويهية بغداد سنة ٣٣٤ هـ . والثالث من قلب البويهيين إلى دخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ والرابع من دخول السلاجقة بغداد إلى سقوطها في أيدي التتر سنة ٦٥٦ هـ .

(٢) قال ابن أبي الإسبح في تحرير التحرير : قد كان للتقدمون لا يهفون بالسجع جملة ، ولا يصدونه بته إلا ما أنت به الفصاحة في أثناء الكلام ، وافق من غير قصد ولا اكتساب وإن كانت كلماتهم متوازنة ، وألفاظهم متناسبة ، ومعانيهم نامسة ، وعبارتهم رائحة ، وفصولهم متفائلة . وذلك طريقة الإمام علي عليه السلام ومن افق أثره من فرسان السلام كابن النعم وسهل بن هرون والجاحظ وغير هؤلاء من العلماء والبناء ١ هـ .

(٣) آثرنا أن نترجم Ecole Classique بالطريقة الإنشائية وEcole Romantique بالطريقة الابتداعية ؛ فإن الاتباع والابتداع أقرب الألفاظ دلالة على معنى هذين اللذين . وبهذا الرأي أخذ نصح اللغة العربية .

فن قيودها السجع القصير ، والجفاس ، وتضمين الملح من التاريخ والعلوم ، والاستشهاد بالنظم في غضون النثر ، والتوسع في الخيال والتشبيه ؛ مع إجادة المعنى وسلامته . ومن رجالها المصاحب بن عباد ، والوزير المهاي ، والخوارزمي ، والبديع ، والصاني ، والتمالي . ومن آثار هذه الطبقة المقامات .

والطبقة الرابعة إمامها القاضي الفاضل . وطريقته مؤسسة على أصول الطريقة الثالثة من توشى السجع والبديع ، إلا أنه غالى في التورية والجفاس حتى أصبحت الكتابة في عهده صناعية محضاً : ألفاظ منمقة تحتها معنى غثٌ وخيال ضئيل . ومن رجالها ابن الأثير صاحب المثل السائر ، والكتاب الأصهباني .

على أن عقيدة الكتاب أن استظهار المأثور من المنشور هو عُدَّة الثقافة وسبيل التفوق . كانت تحالف بين الأقلام ، وتباعد بين الأساليب ، فتعددت مذاهب الكتابة في العصر الواحد ، فتجد في عصر الجاحظ من يقلد ابن المقفع كابن عبد ربه . وفي عصر ابن العميد من يقلد الإمام عليا كالشريف الرضي . ولكن المعاصرين بالرغم من ذلك يخضعون لأحوالهم السياسية والاجتماعية ، فيكون لإنشائهم طابع خاص يميزهم من باقي العصور .

الخطابة

كان للخطابة في صدر هذا العصر مكانة في النفوس وسلطان على القلوب ؛ لاعتماد القوم عليها في توطيد الملك ، وتحسيس الجند ؛ واستقبال الوفود . وكان للخطباء الأولين ودعاتهم فيها الشأن الرفيع والشأو البعيد ، كالمصور والمهدي والشيد والمأمون وداود^(١) بن علي وخالف بن صفوان

(١) لئاً داود بن علي بن عباد بن عباس مع إخوته الاتيذ والعسريز في قرية الجبة من أعمال عمان . وهي منى أبيه في عهد الوليد بن عبد الملك . فالتبس العلم من أبيه واكتسب الصاحبة من خلافة قباثل لثم وهسان وليس . ثم شهر بالفتاة والألفة وصلابة الرأي ورياسة

وشيب^(١) بن شبة .

فلما استوثق الأمر لبني العباس وقام المولى بسياسة الدولة وقيادة الجيش ، وقلّ النضال بانسانان واللسان ، ضعفت الخطابة لضعف القدرة عليها ، وقلة الدواعي إليها ، وحلت الرسائل والمنشورات محلها في دفع العظام وسل السخائم . وقصرت على خطب الجُعم والميدين والزواج . على أن الخطباء أنفسهم ما برحوا يخطبون الناس ويؤمنهم إلى عهد الخليفة الراضى . فلما غل بنو بويه أيديهم وحصر دم في دردم جهدوا بالخطابة والإمامة إلى الكفاة من العلماء ؛ ففيع في آخر هذا العصر طاقة من الأدباء شُهِروا بهذا النوع من الخطابة : كالخطيب البندادى والخطيب التبريزى . ولما استمع المصلون وملك اليأس السنة المواعظ فلم يستطيعوا إنشاء الخطب في الموضوعات المختلفة ، عمدوا إلى استظهار خطب أسلافهم كابن نباتة المصرى ، وأخذوا يرددونها فوق المنابر من غير فهم لمناها . ولا علم بمغزاها . ودرجوا على هذه الحال الخزية تلك القرون الطويلة حتى أدركتها عوامل النهضة المصرية الحديثة فرفاها قسم الوعظ والإرشاد بالجامعة الأزهرية .

نماذج النثر

التوقيعات

التوقيعات هي ما يملقه الخطيب أو الأمير أو الوزير أو الرئيس على ما يقدم

== الفسكروفة للطاق فولاه أبو العباس عام بيعته الكوفة وسوادماتم أضاف إلى تلك السنة ولاية الحجاز واليمن وإمامة فوسد الملك لبني العباس في تلك الأعقاب ، ونسكرو بن وجندبها من بنى أبة تم استقر قراره بالمدينة بعد موسم الحج ، وأدركته منيته فيها شهر ربيع الأول سنة ٨١٣ هـ . (١) نشأ شيب بن شبة بن عبد الله للفقير القيسى في البصرة على خيرا نشأ عليه الرجال من الفزة والأرمينية والتواضع والدفعة ، وأبدأ منذ اليقظة بمحو الكلام وجذب بالخطب في حلالة وسهولة ومذوبة ، وما زال يزفاد حتى صار في كل موافق يملأ بقليل الكلام مالا يلقه الخطباء لاصانع بكثيره ، سمع منه خالد بن صفوان خطيب نعيم ذات يوم يخطب قومه ، فقال له : يا بني أنت نسي إلى نفسى إحسانك في كلامك ، فإننا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب إلا مات من قبله . فقال له شيب : بل يبقك الله ويملى فداك . كالشيب من خاصة المنصور قبل خلائه وبمدها وبقت له هذه المظفرة لدى ولى دهمه للهدى ، فكان من حاطائه الأديين حتى تولى سنة ٩٧٠ هـ .

إليه من الكتب في شكوى حال أو طلب نوال . وميزتها الجمع بين الإيجاز والجمال والقوة ، وقد تكون آية أو مثلاً أو بيت شعر . مثلاً :

وقع السفاح في كتاب لأبي جعفر وهو يحارب ابن هبيرة بواسط . إن حملك
أفسد عليك ، وتراخيك أثر في طاعتك . غزى منك ، ولك من فضك .

ووقع أبو جعفر للنصور في كتاب عبد الحميد صاحب خراسان : شكوت
فأشكيتك ، وعجبت فأعجبناك ، ثم خرجت على العامة ، فأهبط لفرار السلامة .
ووقع إلى صاحب مصر حين كتب يذكر قصص النبل : طهر عسكرك من الفساد ،
يمسك النبل القياد . ووقع في كتاب أتابه من صاحب الهند يخبره أن جنداً شغبوا
عليه وكسروا أقتال بيت للال : لو عدلت لم يشغبوا ، ولو وقيت لم ينبهوا .

ووقع هرون الرشيد إلى صاحب خراسان ؛ داور جرحك لا يتسع . ووقع
في نكبة جعفر بن يحيى : أنبتته الطاعة وحصدته للمصية .

ووقع للأمون إلى الرستمي في قصة من نظم منه : ليس من المروءة أن تكون
آيتك من ذهب وفضة ، وغريمك خاو ، وجارك طار . ووقع في قصة من نظم
من أبي عيسى أخيه : (فإذا فتح في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ
ولا يتساءلون) . وكتب إليه إبراهيم بن المهدي : إن غفرت فبفضلك ، وإن
أخذت فبملكك . فوقع في كتابه : القدرة تذهب الخفيضة ، والدم جزء من
التوبة . وبينهما عفو الله . ووقع في رقعة مولى طلب الكسوة . لو أردت
الكسوة لأممت الخدمة ، ولكنك آثرت الرقاد فظلك الرؤيا .

ووقع جعفر بن يحيى في قصة يحيى : العدل أوقته ، والتوبة تطلقه ، ووقع
في كتاب رجل شكاً إليه بعض عماله : قد كثر شاكوك ، وقل شاكوك ،
فإذا احدثت ، وإما اعتزلت .

ووقع في قصة مستمع قد أعطاه مزاراً : دَعِ الضرع يدركك كادركك .

الخطب

خطب المنصور بعد قتل أبي مسلم قال :

أيها الناس : لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المصيبة ، ولا تُسرُّوا غش الأئمة ؛ فإنه لم يسر أحد قط منكراً إلا ظهرت في آثاره ، أو فلتات لسانه ، وأبداها الله لإمامه ، لإعزاز دينه وإعلاء حقه . إننا لن نبخسكم حقوقكم ، ولن نبخس الدين حقه . إن من نازعنا عروة هذا القميص أجَزَّ زناه خبيء هذا النعمد . وإن أبا مسلم بايئنا وبايع الناس لنا على أن من نسكت فقد أباح دمه ، ثم نسكت بنا فحسبنا عليه حكمه على غيره ، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه . ومن خطبة لعبد الملك بن صالح الهاشمي بعد أن خرج من السجن يذكر فيها ظلم الرشيد أبيه .

والله إن الملك لشيء ما نوبته ولا تمنيته ، ولا قصدت إليه ولا ابتغيته . ولو أردته لكان أسرع إلى من السيل إلى الخدور ، ومن النار إلى يابس العَرَج . وإنني لما أخذ بما لم أجز ، ومستول عما لا أعرف . ولكن الله بين رأيت للملك قفلاً ، وللخلافة خطراً ، ورأيت لي يداً تنالها إذا مُدَّت ، وتبلغها إذا بسطت ، ونفساً تسكل لخصالها ، وتستحقها بخلالها — وإن كنت لم أختر تلك الخصال ، ولا اصطنعت تلك الخلال ، ولم أشرح لها في سر ، ولا أشرت إليها في جهر ، ورأيتها بمن إلى حنين الوالدة ، وتميل إلى ميل الملوكة ، وخاف أن تنزع إلى أفضل منزع ، وترغب في خير مرغ ، فاقبني عقاب من قد سهر في طلبها ، ونصب في التماسها . وتقردها بجهد وتهيأ لها بكل وسمة ، فإن كان إنما بسني على أني أصلح لها وتصلح لي ، وأليق بها وتليق بي ، فليس ذلك بذنب فأتوب منه ، ولا تطاولت إليه فأحبط نفسي عنه . وإن زعم أنه لا صرْف لمقابته ، ولا نعمة من حذابه ، إلا بأن أخرج له من الحكم والعلم ، والحزم والعزم ، فسكاً لا يستطيع

المضيق أن يكون حافظاً ، كذلك لا يستطيع العاقل أن يكون جاهلاً ، وسواء عليه أعاقبني على عقلي أم عاقبني على طاعة الناس لي . ولو أردتها لأعجلته عن التفكير ، وشغلته عن التدبير ، ولم يكن لما كان من الخطب إلا اليسير . ومن الجهود إلا القليل !

وخطب داود بن علي يوم بيعة أبي العباس على منبر الكوفة قال :
شكراً شكري ! إنا والله ما خرجنا لننقُصَ فيكم نهراً ، ولا لننبئ فيكم قصراً . اظنّ عدو الله أن لن نقدر عليه أن رُوحي له من خطائه ، حتى عثر في فضل زمانه ؟ فلأن حيث أخذ القوس باريها ، وعادت القوسُ إلى النزعة ، ورحع الملك إلى نصابه في أهل بيت النبوة والرحمة ، أمينَ الأسود والأحمر . ولكم ذمة الله . لكم ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . لكم ذمة العباس . لا ورب هذه البنية — وأوماً بيده إلى الكعبة — لا نهيج مدكم أحداً .
وخطب شبيب بن شبة يعزى المهدي يوم توفيت ابنته قال :

أعطاك الله يا أمير المؤمنين على مارزئتَ أجراً ، وأعطيك صبراً ، ولا أجهد الله بلاءك بنقمة ، ولا نزع منك نعمة . ثواب الله خير لك منها . ورحمة الله خير لها منك ، وأحق ما صبرَ عليه مالا سبيل إلى رده !

الرسائل

كتب أحمد بن يوسف إلى إبراهيم بن المهدي في هدية استقلها .
بلفي استقلالك لما ألفتك . والذي نحن عليه من الأنس سهل عينا قلة الحشد لك في البر ، فأهدينا هدية من لا يحقش ، إلى من لا يشتتم :
وكتب في تهنته بإبلاله من .رض .

قد أذهب الله وصَبَّ العلة ونصبها ؛ ووفر أجرها وثوابها ، وجعل فيها من

ارغام المدوّ بقبّاعها، أضافَ ما كان عنده من السرور بأولاهها .

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات على لسان الخليفة لأحد العمال :

أما بعد : فقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا فأناذكركه ، ولا تغفلوا من إحدى منزلتين ليس في واحدة منهما عذر يوجب حجة ، ولا يزيل لأمة : إما تعصير في عملك دعائك إلى الإخلال بالحزم والتفريط في الواجب ، وإما مظاهره لأهل الفساد ومداهنة لأهل الرب . وأية هاتين كانت منك ، مُحلة للفُسْكَر بك ، وموجبة للعقاب عليك ، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنظرة ، والأخذ بالحجة ، والتقدم في الإعذار والإنذار ، وعلى حسب ما أفلت من عظيم العثرة يجب اجتهادك في تلافى التعصير والإضاعة . والسلام .

وكتب أبو الفضل بن المميد إلى أبي عبد الله الطبري :

كتابي وأنا بحال لو لم ينفص منها الشوق إليك ، ولم يُرْتَقِ صفوها المزوع نحوك ، لمددتها من الأحوال الجليلة ، وأعددتُ حظّي منها في اللهَم الجليلة ، فقد جمعت فيها بين سلامة عامة ، وحظيتُ منها في جسي بصلاح ، وفي سعي بجراح ؛ لكنّ ، ما بقي أن يصفولي عيش مع بعلدي عنك ويغلو ذرعي مع خلوتي منك ، ويسوغ لي مطعم ومشرب مع انفرادي دونك ، وكيف أطمع في ذلك وأنت جزء من نفسي ، ونظام لشملي أنسي . وقد حرمت رؤيتك ، وعدمت مشاهدتك . وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام ، وينفع أسس بيت بلا نظام . قرأت كتابك — جملني الله تعالى فداءك — فامتلائت سرورا بملاحظة خطك ، وتأملت تصرفك في اللفظ . وما أقرظهما ، فكل خصالا مفرط عندى . وما أمدحهما ، فكل أمرك مدوح في ضميري وعفدي . وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديرى فيك ، فإن كان كذلك وإلا فقد غطى هواك وما ألقى على بصري .

المقامات

المقامة الحرزية لبديع الزمان الهمذاني

حدثنا عيسى بن هشام قال : لما بلغت في الغربة باب الأبواب ، ورضيت من النعمة بالإياب ، ودونه من البحر وثأب بناربه ، ومن السفن عتاف براكبه ، استغرت الله في القفول ، وقدمت من الفلك ، بثابة الهلاك . ولما ملكنا البحر وجن علينا الليل ، غشيتنا سحابة تملدن الأمطار حبالا ، وتعود من النسيم جبالا ، بريح تزل الأمواج أزواجاً ، والأمطار أفواجاً ، وبقيتنا في يد الخين ، بين البحرين ، لا نملك عذة غير اللهاء ، ولا حيلة إلا الهكاه : ولا عصمة غير الرجاء . وطوبى لها ليلة ناهية ، وأصبحنا تنباكى ونشاكى ، وفيها رجل لا يخلص جفقه ، ولا تبطل عينه ، رضى الصدر منشرحه ، نشيط القلب فرحه . فمجبنا والله كل المعجب . وقطعنا ما القى آمناك من المطب ؟ فقال : حرز لا يفرق صاحبه . ولو شئت أن أمدح كلامكم حرزاً نفعلت فكل رغب إليه ، وألح في المسألة عليه . فقال لن أفعل ذلك حتى يعطيني كل واحد منكم ديناراً الآن ويمدني ديناراً إذا سلم . قال عيسى بن هشام : فقدناه ما طلب ، ووعدناه ما خطب ، وآبت يده إلى جيبه فأخرج قطعة ديباج ، فيها حقة عاج ، قد ضمت صدرها رقاعاً وحذف كل واحد منا بواحدة منها . فلما سلمت السفينة ، وأحطنا المدينة ، اقتضى الناس ما وعدوه ، فقدوه . وانتهى الأمر إلى فقال دعوه . فقلت لك ذلك ، بعد أن تعلمنى سر حالك . قال : أنا من بلاد الاسكندرية . فقلت : كيف نصرك الصبر وخدنا ؟ فأنشأ يقول :

ويك لولا الصبر ما كُف
بت ملأت الكيس تبراً

لن ينال الجسد من ضا
ق بمسا ينشأ صدرا

نم ما أعطينى الساعة ما أعطيتُ مُرًا
بل به أتعهد أزراً وبه أجبر كسراً
ولو أتى اليوم فى النهر قى لما كلفت عذراً

ومن المقامة الهندادية للحريرى على لسان عبوز مستجدة :

إعلموا يا مآل الآمل، وثمال الأرامل، أنى من سرّوات القبائل، وسرّيات
الغائل، لم يزل أهلى وبعلى يحلون الصدر، ويسرون القلب، ويمطون
الظهر، ويولون اليد. فلما أردى الدهر الأعضاد، وقبّجَ بالجوارح الأكباد،
واقطب ظهراً لبطن، نبا الناظر، وجفا الحاجب، وذهبت العين، وفقدت
الراحة، وسكد الزند، ووهنت اليمين. وضاع اليسار، وبانت للرافق،
ولم يبق للثانية ولا نائب. فذا اغبرّ العيش الأخضر، وازقرّ المحبوب الأصفر،
أسود يومى الأبيض، وأبيض قودى الأسود؛ حتى رنى لى المدو الأزرق،
فهبذا الموت الأحمر !



الفصل الثالث

الكتاب

ابن المقفع

المتوفى سنة ١٤٢ هجرية

نشأته ومياله

عبد الله بن المقفع كاتب فارسي الأصل عربي النشأة . ولد حوالي سنة ست ومائة للهجرة . ونشأ بالبصرة على ما ينشأ عليه أبناء اليسار . وكان والده داؤد بن الجوسى يتولى خراج فارس للججاج بن يوسف ، فاحتج من مال السلطان شيئاً ، فغضب الججاج حتى تقفمت يده فلقب بالمقفع . ورث عبد الله منذ طفولته على النمط الإسلامى وأولع بالعلم وهو فارغ القلب من هموم العيش ، فتميز وهو بافح في الكتابة بالفتين الفارسية والعربية ، فاستكتبه في عهد بنى أمية داود بن عمر بن هبيرة ، وفي عهد بنى التباس عيسى بن علي عم المنصور ، وعلى يديه أسلم . قال له ذات يوم : « قد دخل الإسلام في قلبي وأريد أن أسلم على يدك » ، فطلب إليه عيسى أن يندو عليه بين القواد ورؤوس الأجناد ليكون إسلامه مشهوداً . ثم حضر معه المائدة عشية ذلك اليوم فجعل يأكل ويترجم على عادة الجوس . فلما كلفه عيسى في ذلك قال « كرهت أن أبيت على غير دين » ثم غدا عليه فأعلن إسلامه ، ونسى عبد الله واكتفى بأبا محمد ، وقد كان اسمه من قبل روزبة .

وقد قيل إنه أسلم ابتغاء عرض الدنيا . ورُوى بالإلحاد لمعارضته القرآن ،

وترجمته كتب الزنادقة، وتمثله حينما مر على بيت نار للمجوس يبيتى الأحرص
يا بيت عاتكة الذى أتمررل حذر العدى وبه القواد موكل
إنى لأمنحك الصدود وإننى قسما إليك مع الصدود لأمئل
وبقى ابن المقفع فى خدمة عمى المنصور عيسى وسليمان حتى كانت حادثة الأمان
الذى كلف أن يكتبه عن اسان المنصور لعمه عبد الله، فإنه تشدد فيه على الخليفة
بمثل قوله : « ومتى غدر أمير المؤمنين بسمه عبد الله فساؤه طوائق ، ودوابه
حُبس ، وعبيده أحرار ، والمسلمون فى حل من بيعته » فوجد المنصور عليه
وأوعز بقتله إلى سفيان بن معاوية اللهلى أمير البصرة وكان يضطغن على ابن المقفع
لسخره منه واستخفافه به فى حضرة وجوه البصرة . فقد قالوا إنه كان صكبير
الأخف ، فكان كلما دخل عليه ابن المقفع قال : (السلام عليك) يعنى سفيان وأنه .
فاجتبل الأمير هذه الفرصة وقتله حرقاً بالنار بالنار من العمر ستاً وثلاثين سنة .
أحمد فرور علمه

كان ابن المقفع ذكى القلب فصيح المنطق ضليماً فى أدب العرب والفرس
« مقدماً^(١) فى بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المسانى واجتذاع السير .
وكان يتماطى الكلام^(٢) ولا يحسن منه لا قليلاً ولا كثيراً » .

وقد قيل : لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل ، ولا كان فى المعجم
أذكى من ابن المقفع . وقد اجتمع هذان الصديقان لأول مرة . فكنا يتحدثان
ثلاثة أيام ثم افترقا ، فقيل للخليل كيف رأيت عبد الله ؟ فقال ماشئت من علم
وأدب إلا أن علمه أكثر من عقله . وقيل لعمدة الخليل كيف رأيت الخليل ؟ فقال
ماشئت من علم وأدب إلا أن عقله أكثر من علمه . وقد سئل ابن المقفع : من
أدبك ؟ فقال نفسى : كنت إذا رأيت من غيرى حسناً أنتبه ، وإن رأيت قبيحاً

(١) هذا رأى الملاحظ فيه من رسائله فى اللعين . (٢) علم التوحيد .

أبيه . وكان في سائر أحواله عفيفاً أديباً وفيّاً لأصحابه . وأمره ^(١) مع عبد الحميد الكاتب شهيد بذلك .

نُثره وشعره

ابن المقفع إمام الطبقة الأولى من الكتاب . وقد استخلص من الأسلوب الفارسي والعربي طريقة في الكتابة عُرِفَتْ به وأخذت عنه . وقد فصلنا ذلك في أثناء كلامنا عن النثر في هذا المعصر فارجع إليه . أما شعره فقليل جيد ، روى صاحب الحاشية منه في قوله في رثاء يحيى بن زياد :

رُزِنَّا أباً عمر ولا حيّ مثلهُ فله رَيْبُ الحادثات بمن وقع
فإن تكْ قد فارقتنا وتركتنا ذوى خَلَةٍ ماني انسداير لما طمع
فقد جرّ فمّا فقدنا لك أننا أمنا على كل الرزايا من المزعج

ترجماته ومؤلفاته

ابن المقفع مترجم قدير لا تلمح في ترجمته أثر العجمة ، وتكاد لا تفرق بين ثقته ووضعه . وكتابه كليفة ^(٢) ودمنة إذا صح أنه مترجم لا يزال مثلاً للترجمة الصحيحة البليغة . وهو كما قال القفطي أول من احتفى في الملة الإسلامية بترجمة الكتب المنطقية لأبي جعفر المنصور ، فترجم كتب أرسطو الثلاثة في المنطق . وكتاب إيساغوجي لقرفور يوس الصوري ؛ فلهذه الترجمة بالفارسية لأهم مصرفه غيرها على الأرجح : ونقل كتاب التاج في سيرة أنوشروان . وألف كتابي الأدب الصغير والكبير في الأخلاق ، وكتاب البثيمة في طاعة السلطان .

نموذج من شعره

قال : لا يؤمننك شرّ الجاهل قرابةً ولا جوارٌ ولا ألف ، فإن أخوفَ

(١) لم يسط ذلك في ترجمة عبد الحميد بن يحيى الكاتب .

(٢) انظر ما كتب من كليفة ودمنة في باب الكلام عن القمص .

ما يكون الإنسان لحريق النار أقرب ما يكون منها . وكذلك الجاهل إن جاورك أنصبك ، وإن ناسبك جنى عليك ، وإن ألقك حل عليك ملا تطيق ، وإن عاشرك آذاك وأخافك ؛ مع أنه عند الجوع سبغ ضار ، وعند الشبع ملك فظ ، وعند الموافقة في الدين فائد إلى جهنم : فأنت بالمهرب منه أحق منك بالمهرب من سم الأساود ، والحريق الخوف ، والدين القادح ، والهاء العياء .

وقال أيضاً : « إن استطعت أن تنزل نفسك دون غايك في كل مجلس ومقام ومقال ورأى وفعل فافعل . فإن رفع الناس إياك فوق المنزلة التي تمط إليها نفسك ، وتقريبهم إليك في المجلس الذي تباعدت عنه ، وتمظيمهم من أمرك مالم تعظم ، وتزيينهم من كلامك مالم تزين ، هو الجلال » .

وقال أيضاً : كان لي أخ أعظم الناس في عيني . وكان رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عيني . كان خارجاً من سلطان بطنه ، فلا يشتهي مالا يحد ولا يكثر إذا وجد . وكان خارجاً من سلطان لسانه ، فلا يتكلم بما لا يعلم ، ولا يماري فيما علم . وكان خارجاً من سلطان الجمالة ، فلا يتقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة . وكان أكثر دهره صامتاً ، فإذا قال بذ القائلين . وكان ضميماً مستضعفاً ، فإذا جد الجدد فهو الليث هادياً . وكان لا يدخل في دعوى ، ولا يشارك في مراء ، ولا يبدل بمحنة حتى يرى قاضياً فتهماً وشهوداً عدولاً . وكان لا يلوم أحداً فيما يكون المنر في مثله حتى يعلم ما عنره . وكان لا يشكو وجهه إلا عند من يرجو عنده البرء ، ولا يستشير صاحباً إلا أن يرجو منه النصيحة . وكان لا يتبرم ولا يستعظ ولا يشقى ، ولا ينتقم من العدو ولا يغفل عن الولي ، ولا ينحس نفسه بشيء دون إخوانه من اهتمامه وحيلته وقوته .

فملك هذه الأخلاق إن أطقها ، ولن تطيق . ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع .

الجاحظ

المتوفى سنة ٢٥٥ هجرية

نشأته وحياته

ولد أبو عثمان عمرو الجاحظ بالبصرة ونشأ بها وهي يومئذ مهد العلم ومنتدى الأدب ، فأكب على الدرس وجد في التحصيل وأخذ عن جهاينة اللغة والرواية كالأصمعي وأبي عبيدة . ونخرج في علم الكلام على أبي إسحق النظام أحد للمنزلة فأخذ بمقالاته ، ونصر الاعتزال بكتابه . وصاحب فئة من كذاب العرب ومترجي الفرس فنقل عنهم واستفاد منهم ، وأغرم بالطالعة إغراماً شديداً فلم يقع في يده كتاب إلا اسقمت قراءته ، واستوعب مادته . وكان يكثرى حواشيت الورق فينصت في كتبها للدرس والطلالة حتى أحصى مسائل العلوم ، واستبطن دغائل الفنون ، وأصبح في الأدب منقطع القرنين .

قضى أكثر عمره في مسقط رأسه عاكفاً على التأليف مرعى الجانب ، مكفى الحاجة ، أثيراً لدى الولاة ، مكرماً عند الوجوه ، بما يؤلف من الرسائل ويصنف من الكتب . ثم كان ينتجع بغداد في عهد للأمن والمتصم والواقع والتوكل ؛ وانقطع بعد ذلك إلى محمد بن عبد الملك الزيات طول وزاراته الثلاث ؛ ثم استقر بالبصرة بعد نكبة الوزير . وأصيب بالفالج النصفي في عاقبة عمره . وطال عليه الرض وتياغت به الملة حتى قبضه الله إليه سنة خمس وخمسين ومائتين وقد شارف المائة .

صفاته وأهم أفراده

كان أبو عثمان دميماً الخلة جهم الوجه جاحظ العينين « ومن ذلك لقبة » ؛ حتى قيل إن الخليفة للتوكل سمع بمنزله من العلم والفهم فاستقدمه إليه بسر من رأى .

نيؤدب ولهم . فلما رآه استقبش منظره وصرفه بعشرة آلاف درهم . وكان في الجاحظ دُعابة وَجْهانة واستخفاف بالمادات الرعية والأداب الوضعية، ولكنه كان لطيف الروح ذكى القواد فكّه المخاضرة صادق اللوامة .

علمه وأدبه

ليس في مقدور هذا القلم الماجز للوجز أن يصف للقارىء ما لنا بنة العرب وفُنُون الشرق من الأثر في الأدب . وبحسبنا أن نقول إنه تميز من أُنْداده بوزارة العلم، وقوة الحجة، واستقصاء البحث، وشدة المارضة، وبلاغة القول، وإنه تبحر في علم الكلام وخلطه بفلسفة يونان، وانفرد دون التكميلين بمذهب في التوحيد شايه عليه كثير منهم فسُمُوا بالجاحظية . وشارك في سائر العلوم وكتب فيها كتابه محقق ضليع . وهو أول عالم عربى جمع بين الجد والمزَل، وتوسع في المخاضرات وأكثر من التصنيف وكتب في الحيوان والنبات والأخلاق والاجتماع .

شعره وشعره

نقل الجاحظ الكتابة إلى طور جديد في الأسلوب والنمط، ونهج للترسلين وللصنفين طريقة في الإنشاء ذكرناها في معرض الكلام عن الكتابة فلا نعيد فيها القول . وقد قال فيه اليديع : إن كلامه بعيد الإشارة، قريب العبارة، قليل الاستمارة . وهذا الحكم وإن كان شديداً ي مطابق الحق أحيانا . أما شعره فلا روعة له ولا جمال فيه . وقد نزع في نظمه إلى الاتباع لا إلى الابتداع ، وهو قليل منشور في ثنايا الرسائل والكتب كقوله للوزير ابن عبد الملك :

بدا حين أرى لإخوانه فقلّ منهم شياة المدَم

وأبصر كيف انتقل الزمان فبادر بالترُف قبل الندم

وقوله :

لئن قدّمت قبلى رجالاً فطالما مشيت على رِشلى فكنت للتقدم

ولكن هذا المهر تاتي صروفه فتبرم مقوضاً وتغض مُبرماً

مُرَقَّاه

كُتِبَ الجاحظ تربي على مائتي كتاب ، وهي كما قال الأستاذ ابن السبيد :
« تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً » ولم ينشر منها إلا كتاب البيان والتبيين
في الأدب والإنشاء والخطابة ، وكتاب الحيوان وهو أقدم كتاب عربي في موضوعه ،
وكتاب الحاسن والأضداد ، وكتاب البخلاء ، وديوان رسائله .

مثال منه شره

قال يمانب صديقاً له : « والله يا قُليب لولا أن كبدي في هواك مقروحة ،
وروحى بك مجروحة ، لساجلتك هذه القلبية ، وماددتك حبل المصارمة ،
وأرجو الله أن يبدل صبري من جفائك ، فيردك إلى مودتي وأنف القلي راغم ؛
فقد طال الهمد بالإجماع ، حتى كدنا ننكر عند اللقاء » .

وقال في رسالة الترميع والتدوير وهي من أبلغ رسائله :

قد اعتدنا في معصيتك والخلاف على محبتك مرة بالمزاح ، ومرة بالنسيان ،
ومرة بالانكسار على عقوق . وعلى ما هو أولى بك . والجملة أنا لو اعتدنا ، ثم
أصررنا ، ثم أنكرنا ، لكان في فضلك ما يثمنه ، وفي كرمك ما يوجب التفافل
عنه فكيف وإنما سهونا ثم تذكرنا ، واعتذرنا ثم أطيننا ؟ فلن نقبل فضلك
أصبحت ، ونفستك نظرت . وإن لم تقبل فأجهذ جهدك ، ولا أبق الله عليك إن
أبقيت ، ولا عفا عنك إن عفوت . وأقول كما قال أخو بني مفر :

فما بُقياً على ترككتاني ولكن خفياً صدر الببال

والله لئن رستني ببجيلة لأزمنك بكفانة . ولئن نهضت بصالح بن علي
لأنهضن بإسماعيل بن علي . ولئن صُدت علي بسلطان بن وهب لأدمنك بالحسن
ابن وهب . وأنا أرى لك أن تقبل العافية ، وترغب إلى الله تعالى في السلامة .

واحذر البقي فإن مصرعه وخيم ، واثق الظلم فإن مرعاه وييل . وإليك أن تعرض
لجرير إذا جما ، وللفرزق إذا غفر ، ولهرمة إذا دبر ، ولقيس بن زهير إذا سكر ،
ولالأغلب إذا كثر ، ولطاهر إذا صال . ومن عرف قدره عرف قدر خصمه ، ومن
جهل نفسه لم يعرف قدر غيره . عليك بالجدّة ودع البنيات . فإن ذلك أمثل
لك . وأنت والله تعلم علم الاضطرار ، وعلم الاختيار ، وعلم الأخبار ، أني أظهر منك
حرباً ، وألطف كيدها ، وأكثر علماً ، وأوزن حلقاً ، وأخف روحاً ، وأكرم
هيباً ، وأقل غشاً . وأحسن قدراً ، وأبعد غوراً ، وأجل وجهاً ، وأنصح ظرفاً ،
وأكثر ملحاً ، وأنطق لساناً ، وأحسن بياناً ، وأجهر جهرات ، وأحسن شارة ،
وأنت رجل تشدّ من العلم ، وتنتف من الأخبار ، وتموّه نفسك ، وتغرّ من
قدرك ، وتهيباً بالنياب ، وتندب للمراكب ، وتصعب بحسن الإقاء ؛ ليس عندك
إلا ذاك . فلم تزاحم البحر بالجداول ، والأجسام بالأعراض ، ومالا يقناهي
بالجزء الذي لا يتجزأ ؟ ومن يدلّ بين القنات والكفرة ؟ وبين رضى الطعان
وبين سيف يمان ؟ وإنما يكون التمثيل بين أئم الخيرين ، وأهمل الشرّين ،
وبين المقارين دون المتفاوتين . فأما الغل والمسل ، والحصاة والجبل ، والسهم
والغذاء ، والفقر والنفى ، فهذا بما لا يخطئ فيه الدهن ، ولا يكذب فيه الحس .

ابن العميد

المتوفى سنة ٣٦٠ هـ

نشأته ومياله

أبو الفضل محمد بن الحسين المعروف بابن العميد فارسي الأصل من أهل
مدينة (قم) . كان أبوه مترسلاً بليغاً يتولى الكتابة لنوح بن نصر الساماني
ملك بخارى ، فنشأ على الأدب ودرّبه في الكتابة ، وغذاه بالعلم ، فبرع

في الانشاء والترسل ، وتوسع في الفلسفة والنجوم ، حتى سمي بالأستاذ ولقب
بالمجاهد الثاني .

ولما استعكفت عُدته ، واستحصدت قوته ، غادر بغارى إلى بلاد الجبل
من ملك آل بويه ؛ ففقد الأعمال في دولتهم . وما زال يتنقل في مدارج
الرقى ، ويتوقل في معارج الشرف ، حتى وُزِّرَ لركن الدولة بن بويه سنة ثمانٍ
وعشرين وثلثمائة ، فاضطلع بأعباء الوزارة ، وقام بشئون الدولة ، وجرى على
منهاج بنى برمك في الجود ، فاستجبه الشعراء . وقصده العلماء من بغداد والشام
ومصر فكان هو والمصاحب بن عباد والوزير المهلبى روحاً لهضة العلم وقطبا
لدائرة الأدب في ذلك العصر . وقد كان المنفى على مكاته يحله ويهيئه ، وله
فيه مدائح مشهورة منها قصيدته التي مطلعها :

يادِ هواك صيرت أم لم تصبرا ويُكّاك إن لم يجر دمك أو جرى
ويقول فيها :

مَنْ مبلغ الأعراب أنى بعدها شاهدت رَسْطاليس والاسكندرا
وملت نحرِ سِارها فأضافنى من ينهر البدرَ التُّنْضارَ لمن قرى
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكاً متبهدياً متحضرا
ولقيت كلَّ الفاضلين كَأَمَّا ردَّ الإله نفوسهم والأعصرا

ولكن ابن العميد كان قليل الحظ من العافية الحت عليه الأوصاب
وتناوبه القَوْلَجُ والقَرَسُ حتى استمرَّ الله به سنة ستين وثلثمائة .

نُزهة وسُمره

عصر ابن العميد عصر تألق وزخرف ، وعهد خيال وشعر ، فهداه
طبعه إلى استحداث أسلوب جديد متناسب القِصَرِ أنيق الديباجة ، بديع
الوشى ، طبع على غرار مشايوه لموافقة ذوق العصر ، ولمكانة الوزير من

القفل . إلا أنه كان أرق معاصريه طبعاً ، وأقلهم سجماً ، وأكثرهم نراً للشعر وتليحاً للأمثال ، وتضميناً للحكم ، ولا يضارعه في أكثر ذلك على ما أرى إلا البديع . وكان ابن العميد متفناً في فنون الكتابة ، متفوقاً في ضروب الرسائل ، حتى شاعت فيه الكلمة للأثورة : « بُدئت الكتابة بعبد الحميد ، وخُتمت بابن العميد » ، أما شعره فيقلب فيه الحسن ويرويه ماء الطبع ، إلا أنه على الجملة أخف وزناً من نثره .

مختار من كلامه

قال من رسالته إلى ابن بلسكا عند استعصائه على ركن الدولة :
كتابي وأنا مترجع بين طمع فيك ويأس منك ، وإقبال عليك وإعراض عنك . فإنك تدلّ بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب رعاية ويتقضى عاقلة وعناية ، ثم تشفههما بمحادث غلول وخيانة ، وتنبههما بأنف خلاف ومعضية : وأدنى ذلك يحيط أعمالك ، ويمحق كل ما يُرعى لك . ولا جرم ألى وقفت بين ميل إليك ، وميل عليك ، أقدم رجلاً لصدك ، وأؤخر أخرى عن قصدك ، وأبسط يداً لاصطلامك واجتياحك ، وأثني ثمانية لاستبقائك واستصلاحك ، فقد يترُب العقل ثم يؤوب ، ويترُب اللب ثم يشوب ، ويذهب الحزم ثم يهود ، ويفسد العزم ثم يصالح ، ويضارع الرأي ثم يُستدرَك ، ويسكر المرء ثم يصحو ، ويكدر الماء ثم يصفو .

ومنها : وزعمت أنك في طرف من الطاعة بمد أن كنت متوسطها وإذا كنت كذلك فقد عرفت حالها ، وحلبت شطريها ، ففتدتك الله إلا ماصدقتي عما سألتك . كيف وجدت مازلت معه ، وكيف تجد ما صرت إليه ؟ ألم تكن من الأول في ظل ظليل ، ونسيم عليل ، وريح بليل ، وهواء غذي وماء روي ،

ومهاد وطى ، وكن كنين ، ومكان مكين ، وحصن حصين ، عززت به بعد
القالة ، وكثرت بعد القلة ، وارتفعت بعد الضمة ، وأيسرت بعد المعرة ،
وأثريت بعد المثربة ؟ ... فقيم الآن أنت من الأمر ؟ وما الموضع عما عدت ،
واتلّف بما وصفت ؟ وما استغدت حين أخرجت من الطاعة نفسك ، ونقضت
منها كفك ، وغست في خلاها يدك ؟ وما أدى أظلك بعد انحسار ظلها عنك ؟
أظل ذو ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغنى من اللهب ؟ قل نعم كذلك :

وسمها : تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستسكرها . والمس
جسدك وانظر هل يحس ؟ وأجس عرقك هل ينبض ؟ وقش ما حفا عليك
هل تجد في عرضها قلبك ؟ وهل حلى بصدرك أن تظفر بفؤت سريع ، أو موت
مريح ؟ ثم قس غائب أمرك بشاهده ، وآخر شأنك بأوله :

ومن شعره قوله لبعض إخوانه .

قد ذبت غير حشاشة وذماء	ما بين حرّ هوى وحر هواء
لا استفيق من المنام ولا أرى	خلوا من الأشجان والبرحاء
وصروف أيام أقن قيامتي	بنوى الخليل وفرقة القرناء
وجفاء خل كنت أحسب أنه	عوفى على السراء والضراء
أبكي ويضحك الفراق ولن ترى	عجبا كعاضر ضحكه وبكائى

ومنها :

من يشف من داء بآخر مثله	أثرت جوائحه من الأدواء
لانتتم اغضاضاتى قلعلها	كالعين تنفضها على الأقداء
واستيق بعض حشاشى قلعلنى	يرمأ أفيك بها من الأسواء
فلئن أرحت إلى عازب بلوتى	ووجدت فى نفسى نسيم عزاء
لأجهزّن إليك قبيح تشكر	ولأثرنّ عليك سوء تفاء
ولأغضنّ مودتى من بعدها	حتى أزوجهما من الاكفاء

الصاحب بن عباد

٣٨٥ - ٣٢٦

نشأته وحياته

وُلد كافي الكفاءة أبو القاسم إسماعيل الصاحب بن عباد بطالقان من أعمال قزوین ، ودرس على ابن فارس اللغوي ، واتصل بابن العميد شاباً فأخذ عنه ؛ واشتدت محبته له فلقب من أجل ذلك بالصاحب . ثم وُزِّرَ لمؤيد الدولة ابن بويه بعد أن قُتل أبو الفتح بن العميد^(١) وزيره ، فدير أموره وسد ثغوره . ولما ملك نجر الدولة بعد أخيه استمعى الصاحب ، فقال له : « لك في هذه الدولة من إرث الوزارة ، مالنا فيها من إرث الإمارة . فسبيل كل منا أن يحتفظ بحقه .

فاتسع سلطان الصاحب وعم إحسانه ، وغرس اللادب جناحاً ناضرة ، وشاد العلم ربيعاً عامرة وقد ورد حضرته الأدباء والعلماء والمتكلمون والمصنفون بقرضون لمعه ، وينافسون في مدحه ، وهو يرشدهم بنقده ، ويمسحهم برفده ، حتى ازدهر الأدب في عهد بني بويه بفضل ازدهار قل أن يصادفه في عهد آخر .

وكان للصاحب وَلَمٌ يجمع الكتب وشغف بمطالعتها . وكان مجلسه لا يغفل عن أديب يحاضر ، ومتكلم يناظر ، وناشي يروي ويستفيد . وعاش الصاحب ما عاش مبعجلاً مفضلًا نافذ الأمر مطاع الإشارة . فلما مات أغلقت له أبواب الرى واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون جنازته وفهم نجر الدولة وقواده في خير ملابسهم . فلما خرج نمشه من الباب صاحوا بأجدهم صيحة واحدة وقبلوا الأرض . ودفن بأصبهان .

(١) هو على أبو الفتح ذو الكفارين ابن العميد بن أبي الفضل بن العميد الذي تقدم ذكره . خلف أباه على الوزارة لكن الدولة بن بويه حتى توفى فوزر لولده مؤيد الدولة فنتصر عليه لبني الأسباب قتله .

نثره

سار المصاحب على نهج ابن العميد وأرنب عليه في الحليّة اللغوية ولا سيما في السجع والجناس ، حتى قيل فيه . « لو رأى سجمة تنحل بموقها عروة تلك ، وبضطرب بها حبل الدولة ، لما هان عليه أن يتغلى عنها » ومنزله بمد البديع وقبل الخوارزمي . وله ذوق سليم في صوغ الشعر ونظر صادق في قلمه . ولم تنفك تكاليف الوزارة ولا مظاهر الإمارة عن التأليف ، فصنف في اللغة كتاب المحيط في سبعة مجلدات ، وكتاب الإمالة ، والكشف عن مساوي القنبي ، وغير ذلك : وأكثر فضله في تشجيع الأدباء وتنشيط العلماء إذا كاشفته الأدب .

نموذج من شعره

كتب إلى القاضي أبي بشر الجرجاني حين وروده باب الرّى وأندك عليه :
تحدثت الركابُ بغير أروى إلى بلد حططتُ به خيالي
فكسدتُ أطير من شوق إليها بقادمة كقادمة الحمام
أحقّ ما قيل أسرُ القدام ، أم ظنّ كأماني الحالم ؟ لا والله بل هو درك العيان ،
وإنه ونيل للى سمان . فرحياً أيها القاضي براحتك ورحلك ، بل أهلاً بك
وبكافة أهلك ، وبأسرعة ما طاح نسيم مسراك ! ووجدنا ربح يوسف من
رباك ؟ غث الملى تزل غلتي بسقياك ، وتزع غلتي بلقياك . وقص على يوم
الوصول لبعده عيداً مشرفاً ، ونفخه مومماً وممرّفاً ، رُدّ الغلام ، أسرع من
ربيع الكلام ، فقد أمرته أن يطير على جناح نسر ، وأن يترك المعبا
في عقال وأسر .

سقى الله دارات مهدتَ بأرضها فادتك نحوى يا زيادُ بن عامر
أصائلٍ قُربٍ أرتجى أن أناثا بلقياك قد زحزحن حرّ الهواجر

الخوارزمي

٣٠٣ - ٣٨٣ هـ

نشأته وحياته

هو أبو بكر محمد بن عباس الخوارزمي ، أصل آبائه من طبرستان وولد بخوارزم ، ثم هارقها وهو فتى السن ابتغاء للعلم والتماساً للرزق ، فجاب الأقطار وتقلب في خدمة كثير من الملوك والأمراء . ولقي سيف الدولة وخدمه بالشام ثم مضى على غلواته في الاضطراب والاعترا ب : فورد بخاري ونيسا بور وسجستان حتى وافي صاحب بن عباد بأصبهان ، فأكرم مثواه ثم زوده بكتاب إلى عضد الدولة بشيراز فنجحت سفرته ، وريحت تجارتها ، وصدر عنه بمال حم وخير كثير فاستوطن نيسابور واقتنى بها ضياعاً وعقاراً ، وعاش قرير العين ناعم البال بين مجالس المدرس ومجالس الأنس حتى مضى في آخر زمانه بمساجلة البديع الممذاني ومناظرته . فأنخذل أنخذالاً شديداً ، ونالت منه هذه النكبة فاعتلت سمته ، وخذت شهرته ، ولم يحل عليه الجول حتى علقه حمامه سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة .

صرفته في الأدب والكتابة

روى عن الخوارزمي ما روى عن أنداده من سرعة الحافظة وقوة الذاكرة ، وشهر بذلك حتى قيل : إنه قصد صاحب بن عباد بأرجان ، فلما وقف ببابه ذهب الحاجب إلى العاصب وقال . إن بالباب أديباً يستأن في الدخول . فقال الوزير قل له : قد ألزمت نفسي ألا يدخل علي إلا أديب يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب « فقال أبو بكر للعاجب : أرجع إليه وقل له : هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء ؟ فلما أخبر بذلك العاصب قال : هذا أبو بكر الخوارزمي :

وكان الخوارزمي مع ذلك إماماً في الفقه والأنساب ، عالمًا بأشعار العرب
وأخبارها ، واقفاً على أسرار اللسان وخواص التراكيب . وهو في الذم من طبقة
ابن العميد . وكثير من الناس يغضه على صاحبه . ولكنه يختلف أحياناً فلا
يجوز إلى ذوق ، ولا يرجع إلى سليقة . أما شعره فيبين الردىء والجديد .

فخار مع كروم

من فصوله المختارة قوله : الرجال حصون بيننا الإحسان ، ويهدمها الحرمان ،
وتبلغ بنرها البر واليسر ، ويمحقها الجفاء والكبر . وإنه لا مال إلا برجال ،
ولا صلاح إلا بصد قتال . والجهان مقتول بالخوف . قبل أن يقتل بالسيف ،
والشجاع حتى وإن خافه العمر ، وساحر وإن غيبه القبر . ومن طلب الدنيا هربت
منه كل الحرب ، ومن هرب منها طلبته أشد الطلب . وقال :

أكبر من الأسير من أسره ثم أحقه ، وألجج من الأسد من قيده ثم
أطلقه . وأكرم من التبت الركن من زرعه ، وأكرم من الكريم من
أصلحه . لا صيد أعظم من إنسان ، ولا شبكة أصيد من إنسان ، وشقان بين
من اقتضى وحشياً بحياته ، وبين من اقتضى إنسياً بمقاتله !

ومن أجود شعره قوله :

مضت الشبية والحبيبة فالتقى دمان في الأجفان يزدهان
ما أنصفتي الحادثات ، رميني بمودعين وليس لي قلبان
وقوله :

قلت لعين حسن شامت جمالا في وجوه كواذب الإيماض
لا يترنك هذه الأوجه النراء (م) فيارب حية في رياض
وقد ذم أحد شلفاء بني العباس قال :

مالي رأيت بني العباس قد أضروا من الكسنى ومن الأقباب أبوها ؟

ولقبوا رجلا لو عاش أو لم
 قلّ الغرام في كفى خليفتنا
 ما كان يرضى به لقصير يوأبا
 هذا فأنقّ في الأقوام ألقابا
 وقال في الحكيم :
 لا تصحب الكسلان في حالته
 كم صالح بفساد آخر يفسد
 عدوى البليد إلى الجليد سرية
 والجر يوضع في الرماد فيخمد
 وقال برئ ركن الدوة :
 ألت ترى السيف كيف انتلم
 وركن الخلافة كيف انهم ؟
 طوى الحسن بن بويه الردي
 أيدي الردي أي جيش هزم
 فصيح اللسان بدیع الیاف
 رفیع السنان سریع القلم
 إذا تم شيء بدا نقصه
 توقع زوالا إذا قيل تم

بدیع الزمان الحمدانی

المتوفى سنة ٣٩٨ هـ

نشأته وحياته

أبو الفضل أحمد بن الحسين ولد بهمدان ونشأ بها . وتعلم العلم باللغتين الفارسية والعربية ، ولم يترك أدبياً في همدان إلا استفد ماعنده . ثم غادرها إلى صاحب ابن عباد فازداد من معارفه وعوارفه . وقصد جرجان فقام في أكناف الاسماعيلية واختص بأبي سعيد محمد بن مقصور . وفي سنة ٣٨٢ هـ بم نيسابور فتجلت فيها عبقريته ، وذاعت بين الناس شهرته ، وأملى بها أربعمائة مقامة . ثم تصدى لمناظرة أبي بكر الخوارزمي . وكان أسن منه وأشهر . وجرت بينهما مكاتبات أفضت إلى مناظرات . وغلب هذا قوم وذاك آخرون . وساعد البديع شبابه ولسانه وحاجته إلى الظهور ، فظهر على الخوارزمي ظهوراً أطار ذكره ورفع قدره عند الملوك والرؤساء ، وأجاب قرنه داعي ربه ، فخلا له الجو ، وابتسم له الدهر ،

وتنقل في حواضر فارس منتجعاً أمراءها ، حتى ألقى عصاه بهرات وصاهر أحد وجهائها وعلمائها ، وعاش بهار خيَّ البال متمسك الحال إلى أن ناداه ربه فلباه سنة ٣٩٨ .

واختلف في موته قتيلاً مات مسموماً ، وقيل مات بالسكتة وعُجل بدفنه فأفاق في جدته ، وسُمع صوته بالليل فنبشوا عليه فوجدوه قد مات قابضاً على لحيته من هول القبر .

أخوه ومواليه

كان البديع مقبول الصورة ، خفيف الزوج ، ناصع الظرف ، ذكي القلب ، قوى الحافظة . حدث التاريخ عنه أنه كان ينظر في أوراق من كتاب لم يره نظرة واحدة ثم يؤدي ما فيها لا يخرم منه حرفاً . وأنه كان يقترح عليه إنشاء رسالة في معنى غريب فيخرج منها عبو الساعة والجواب عنها فيها . وربما ابتداءً بأخر سطر من الرسالة وانتهى بها إلى أولها فيخرجها بلفظ مرتبط ومعنى متسق . وكان يترجم ما يقترح عليه من الشعر الفارسي إلى الشعر العربي فيجمع بين الابداع والإسراع .

شعره وشعره

نهر البديع يستهوى القلوب ويكلك الشعور ، وكله من قبيل الشعر المنشور . وللصناعة تأثير فيه ؛ إلا أنه مع ذلك جار مجرى الطبع ، لم يفسده تكاف ، ولم يهجمه تعمق . وقد جمع كلامه بين متانة اللفظ ورشاقة المعنى وجهال العبارة ودقة التشثيل . وقد تصرف هذا الكاتب في فنون الترتل ، وتفنن في ضروب الرسائل حتى كان بحق فارس الطريقة العميدية وابن مجدسها .

وله شعر رفيق لم يبلغ من الجودة مبلغ شعره ، لأن الجمع بين حسن النظم وحسن النثر قلما يتفق لأحد .

مقامات

للمقامات^(١) حكايات قصيرة تشتمل كل واحدة منها على حادثة لا تستغرق غالباً أكثر من مقامة (جلسة) وتنتهى بمقطة أو ملحمة . ولحسن الديباجة وأخافة الأسلوب فيها المجل الأول . وللبديع أول من أجاد هذا النوع . والمظنون أنه حاكى بالمقامات الأحاديث الأربعين لابن دريد المتوفى سنة ٣١٠ . وقد كتب أربع مائة مقامة في الكدّية وغيرها ، نحلها أبا الفتح الاسكندري على لسان عيسى بن هشام . ولم يمشروا منها إلا على ثلاث وخمسين مقامة شرحها الأستاذ محمد عيده . أسلبها طلى شهبى ، إلا أن قصّر حكاياتها وتقارب الخيال فيها ييمدها عن السكال وللبديع غير المقامات ديوان رسائل ونجوة شعر وكلام مطبوع .

مختار من كلام

قال من رسالة : والله لولا يد تحت الحجر . وكبد تحت الخنجر ، ودافل كفرخ يومين قد حبيب إلى العيش ، ولب من رأسى الطيش ، لشمعت بألقى عن هذا المقام . ولكن صبراً جميلاً والله المستعان .

وقال من رسالة أخرى : وجدتك تعجب أن يتجدد لئيم فتسل صنيعك . فخفض عليك برحك الله ! إن الذى تعجب منه يسير ، فى جنب ما يتجدد من الناس كثير . إن الله خلق أقواماً وشقّ لهم أبصاراً وآتاهم بصاراً ، فناصروا بها على عرق الذهب فضله ، ولم يزالوا بالهجم حتى رصدوه ، واحتالوا للظالم فأنزلوه من جو السماء ، ولحقوت فأخرجوه من الماء ، ثم جددوا مع هذه الأفكار الفاضلة والأذهان النافذة صانهم : فقالوا أين وكيف ؟ حتى رأوا السيف . فلم تعجب إن جددوا فضلاً أيسر الأرض بساطه ، ولا الجبال سباطه ، ولا السماء فسباطه ، ولا الليل رباطه ، ولا النهار صراطه ، ولا النجوم أضراره ، ولا النار سباطه . . . ؟

(١) أقرأ ما كتبتاه عن لئيم ، بعد ذلك فى باب المقامات والقصص ،

وكتب إلى بعض أصدقائه يحذره :

ملك ياسيدي لم تسمع بيتي الناصح حيث قال :

اسمع نصيحة ناصح جمع النصيحة والمعة

إياك واحذر أن تكون من التفات على ثقة

صدق والله وأجاد . فلفتات ، خيانة في بعض الأوقات . هذه المين تروك
للشراب شراباً ، وهذه الأذن تسمعك الخطأ صواباً ، فلست بمعذور ، إن وثقت
بمعذور ، وهذه حال السامع من أذنه ، الوثاق بعينه . وأرى فلاناً يكسر غشيانك
وهو الذي دخلته ، الرديء محلته ، السيء وصلته ، الخبيث جلته . وقد قاسمته
في أزرك ، وجلته موضع شرك . فأرني موضع غلطك فيه ، حتى أريك موضع
غلطيه . ما أبدت غلطك عن غلط إبراهيم عليه السلام إلا أنه رأى كوكباً ، ورأيت
تولها . وأبصر القمر ، وأبصرت القدر . وغلط في الشمس ، وغلطت في الرمس !
أظاهره فرك ، أم باطنه شرك ؟

ومن قوله في أبي القاسم ناصر الدولة :

غضبي جفونك ياريا ض فقد فتنت الحور غمرا

واقفي حياءك ياريا ح فقد كدرت الثمن هزا

وارفق بجفوك ياغا م فقد خدشت الورد وخزا

خلع السريع على الرئبي وروها خزا ويزا

ومطار فاقده شئت فيها يد المطار طرزا

ومنها :

وكان أمطار الريح إلى ندى كفيك تمزي

يا أيها الملك القدي بساكر الآمال ينزى

خلقت يدك على اليدي سيفاً وللمافين كنزا

لا زلت يا كنف الأمي ر لنا من الأحداث حرزا

الحريري

٤٤٦ — ٥٥١٦

نشأته ومياله

محمد القاسم بن علي البصري عربي صميم من بني حرام . ولد بقرية يقال لها الشان ، ونشأ بالبصرة وتخرج على فضلائها . وكان في أول أمره يبيع الحرير أو يصنعه فللقب بالحريري . وصرفه عن ذلك شغفه بالعلم وولوعه بالأدب ، فجد في الدرس والتحصيل حتى سمت منزلته واستطارت شهرته في وقوفه على أساليب العرب وحفظه لأخبارهم وأشعارهم فقربه الأُمراء وأمه الأُدباء يستفيدون من علمه ويستزيدون من أدبه .

صفاته وأخلاقه

كان الحريري دميماً قصيراً نحيلًا قذر الثوب مولماً بنصف لحية عند التفكير . ففاضه الله من ذلك برائع أدبه ، ورقيق ملح ، وسعة صدره واعترافه بالحق لأهله . وقد كان الحديث عنه خيراً من النظر إليه . سمع بشهرته رجل غريب فجاءه يتلقى عنه الأدب ، فلما رآه استزرى شكله ، وفهم الحريري منه ذلك . فلما التمس منه أن يملئ عليه قال له اكتب :

ما أنت أول سار غره قسر
فأختر لنفسك غيري إنني رجل
فأخجل الرجل وانصرف .

شعره وشعره

الحريري كاتب مكثرو شاعر مقل كالبيديع . وهو من ساقاة أتباع ابن العميد ومن المهدين لظهور الطريقة الفاضلية بالقصد إلى البيديع ، والبالغة في الصنعة ،

والإنطراط في تدبيج اللفظ ، والتفريط في جانب المعنى ، حتى تراءت مطابقتها
من خلال ألفاظه عليه ضئيلة كالعروس السلولة جملوها بالأصباغ وأقلوها بالفلاتل
والخلي . وشعره كثره في السكف بالبديع والعناية باللفظ . وضع منه كثيراً
في ثانيا المقامات وجمع في ديوانه خاص .

مؤلفاته

له من المؤلفات كتاب درة الفواص في أوهام الخواص ، انتقد فيه أهل
عصره في خروجهم عن حدود العربية في بعض الألفاظ والتركييب . وكتاب
ملحة الإعراب في النحو ، وديوان رسائل ، ثم المقامات وهي أجود آثاره .

مقاماته

له خمسون مقامة نحلها أبازيد الشروحي على لسان الحارث بن همام ونسجها
على منوال البديع . جمع فيها من اللغة والأمثال والأحاديث ما لا غاية بعده . في
ديوان ممتنع للألفاظ العربية ، والنوادر اللغوية ، والصناعة الفنية ، ولعل ذلك
هو السبب في عناية الأدباء من العرب والفرنج بها وانتشارها بينهم . فقد ترجمها
أكثر من عشرين مستشرقاً من الفرنسيين والألمان والإنجليز . وطبعت
بالإنجليزية في لندن سنة ١٨٥٠ ، وباللاتينية في هيسبرج سنة ١٨٣٢ ، ونقلت إلى
الفارسية سنة ١٢٦٣ ، ثم إلى التركية وطبعت بالأستانة . ولا تزال تدرس في بعض
جامعات أوربا بالشرح القدي وضعه لها رأس المستشرقين سلفسترداسي سنة ١٨٢٢ .

غيرها

عما ينتقد بها عليها قصرها ، ووحدة مفزاها ، وأن المؤلف لم يُمن فيها
بتصوير الأشخاص على نحو ما ألفه اليونان والرومان قديماً ، وإنما صرف
همه إلى تحسين اللفظ وتزيينه . هي بعد ذلك تسكاد لا تخرج عن خيال

متكرر في صور مختلفة ، وإن في إنشائها تكلفاً لا تسمح به طبيعة البدوي الذي قيلت على لسانه .

سبب وضعها

سبب وضع اللقاعات أن الحريري كان جالساً بمسجد بني حرام بالبصرة ، فدخل للمسجد شيخ ذو طمرين عليه أهبة السفر ، رث الحال ، فصيح اللقال . فسأله الحاضرون : من أين الشيخ ؟ فقال : من مروج . فاستخبروه عن كنيته ، فقال أبو زيد . فأنشأ الحريري للقاعة الحرامية وعزاها إلى أبي زيد وجعل الراوي فيها الحارث بن هام مريداً نفسه . أخذاً بالحديث المأثور : كلكم حارث وكلكم هام . واشتهرت تلك للقاعة حتى بلغ خبرها شرف الدين وزير المسترشد بالله ، فأعجب بها وأشار على الحريري أن يضم إليها أمثالها فأعياها حسين .

مختار من كلامه

قال يشكر أحد الوزراء : دعاء للعبد للوزير دامت جدوده سميدة ، وسعوده جديدة ، وعليأؤه محسودة ، وأعداؤه محسودة . دعاه من يقرب بإصداره ، على بعد داره ، ويقصر عليه ساعاته ، مع قصور مسماته . وشكره للانعام الذي أوصله إلى التجميل والتأميل ، وجمع له بين التنبؤ والتنبؤيل ، شكر من أطلق من أسره ، وأذيق طعم اليسر بعد عسره . ولونهضت به القدمان ، وأسعده عون الزمان ، لقد علم اعتبار الباب للعمور ، وأسرع إليه إسراع العبد للأمور ، ليؤدي بعض حقوق الإحسان ، ويقرأ صفح الشكر باللسان . ولكن أنى ينهض للصدق؟ ومن له بأن يصعد فيسعد ؟

ومن شعره في الحكم قوله :

لا تز من تحب في كل شهر غير يوم ولا تزده عليه
فاجتلاء الهلال في الشهر يوم ثم لا تنتظر العيون إليه

وقال أيضاً :

لا تَقْمَدَنَّ عَلَى ضَرْ وَتَمْتَنِّبَ لَكِي يَقَالَ عَزِيزُ النَّفْسِ مَصْطَلِبُ
وَانْظُرْ بِعَيْنِكَ هَلْ أَرْضُ مُطَلَّةٌ مِنْ الْبَنَاتِ كَأَرْضِ حَفْهَا الشَّجَرُ ؟
فَدَتْ عَمَّا تَشِيرُ الْأَغْيِيَاءُ بِهِ فَأَيُّ فَضْلٍ لِمُودٍ مَا لَهُ نَمْرُ ؟
وَارْحَلْ وَكَابِكَ عَنْ رَجْعِ ظَمْنَتْ بِهِ إِلَى الْجَنَابِ الَّذِي يَهْيَى بِهِ لِلطَّرِ
وَاسْتَغْزِلِ الرَّيَّ مِنْ ذَرِّ السَّعَابِ فَإِنْ بُلَّتْ يَدَاكَ بِهِ فَلْيَهْزِكِ الظَّفَرُ

القاضي الفاضل

للتوفى سنة ٦٩٥ هـ

نشأته ومجته

ولد أبو علي عبد الرحيم البيسانى بمدينة عقلان من بلاد فلسطين ، وأخذ العلم عن أبيه بهاء الدين عليّ قاضي عقلان . ثم ورد مصر في أواخر الدولة الفاطمية ليعلم الكتابة في الديوان ، وذهب إلى الإسكندرية فدخل ديوان ابن حديد قاضيا . ومالبت أن ظهر فضله ودل عليه نبوغه ، فقدم القاهرة وكتب في ديوان الظاهر . ولما قامت الدولة الأيوبية استوزره صلاح الدين بن أيوب فساس ملكه خير سياسة . ثم وزر من بعده فولمه العزيز ثم لأخيه الملك الأفضل . وتوفى سنة ٦٩٥ بالقاهرة .

مؤثرته في الكتابة

كان من طبيعة منصب القاضي الفاضل أن يخاطب الكتاب في الأصمغ المختلفة ويقف على المذاهب الكتابية للتباينة في الشام والراق ومصر . فجزته الحكامة والفاضلة وقوة الشخصية إلى استحداث طريقة جديدة بناها على أصول طريقة ابن العميد ومارها بالإغراق في التورية والجناس ، حتى أصبحت الكتابة في عهده

كما ذكرنا من قبلُ طلاء خدّاءَ من رخرف :لفظ على هيكل بال من للنبي
الاسقيم : بهرت هذه الطريقة المقيمة الميون الكلية والقرايح الناضبة . فافتتاحها
عباد الصنعة من أشباه الكتاب ، وورطوا أنفسهم فيما لا غناء فيه ولا ربح
منه . وظل هذا المذهب غاشياً على الميون ، رائناً على القلوب ، حتى عصرونا
الحديث فزال على التدرج بتأثير ابن خلدون وتقليد الآداب الفرنجية .

نموذج من كلامه

كتب هذه الرسالة إلى صلاح الدين يشفع لخطيب عيذاب في توليته
خطابة الكرك وهي :

أدام الله السلطان الملك الناصر وثبته ، وتقبل عمله بقبول صالح وأثبتته
وأخذ عذره قائلاً أو يئته ، وأرغم أنه بسيفه وكلمته .

خدمة للملوك هذه واردة على يد خطيب عيذاب . ولما نيا به للنزل عنها ،
وقلّ عليه للرفق منها ، وسمع هذه الفتوحات التي طبع الأرض ذكرها ،
ووجب على أهلها شكرها ، هاجر من هجير عيذاب وملحها ، سارياً في ليله
أمل كلها نهراً فلا يسأل عن صبحها . وقد رغب في خطابة الكرك وهو خطيب ،
وتوصل بالملوك في هذا اللتمس وهو قريب ، ونزع من مصر إلى الشام وعن
هيذاب إلى الكرك وهذا عجيب ، والفقر سائق عليل ، ولذا كور عائل
خميض ، ولطف الله بالخلق بوجود مولانا لطيف ، والسلام .



الفصل الرابع

الشعر واثـر السياسة والحضارة فيه

لقد كان أثر هذا الانتقال الاجتماعي في خواطر الشعراء أبلغ منه في نفوس الكتّاب؛ فإن أولئك بالخلفاء الصقُ ، ونفوسهم بالترف والدنية أعلقُ . وهم المنادمون على الشراب ، والمفاكهون في السر . ضاق مضطربهم في السى فانسع متقلبهم في الخيال ، وغلت أيديهم بالسكل عن العمل فاشتغلت أقدسهم بالفكر وانطلقت ألسنتهم بالقول . ولم يجدوا العيش ميسوراً بالتأليف لصوبة النسخ والنشر فتفرغوا لصوغ الشعر في ضروبه المختلفة . ووجدوا من الخلفاء والأمراء مؤازراً ، ومن الحضارة والطبيعة ناصراً ، ومن القريحة والسليقة مؤاتاة ، فجألوا في الشعر جولة لم تتوافر أسبابها لأسلافهم ، ونقلوه من البوادي الجدية ، والأخبية المظنية إلى الرياض الفاضرة ، واقتصور الشاعرة ؛ والمناظر الموثقة : على يد زعيم المولدين بشار .

ولقد عرضت للشعر عوارض أثرت في أسلوبه ومعانيه وأغراضه وأوزانه . فأما التأثير في أسلوبه ، فهجر الكلمات الثرية ، وعذوبة التركيب ووضوحه ، واستحدثت^(١) البديع والاستكثار منه ، وترك الابتداء^(٢) بذكر الأطلال إلى

(١) ظهر البديع على لغة في شعر مسلم بن الوليد ومن بعده حتى جاء أبو تمام فتصدى له وابن المعتز فأقضى به .

(٢) أول من كسر هذا القيد مطيع بن يونس أو أبو نواس على الأرجح يدل على ذلك مثل قوله : صفة الطالون بلافة القدم
فاجل صفائك لابنة الكرم
وقوله : يبي على طلال الماضين من أسد
لادر درك قل لي من بنو أسد
لاجف دمع القى بيك على حجر
ولا سقا قلب من تصبو إلى وتد
وقوله : يا ربم ، غطك إن غطك في غفل
لا تافق فيك لو تدرى ولا جنى

وصف القصور والنجور والفزل ، والإغراق في المدح والمجاء ، والإكثار من التشبيه والاستعارة ، والحرص على التناسب^(١) بين أجزاء القصيدة ، ومراعاة الترتيب في التركيب .

وأما في معانيه فيتلو الممانى الحضرية ، واقتباس الأفكار الفلسفية ، إذ أكثر شعراء هذا المصرو ولدان جنسيتين ، ورضاع لقتين وأدين ، وريائب حضارتين مختلفتين . ولهذا الاقتح من الأثر في الفكر والنقل ما يملأ الكوفرة الممانى الجديدة في شعر بشار وأبي نواس وأبي الناهية وابن الرومي . ثم نقل العرب علوم اليونان وغيرهم فكان لهذا النقل فضل على الشعر في معانيه . لا في فنونه ، لأنهم لم يترجوا إلا كتب الطب والحكمة ، ولم يحفلوا بشعر اليونان وقصصهم ، ولا بشعر اللاتين وخطبهم ، تعصباً لأدبهم وإيثاراً لشعرهم ؛ فلم تؤثر الترجمة في الشعر إلا بما دخله من الخواطر الفلسفية والسياسية والآراء العلمية في شعر أبي تمام والتمتذي وأبي العلاء وأضرابهم .

وأما في أغراضه فبالبالغة في نعت النجور ومجاسها ، ووصف الرياض والصيد ، وغزل المذكر ، والمجون ، والوعظ ، والزهد ، والأخلاق ، والفلسفة ، وضبط العلوم كالنحو وغيره .

وأما في أوزانه ، فبالإكثار من النظم في البحور القصيرة ، وابتداع أوزان أخرى ، كالتمطيل والمتمد وما عكس الطويل والمديد ، والموشح^(٢) والزجل ،

(١) جاء في زهر الآداب من الممانى قوله : مثل القصيدة مثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببس ، ففي الفصل واحد عن الآخر وبإينه في حمة التركيب تادر الجسم دامة تتخون علسنه وتغن ماله . وقد وجدت حذائق للتقديم وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسونه مثل هذه الحال حتى يقع الانصال ونأفى القصيدة في تناسب صدورهما وأعجازها كالرساة البليغة والخطبة الموزنة ... وهذا مذهب اختص به المحدثون لتوفد خواطرم ولطف أفسكارم ...

(٢) أول من ابتدع الشعراء اللوشع منهم بن مفاير من شعراء الأمير ابن عبد الله للرواني ، (وم ينظرونه أسماطاً ، وأعضاتا أعضاتا ، ويكترون منها ومن أعاريسها المختافة ويسدون المتعدد منها بيتاً واحداً . ويتزيمون نواحي تلك الأفسان وأوزانها متالياً فيما بعد إلى آخر القطعة ، وأكثر ما ينتهي عندهم إلى سبعة أبيات . ويشتمل كل بيت على أعضان ...

والدوييت^(١) والمواليا . وكذلك في اللقافية كالمسقط^(٢) والزندوح .

ولما انفرط عقد الخلافة ، وتمددت حواضر الدولة ، باستقلال الولاة في فارس والشام ومصر والمغرب ، وجد الشعر في غير بغداد ملأذا ورحى ؛ فانتقل إلى تلك الأمصار فصادف من أمثال بنى بويه وآل حمدان أكفأ سمحة ، وصدور أرحبة ، وروبوعاً خصبية ، فازداد ابتسكاراً وانتشاراً وكثرة . ولنظرة عجلى في فهرس القيمة الشعرية^(٣) تكفيك لتعلم أثر ذلك التشعب السياسي في نهضة الشعر ، إذ كان الأمراء يتقيلون الخلفاء في قريب الشعر امو تعصيد الأدباء . والشعر والعلم كآرايت

== صدهما بحسب الأفراس وللغائب . ثم نسج أهل الأملر على نوال اللوشح ، واطلموا مثله بلتهم الحضرية من غير التزام إعراب ، وسعوا هذا النوع بالزجل . وأول من أبدعه أبو بكر ابن زيمان الأندلسي ... (أنظر مقالة ابن خلدون .

(١) الدوييت . مأخوذ من الفارسية بدليل اسمه وسعى بذلك لأنه ينظم بيتين بيتين . (ودو بالفارسية اثنان) وهو مشهور عند الفرس بالرباعي ووزنه . فعلن متفاعان فمولن ضلن كقول بعضهم :

قد أقسم من أحبه بالباري أن يبعث طيفه مع الأسفار
يا نار أشوق به فأتقدي ليلا فضاء يبتدى بالبار

أما للواليا فأول من نظم به سنان الرامكة بعد نكبتهم . فسكوا ينوحون عليهم به ويكثرون من قولهم (يا ولى) فصرف بهذا الاسم وهو مشهور بين عامة مصر .

(٢) المسقط هو أن يبتدى الشاعر بيت مصرع ثم يأتي بأربعة أفسه على غير لافيته ، ثم يعيد قصا على فافية البيت الأول . وربما خلا من البيت المصرع وكان على أقل من أربعة أفسه كقول الغائل :

فزال حاج لي شجنا بيت مكابح حزنا عهد القاب مرتها بذكر الهمم والطرب
أما للزدوج فهو أن يؤتى بشعرين من فافية ، ثم بأخرين من أخرى ، كقول أبي العتاهية :

حبيك مما يفتتبه القوت ما أكثر القوت لمن يموت
إن الشباب حجة التصابي روايح الجنة في الشباب

(٣) هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل التتالي ولد بنيسابور وعكف على تحصیل العلم والأدب حتى انتهت إليه الزعامة فيها ، وهو ناعمة المرسدين في العصر العباسي وأكثر الأدباء آثاراً وأغزرم مادة ، وهو يجرى على طريقة ابن العبد في النثر والشعر .

وله مؤلفات كثيرة في الأدب ، أهمها يتيمة الدهر ، وهي أربع مجلدات جم فيها مختار المتنوع والمنظوم لأدباء عصره مع ذكر تراجمهم ، وكتاب فقه الأمة في دقائق الألفاظ المترادفة ، وكتاب سرالرية ، وسعر البلاغة ، ومن غايته المطرب . ووفى سنة ٤٢٩ هـ .

لا يزهران إلا في ظل ملك أو أمير^(١).

وما زال الشعر على حاله من العناية بالألفاظ ، والإصابة للفرض ، والاقتناص في المعنى ، حتى تجرّم القرن الخامس للهجرة ، فذهب معه جبال الشعر العربي من الشرق ، وفقد تأثيره في النفوس ، لذهاب المعضدين له من بني بويه ، وقلة الراغبين فيه من آل سلجوق^(٢) . واستشمار النفوس لقل الغلبة والقهر بشوالى الفن والحن ، فانصرفت انحواطاً إلى التصوف والأدعية ، وعيّت القرائح عن التواليد والابتداع ، فجلا الشعراء معاني الأقدمين في حلل مهلهلة النسيج مُتممة الوشى ، وأخذوا يتملقون بالبديع ، ويغنون في الهجاز والكناية ، ويقهلون المعجم في إغراقهم ومهاواتهم للولك^(٣) والأمراء ، ولا سيما المتأخرون منهم ، حتى أصبح غرض الشعر عندهم إنما هو الكذب والاستجداء فقالوا . « أعذب الشعر أ كذبه » . ثم كان مآل الشعر في هذا العصر كآل التثريبه سواء بسواء .

(١) قال أسامة بن مغل : كان السفاح زانياً في الحلب والرسائل يصطحب أهلها ويبيعهم عليها ، لحظت ألف رسالة وألف خطبة طلباً للخطوة عنده فقتلها . وكان المنصور يدهه معنيا بالأسمار والأخبار وأيام العرب يدق أهلها ويجزهم عليها ، فلم يبق شيء من الأسمار والأخبار إلا حفظته طلباً للقربة منه فنفرت بها . وكان موسى مغرماً بالشعر يستخلص أهله . فأتت بيتاً فادعوا فخرأ ، ولا شعراً ولا لسيا سائراً إلا حفظته . وأعانى على ذلك طلب الهبة في حلل الحلال . ولم أر شيئاً أدهى إلى تعلم الآداب من رغبة الملوك في أهلها وسلاتهم عليها ، ثم زهد مروان في هذه الأريسة فأسيبها حتى كأن لم أحفظ منها شيئاً .

(٢) أسرة من الترك تنسب إلى جدما سلجوق . تألبوا على الدولة الباسية وحملوها ونهبتها فاستولوا على ملكها واستقلوا به استقلالاً عليها سنة ٤٤٧ هـ .

(٣) تعجيب الخفاء والأمراء الشعراء بالموائر والسطا كان له ضرر في خفض الشعر كما كان له نفع في ربه ؟ وذلك لأن الشعراء الذين ما كانوا يمدحون السبيل إلى الرزق بالخطوة لدى الملوك والأمراء ، اضطروا إلى قول القهر وإن لم تدفعهم شهوة إلى قوله . فكسروا الحائط وأجهدوا الطبع ؛ فجاءوا بالفسر الكاذب للتكلف ، وتزلوا عن استغلال الشخص وهو أرفع عمارن النفس إلى حضيض التناق الذنـ والتناق السافل . فلك أن العلم في سلات الكبرياء دفع كثيراً من ضفاء السليقة في الشعر إلى قرنه فأثروا منه بالحير الخافه ، وكان ذلك من الأسباب التي ساعدت على انحطاطه .

وأنت إذا أخذت الشعر العربي كله بنظرة واحدة فمرضت تاريخه كأن تعرض تاريخ السكان إلى وجدته قد تطور في موضوعه تطور الأمة العربية ، وقطع معها مراحل الحياة الإنسانية ؛ فهو في الجاهلية أنقام صهي ، وحاسة فتوة ، وعواطف أثرة ؛ وفي الإسلام أناشيد جهاد ، وثوران عصبية ، وأطباع حياة . ثم استحار شبابه واكتمل في صدر الدولة العباسية ، فظهر في شعر بشار وأبي نواس واضربهما عبث شباب ، وأغاني طرب ، ومظاهر ترف . ثم عض على نواجذ الحلم واكتمل في أوساطها فبدأ في شعر ابن الرومي وأبي تمام والتمني وأمثالهم دروس تجربة ، ونتائج حكمة ، وخواطر فلسفة . ثم أدركه الهرم في أواخره فظهر في شعر للتأخرين نمويه صنعة ، وخرف شيخوخة ، ومعالجة روح . أما ولادته وطفولته فلم يذكرهما التاريخ ولم يدخلها في علمه .

نماذج من الشعر العباسي المحاسة

قال أبو فراس الحمداني .

ولما ثار سيف الدين ثُرنا	كما هيجت آماداً غضاباً
استنه إذا لاقى طماناً	صوارمه إذا لاقى ضراباً
دعانا والأسنة مُشْرِعاتٌ	فكنا عند دعوته الجواباً
صنائع فاق صانها ففاقت	وغرس طاب غارمه فطاباً
وكنا كالسهم إذا أصابت	مراميه فراميه أصاباً
فلما اشتدت الهيجاء كنا	أشدَّ متخالباً وأحدَّ ناباً
وأمنع جانباً وأعزَّ جاراً	وأوفى ذمة وأقلَّ عاباً
إذا ما أرسل الأمراء جيشاً	إلى الأعداء أرسلنا السكتاباً

وقال أبو الطيب المتنبي :

عش عزيزاً ومِتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ
بين طمن القنا وَخَفَقَ البَنود

فردوس الإرماع أذهب للقيـظ وأشفى لِنَلْ صدر الخنود
لا كما قد حيتَ غيرَ حميدٍ وإذا مَتَّ مَتَّ غيرَ فقيد
فاطلب العز في لظى ودع الدل (م) ولو كان في جنان الخلود

المرج

قال أبو تمام :

بمهدى بن أصرم عاد عودي سى فاستنزل الشرف اقتساراً
وقنمة مُتَعَفٍ يرجوه أحلى جعلت الجود لألاء للساعى
ولم يحفظ مضاع الجد شيء ولو صورت نفسك لم تزدها
وقال للقيظ :

قوم بلوغ النلام عندهم قوم بلوغ النلام عندهم
كأما يولد الندى منهم إذا تولوا عداوة كشفوا
نظن من كثرة اعتذارهم أنهم أنعموا وما عدوا
إن تولوا صنعة كفوا أنطقوا فالعواذب والحجكم
كأنها في نفوسهم شيم أعيد كم من سرور دهركو
فإنه في الكرام منهم وقال ابن الرومى :

كأن مواهبه في المحسو ل آراؤه عند ضيق الحيل
فلو كان غيتاً لم البلاد ولو كان سيفاً لسكان الأجل
ولو كان يعطى على قدره لأنغى النفوس وأغنى الأمل

المرثاء

قال الحسين بن مطير يرى ممن بن زائدة :

ألمّا على مَن وقولاً لقبره سفتك التّوادي مربّماً ثم مربّماً
فيا قبر مَن أنت أوّل حفرة من الأرض خُطت للسّاحة مضجعا
ويا قبر مَن كيف وارىت جوده وقد كان منه البر والبحر مترعاً !
بلى قد وسعت الجود والجود ميت ولو كان حيّاً ضقت حتى تصدعا !
ففي عيش في معروفه بمدّ موته كما كان بمدّ السيل تجراه مرّثما
ولما مضى مَن مضى الجود وانقضى وأصبح مرثين الكارم أجّدا
وقال محمد بن عبد الملك الزيات يرى زوجته .

ألا مَن رأى الطفل الفارق أمّه بعيد الكرى عيناه تنسكبان ؟
رأى كل أم وابنها غير أمه بيتان نحت الليل ينتعبان
وبات وحيداً في التّراش نجته بلابلُ قلب دائم الخفقان
فلا تلصبان إن بكيت فأبما أداوى بهذا الهمع ما تران
فهبنى عزمت الصبر عنها لأنى جليد ، فن بالعبر لا ين ثمان ؟
ضعيف القوى لا يطلب الأجر حسبه ولا يأتسى بالناس في الحدّان
فلم أرك الأقدار كيف تصيبني ولا مثل هذا الدهر كيف رمانى
أعيني إن لم تسعدا اليوم عبرتي فبئس إذنٌ ما في غد تمدانى
وقال الثّغبي يرى أخت سيف الهوة :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبرٌ فزعت فيه بآمالى إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملا شرقتُ بالهمع حتى كاد يشرق بي

السّجاء

قال مسلم بن الوليد :

أما الهجاء فذق مرصك دونه والمدح . عنك كما علت جليل
فأذهب فأنت طليق عرضك إنه عرض عززت به وأنت ذليل

وقال أبو تمام :

كم نعمة لله كانت عنده فكأنها في غربة وإسار
كسيت سيائب لؤمه فضاءلت كتضاؤل الحناء في الأطمار
وقال ابن الرومي :

يُتَرَّ عَيْبِي عَلَى نَفْسِهِ وليس يَبَاق ولا خاف
فَلَوْ يَسْتَطِيعُ لَتَقْتِيرَهُ نفس من منخر واحد

وقال المتنبي في كافور الإخشيدي :

أكلما اغتال عبدُ السوء سَيْدَهُ أو خانته فله في مصر تمهيد ؟
صار الخصى في إمام الأتقين بها فالحر مستبد والبد مبيود !
قامت نواظير مصر عن ثمالها حتى بشمن وما تفي المناقيد
العبد ليس لحر صالح بأخ لو أنه في ثياب الحر مولود
لا تشر العبد إلا والمصا معه إن المييد لأنجاس مناكيد
من علم الأسود الخصى مكرهه ؟ أقومه البيض أم أبؤه الصيْد ؟
أم أذنه في يد النخاس دامية أم قلعه وهو بالفلسين مردود ؟
وذاك أن الفحول البيض عاجزة عن الجميل فكيف الخصىة السود ؟

وقال ابن لسكك :

وعصبة لما توسطهم صارت حلّ الأرض كالغلام
كانهم من سوء أفهامهم لم يخرجوا بعدُ إلى العالم
يضحك إبليسُ مرورا بهم لأنهم عازّ على آدم

الوصف

قال البحتري من قصيدته في وصف إيوان كسرى :

صَفْتُ نَفْسِي عَمَّا يَدَّ نَفْسِي وَتَرَفَعْتُ عَنْ جَدًّا كُلِّ جَيْسِ
وَنَمَّاسَكْتُ حِينَ زَعَزَعَهُ أَلَمُهُ رُبَّ أَلَمٍ مَهْلِكٍ لِنَفْسِي وَنَكْسِي
بُلُغٌ مِنْ مَنَابَةِ الْعَيْشِ عِنْدِي طَفَقَتْهَا الْأَلَامُ تَغْطِيفُ بَضْسِ

وكان الزمان أصبح محو
 واشترأى العراق خُطّة غبن
 ولقد راينى نبوّ ابن عمى
 وإذا ما جئيت كنت حرباً
 حضرت رجلي الموم فوجهم -
 أنلى عن الخطوط وآسى
 ذكرتهم الخطوب التوالى
 وهم خافزون فى ظل عال
 مُطلق يابهُ على جبل القى -
 يَلَل لم تكن كالملال -
 وسأع لولا العتابة منى
 نقل الدهر عهدن عن الج
 فكان الجرماز من عدم الأن -
 لو تراه علمت أن اللىالى
 وهو ينبىك عن عجائب قوم
 وإذا ما رأيت صورة أنطا
 واللسايا موائل وأنو شر
 وعراك الزجال بين يديهِ
 من مشيح يهوى بمامل رمح
 تصف الدين أنهم جدّ أحياء
 ينثلى فيهم ارتياى حتى
 قد سقانى ولم يصرّد أبو الفو
 من مُدام تقولما هى نجم
 وتراهما إذا أجذت سروراً

لا هواء مع الأخس الأخس
 بعد يبنى الشام بيعة وكس
 بعد لين من جانبيه وأنس
 أن أرى غير مُصبح حيث أُنسى
 ت إلى أبيض اللدائن عُنسى
 لُحلّ من آل ساسان دَرس
 ولقد تذكّر الخطوب وتُنسى
 مشرف يُحسّر العيون ويُنسى
 ق إلى دارتى خِلاط ومكس
 فى قفار من البسابس مُلس
 لم تعلقها مَسعاة عُنس وعيس
 مة حتى قدون أنضاء لبس
 س وإخلافه بَفيّة رمس
 جعلت فيه مأتماً بعد عرس
 لا يشاب البيان فيهم بلس
 كية ارتعت بين روم وفوس
 وان يزجى الصفوف تحت الدرفس
 فى خفوت منهم وإغماض جرس
 ومُليح من السنان بقرس
 لهم بينهم إشارة خرس
 تنقرهم يداى بلس
 ث على المسكرين شربة كس
 أضوا الليل أو مُجاجة شمس
 وارتياحاً الشارب التّحمسى

أفرفت في الزجاج من كل قلب
وتوهمت أن كسرى أبرو
حلم مطبق على الشك عيني
وكان الإيوان من عجب المنة
يشظى من الكتابة إن ييس
مرعجاً بالفراق عن أنس ألف
عكست حظه الهيلي وبات ال
فهو يبدى تجلداً وعليه
لم يعبه أن يز من بسط الله
مشعراً تملو له شرفات
لابسات من البياض فما تب
ليس يذرى أصنع إنس لجن
غير أنى أراه يشهد أن لم
فكأنى أرى المراتب والقو
وكان الوفود ضاحين حسرى
وكان القيان وسط للقاميه
وكان اللقاء أول من أم
نحرت للسرور دهرًا فصارت
فلها أن أعينها بدوموح
ذاك عندى وليست الدار دارى
غير نعى لأهلها عند أهل
أبدوا ملكنا وشدوا قواه
وأعانوا على كتائب أريا
وأراني من بعد أ كلف بالأد

ففى محبوبه إلى كل نفس
ز ماطى والبهند أنسى
أم أمان غيرن ظنى وحدى
مة جوب في جنب أزعن جلس
د لعينى مصبح أو ممسى
عز أو مرهنا بتطليق عرس
مشتري فيه وهو كوكب نحس
كلكل من كلال الدهر مرمى
باج واستقل من ستور الدمقس
رفت في رهوس رضى وقُدس
هر منها إلا غلال برس
سكنوه أم صنع جن لإنس
يك بانه في للوك ينكس
م إذا ما بلغت آخر حسى
من وقوف خلف الزحام ونفس
ر يرجم بين حو ولمس
س وشك الفراق أول أمس
للتمزى رباعهم والتأسى
موقوفات على الصباية حبس
بأقرب منها ولا الجفس جنمى
غرسوا من زكاتها خير غرس
بكاء تحت السقور نحس
ط بطن على النحور ودعس
مراف طرأ من كل حنخ وأس

وقالت إحدى شوارع الأندلس نصف وادى آتش

وقانا لفتحة الرضاء واد	سقاء مضاعف الفيت العيب
حللنا دوحه فحننا علينا	حنو الرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا	ألف من اللدامة للنديم
تروع حصاه حالية المذارى	فخلس جانب العقد النظيم
بصد الشمس أنى واجهتنا	فيحجبها ويأذن للنسيم

الحكم والأمثال

قال بشار بن برد :

إذا كنت في كل الأمور معائباً	صديقك لم تلق الذي لا تمانيه
فينش واحداً أوصل أخاك فإنه	مُعارف ذنب مرة ومحابه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى	ظلمت ، وأى الناس تصفون شاربته

وقال مسلم بن الوليد :

حسى بما أبدت الأيام تجربة	سعى على بكأسينها الجديدان
دلت على عيبها الدنيا وصدقها	ما استرجع الدهر مما كان أعطاني
ما كنت أدخر الشكوى لحادثة	حق اجل الدهر أسرارى فأشكافى

وقال أبو العتاهية :

الصمت أجمل باللقى	من منطق في غير حيله
لا خير في حشو الكلا	م إذ اعتدبت إلى عيونه
كل امرئ في همه	أعلى وأشرف من قرينه

وقال أبو تمام :

من لي بإنسان إذا أغضبته	وجهل كان الخلم رد جوابه
وإذا طربت إلى المدام شربت من	أخلاقه وسكرت من آدابه
وتراه يصنى للحدث يقبله	وبسمه وله أدري به

وقال البحري :

وَتَرْتُ الْقَوْمَ ثُمَّ غَلَفْتَ فِيهِمْ ظَنَوْنَا لَسْتَ فِيهَا بِالْحَكِيمِ
فَاخْرُقْ السَّفِيهَ وَإِنْ تَمْدَى بِأَبْلَغَ فَيْكَ مِنْ حَقِّدِ الْحَلِيمِ
مَنْ أَحْرَجْتَ ذَا كَرَمٍ فَخَطَى إِلَيْكَ بِيَمَضِ اخْلَاقِ الْكَلِيمِ
وقال ابن الرومي :

عَدُوُّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَاد فَلَا تَسْتَكْبِرَنَّ مِنَ الصَّاحِبِ
فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرَ مَا تَرَاهُ يَحُولُ مِنَ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ
وَمَا الْحَبِجُ لِللَّاحِ بِجُرُوبٍ وَتَلْقَى الرَّيَّ فِي الْغُطَفِ الدِّبَابِ
وقال الثعبي :

إِنَّا لَفِي زَمَنِ تَرَكَ الْقَبِيحَ بِهِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانًا وَإِجَالًا
لَوْلَا لِلشَّقَةِ سَادَ النَّاسِ كُلُّهُمْ الْجُودُ يَفْقَرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَالًا
وَأَمَّا يَبَايُخُ الْإِنْسَانَ طَائِفُهُ مَا كُلُّ مَاشِيَةٍ بِالرَّحْلِ شِمَالًا
ذَكَرَ الْفَقْرَ عَمْرَهُ الثَّانِي ، وَحَاجَتَهُ مَا قَاتَهُ ، وَفَضُولَ الْمَيْشِ أَشْنَالًا

الاعتراف والوسطاف

قال علي بن الجهم يعتذر للتوكل :

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ أَلَا حَرَمَةٌ نَجُودُ بِغَفْوِكَ أَنْ أَبْصَدَا
لَنْ جَلَّ ذَنْبٌ وَلَمْ أَعْصِدْ لَأَنْتَ أَجَلٌ وَأَعْلَى بَدَا
أَلَمْ تَرِ مَبْدَأَ عِدَا طَوْرِهِ وَمَوْلَى دَفَا وَرَشِيدًا هَدَى ؟
وَمَقْصِدُ أَمْرِ تَلَاغِيْتِهِ فَضَادُ فَاصِلِحٍ مَا أَفْسَدَا
أَقْلَنِي أَقْلَاكَ مِنْ لَمْ يَزَلْ بَقِيكَ وَيَصْرِفُ عَنْكَ الرَّدَى
وقال البحري :

فَدَيْتَاكَ مِنْ أَيْ خَطْبِ عَرَى وَنَائِبَةِ أَوْشَكْتَ أَنْ تَدْوَا

وإن كان رأيك قد حال في
أكذبُ قسي بأن قد سخطت
ولو لم تكن ساخطاً لم أكن
أصبح وردي في ساحتك
وما كان سخطك إلا الفراق
ولو كنت أعرف ذنباً لما كا
سأصبرُ حتى ألقى رِضا
أراقبُ رأيك حتى يصح
وقال سعيد بن حديد :

لم آت ذنباً ، فإن زعمت بأن
قد تطرف الكفُ بين صاحبها
أنت ذنباً ، فغير معتمد
فلا يرى قطعها من الرشد

ومن قصيدة للدنبي يستعطف بها سيف الدولة لبني كلاب بعد أن ظفروهم
طلبهم على الأمواه حتى
يهر الجيش حولك جانبيه
وكيف يتم بأسك في أناس
ترقق أبها للولى عليهم
وانهم عبيدك حيث كانوا
وعينُ المخطئين هم وليسوا
وما جهل أياذك البوادي
وكم ذنب مؤلده دلال
وجرم جرهُ سفاه قوم
تخوف أن تنقشه السحاب
كما قضت جناحها العقاب
تصيههم فيؤلك للصاب ؟
فإن الرقق بالجاني عتاب
إذا تدهو لحادثة أجاوا
ياول معشر خطنوا فتاوا
ولكن ربما خفي الصواب
وكم بُد مؤلده اقتراب
وحل بنير جارمه العقاب

الفصل الخامس الشعراء المولعون

كان الشاعر في الجاهلية لسان دفاع ، وحامي دمار ، ومسجل محامد ؛
وفي الدولة الاموية كان داعية دين ، ودعامة ملك ، وناشر مذهب ، ومؤيد فرقة ؛
وفي الدولة العباسية كان نديم خليفة ، وسمير أمير ، وأليف كأس ، وصرير غانية .
وكان أكثر شعراء بغداد في صدر هذا العصر من الموالى الذين أطاعوا العرب
كرها ، واعتقدوا الإسلام رياء ، فهاجوا الأخلاق بالخلعة والجحون ، وأذاعوا
في الناس الزندقة والشك ، ولكنهم أذاعوا كذلك الآراء الحرة ، وللعاني
المبتكرة ، والأخيلة البديعة ، والأوصاف الدقيقة ، والمذاهب الجديدة ، والمبررات
المأثورة ، كقطع بن إبّاس ، وحامد عجرد . وحسين بن الضحّاك ، وبشار بن برّد ،
وولّابة بن الحباب ، وإبّي نواس ، ومسلم بن الوليد ، وأبان بن عبد الحميد ، وأبّي
الغضائفة ، وأبّي دلامة ، ومروان بن أبّي حفصة ، وعباس بن الأحنف ، وعلى
ابن الجهم ، ودعبل الخزاعي ، والمسنكوك .

شعراء بغداد

بشار بن برّد

المتوفى سنة ١٦٧

نشأته وحياته

هو بشار بن برّد بن يربوع الثقيل بالولاء . كنيته أبو معاذ ولقبه المرعش
لأنه كان في أذنيه رُعّة ، « والرُعّة القرط » . أصل أبيه من فرس بلخارستان

من سبي للهب بن أبي صفرة ، وهبه لامرأة من بني عقيل فتزوجه ونسب إليها . ولد بشار بالبصرة ونشأ في بني عقيل مولماً بالاختلاف إلى الأعراب المحبين بيادية البصرة ، حتى شب فصيح اللسان صحيح البيان من الحكمة والخطأ ، وقد كان آخر من يمتنع النعاة بشمرم من الشعراء . فلما بلغ مبلغ الرجال انتجع الغلفاء والأمراء بالمدح ، وكاد يمشي في ظلال الشعر وداع النفس رغد العيش لولا تنديبه بالمجاء ، وتعرضه للنساء ، وهتك ستر الحشمة ، حتى قام الناس ذلك منه ، وتمنوا موته صوتاً للمذارى وغيره على اللخدرات . قال مالك بن دينار . « ما شيء أدعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أسرار هذا الأعمى للملحد » ، ودخل فريق من الشُّير على المهدي فأسموه قصيدتمن غزله ، فقال : « بمنى هذا الشعر تميل القلوب ويلين الصعب » وأمر به ، فلما جاء قال له : « والله لئن قلت بمد هذا بيتاً واحداً في تشبيب لأثنين على روحك » ، فكان بشار بمد ذلك إذا أراد للنزل ذكر أن الخليفة منعه من كيت وكيت ويذكر ما يريد من الأمور وحديث النساء .

ولما توقع بشار وتهتك ، ولم يردعه تهديد المهدي له ، ولا زاية الناس عليه ، سعى به ثانية إلى الخليفة ورمى عنده بكل قصيدة . وصادف ذلك أن بشار أمدح المهدي فلم يحزه ليلته عنه وتغيره عليه ، فمجاه بأبيات منها :

بني أمية هُبُوا طال نومكم إن الخليفة يقوبُ بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الرق والعمود
ويلع الخليفة ذلك ، فدعا صاحب شرطته وأمر أن يضربه بالسوط ، فضر به حتى مات سنة ١٦٧ ، وقد أوفى على السبعين .

صفتهم وأهملهم

ولد بشار أكمةً فآراى الدنيا قط . على أنه كان يشبه الأشياء بمعضها يعض في شعره فيأتى بما لا يقدر عليه البصراء ، كقوله :

كأن مثار الفع فوق رهوسنا وأسواقنا ليل نَهاوى كواكبُه

وكان ضخم الجثة ، مفرط الطول ، مجذور الوجه ، جاحظ الحدقتين ، قد
تفشاها لحم أحر ؛ فكان أقبح الناس عَمَى وأفظمهم منظرأ . قالت له امرأة
ذات يوم : لا أدرى لِمَ يهابك الناس مع قبح صورتك ، فأجابها . ليس
من حسنه يُهاب الأسد . ودخل عليه أحد الأدباء يوماً وهو نائم في دهبزه كأنه
جاموس ، فقال له . يا أبا معاذ ، من القاتل :

إن في بُردىً جسماً ناحسلاً لو توكأت عليه لانهدم
قال : أنا : قال : من القاتل أيضاً :

في خلقى جسم فتى ناحل لو هبت الريح به طاحا
قال : أنا . قال ما حلك على هذا الكذب ؟ والله إنى لأرى أن لو بشت الله
الرياح إلى أهلك بها الأمم الخالية ما حركتك من موضعك ا

وكان بشار متوقد الذكاء ، حاضر الجواب ، صادق الحس ، بذىء اللسان ،
كثير المجون ، مغموز الدين ، يؤمن بالرجعة ويصوب رأى إبليس في تقديم النار
على الطين وإبائه السجود لآدم في مثل قوله .

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذكّات النار

وكان إذ أراد الإنشاد صفق يديه وتنحنح وبعق يميناً وشمالاً ثم ينشد :

شعره

قال بشار الشعر وهو ابن عشر سنين ، فما بلغ الحلم إلا وهو طائر الصيت فيه .
وقد أدرك جريراً وهجاء وقال هجوت جريراً فاستصغرنى وأعرض عني ، ولو
رد على لكنت أشعر الناس . وأول ما تكلم فيه من أنواع الشعر الهجاء لأن
سوقه كانت ناقصة أيام ولد وطرق كل باب من أبواب الشعر التي فحنت قبله ثم

زاد عليها . ورواة الشعر وقدته متفقون على أنه زعيم طبقة للوليدين ^(١) ،
 وأسبغهم إلى الجون البذي والنزل الرقيق ، وأول من جمع شعره بين جزالة البدو
 ورقة الحضر ، وأن شعره هو الحد الأوسط بين الشعر القديم والحديث . فهو
 في الوليدين كأمريء القيس في الجاهليين ، والبارودي في المحدثين . وكان الأصمى
 يشبهه بالأعشى والثابتة لسلامة شعره من الغلل وخلوه من الحوشى والتعقيد . وقد
 شهد له الجاحظ بالتميز في سائر مناحي القول وفنون الكلام فقال : « كان بشار
 خطيباً صاحب منظوم ومنثور ومزدوج وسجع ورسائل . وهو من المطبوعين
 أصحاب الإبداع والاختراع المتفنين في الشعر ، القائلين في أكثر أجناسه وضرابه » .
 ونسالة شعر بشار وطلالوته أولع به شبان البصرة وخلصاؤها ، وافتن به
 نساؤها ؛ فكان يذهبن إليه ، وبنمنن بحديثه ، ويتفتنن بشعره . فهو جارية
 ممن تسمى عبدة ، شهرها بشعره حتى صار له معها أخبار طائفة وأشعار سائرة

عيوب شعره

لا يتسنى لباحث أن يصف ما ينتقد به عليه ؛ لأن شعره لم يدون فذهب به
 الزمان ، ولم يبق من اثني عشر ألف قصيدة إلا قطع مختارة متثرة في الكتب ^(٢)
 وكل ما يعلم من عيوبه خروجها في شعره عن الحد المألوف من الجون ، وتكليه
 القافية إذا أهوزته بألفاظ لا حقيقة لها ، وتبذله في شعره أحياناً فيميل عن الشعر
 الجزل إلى الركيك السهل كقوله في جاريته :

ربابة ربة الليث تصب الخلل في الرزيت
 لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

(١) المؤلفون أو المحدثون هم الشعراء الذين صنعت فيهم ملكة اللسان فمالجوها بالصناعة
 كثراء العصر العباسي وميزتهم في شعرهم توليد اللامى ، ودقة الألفاظ ، ورقة الألفاظ
 وجمال الصنعة ، إلا أنهم أقل من سابقيهم أسرا وغوة ، وأكثر تصنعا وكلفة .
 (٢) اختار له (الحافظان) طائفة حسنة من شعره ثم شرحها تحت عنوان (المختار)
 من شعر بشار) وقد طبع بالقاهرة سنة ١٩٣٥ م .

وقوله .

إن سلى خلقت من قصب قصب السكر لا عظم الجبل
وإذا أدنيت منها بصلا غلب للسك على ربح البصل
ولكنه كان يتنذر عن مثل الأول بأن له حالا تقتضيه ، وعن مثل الثاني
بأنه قاله في صباه .

نموذج منه شعره

من قوله في النزل :

يزهدنى في حب عبدة معشر قلوبهم فيها مخالفة قلبي
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارفعى فبالقلب لا بالمين يصير ذو الحب
وقوله :

يا قوم أذن ليمض الى عاشقة والأذن تمشق قبل العين أحيانا
قلوبى لا ترى تهذى ؟ فقلت لم الأذن كالعين توفى القلب ما كانا
وقوله :

لم يطل الى ولكن لم أتم ونفى عنى الكرى طيف ألم
نقى يا عبيد هنى وأعلى أنى يا عبيد من لحم ودم
إن فى بردى جسا ناحلا لو توكت عليه لا نهدم
ومن آياته السائرة قوله :

هل تملين وراء الحب منزلة تدنى إليك ، فإن الحب أقصانى
وقوله :

أنا والله أشهى سحر عينيه لك وأخشى مصارع المشاق
وقال وهو يدل على اعتقاده بالجبر :

طبت على ما فى غير تحير هواى ، ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى ، وأعطى ولم أرد وقمر على أن أنال النغيبا

ومن قوله في الوصف والحماة .

إذا المالكُ الجبارُ صمرَ خَدَّهْ مَشِينًا إليه بالسيفِ نعلابه
وأزَعَنَ بِشَى الشمسَ كَوْنُ حديدِه وتحبسُ أبصارَ الكفاةِ كَتائِهْ
نفسُ به الأرضُ القضاء إذا غدا تَزاحِمُ أركانَ الجبالِ مَنَّا كِبْهْ
ركبنا له جَهْزًا بِسَكَلٍ مُتَقَف وأبيضُ تَمسُقُ الدِّمَاءَ مَضارِبِهْ
كَأَنَّ مِثَارَ النِّقَمِ فَوْقَ رِهْوَ سَفا وأسيافنا ليلَ نَهاوِي كِوا كِبِهْ

أبو العتاهية

١٣٠ — ٢١١ هـ

نشأته وحياته

هو اسماعيل بن القاسم بن سويد وكنيته أبو إسحاق ولقبه أبو العتاهية. ولد
بمين البحر قرية بالحجاز ونشأ في الكوفة على صناعة أهله ، وكانوا باعة جرار .
فجعل يصطنعها ومحملها في قفص على ظهره متقللاً في شوارع الكوفة يبيها .
إلا أنه مع ذلك كان ولوعاً بالقريض ، فزوعاً إلى الأدب ، يقول الشعر على
سجيته من غير أن يجهد نفسه فيه . وربما حدث ببعض الحديث فيأتي موزوناً
مقفى فيظنه الناس نثراً وهو شعر . ومنشأ ذلك تمكن الشاعرية منه ورسوخها فيه ،
حتى إنه كان يقول عن نفسه « لو شئت أن أجمل كلامي كله شعراً لفعلت » .
ومما يؤيد أن الشعر كان فيه سليقة لا صناعة ، أنه كان يجهل العروض جهلاً
تاماً ؛ وله أوزان لا تدخل فيه ، ولا تجرى في مجاريه . ولما سمع به متادبو الكوفة
وقتها كانوا يذهبون إليه في مصنعه يستنشدونه فيشدهم أشماره ، فيأخذون
ما تكسر من الخَرْف فيكتبونها فيه . وهكذا بدأ أبو العتاهية يصنع الشعر في أتونه
خزفاً ، ثم ما لبث أن صنعه درا تقلده الأمراء والكبراء ، وجرى ذكره مجرى
المثل ، فانقل الخراف من بين الطين والماء ، إلى مجالس الشعراء ودواوين الخلفاء .

وفد إلى بغداد حاضرة العلم والأدب في أول خلافة المهدي ومده خطي
له فيه واختلط ببعض جواريه فمشق منهم جارية تسمى عتبة ، أكثر فيها النزل
حتى م المهدي أن يبها إياه لولا ضراعتها وكرامتها له . فألهاء عن ذكرها بلال
الكثير ، فكان يأخذ للال ولا يفتر عن ذكرها في شعره حتى في مدائمه^(١) .
وكل ذلك كما قيل تصنع وتخلق ليذكر بذلك . فلما توفي المهدي واستخلف
المهدي ، تغيرت أخلاق الشاعر فلما عن ذكر عتبة ، وأخذ في التزهّد والتعشّن ،
وأقبل على درس مذاهب التكلّمين وبعض الفرق ، فكان يأخذ بكلّ وتقام
ينصرف عنه إذا سمع طاعناً عليه . ولم يأت عصر الرشيد حتى أضرب عن النزل
وقصر قوله على التزهيد في الدنيا والتذكير بالموت . ثم عرضت له حال امتنع
فيها عن قول الشعر البتّة . فأرغمه الرشيد عليه فأبى ، فغضبه ستين عصا وسجنه
ولم يطلقه حتى رجع إلى قول الشعر . وكان بعد ذلك لا يفارقه في حضر ولا سفر ،
وأجرى عليه وظيفه مقدارها خمسون ألف درهم غير الجوائز منه ومن أمرائه .
واتصلت شهرته بالآفاق وتنفى بشعره المنون وتناجى به الزهاد وسائر الناس
على اختلاف طبقاتهم ، وعنى العلماء والرواة بجمع شعره . ولم تزل تلك حاله مدة
الرشيد والأمين وأكثر أيام للأمين حتى مات سنة ٢١١ .

صفته وأخلاقه

كان أبو الحامية أبيض اللون أسود الشعر له وفرة جمدة وهيئة حسنة .
وكان ليقّ اللسان مذهب الرأى مفككاً ممثلاً العقيدة لاضطرابه في الآراء
وتلونه في التّحل ، مقتراً على نفسه وأهله مع وفرة ماله وحسن حاله . وكان بعض
الناس ينسبه إلى إنكار البعث محتجاً بأن شعره إنما هو في ذكر الموت والنفاد
دون ذكر النشور والعماد . وعلى الجملة فالدارس لحياة الرجل يراه مضطرب المزاج
غريب الأخلاق مذبذباً في نسبه وجهه وعلمه وعقيدته .

شعره

كان هذا الشاعر غزير البحر ، لطيف المعاني ، سهل الألفاظ ، كثير الافتتان قليل التكلف ، إلا أن شعره كثير الساقط المزدول . وأجوده ما قاله في الزهد والأمثال . ولقد قال الأصمعي : « إن شعر أبي المتاهية كساحة الملوك ، يقع فيها الجواهر والذهب والتراب والنوى » وذلك حق ؛ لأنه كان يرسل الشعر لإرسالاً على البديعة من غير تمثيل ولا تنقيح . على أنه في الطبقة الأولى من الموالدين كبشار وأبي نواس ، وهذا كان يفضل على نفسه ويمتاز بأبوالمتاهية بقلة تسكفه وسهولة ألفاظه حتى كادت تخرج إلى حد الابتذال . وحجته في ذلك أنه يرى إلى العفة والزهد فينبئ أن يكون شعره مفهوماً لدى الناس على السواء . وهو القدي نهج للشعراء مناهج الزهد والعففات فافتنوا أثره فيها . ولقد طرق أبواب الشعر فأجاد ، إلا أن تفوقه ونبوغته إنما هو في الحسك وضرب الأمثال ، وله أرجوزة جمعت أكثر من أربعة آلاف مثل . أما غزله فخير ما قال في عتبة وأحسن مدائح ما قاله في المهدي والرشيد . ولقد صدق لسانه عن المهجاء إلا ما كان يثقه وبين عبد الله بن معن ، فإنه قال فيه من غير خش ولا هُجْر

فصنع ما كنت حليت به سيفك خلخالاً
وما تصنع بالسيف إذا لم تكُ قتالاً ؟
ولو مدت إلى أذني . . . كفيه لا تالاً
أرى قومك أبطالاً وقد أصبحت بطلاً

درر من قوافيه

من قوله في الغزل .

عيني على عتبة منهلة
بدمعها المنكب السائل

كَأَنَّهُا مِنْ حَسَنَاتِ دَرَّةٍ
كَأَنَّ فِي فِيهَا وَفِي طَرْفِهَا
بَسَطَتْ كَفِّي نَحْوَكُمْ سَائِلًا
إِنْ لَمْ تَنْيَلُوهُ فَقَسُّوْا لَهُ
لَمْ يَبْقَ مِنْ حُبِّهَا مَا خَلَا
يَا مَنْ رَأَى قَبْلِي قَتِيلًا يَكِي
وَقَالَ لِلْمَهْدَى وَقَدْ تَوَقَّيْتُ ابْنَتَهُ :

مَا لِحَبِيدِيْنَ لَا يَبْلَى اخْتِلَافُهَا
يَا مَنْ سَلَاحٍ عَنْ حَبِيبٍ بَعْدَ مِيتَتِهِ
كَأَنَّ كُلَّ نَعِيمٍ أَنْتَ ذَاقْتَهُ
لَا تَلْبِسُ بِكَ الدُّنْيَا وَأَنْتَ تَرَى
مَا حِيلَ الْمَوْتُ إِلَّا كُلَّ صَالِحَةٍ
وَمِنْ قَوْلِهِ لِلرَّشِيدِ وَقَدْ سَجَنَهُ لِإِضْرَابِهِ عَنِ النَّزْلِ :

تَذَكَّرْ أَمِينَ اللَّهِ حَقِّي وَحَرَمَتِي
نِيَالِي تَذَنِّي مِنْكَ بِالقَرَبِ مَجْلِسِي
فَمَنْ لِي بِالْمَعِيَةِ الَّتِي كُنْتُ مَرَّةً
وَمِنْ قَوْلِهِ يَعْظُمُ الرَّشِيدُ :

لَا تَأْمَنُ الْمَوْتُ فِي طَرْفٍ وَلَا نَفْسٍ
وَأَعْلَمُ أَنَّ سَهَامَ الْمَوْتُ قَاصِدَةٌ
تَرْجُو النِّجَاةَ وَلَمْ تَكُنْ مَسَالِكُهَا
وَقَالَ :

لَبُّوا لِلْمَوْتُ وَابْنُوا لِلْخُرَابِ
أَلَا يَأْمُوتُ لَمْ أَرَمَكَ بَدَا
كَأَنَّكَ قَدْ هَجَمْتَ عَلَى مَشِيئِي
فَكَلِّكُمْ بِصِيرُ إِلَى ذَهَابِ
أَتَيْتُ وَمَا تَحْيِفُ وَمَا تَحَابِ
كَاهَجَمَ لِلشَّيْبِ عَلَى الشَّيْبِ

أبو نواس

١٤٥ - ١٩٩ هـ

نشأته وميانه

هو الحسن بن هانيء بن عبد الأول الحسكي . يكنى بأبي نواس لأن خلفا الأحرار كان له ولاء باليمن ، وكان من أميل الناس إلى أبي نواس فقال له : أنت من أشرف اليمن فتكن بأسماء الذنوب (وم الملوك الذين تبتدا أسماؤهم بذو) ثم أحصى أسماءهم فقال : ذو جند وذو وزن وذو نواس . فاختار ذا نواس فكناه بها ، فغلبت على كنيته الأولى وهي أبو علي . وله بقرية من قرى الأهواز ونقل إلى البصرة ونشأ بها . ثم انتقل إلى بغداد وتوفى فيها . كان أبوه من جندهم روان ابن محمد آخر خلفاء بني أمية . ولما توفى لم يجد أبو نواس من يموله ، فالتجأ إلى عطار يشغل عنده . ولكنه كان مولداً بالعلم مشغولاً بالأشعار والأخبار فكان كثيراً ما ينشئ أندية العلماء ، ويحضر حوار الشعراء ، ويقترن بالدقلم . وقد سمع يذكر والبة بن الحباب وشهرته في الشعر فكان يود لو يتصل به ليأخذ عنه . فاتفق أن مر والبة هذا بالمطار الذي كان يعمل عنده أبو نواس فتوسم فيه الذكاء والقلطة وتوقد الدهن . فقال له إني أرى فيك تخايل أرى ألا تضعيها ، وستقول الشعر فاصبني آخرتك ، فقال له ومن أنت ؟ قال : أنا والبة بن الحباب . فقال له . نعم أنا وفيه فطلبك ، ولقد أردت الخروج إلى الكوفة لأخذ منك . فسار أبو نواس معه ، وقدم بغداد وقد أربى على الثلاثين ، وهناك صحب الشعراء ودرس على العلماء حتى أصبح من أشعراهل عصره وأغزرم علماء وأنهبهم اسماً . وتأدى

خبره إلى الرشيد فأذن له في مدحه فدحه واتصل به وفق^(١) عنده . وبلغ من دالة أبي نواس عليه أنه كان يمر به بنو هاشم والقواد والكتاب فيعيونه وهو متكئ بمدود الرجل فلا يتحرك لأحد منهم . وكان يقصد عمال الولايات فيمدحهم ومن هؤلاء الخليفة عامل مصر ، فقد مدحه بقصائد رواها عنه للصريون دون العراقيين . ثم انقطع بمد ذلك إلى محمد الأمين فنادمه ومدحه ، وثبت عنده ما يوجب سجنه فسجنه مدة ولم يلبث بمد إطلاقه أن مات سنة ١٩٩ ينفد .

صفاته وأخلاقه

كان أبو نواس جميل الصورة ، خفيف الروح ، حلو الحديث ، حاضر البديهة فصيح اللسان ، مدمناً للخمر ، كثير المزمل والمجون ، جامعا لأشتات الصفات التي يجب أن تكون في القديم ، مستنظفا بأمور الدين . وله مع الشعراء مناقضات كثيرة . ونوادره المجونية مجموعة في كتاب خاص غير ديوانه طبع منه جزؤه الأول في القاهرة ؛ إلا أن أكثر هذه النوادر وتلك الأشعار المجونية ممدوس عليه ؛ لأن جل أثماره في ذكر الله ووصف الخمر وما يتبع ذلك ، وليس هذا مذهب للعاصرين له ولا للتأخرين عنه ، فألقى الناس بشعره كل ما وجدوه من جنسه ولم يرفوا قائله . وأكثر أخباره مع جارية شاعرة تسمى جنان قد هويها وكلف بها .

مؤثرته في الشعر

كان أبو نواس ضليماً في اللغة راوياً للشعر والأخبار حتى قيل إنه لم يقل الشعر إلا بعد أن حفظ شعر ستين امرأة خلاف الرجال . وقد قال فيه الجاحظ : ما رأيت أحداً كان أعلم باللغة من أبي نواس ولا أنفصح لهجة منه مع حلاوة (١) فالراي إنما حصل على مكانته عند الرشيد لأنه كان يكره إليه لبسأل خولاس القصص عما جرى له مع الجوازي ، ثم يشبهه أشعاراً تطابق ذلك .

ومجانبة استكراه . ولج أبواب الشعر كلها ، إلا أنه امتاز من كل الشعراء بفحش مجونه ، وصراحة قوله ، وصدقه في تصور خليقته وبيئته ، ووصفه الخمر وصفاً « لوسمه الحسنان ^(١) لما جرا إليها وعكفا عليها » وأقل شعره مدائح ، وأكثرها في الرشيد وولده الأمين . ويعد أبو نواس ثاني بشار في منزعه لفظاً ومعنى ، وكثيراً ما ضرب على وتره ، حتى قال الجاحظ . « بشار وأبو نواس معانما واحد والعدة اثنان : بشار حل من الطبع بحيث لم يتكلف قولاً ولا تمب في عمل شعر ، وأبو نواس حل من الطبع بحيث يصل شعره إلى القلب بغير إذن . » وكان أبو نواس مشهوراً بالثقيف ، يعمل القصيدة ويتركها ليلة ثم ينظر فيها فيحذف أكثرها ويقتصر على الجيد منها ، ولهذا قصرأكثر قصائده . وعو على رفته ومجونه جزل الألفاظ ، ونغم الأسلوب ، كثير الغريب . ولقد ابتدع في الشعر أشياء أنكرها عليه القلاء ، وأخذها عنه الشعراء ، كاستهتاره في الفجور ، واسترساله في المجون ، ونقله الغزل من أوصاف اللزوث إلى أوصاف الذكر . ولاريب أن هذه الطريقة التي شرعها هذا الشاعر للاجتناب كانت جناية على الأدب ، ووصمة في تاريخ شعر العرب .

درر صمه قنؤثره

قال في الخمر :

مازلت أسئلُ رُوحَ الدُّنِّ في لَطفٍ وأستقي دمه من جوف مجروح
حتى انشيت ولي روحان في جسدي والدُّنِّ منطرح جسماً بلا روح
وقال أيضاً :

مُعتقة صاغ المزاجُ لرأسها أكاليلَ دُرٍّ ما لمنظومها حلا
جرت حركات الدهر فوق سكونها فذابت كذوب التبرأخلصه السبك

(١) الحسن البصري والحسن بن سيار .

وقد خفيت من لطفها فكأنها بقايا يقين كاد يذهبها الشك
وقال في وصف شاربها :

ومستطيل على الصبباء باكرها في فتية باصطباح الراح حدائق
فكل شيء رآه ظنه قدحاً وكل شخص رآه ظنه الساق
وقال في وصف الكأس :

ودار ندای عطلها وأدبلوا بها أثر منهم جديد ودارس
مساحب من جر الزقاق على الثرى وأضناث ربحان جنى واطيس
حبست بها محبي فجددت عهدم وإنى على أمثال تلك الحابس
تدار علينا الراح في عسجدية حيثها بألوان التصاور فارس
قرارتها كسرى ، وفي جنباتها تمها تدرجها بالقصى الفوارس
فللخمر مازرت عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلانس
وقال في عاقبة الجبال :

ولقد نهزت مع النواة بدلوم وأسمت سرح اللوحى أساموا
وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه فإذا عصاره كل ذلك أنام
وقال في مدح الخصيب أمير مصر :

تقول التي من بيتها خف بمحلى عزيز علينا أنت نراك تسير
أما دون مصر للنفى مُتَطَلِّبٌ بلى إن أسباب النفى لكثير
فقلت لها واستمجلتها بواد جرت فجرى في إثرهن عير
دعنى أكثر حاسدك برحلة إلى بلد فيه الخصيب أمير
فتى يشتري حسن النناء بماله ويعلم أن الدائرات تدور
فما جازه جود ولا حل دونه ولكن يسير الجود حيث يسير
وقال في وصف الدنيا :

ألا كل حى هالك وابن هالك وذو نسب فى الهاكين عريق

إذا امتحن الدنيا لييب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق
ومن آياته التي يشتمل بها :
وقوله :

لا أزدود الطيرَ عن شجر قد بلوتُ للرَّ من ثمره
وقوله :
ليس على الله بمستبكر أن يجمع العالم في واحد
وقوله :

صار جدا ما مزحت به رُبَّ جسد ساقه اللعب

ابن الرومي

٢٢١ — ٢٨٤ هـ

نشأته وحياته ^(١)

أبو الحسن علي بن العباس بن جرجيس مولى حميد الله بن علي رومي .
الأصل . ولد بمتداد وفيها نشأ وتأدب حتى شعر ونبيغ . ثم قضى حياته كأكثر
الشعراء في انتجاع السراة والولاة . وقد حل الناس بلسانه على بره وتكرمه ،
إما رغبة وإما رهبة .

كان ابن الرومي شهماً كما يظهر من غصون شعره . وله أشعار كثيرة
في الطعام والشراب . وكان شديد الطيرة يملو فيها ويحتج لها ويقول : إن النبي
صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرة ، وأنه مر برجل وهو ير حل ناقه له
ويقول : (ياملونه) ، فقال لا يصحبنا مملون . وأن علياً رضى الله عنه كان
لا يترزو غزاة والقمر في المقرب . وكان يزعم أن الطيرة وجوده في الطباع ، وهي

(١) حياة ابن الرومي لا تزال سرّاً مكتوماً في ضيق الزمان فلم يترجم به أحد ترجمة
واحدة . وقد ذكر الأستاذ كيلان حيار (Cl. Hauri) أن أبا هاشم سعيد الخالدي من علماء
سيف الدولة كتب ترجمته منفصلة ، ولكن أن مر ؟

في بعضهم أظهر ، وأن الأكثر في الناس إذا لقي ما يكرهه قال : على وجه من أصبحت اليوم ؟ قال على بن السيب : دخل علينا ابن الروي يوم مهرجان سنة ٢٧٨ وقد أهدى إلى عدة من الجوارى القيان ؛ وكانت فيهن صبية حوله وعجوز في إحدى عينيها نكتة . فطير من ذلك ولم يظهر لى أمره ، وأقام باقى يومه لا يخرج . فلما كان بعد مدة يسيرة سقطت ابنة لى من بعض السلوح ، وجفاه القاسم ابن عبيد الله فجعل القيتين سبب ذلك وكتب إلى يقول :

أيها للتخفى بحول وعور أين كانت عنك الوجوه الحسناء ؟
قد لمرى ركبت أمراً مهيباً ساءنى فيك أيها الغلصان
فتضحك للمهرجان بالحول والمو ر أانا ما أعقب للمهرجان
كان من ذاك قدّك ابتك الحزّمة مصبوغة بها الأكفان
وتجاف مؤمّل لى جليل لجّ فيه الجفاء والمهرجان
قف إذا طيرة تلتفتك وانظر واستمع ثمّ ما يقول الزمان
خبر الله أن مشامة كانت تقوم وخبر القرآن

وبلغ من تطير ابن الروي أنه كان يقيم الأيام لا يخرج من داره إذا قرعت أذنه صبيحة اليوم كلة سيئة . وله في ذلك أخبار غريبة مع الأخفش . وكان هذا الشاعر فاحش المجدو شديد حتى خشيه الكبراء والوزراء قلاك . وكان أبو الحسن القاسم بن عبيد الله وزير للمتصد لا يقياً حذراً منه خائفاً من هجائه ، ولا يكاد يصدق أنه يسلم من لسانه . وكان هذا الوزير شريراً سفاكاً للدماء ، فدى عليه من سبه في أكلة وهو حاضر . فلما أحس ابن الروي بالسهم قام ، فقال له الوزير : إلى أين ؟ فقال إلى الوضع الذى بشت بى إليه ! فقال له سلم على والى . فقال ليس طريقى على النار . ولحق بمنزله وأقام به أياماً وكان الطيب يتردد عليه فزعم أنه غلط في بعض المقابير ، فقال وقد سأله نقطويه النحوى وهو يجود بنفسه :

غلط الطيب على غلطة مودر عجزت مواردّه عن الإصدار

والناس يَلْحَوْنَ الطَّيِّبَ وإنما غلب الطيب إصابة الأقدار

شعره

كان في الناس من يعير ابن الرومي جنسيته ، وينتقص لأجلها شاعريته
كما يؤخذ من قوله :

كَمْ حَائِبٌ عَلَى شَيْءٍ وَكُلُّ مَا فِيهِ عَيْبٌ
قَدْ نَعِمْنَ الرُّومُ شِعْراً مَا أَحْسَنَتْهُ الْمَرْيَبُ
يَا مُنْكَرَ الْمَجْدِ فِيهِمْ . أَلَيْسَ مِنْهُمْ صَهَبٌ ؟^(١)

ولكن هذه الجنسية كان لها الأثر الأظهر والفضل الأكبر في نبوغه ، فإنه
جمع إلى تعمق الآريين في للفكر ، تفوق الساميين في الخيال ؛ وضم إلى دقة
الروم في التصور ، قوة العرب في التصوير . فامتاز بتوايد المعنى واستقصائه حتى
لا يترك فيه بقية لغيرة . ومن ثم طالت قصائده من غير تكرير ولا سقط . وقلما
رأينا شاعراً يسلم على الطول وتنسأى أجزاء قصيدته في الحسن والقوة . ولابن
الرومي براعة نادرة في وصف الشيء وتشبيهه ، وقدرة غريبة على المتاب والمجاء ،
لما كان يمتنى به من جفاء الأصدقاء ، وإعراض السكبراء ، لحدة طبعه وضيق
خلقه . وهو في منزلة أبي تمام والبحتري ، وربما فضلتهما أحياناً ؛ لأنه قال في كل
فنون الشعر المعروفة (وزاد عليها زيادة لو وزعت على عشرة شعراء لأحلتهم
منازل النحول) .

على أنه يسف أحياناً فيطلب صحة المعنى ولا يبالي حيث وقع من هجنة اللفظ
وخشونته . ولو أنه نشأ نشأة عبد الله بن المعتز لما كان له ممة ذكر في باب التشبيه
والملاح ؛ فإن ابن الرومي أعلى كميأ منه في الشعر ، ولكن علمه بالمشبهات دون
علم الملوك . وقد قال له بعض معاصريه يلوهم : لم لا تشبه كنتشبهات ابن المعتز ؟

(١) صهيب بن سنان بن ماله الرومي صحابي جليل ، وهو أول من أسلم من الروم
تولى سنة ٣٨ أو ٣٩ هـ .

قَالَ ه : أَتَدْنِي مِنْ قَوْلِهِ الْقِيَّ اسْتَجِزْتَنِي عَنْ مِثْلِهِ . فَأَنْشَدَهُ قَوْلَهُ فِي الْمَلَالِ :
أَنْظُرْ إِلَيْهِ كَزُرُوقٍ مِنْ فُضَّةٍ قَدْ أَثْقَلَتْهُ حِمْلُهُ مِنْ عَيْبٍ ؟
قَالَ ه زَدْنِي : فَأَنْشَدَهُ قَوْلَهُ فِي الْآخِرِينَ ، وَهُوَ زَهْرٌ أَصْفَرٌ فِي وَسْطِهِ خَلٌّ أَسْوَدُ :

كَأَنَّ آخِرِيَّيْنَهَا غَيْبٌ سَمَاءٍ هَامِيَّةٍ
مَدَاهِنٌ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا بِقَالِمٍ غَالِيَّةٍ

فَصَاحَ وَاعْتَوَاهُ لَا يَكْفِي اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْمَهَا . ذَلِكَ إِنَّمَا يَصِفُ مَا عَوْنُ
يَتَبَعُ لِأَنَّهُ ابْنُ خَلِيفَةٍ ، وَأَنَا أَيْ شَيْءٌ أَصْفَرٌ ؟ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِذَا وَصَفْتَ مَا عَرَفَ
أَيْنَ يَقَعُ قَوْلِي مِنَ النَّاسِ . فَهَلْ لِأَحَدٍ قَطْعُ مِثْلِ قَوْلِي فِي قَوْسِ الْغَنَامِ :

وَقَدْ نَشَرْتُ أَيْدِيَ الْجَنُوبِ مَطَارِفًا مِنْ الْجُودِ كَنَفًا وَالْحَوَاشِيَّ عَلَى الْأَرْضِ
يَطْرُزُهَا قَوْسُ السَّحَابِ بِأَخْضَرٍ عَلَى أَحْمَرٍ فِي أَصْفَرٍ إِثْرٌ مُبَيَّنٌّ
كَأَذْيَالِ خَوْدٍ أَقْبَلَتْ فِي غَمَلَالٍ مُصَبَّغَةٍ وَالْبَعْضُ أَقْصَرُ مِنَ بَعْضٍ

وقولي في صنائع الرقاق :

مَا أَنْسَ لَا أَنْسَ خَبَازًا مَرَرْتُ بِهِ يَذْهَبُ الرِّقَاقُ مِثْلَ الْفَحْمِ لِلْبَصْرِ
مَا بَيْنَ رُؤْيَيْهَا فِي كَفِّهِ كَرَّةٌ وَبَيْنَ رُؤْيَيْهَا قُورَاءٌ كَالْقَمَرِ
إِلَّا بِعَقْدَارٍ مَا تَتَدَاخَلُ دَائِرَةٌ فِي لَجَّةٍ لِلَاءِ يَلْقَى فِيهِ بِالْجَبْرِ

نموذج منه شعره

من قوله ، وقال ما سبقني أحد إلى هذا المنى :

آرَأَوْكُمْ وَوُجُوهَكُمْ وَسَيُوفَكُمْ فِي الْحَادِثَاتِ إِذَا دَجَّوْنَ نَجْمٍ
مِنْهَا مَعَالِمٌ لِلْهَدَى ، وَمَصَابِحُ تَجْلُو الْقَبْجَى ، وَالْأَخْرِيَّاتُ رَجُومٌ
وَمِنْ مَعَانِيهِ الْمُخْتَرَعَةُ قَوْلُهُ :

وَإِذَا أَمَرْتُ مَدَحَ امْرَأٍ لِنَوَالِهِ وَأَطَالُ فِيهِ فَقَدْ أَرَادَ هَجَاءَهُ
لَوْ لَمْ يَقْدِرْ فِيهِ بُدٌّ لَلِسَقَى عِنْدَ الْوُرُودِ لَمَّا أَطَالَ رِشَاءَهُ

وكان هو بطيل

وقوله :

تَوَدَّدْتُ حَتَّى لَمْ أَجِدْ مُتَوَدِّدًا وَأَفْنَيْتُ أَقْلَامِي عَتَابًا مُرَدِّدًا
كَأَنِّي اسْتَدْنَيْتُ بِكَ ابْنَ حَنْثِيَّةٍ^(١) إِذَا النِّزَعُ أَذْنَاهُ مِنَ الصَّدْرِ أَبْهَدًا
وَمِنْ بَدَائِعِ قَوْلِهِ فِي الشَّبَابِ :

رَأَيْتُ سَوَادَ الرَّأْسِ وَاللَّهُوَ تَحْتَهُ كَلِيلٌ وَحَلْمٌ بَاتَ رَأْيُهُ يَنْعَمُ
فَلَمَّا اضْطَحَلَ اللَّيْلُ زَالَ نَعِيمُهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا عَهْدُهُ لِلتَّوَهُّمِ
وقوله من قصيدة يصف الشمس في الأصيل :

وَقَدْ رَفَعَتْ شَمْسُ الْأَصِيلِ وَفَضَّتْ عَلَى الْأَفَقِ النَّبِيَّ^١ وَرَمَا مَزْعَزَا
وَوَدَّعَتْ الدُّنْيَا لَتَقْضَى نَجْمَهَا وَشَوَّلَ بَاقِيَ عَمَرِهَا فَتَشَعَّمَا
وَلَا حَظَّ النَّوَّارُ وَهِيَ مَرِيضَةٌ وَقَدْ وَضَعَتْ خَدَّهَا إِلَى الْأَرْضِ أَضْرَمَا
كَأَنَّهَا لَحَظَتْ عَوَادَهُ عَيْنٌ مَدْفَنَةٌ تَوَجَّعَ مِنْ أَوْصَابِهِ مَا تَوَجَّعَا
وُظِّلَتْ عَيْنُ النَّوْرِ تَحْضُلُ^٢ بِالْمَدْنَى كَأَنَّهَا غَرَوَتْ عَيْنَ الشَّجَى لَتَلْمَعَا
يَرَاهِنَهَا صُورًا إِلَيْهَا رَوَانِيَا وَيَلْحَقُنِ الْخَائِفَا مِنَ الشَّجْوِ خُسَمَا
وَبَيْنَ إغْضَاءِ الْفِرَاقِ عَلَيْهِمَا كَأَنَّهُمَا خِلَا^٣ صَفَادِ تَوَدَّعَا
وَقَدْ ضَرَبَتْ فِي خُضْرَةِ الرُّوضِ صَفْرَةٌ مِنَ الشَّمْسِ فَخُضِرَ اخْضِرَارًا مَشْعَمَا
وَأَذْكَى نَسِيمَ الرُّوضِ رِيحَانُ ظِلِّهِ وَغْنَى مَغْنَى الطَّيْرِ فِيهِ وَسَجَمَا
وَعَرَّدَ رَبِّي^٤ الدُّبَابَ حِمْلَالَةً كَأَنَّ حَتَمَتَ الدُّنْيَانِ صَنْجَعًا مَشْرَمَا
فَكَانَتْ أَرَانِي^٥ الدُّبَابَ هُنَا كَو عَلَى شِدَوَاتِ الطَّيْرِ غُرْبًا مَوْقَمَا

(١) ابن حنيفة كناية عن الفوس وهو معنى طريف .

ابن المعتز

٢٤٩ - ٢٩٦ هـ

نشأته ومياله

هو أمير المؤمنين أبو العباس عبد الله بن الخليفة المعتز، ولد في بيت للثلاث وموئل الخلافة، ورعى في باحة النعم وموطن الجلالة، فنشأ نبيل النفس ذقيق الحس، قوى الشعور بالجمال، ولوعاً بالأدب واللوسيقى. تأدب على شيوخ الأدب في عصره كالبرص وطلب، وشارك في أكثر العلوم العقلية والعقلية، وشغله الأدب والطرب والحب عن دسائس القصر ومطامع الخلافة فكان كما وصف نفسه.

قليل هموم القلب إلا للذة بنعم نفساً آذنت بالتثقل
فإن تطلبه تقتنصه بحانة وإلا يستأن وكرم متظل
ولست تراه سائلاً عن خليفة ولا قائلاً من يملون ومن على
ولا صائحاً كالمرير في يوم لذة يناظر في تفضيل عنان أو على

إلا أن جماعة من شيعته لما رأوا ضعف المعتز واستعداد المالكة وسوء سياستهم خلعوه وبايعوا ابن المعتز فأتوا العرش إلا يوماً وليلة، لأن أنصار المعتز لم يشاءوا التسليم راضين. فتحزبوا وحاربوا أهوان ابن المعتز فشتتوهم، وأعادوا المعتز إلى دسسته. واختفى الخليفة الشاعر في دار الجصاص الجوهري، فقتلوه عليه الدار واعتقلوه. ودفنه للمعتز إلى مؤنس الخادم فضقه وسلمه إلى أهله ملفوفاً في كساء.

شعره

لنشأة ابن المعتز أثر ظاهر في شعره. فهو رقيق اللفظ، سهل العبارة، صافي الأسلوب، لفة طبعه ومهولة خلقه وصفاء خاطره. وهو بليغ الاستعارة

رائع التشبيه ، دقيق الوصف ، لدقة حسه ، ولطف شعوره ، وامتلاء ذهنه بروائع الجمال وبدائع الخيال وروثي الحضارة . وكان يقول للشعر ليرضاء لنفسه وتصويراً لحب ، فبرىء من كذب للدح ولؤم الهجاء ، وانصرف إلى وصف الطبيعة وبجاس الأنس ومطاردة الصيد ومراسلة الإخوان . وله ولع بالبديع في حسن صوغ وقفة نسكف . ونثره لا يقل عن شعره في شقاء الأسلوب وجودة اللفظ ودقة التخييل .

مؤلفاته

لا ين للمعز كتاب البديع ^(١) ، وهو أول مصنف في هذا الفن ، جمع فيه سبعة عشر نوعاً منه ؛ وكتب مكانبات الإخوان بالشعر ، وكتاب الجوارح والصيد ، وكتاب أشعار الملوك ، وكتاب طبقات الشعراء ، وكتاب الزهر والرياح ، وتصانيف أخرى أغلبها مفقود . وقد طبع ديوانه بالقاهرة في جزأين .

نموذج من شعره

كن جاملاً أو فتجامل تنزّ للجهل في ذا الدهر جاء عريض
والقل محروم يرى ما يرى كما ترى الوارث عين المرعى
وقال :

اقتلا همى بصرف عفار وأترك الدهر فما شاء كانا
إن للسكره لدعة همّ فإذا دام على المرء هانا
وقال :

ونسيم يبشر الأرض بالقطر وكذيل الغلالة المهلول
ووجوه البلاد تنتظر النسيم ثم انتظار المحب رجع الرسول
وقال :

أعاذل قد كبرت على الشاب وقد ضحك المشيب على الشباب

(١) نشره عام ١٩٣٥ الأستاذ أنطونيوس كراثوفيتسكى الماسنوف الرومى والمصدر يبحث باللغة الانجليزية عن الكتاب والنسخة التي تال منها ، وذيل بترجمة لابن المعتز بأذنها من أثر الكتاب في الأدب العربي .

رددت إلى النقي نفسى فقرت
وقال في مقبرة :

وسكان دار لا تزاور بينهم
كان خواتماً من الطيف فوهم
وقال :

كم حاسد حنق على بلا
متضاحك نحوى كما ضعفت
وقال :

انظر إلى حسن هلال بدا
كجبل قد صيغ من فضة
وقال :

قلى وتاب إلى ذا وذا
يهيم بالحسن كما يهينى
وقال :

من لى بقلب صيغ من صخرة
جرحته خديه بلعظى فسا
وقال :

ولقد قضت نفسى ما ربهسا
ونهار شيب الرأس يوقظ من
وقال :

وإني على إشفاق عيني من البكا
كما حللت من ماء برد طريدة
وقال أيضاً وإشارته إلى الديك :

كما رُدَّ العسائم إلى القرباب
على قرب بعض فى الخلق من بعض
فليس لهم حتى القليلة من فض

جرم فلم يضر رنى الحق
نار السدالة وهى تخرق

يهتك من أنواره العندسا
بمصد من زهر الدجى ترجسا

ليس يرى شيئاً فإياه
ويرحم القبح فيهواه

من جسد من لؤلؤ رطب
يوحت حتى اتص من قلبى

وقضيتُ غياً مرة ورشد
قد كان فى ليل الشباب رقد

لتجمع منى نظرة ثم أطرق
تمد إليه جيدها وهى تفرق

صفق لها ارتياحة لِسناً الفجـ سر وإما على الدجى أسفا
وقال إن له هذا الموشح المشهور ، ولا ندرى إن كان ابتدعه أم اتبع
فيه الأندلسيين :

أيها الساقى إليك المشتكى ا قد دعوناك وإن لم نسمع
* * *
ونديم همت في غمرته
وبشرب الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته
جذب السكاس إليه واتكى وسقانى أربصاً فى أربع
* * *
مالمنى عشيت بالنظر ا
أنكرت بمدك ضوء القمر
وإذا ما شئت ، فاسمع خبرى :
عشيت عيناي من طول البكا وبكى بعضى على بعضى معى ا
* * *
غصن باز مال من حيث القوى
مات من يهواه من فرط الجوى
خفق الأحشاء موهون القوى
كلما فكر فى البين بكى ويحى ا بيبكى لما لم يقعر ا
* * *
ليس لى صبر ، ولا لى جلد
يأتقوى عذلوا واجتهدوا ا
أنكروا شكواى مما أجد
مثل حالى حقه أن يشتكى ؟ كد اليأس وذل الطمع ا

كبد حرمى ، ودمع بكف
يفرف الممع ولا ينفرف
أيها للمرض عما أصف
قد نما حى بقلى وزكا لا تنقل فى الحب إلى مدمى

الشريف الرضى

٣٥٩ — ٤٠٤ هـ

نشأته ومياله

وُلِدَ أبو الحسن محمد بن الحسين اللُّوسوى ببغداد ، ونشأ فى حجر والده ،
ودرس العلم فى طفولته ؛ فبرع فى الفقه والفرائض ؛ وفاق فى العلم والأدب ،
وقال الشعر وحرره لا يزيد على عشر سنين . فلما بلغ التاسعة والعشرين من عمره
سُخِّف أباه فى نقابة الطالبين سنة ٣٨٨ ، ثم ضمت إليه مع النقابة سائر الأعمال
التي كان يليها أبوه ، وهى النظر فى اللظام والمجج بالناس .

وبقى فى هذه الأعمال حيناً من الدهر حتى تغير عليه الخليفة القادر لانهامه
عنده بالميل إلى العلويين الفاطميين بمصر فصرفه عنها ، فماش عيش القاتم الشريف
حتى قبضه الله إليه فى المحرم من سنة ٤٠٤ ودفن بداره فى الكرخ .

صفته وأخلاقه

كان الشريف أبى النفس عالى الهمة ، سَمَتْ به مزيمته إلى معالى الأمور
فلم يجد من الأيام مميكا عليها . وكان غنيقا لم يقبل من أحد صلة ولا جائزة ؛
حتى بلغ من تشده فى العفة أن رد ما كان جاريا على أبيه من صلات اللوك
والأمراء ، واجتهد بنو بويه أن يملوه على قبول صلاتهم فما استطاعوا .

شعره

نهج الرضى في شعره منهج الأقدمين من الشعراء في جزالة اللفظ وفضامة
لألفى . وشعره أشبه بشعر البحتري^(١) إلا أنه غلب في الفخر والحامسة ، وتنزه
عن عبث الوليد ومجونه . قال الثعالبي ؛ « وهو أشعر الطالبين من مضى منهم
ومن غبر على كثرة شعرائهم للفلقين . ولو قلت إنه أشعر قريش لم أبعد عن
الصدق » ثم قال بعد ذلك . « ولست أدري في شعراء المصريين أحسن تصرفاً
في المرائى منه » . وكان على مكافته في الشعر راسخ القدم في الكتابة ، يمد
الشأوفى القرحل . ولو كان حقاً ما يقال من أن له يداً في نهج البلاغة لما تردد
منصف في الحكم بأنه أكتب الكتاب في العربية ؛ لأن نهج البلاغة هو
في المحل الثاني من كتاب الله وحديث رسوله بلاغة وبياناً :

مؤلفاته

ألف هذا الشاعر في معاني القرآن كتاباً يدل على تضلعه في النحو والفنة
وأصول الدين ، وكتاباً آخر في مجازات القرآن . وله مجموعة رسائل وديوان
شعر ؛ ثم كتاب نهج البلاغة وهو ما جمعه من كلام أمير المؤمنين على بن أبي
طالب . ومن الناس من يميل إلى أن أكثر هذا الكتاب من صنع الشريف ؛
لما فيه من التعرض للصعابة بالأذى والمُحَجَّر ؛ ولأن ما فيه من فلسفة الأخلاق ،
وقواعد الإجتاع ، ودقة الوصف ، وتكلف الصنعة ، ليس في إمكان ذلك
المعزول ولا في طبعه . والظاهر أن الشريف جمع كل ما نسب إلى الإمام وفيه
الصحيح والشوب .

(١) نجد مثلاً ذلك إذا وازنت بين قصيدة الشريف في مدح القائد بالله وبين قصيدة
البحتري في مدح لادنوك ولقد أينا في ترجمة كل منهما بقطعة من قصيدته .

نموذج منه شعره

قال من قصيدة له في مدح القادر بالله واستعطافه وقد ترسم فيها خطي البحتري
مدح المتوكل .

لله يوم اطلعتك به العلا	علماً بزُلول بالعبون ويُرشقُ
لما سميت بك عزة موموقة	كالشمس تبهر بالضياء وتومق
ورزت في بُرد النبي ولاهدى	نورٌ على أسرار وجهك مشرق
وكان دارك جنةً حصباؤها الجا	دى أو أمانها الاستبرق
في موقف تنفض السيون جلالةً	فيه ويمثر بالكلام المنطق
وكأنما فوق السرر وقد سما	أسدٌ على نشرات غاب مطرق
والناس إما راجع متهمب	مما رأى ، أو طالع متشوق
مالوا إليك محبة فتجهموا	ورأوا عليك مهابة فتفرقوا
وطعنت في غرر الكلام بفيض	لا يستقل به السنان الأزرق
وغرست في حب القلوب مودةً	تزكو على مر الزمان وتورق
وأنا القريب إليك فيه ودونه	ليدنى عدوك طود عز أعنى
عطفاً أمير المؤمنين فإننا	في دوحه العلياء لا تنفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت	أبدأ ، كلانا في المالى مُعرق
إلا الخلافة ميزتك فإننى	أنا عاطل منها وأنت معلوق

الطغرائى

المتوفى سنة ٥١٣ هـ

نسأله وحياته

هو المبيد أبو إسماعيل الحسين بن علي المعروف بالطغرائى نسبة إلى مهنته أول
حياته . فذل كان يكتب الطغراء (الطرفة) في أعلى السكتب بخط خاص فيها نعوت

السلطان وأقابه . وقد بأصهبان من أسرة فارسية تم تقلب في ظل آل ساجوق .
 حتى وُزر للسلطان مسعود السلجوقي بالموصل ، وصار ينعت بالأستاذ ويلقب
 بالمشي . فلما نشبت الحرب بين السلطان مسعود وبين أخيه السلطان محمود بالقرب
 من همدان وكانت النصر لثانيهما أخذ الطفراني أسيراً ، ثم أغراه وزيره
 نظام الدين بقتله ، وما لآه عليه بمض حسده من رؤوس الكتاب فرماه عنده
 بالإلحاد فقتل ظلماً سنة ٥١٣ هـ .

شعره

شعر الطفراني طهر الأبيات ، متين القافية ، مختار اللفظ ، يملأ فيه الفخر
 والحسكة . ونثره من طبقة شعره في إحكام الصنعة ورصانة الأسلوب . وله ديوان
 شعر كبير أكثره في مدح السلطان سعيد بن ملك شاه ونظام الملك . وخير ما فيه
 قصيدته الالامية للمشهوره بلامية المعجم ، وهي من عيون الشعر ونخاره . قالما
 يينفداد يندب الزمان ويشكو الإخوان أنعاء عطلة له من العمل . وقد أفردوا
 العلماء بالشروح ما بين كبير وصغير . قال في مطامها :

أصالة الرأي صائتني عن الخطل وحلية الفضل زائتني لدى المعطل
 مجدى أخيراً ومجدى أولاً شرع والشمس رأد الغصن كالشمس في الطفل
 ومنها :

حب السلامة يثني م صاحبها عن العالي وينرى الرء بالسكل
 فإن جعت إليه فاعخذ فققاً في الأرض أو سكتاً في الجوف فاعزل
 ودع غبار الملا للمقدمين على ركوبها واقنع منهن بالبلل
 رضا القليل بخفض العيش مسكنة والمر تحت رسيم الأيتني القلل
 وقال وقد رزق مولوداً على ركبر .

هذا الصغير الذي وانى على ركبر أقر عيني ولكن زاد في فكري

سبع وخمسون لو مرّت على حبر
ومن قوله في الفخر .
أبي الله أن أسمو ينهر فضائي
وإن كُرُمَت قبلي أوائل أسرتي
وما للمال إلا عارة مستردة
إذا لم تكن لي في الولاية بسطة
ولا كان لي حكم مطاع أجزئه
فأعذر أن قصرت في حق مجتد
أأكفي ولا أكفي؟ وتلك غصاة
من الحزم ألا يضجر المرء بالقي
إذا جلدني في الأمر خان ولم يُمن
ومن يستعين بالصبر قال مراده
ولو بعد حين . إنه خير مسدد

الشعر والشعراء في الشام

كاتب دمشق في عهد الأمويين حاضرة الخلافة ، وقاعدة الملك ،
ومقر الجند ، ومعقل الإسلام ، ومناط الأمل . فشغلها أدب السيف عن أدب
القلم ، وألهاها عن حل الكتاب حلّ العلم . وخلّجتها خوالج الرئاسة والسياسة
عن رواية الأدب وقرض الشعر ، فتخلّت عنهما للعراق والحجاز ، فزخرت
مدنهما بالشعر ، وغصت بحالهما بالأدباء . وقد علمت كيف كان أثر معاوية
وأخلاقه في إذكاء هذه النهضة .

فلما أدال الله المباسين من الأمويين ، والفرس من العرب ، وبنداد من
دمشق ، قبرت حركة الأدب في الشام ، فما كان يصدر عنها ولا إليها ، حتى تلك
بنو حمدان في القرن الرابع على حلب ، وهم كما قال النعماني : ملوك وأمرأ
ألسنتهم لفصاحة ، وأيديهم للساحة ، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم ، وواصلة

قلادتهم ، وهو أديب بارع وشاعر مطبوع وملك مدح ؛ فوطاً كشفه للأديباء
والشعراء والعلماء ، حتى (ليقل إنه لم يجتمع بيباب أحد من الملوك بعد الخلفاء
ما اجتمع بيبابه من شيوخ الشعر ونجوم القهر ، وإنما للسلطان سوق يجلب إليها
ما ينفق عليها) .

والطريقة التالية على أهل الشام في الشعر هي طريقة البصري في إثارة اللفظ
الجزل ، والألحاح القصيح السهل ، دون تعمق في المعنى ، ولا إفراط في الإيجاز .
وقد سمع الثعالبي عن صاحب بن عباد أنه كان يُعجب بها ، ويهمل من أدبها .
وَرَوَى هو أيضاً عن الخوارزمي أنه قال : « ما فتى قلبي ، وشغذفهي ، وصقل
ذهني وأرهف حدسائي ، وبلغ بي هذا المبلغ إلا تلك الطرائف الشامية ،
والعطائف الحليبية ، التي علفت بحفظي ، وامتزجت بأجزاء نفسي ، وغصن
للشباب رطيب » .

وكفى الشام غمراً أن أعادت إلى العرب في أبي تمام والبحتري والخنيزي
وأبي فراس وأبي العلاء سبق الشعر بعد أن غلبهم عليه متهربو القرس وأبناء
للوالى في صدر هذا العصر .

ومستفصر على الترجمة بهؤلاء النابهين ، فإن الإحاطة بهم ، والكشف
عن مناحي أدبهم ، لا يتسع لها صدر هذا المختصر .

أبو تمام

١٨٨ — ٢٣٩ هـ

نشأته ومبائه

ولد حبيب بن أوس الطائي بقرية يقال لها جاسم من أعمال دمشق . ثم انتقل
أبوه إلى دمشق يحترف الحياكة وهو ممة في خدمته . فلما ترعرع غادرها إلى
مصر فكان يسقى الماء بمجامع عمرو ويستقي من أدب علمائه ، ولم يزل يحفظ

الأشمار وبما كى الشعراء فيصادفه التوفيق مرة ويخطئه أخرى ؛ حتى بلغ من الشعر مبلغا لم يزاحه فيه أحد من أهل عصره . وقد سار به شعره إلى أسواق الأدب في أنحاء البلاد ، فنادر مصر يفتنى منازل الكرماء ويتفيا ظل النعمة . فأقبل عليه عشاق الأدب واللدح إقبالا لم يُبق لغيره مجالا ، حتى لم يستطع أحد من الشعراء أن يكسب درهما بالشعر في حياته . ثم اتصل بأحمد بن المتصم ومدحه فأجازه بولاية بريد الموصل فوليه عامين ثم مضى لسبيله وقد نيف قليلا على الأربعين .

صفاته وأخلاقه

كان أبو تمام أسمر اللون طويل القامة فضيحا حلو الكلام فيه تمتع بسيرة . وكان ذكى الطبع حاضر البديهة قوى الذاكرة . قيل : إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة غير القصائد والمقطوعات . وكتايا الحماسة وغول الشعراء ناطقان بذلك . ويبدل على فطنته وسرعة خاطره أنه لما أنشد أحمد بن المتصم قصيدته السينية التي يقول في مطلعها .

ما في وقوفك ساعة من باس تقضى ذمام الأربع الأدراس
ووصل إلى قوله فيها :

إقدام عمرو في سباحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إلياس
قال أبو يوسف الكندي الفيلسوف وكان حاضرا : الأمير فوق من وصفت :
وما زدت على أن شبهته بأجلاف العرب . فأطرق أبو تمام قليلا ثم قال على البديهة :
لا تنكروا ضربى له من دونه مثلا شرودا في الندى والباس
فأله قد ضرب الأفل " لتوره مثلا من المشكاة والذباس
ولما أخذت منه القصيدة لم يجدوا فيها هذين البيتين فحموا . وقال
الفيلسوف للتخليفة : مهما يطلب فأعطه ، فإن فكره يأكل جسمه كما يأكل
السيف المهند غمده ، ولا يمشي كثيرا : فولاه بريد الموصل .

شعره

أبو تمام رأس الطبقة الثانية من المولدين جمع بين معاني التقديم والتأخيرين ،
وظهر والحضارة راقية ، والعلوم مترجمة ، خصف عقله ولطف خياله بالاطلاع
عليها . واستنبط من ذلك طريقته التي آثر فيها تجويد المعنى على تسهيل العبارة
فكان أول من أكثر من الاستدلال بالأدلة العقلية والكتابات الخفية ولوافى
ذلك إلى التيقيد . وكأنه لما رأى أن سلاخة اللفظ قاتته أراد أن يجبر ذلك الكسر
فتوخى الجناس والمطابقة والاستمارة ، فلم له بمض واعتل عايه بعض ، فصار
كالكتف في صفحة البدر . ومع هذا قد سلم له من كلامه جملة لم يحم حولها
السابقون وقصر عنها اللاحقون : معان مبتكرة ، وألفاظ متغيرة ، ضمنها من
الأمثال والحكم ما زاد في ثروة الأدب العربي ، ومهد لمن خلفه الطريق فسلكتها
الغنى وأبو العلاء إلى حكمهم وأمثالهم . وثلاثة الحكمة عليه قيل : « أبو تمام وللغنى
حكيان ، والشاعر البحتري » ، وقد كثر اختلاف الناس فيه ؛ فمنهم من تمصب له
وأفرط حتى فضله على كل ساف وخالف . ومنهم من عمد إلى جوده فطواه ، وإلى
رديته فرواه . ولكن إسان للدح كان أغلب ، فقد فضله من الرؤساء والمظالم
ملا قبل لطلعين عليه بهم . قال محمد بن عبد الملك الزيات وقد مدحه بقصيدة
شاعرة : يا أبا تمام إنك لتتحلى شعرك من جواهر لفتلك وبديع ممانيك ما يزيد
حسنا على يعى الجواهر في أجياد السكواعب . وما يدخر لك شيء من جزيل
السكافاة إلا ويقصر عن شعرك في الموازنة .

وقد جمع شعره في ديوان طبع مراراً . وله غيره كتابا الحماسة وغزل الشعراء
جمع فيهما ميون الشعر وغرره في الجاهلية والإسلام . وقد أحسن في الاختيار
جد الإحسان حتى قيل إنه في اختياره أبلغ منه في شعره .

نموذج منه شعره

من أبدع قصائده قوله .

غدت نستجير الله من خوف نوى غد وعاد قتاداً حشداً كلُّ مرقد
وأقذها من غمرة الموت أنه صدود فراق لا صدود تمد
فأجبري لما الإشفاق دمعاً مورداً من الدم يجري فوق خد مورد
ويقول فيها في الحث على الاعترا ب ، ولو تأملت وجدته يتوخى الطباقة
في كل بيت :

ولكنني لم أخوِ وفراً مجمأً ففرت به إلا بشل مهّد
ولم تمنني الأيام يوماً مسكناً أدّ به إلا بنوم مشرد
وطول مقام المرء في الحى مُخلّقاً لهيباجيته فاعترب هجسه
فإن رأيت الشمس زيدت حجة على الناس أن ليست عليهم بمرمد
ومن قوله :

هل فؤادك^(١) حيث شئت من الموى ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل
وقال في رثاء محمد بن حميد الطوسي :

كذا فليجلّ الخطب وليقدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر
توفيت الآمال بهـمد محمد وأصبح في شغل عن السر السر
ألا في سبيل الله من عطيت له فجاج سبيل الله وانتشر النغر
في كلما فاضت ميون قبيلة دما ضحكت عنه الأحاديث والذكر
في دهره شطران فيا ينويه في بأسه شطر وفي جوده شطر

(١) من حبيب توارد الخواطر أن هذا الذي بينه سار به مثل فرس وهو :

L'homme revient toujours
A ses premiers amours

قَتَى مَاتَ بَيْنَ الطَّنِّ وَالضَّرْبِ مَوْتَةً تقوم مقام النصر إذا فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه من الضرب واعتلت عليه القَتَا السُّرُ
تردى ثياب الموت حُرّاً فا دجا لها الليل إلا وهي من سُلمن خُسْرُ
وقال في المدح :

خَوْلٌ ، لا فِئَالَهُ مَرْنَعُ الْقَدَمِ (م) ولا عرضه مَرَّاحُ الْعُيُوبِ
سَرُوحٌ قَوْلُهُ إِذَا مَا اسْتَمَرَّتْ عَقْلَةُ الْعَيْنِ فِي لِسَانِ الْخَطِيبِ
لَا مَعْنَى بِكُلِّ شَيْءٍ وَلَا كُلُّ (م) عَجِيبٌ فِي عَيْنِهِ بِعَجِيبِ
لَيْسَ يَمَرُّ عَنْ حَلَةٍ مِنْ طَرَلٍ حِلْحٍ مِنْ رَاجِزٍ بِهَا مُسْتَقِيبِ
وَإِذَا كَفَّ رَاغِبٌ سَابِقَهُ رَاحَ طَلْقًا كَالْكُوكِبِ الْمُشْبُوبِ
مَا مَهَاةُ الْحِجَالِ مَمْلُوءَةٌ رَفُوحًا مِنْ مَاجِدِ مَسْلُوبِ
وَاحِدٌ بِالْخَلِيلِ مِنْ بَرَحَاءِ الشَّ رُوقٍ وَجِدَانٍ غَيْرِهِ بِالْحَلِيبِ
كُلُّ شَيْءٍ كَفَّمْ بِهِ آلُ وَهَبٍ فَمَوْشِيٍّ وَشَمْبٍ كُلُّ أَدِيبِ
إِنْ قَلْبِي لَكُمْ لَكَالْكَبِدِ الْحَمِ يَ وَقَلْبِي لَنَفِيرِكُمْ كَالْقُلُوبِ
وقال أيضا :

إِذَا حَرَكْتَهُ هَزَّةَ الْمَجْدِ غَيْرَتِ عَطَايَاهُ أَسْمَاءَ الْأَمَانِيِّ الْكَوَاذِبِ
يَرَى أَتَقَبِحُ الْأَشْيَاءَ أَوْيَةَ آمَلِ كَسَتْهُ يَدُ الْمَأْمُولِ حَلَّةَ خُطَابِ
وَأَحْسَنَ مِنْ نَوْرِ تَفْتَحُهُ الصَّبَا بَيَاضُ الْمَطَايَا فِي سَوَادِ الْمَطَالِبِ

البحرَى

٢٠٦ — ٢٨٤ هـ

نشأته ومياله

أبو عبادَةَ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الطَّائِي عَرَبِيٌّ صَمِيمٌ وَلَهُ بَنِيحُ (يُنْزِلُ حَلَبَ

والفترات) سنة ٢٠٦ ونشأ في البادية بين قبائل طيء وغيرها فلبت عليه فصاحة العرب . ثم خرج إلى بغداد فلقى أبا تمام ولزمه حتى خرج عليه واقتبس طريقته في البديع . وروى عن كثير من العلماء كأبي العباس اللبرد . وظل صنيعه لأبي تمام يردد صدهاء ، ويتوسم خطاه ، وحبيب يرشده ويمضده لأنه طأى مثله ، حتى قال له يوماً : « أنت والله يا بني أمير الشعراء غداً بعدى » ، فصدق الله نبوءته . وأصبح البحتري بعد وفاة أبي تمام سائر الشعر طائر الذكر إماماً في الأدب والقريض . وأقام في العراق في خدمة للتوكل والفتح بن خاقان وزريره إلى أن قتل على مشهد منه ، فرجع بعدئذ إلى منبج . وكان يختلف أحياناً إلى سرات بغداد « وسراً من رأى » فيمدحهم حتى مات سنة ٢٨٤ .

صفات وأخلاقه

كان البحتري على أدبه وفضله ورقته من أوسخ خلق الله ثوباً وأبخلهم على نفسه وغيره . وكان كما يروى عنه بعض خصومه من أبنض الناس إنشاداً :
يقشادق ويتزاور في مشيته جانباً أو القهقري ، ويهز رأسه مرة ومنكببيه
أخرى ، ويشير بكمه عند كل بيت ويقول : أحسنت والله ! ثم يقبل على المستمعين قائلاً . مالكم لا تقولون أحسنت ؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله . ولكنه كان منصفاً يعترف بالفضل لأهله ولا يدعى ما ليس له . قال له بعض الناس وقد سمع شعره : أنت شعر من أبي تمام . فقال : ما يعني هذا القول ولا يضر أبا تمام . والله ما أكلت الخبز إلا به ، ولوددت أن الأمر كما قالوا ، ولكني والله تابع له ، آخذت منه ، لآخذ به ، نسيمي يركد عند هوائه ، وأرضي تنخفض عند سماه !

شعره

ترسم البحتري خطوطاً في تمام في الشعر ومضى على أثره في البديع ، إلا أنه أجاد في سبك اللفظ على اللحن « وأراد أن يشر فتنى » كما قال فيه ابن الأثير

واستمد معانيه من وحى الخيال وجمال الطبيعة لا من قضايا العلم والمنطق ، فأعاد للشعر ما ذهب من بهجته وروعته ، وإلى ذلك أشار المتنبي بقوله : « أناؤا بوجع حكيان ، والشاعر البحتري » ، ثم صارت له طريقة خاصة في الجزالة والمدبوبة والنفصاحة امتاز بها من أستاذه ومدربه ، نهجها معاصروه ومن جاء بعدهم من الشعراء . وعرفت بطريقة أهل الشام . وقد تصرف أبو عباد في فنون الشعر إلا في المجهاء ، فإن بضاعته فيه نزره وجيده منه قليل . ويقال إنه أحرق هذا النوع قبل موته وهو الأرجح . ولم يسلم شعره من الساقط اللث لكثرة ، وإنما يمتاز بالإجادة في للدح والقصد فيه ، والقدرة على تصوير أخلاق المدحود ، والإبداع في وصف القصور الفخمة والأبنية المجدبة ، كوصف إيوان كسرى^(١) وبركة للتوكل ، وقصر للتعز باث . وقصائده تسكاد لا تخلو من افتتاح بالفضل . وقد جمع شعره أبو بكر الصولي ورتبه على الحروف . وله غيره كتاب معاني الشعر وحاسة البحتري . وهي كحاسة أبي تمام ، إلا أنها تمتاز بكثرة أبوابها وخلوها مما تنبؤ الأسماح عنه ؛ وطبعت في بيروت .

نموذج من شعره

من قوله في وصف بركة التوكل :

تَنْصَبُ فِيهَا وَفُودُ الْمَاءِ مُعْجَلَةً	كالتخيل خارجة من حبل مجربها
كأنما القنصة البيضاء سائلة	من السبائك تجري في مجاريها
إذا غلظها أصبا أبدت لها حُبكا	مثل الجواشن مصقولا حواشيها
فحاجب الشمس أحيانا يضحكها	وريق النيث أحيانا يبكيها
إذا النجوم تراءت في جوانبها	ليلا حسبت سماء رُكبت فيها

وقال يمدح الخليفة للتوكل ويهنته بميد الفطر :

(١) قصيدة البحتري في وصف إيوان كسرى من بدائع الشعر العربي المألف ، وذلك أوردتها أكثرما في النماذج .

بالبرِّ صحت وأنت أفضل صائم
 غانمٌ بيوم القطر حيناً وإنه
 أظهرت عزَّ لك فيه بحفل
 فالخيل تصهل والقوارس تدعى
 والأرض خاشعة تمجد بثقلها
 والشمس طالعة توقد في الضحى
 حتى طلعت بنور وجهك فأنجل
 خافن فيك الناظرون فأصبح
 ذكروا بظلمتك النبيَّ فهلوا
 حتى انتهيت إلى المصلِّ لا بسا
 ومشييت مشية خاشع متواضع
 فلو أن مشتاقاً تكلف فوق ما
 أبديت من فصل الخطاب محكمة
 ووقفت في بُرْدِ النبيِّ مذكراً
 ومن قوله في الطيف :

إذا ما الكرى أهدى إلى خياله
 إذا انتزعت من يدى انتباهه
 ولم أر مثلياً ولا مثل شأنا
 شفى قربة التبرج أوقع الصدى
 حيث حبيباً راح منى أو غدا
 نذب أيقاظاً ونعم هجداً

المتنبي

نشأته وحياته

٣٠٣ - ٨٣٥٤

أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي ولد بالكوفة من أبوين فقيرين . كان

أبوه سقاء بالكوفة : ثم سافر به وهو صغير إلى الشام متقلداً من البادية إلى الحاضرة يسلمه إلى المكاتب ، ويردده في القبائل ، ومخاطبه نواطق بفضله ، ضوامن لنجته ، حتى توفي أبوه وقد ترعرع الشاعر ونال حظاً من علوم اللغة والأدب فأخذ يضرب في الأرض اجتفاء للرزق واكتساباً للمجد .

وكان التنقي منذ نشأته كبير النفس على الهمة طموحاً إلى المجد : بلغ من كبر نفسه أن دعا إلى بيعته ^(١) بالخلافة وهو لئن العود حديث السن . وحين كاد يتم له الأمر تأدى خبره إلى والي البلدة فأمر بحبسه . فكتب إليه من السجن قصيدة منها :

أمالك رقى ومن شأنه هبات الأجن وعق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجا والموت متى كحل الوريد
تحوطك لنا براني البلى وأوهن رجل قل الحديد

تَجَلَّ في وجوب الحدود وحدى قيل وجوب السجود ^(٢)
فأطلقه . ولكن حب الرضا لم يزل متسكناً من قلبه إلى أن أخلق بُرد
شبابه وتضاعفت عقود عمره . وفي سنة ٣٣٣ أدمى النبوة في الشام وقتل شزيمة
من الناس بقوة أدبه وسحر بيانه . ولما سئل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
إنه بشر بمجيئى وأخبر بنبوتى فقال : لا نبى بعدى ، وأنا اسمى في السماء
(لا) . وصنف كلاماً عارض به القرآن . فلما اشتهر أمره قُبض عليه أولاً أمير
حمص نائب الأخشيدي ، فأوثقه ثم أطلقه بعد أن استتابه . وتفرق عنه أصحابه .
فلحق يتجشم أقطاراً أبداً من آماله ، ولا زاد إلا صيره ، ولا عدة إلا بأسه ،
كما يجبل ذلك في مثل قوله :

وحيد من الخلائق في كل بلدة إذا عظم المطلوب قل المساعد
وقوله :

(١) الفيتية ١ ص ٧٩ .

(٢) يريد : إن صبي لم يبلغ الحلم فيجب على السجود ، فكيف يجب على الحدود ؟

ضاق صدرى وطالنى طلب الرزق قىامى وقل عنه قعودى
أبداً أقطع البلاد ونجمى فى نخوش وعتى فى سعود
ولم يزل هكذا حتى اتصل بأبى العشار والى أنطاكية من قبل سيف الدولة
وادمده ، فأكرم مشواه وقدمه إلى سيف الدولة وعرفه بمنزلته من الشعر
والأدب فغضبه الأمير إليه وحسن موقعه عنده ، فسله إلى الرواض فعلموه
الفروسية والطراد حتى لا يفارقه فى الحرب ولا فى السلم . وأنعم وطابه ودرت
له أخلاف الدنيا على يده ، حتى كان من قوله فيه :

تركت الشرى خافى لمن قل ماله وأنملت أفراسى بئماك عسجداً
وقيدت نغمى فى هواك محبة ومن وجد الإحسان قيذاً تقيداً
ولم يزل معه فى حال حسنة حتى حدثت بينهما جفوة ففارقه ^(١) إلى مصر
فى سنة ٣٤٦ . ومدح كافوراً الإخشيدى وأبا شجاع . وأقام فى مصر خمس سنين
يرقب الفرصة من كافور فيصعد المجد على كاهله . فاهو إلا أن قال :
أبا للسك ، هل فى الكأس فضل أئانه فإنى أغنى منذ حين ونشرب
وقال :

وال نافى أن ترفع الحجب بيننا ودون القى أملت منك حجاب
وفى النفس حاجت ونيك فطانة سكونى بيان عندها وخطاب
حتى أوجس كافور منه خيفة ، لتعاليه فى شعره وطموحه إلى الملك : فزوى عنه
وجبه ، فمجاهد وقصد بغداد . ولم مدح الوزير المملوك لأنه كان يترفع عن مدح غير
للكوك ، فشكى ذلك على الوزير فأشلى عليه شعراء بغداد فقالوا من عرضه ومن
شعره . ولكنه لم يجهم ، وذهب قاصداً أرجان لزيارة الفضل بن المميد فكتب
إليه الوزير المصاحب بن عباد يستزيه بأصمهان طامعاً أن يمدحه فلم يقم له وزناً
وأمّ عضد الدولة بشيراز . فأوغر عليه قلب المصاحب وأخذ يتعقب هفواته ، وهو أعلم

(١) أثر هذا الفراق فى أبى الطيب فاضرب أمره وتراجع شعره . ولا عوتب فى آخر
أيامه على ذلك قال : لتبوزت لى قولى ، وأعفيت طبعى ، واختتمت الراحة منذ فرت آل عثمان :

الناس بمحطاته — وشن عليه هو وأشياعه حرباً قلبية ، وألقوا الكتب في قدمه ورموه بالسرقة والخروج عن الأساليب العربية ، وهو لا يأبه لهم ذهاباً بنفسه وإعجاباً بشعره .

* * *

ولما حصل عند عضد الدولة أسبغ عليه نعمته ووصله بثلاثة آلاف دينار وخيول وثياب ، ثم دس عليه من يسله : أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة ؟ فقال له : هذا أجزل إلا أنه متكلف ، وسيف الدولة كان يعمل طبعاً . فنضب عضد الدولة من ذلك . ويقال إنه جهز عليه فانسكا الأسدى في قوم من بني ضبة ، فعرض له بالصفاية من سواد بنداواقتلا . فلما رأى الدائرة عليه هم بالفرار . فقال له غلامه : لا يتحدث الناس عندك بالفرار وأنت القاتل :

الخيول والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم
فقاتل حتى قتل هو وولده . وغلامه في أواخر رمضان من سنة ٣٥٤ هـ .

شعره

المتنبى شاعر من شعراء المعاني ، وفق بين الشعر والفلسفة ؛ وجعل كثر عنايته بالمعنى ؛ وأطلق الشعر من القيود التي قيدته بها برتمام وشبهته ، وخرج به عن أساليب العرب التقليدية : فهو إمام الطريقة الاجتماعية^(١) في الشعر العربي . ولقد حظى في شعره بالحكم والأمثال ، واختص بالإبداع في وصف القتال ، والتشبيب بالأعرايبات ، وإجادة التشبيه ، وإرسال المثلين في بيت واحد ، وحسن التخلص ، وسحة التقسيم ، وإبداع اللمح ، وإيجاع المجامع . وأخص ما يميز المتنبى

(١) الاجتماعية كما قلنا من قبل ترجمة منقوبة لكلمة *Romantique* لأن أهل هذه الطريقة من الألمان والإنجليز والفرنسيين قد خرجوا على الطريقة الانباعية *Classique* بجمع أسلوب جديد انتشر في أوروبا بعد عتاء طويل وانضال عنيف بين أرواب الطريقتين . وإن في خروج أبي العليّ إلى ابن هانئ الأندلسي وأبي الفداء القرطبي وأضرابهم على أساليبهم في القصيدة والملاحم الشعر من عبود الصناعة ما يحبه تلك الطريقة .

بروز شخصيته في شعره ، وصدق إيمانه برأيه ، وقوة اعتداده بنفسه ، وصحة تعبيره عن طبائع النفس ومشاعل الناس وأهواء القلوب وحقائق الوجود وأغراض الحياة .
لذلك كان شعره في كل عصر مدداً لكل كاتب ، ومثلاً لكل خاطب .

عيوب شعره

بيت للتعبير يضيق أحياناً بمناه فيفسر فهمه ، ويعمد غايته منه فيطيش بهمه .
وقد بلغ من إجماله اللفظ أن وقع في بعض المساوئ ، كاستكراه اللفظ ، وتمقيد للمعنى ، واستعمال الغريب ، وقبح للطالع ، ومخالفة القياس ، وكثرة التنازع .
في شعره ، والخروج في اللبانة إلى الإحالة ، كقوله :

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف
وقوله :

أني يكون أبا البرايا آدم وأبوك والثقلان أنت محمد (١)
وقوله :

لو لم تكن من ذا الوري الدمينك هو عقت بمولد نسلها حموا
والاستشهاد على كل ذلك يخرج بنا إلى التعليل فارجع إلى قيمة الدهر للشمالي

نموذج من شعره

قال يشكو الزمان :

لم يترك الدهر من قابي ولا كيدي شيئاً تقيمه عين ولا جيد
يا ساقى آخر في كؤوسكا أم في كؤوسكا هم وتسهد؟
أصغرة أنا ؟ مالي لا تغيري هذي للدام ولا تلك الأناشيد؟
إذا أردت كيت الخمر صافية وجدتها وعيب النفس مفقود

(١) بقديره : أني يكون آدم أبا البرايا وأبوك محمد وأنت الثقلان .

ماذا لقيت من الدنيا ؟ وأعجبها أنى بما أنا بك منه محسود
وقال يتفلسف :

نحن بنو للوث فما بالناس	نصاف مالا يد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا	على زمان هن من كسبه
فهذه الأرواح من جوهر	وهذه الأجسام من تربه
لو فكر العاشق في متعته	حسن الذى يسبه لم يسبه
لم ير قرن الشمس في شرقه	فشكت الأنفس في غربه
يموت راعي الضأن في جهله	ميتة جالينوس في طبه
وربما زاد على عمره	وزاد في الأمن على سربه
وغاية للفرط في سلمه	كفاية للفرط في حربه

وقال :

نصيبك في حيانك من حبيب	نصيبك في منامك من خيال
رماني الدهر بالأرزاء حتى	فزادى في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابنى سهام	تكسرت النصال على النصال
وهان فما أبالى بالزايا	لأنى ما اختفت بأن أبالى

وقال .

سحب الناس قبلنا ذا الزمانا	وعنام من أمره ما عانا
وتولوا بنصبة كلهم مد-	ه وإن سرّ بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيع لئلا-	ه ولكن تكدر الإحسانا
وكأننا لم يرّض فينا برب الله	ر حتى أعانه من أعانا
كلما أنبت الزمان نقاة	رغب المرء في القناه سفانا
ومراد النفوس أحضر من أن	تتعدى فيه وأن تتفانى
غير أن القى يلاق للنايا	كالخات ولا يلاق الموانا
ولو ان الحيوات تبقى لحي	لمدونا أضلنا الشجانا

وإذا لم يكن من اللوت بُدُّ فن العجز أن تموت جياها
وقال أيضاً :

زودينا من حسن وجهك ما دام فحسن الوجوه حال تحول
وصليتنا نصلك في هذه الدنا يا فإن القام فيها قليل
أبو فراس الحمداني

٣٢٠ - ٨٢٥٧

سأته وميابه

هو أبو الحارث بن أبي العلاء ابن عم سيف الدولة . ولد بمديح وربي
في حجر اللعيم بن آبهة للالك ومزة السلطان . فنشأ على خلال المظالم شجاعاً
أبى النفس سلب الطبع ، كريم الخلق ، جامعاً بين أدبي السيف والقلم . وكان
سيف الدولة مدحياً بمحاسنه مؤزراً له على سائر قومه ، فاصطنعه لنفسه ،
واصلح به في غزواته ، واستغلفه في أعماله ؛ فسكان الدرّة الفريدة في تاج سيف
الدولة ، بقود جيوشه في الحرب ، وبرأس كتابه في السلم . وكان النصر حليفه
في كل وقائه ، فالت إليه القلوب ولجبت بذكره الألسن ، وانطالق لسانه
برائع الشعر في الفخر والحماة ووصف الحروب ، حتى خانه الفوز بأمره
الروم في بعض المواقع وهو جريح قد أصابه سهم بقي نصبه في فخذه ، فسجنوه
بخرشنة في آسيا الصغرى ، ثم نقلوه إلى القسطنطينية . وتعدرت المفاداة قلبه في الأسر
أربع سنين ظهرت فيها أشعاره الروميات ملأى بمواطن الحب والخنين إلى أهله
وأحبابه ، ممثلة ما يكن صدره من لواعج الشوق لأمه المعجوز وابنته الوحيدة ،
وعوامل الحب لسيف الدولة . ولم يزل أبو فراس يبالغ صرارة الأسر وحرارة
الشوق حتى تنوثر في أسرار الهدنة والأسرى فأطلقه الروم بعد أن أكرموه وبجلوه .

« ولما خرج قريبيان من سِراره ، وأطلق أسد الحرب من أساره » ،
لم تمهله اللية أن يسترد ما ذهب من شبابه أيام عذابه . فتوق سيف الدولة
وخفه ولده أبو المالحى ابن أخت أبي فراس ؛ فأراد الأمير الشاعر أن يضم إليه
مدينة حصن فأبى عليه ذلك أبو المالحى ، وجرت بينهما معركة قتل فيها أبو فراس
وهو إذن العود غض الإهاب .

صفاته وأفعاله

كان أبو فراس كاقدمنا بطلاً ألياً سخياً معجباً بشعره وبفسه ، كثير
الفخر بأصله وقومه ، عزوفاً عن الشراب والجون ، فبرى شعره من كل ذلك
وانطلمت أخلاقه فيه . وهو القائل :

لئن خلق الأنام لحسنو كأس ومزمار وطُهور وعود
فلا يُخلق بنو حمدان إلا لجد أو لبأس أو لجود

شعره

شعر أبي فراس على مثال الشعر القديم مثانة وأسلوباً ، إلا أن عليه رُواء
الطبع ، وحمة الظرف ، ومزة للذك ، ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلا في شعر عبد الله
ابن المعتز . وكان الصاحب بن عباد يقول : « بدى الشعر بملك وختم بملك » يعنى
امراً القيس وأبا فراس . وقد تصرف هذا الشاعر في أغلب فنون الشعر فأجاد ،
إلا أن منزله في الفخر والاستطاف والعتاب أعلى ، وروميته أجمل وأدل على فضله ،
بأن مثله لا يزكوه أن يمدح أميراً ، أو يهجو صغيراً ، أو يذيل مصون شعره . بين
شراب والجون ، فقد علمنا كيف نشأ وأين درج . وله غزل رقيق تتضاءل
عزة للذك أمام سلطان الحب ، فيكون أتم جلالاً وأشد روعة . وزعم التماهى
للتنهى كان يشهد له بالتعيرى ويتجافى جانبى (فلا ينهرى لمباراته ، ولا يجترى .

على مجاراته ، وإنما لم يمدحه ومدح غيره من آل حدان تهنياً له وإجلالا
لا إغفالا) وهو زعم لا يطمئن عليه القلب ، ولا يقول به من عرف للتقي .

مخروج منه شعره

قال وقد سمع حمامة تنوح على شجرة بالقرب من سجنه بالقسطنطينية :
أقول وقد ناحت جربى حمامة أيا جارتا لو تشمرين بحالي
مماذ الهوى ماذقت طارقة الدوى ولا خطر لك منك الموم ببال
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالى أظلمك الموم تعالى
تعالى ترى روحاً لدى ضعيفة تزدد في جسم يندب بالي
أحمل محزون الفؤاد قوادم على عصن نائي للسافة على ا
أيضحك مأسور وتبكي طليقة ويسكت محزون ويندب سالي
قد كنت أولى منك بالجمع مقه ولكن دمي في الحوادث غالي
ومن قصيدة له إلى سيف الدولة يستعطفه :

بمن يثق الإنسان فيما يفوه ومن أين للعز الكريم صاحب ؟
وقد صار هذا الناس إلا أفلم وقد صارت أجيادهم ثياب
تنايت عن قوم فظنوا غباوة بمفرق أغنياء حمى وثراب
إلى الله أشكو أننا بمنازل تحكم في آسادهم كلاب
تمر الليالي ليس للنعيم موضع لدى ولا للمعتفين جناب
ولا شدلى سرج على متن ساج ولا ضربت لي بالتراء قباب
سذكر أياي نيم وعامر وكعب على علانها وكراب
أنا الجار لا زادي بعلهم ولا دون مالي في الحوادث باب
ومنها :

وما زلت أرضى بالقتيل محبة لديه وما دون الكثير حجاب
وأطلب إبقاء على إرث أرضه وذكري متى في غيرها وطلاب

كذلك الوداد الخضر لا يرتجى له ثواب ولا يُخشى عليه عقاب
وقد كنت أخشى المهجر والشمل جامع وفي كل يوم لقيّةً وخطاب
فكيف وفيما بيننا بؤلك قيصر وللبحر حول زخرةً وعُباب !
أمن بعد بذل النفس فيما تريده أتاب بمرّ العتب حين أتاب !
قليتك تمسّلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب !
وليت الذي بيني وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب !
إذا صبح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب

أبو العلاء المعري

٣٩٣ — ٤٤٩ هـ

شأته وميانه

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي نسبة إلى تنوخ إحدى قبائل الحِمْيَر .
ولد هذا الفيلسوف الحكيم بالمرّة من أبوين شريفيين . فقد كان أبوه من أفاضل
العلماء وجده قاضياً بالمرّة . فلما بلغ الرابعة من عمره أصيب بالجدري فذهب
يمسرى حينئذ وابتضت البنية ؛ فنشأ ضريراً لا يعرف من الألوان إلا الحمرّة لأنهم
ألبسوه ثوباً مصغراً وهو مريض . فكان هذا اللون أول ما عرف وآخر ما رأى ،
ولما أدرك سن التمثّل أخذ أبوه يلقّنه علوم اللسان العربي فتعلّمها . وتلمذ بعد ذلك
لفقر من علماء بلده فغم إلى صدره ما حوته صدورهم . ولم ير بعد ذلك فيمن حوله
من سبقه إلى علم ، أو اختصّ دونه بفهم ، فاشى إلى بيته وقد ناهز الشرين
من عمره وأخذ يدرس اللغة والأدب وينقب عن دقائق اللسان وخواص التركيب
حتى تفوق في ذلك وبلغ منه ما لم يبلغه أحد . وفي سنة ٣٩٧ هـ غادر المرّة إلى
بعض بلاد الشام ، فزار مكتبة طرابلس ، وطاج على اللاذقية ، وكان بها دير لرهبان
قزل به وأقام بين أهل حتى درس المحدثين والجديد . وبعد أن طوف في

بلاد الشام عزم الرحلة إلى بغداد مبعث العلم ومستقر العلماء ليدرس الحسكة اليونانية والفلسفة الهندية . وما أحسن بمقدمه البغداديون حتى تقاطروا لقاائه ظاء إلى أدبه . فأقام بينهم يأخذون عنه العلم والأدب ويبحث هو في علوم الفلسفة حتى جرى فيها شوطاً بعيداً . ووجد أبو العلاء في بغداد بيئة مالحة وأرضاً زكية لبعث للسائل وغرس للبائس . فأخذت آراؤه تظهر وتذيع . وانصلت أسبابه هناك بمجاعة من الفلاسفة الأحرار كانوا يجتمعون كل جمعة في دار أبي أحمد عبد السلام بن الحسن البصري أحدهم فأثر خلاطها في عقله وأدبه . وما كادت علاقته تتوثق بالبغداديين حتى فوجئ به على بعد الزار بنى أمه ، وكان أبوه قد توفي قبلها ، فوجد عليها وجدا شديداً ، ونالت منه هذه النازلة . وكان الأمراء والدماء قد أخذوا يرتابون في عقيدته ويشكون في أمره ، فاضطربت حياته ، واختلفت أطواره وأعوزه للشفق والقصير . فنظر إلى العالم بمنظار أسود ، وقرر في نفسه العزلة والخروج من الدنيا وعاد إلى للمرة سنة ٤٠٠ هـ فاعتزل عن الناس إلا عن تلاميذه . وسعى نفسه رهن الحبسين : العسى والمنزل . وظل عاكفاً على التلميم والتأليف عازفاً عن ملذات الحياة لا يأكل الحيوان ولا ما ينتج منه ، قائماً من الطعام والحلوى بالمدس والخبز ومن المال ثلاثين ديناراً موقوفة عليه في كل عام ، راضياً من اللباس والفرش بغليظ القطن وحصير البردى . وحرّم على نفسه الزواج ضناً بنفسه على لؤم الناس وبؤس الحياة . ولم تزل تلك حاله حتى استأثر به الله سنة ٤٤٩ هـ ، وقد أوصى أن يكتب على قبره هذا البيت :

هذا جنّاه أبي على^(١) (م) وما جئيت على أحد

ولمات وقف على قبره زهاء ثمانين ومائة شاعر فيهم الفقهاء والمحدثون والمتصوفون .

مراتبه وعقيدته

كان أبوه الملازم أنسى^(١) الولادة وحشى الغريزة كما وصف نفسه ؛ رقيق القلب

(١) اقرأ ترجمته مفصلة في كتاب (ذكرى أبي العلاء) للدكتور طه حسين أو كتابه

(أبو العلاء وما إليه) لأبراهيم كوني . طبع القاهرة .

سعيًا وفيًا ، قائمًا لشهوته ، سىء الظن بالناس ، شديد الحذر منهم ، قوى
الذاكرة ، سريع الحفظ ، وقد روي عنه في ذلك الأعاجيب ؛ فزعموا أنه كان
يحفظ ما يفهم وما لا يفهم وقد قال الشعر لإحدى عشرة سنة . ولم يمنه ذهابه
بصره من إجابة التشبيه ومشاركة البصرين في ألماهم ، فقد كان يجيد لمب
النرد والشطرنج ويدخل في كل باب من أبواب المزل والجد .

وقد اختلف الناس في عقيدته ، ففهم من قال إنه ملحد يرى رأى البراهمة
وغيرهم يقول : إن شعره ككلام الصوفية له باطن وظاهر . وبعضهم يقول إن
هذه الأشار الضالة مدسوسة عليه من أعدائه . وأكثر الناس يرجع أنه كان
شاكا ، فحارة يثبت وأخرى ينفى ، ولذلك كثر التناقض في شعره ^(١)

شعره

ينقسم شعر أبى العلاء إلى قسمين : شعر الشباب وبجمعه سقط الزند ؛ وشعر
الكهولة وقد وعته اللزوميات . فأما شعره في الشبيبة فكثير المبالغة ، واضح التقليد
بين التكلف ، قلده فيه المتنبي واستمد منه أكثر معانيه ، واستخف بقواهد
الكمة ، وجارى شعراء عصره في البديع . بيد أنه استعمل الغريب وأكثر في شعره

(١) لبنا يقول مثلا :

صبت لكسرى وأشياءه	وفعل الروح يبول البحر
وقول النصارى إله ينام	ويظلم حيا ولا ينصير
وقول اليهود إله يجب	رشاى الدماء ويربع القدر
وقوم أتوا من أقصى البلاد	لرى الجمار ولثم الحجر
فوا حبيبا من مقلاتهم	أيمى عن الحق كل البدر ؟
وفعل الحنيفة والنصارى ما اعتدت	ويهود حارث والمجوس مشالة
اننان أمل الأرض : ذو عقل بلا	دين ، وآخر دين لا عقل له
وفعل : ضحكنا وكان الضحك لنا سفاهة	وحق لسكان البرية أن يكونوا
تحملنا الأيام حتى كأننا	زجاج ولكن لا يباد له سكة
لأذ به يقول : خلق الناس لبقاء فضلت	أمة يحضونهم لنفساد
إنما يتفنون من دار أعما	ل إلى دار حقوة أو رعاد

عن اصطلاحات العلوم ، قال في أكثر أغراض الشعر إلفي الخمر والمجون والعصيد
والهجاء ، وقد سلم في هذا الطور جهة من القصائد المختارة في الرثاء والمدح والنفر
وأما شعره في السكوة قليل البالغة والتكلف ؛ قد عارض فيه المتقدمين
من العرب ، فأثر اللفظ الجزل والأسلوب البدوي ، وركب القوافي الصعبة
والترزم ما لا يلزم ، وتشدد في اتباع القياس ، وأكثر من البديع والجناس ،
وأودع شعره في هذا الطور فلسفته وآراءه . ولكنه حشاه بالآفاظ الغريبة
والتركيب الغامضة كما بما خاف شر الناس على تلك الثمرات الفكرية فحاطها
بأشواك من الكلمات حتى لا يمد إليها ينان ولا يتذوقها لسان . وقد ابتدع
في شعره مناجاة الحيوان كعادرة الديك والحمامة ، ومناظرة القتب والشاة ؛ وهو
أحكم الناس بعد أبي الطيب . ويختص بدوره بالخيال الدقيق : وتصريف القول
في الفلسفة والاجتماع وأخلاق البشر وأنظمة الحكومات والقوانين والأديان
وهو واحد الشعراء في هذا السبيل .

شعره

نثر أبي العلاء كشعره ، يختلف في كمولته عنه في شبيته . فقد كان كثير
للبالغة ، مغنيا بالغريب ، متكلف السجع ، كثير الاصطلاحات العلمية . ثم حكم
فلسفته في نثره فقلت البالغة ، وقاضت الجمل بالمعاني . ولم تضل كتابته من فصوص
يَعْنَى الفارسي وتطويل يمله ؛ فربما كتب الرسالة إلى أهدقائه فيمن فيها
ويستطرد حتى تكون كتاباً ضخماً غريب المسائل كثير الفوائد .

مؤلفاته

أكثر مؤلفاته ذهبت بها ربح الحروب الصليبية فلم يبق إلا سقط الزند ،
والزوميات ، والدرعيات ، والفصول والنهايات ، وديوان رسائله ، ورسالة الملائكة

ورسالة النفران، وهي شديدة الشبه بالكلية بالكلية لدانتى^(١)، والقردوس المفقود^(٢) لأنه تخيل رجلاً صعد إلى السماء ووصف ما شاهده هناك، وانتقد فيها الشعراء والرواة والنحاة بأسلوب روائى بديع، ثم بحث الوليد. وهو شرح ديوان البصترى وقد طبع في دمشق. وقد قد كتاب الأبيك والنصون في مائة مجلد، وهو دائرة معارف في العلم والأدب، ومسجرح أحمد، وهو شرح ديوان المتنبي؛ وذكرى حبيب، وهو شرح ديوان أبى تمام، وغير ذلك كثير.

نورج صه شعره

قال يننى على الحكام استبدادهم بالرية وعينهم بمصالحها :
مُرُّ المَقَامِ فَكَمْ أَحَاشِرُ أُمَةٍ أُمِرْتُ بِنَهْرِ صَلاَحِهَا أُمَرَاؤُهَا
ظَلَمُوا الرِّعْيَةَ وَاسْتَجَازُوا كَيْدَهَا وَعَدَوْا مَصَالِحَهَا وَمَ أَجْرَاؤُهَا
وقال فى أحكام الحفظ وأوهام الحياة :
تَبَارَكَتْ أَنْهَارُ الْبِلَادِ سَوَاحِجُ بِمَذْبُوحِ وَخُصَّتْ بِالْمَلُوحَةِ زَمَنُهَا !
هو الحفظ عِزُّ الْبَيْدِ سَافٍ يَأْتِيهِ خِزَايُ وَأَغْفُ السُّودِ بِالْقَلْبِ يَخْزَمُ
تَوَهَّمتْ خَيْرًا فِى الزَّمَانِ وَأَعْلَاهُ وَكَانَ خِيَالًا لَا يَصِحُّ التَّوَهُمُ
فَا النَّوُورُ نَوَّارٌ وَلَا الْفَجْرُ جَدُولُ وَلَا الشَّمْسُ دِينَارٌ وَلَا الْبَدْرُ دَرَمُ
ومن قصيدة له فى الرثاء :
صَاحِ ! هَذِي قُبُورُنَا عِلَاقُ الرُّعَا مَبَاقِينُ الْقُبُورِ مِنْ عَهْدِ عَادِ !
خَفِ الْوُطَى مَا أَظُنُّ أَدِيمُ ۖ ۖ أَرْضٌ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ
وَقَبِيحٌ بَنَا وَإِنْ بَعْدَ الْعَمِ دَ هُوَ أَنَّ الْآبَاءَ وَالْأَجْدَادِ

(١) دانتي (Dante) زعيم الشعر الإيطالى وحبيب بيترى (Beatriz) ومتنئى
الملائكة الإلهية (La divine Comedio) ولد سنة ١٢٦٥ وتوفى سنة ١٣٢١ م .
(٢) ملتن (Milton) شاعر إنجليزى شهير كان تلموساً لسكرمويل فلدا مات تفضض
أمره وغل ذكره، ثم كف بصره، فكان يعمل على زوجته وابنتيه قصيدته الخالصة للقردوس
المفقود (le paradis perdu) وهى ركن من أركان الشعر الإنجليزى وإحدى روائع
الخيال البشرى . ولد سنة ١٦٠٨ وتوفى سنة ١٦٧٤ .

سر إن امطقت في الهواء رُوَيْدًا لا اختيالاً على رُفَاتِ المباد
رُبَّ لحد قد صار لحدًا مرارًا ضاحكًا من تراحم الأضداد
فاسأل الفرقدين عن أَحَدًا من قبيل وآنسا من بلاد
كم أقامنا على زوال نهار وأنسارا لِمُدُجٍ في سواد
تعبٌ كلُّها الحياة فما أء جب إلا من رغب في ازدياد
إن حزنًا في ساعة الموت أضما فُ سرور في ساعة الميلاد

وقال يئى على التزهدين للرأئين من أهل الدين :

رُوَيْدُكَ قد غُرِرْتَ وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء
يُحْمَرُّ فيكم الصبياء صُبْحًا ويشر بها على عَيْدِ مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء وفي لثامها رهنَ الكساء
إذا فصل الفتي ما عنه ينهى فمن جبهتين لا جهة أسماء
وقال :

يحسن مسراى لىنى آدم وكلهم فى القوق لا يذب
ما فيهم بَرٌّ ولا ناسك إلا إلى نفع له يذب
أفضل من أفضلهم صخرة لا تغلم الناس ولا تكذب
وقال :

خف دَنِيًّا كما تضاف سَرِيًّا صال لىث الشرى بظفر وناب
والصَّلَالُ اتى تضاف رداها شرُّها فى الرموس والأذئاب
وقال :

عجى للطبيب يُلحذنى الخا لق من بعد درسه التشرىحا
رُبَّ روح كطائر الققص الله جون تزجو بموتها التشرىحا

الشعر والشعراء في الأندلس

أقلت مقر قریش من شرك السفاح . ونجا بنفسه وأهله إلى الأندلس
وكان الملك فيها يومئذ يضطرب بالخلاف بين المضرية والمينية ؛ والبلاد تنتظر
من يلبسها من شتات ، ومحبيها من موآت ، ومجتمعا من فرقة فسكان عبد الرحمن
الداخل هو الرجل للوعود والإمام المنتظر ، فاستولى عليها سنة ١٣٨ هـ بمعوة
البيمية . ونشر علم بنى أمية في قرطبة بعد ما طوته المسودة في دمشق ، وتناقب
على عرشها من أولاده وحفدته تسعة عشر خليفة في أربعة وعشرين ومائتي عام ،
حتى أصابهم داء الأمم ففرقوا وتمزقوا ، وانحل ملكهم إلى دويلات صغيرة
عرف أصحابها بملوك الطوائف ، كبنى جهور في قرطبة ، وابن عباد في أشبيلية ،
وابن الأظف في بطليوس .

وكانت سياسة الأمويين في الغرب غير سياستهم في الشرق ، فقد كانوا
في دولتهم الأولى يترفعون عن خلاط اللواله ، ويمتزون بصعوبة الجنس ، فأصبحوا
في هذه الدولة مدنيين ، يمدون إلى القوط أسباب الاتصال بهم ويمهدون لهم سبل
الاندماج فيهم ، صنع بنى العباس في أبناء الفرس . فكان من نتيجة هذا الارتباط
وأثر هذا الاختلاط أن حدث في الأندلس ما حدث في العراق من امتزاج الجنسية
السامية بالجنسية الآرية ، ونضج العقلية العربية ، واستعار النهضة الأدبية ، وازدهار
الأندلس بمحضارة إسلامية ماثمة من الشرق وبتأثيرها ^(١) من العرب ، لأن أوروبا
يومئذ كانت تضبط في دياجير الجهالة ، وترسف في أغلال الأمية ، فاقبس الأسبان
ثقافة العرب فاعتقدوا دينهم ، وتكلموا لنتهم ، وتعلموا أديهم . وهجروا اللاتينية

(١) أما حضارة الإسلام في بغداد فكانت من صنع الفرس والبربر والمند ، لأن
العرب كانوا يومئذ وراث بدولة وجهالة ، وهؤلاء كانوا وراث ملك وحضارة وللسنة
وعلم ، فقتل كل أولئك إلى الإسلام بانتظام إليه .

وآدابها حتى أنسوها ، وحتى جأ بالشكوى من هذه الحال كاهن ^(١) قرطبة؛
ولكن القسيسين أنفسهم لم يستعملوا الوقوف بنجوة من هذا السيل فجرهم
جرقا حتى اضطروا إلى نقل كتب الدين إلى اللغة العربية .

وكان الأمويون وعرب الأندلس لا يفتكون ملتفتين إلى الشرق موطن
الجنس والدين واللغة والأدب والحضارة فيسرون على ضيائه ، ويستمدون من
زعمائه وعلمائه ، ويحذون في سياستهم وإدارتهم حذو المباهيين ، فشيدوا المدارس
الجماعة وأنشأوا للكتاب العامة ، ونشطوا حركة التأليف ، وأذكوا نهضة الأدب
ورفعوا مجد الفنون ، وعقدوا مجالس المناظرة والمسامرة والتفناء . وبلغت الأندلس
من ذلك كله الحظ الوفور في عهد عبد الرحمن الثاني (٢٠٦ - ٢٣٨هـ) وبلغت
أوج سلطانها وغاية عمرانها وتنام بنيانها في عصر أمير المؤمنين عبد الرحمن الثالث
(٣٠٠ - ٣٥٠) وابنه الحكم ، وهو عصرها الذهبي الذي بلغت فيه من السطوة
والقوة والثروة والوحدة والحضارة والمآثرة والفن والأدب ما كادت تضارع به بغداد ،
وما أدهشت به المؤرخ دوزي حتى قال : « إن عبد الرحمن الناصر أولى أن يكون
من ملوك النصر الحديث لا من ملوك القرون الوسطى » . وهكذا كانت حضارة
الإسلام تشع في بغداد وقرطبة في وقت واحد فتهدد دياجير الشرق وتكشف
مجاهيل الغرب . ولكن تمام الشيء مبدأ قصصانه . فلم تكد خلافة الحكم
ابن الناصر تنتهي حتى دب في خلافة بني مروان ديب البلى والحرم ، وآل سلطانها
إلى ملوك الطوائف فاضطلموا به قليلا ثم أوهن كواهلهم داء الانقسام وفساد النظام ،
وغاداهم المرابطون من البربر ففوضوا أركانهم ، ونازعهم سلطانهم ، ورواحهم

(١) قال هذا الكاهن ملخصه عن كتاب تاريخ العرب لـ إسبانيا لروزي ج ٢ ص ١٠٣ .
إننا نحب أن نقرأ الشر والقسى وتدرس الدين والفلسفة في اللغة العربية فتعلم لغة مزية الألفاظ
بليغة الأداء جميلة الإنشاء ، ولا تكاد تجد فينا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة اللاتينية ،
وشبابنا الأذكاء جيلا لا يعرفون غير لغة العرب وآدابهم : وكذا قرأوا كتبها ودرسوا أدبها
أعجبوا بها ، فإذا حدثهم عن كتاب من الكتب اللاتينية سخرُوا منه وقلوا إن القائمة منه
لا تساوي التعب لقراءته . وهكذا نسي المسيحيون آتهم ، وجعلوا كتابتها وبلاغتها وحذروا
الساكن الرعي حتى ليكتبونه قرا ونظما بأسلوب أتيق ، ونصوير دقيق ، يفتون فيه العرب أحيانا

الفرنج مكافئين فاستلبوا الملك من أيديهم مدينة بمد مديته ، حتى تمت
المرجة وعم الجلاء بفرار أبي عبد الله محمد بن علي من قرطبة سنة ٨٩٨هـ وكان
ذلك آخر عهد العرب والعربية بالجزيرة .

ذلك مجل من القول في حال العرب بالأندلس صفاء إليك تمهيداً لماسمك به
إلماً من وصف شعرهم وذكر نغم من شعرائهم .

وليس من غرضنا أن نعرض هنا لقراءة الشعر الأندلسي فنفضله ونحمله ،
وإنما هي لمحة وجيزة تكشف عن مناهجه ومناحيه ، وتبين تأثير البيئة والطبيعة
فيه . فقد وجد الشعراء العرب في أوروبا ما لم يجدوه في آسيا من الحياة المتنوعة ،
والنبوءات الخفية ، والمناظر المختلفة ، والأمطار المصنوعة ، والسموات الجلية ، والأدواح
الظلية ، والأنهار الروية ، والسهول الفنية ، والنباتات الموزرة بسم الثبت ، والبروج
الطرزة بألوان الزهر ، فصفت أذهانهم ، وسما وجدانهم ، وعذب بياضهم ، ووسموا
دائرة الأدب ، وهذبوا الشعر فتأقوا في ألفاظه وتنوqوا في معانيه ، ونوعوا
في قوافيه ، وتفننوا في خياله ، ودمجوه تدييج الزهر ، وسلسوه سلسلة النهر ،
وأكثروا من نظمه في البحور الخفيفة القصيرة ، حتى ضاقت أوزان العروض
عما تقتضيه رقة الحضارة ورقى الفناء . فاستحدثوا الموشح بالجنة الفصحى ، ثم
تطور عند انحطاط الأدب واضمحلال أمر العرب إلى الزجل بالجنة العامة .

وصرفوا الشعر في أغراض شتى كالمديح والغزل والرتاء والدعاء والزهدي
والتصوف والفلسفة والمزاح والجنون والحبوا سياسة الاجتماع ، ونظموا حوادث
التاريخ ، وأبدعوا ما شاء الإبداع في الوصف : فوصفوا الأبنية والتمثيل والقصور
والبرك والنوافير والنواعير والحدائق والبروج والأودية والأديرة والأنهار
والأشجار والرياح ومجالس الطرب ؛ وكل ذلك في حلاوة لفظ ورقة أسلوب.
ودقة صنعة . إلا أن شعرهم على الجملة جار مجرى الشعر الشرقي ، فلم يتمد حدوده
ولم يكسر قيوده إلا بمقدار ما ذكرناه لك من ابتداء الموشح وتنويع القافية ؛
وذلك لاعتقادهم أنه هو الأصل الذي يرجع إليه ، والقالب الذي يضرب عليه ،
ولئن صنع من بعض الوجوه ما يقول به أدباء الفرنج من أن الشعر العربي

تصنع في اللفظ ، وتمثل في الشكل ، وليس فيه خيال رائق ، ولا شعور صادق^(١) فلن يصح هذا القول بحال في شعراء الأندلس . فلهم عبروا عن عواطفهم ، وترجوا عن مشاعرهم ، بلفظ جيد وأسلوب أنيق ، فقطافوا^(٢) على قرائهم بأكواب من ذهب فيها ما تشبهه الأنف . وإنك لترى في وصفهم مناظر الطبيعة وتصويرهم وجود الأرض مساهبة لأشجار الفرنج . ولقد أخذ الفرنسيون والأسبان عن عرب الأندلس غير العلم والموسيقى وفن العبارة ، ضرباً شتى من الشعر ، كالمدح والمجاء والفرز ، كما أخذوا عنهم القافية وكانوا من قبل يكتفون باتحاد الحروف الصوتية الأخيرة (*assonance*) غير ناظرين إلى ما بعدها^(٣) . ولو طال على الأندلسيين الأمد في الحضارة ، وتماقت أطوار الرق على اللغة وآدابها لأتوا بأبلغ مما جاء به روسو وهو وجود لامرتين وأصراهم . ولكن فاجأهم الانقسام ، وداهمهم الخصام ، فانشقت عصاهم ، وانقسمت عراهم ، ونضبت قرائعهم وأعمكت عقولهم ، وذهبوا كأمس القابر ، سنة الله في خلقه . ولن تجمد لسنة الله تبديلاً .

(١) على أن من منسقى كتاب الفرنج من نفس هذا المسك كالأستاذ جولومر (*Jules Lemaitre*) (١٨٥٣ - ١٩١٣) إذ يقول في مقدمته لكتاب حديقة الزهور لروافد غالى « إن الشعر العربي على جملة أنقى شعر عرفه العالم بما حوى من العواطف الرقيقة ؛ وهو أقرب الأشعار إلى معنى الرحولة والعرف والحياء الصحيح والإيمان القوى » .
(٢) إشارة إلى من شبه معاني الشعر العربي في وحدتها وتنوع ألفاظها بغيراب من نوع واحد يسقى بأبنة مختلفة ، فنها القرب واللصقة والجور والحرف .

(٣) كان التروبادور (*les troubadours*) وهم شعراء جنوب فرنسا في القرون الوسطى ، ينتقلون من قصر إلى قصر منتجيح الأمراء والوجهاء بالمدح ، وكانت أشعارهم خلوا من القافية فاقبسوها من عرب الأندلس بطبيعة الجوار والغلاط ، كما اقتبسوا في النظام أنواع الفرز والمدح والمجاء وفي النثر القصص والأشكال والملم . وأما خبر ذلك الأثر العربي في الأدب الفرنسي الحديث لأن الطلبة كانت لاهل الشمال وقتهم أويل (*Odile*) ولشعراتهم التروبير (*les troveres*) .

(٤) وقال لويس فياردو (*Louis Viardo*) في الجزء الثاني من كتاب تاريخ العرب والعرب
في اسبانيا : « كان الشعر الفرنسي على مثال الشعر الأسباني للأخوذ من الشعر العربي لا عن اليوناني ولا عن الروماني ، لأنهم لم يقفوا على هذا ولا ذاك قبل القرن الرابع عشر حتى يقلدوه ... ولقد أخذوا صناعة الشعر والقوافي من العرب . وهذه الصناعة جاءت من الأندلس عن طريق مرسيايا وطولون مع التجار الأسبان الذين كانوا ينفذون إليهما . . . » .

نماذج من الشعر الأندلسي

قال أبو الفضل بن شرف القيرواني :

مطلَّ الليل بوعْدِ الفلق	وتشكَّى النجمُ طولَ الأرق
ضربت ريح الصَّبَا مسكَ الدجى	فاستفاد الروض طيب العبق
والأح الفجرُ خَسَدًا خَجَلًا	جالَّ من رَشَحِ الندى في عَرَق
جاوز الليل إلى أنجمه	فقسا قطن سقوط الورق
واستفاض الصبح فيها فيضة	أيقن النجم لها بالفرق
فأنجلي ذاك السَّنا عن حلاك	وانعجى ذاك الدجى عن شفق
يأبى بمد الكرى طيفٌ سرى	طارقًا عن سكن لم يُطَرِّق
زارني والليل ناعمٌ سدَّقه	وهو مطلوب يَبَاقِي الرَّمَق
ودموع العطل تمرُّها الصَّبَا	وجفون الروض غرقُ الخلق
فتأبى في إزار ثابت	وتثنى في وشاح قلق
ونجلى وجهه عن شعره	فتجلى فلقٌ عن غسق
نهب الصبح دجى ليلته	فجا الخدَّ بيمض الشفق
جلبت عيناه حدى سيفه	ونجلى خَسَدُه بالرونق

وقال ابن حديس الصقلي يصف ديرًا وراهبة تبيع الخمر :

وراهبة أغلقت دبرها	فكنا مع الليل زوارها
هدانا إليها شذى قهوة	تذيع لأفئدك أسرارها
طرحت يميزانها درهمي	فأجرت من الدن دينارها
تفرس في شمس طيبها	مجددُ القراصة فاختارها
فتى دارس الخمر حتى دزى	عصير الخمر وأعصارها
يعدُّ لها شئت من قوة	سيفها ويمرف خمارها
وعدنا إلى هالك أطامت	على قصب البان أقارها
برى ملك الهوف فيها الموم	تثور فيقتل ثوارها

وقد سكنت حركات الأسي قيان تحرك أوتارها
فهذى تمانق لى عودها وتلك تقبل مزمارها
وراقصة لقطت رجلها حساب يد قرت طارها
وقضب من الشمع مصفرة تريك من النار نوارها
كان لها عمداً صفت وقد وزن السدل أقطارها
إلى أن قال :

ذكرت صقليةً والأسي بهيج للفس تذكراها
ومنزلةً لتصابى خلت وكان بنو الظرف غمارها
فلئن كنت أخرجت من جنة فاني أحدث أخبارها
ولولا ملحمة ماء البكا . حسبت دموعي أنهارها
وقال ابن هانيء يصف أكولاً :

يا ليت شعري ، إذ أوى إلى فيه أحلقه لهوات أم ميادين ؟
كانها - وخييت الزاد يضر مهال - جهم ، قذفت فيها الشياطين
تبارك الله ما أمضى أسننته كأنما كل فك منه طاحون
كان بيت سلاح فيه مخترنٌ بما أعدته للرحل القراعين
أين الأسنة أم أين الصوارم أين الخطاجرام أين السكاكين
أين الحل للشوى في يده ذو اللون في اللاء لما عضه اللون
لف الجداء بأيديها وأرجلها كأنما افترسهن السراحين
وقادر البط من مثى وواحدة كأنما اخطفتهن الشواهين
يخفّض ارز من قرن إلى قدم وللبلاعيم تطريب وتلحين
كأنما كل ركن من طياته نار ، وفي كل عضومنه كانون
كأنما في الحشا من حمل نمذته قرغل وجرايش وكون
قوموا بنا فلقد ريت خواطرها وجاذبتنا أعنتها البراذين
نصحتكم ، نخذوا من شدقه وزرأ أولاً ، فأتم سويق فيه مطحون

وقال للمتعمد بن عباد صاحب أشبيلية وقد دخل عليه في سجنه بناته يوم
في أطوار بالية بعد أن سلبه ابن تاشفين ملكه وسجنه بأغرات :

فيا مضى كنت بالأعياد مسرورا	فسامك العيد في أغرات مأسورا
تري بناتك في الأطوار جاثمة	ينزلن للناس ما يملكن قطميرا
يطآن في الطين والأقدام حافية	كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
أفطرت في العيد لا عادت إساءته	فكان فطرك للأكباد تظفيرا
قد كان دهرك إن تأمره بمنزلة	فردك الدهر منيها وأمورا
من بات بعدك في ملك يسره به	فإنما بات بالأحلام مفرورا

وقال ابن دراج القسطلي من قصيدة يصف وداعه وزوجه وولده الصغير :

ولما تذاقت للوداع وقد هفا	بصبري منه أنه وزفير
تفاشدين عهد اللوعة والهوى	وفي المهد مبغوم النداء صغير
عبي بمرجوح الجواب، ولغظه	بموقع أهواء النفوس خير
تبوأ ممنوع القلوب وسهدت	له أذرع محفوفة ونحور
وطار جناح البين بي وهفت بها	جوانح من دهر الفراق تطير
ولو شاهدتني والهواجر تلتظي	على ورق راق الشراب يور
أسلط حر المهاجرات إذا سطأ	على حر وجهي والأصيل يبر
وأستنشق النكباء وهي لوافح	وأستوطي الرضاء وهي تنفور
وللوت في عين الجبان تلون	وللذعر في سمع الجري صغير
لبان لها أنى من البين جازع	وأنى على مض الخطوب صبور

وقال الوزير ابن زيدون وهو سجين :

ما على ظني باس	يمرح الدهر ويأسو
ربما أشرف بالر	على الأمال يأس
ولقد ينجيك إغنا	ل ويردك احتراق
والخاثير سهام	والمقادير قياس

وَلَكُمْ أَجْدَى قَمُودٌ وَلَكُمْ أَكْدَى التَّمَسُّدِ
وكذا الحكم : إذا ما عز ناس ظل ناس
وبنو الأيام أخسا فُ سَرَاهُ وخِساس
نليس الدنيا ، ولكن مُتَمَّةٌ ذاك القباس
يا أبا حفص وما سا واك في فهم إياس
من سنا رأيك لي في (م) غَمَقَ الخُطْبِ القِباس
لا يكنْ عهدك وَزَداً إنْ عهدى لك آس
وأدر ذكرى كاساً ما امتطت كَفَكَ كاس
واغضم صفوايالى إنما العيش اختلاس
ما ترى في معشر حا لوا عن العهد وخاسوا ؟
أذْؤَبٌ هانت بلصى فانتسابٌ وانتهاس
كلهم يسأل عن حا لي ، ولذئب اعتباس
إن قسا الدهر فلما من الصخر انهباس
ولئن أمسيت محبو سا فلفنيث احباس
ويَفُتْ المسك في التز ب فيوطا ويداس

ومن أجود موشعاهم قول ابن بتي :

خذ حديث الشوق عن نَفْسِي وشرن النعم الذي محما

ما ترى شوقاً قد وقدا

وما دمي واطردا

واخذى قلبي عليك سدى

آه من ماء ومن قبس يبت طرفي والحشا بُجما

بأبى ريم إذا سفرا

أطمت أزوارهُ قرأ

فاحذروه كلما نظرا

فبالخاظ الجفون قسى أنا منها بعض من صرعا
وقال بعضهم :

ما للمـآموه من سكره لا يفيق

يا له مكرانا !

من غير خر . ما لكثير للشوق

يندب الأوطانا

هل تُستاد ، أليما بالخليج

وليالينا

أو يستفاد ، من النسيم الأريج

مـك دارينا

وإد يكاد ، حسن المكان البهيج

أن يحيدنا

ونهر أظفـه دوح عليه أفيق

مورق فيـنان

والماء يـرى وعـثم وغـريق

من جـى الرمان

ومن موسع ابن سهل الإسرائيلي :

هل درى ظي الحى أن قدحى قلب صب حله عن مكس

فهو فى حر وخفق مثل ما لعبت ربح الصبا بالقبس

* * *

يا بدورا أطلت يوم النوى غررا نلك فى نهج الترد

ماقلبي فى الموى ذنب سوى منكم الحسن ومن عبي النظر

أجتنى الازدات مكلومَ الجوى والتذاذى من حبيبي بالفكر
كلما أشكوه وَجداً بَسما كالزُّبي بالعارض المنبجس
إذ يقير القطرُ فيه مائِداً وهى من بهجتها فى عرسُ

* * *

غالبٌ لى غالبٌ بالتؤدة بأبى أفنديه من جاف رقيق
ما رأينا مثل فخر نَصْدَه أفضواناً عُصرت منه رحيق
أخذت عيناها منه الربرة وفوادى سكره ما إن يُعيق
فاحم الجئة معسول الهوى أكل اللحظ شحى العس
وجهه يتلو الضحى مبتسماً وهو من إعراضه فى عيس

شعراء الأندلس

ابن عبد ربه

٢٤٦ - ٣٣٨ هـ

نشأته وحياته

هو أبو عمر أحمد بن محمد عبد ربه الأندلسى بالولاء ، لأن جده كان مولوداً
لهشام بن عبد الرحمن الداخل ثانى خلفاء الأمويين بالأندلس . وله هذا الكتاب
الشاعر بقرطبة ونشأ بها ، ثم تخرج على علماء الأندلس وأدبائها وامتاز بسعة الاطلاع
فى العلم والرواية ، وطول الباع فى الشعر والكتابة . قال ياقوت فى معجمه : « وكان
لأبى عمر بالعلم جلاله وبالأدب رياسة وشهرة مع ديانة وصيانة ، وانفتحت له أيام
وولايات للعلم فيها اتفاق ، فساد به انحول ، وأثرى به الفقر ، وأشير إليه بالفضل
إلا أنه غلب عليه الشعر » ثم أصيب فى أعقاب عمره بالفالج وتوفى سنة ٣٣٨ هـ بجزيرة

شعره

أكثر شعر ابن عبد ربه وأجمله في الوصف والفضل . وهو أشبه بشعر ابن زيدون في الجمع بين روعة الشرقيين وجزالةهم ، ورقة النريين وسلاستهم . وهو أكثر تردداً لأخبار الشارقة وأصح تقليداً لأشعارهم . وقد اتصلت شهرته بهؤلاء فرووا شعره ، ورددوا ذكره ، وشهدوا له بالتقدم والإجادة . روى ابن الخطيب أن الوليد الأندلسي لما حج مرّ حج في متصرفه على مصر ، فلقى بها أبا الطيب اللقبى في جامع عمرو بن العاص ، فأفاض في الحديث ملياً ، ثم قال للقبى : ألا تنشدني للميج الأندلسي ؟ يعني ابن عبد ربه . فأنشده الوليد شيئاً من شعره ، فصفق له واستمده ثم قال « يا ابن عبد ربه لقد تأتيتك العراق حيوياً » وكفى بشهادة للقبى دليلاً على فضل الرجل وعلو كعبه . وابن عبد ربه من الشعراء للكثيرين فقد رأى الحميدى من شعره عشرين جزءاً وثيقاً من جملة ما جمع للحكم بن عبد الرحمن الناصر أكثرها بخطه . وقد زين كتابه العقد الفريد بكثير منه في كل معنى . وقال في مقدمته : وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها ، وتوافقها في مذاهبها . وقرنت منها غرائب من شعري ليملم الناظر في كتابها هذا أن لغزينا على قاصيته ، ونظفنا على انقطاعه ، حفظاً من المنظوم وللشعر .

وهو من السابقين إلى اختراع اللوحات ، وله طبع في الشعر القصصى وهو قليل في العربية . من ذلك أرجوزته في تاريخ عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس في عصره ، ولكنها إلى الشعر التعليمى *Didactique* أقرب منها إلى الشعر القصصى (*Epique*) لجفافها وضعف خيالها وسبغها عن قواعد الملحمة ، وهى منشورة في الجزء الثانى من العقد الفريد .

ولما تعافت به السن وأرعشه الكبر ، أقلم عن صبوته ، وأخلص قلبه في توجّه ، ونظم أشعاراً كثيرة سماها بالمحجمات لأنه تقطع كل قطعة قالها في النزل

واللهو ، بقطة من بحرها ورويا في اللوعة والزهد . ولم يكف ابن عبد ربه
بنوغة في الشعر وتفوقه في الفز ، فأراد أن يدل على براعته في التأليف أيضاً .
فصنف كتاباً في الأدب سماه العقد الفريد .

العقد الفريد

وهو كتاب من أمهات كتب الأدب ، جامع لشتيت القوائد ومنثور
للسائل في الأخبار والأنساب والأمثال والشعر والعروض حتى الطب واللوسيقى .
وقد استوعب خلاصة ما دُوِّن من كتب الأصمى وأبي عبيدة والجاحظ وابن قتيبة
وغيرهم . ولم يقتصر على المأثور عن العرب بل وشئ كتابه بما ترجم عن اليونان
والفرس والهنود من ضروب الحكمة واللوعة واللح . وقد تأنق في تبويبه وتقن
في ترتيبه ، قسمه إلى خمسة وعشرين كتاباً في موضوعات شتى بدأ كلامها
بمقدمة بلغة من إنشائه تبين الفرض منه ؛ وسمى كل كتاب بمجهره من جواهر العقد
كالقوّة والفريدة والزرجدة والجمانة والرجانة والياقوتة والجوهرة الخ .

ومن الفريد أن المؤلف وهو أندلسي لم يشر إلى الأندلس ولا إلى أهلها
بكلمة ، المهم إلا إلى نفسه ! حتى إن صاحب بن عباد لما سمع بهذا الكتاب حرص
حتى حصل عليه . فلما تصفحه قال : « هذه بضاعتنا ردت إلينا . ظننت أن هذا
الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم ، فإذا به يشتمل على أخبار بلادنا .
لا حاجة لنا به ، ثم رده » . والكتاب في ثلاثة مجلدات تزيد صفحاتها على ألف
صفحة وقد طبع بالقاهرة أخيراً في خمسة مجلدات .

مؤلفه من سمره

قال في النزول :

يا تُولُوا يسى القول أنيقا وَرَشًا بقة طبع القلوب رقيقا
ما بين رأيت ولا سمعت بمنله درأ يعود من الحياء عقيقا

وإذا نظرت إلى محاسن وجهه أبصرت وجهك في سماء غرقا
يا من تقطع خصره من رقة ما بال قلبك لا يكون رقيقاً ؟
وقال في موقف الوداع :
ودعنى بزوردة واعتناق ثم نادى متى يكون التلاق ؟
وبدت لى فأشرق الصبح منها بين تلك الجيوب والأطواق
يا سقيم الجفون من غير سقم بين عينيك مصرعُ المشاق
إن يوم الفراق أظلم يوم ليتنى متّ قبل يوم الفراق !
وقال في وصف رمح وسيف :
بكلّ رُديئٍ كأن سنانهُ شهاب بدا في ظلمة الليل ساطع
تقاصرت الأبال في طول متنه وعادت به الآمال وهى فجائع
وذى شُكِبَ تقضى للنار لحكه وليس لما تقضى النية دافع
يسلّ أرواح السكّاة انسلاله ويرتاع منه الموت وللوت رائع
وآخر شعره قاله قوله :
بليت وأبلى الالبلى بكرّها وصرفان للأيام معثوران
ومالى لا أبلى لسهين حجةً وعشر أنت من بعدها سنتان
ولست أبالى من تبارج علقى إذا كان علقى باقياً ولسانى

ابن هانيء الأندلسى

٣٢٦ - ٣٦٣ هـ

شأنه ومبائه

ولد أبو القاسم محمد بن هانيء الأزدي الأندلسى بأشبيلية في زهرة الهمد الأحمر ،
وفي أوج عصره الذهبي ، وفي حكم الملك الناصر . وكانت أشبيلية إذ ذاك أعصب
بلاد الأندلس علماً وأدباً ، فنشأ بها ودرس الأدب العربي على النمط المألوف .

يومئذ من السماع والحفظ والإنشاد والمحاكاة ، وأبوه هانيء يعضده ويرشده لأنه هو نفسه أديب يعيش على الأدب ويتكسب بالشعر . واستوى شاعرنا ما عليه طائفة الشعراء من النعمة والثراء فملك سيلهم وتبع دليلهم ، حتى اتصل بصاحب أشبيلية فقال حظوتكم كسب محبته . وكانت ثمار الحضارة الأندلسية من السرف والترف والبهو قد بدت في ذلك الحين ، فقطف ابن هانيء منها باليدين ولم يجد له رادعاً من خلق ولا وازعاً من دين . وأخذ بشئ من مذاهب الفلاسفة والأندلسيون على تقيض الشرقيين يفتنون البدعة وينصرون السنة ويتكبرون الفلاسفة ويصدون عن البحث في الدين ، فتألب أهل أشبيلية عليه ، وكادوا يصطرون بالأذى إليه . واتهموا لللك بشايمته على رأيه ، فأشار عليه أن ينيب ريثما تهدأ ثائرة القوم وينسونه . فرحل إلى عدوة المغرب وعمره ست وعشرون سنة ، فلقى القائد جوهرراً قاتح مصر للمز فذبحه . وأخضب زرع آماله قوصله الجعد لليمون بالمز فدين الله الميبدى فاصطفاه إليه وأغدق إحسانه عليه . ولما خرج للمز يريد مصر بعد أن فتحها جوهر وراض له الأمر فيها شيعه ابن هانيء ومختلف عنه ليأخذ عياله وماله ثم يلحق به إلى مصر . فلما كان في طريقه إليها عجز على برقة ونزل في ضيافة رجل من أهلها ، فأقام عنده بقمص ويلهو ، حتى آمن ذات يوم في الشراب فسكر سكرة أفضت به إلى سكرة اللوت . فقتل إن نداماه من أهل ضيافته عربدوا عليه وقتلوه ، أو إنه خرج من الدار وهو سكران طافح فصرعته الخمر في الطريق فات ، وعمره ست وثلاثون سنة : فلما بلغ المز وفاته أسف عليه وقال : « هذا الرجل كنا نرجو أن يفاخر به شعراء الشرق فلم يقدر لنا ذلك » .

أخوه قر

كان ابن هانيء ماجناً خليع المذار صاحب لهو وخمر . وكان ذي القواد فككه الأخلاق جم الأدب صريح القول والفعل لا يبالى أين يقع ذلك من الناس

ومصدق تلك الصفات فيه مجاهرته بآراء تنكرها يشته ، وترفضها طبقته ،
ومبالتفة في شعره إلى حد السكفر ، والشاعر دون القيل-وف أحرم الناس على
رضا الناس . ناهيك بميخته المداعة التي قل أن ماتها رجل .

شعره

ابن هانيء على رأى الجمهور أمير شعراء الأندلس غير مدافع . وفي هذا الرأى
على إطلاقه إجحاف بأمثال ابن زيدون . على أن شعره من الطبقة العالية التي
تجمع بين سلامة التفكير ، وسلامة التعبير ، ومعالجة كثير من مسائل الحياة
وأحوال الاجتماع وخوارج النفس . وقد اطلع^(١) على شعر المتنبي وهو ماضر فأعجب
بأسلوبه ومذهبه وسار على منهاجه واتم بهديه : فهو مثله يذهب في الشعر مذهب
الفلاسفة ، وينثر في ثنايا مدحه الحكم والأمثال ، ويتخذ من حياته الخاصة مورداً
لشعره ، ويكثر من ذكر الحرب والقوة والغلب ، ويمجد وصف ما يراه ويسمى
إجادة نادرة ، ولذلك سموه مقني الغرب على عادة المناربة من حب التشبه
بفعل للشارقة . ولكن بين الرجلين من التفاوت واليعد ما بين الوجه واللبس ،
والزينة والفر ، والكرم والبهر ، في هذه التشابه للعروقة . فشتان بين ما يصدر
عن طبع وبين ما يصدر عن تقليد . وكان هذه اللوازنة آثاراً سطت أي الدلاء ،
وعصبيته للمقني شديدة كما تعرف ، فقال في ابن هانيء : « ما أشبه إلا برحا
تطعن قروناً لأجل القمعة التي في أفاظه » ومن يدري ؟ فلو أن الله ناسق لأجل
ابن هانيء فلم يأخذه الملوك عبطة لأحكامه السن وصقلت شعره التجارب وكان
للتاريخ فيه رأى آخر .

(١) يؤيد ذلك قصيدته الرائية التي كتبها إلى رجل زعم أنه لقي المتنبي وقرأ عليه شعره
فاستمره ابن هانيء فأعاده لياه ثم أساء معاملته في نقاضيه :

ومطلبها : تنبه المتنبي فيكم عصراً	ولو أرادكم في شعره كفراً
ومنها : تهتم عليه بمرأ وخلفك	لم تتركوا منه لامين ولا أنرا
ومنها : أرضوني مثلاً من روايتكم	كل جمعي أي لا يفسح الشبرا
ومنها : فلو رأى ما دعاني في كتابكم	وما دعا شعره فيكم لا شعرا
ومنها : أمرتوني قيساً منه في آدم	فمنكم أن تماروا البحث وتحظرا

أما الأغراض التي قال فيها فالمدح وهو معظم شعره ، والنزل ولا يقوله
إلا ابتداء قصيد أو ابتغاء لتقليد ؛ والثناء والوصف وهو فيها مقل مجيد .
وقد شغله ما شغل للتنبى عن العليمة وأسرارها ومناظرها فلم يكن لماقى شعره غير
حظ ضئيل .

معرض من شعره

قال من قصيده فى الرثاء وهى من أجود شعره :

إنا وفى آمال أنفسنا	طول وفى أعمارنا قصرُ —
لنرى بأعيننا مصارعنا	لو كانت الألباب تمتد
بما دهانا أن حاضرتنا	أجفاننا والنائب الفكر
وإذا تدبرنا جوارحنا	فأكلمنَّ العينُ والنظر
لو كان للألباب ممسح	ما عدُّ منها السحُ والبصر
أى الحياة أقد عيشتها	من بعد على أننى بشر
خرست لعمرك الله ألسننا	لا تسكلم فوقنا القدر

ومنها :

وإذا صحبت العيش أوله	صفوا ، فهين بعده الكدرُ
وإذا انتهيت إلى مدى أمل	دركا ، فيومٌ واحد عُمر
واختير عيش أنت لابس	عيش جنى ثمراته الكبر
ولكل حلبة سابق أمد	ولكل هُلة وارد صدر
وحدود تعمير الممر أن	يسمو صعوداً ثم ينحدر
والسيف يبلى وهو صابغة	وتقال منه المام والقصير
والمرء كالظل المديد ضحى	والنفس يحسره فيحسر

ويقول في ختامها :

غرض تراه في الخطوب فذا قوس ، وزا سهم ، وزا وتر
نجرت حتى ليس بي جزع وحذرت ، حتى ليس بي حذر
وقال في النزل :

أمسحوا عن ناظري كحل السهادِ وانفضوا عن مضجعي شوك القنادِ
أو خذوا مني ما أعطيتم لا أحب الجسم مسلوب الفؤادِ
هل نجبرون عبأ من هوئى ؟ أو تفكون أسيراً من صفاد ؟
أسألوا منكم من هجركم قلنا يسأل عن الماء الصوادى
إنما كانت خطوب قيضت فعدتنا عنكم إحدى الموادى
فسل الأيام من بدمكم ما على الظلماء من لبس الحدادِ
لا مزار منكم يدنو سوى أن أرى أعلام هضب أو نجادِ
قلّ تنوّل خيال منكم يطّبي بين جفون ومهادِ
لم يزدنا القرب إلا هجرة فرضينا بالثمنانى والهمادِ
وإذا شاء زمان رابعا برقيب أو حسود أو ممّادى
ومن قصيدة له يمدح جوهرأ ويصف جيشه وهو ذاهب إلى فتح مصر .

رأيت بينى فوق ما كنت أسمعُ وقد راعنى يوم من الحشر أروعُ
غداة كان الأفق سدّ بمثله فساد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدّر إذ سلّت كيف أشيعُ ولم أدّر إذ شيمت كيف أودّعُ
وكيف أخوض الجيش والجيش لجة وإني بمن قاد الجيوش لولعُ
فلا عسكر من قبل عسكر جوهر تحبّ المطايا فيه عسراً وتروّعُ
وقال في المدح :

أبنى الموالى السمرية والسيو ف المشرفة والمديد الأكر

مَنْ مِنْكُمْ لَكَ اللطاع كأنه
القائد الخيلَ للعتاق شوازيًا
شمث النواصي حشرة آذائها
تنبو سبابكهن من عفر الثرى
جيش تقدّمه الليوث وفوقه
وقوده الليث التصفّر مُعلماً
في فتية صدأ المروع عيبرم
لأياً كل السرحان شلوطينهم
قوم يبيت على الحشايا غيرم
وتظلّ تسبح في الدماء قبابهم
لخيامهم من كل مهجة خالغ
حتى من الأعراب إلا أنهم
وقوله في وصف الخيل :

وصواهل ، لا المعضب يوم مُغارها
عُرِفَتْ بساعة سبقها ، لأنها
وأجل علم البرق عنها أنها
هضب ، ولا البيد الحزون حزون
علقت بها يوم الرهان عيون
مرت بمناجتيه وهي ظنون

ابن زيدون

٣٩٤ - ٢٦٢ هـ

شاعر وحيانه

ولد أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون بقرطبة سنة ٣٩٤ . وكان أبوه
من وجوه الفقهاء وعيون الأدباء ، فدرس عليه وعلى غيره الأدب والعلم . ورزق

في الإنشاء قريحة طيبة وطبعاً سليماً . وسعت به كفايته ومكاته إلى أن وزر لأبي
الحزم بن جهور أحد ملوك الطوائف بالأندلس ، فاشتهر أمره وارتفع قدره . وألقى
إليه مقاليد الأمور فدرها وساسها بحلق وكياسة . وكثيراً ما سافر بين مولاة
وملوك الأندلس فأحسن السفارة وفض للشكل . ثم دبت بينهما عقارب السعاية ،
فقم عليه ابن جهور وسجنه ، ولم يشفع له سائف خدمته ولا سابق حرمة .
فكتب إليه رسالة فريدة يستعطر بها رحمة ، ويستدفع ثمة ، فلم يلب لها ذلك
القلب الجداد ، قرر من سجنه واختفى بقرطبة حتى استشفع بأبي الوليد ابن جهور
إلى أبيه فشقه . وظل في حماية هذا الأمير حتى آل للآل إليه بد أبيه فاستصحبه
وقربه . ولكن صلاته السياسية بصاحب مائة أحفظت عليه ابن جهور ففناه
فلجأ إلى المتضد عباد صاحب أشبيلية سنة ٤٤٩ فاستخلصه إليه ، وهول
في أموره عليه . ثم وزر لابنه المتشد وقضى في أشبيلية بقية عمره .

فأنت ترى من هذا الجمل أن حياة ابن زيدون العامة كانت مضطربة شاقة
ولم تكن حياته الخاصة بأقل منها اضطراباً ولا مشقة . فقد أبلى وهو في قرطبة
بحب ولادة بنت المستكفي أحد خلفاء بني أمية ، وكانت شهيرة بالجمال والأدب
شاعرة ، سافرة ، تساجل الشعراء وتجادل العلماء . وكانت دارها نادياً من أندية
قرطبة ينشأه الأمراء والوزراء والأدباء والقادة ، وفي هؤلاء ابن زيدون ، وكانت
فيه خفة روح وحسن دعاية وبراعة أدب ، فسبق المتنافسين إلى قلب ولادة فاحتله .
وبادلت به هذا الحب ، فأذكى هذا الفوز نار الحسد في قلوب منافسيه ومزاحمه ،
فسموا في إفساد ذات بينها . واشتهر منهم الوزير أبو عامر بن عبدوس وهو عظيم
الحول والطول ، فتراف إلى ولادة في ساعة من ساعات ملاها من ابن زيدون فظفر
برضاها : ثم عاد الحب إلى مجراه الأول فرجعت إلى ابن زيدون ، فكتب
إلى ابن عبدوس رسالة هزلية ضافية القيل عن لسان ولادة أشبه فيها تقريباً
وصفياً ، وضمنها كثيراً من التلميح في الأدب والتاريخ .

شعره

شعر ابن زيدون هو الصورة الصحيحة لشعر الأندلس ، لا نبجاسه من أحماق فؤاده ، وانيمائه من طبيعة بلاده ، فلم يجز جريان ابن هانيء وراء شعراء المشرق يحاكيهم ويحتذيهم . لأنه لم يتخذ الشعر وسيلة من وسائل الرزق ، ولا سبيلا من سبل الشهرة ، وإنما كان يشتر لنفسه ، ويمبر عن نزوات حسه . وهو آخر شعراء بنى مخزوم وأول معاصريه رقة ودقة ، قرأ في شعره أجود ما خصت به الطبيعة الأندلسيين من وصف المناظر ، وشرح السواط ، وسمو الغيل ، وصفاء الديباجة . وقد تظهر أحيانا على فخره ومدحه علائم الضعف ، إلا أنك لا تجد ذلك إذا تنزل أو تشوق أو استعطف : فإن طبعه في هذه الأغراض فياض ، وقله لشرحها مجيد . وسبب ذلك ما قاساه من ظلم ابن جهور له ، وما عاناه من نفور ولادة منه وبعدها عنه .

وقد تصلع ابن زيدون من أشعار العرب وأساليبهم في الكتابة والخطاب حتى قيل إنه أصيب في بعض حرره فقدم للزلاء عنها ، وأقبل الناس على اختلاف طبقاتهم يمزونه ، فما أجاب أحدا بما أجاب به غيره اسمع ميدانه وحضور جفائه . وإنك لتجد أثر هذا الاملاص باديا فيما يضمنه نثره وشعره من الأمثال والتشبيه والملح .

شعره

لابن زيدون نثر أنيق الوشى ، دقيق النسيج ، قليل التكلف والسجع ، كثير الازدواج والإطناب ، شديد الشبه بطريقة الجاحظ ولا سيما في التنوع بحروف الجبر . وله من طريقة ابن العميد تضيئين الأمثال والملح ، والمثل بالشعر في غضون النثر . ومن أجود آثاره رسالتان جدية وهزلية ، بعث بالأولى إلى ابن جهور يستطفه بها وهو سجين ، وبالأخرى إلى ابن عيدوس عن لسان ولادة ، وهي التي سبق ذكرها ، وقد حرص الأدباء على حفظها ونقح العلماء بشرحها .

نموذج من كلامه

قال مخاطباً بنى جهور :

بنى جهور أحرقتُمُ بمفائلكم فؤادى فما بال المدائح تعبق
تعدونى كالصبر الورد إنما تقوِّح لكم أخاؤه وهو يحرق
وقال ينشوق إلى ولادة وهى بقرطبة وهو بأشبيلية .

أضحى التثانى بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لُقيانا تجافينا
ينغم وبنا فما ابتلت جوانعنا شوقاً إليكم ولا جفت ماقينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضى علينا الأسمى لولا تأسينا
حالت لهدكم أليسا فندت سوداً وكانت بكم ييهاً ليالينا
ليستق عهدكم عهد السرور فا كتم لأرواحنا إلا رايحنا
من مبلغ اللبسينا بانتراحهم حزناً مع الدهر لا يبلى وبيلينا
أن الزمان الذى مازال يضحكنا أنسا بقربك قد عاد بيكيـنا
غيط المدى من تدايننا الهوى فدعوا بأن تنص فقال الدهر آمينا
فأحل ما كان مقوداً بأنفسنا وابتت ما كان موصولاً بأيدينا
وقد نكون وما يئشى تفرقنا فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا
لا تحسبوا تأبكم عنا يهيننا إن طال ما غير التأى الهيننا
واقه ما طلت أهواؤنا بدلاً منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
يا سارى البرق غاد القصر فاسق به من كان صرف الهوى والود يسقيننا
ويا نسيم الصبا بلغ نعيمنا من لوعلى البمد حيا كان يميمنا
يا روضة طالما أجت لواحظنا ورداً جنه الصبا غضا ونسرنا
ويا حياة تملينا بزهرتها مئى ضروريا ولقات أفندينا
لنا نسبك إجلالاً وتسكreme قدرك المعتلى عن ذلك يغنيننا

كأننا لم نبت والوصل ثالثاً
والسعد قد غض من أجنان واشيناء
سرتان في خاطر الظلاء يكتننا
حتى يكاد لسان الصبح يقسنا
ياجنة الغلد أبدلنا بسلسلها
والكوتر العذب زقوماً وغسلينا
إنا قرأنا الأسى يوم القوى سوراً
مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا
وقال يودعها :

ودع الصبر حب ودعك
فائق من سراه ما استودعك
يقرع السن هل أن لم يكن
زاد في تلك أغلطي إذ شيمك
يا أبا البدر سناء وسنى
رحم الله زماناً أطلتك ا
إن يطل بك ليلى فلكم
بت أشكو قصر الليل ملك
وقال أيضاً :

أما رجا قلبي فانت جيمه
يا ليتني أصبحت بعض رجالك
يدنو بوصلك حين شط مزاره
وم أكلد به أقبيل فاك
مخروج من شعره

وقال من رسالته الجديدة :

يا مولاي وصيدى القى ودادى له ، واعنادى عليه ، واعتدائى به ،
وامتدادى منه ، ومن أبقاه الله ماضى حد العزم ، وارى زلد الأمل ، ثابت عهد
النسة . حليقتى أعزك الله لباس ثنائك ، وعطقتى من حل إيتاك ، وأظلائتى
إلى وردإسافك ، ونقضت منى كف حياطتك ، ونقضت عنى طرف حمايتك ،
بعد أن نظر الأعمى إلى تأملى لك ، وسمع الأعمى ثنائى عليك ، وأحس الجواد
بامتدادى لك . فلا غرو قد ينس الماء شارب ، ويقتل الهواء للشنى به ، ويؤنى
الحفر من مأمته ، وتكون منية للثنى فى أميته . والحين قد يسوق جهداً الحريص :
كل للضائب قد تمر على التنى قهون غير شماعة الحساد
وإنى لأجهد ، وأرى الشامتين أنى لرب الدهر لا أنضض . فأقول : هل أنا

إلا يَدُ آدماءها سوارها، وجبين عض به إكليله، ومشرق الصقة بالأرض صاقله،
وسمهرى عرضه على النار مُتَّقَّفه، وعبد ذهب به سيده مذهب الذى يقول :
فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقسُ أحياناً على من يرحم
ومنها : ... وأعود فأقول . ما هذا الذنب الذى لم يسه عفوك؟ والجمل الذى
لم يأت من ورائه حليمك ؟ والتطاول الذى لم يستغرقه تطولك ، والتعامل الذى
لم يف به احكامك . ولا أخلو أن أكون بريئاً فأين المدل ؟ أو مسيئاً فأين
الفضل ؟ .

إن لا يكن ذنب فعلك واسع أو كان لى ذنب فضلك أوسع
وكلمها على هذا الأسلوب الرائق ، والديباجة للشرقة ، والتضمين الحكيم ،
والأفتنان الرائع .

وقال فى رسالته المزلية :

أما بعد أيها المصاب بقله ، للورط بجمله ، البين سقطه ، الناحش غلظه ،
العائر فى ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الدياب على
الشراب ، للتهافت تهافت الفراش على الضباب . فإن المُعْجَبَ أكذب ، ومعرفة
للره نفثه أصوب . وأنت راسلتى مستهدياً من صلتى ما صغرت منه أيدى أمثالك ،
مقتصدياً من خلقى لما قرعت دونه أنوف أشكالك ، مرصلاً خليلتك مرتادة ،
مستعملاً عشيقتك قوادة ، كاذباً نفسك أنك ستنزل عنها إلى ، وتخاف بدها على :
ولستَ بأول ذى همة دعت له لى بالنائل
ومنها :

هجين القذال ، أرعن السبال ، طويل العنق والملاوة ، مفرط الخلق
والضباة . بفيض الهيئة ، سخييف الذهب والجينة ، ظاهر الوسواس ، مقنن
الأفئاس ، كلامك تمتة وحديثك غنمة ، وبياناتك فبهة ، وضحكك قهقهة ،
ومشيتك هرولة ، وغناك مسألة ، وديتك زندقة ، وعلمك مخرة .

مساوٍ لو قُسمَ على النوائى لما أُهرون إلا بالطلاق
وكلها على هذا النحو من الإنذاع والقش والتهمك .

ابن حمديس الصقلي

٤٧٧ — ٥٣٧ هـ

شأنه وعباته

ولد عبد الجبار بن حمديس بجزيرة صقلية وعرف في بيئته منذ حداثة به معالجة
القرىض ؛ ولكنه ظل مجهول الذكر في أسواق الأدب فلا يسير شعره ولا يعرف
قدره . حتى اجتولى الترمذيون على وطنه وهو في ميعة الشباب ، فرأى بعينه
ومع بأذنه كيف سام الفاضل قومه سوء المذاب ، وكيف جر على بلده شر الخراب ،
فهاجر إلى أسبانيا عام ٤٧١ هـ ، ونزل بأشبيلية يمتاح فضل للمتمدن عباد ، فحجة
مدة لا يلتفت إليه ولا يعبأ به ، حتى قال ابن حمديس : « قطعت لخيدي مع فرط
تعبى ، وممت بالفكوى على عقبى . فإني لسكنك ليله من الليالي من منزلى إذ
بفلام معه سمعة ومركب ، فقال لى : أجب السلطان أفركت من فوزى ودخلت
عليه فأجلسنى على مرتبة من فرو الفئك ، وقال لى افتح الطاق الذى تملك ،
فتفتحتها وإذا بكور من الزجاج على بمد والدار تلوح من بابه ، وواقده يفتصهما
تارة ويسدما أخرى ، ثم أدام سد أحدهما وفتح الآخر ، فحين تأملتها قال لى :
أجز : انظرها فى الظلام قد نجما قلت : كما رنا فى الدجوة الأسد
يقال : يفتح عينيه ثم يطبقها قلت : فعل امرى حتى جفونه رمد
فقال : فابتزه الدهر نور واحدة قلت : وهل يجامى صروفه أحد ؟
فاستحسن ذلك وأمر لى بمائة سنية وأزمنى خدمته .

وظل الشاعر يتقلب فى نعم الملك حقبة من الدهر حتى أنزلها ابن تاشفين من
دسته ، وتفاء من ملكه ، فقبه ابن حمديس إلى منفاء فات الملك بمد أربع

سعين من نكته ، وأقام الشاعر في الهدية قاعدة أفريقية ، ثم احتفل إلى ميورقة
فتوفى بها معوج " الفتاة مكثوف البصر .

أنموذ

كان ابن حديس صحيح العقيدة ، وقور النفس ، رقيق الشعور قوى الملاحظة
ظاهر الجدة ، كثير الاختصاص . شديد التشاؤم ؛ ولكنه كان سمح الأخلاق ، حلو
للماشرة ، يحضر مجالس الطرب ، ويخالط أصحاب المهر ، في عفة نفس وكرم خلق
وصلاحة عرض ، ويبلغ من وصف ذلك مبلغ الإجادة والإبداع . وهو المقاتل :
أصف الراح ولا أشربها وهى بالشدوعلى الشرب تدور
كأدى يأمر بالكرك ولا يصطلى نار الوغى حيث نفور
وهذه الصفات التى ذكرناها إنما استقتبناها من شعره ، ولا ندرى أهى
فيه من طيبة ميلاده ، أم هى أثر من آثار نكته فى بلاده .

شعره

شعره مرآة صاغية تجلت فيها أخلاقه : فهو عفيف القنط ، نبيل الفسكرة ،
لا ينف إلى المجون ، ولا يتورط فى النى وقد دعاه ظلم الزمان ولؤم الإنسان
وعلو السن إلى التبرم بالحياة ، والشكوى من الناس ، والنزوة على النفس ،
وسلوكة مذهب أبى المتاهية فى الوعظ والتزهيد والتصوف بلفته الواضحة وأسلوبه
المشرق . ثم تأمل نفسه وينشرح صدره أحيانا فتفتتح مشاعره لجمال الطبيعة ،
وقدات الحياة ، وعجائب الكون ، فيصف النهر والزهر والصيد والخيول والليل
وقصور الترف ، ومجالس الطرب ؛ يرسم كل أولئك بلفظ أنيق ، وتصوير دقيق
وعبارة بيّنة . ولعلك تلمس ذلك فيما نختاره لك من شعره ، وكله مجموع مطبوع
فى بالرم سنة ١٨٧٣ وفى رومية سنة ١٨٩٧ م .

نموذج منه شعره

قال في وصف نهر :

ومُطَرَّد الأجزاء يصل متنه صبا أعلنت العين ما في ضميره
جريح بأطراف الحصار كلما جرى عليها شكا أوجاعه بمخبره
وقال يصف بركة في قصر ابتناه للصور بن أعلى الناس ببجاية :
عليها أشجار من الذهب والفضة وأسود من للرمر ، وللاء يخرج من أطراف
تلك وأفواه هذه :

وضراغم سكنت عرين رآسة	تركت خرب الماد فيه زئيراً
فكأنما غشى للضار جوسها	وأذاب في أفواهها الباورا
أمد كان سكونها مضحك	في النفس لو وجلت هناك مثيراً
وتذكرت فكأنها فكأنما	أقمت على أديارها لتشورا
وتخلل الشمس تجلو لونها	ناراً وألسنها الواحس نوراً
فكأنما ملئت سيوف جداول	ذابت بلا نار فمدن غديراً
وكأنما نسج للنسيم لانه	ديرها فقدر سردها تقديراً
وبديعة الثمرات تعبر نحوها	عيناي بحر عجائب مسجوراً
شجرية ذهبية نزعت إلى	سحر يؤثر في النهى تأثيراً
قد سُرجت أغصانها فكأنما	قبضت بهن من الفضاء طيوراً
وكأنما تأتي لوقع طيرها	أن تستقل بنهضها وتطيرا
من كل واقعة ترى مقارها	ماء كلسال اللجين نهدراً
خرس تمدن من الفصاح فإن شدت	جعلت تفرّد بالمياه صفيراً
وكأنما في كل غصن فضة	لانت فأرسل خيطها مجروراً
وتريك في الصبرج موقع قطرها	فوق الزرجد لؤلؤا مشورا

ضَحَكْتَ بِحَاسِنِهِ إِلَيْكَ كَأَنَّمَا
وَقَالَ يَبْكِي ذُنُوبَهُ وَيَسْتَغْفِرُ بِهِ :
بِأَذْنُونِي تَهَلَّلْتَ وَاللَّهِ ظَهَرِي
كَلَّمَا تَبَّتْ سَاعَةٌ عَدَّتْ أُخْرَى
تَهَلَّلْتَ خَطْلُوتِي وَفُودِي تَعْرَى
دَبَّ مَوْتُ السَّكُونِ فِي حَرَكَاتِي
وَأَنَا حَيْثُ سَرَتْ أَكَلُ رِزْقِي
كَلَّمَا مَرَّ مِنْهُ وَقْتُ بَرِيحِ
بِأَرْفِيقَا بِسَبِيلِهِ وَمَحِيطَا
يَلُّ بَلْبِي إِلَى صِلَاحِ فَسَادِي
وَأَجْرُنِي بِمَا جَاءَ لِسَانِي
وَقَالَ مِنْ قَصِيدَةٍ يَنْدُبُ فِيهَا الزَّمَانَ وَيَشْكُو الْإِخْوَانَ :

أَتَحْسِبُ أُنْسِي وَمَا زِلْتُ ذَاكِرًا
تَنْفَذِي بِأَخْلَاقٍ صَفِيرًا وَلَمْ تَكُنْ
وَيَا رَبِّ نَبْتَ تَعْتَرِيهِ مَرَارَةٌ
عَلِمْتُ بِجَعْرِ بِي أُمُورًا جَهْلِيهَا
وَمِنْ ظَنِّ أُمُوهَا الْخَضَارِمَ عَذْبَةً
رَكِبْتُ الدَّوَى فِي رَحْلِ كُلِّ نَجِيَّةٍ
وَلَمَّا رَأَيْتُ النَّاسَ يَرْهَبُ شَرْمَ
وَقَالَ فِي الْفَرَزْلِ :

عَذَّبْتَ رَقَّةَ قَلْبِي
وَصُمْتُ جَسَدِي سَقْمًا
مِنْ لِي بِصِيرٍ جَمِيلٍ
ظَلَمْنَا بِقِيَمَةِ تِلْكَ
وَمَا شَفِيتُ بِطَلْكَ
عَلَى رِيَاضَةِ صَبِيحِكَ ؟

فيا تشوق بملدى ا إلى تنسّم قريك ا
 ووجية غستها في الورد صنة ربك
 لقد جنحت ليلى كما جنحت لحرّك
 فبالدلال الذى زا د فى ملاحه عجبك
 فكى من الأسر قلباً عليه طابعُ حبك
 ونمىنى يمتنى فقد شقيت بشتبك

ابن خفاجة الأندلسى

٤٥٠ — ٥١٢

نشأته وحياته

أبو إسحق إبراهيم بن خفاجة الأندلسى وُلد بمدينة شَرّ أو جزيرة شَرّ كما
 يسميها العرب . والظاهر من شعره أنه عاش معيشة الفنانين خليج النّذار طليق
 الإِسار فلم يَسْم إلى معالى الأمور ، ولم يقول عملاً من الأعمال العامة ، ولم يتعرض
 لاسباحة ملوك الطوائف مع تهاقنهم الشديد على أمثاله . وإنما أخلّى ذرعه من
 مشاغل الحياة ووهب نفسه للجمال وفكره للخيال وحده لذّة وكله للطبيعة .
 فهو يتنقل بين رباهما وخائلها ، ويجول بين مروجها وجدلولها ، فيقف عند كل
 رائحة ، ويصف كل واقعة ، ثم يمود إلى كأس روية فيحتسبها ، أو صورة فاتنة
 فيجتليها ، أو ثمرة محرمة فيجتليها : وتنفس به العمر على تلك الحال حتى أتاه
 اليقين فى مسقط رأسه سنة ٥١٢ .

شعره

ابن خفاجة شاعر الطبيعة ومصورها . قد امتلأت نفسه وحيته من جمال
 الحياة وجمال الطبيعة ، فراح يبرز هذا الجمال المادى فى صور مختلفة من الجمال
 اللفظى ، فائمة الأساليب الصافية ، والألوان الزاهية ، دمجها زخرف البديع ،

ووشاها بكثير من الجاز والتشبيه ، واستطاع باقتنائه أن يتيق اللل من كثرة
تكراره ، ووقوفه عند المناظر الحسية استقيها أشماره . أما طلاب الآراء
التنصيفية وللماني الأمية ، والأفكار الفلسفية ، فأظههم يرجعون من قراءته
بطائل . ولهذا الشاعر نثر^(١) متكلف سخيف ، يؤكد لك مرة أخرى أن
إجادة الصناعتين قلما تنفق لأحد .

نموذج منه سحره

قال يصف زهرة :

ومائة تزهي وقد خلج الحيا عليها حلى حمراً وأردية خضرا
يزوب لها ريق الثأيم فضة ويحمد في أعطانها ذهباً نضرا
وقال يصف نهراً ينساب في أحد اللوج قد تترج مجراه وتعددت مناظره :
لل نهـر سأل في بطحاء أشهى وروداً من لى الحساء
متطف مثل السوار كأنه والزهر يكفنه ، مجر سماء
قدرق حق غلن قرصاً مفرغاً من فضة في بردة خضراء
وغدت تحف به الفصون كأنها هذب يحف بمقلة زرقاء
ولاء أبرج جريه متهدراً متلوياً كالخمس الزرقاء
والرح تصب بالنصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين للاء
وقال يصف بلاد الأندلس :
يا أهل أندلس لله جزءكم ماء وغل وأنهار وأشجار . !

(١) قال من رسالة إلى بني إخوانه يصل وده به وقد قطعه ، ومى غابة في التكلف
ولفتاته : أطال الله بقاء سيدي النبوة أوساله للزينة من الاستثناء ، للرومة إماراته
السكرة بالإجلاء ؛ ما حذفت ياهرى للجزم ، واحطت وأوتزرو لموضع الضم . كبتت من وود
لديم هو الحال لم يلبثها انتقال ، وعهد كريم هو الفصل لم يلبثه احتلال ، والله يبيل هاتيك
بن الأحوال الناتجة اللازمة . ويصم هذا بعداً من الحروف الجازمة ، وأنا استهين طولك
للى تبديد مهديك عطالة ألف الرسل ، وقصدي لى اللسل

حاجة الخلد إلا في دياركم ولو تخيرت هنى كنت أختار
وقال أيضاً :

إن للجنة بالأندلس مجتلى عين وروا نفس
فصنا صبحتها من شنب ودجا ليلتها من لسن
فلذا ما هبت الريح صبا صحت : واشوق إلى الأندلس
وقال يصف طيفاً ألم به في ليلة طويلة :

ياربَّ ليل بات فيه مُعانق طيف ألمّ لظبية الوعاء
فصمت بين رُضايه وشرابه وشريت من ريق ومن صهباء
ولنت في ظلماء ليله وفرة شققاً هناك لوجنة حمراء
والليل مُنمط الذوائب كبرة خرف يدب على عصا الجوزاء
ثم أنشئ والسكر يحجب فرجه ويحمر من طرب فضول رداء
تندى بفيه أصعوانة أجرج قد غازلتها الشمس غبّ سماء
وتيس في أنوابه ربحانة كسرت على ظناً بمدول ماء
فأحاة الأتقاس إلا أنها حذرَ اللوى خفاقة الأفياء
فلويت مطبقها اعتناقاً ، حسبها فيه بقطر الدمع من أنواء
والفجر ينظر من وراء غمامة عن مقلة كحلت بها زرقاء
فرغبت من نور الصباح للوره أغرى بها ينفسج الظلماء
وقال يصف موقداً هبت عليه ربح فالحبته :

لاعب تلك الريح ذاك اللهب فداد عين الجدد ذاك اللعب
وبات في مسرى الصبا يتبهم فهو لها مضطرم مضطرب
ماهرته أحسبه مُنقشياً بهز عطفه هناك الطرب
لو جاءه منتقد لما درى ألهب متقد أم ذهب
تلم منه الريح خدلاً خجلاً حيث الشرار أعين ترتقب

في موقد رقرق الصبح به ماء عليه من نجوم حبيب
 منقسم بين رماد أزرق وبين حجر خلقه ملتهب
 كأنما خرت سماء فوقه وانكسرت ليلا عليه شهب
 وقال يصف شاباً جديلاً يسمي :
 وصتيل إفرند الشباب ، بطرفه سقم ، وللمضب الحسام ذباب
 يمشي المويقي نخوة ولربما أطرته طوراً نشوة وشباب
 شق الحاسن ، لوضاعة ربطة أبدأ عليه ، وللحياء ثقاب
 وبمعطفه للشبية منهل قد شف عنه من القميص سراب
 عبر الخليج صباحة فكأنما أهوى فشق به السماء شهاب
 تعافوا لفرته هناك حبابه وعوج من ردف ألف عباب

لسان الدين بن الخطيب

٧١٣ - ٧٧٦ هـ

نشأته وحياته

هو ذو الوزارتين أبو عبد الله لسان الدين المعروف بابن الخطيب : ولد
 بقرطاجنة سنة ٧١٣ في مهد السؤدد والعلم والرياسة ، وتخرج على علماءها في علوم اللسان
 والشريعة والفلسفة والطب والرياضة والتاريخ ، وبذل في كل ذلك ما صر به ومناظره
 من أدباء الأندلس . ثم وصلته مائة الشعر والأدب بأبي الحجاج يوسف سلطان
 قرطاجنة (٧٣٣ - ٧٥٥) فاستكتبه ، ثم استوزره وأطلق يده في شئون مملكته
 فأتبع نفوذه وضحخم أمره . وما زال في هذا للنصب وتلك الخطوة حتى توفي
 أبو الحجاج وخلفه ابنه محمد الخامس فأقر لسان الدين في الوزارة . ولكن عقارب
 الوشاية دبّت بين الرجلين فتسكّر له السلطان ، ففر منه إلى إفريقية فأكرمه
 ملوكها . ثم توالى عليه مكاره وخطوب انتهت بتسليمه إلى أعدائه ، فاعتقلوه

يفاس وأغروا جماعة من الفقهاء فألقوا بالحجارة لاشتغاله بالفلسفة . فتصور عليه
السجين بعض الأوشاب فقتلوه خنقاً .

مترته في الكتابة

لسان الدين كاتب مطبوع على السجع ، سائر في صناعته مع الطبع ،
يذهب إلى الإطناب في رسائله شأن كتاب الأندلس . وربما ساق الرسالة
الضافية كلها على روى واحد . والتفرغ الأندلس مبنى على الخيال والصناعة
لغلبة الشعر على أهله . وقل أن تجد فيه السائغ للقبول لتكلفهم السجع ،
وتسلمهم التنميق ، وتوجبهم الإطالة ؛ فهم شعراء بالطبع ، وكتاب بالصنعة ،
على غير ما نرى في أهل الشرق .

وله شعر رقيق اللفظ رائق المعنى مقبول الصنعة . وقد انتهت إليه زعامة العلم
والأدب في الأندلس ، كما انتهت إلى ابن خلدون مفاصله في إفريقية . ولابن
الخطيب القدم الراسخة في التاريخ ، ومولفاته في تلخيص كتابها ، أشهرها كتاب
الإحاطة في تاريخ غرناطة ، وهو معجم تاريخي لرجال غرناطة في ثلاثة مجلدات .

نموذج من كلامه

قال في موشحه للشهيد الذي عارض به موشح ابن سهل :

جارك النيث إذا النيث هي يلزمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلاً في الكرى أو خلسة المختلس

إذ يقود الدهر أشتات المني تنقل الخطوط على ما زسم
زُمرراً بين فرادى وتنى مثلما يدعو الوفود للموسم
والحيا قد جلل الروض سنا فتنور الزهر منسبه تبسم
وروى النعان عمن ماء السما كيف يروى مالك عن أنس

خكاه الحسن ثوباً مثلاً يزدهى منه بأبهى ملبس

في ليالٍ كتمت سر الموى بالدجى لولا شمس القدر
مال نجم الكأس فيها وهوى مستقيم السير سعد الأثر
وطرٌّ ما فيه من عيب سوى أنه مر كل صبح البصر
حين لَدَ النوم منا ، أو كما هاجم الصبح نجوم الفلج
غارت الشهب بنا ، أو ربما أثرت فينا عيون النرجس

أى شيء لأمرىء قد خلصا فيكون الروض قد كُفّن فيه
تنهب الأزهار فيه القمصا أمنت من مكره ما تنقيه
فإذا الماء تناجى والحصا وخلا كل خليل بأخيه
تبعثر الورد غيورا برما يكتسى من غيظه ما يكتسى
وتزى الآس ليبياً قهراً يسرق السم بأذنى فرس

يا أهيل الحى من وادى النضا وقلبي سَكَنَ أتم به
ضاق من وجدى بكم رحب الفضا لا أبالى شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى تمتقوا عانيكم من كربه
واتقوا الله وأحيوا منوما يتلاشى نقاً فى نفس
حبس القلب عليكم كرمأ أنقضون عشاء الحبس

وبقلبي منكم مقرب بأحاديث المنى ، وهو بعيد
قز أطلع منه المغرب شقوة للفرى به وهو سعيد
قد تسارى عمن أو مذنب فى هواه بين وعد ووعد

ساحر للغة موصول إلى جال في النفس مجال النفس
سد السهم ومي وري فتؤادي نهبة للفرس
إن يكن جار وخاب الأمل فتؤاد الصب بالشوق يذوب
فهو النفس حبيب أول ليس في الحب محبوب ذنوب
حكم اللفظ نها فاحسكا لم يراقب في ضفاف الأنفس
منتصف للظلم عن ظلماء ويجازي البر منها والسي
ما نقلي كما هبت صبا عادة عيسد من الشوق جديد
كان في الوجود له مكتنبا قوله : إن عذاب لشديد
جلب الهم له والوصبا فهو للأشجان في جهد جديد
لا هج في أضلعي قد أضرمنا فهي نار في هشيم الييس
لم يدع في مهجتي إلا ذما كبقاء الصبح بعد الفس

ومن قصار رسائله في الشوق إلى ابن خلدون وهي تمثل طريقته في الكتابة:
أما الشوق فحدث عن البحر ولا حرج . وأما الصبر فسل به أية درج ،
بعد أن تجاوز الوى والمنعرج ، لكن الشدة تعشق الفرج ، وللؤمن ينشق من
روح الله الأرج . وأنى بالصبر ، على إر الدبر ، بل الضرب الهبر ، ومطاوله اليوم
الشهر ، حتى حكم القهر . وهل للعين أن تسول للقصر ، عن أناسها البصر ،
أو تذهل زهول الزاهد ، من سرها الرأى وللشاهد ، وفي الجسد مضفة يصلح
إذا صلحت ، فكيف حاله إن رحلت عنه ونزحت ؟ وإذا كان الفراق هو
الحام الأول ، فلام المول ، أعيت مراوضة الفراق على الراق ، وكادت لوعة
الاشتياق ، أن تفضي إلى السباق .

زكتموني بعد تشييمكم أوسع أمر الصبر عصيانا
أقرع سنى ندماً تارة وأستميح الهمع أحياناً

الشعر والكتابة والعلوم والفنون في مصر على عهد الفاطميين

ذهبت ريح المباسيين بعد للتوكل على الله لفساد الحكم وسوء النظام واستبداد الوزراء وتنافس الزعماء ؛ وانتقص الولاة دولتهم من أطرافها ، وغلب الثوار على كثير من أملاكها . وكان الدويون الفاطميون ممن شارك في هذا النهب المقيم ، فاقطعوا منها شمالي إفريقية ثم مصر والشام والحجاز .

قام خليفتهم الأول عبيد الله بن محمد بالقيروان سنة ٣٤٦ هـ ثم أرسل خليفتهم الرابع للزاد بن الله قائده وكتابه جوهر الصقلي إلى مصر في جيش مرمرم ققتعها بالسيف وملسها بالذهب ، وحفر حيث نزل سنة ٣٥٧ أساس القصر الكبير لمولاه ، وأساس الجامع الأزهر لله . وأنزل طوائف الجيش حولها في نحو العشرين خطة ضرب عليها سوراً من الابن فكان من ذلك مدينة القاهرة التي اتخذها القواطم منذ يومئذ قاعدة لخلافهم تعاقب على عرشها منهم أربعة عشر خليفة من سنة ٣٥٧ إلى ٤٦٧ هـ حتى غلبهم عليه صلاح الدين .

ظفرت مصر يوم دخول للزاد بالاستقلال والخلافة والأزهر ، وخفق العلم الأبيض على القاهرة منافساً للعلم الأسود في بغداد ، ولعلم الأخضر في قرطبة ؛ ووجدت الآداب العربية والحضارة الإسلامية في ظلال هذه الأعلام الثلاثة سبيلاً إلى الانتشار ، ومساعد على الأزدهار ، وممينا على النمو . وكان الفاطميون في مصر والأمويون في الأندلس إنما يشبهون بالمباسيين في العراق ، يأتمون بهديهم ، ويسترضون بوحهم ، في السياسة والحضارة والأدب والعلم والفن ، فلم يحدثوا في شيء من ذلك حدثاً يصح أن ينسب إليهم أو يستند فيه عليهم ، إلا ما اقتضته طبيعة الإقليم وسياسة التعليم ونظام الاجتماع . ولكن الطائفة بين هذه الخلافات

الثلاث كانت تستلزم للنفاضة في تهريب الشعراء ، وتمضيد العلماء ، وتشيد المدارس ، وإنشاء المكاتب . فكما اشتهر الرشيد وابنه المأمون في آسية ، اشتهر الفاصر وابنه الحكم في أوربة ، والعزیز بالله وابنه الحاكم في إفريقية . فقد شغل العزیز بنجع الكتب واقتناها وإقرائها حتى بلغ ما في « خزائن الكتب » التي ابتناها في قصره زهاء ألف ألف مجلد في الفقه والنحو والحديث والتاريخ والعلوم . وكان لوزيره يعقوب بن كلثوم اليد البيضاء والقدم السابغة في إنفاذ الأدب والعلم في مصر ، فقد كان يدرّس رجال الأدب والشعر والفقه والصناعة ، فيرثهم ويرشدهم . وكان يجلس للناس في كل جمعة فيلدرسهم ويفسهم ما يؤلف في القراءات والفقه . وأنشأ الحاكم بأمر الله مكتبة على نسق بيت الحكمة الذي أنشأه المأمون في بغداد سماها « دار الحكمة » ، واستقدم إليها الأدباء والعلماء والفقهاء والأطباء ، وأجرى عليهم الأرزق ، وأباح دخولها للناس ، فكثرت فيها المناظرات وأقيمت بها المحاضرات ، والحاكم نفسه يحضرها ويقصرها ، ويعني بها كما كان يصنع المأمون . وقد بلغ من عناية الفاطميين باللغة العربية وأدبها أن راقبوها في الدواوين وجعلوها في ديوان الإنشاء أستاذًا يصحح أخطاء الكتاتين بها ، ويرشد الماجزين إلى طريق أدبها . كان بابشاذ المتوفى سنة ٤٦٩ هـ وابن برى المتوفى سنة ٥٨٣ هـ . وأخذ الأزهر يشم نوره في خلافة العزیز بالله ، إذ أمر وزيره يعقوب أن يستقدم إليه ما استطاع من فقهاء العالم الإسلامي لينصروا مذهب الشيعة ، ويؤيدوا دعوى الخلافة ؛ وأن يجري عليهم الوظائف ويشيد لهم المساكين ، فانتقل هؤلاء الفقهاء من القراءة إلى الإقراء ، ومن الدراسة إلى الجدل والمراء ، حتى انتهى الأمر بالأزهر إلى أن صار المدرسة الإسلامية الكبرى . وبلغت القاهرة المدنية في أواسط القرن الخامس أوج حضارتها ، وغاية عمارتها ، فنصبت برجال الأدب والفنون ، وزخرت بمخلفات الأمم والقرون . وزهت بما اتين فيه الخلفاء والأمراء والوزراء من تشييد المناظر ، وإقامة المنابر ،

وتفخيم القصور ، وحشد القباب الحجية ، وصنع القرفصات البديعة ، وتزيين ذلك كله بما عرف عن اليد المصرية الصانع من روائع النقش وبدائع الخزف وجمال الألوان ، وتوشيته بالإجاص للون ، وتبليطه بالرخام للصقول والكاشاني الجليل ، وورصفه بالسيفاء للزخرفة ، مما حاولت به القاهرة بئداد وقرطبة ، وكان نموذجاً صادقاً لارتقاء فن العمارة والزخرفة أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن .

وقدما سمع في تاريخ دولة إسلامية ما سمع عن الخلفاء الفاطميين في سرفهم وامتلاء خزائهم بالبخائر والجواهر والأعلاق والأسلحة والكتب ، ولم يسم في ملكة من الاختفال ما كان يقوم به خلفاء القاهرة في اللباس والأعياد . وكان لشعر في تلك الخفلات رواج وفتاق ، ولشعراء في ميدانه استئذان واستملاق ، فنبغ في آخر هذه الدولة طائفة من الشعراء المصريين جروا على أساليب البنداديين في عصورهم الأخيرة من الميل إلى الصناعة البديعية والحلية اللفظية . وكذلك ممن نبغ فيها من الكتاب نهجوا هذه السبيل في شيء من التوفيق والإجادة ، وحسبك أن تعلم أن القاضي الفاضل إمام الطريقة الرابعة في الأدب العربي إنما تعلم الكتابة في ديوان القاضي ابن حديد في الإسكندرية ، وكتب في ديوان الظاهر بالقاهرة . ووزر لصالح الدين بن أيوب بعد ذلك . فطريقته من غير شك كانت هي الطريقة الفاشية في مصر على عهد . وقد فصلنا القول فيها أثناء كلامنا عن الكتابة وعن هذا الكتاب ص ٢٢٨ ص ٣١٨ فارجع إليه .

الشعراء في مصر

نبغ من الشعراء في ربوع النيل أبو علي نعيم بن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي التوفي سنة ٣٧٥ : وقد اشتهر بشعره النزل ، وحواره العسري ، وأسلوبه القوي ، ونسجه الدقيق . روى عنه صاحب اليقينة غنبة سالحة في الجزء الأول ص ٣٤٧ وله ديوان مطبوع .

وابن وكيع اللقب بالعماسي ، ولد في قرية قريبة من دمياط وتوفي بها

سنة ٣٩٤ وقد عرف بإتسكار معانيه وحسن تصرفه .

وأبو الفتح نصر الله بن قلاص الاسكندري اللقب بالقاضى الأعز ، رحل في أعقاب حمزه إلى اليمن ومدح بعض حكامها فأغنوه ، ولكن السفينة التي كانت تحمله وهو عائد إلى مصر غرقت على مقربة من دهلك فباد إلى اليمن صفر اليمين ، ثم سافر إلى حقلية ورجع منها فأت في عيذاب سنة ٥٦٧ .

وهبة الله بن سناء الملك اللقب بالقاضى السيد ، كان من الشراء المجدولين والرؤساء للحدودين . اتصلت أسبابه بالقاضى الفاضل والهادى الكاتب ، وسمت به كفايته إلى مكان رفيع من الخطوة والثروة . وكان في مصر على عهد جماعة من الشراء الذين ألف بينهم الأدب فكانوا يجتمعون ويتناشدون ويتسامرون ، وكان هو واسطة قلاذتهم ومحل رياستهم . وهو أول من سبق إلى اللوشحات وأجادها من شراء الشرق . وله اللوشحة للشهيرة التي مطلعها .

كللى يا سحبت تيجان الربى بالخلى واجلى سوارك منقطع الجدول
ثم جمال الدين بن مطروح وكذا بأسبوط ونشأ في قوص واتصل بخدمة الملك
الصالح الأيوبي حتى جملة فاظراً على الخزانة ثم وزيراً لنائب دمشق ، ثم تقلبت به الحال من سفر وحضر ورضاً وسخط حتى توفى بالقاهرة سنة ٦٤٩ هـ .
ثم الشاعر المنزلى الرقيق كمال الدين بن النبيه ، وإليك ترجمته .

كمال الدين بن النبيه

للتوفى سنة ٦١٩ هـ

شأن ومبارة

نشأ هذا الشاعر القدير مجبهة ، وحياته مرت عادية هادئة ، كالجدول السلسال في الروض الأفصح ، لاتسع غير أنامه وخريره . فلم يلق بنفسه في غار السياسة وهو يبيع بين يديه ومن خلفه ، واكتفى بملح بنى أيوب في مصر حتى

اتصل بالملك الأشرف موسى صاحب الجزيرة و خلاط ، فكتب له في ديوان
الإثناء وأقام بنصيبين في خدمته حتى توفي بها سنة ٦١٩ هـ

شعره

ابن النبيه شاعر غرُّ البديهة مليح النادرة ، منسجم الأسلوب ، حسن
الوشى مطبوع على البديع ؛ فهو يتوخى الخلية اللفظية ويشد في طلبها ، ولكن
يخيل إليك أنه لا يتلقفها ولا يتكلفها لجل صياغته وقوة صناعته . وما رأيت
شاعراً قبل هذا الشاعر يكلفُ بالبديع هذا الكلف ، ويسرف فيه هذا
السرف ، ثم يضطرك وأنت تقرأه إلى الرضا عنه والإعجاب به . ذلك لأن
أسلوبه قوى الحياة ، شديد الحركة ، كثير التنوع ، مزدهر الألوان ، يستر
بقوة طبعه ما يبدو من ضعف صناعته ، كقوله في اللحن مثلاً .

فريق جرة سيفه للمعتدى ورحيق خمرة سبيه للمعتقى

يا بدر ! زعم أن تقاس بوجهه وعلى جبينك كلفة للتكلف ؟

يا غيم ! تطمع أن تكون ككفه كلا وأنت من الجباه الخلف

ولم يكسده شعره يخرج عن أغراض ثلاثة أجادها كلها إجادة قل أن تنظر
بمثالها في عصره . وهى للدح ، وكله في بنى أربب إلا قصيدة أو قصيدتين مدح
بهما الخليفة الفاضل المباسي ، والفزل والوصف ، ولا يبحى بهما مستقلين ، وإنما
يسوقهما مقدمة لمدحه . فأما مدحه فقد سلك فيه الطريقة المألوفة من ذكر الفتح
والنصر والبأس والجدود . وأما غزله فمن النوع الحسى الشهوانى الذى لا يعتمدى
جمال الشكل ، من ليل الشعر ، وصبح الوجه ، وسحر الجفون ، وسهام العيون
وثرؤنؤ الثمر ، وياقوت الشفة النخ . أما الإحساس القلبى بالحب والإدراك النفسى
للجمال فشيء لا تنظر به فيه . والراجح فى الظن أنه كان يقول عكس ما باب
من أبواب الشعر ، لا على أنه فيض من الشعور ، ونور من الإلهام . أما وصفه
فأكثره فى الحمر ومجالسها ، وأقله فى الطبيعة ومناظرها .

وعلى الجملة فابن النبية شاعر عذب الروح، كثير الافتتان؛ مفرق في المجاز
والتشبيه والبدیع . مجيد للمطالع ، محسن للتخلص . وله ديوان طبع في بيروت
وفي مصر .

تموزج من شعره

قال في أول قصيدة يمدح بها الملك الناصر لدين الله العباسي :

يا كُرْصوبحك ، أهني الميش باكره قد ترنم فوق الأيك طائره
والليل نيمجئ السراري في مجرته كالروض تطفو على نهر أزاهره
وكوكب الصبح نجاب ، على يده تخفق تملأ الدنيا بشأره
فانهض إلى ذوب ياقوت لها حبب فويل جناها مع المقود عاصره
ساق تكون من صبح ومن غسق فايض خداه واسودت غدايره
مهفف القد يندى جسمه ترقا مخصر الخضر هيل الدف وافره
سودّ سوافقه ، لئس مراشفه ، نفس نواظره ، خرّس أساوره
تطلت بانه الوادي شمائله وزورت سحر عينيّه جآذره
خذ من زمانك ما أعطاك منتها وأنت ناه لهذا الدهر آمره
فالمر كالسكاس تستحل أوائله لكفه ربما مجت أوآخيره

وقال في مطلع قصيدة يمدح بها الملك الأشرف :

أفديه إن حفظ الهوى أوضيما ملك القواد فإعسى أن أصنما
من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه حلوا قد جعل الحبة وادعى
يا أيها الوجه الجليل تدارك الص بر الجليل قد عفى وتضعضا
هل في قوادك رحمة لمتهم ضمت جوانحه قوادا موجما ؟
ومن غزله أيضا في بعض قصائده :

أجفله شرك القلوب كآثما هاروت أودعها فنون فتونه

يا قوته متبسم عن لؤلؤ
ساق صحيفة خده ما سودت
جهد الذي يمينه في خده
طلب الربيع كأنما عجن الصبا
وتفضضت أزهاره وتذهبت
ومن غزله أيضاً :

أماناً أيها القمر للظل !
يزيد جمال وجهك كل يوم
وما عرف السقام طريق جسي
تميل بطرفه التركي على
إذا تشرت ذوائبه عليه
أيامك القلوب فتكت فيها
قليل الوصل ينفعها فإن لم
أدر كأس للدماء على النداء
بمنظرك الهديع تدل نبهاً
فمن جفئك أسياف تسل
ولي جسد يذوب ويضمحل
ولكن دلك من أهوى يدل
صدقم . إن ضيق العين يخل
تري ماء يرف عليه ظل
وفتك في الرعية لا يحل
يُصبها وأبل منه فطل
فمن خديك لي راح وتقل
ولي ملك يدركه أدل

وله قصيدة الرثاء للشهيرة التي رثى بها ولد الناصر بالله ومطامها :

الناس للموت كغليل الطراد
رائق لا يدور إلى داره
والوت نقاد ، على كفه
لا تصلح الأرواح إلا إذا
فالسابق السابق منها الجواد
إلا من استصلح من ذي العباد
جواهر يختار منها الجياد
صرى إلى الأجسام هذا الفساد

ابن الفارض

٥٧٦ - ٦٣٢ هـ

نشأته ومبانيه

هو أبو حفص عمر بن علي المروفي بابن الفارض . أصل آباه من حماة ولدهو بالقاهرة سنة ٥٧٦ هـ ، وتفق في الدين ، وتوسع في اللغة والأدب ، حتى حرز منهما قسطاً وافراً . ثم وقع في نفسه أن يهيج مذهب الصوفية ، فافتنى تارم وعرف أسرارهم . وذهب إلى مكة فزار البقاع المقدسة ومكث بها زمناً ثم رجع إلى مصر قضى بها بقية عمره بين الإطعام والإكرام حتى توفي بالقاهرة ودفن بسفح المقطم سنة ٦٣٢ هـ .

صفاته

كان ابن الفارض على نقشه وتصوفه جميل الهيئة ، حسن الهيئة ، ظريف المحضر ، محمود المشيرة ، وقوراً ، كثير الورع ، إذا مشى في المدينة ازدحم الناس عليه يلتمسون منه البركة والنعاء . وإذا حضر مجلساً عقدت له السنة أهل فلا يتكلمون . فإذا أراد النظم أخذته غيبوبة يطول أمدها أحياناً إلى عشرة أيام كما قيل ، لا يأكل أثناءها ولا يشرب ولا يتحرك ، فإذا أفاق أملى شعره .

شعره

نشأ ابن الفارض في عصر الأيوبيين وهو عصر تنازع النفوس فيه عاملان مختلفان : عامل التصوف والتقوى ، ليوم الحروب وتوالي الكروب من الجماعات والموتان ، وعامل الفسوق والمجون ، لانحلال الأخلاق ونعم الشهوات ، وانتشار الخدرات . واتجه الشعر في مصر في غير مصر إلى هاتين الوجهتين . فهو إما أن ياد به الله وإما أن يراد به الشيطان . وابن الفارض قد نشأ نشأة دينية ، وربى

تربية صوفية؛ فلم يكن له بدمن سلوك طريقة القوم في شعره، ينظم إشاراتهم، ويصف مقاماتهم، ويكثر من نعت الخمر وذكر النزل، مريباً بذلك القات الإلهية على اصطلاحهم. فكان بذلك موجد الطريقة^(١) الرمزية في الشعر العربي Symbolisme وهو أكثر الشعراء تمعلاً للكلام وتسكفاً للبدع، وولوعاً بالجناس والتعاليق، وأسيرٌ معاصريه شعراً، لرقته واشتياؤه على ما يرضى للتصوف الزاهد، والماشق المالحن: ذاك بباطنه وهذا بظاهره. فالتصوفون ينشدونه في مجالس الذكر، والخلعاء ينشونه في مجالس الخمر. وقد شرح ديوانه جماعة من العلماء واختلفوا في أغراضه، فمنهم من شرحه على ظاهر اللفظ ولم يتأول شيئاً كالبوريني (١٠٢٤) ومنهم من شرحه وأوله على طريقة الصوفية كالنابلسي (١١٤٣).

ومن أشهر شعره تأنيده الكبرى والصغرى، تبلغ الأولى نحو ٦٠٠ بيت ولاية أما إلامن رزق الصبر والجلد على حل هذه الرموز. يقول في مطلع الكبرى:

نعم بالصبا قلبي صبا لأحبي فيا حبنا ذاك الشذاحين هبت
تذكرني العهد القديم لأنها حديثة عهد من أميل مودتي
أما سائر شعره فغليظ واضح ينقلب فيه الخنن إلى الحجاز وأهله، والإكثار من ذكر جباله وقراه.

نموذج من شعره

قال في النزل:

لم أخلُ من حسد عليك فلا تضر سهري بتشيع الخيال الماحف
وأسال نجوم الليل هل زار الكرى جفني؟ وكيف يزور من لم يعرف

(١) ظهرت الطريقة الرمزية في فرنسا في منتصف القرن التاسع عشر نتيجة لطريقة البرناسية (Ecole Parnassienne) وقد بلغ أربابها بالكثافة والشعر حد التنمية والتعجيز. اقرأ ما كتب منها في كتابنا « دفاع عن البلاغة ».

وقال .

عذْ ذَكَرَ مِنْ أَهْوَى وَلَوْ بِمَلَامٍ فَإِنْ أَحَادِيثَ الْحَبِيبِ مَدَامِ
كَأَنَّ عَذُولِي بِالْوَصَالِ مَبْشَرِي وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَطْمَحْ بِرَدِّ سَلَامِ
طَرِجُ جَوَى صَبٍّ جَرِيحٍ جَوَارِحِ قَتْلُ جَفَوْنَ بِالْدَوَامِ دَوَامِ
صَحِيحٌ عَلِيلٌ فَاطْلُبُونِي مِنَ الضَّنَى فَعِيهَا كَمَا شَاءَ النَّحْوَلُ مَقَامِ
وقال في الغر وفيها كثير من رموز الصوفية :

شَرِيفًا عَلَى ذَكَرِ الْحَبِيبِ مَدَامَةَ سَكْرَانًا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الْكَرَمُ
لَهَا الْبَدْرُ كَأَنَّ وَهْيَ شَمْسٍ ، يَذْبُرُهَا هَلَالٌ ، وَكَمْ يَبْدُو إِذَا ظَلَمَتْ نَجْمُ
وَلَوْلَا شَذَاهَا مَا اعْتَدَيْتُ لَهَا نِيهَا وَلَوْلَا سَنَاها مَا تَصَوَّرُهَا الْوَهْمُ
يَقُولُونَ لِي : صَفِيهَا فَأَنْتَ بِوصفِهَا خَيْرٌ ، أَجَلٌ عِنْدِي بِأَوْصَافِهَا عِلْمُ
صَفَا وَلَا مَاءٌ ، وَلَطْفٌ وَلَا هَوَا ، وَنُورٌ وَلَا نَارٌ ، وَرُوحٌ وَلَا جِسْمُ
تَهْدُمُ كُلَّ الْكَائِنَاتِ حَدِيثُهَا قَدِيمًا وَلَا شَكْلَ هُنَاكَ وَلَا رَسْمُ
وَقَالُوا شَرِبْتَ الْإِثْمَ ، كَلَّا وَإِنَّمَا شَرِبْتَ الْإِلَهَ فِي تَرْكِهَا عِنْدِي الْإِثْمُ
غَلَا عَيْشَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ عَاشَ صَاحِبِيَا وَمَنْ لَمْ يَمُتْ سُكْرًا بِهَا فَاتَهُ الْحَزْمُ
عَلَى نَفْسِهِ فَلْيَبْكِ مِنْ ضَاعَ عَمْرِهِ وَإِلَيْسَ لَهُ فِيهَا نَصِيبٌ وَلَا سَهْمُ

سهاء الدين زهير

٥٨١ — ٥٦٥

شأنه ومبانيه

أبو الفضل زهير بن محمد المهلبى وُلد بوادى نخعة على مقربة من مكة وقيل إلى حصر قنشا بها وتأدب . فلما بلغ أشده واستوى فى العلم والجسم ، وبرع فى النظم والنثر والخط ، اتصل بالملك الصالح بن الملك الكامل الأيوبي ورافقهُ إلى الشام والجزيرة . فلما غلبه ابن عمه الملك الناصر صاحب الكرك واعتقله على أن رموقه

بينما خذله فيها قواده ، وتألّفت عليه أجناده ، وانضوا تحت لواء ابن عمه لم يقض البهاء عهد ملكه ، ودعاه الوفاء ألا يخدم غيره . فأقام ببنايس حتى عاد الماء إلى مجراه ، ونهض الجذب بمولاه ، فاسترد الصالح ملك الديار المصرية فأعاد بهاء الدين إلى خدمته . وعرف له ولاءه ووفاءه ، فأنخذه وزيره ووضع سره ، يصدر عن رأيه ويمشى على مشورته . وقد نفع كثيراً من الناس بوساطته وشفاعته ، وظل على تلك الحال حتى مات الملك الصالح فلم يزل داره إلى أن حدث بالقاهرة وباء فمات به سنة سقوط بندگان في أيدي التتار .

شعره

كان بهاء الدين ديم الأخلق ، رقيق الطباع ، لين الجانب ، حلو الكلام فأثرت تلك الصفات في شعره ، فجاء عذبا رقيقا طمعه السامع أن يأتي بمثله لسهولته ورقته ، فإذا حاول عجز . فشعره فيص قريحته ، ووحى طبيعته ، وصورة يتيته . لم يقل فيه أحدا ، ولم يطلب من غير شعوره مددا ، ولم يسرع به إلا بأعنة المصريين وأساليبهم . فلا كلمة غريبة ، ولا جملة معقدة ، وإنما تذكرك فيه عذوبة الليل وتدقيقه ، وتلمح عليه جمال جوّه وتألّقه . وقد أحسن وأجاد في النزل والعتاب ، وقصر فيما عداهما . وليس في معاني البهاء ابتذاع ولا تميل ؛ وإنما هي معان عادية كساها ألفاظا سهلة ، وبث فيها من روحه الفياض قوة التأثير فسمت إلى أحرار الماني . وشعره مجموع مطبوع متداول . وقد ترجمه المسشرق الإنجليزي بلنر إلى الإنجليزية نظما وطبعه في كيردج سنة ١٨٧٦ في مجلدين وعلق عليه .

نموذج منه شعره

قال مخاطب المتزمت من صروف الدهر :

لا تشب الدهر في خطب رماك به إن استرد قديما طلبا وهبنا
حاسب زمانك في حالى تصرفه نجده أعطاك أصعاف القى مليا

ولقد قد جعل الأيام دائرة
ورأس مالك وهي الروح قد سلت
ما كنت أول مفدوح بمحاذنة
فرب مال نجا من بعد مرزاة
ولا في النزل :

خليليّ أما هذه فديارم
خليليّ هذا موقف يبعث البكا
فإن كنا لا نسمداني على الأسي
فيا وريح قلبي بالغرام أطلعت
وإني وإياه كما قال قاتل :
ومن قوله في النزل أيضاً :

إن شكا القلب هجرم
هو رأيتم محلكم
مهد الحب عذركم
فصروا حنة الجفا
ومن قوله في الزاح :

لك يا صديقي ينقة
تمشي فحسبها الديو
ليست نساوي خردة
وتخمسال مدبرة إذا
ن على الطريق مشككة
ما أقبلت مستعجلة
مقدار خطوتها الطويلة
حين تسرع أئمة
تهتز وهي مكانها
فكاننا هي زلزلة
أشبهتها بل أشبهتك
كان بينكما صلة
تحكي صفاتك في النقالة
وللائانة والبله

الفصل السادس

العلوم

الترجمة والتأليف

لم يكن ما وضع في عهد بني أمية من العلوم إلا بذراً عما وأجر في هذا العصر الذي ثابت فيه المقول من غفلتها ، وهبت القطن من غفوتها . فلقد عني خلقاؤه وعلماءه بتدوين العلوم وترجمتها ونشرها . وكان أسبقهم إلى ذلك الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور ، فإنه أنشأ للدارس للطب والشرية ، واستقدم أهر جيس بن بختيشوع رأس أطباء جند يسابور وقرأ من السريان والفرس والمنود ، فترجموا له كتباً في النجوم والطب . وكان من ذلك كتاب السند هند في الفلك ، وكتاب أقليدس في الرياضة . ونقل له ابن اللقنم بعض كتب الأدب واللسان . ثم فترت هذه النهضة أيام المهدي والهادي والرشيد بروح البرامكة . ونشرها في مملكته للنسعة ، وضم إخوانه نوابغ العلماء ، وأخذ على نفسه بأن يلحق بكل جامع للصلاة جامعة للعلم ، وأن يستصحب مائة من العلماء كلما سافر . وكان يحمل العلماء على تبين نحلهم ، فكان أطباءه وتراجمته من السريان السبعين كآل بختيشوع وآل ماويه . وقد ترجم في زمنه ما وجد من كتب الطب والكيمياء والنجوم والحيل^(١) والجبر والنبات والحيوان .

وما أنضت الخلافة إلى للأمن — وهو في العرب كبريكس في اليونان . أغسطس في الرومان — استمر أوار هذه النهضة العلمية . فآتم ما بدأ به آباؤه وأخذ له بطانة من علماء اليونان والسريان والعجم . وتوافد إليه الحكماء والأدباء .

(١) علم الحيل فرع من الفلسفة الرياضية يبحث عن لوازم الحركة والموازنة وتطبيقاتها وهو ما يسميه الفرج ميكانيك (Mécanique) .

من كل حدب ونحلة . وأمر سفراءه وعمله في أرمينية وسورية ومصر أن يمشوا إليه بما يجدون من كتب في تلك الأصقاع ؛ فكانت الإبل ترى من آن إلى آن داخله بغداد موقرة ظهورها بجلائل الأسفار العبرانية واليونانية والفارسية . وداخل ملوك الروم وسألم صلتهم بما لديهم من الكتب الفلسفية فمشوا بها إليه . وجعل من شرائط صاحبه مع ميخائيل الثالث ملك القسطنطينية أن يرسل إليه مجموعة من الكتب النادرة . فلما حصل على كل ذلك عنده استغفار له خير التراجمة فترجم على خير ما يمكن . فلم يبق من كتب الصناعة والعلوم والفنون شيء إلا نقله إلى العربية . وأقبل الخلقاء والناس على تلك العلوم حرساً وقمياً حتى حلوا رموزها وفتحوا كنوزها ، ورووها بالتفصيل والتحليل وأصلحو أخطاء المتقدمين من العرب حتى اليونان أنفسهم . ثم بسطوا غير ذلك علوم الشريعة ، وضبطوا قواعد اللسان ، ووضعوا علوم البيان ، ووقوا على علمي العروض والقافية . وحذ اللوك في الشرق والترب حذ والعباسيين فسادوا المدارس ، وأقاموا للراصد ، وشجعوا العلماء ، حتى أثمرت تلك النهضة وكشف العرب واخترعوا ما لا يحصى له العالم ولا يسكره التاريخ ^(١) . ولم تزل سقوف العلم نافذة حتى ضعف أمر العرب بقلب الفتن ونسلط الترك فسطت رغبة الملوك فيه ، واغفلت أسباب الطلب ، ودرست المصنفات ، وكسدت بضاعة العلم ، وظن الناس أن تحصيله شيء باطل ، فاقصروا على شرح الكتب واختصارها ولم يمتدوا إلا بألفاظها .

فلما رأت العلوم أن الشرق قد نهجم لها ، وأن الزمان قد أضعف أهلها ، لبست ثياب الحداد وصارت قاصدة أوروبا عن طريق الغرب والشام ، ففتح لها الغرب صدره ، وقفل ملوكه بالعلوم العربية ما قبله العرب بالعلوم اليونانية . وأخذ ظل العلوم يقلص من الشرق ويمتد في الغرب حتى آل الأمر إلى ما نحن عليه الآن !

(١) من ذلك كشفهم قوانين لنقل الأجسام ما لها وما جديدا ، واختراعهم الساعة الدقيقة كالتي أهداها الرشيد إلى شارلمان ملك فرنسا في عهد . والبندول وبيت الإبرة وعم الدين وضوا الكيمياء الحقيقية ورووا علم الجبر وزادوا عليه . وألفوا للأرصاد والزياج وحسبوا الكسوف والخسوف ، ورصدوا الاعتدالين الربيعي والخريفي ، ونصروا الأرغام الهندسية وسبقوا إلى صناعة الكاغذ ؛ وغير ذلك مما أطلت القلوب فيه مؤرخو الفرنج ومؤرخو العرب (انظر تاريخ العرب وحضارتهم لسيدو (Sedillot) وكتاب (في أصول الأدب) لزيات طبع القاهرة سنة ١٩٥٢ .

العلوم الأدبية

علم الأدب

كان للأدب في عهد بني أمية ما لعل في عهد بني العباس من سمو للكثافة وفقرط العناية لحدائق عهد القوم بالبداوة ، وتمتدح رجالانهم باللسن ، وحاجتهم إلى فصيح اللغة وطرف الشعر في استجلاء^(١) غامض السكتاب ، واستيضاح غريب السنة ، والاستشهاد على ضوابط النجوى ، واكتساب ملكة اللسان . وكان الأدب إذ ذاك إنما يؤخذ من الأقوال ويحفظ في الصدور وتضرب إلى مظانة أكباد الإبل . فلما بزغ هلال العصر العباسي وخامر العرجة داء العجمة واستشرى فساد اللحن ، واختص بالرحلة إليه والتلّس له طائفة من العلماء شهبوا بالرواة ، كحماد الراوية (١٥٦) والخليل بن أحمد (١٧٥) ، وخلف الأحرار (١٨٠) ؛ وأبي عبيدة (٢٠٩) ، وأبي زيد الأنصاري (٢١٥) ، والأصمعي (٢١٦) كانوا يرودون البادية ويداخلون الأعراب اجتناء ظهير مستطيل ، أو شعر مستطرف ، أو كلمة غريبة .

وظل الشأن في رواية الأدب للسمع والحفظ ، حتى مست الحاجة إلى القلّوين لاستعجم العرب واتساع دولتهم . فأخذ العلماء يدونون ما يسمعون . بدأ بذلك أبو عبيدة والأصمعي ؛ ولكن الجاحظ هو أول من ضم شتيت الأدب واستوعب أطرافه بكتائيه البيان والتبيين والحيوان . ثم تتابع العلماء بعده على التصنيف فيه كالبرد صاحب الكامل ، وابن قتيبة صاحب أدب الكنايب ، وابن عديريه صاحب العقد الفريد ، وأبي على القتالي صاحب الأمالي ، وأبي الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني ، هؤلاء هم رجال الأدب ومرآته ، وكتبهم هي موارد ومشارع .

(١) كان ابن عباس يقول : إذا قرأت حيثاً من كتاب الله ولم تعرفه فطلبوه في أشعار العرب . وقال الشافعي : طلبت اللغة والأدب مفرقين سنة لا أريد بذلك إلا الاستقامة على اللغة .

الادباء

الأصمعي

١٢٣ - ٢١٦ هـ

ميتة وعلم

وُلد أبو سعيد عبد الملك بن قُريب الأصمعي (نسبة إلى جده أحمم) سنة ١٢٣ هـ في بيت عربي عريق في الكتابة ، ونشأ بالبصرة ، وأخذ العربية والحديث والقراءة عن أئمتها . ونقل عن فصحاء الأعراب الذين كانوا يقدون إلى البصرة ، وأكثر الخروج إلى البادية ، وشافه الأعراب وسأكنهم ، وربما استقرت بعض رحلاته سنوات يحج في أثنائها ويلتقي بالفصحاء في المواسم حتى اجتمع له من الأخبار وال نوادر والتريب ما لم يجتمع لغيره . وكان مدامراً لأبي عبيدة منافساً له في اللغة والرواية . 'وقد قاض أبو نواس بينهما فقال « إن أبا عبيدة لو أسكلوه لقرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين . وأما الأصمعي فلبيل يطربهم بنماته . وحدث الأصمعي عن نفسه قال : « حفرت أنا وأبو عبيدة عند الفضل بن الربيع فقال لي : كم كتابك في الخيل ؟ قلت مجلد واحد . فسأل أبا عبيدة عن كتابه فيها . فقال خمسون مجلداً ؛ فقال قم إلى هذا القرس وامسك كل عضو منه وسمه ، فقال : لست بيطاراً ، وإنما هذا شيء أخذته عن العرب . فقال لي قم يا أصمعي وافعل أنت ذلك . فقامت وامسكت ناصيته وجلت أسميه عضواً عضواً ، وأشد ما قالت العرب فيه إلى أن فرغت منه ، فقال خذ خذ فأخذته . وكنت إذا أردت أن أغيظ أبا عبيدة ركبته إليه » وهذه الحكاية مع دلالتها على فرق ما بين الرجلين تدل على قوة ذاكرة الأصمعي وشدة حافظته . فلا بدع إذا قال إنه يحفظ ألفي عشر ألف أرجوزة . وكان الأصمعي مع شهرته بالثقة في الرواية والتضلع

من الامة مشهوراً بقصد الشعر أيضاً ، أخذ ذلك عن خلف الأحمر . وله في الشعر والشعراء آراء عالية . وهو على ظرفه شديد الورع كثير الاحتراز في تفسير الكتاب والسنة . فإذا سئل عن شيء منهما كان يقول : العرب تقول معنى هذا كذا ولا أعلم للراد منه في الكتاب والسنة . وما زال فديماً للخليفة الرشيد حتى توفي . فلما ولي المأمون وقامت الفتنة بخلق القرآن خاف على دينه وقيم في كسريته ، وحرص المأمون على أن يصير إليه ، فاحتج بكبر سنه وضعفه ، فكان المأمون يجمع للشكل من المسائل ويسيرها إليه ليجيب عنها . ورؤى بعد ذلك راكباً حاراً دميماً ، فقيل له : « أبعد براذين الخلفاء تركب هذا ؟ فقال هذا وأنت ديني أحب إلي من ذاك مع فقدته » . وهكذا رضى من العيش بالكفاف حتى توفي سنة ٢١٦ ، وله من العمر تسعون سنة .

مؤلفاته

ترك الأصبمى من الصفات ما ينيف على اثنين وأربعين مصنفاً أكثرها في الامة ، ككتاب خلق الإنسان ، وكتاب الأجناس ، وكتاب الخيل ، وكتاب النبات ، وكتاب النوادر ، وكتاب معاني الشعر ، وكتاب الأراجيز ، وأغلبها غير مطبوع .

أبو الفرج الأصبهاني

٩٨٤ - ٨٣٥٦ هـ

شأنه وحياته

أبو الفرج علي بن الحسين الرواسي ولد بأصبهان ونشأ ببغداد . واختلف إلى العلماء والرواة ، فسمع الحديث والأخبار ، وروى الأنساب والأشعار ، وتوسم في النجوم والسير والبيطرة والعلب فنبه ذكره وظهر فضله ، والشرق

تتنازعه دول مختلفة ، فاستطاع أن يخفاب بين هؤلاء الخصوم فيقدم بآدبه ، ويتمهم بكتبه ، ويستفيد من ملهم ، ويقوى بفؤدم . وما كان عطاء ملوك الشرق ليسكتيه ، فكان يؤلف الكتب للأمويين بالأندلس سرأ فينعمون عليه . وكان يجاهر بالتشيع وهو أموى تقيّة للشيعة ومدارة ، لأنه فى بلادهم نشأ وفضلهم ظهر .

وكان أكثر الناس حذباً عليه وإيثراً له ، الوزير للهلبى وزير معز الدولة ابن بويه . فاقطع إليه ومدحه ونادحه حتى مات ببنداد سنة ٣٥٦ هـ وتذخروا ط قبل موته .

أفغور واهلهم

كان هذا الرجل على ظرفه وأدبه ، سلبط اللسان ، مخشى البادرة ، تنقيه للوك والأمراء لملحه بالأنساب ومثالب البيوتات . وكان قدر الهيئة رث التوب . ولا يبدله : والوزير للهلبى على تنطبه وترفه كان يحتمل كل هدامه لملحه وحسن حديثه . فقد كان كاقدمنا ملماً بأشتات العلوم ، راوياً لختار المنثور والنظوم ، نمة فنيا يحدث ، ناقداً لما يسمع . ولم يكن أبو الفرج شاعراً مطبوعاً وإنما كان كاتباً معدوداً ، ومؤلفاً قديراً ، ومصنفاً مجيداً ، وراوية أميناً . وحسبه ميزة وشرفاً كتابه للسى بالأغانى .

كتاب الروعلى

أجمع المؤرخون على أنه لم يصنف فى بابيه مثله ، وأن كل كتاب فى الأدب كل عليه ، ولولاه لضاع كثير من أخبار الجاهلية وصدر الإسلام وأيام بنى أمية . أنه فى خمسين سنة ، وبناء على مائة الصوت التى اختيرت للرشيذ وزيدت لواتق ، وعلى ما تخيره هو من عيون الأغانى ، فترجم بقائلها ومنفيها ، وذكر ما يدخل فيها من حرب وحب وشعر وفسكاكة ؛ وحله إلى سيف الدولة بن حمدان

فأعطاه ألف دينار واعتذر إليه . وكان صاحب بن عباد إذا سافر حمل كتيبه على ثلاثين جملًا . فلما اقتناه استفتح به عنها . وهو أجزاء كثيرة طبع منها عشرون جزءًا في سنة ١٢٨٥ هـ ، ثم عثر أحد المشتريين على جزء آخر في إحدى كتائب أوربا فشكلت الأجزاء واحدًا وعشرين ، وضع لها الأستاذ جويدي الإيطالية فهرسًا أجدبًا مطولًا بالفرنسية طبعه في لندن سنة ١٩٠٠ م ثم نقل هذا للفهرس إلى العربية في مصر وطبع بها هو والكتاب سنة ١٣٢٢ هـ . وتقوم دار الكتب المصرية الآن بطبعه طبعه متقنة منقحة بمؤونة سرى من سراء المصريين ولم يتم . وقد اختصره أبو الفرج في مجلد واحد فقد مع سائر كتيبه . كذلك اختصره ابن منظور محمد بن مكرم وسعى مختصره مختار الأغاني في الأخبار والتهاني وهو يطبع الآن في الدار المصرية للتأليف والترجمة وقد صدر منه أربعة أجزاء .

نموذج من شعره

قال يمدح الوزير المهلبى :

ولما اتجعتنا لانتدين بظله أعان وما عفى ومنّ وما مضى
ورَدُّنا عليه مُقْتَرِينَ فَرَّاشنا ورَدُّنا حماءً مُجْدِبِينَ فأخصبنا
وقال يخاطبه من قصيدة :

فداؤك نفسى ، هذا الشتاء علينا بسلطانه قد هجم
ولم يبق من نشي درم ولا من ثيابي إلا رسم
يؤثر فيها نسيم المساء وتغرقها خفيات الوهم
فأنت اللامع ونحن الغداة وأنت الرئيس ونحن الخدم

علم النحو

جاء هذا العصر والنحو علم يدرس في المساجد ويدون في الكتب ، وقد حكمت روابطه ، وحقت ضوابطه ، وأشيع الكلام فيه علماء المصريين : البصرة والسكوفة . وإلى الأولين يرجع الفضل في تكوينه وتدوينه . فنهج أبو الأسود الفوللى واضع ، وابن إسحق الحضرمى مقلد ، وهرون بن موسى ضابطه ، وعيسى

ابن عمر أول من ألف فيه ، وسيبويه واضع كتابه ومذهب أبويه . ولم يشغل به الكوفيون إلا بعد ذبوعه بالبصرة وما جاورها : أخذوه عن البصريين وجاروم في تلقيه وتدوينه ، ونافسوم في تحصيله وتفصيله . واشتد الحجاج والاقجاج بين الفريقين حتى كان لكل منهما مذهب يؤيده ويضده . ومنشأ الخلاف بينهما أن البصريين يقدمون السماع : فلا يرون القياس إلا في حال تضاعفهم ، ويتشددون في الرواية ، فلا يأخذون إلا عن القصةاء الخلفى من صميم العرب لكثرة هؤلاء بالبصرة ، وقربها من عامر الياضية . أما الكوفيون فلخلطهم أهل السواد والنيط يمتدنون في أكثر المسائل على القياس ، ولا يتخرجون في الأخذ عن أعراب لا يؤمن البصريون بقصاحة لثمتهم . فأهل البصرة أوسع دراية ، وأوثق رواية ؛ ولكن المباسيين آثروا الكوفيين عليهم لانتجائهم إليهم ، ولقرب الكوفة من بغداد وتشييعهم لبنى هاشم . فانتشر مذهبهم في حاضرة الخلافة . ولولا انقراض السياسى ما كان لهم شأن يذكر ولا قول يؤثر . وظل الجدل بين الفريقين على أشده حتى تخرب المصران ، فجلا علماؤهم إلى بغداد ، ونشأ مذهب البغداديين خليطا من المذهبين ، كما نشأ مذهب الأندلسيين حينما هجر النحر إلى الأندلس ، وما ابتداء القرن الرابع حتى انقرضت فرسان المذهبين ، وضعت أنصار الفئتين ، فاقطع النزاع ، وانعمم الجدل ، وجرى المؤلفون على المذهب البصرى فبسطوه وشرحوه واقتصروا من المذهب الكوفى على ذكر الخلاف .

ثم طال الكلام بعدئذ في هذا العلم فتباعدت حدوده ، وتشعبت أطرافه ، حتى جاء المتأخرون فقصروا ذلك الطول واقتصروا على المبادئ كما فعل ابن مالك في التسهيل ، والزحشرى في المنفصل . على أن هذا العلم منى بطائفة من فلاسفة النعامة وسعوا الجدل فيه ، فقالبوا وجوه الألفاظ ، وأحيوا موات الألفاظ ، وخططوا الشاذ بالصحيح ، وجاءوا بانتعديلات الباردة والتقديرات الفاسدة والأنوال المتضاربة ، حتى وصلوا بالنحو إلى حال لا يعجز فيها الخليل عن قول يبرر به وجهه ، وحجة يؤيد بها زعمه .

وهانحن أولاء نترجم بأريبة من ناجى النجاة عدا من ترجم منهم في غير
هذا الباب ، واقفين عند ذلك جرياً على ما نهجناه لأنفسنا في هذا الكتاب .

النجاة

سيبويه

المتوفى سنة ١٧٧ هـ

شأنه ومبانيه

وُلد إمام البصريين أبو بشر عمرو بن عثمان للقب بسيبويه (راحة التفاح)
ببلاد فارس ونشأ بالبصرة . وكان في بدء أمره يطلب الحديث والفقه ، حتى كان
ذات يوم يستعمل على حماد بن سلمة ، فأمل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم :
« ليس من أصحابي أحدٌ إلا من لوشئت لأخذت عليه ليس أبا الرداء » ، فقال
سيبويه : « ليس أبو الرداء » فصاح به حماد : لحنت يا سيبويه ؛ إنما هذا
استثناء » فقال : « لا جرم لأطلبن علماً لا يلصقني معه أحد » فطلب الذهو
ولأزم الخليل ، وأخذ عن يونس وعيسى بن عمر ، حتى حذق هذه الصناعات وأحاط
بأصولها وفروعها ، ووقف على شاذها ومفيسها . ثم وضع كتابه المشهور سرديفه
ما أخذه عن الخليل وأضاف إليه ما نقله عن نخبة المصريين ناسباً إلى كل منهم
قوله . نجاء كتابه فريداً في فنه ، حديداً في منهجه ، ليس وراءه مذهب لطالب
ولامرأغ مستفيد . وقد بلغ من إجلال القوم لهذا المؤلف أن اقتصرُوا في تسميته
على « الكتاب » فإذا أطلق هذا اللفظ عند النجاة لا ينصرف إلا إليه . وكان
المبرد إذا أراد مريداً أن يقرأ عليه يقول له : هل ركبت البحر ؟ ؟ نعلماً له
واستصباحاً لما فيه . وقال أبو عثمان المازني : « من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً
في النحو بعد سيبويه فليستح » ولولا هذا الكتاب لخل ذكر صاحبه .

ولما آنس سيبويه من نفسه التفوق في النحو وفد إلى بغداد وقصد البرامكة .
والكسائي يومئذ بها يعلم الأمين بن الرشيد . فجمع بين الرجلين يحيى بن زعيم .
فتناظرا في مجلس أعد لذلك . فكان من أسئلة الكسائي لسيبويه قوله .
ما تقول في قول العرب « كنت أظن أن المقرب أشد اسعة من الزبور فإذا هو
إياها » فقال سيبويه « فإذا هو هي ، ولا يجوز النصب » فقال الكسائي « بل
العرب ترفع ذلك وتنصبه » فلما اشتد الخلاف بينهما كما إلى أعرابي خالص
الاهبة ، فصبوب كلام سيبويه ولكن الأمين تعصب للكسائي لأنه معلمه ولأنه
كوفي — وضلع الخلفاء كما علمت مع هؤلاء — فأراد الأعرابي أن يقول
بقالة الكسائي . فلما أحس سيبويه تحامل الأمراء عليه وقصدهم بالسوء إليه غادر
بغداد وارتد مغموماً إلى قرية من قرى شيراز تعرف بالبيضاء حيث توفي بالنا
من العمر أربعين سنة ونيفاً .

الكسائي

المتوفى سنة ١٨٩ هـ

نشأته وحياته

هو إمام الكوفيين أبو الحسن علي بن حمزة الملقب بالكسائي نشأ بالكوفة
وأخذ القراءة عن حمزة الزيات ، وتميز بقرأة خاصة فقد من القراء السبعة . ولم
يكن له يد في الشعر ، حتى قيل « ليس في علماء النحوية أجمل من الكسائي بالشعر »
وبلغه الكبير وهو لا يدري من النحو شيئاً ؛ فأقبل ذات يوم على بعض إخوانه
من طلاب العربية وقال متأوهاً من مشي طريل : « لقد عيت ا » فقالوا له « تعالنا
وأنت تلحن ا » فقال كيف لحنت ؟ فقالوا له : « إن كنت أردت من التعب
فقل أعيت . وإن كنت أردت من انقطاع الحيلة فقل عيت » فأنف من ذلك
التعجب ولازم معاذاً المرء والرؤاسي من نحة الكوفة حتى حصل ما عدهما .

وزاره الخليل بالبصرة فأعجب به وسأله : أنى لك هذا العلم ؟ فقال الخليل : من بوادى الحجاز ونجد تهامة . فخرج الكسائى إلى البادية فطاف أحياءها ، وسمع فصحاءها ، حتى استكمل حظه من الرواية ، واستوفى قسطه من اللغة . ولما رجع من البادية استقدمه المهدي واستخلصه لنفسه . ثم أقامه الرشيد مؤدباً للوفد الأمين . وعظمت مكانته عنده حتى كان يجلسه هو والقاضى عماد بن الحسن على كرسيين متبذين بمحضرتهم ويأمرهما ألا ينزعجا بقيامه ومجيئه . ومكثا معه على هذه اللزقة حتى خرج إلى الري وما بصعيقته ، فأتاها في يوم واحد يرتبوا به على مقربة من الري فهكاهما وقال : دفنت الفقه والعريية بالري .

مؤلفاته

انتهت إلى الكسائى الزعامة في العربية والقراءة بالكوفة وبنداد وألف فيها نحواً من عشرين كتاباً . منها كتاب معانى القرآن . وكتاب النحو . وكتاب التواريخ ، وكتاب المجاه ، ورسالة لحن العامة .

الفراء

٩٤٤ — ٨٢٠٧

نشأته وميانه

ولد أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء بالكوفة . ولزم الكسائى حتى استمد منه وتخرج عليه . وشافه الأعراب وأخذ عنهم . ثم نظر في علوم كثيرة من الطبيعة والنجوم وأخبار العرب وأشعارها ، فامتاز بذلك من أستاذة الكسائى . وكان ميالاً إلى مذهب المعتزلة . وبحب النظر في الكلام من غير أن يكون له طبع فيه ، فأكتسب بذلك ملكة النظام والترتيب ، وقوة الاستنباط والتحليل ، ولا يعرف في الكوفيين من خدم اللغة العربية غيره .

قال أبو العباس ثعلب : (لولا الفراء لما كانت القصة العربية . لأنه حصلها وضبطها ولولاه لسقطت) وقال أبو بكر الأنبأرى : (لو لم يكن لأهل بئداد والكوفة من علماء العربية إلا الكسائى والفراء لكان لهم بهذا الافتضار على جميع الناس) . ولما عظم أمره خرج إلى بئداد فهداه الكسائى الإقامة بها وخلفة هـ . درسه بعد موته . فلما ولى اللأمون اتصل به وتفق عنده وعهد إليه بتعليم ولده : الأدب ، واقترح عليه أن يؤلف ما يجمع أصول النحو وما سمع من العربية . وأمر أن تقرد له حجرة من الدار ووكل به جوارى وخدماً ، وسير الوراقين يكتبون ما يمل حتى صنف كتاب الحدود فى سنتين . ثم خرج للناس فأملى كتاب للمانى فغزته الوراقون عن الناس ليكتبوا بنسخه كل خنى أوراق بدرهم . فشكا الناس إليه . فلما أبوا لإخراج كتابه أخذ يمل كتاباً آخر فى المانى أطول وأوسع يخاف الوراقون ورضوا أن ينسخوا كل عشر أوراق بدرهم :

وعظم قدر الفراء فى الدولة حتى تسابق ولدا اللأمون إلى تقديم نعليه إلى حينما يهيم بالخروج ، ثم اصطلحا على أن يقدم كل منهما فرداً . وبلغ اللأمون ذلك فامتدعاه وقال له : « من أعز الناس ؟ » فقال « ما أعرف أعز من أمير المؤمنين » قال : « بلى ، من إذا نهض فقاتل على تقديم نعليه ولما عهد المسلمين » فقال : « يا أمير المؤمنين لقد أردت منهما من ذلك ، لكننى خشيت أن أفضهما عن مكرمة سبقا إليها ، أو أكرس فضيها عن شريعة حرصا عليها » ، فقال له اللأمون : « لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوما . وما وضع ما فضله من شرفهما ، بل رفع من قدرهما وبين من جوهرهما . وليس يكبر الرجل وإن كان كبيراً عن ثلاث : عن تواضعه لسلطان ووالديه ومعلمه . والفراء مؤلفات كثيرة كان يملها على تلاميذه دون كتاب لقوة حافظته . وكان أكثر مقامه فى بئداد ، فإذا كان آخر السنة خرج إلى الكوفة فأقام بها أربعين يوماً بين أهله يفرق عليهم ما جمع حتى توفى سنة ٢٠٧ هجرية .

ابن الحاجب

المتوفى سنة ٦٤٦ هـ

شأنه ومبانيه

وله أبو عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب بإسنا من صعيد مصر .
وكان أبوه كردياً يتولى الحجابة للأمير عز الدين موسى الصلاحي . قدم القاهرة
صغيراً واشتغل بالقرآن حتى حفظه ، وتفق في الدين على مذهب الإمام مالك .
وتلقى القراءات وشارك في سائر العلوم ، وغلب عليه علم العربية . ورحل إلى
دمشق قرأ بجامعها أمالي في النحو على مواضع من للفصل والكافية . ثم عاد
إلى الاسكندرية ففنى بها نحو سنة ٦٤٦ هـ .

مؤلفاته

له من المؤلفات كتابا الكافية والشافية في النحو ، وكتاب للقصص الجليل
في علم الخليل في العروض ، والأمالي النحوية ، ومنتقى السؤال والأمل ، في علم
الأصول والجلد ، وهو معطول على مذهب الإمام مالك اختصره في كتاب
يرف بمختصر ابن الحاجب ، وكتاب جامع الأمهات في الفقه .

علم اللغة

فسدت ملكة اللسان في الحركات فاستنبت العلماء قوانين لضبطها فاعتمدت
عن اللغة وما بطأت باللعن . بل تطرق ذلك الفساد إلى مدلولات الألفاظ
واستعمالها ، ففرغوا في حفظها إلى الكتابة والتدوين ضناً بكتاب الله ولسان
العرب على الجاهة والهدوس . بدأ بذلك بعض أئمة العربية فأملوا كتباً صغيرة
في الألفاظ الخاصة بخلق الإنسان أو الجمل أو الخيل أو النمل . فلما جاء الخليل

ابن أحمد مذهب الطريق إلى ضبط اللغة وتدوينها بوضعه كتاب (الدين) ، فإنه أحصى ما يتركب من حروف المعجم من الثنائي والثلاثي والرابع والخماسي بمطابقة حسابية أبانت له عدد الهمل والمستعمل ، ورتبه على مخارج الحروف من الخلق فاللسان فالأسنان فالشففتين ، وبدأ بحروف اللغة . وقد اختصره أبو بكر الزيدى المتوفى سنة ٢٧٩ لمشام المؤيد بالأندلس ، وشاع هذا المختصر حتى فضل على أصله . ومضى على معجم الخليل أكثر من قرن لم يدون في اللغة غيره ، حتى جاء أبو بكر ابن دريد فاستمد منه ومن غيره كتاب الجهرة ورتبه على حروف المعجم ، وتلاه الأزهرى فصنف كتاب التهذيب على ترتيب الخليل . ثم وضع الجوهري من للشرقيين كتاب الصحاح ، وابن سيده من الأندلسيين كتاب الحكم ، وابن فارس كتاب المجل . وتلك هي أصول للمعجمات وأصحبها . أما غيرها من العباب والتسككة والنهاية ولسان العرب والقاموس فهي جمع لها أو اختصار منها .

وبما يحمل التنبيه إليه والثناء عليه فقه اللغة للثعالبي المتوفى سنة ٥٤٢٩ فقد فرق فيه بين الوضع والاستعمال ، وجمع به اللاماني للترادفة والمتكافئة في باب واحد ، مبيها ما بينها من فروق وما نالها من تدرج أو تفرع ؛ وكذب أساس البلاغة للزمخشري المتوفى سنة ٣٥٨ ، فإنه بين فيه ما تجاوزت به العرب من الألفاظ والدلولات . وإنك لتجد في هذين الكتابين من الكشف عن خصائص اللغة ، والفحص عن أسرار العربية ، ما لا غنية عنه لكاتب ، ولا غاية بعده لطالب

اللغويون

الخليل بن أحمد

١٠٠ — ١٧٤ هـ

نشأته ومبانيه

ولما أحمد أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد القراييدي بالبصرة ونشأ بها ؛ وأخذ

النحو والقراءات والحديث عن أئمة المروية وعلية الرواة كأبي عمرو بن الملاء وعيسى ابن عمر . ثم أبدى فسمع التصحيح وجمع الغريب حتى نبغ في اللغة نبوغاً لا يعرفه التاريخ لنيره . وأخذ عن سيبويه وعن نفر من الأئمة كالنضر بن شميل ويؤرج السدوسي . وبقي بالبصرة مقياً طول حياته على فاقة وتقشف ، نزوعاً بنفسه عن مواقف الضراعة ، وتجاوفاً بها عن مطارح الهوان ؛ حتى قيل إن سليمان بن علي وجه إليه من الأهواز لتأديب ولده ، فأخرج التليل إلى رسول سليمان خيراً فغاراً وقال له : « كل » ، فاعدى غيره ، ومادت أجدته فلا حاجة في إلى سليمان . وانكب ذلك الرجل العظيم على العلم يستنبط ويؤلف ويعلم حتى ذهبت نفسه في سبيله . قد روى أنه قال : أريد أن أعمل نوعاً من الحساب تمضي به الجارية إلى يقال فلا يظلمها . فدخل المسجد وهو يُعمل فكره ، فاصطدم في سارية صلعة شديدة أرتج منها مخه رجة أودت بحياته .

علمه وعمد

كان الخليل غاية في تصحيح القياس وتعليل النحو واستنباط مسائله . وأكثر كتاب سيبويه منقول عنه أو مستمد منه . وكان على معرفة بالموسيقى : وضع أول كتاب فيها على غير الملام بلغة أجنبية ولا علم بآلة موسيقية . وساعده بصره بالنغم على اختراع علم العروض لما بين الإيقاع في الأنغام والتمطيع في الأجزاء من الشبه ؛ فضبط أوزان الشعر الخمسة عشر ، وحصرها في دوائرها الخمس ووقفها على المقاطع والحركات . وشغل بذلك نفسه ووقته حتى كان يقضي للساعات في جبرته يوقع بأصابعه ويحركها . فاتفق أن رآه ولده على تلك الحال فظن به مساً من خبال ، فقال له الخليل :

لو كنت تعلم ما أقول عنرتني أو كنت تعلم ما تقول عدلتك
لصكن جهل مقاتلي فضلتني وعلمت أنك جاهل فعدرتك

والخليل أول من ضبط اللفظة ، واجتكر المجازات ، ووضع قخطر هذا بالشكل المستعمل .

مؤلفاته

ألف كتاب العين في خراسان وسماه بأول لفظ منه كمادة السلف ووافته المنيّة دون إتمامه ، فقصّد إلى ذلك بعض تلاميذه فقصّره عليه ، بقيت الكتاب مضطرباً مختلاً . وله غيره كتاب النغم ، وكتاب المروض ، وكتاب الشواهد ، وكتاب النقط والشكل ، وكتاب الإيقاع

أبن دريد

٢٢٣ — ٢٢١

نشأته وحياته

أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ولد بالبصرة ونشأ بها وأخذ العلم عن علمائها كالرياشي والسجستاني ، ثم غادرها في فتنة الزنج إلى عمان ، فأقام بها اثنتي عشرة سنة يأخذ اللفظة والشعر عن الأعراب . ثم عاد إلى البصرة ومنها شخص إلى بلاد فارس منتجعاً الشاه ابن ميكال وولده ، وهما يومئذ على عمالة فارس ، وألف لهما كتاب الجهرة في اللفظة ، وامتدحهما بالمقصورة ، فقلدها الديوان فكانت تصدر كتب فارس عن رأيه ، ولا ينفذ أمر إلا بتوقيعه . ولما عزل ابنا ميكال عن عمالة فارس وانتقلا إلى خراسان قدم ابن دريد إلى بغداد عام ٢٨٠ فاحتفى به الوزير علي بن الفرات وأفضل عليه . وعلم الخليفة المنتصر به وبمكانه من العلم فأجرى عليه خمسين ديناراً في كل شهر كفته مؤونة السعي فاقطع إلى العلم والأدب ، وعكف على التأليف ، حتى أصيب بالتمالج فساد سنة ٢٢١ هـ .

أهم وقوفهم

كان ابن دريد مولماً بآلات الطرب . مدحاً للفرس ، مفيداً للمال ، مبيداً له في اللهو والمهبات ، حتى أن سائلاً سأله شيئاً فلم يجد ما يعطيه إلا أن يبيد . فأنكر عليه غلامه أن يتصدق به فقال : ليس عنده سواء . وقرأ قوله تعالى : (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) ثم انتهى أن أهدي إليه بعد ذلك عشرة دنانير ، فقال لغلامه : الحسنة بشراً مثلاً . أخرجنا دنانير فبجاءنا عشرة .

وقد نفع ابن دريد في القصة والأدب والأنساب وقام في ذلك مقام الخليل ابن أحمد . ورجع في الشعر حتى قيل فيه : إنه أفقه الشعراء وأشعر الفقهاء . وقد وضع العرب أربعمائة حديث سلك فيها مسلك الرواية والحكاية . وتوخى فيها جمال الإنشاء ، فدل بها على قوة طبعه في الكتابة . وهي منشورة في خلال كتب الأدب لا تكاد تميزها بما يروى عنه من الأخبار والنوادر ، ويظن أنها كانت اللهم الأول لا بداع فن المقامات ، وله نظم جزل رقيق يدل على ملكة قوية وقرينة سخية ، خيره مقصورته ، وهي تسعة وعشرون ومائتا بيت ، جمعت كثيراً من أخبار العرب وأمثالهم وحكمهم : وقد شرحها كثير من العلماء وعارضها غير واحد من الشعراء : يقول في مطلعها :

إما ترى رأساً حاكى لونه طرةً صبح تحت أذيل الحمى
واشتعل المبيض في مسوده مثل اشتعال النار في جزل الغضا
ومنها :

والناس كالبيت فيه رائق غصنٌ نضيرٌ عوده مرُّ الجنى
ومنه ما تشجع البيت ، فإن ذقت جناح إنساغ عذبا في القها
والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عني
ولفتني من ماله ما قدمت يداه قبل موته لا ما اتقى
وإنما للرء حديث بصد فكن حديثاً حسناً لمن وعى

والسوم للحر مقيم رادع والمبد لا يردعه إلا العصا
وأنة العقل الهوى ، فن علا على هواه عقله ففسد نجا
كم من أنخ مسخوطة أخلاقه أصفيته الود ليخلق مرتضى
إذا بلوت السيف عموداً فلا تذبذبه يوماً أن تراه قسد نبا

مؤلفاته

له غير المتصورة كتاب الجهرة في اللغة ، وكتاب الاشتقاق في أسماء القبائل
والمبائر وضمرائها وفرسانها ، وكتاب السحاب والغيث ، وأخبار الرواة وغير ذلك .

علوم البيان

الغالب في الظن أن أول من تكلم في علم البيان أبو عبيدة في كتابه مجاز
القرآن عقب أن مثل عن معنى قوله تعالى : « ظلمها كأنه رموس الشياطين »
فأجاب بأنه كقول امرئ القيس :

أبقتلى وللشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأياب أغوال

واغضى المصير العباسي الأول ولم يدون في علم اللغوي إلا ما أثر عن خول
الكتاب في حد البلاغة جواباً لسؤال أو عرضاً في مقال ، حتى جاء الباحث
فالم يعمض أغراضه في كتابه البيان والتبيين . وجذا حذوه قدامة الكاتب
وأبو بكر بن دريد وأبو هلال السكري ؛ إلا أن هؤلاء وإن تسكلموا فيه
فليسوا واضعيه تقصور كتابتهم وعموم عبارتهم وإنما يعرف الفضل في وضع
هذا الفن للأمام عبد القاهر الجرجاني للتوفيق سنة ٤٧١ هـ ، وللإمام أبي يعقوب
السكاكي للتوفيق سنة ٦٢٦ : ذلك اخترع مباحثه وقمّد قواعد ، وهذا خفض
زبدته وماز اللغائي من تليان فجلمها علمين مستقلين .

أما علم الابدع فأول من ألف فيه عبد الله بن المتز . جمع منه سبعة عشر نوماً
ووقع معاصره قدامة بن جعفر على عشرين . توارد منه على سبعة منها . ثم اقتضاهما

الناس بالاستخراج حتى بلغت الأنواع في خزانة الأدب لابن حجة الحوى
المتوفى سنة ٨٢٧ اثنين وأربعين ومائة نوع !

ولا تزال هذه الفنون بيضة عن السكال لنشوتها عند استضعاف العرب
واستعجال الفنة . والمشاركة أقوم عليها من المفارقة ، لمدائة الصجم بها وبعد
نظرم فيها ولم يُنْ المفارقة إلا بالبديع لسهولة مأخذة فألحقوه بفنون الشعر
وفرعوا آفابه وعددوا أبوابه .

التاريخ

بدأ تدوين التاريخ عند العرب في مستهل هذا العصر . وكان يومئذ
مقصوراً على ما يقتضيه الدين من فروع « للفقارى » للوقوف على الأزمنة
والأمكنة التي نزلت بها الآيات وقيلت فيها الأحاديث « والفروع » لملامات فتح
من البلاد صلحاً أو عنوة ، فينتظم أمراً الخراج والبحرية . « والطبقات » لتعريف
برأوة الشريعة ووعاء الأدب من الصعابة والتأبين . والعرب أسبق الأمم
كافة إلى هذا النوع من التاريخ « و«الوئساب» لتمييز أشرف القبرشين
وسادات القبائل ، فتعلم مراتبهم ، وتقدر رواتبهم . « و«بأسم العرب» لتفهم
أغراض الشعر بمعرفة أسبابه . وأشهر الكتابين في هذه الأنواع على الترتيب
ابن إسحق المتوفى سنة ١٥١ ، والوافدى المتوفى سنة ٢٠٧ ، وابن سعد المتوفى
سنة ٢٣٠ ، والكلبى المتوفى سنة ١٩٦ ، والأصمى المتوفى سنة ٢١٦ .

فلما وقف العرب على ما ترجم من تواريخ الأمم ، وانقضت الحاجة إلى التاريخ
الخصاص باقضاء أسبابه ، خطوا في التاريخ خطوة واسعة ، واختطوا فيه خطة
جامعة . فكتب عدة المؤرخين محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ تاريخه
العام مرتبة حوادثه على السنين . فتهج المؤرخون طريقته في التصنيف . وفضلوه

بما أدخلوه في كتبهم بعد من للباحث العلمية والأدبية كآبي زيد البلخي^(١)
صاحب كتاب البدء والتاريخ المتوفى سنة ٢٢٢ ، وللسعودي صاحب مروج الذهب
المتوفى سنة ٣٤٦ ، وابن النديم صاحب الفهرست المتوفى سنة ٣٨٥ وابن مسكويه
صاحب تجارب الأمم المتوفى سنة ٤٢١ . ثم غنى المؤرخون بتذييل كتب التاريخ
المُدونة عن التأليف فيه . فمناقب جماعة منهم على الطبري بالتذييل والتكامل حتى
مدوه إلى سنة ٦١٦ . وجاء خاتمة مؤرخي هذا العصر أبو الحسن علي بن الأثير^(٢)
فصل كتابه الكامل من الطبري وذيله وأخفاه إلى سنة ٦٣٧ هـ .

مذهب العرب في التاريخ

للعرب في كتابة التاريخ طريقتان : إما أن يتسردوا السنين وما وقع فيها من
الحوادث في أي مكان مُستندة من غير اتصال ولا رابطة ، كما فعل ابن جرير
الطبري وابن الأثير الجزري وأبو الفداء ، وتلك الطريقة على إضجارها القاري
هي الأصيلة عندكم كما يؤخذ من تسميتهم هذا الفن بالتاريخ : أي التوقيت .
خلافًا لتسمية اليونان إياه بالحكاية أو القصة لروايتهم الوقائع بأسلوب شائق ونمط
بديع . وإما أن يسوقوا الحوادث باعتبار الأمم والحوادث كما فعل المسعودي
وابن الطقطقي وابن خلدون وابن العبري .

على أن أرباب الطريقتين على كثرة ما كتبوا لم يهتدوا إلى طريق الفن ،

(١) كان المعروف أن أليزيه البخى هو صاحب هذا الكتاب ، ولكن الأستاذ
كلمان هيار المستشرق الفرنسي الذي طبعه من نسخة غطولطة فنته جلبها من مكتبة بالستانا وترجمه
إلى اللغة الفرنسية أنهت بعد طبعه الجزء الأول منه أنه لمطهر بن طاهر لنفسه للقيم يست من
أعمال سبستان ، لرائق وجيبة وأداة قوية ، ذكرها في مقسة الجزء الثاني والثالث من
الكتاب .

(٢) ابن الأثير هو عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الشيباني ولد سنة ٥٥٥ هـ بجزيرة ابن
عمر بالجزيرة . ورحل هو وأخوه صاحب التهاية في غريب الحديث ، وضياء الدين صاحب
الثل السار مع أبيهم إلى الموصل فتخرجوا على علماءها : وطاف هو في بعض بلاد الشرق طلباً
للبهلاء وتحصيل العلم . ثم انقطع في الموصل إلى التدريس والتأليف فوضه كتابه في التاريخ وكتاب
(أسد التهاية في معرفة الصحابة) وتوفى سنة ٦٣٠ هـ .

ولم يوصوا إلى إتقانه ، لقلة الوسائل عندم ، وتأثير الحاكين فيهم فجاء بنو إسرائيل
للقدر بحماية للخلفاء ومهاواة للملوك . وكالحوادث جزاؤون تحقق من صوابها ،
ولا نظر في أسبابها وأعقابها ، وأمسكوا عن الخوض في أحوال الأمة الاقتصادية
والاجتماعية والأدبية ، قانمين بأخبار الحرب والفتح والولاية والعزل والولادة
والوفاة ، وقاسمهم أن تطوّر الأحوال وتغير الميول في طبقات الأمة له أثر عظيم
في سياستها . وأعجب الأشياء أن ابن خلدون وهو أسبق علماء الأمم إلى فلسفة
التاريخ لم يبرأ من أكثر هذه السيوب .

على أن لمؤرخينا المذر في هذا التصور ، فإن فن التاريخ لا يقضى لإتقانه
إلا بتوفير وسائله واستكمال علومه : كعلم المسبوكات ، وعلم السجلات ، وعلم العاديات
وعلم الاقتصاد ، وعلم الإحصاء ، وعلم النقد ، وجعل العرب بهذه العلوم كلها
أولجها ساقهم إلى الأخذ بظواهر الحوادث ، وعاقهم عن وضع التاريخ بمعناه الحديث .

العلوم الشرعية

علم الحديث

كان أبو جعفر المنصور بعد عمر بن عبد العزيز أول من عنى بتدوين الحديث
مضافة ذهابه بموت أصحابه . فأمر مالك بن أنس بوضع الموطأ فوضعه جامعاً بين الحديث
والفقه . ثم تبارى العلماء في تحصيل الحديث توسماً في الفقه ، وتفرعوا إلى الفضل ،
فراجت بضاعته ، وانتشرت روايته ، وقضى الله أن يندس بين رجاله كثير من
أتباع الضلالة وأشياح الفرق فتقوّلوا على الرسول وأدخلوا زور الحديث على أغفال
الرواة فكثرت المفتريات وعُي على الناس الحق . ففسر الأئمة للحديث بالنقد
والتمحيص ، وللرواة بالجرح والتعديل . وكان أسبقهم إلى ذلك إسحق بن راهويه
المتوفى سنة ٢٣٨ فاز الحديث من الفقه . وتلاه شيخ الحديث البخاري ، وإمام
السنة مسلم ، فجمعا صحاح الأحاديث في كتابيهما . ثم ظهر بعدهما أربعة كتب في

عصر واحد تمت بها السنة للمصاح . وهي كتاب أبي عيسى الترمذى ٢٧٩ ،
وكتاب أبي داود السجستاني ٢٧٥ ، وكتاب أبي عبد الرحمن النسائي ،
وكتاب أبي عبد الله بن ماجه ٢٧٣ .

وقد أطبق الناس على صحة هذه الكتب فشفلوا بها ما بين جمع وشرح
وتلخيص . وكل كتاب بعدها كل عليها وراجع إليها .

المحدثون البخارى

١٩٤ - ٢٥٦ هـ

شأؤه وحياته

ولد أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى ببخارى ونشأ بها يتيما . فحفظ
القرآن وتلف العربية وطلب الحديث فى التاسعة من عمره . ولم يكد يبلغ الحلم
حتى حفظ منه عشرات الألوف . وفى سنة ٢١١ هـ خرج إلى مكة حاجا مع أمه
وأخيه . فعاد هذان ونخاف هو للتوسع فى الحديث فرحل إلى معظم للمالط
الشرقية وروى عن علمائها وأخذ عن قتهاها حتى ارجعه الجد العائر إلى بلاده
فابلى فيها بفترة القول بختا القرآن ، فأنتى بأنه قديم غير مخلوق ، فأخرج من
بخارى مطرودا ، فلاقته للبلية بقرية على ثلاثة فراسخ من سمرقند .

جمع كتابه « الجامع الصحيح » فى ست عشرة سنة وضمنه تسعة آلاف
حديث تفصلها من سمانه ألف . وفيها ثلاثة آلاف مكررة بذكر وجوهها .
وقد أجمع العلماء ، على أنه أصح كتاب فى الحديث حتى من « صحيح مسلم » :

مسلم بن الحجاج

٢٠٦ - ٢٦١ هـ

هو أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري ولد سنة ٢٠٦ هـ ورحل فى طلب

الحديث إلى الحجاز والعراق والشام ومصر . وقدم بغداد غير مرة ، وأخذ عن البخارى وصادقه ودفع عنه . وروى عن ابن حنبل وابن راهويه ، وجع صحيحه من ثلثمائة ألف حديث . وهو ثانى صحيح البخارى فى الصحة وللحكمة... ثم أتى عصا الرحيل ببغداد ، وعاش بها وادما فى ظل ثروته وورع تجارته حتى لقي ربه .

علم الفقه

فى صدر الإسلام كانت نشأة هذا العلم فى عصر بنى العباس كان تحريره وتدوينه ونضجه . وكانت للدينة حيثئذ عيش الفقهاء ومقر الحديث وكعبة طلاب الفقه ورواة الحديث . فلما استقر ملك العباسيين فى العراق انتشر الفقه بين أهله ، ونبع فيه جماعة منهم نهجوا غير سبيل الحجازيين فى التشريع . فقهاء الحجاز لمكانتهم من الرواية وتوسمهم فى الحديث بنوا أحكامهم على النصوص ، فلا يرجعون إلى القياس الجلى أو الخفى ما وجدوا خيراً أو أترأ . وم أهل الحديث وزعيمهم مالك بن أنس . وقهاء العراق لتقدمهم فى الرواية ، وقلة بضاعتهم من السنة ، وتأثير الجنسية الآرية فيهم ، عمدوا إلى القياس فى استنباط الفقه . وم أصحاب الراى وزعيمهم أبو حنيفة النعمان . واقتضت سياسة للنصور أن يظهر العراق على الحجاز ، وبغداد على للدينة ، والفرس على العرب ، فاستقدم أبا حنيفة إلى بغداد وأكرمه وزعمه ، فانتشر بالعراق وخراسان والمند والسين والترك : واقتصر مذهب مالك على الحجاز وللغرب الأقصى والأندلس . ثم جاء محمد بن إدريس الشافعى وهو أحد أتباع مالك ، فرحل إلى العراق وأخذ عن أصحاب أبى حنيفة مسائل القياس وانفرد بمذهب بين للذهبين وساعدته الرحلة إلى مصر على تنقيح مذهبه ، فوضعه وضماً جديداً ونشره بها ثم تبع من بعده أحد بن حنبل فقبس الحديث منه والقياس من بعض الحنفية ، واختص بمذهب آخر انتشر فى بلاد نجد والبحرين تقيده بالسنة وتشدد فى الفروع .

وهذه هي للذاهب الأربعة التي قامت على عماد الكتاب والسنة الصحيحة
ووقف عندها الاجتهاد وانتهى إليها التقليد في سائر الأمصار .

الفقهاء

أبو حنيفة النعمان

٨٠ — ١٥٠

شأته وحياته

هو النعمان بن ثابت مولى تيم الله من أهل الكوفة ، وأصل أبيه من
فارس كابل . كان أول أمره خزاناً ، ثم أقبل على علوم الدين فأخذها عن
شافه الصحابة وحل عنهم . واشتهر بالنبوغ فيها حتى أرادته النصور . إلى أن
على القضاء فأبى وقال : « اتق الله ولا ترع في أمانتك إلا من يخاف الله . والله
ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون النضب ؟ » فقال له النصور :
كذبت ! أنت تصلح . فقال له : قد حكمت لي على نفسك . كيف يعمل لك
أن تولى قاضياً على أمانتك وهو كذاب ؟ .

فلم يقتنع للنصور وأقام في السجن فلث فيه حتى قبضه الله إليه . والراجح
أن هذا سبب مقتل ، وما سجنه للنصور إلا ليليه إلى الملوين .

صفته وأهله

كان أبو حنيفة ربة في الرجال تنوء شمرة ، وكان من أحلى الناس نعمة
وأجهرهم صوتاً وأطلقهم لساناً . وكان كثير الخشوع ، طويل الصمت ، قليل
الهموي ، بعيداً عن النية ، لا يذكر أحداً بسوء ولو كان له عدواً .

علمه وأدبه

كان راسخ القدم في علوم عصره إلا العربية ، فقد كان يرتضخ لكتبة .

انتجمية ولا يقيم لسانه لحفا . وكان قوى الحجة حتى قال عنه الإمام مالك :
« إنه رجل لو كلمته في هذه السارية أن يحملها ذهباً لقام بحجته » وهو أول من
رتب الفقه وحرر فصوله ورتب قياسه وقال فيه بالرأى لكثرة الوضعين من
زيادة العراق ، وحرصه على ألا يأخذ بالشك في دينه . فلم يصح عنده
إلا سبعة عشر حديثاً . تخرج عليه من فقهاء العراق والكوفة القاضي
أبو يوسف (١٨٢) ومحمد بن الحسن (١٨٩) وزفر بن الهذيل (١٥٨)
وغيرهم . وقد ينسب إليه كتاب الفقه الأكبر في أصول الدين ، وكتاب
المخارج في الحيل ، ووصيته لأصحابه في الأصول .

مالك بن أنس

٩٥ — ١٧٩

نشأته ومبانيه

ولد أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي بالمدينة ونشأ بها ، وأخذ العلم
من ربيعة الرأي (١٢٦) وتعمق في علوم الدين حتى صار حجة في الحديث
وإماماً في الفقه : قيل إنه ألقى بخلع النصور ومباينة محمد بن عبد الله من آل
علي ، فأحفظ ذلك جعفر بن سليمان عم الخليفة وأمير المدينة فخره وضر به
سبعين سوطاً فما لزداد إلا علاء وشرفاً . وما عم النصور أن اعتذر إليه وترضاه
وقال له : « لم يبق في الناس أفقه مني ومنك . وقد شغلني الخلافة ، فضع
للناس كتاباً ينتفعون به وتجنب رخص ابن عباس وشذائد ابن عمرو وشواذ
أبي مسعود ووطئ الناس توطئة » فصنف الموطأ . سمعه عليه المهدي ثم الرشيد
سنة ١٧٤ وظاهرا عليه ثوب النعمة . وبقى مشرقاً لنور العلم ، وقبة لرواة
الحديث ، وعمدة لفتوى حتى أناه اليقين بالمدينة .

حفيظه وأخبره

كان مالك أشقر شديد البياض، أصلح كبير الرأس ، حسن البزة وقوراً
مهيماً عتيقاً لا يحدث إلا على وضوء ، ولا يركب دابة في دار الهجرة على ضعفه .
وكان أميناً على العلم فلا يترفع أن يقول في الشيء لا يعلمه : (لا أدري) .

علمه وفضله

كان مالك من حجج الله على خلقه . لا يحدث إلا عن صحبه ، ولا يروى
إلا عن ثقة . قد توفر حظه من السنة فبقي مذهبه عليها وانفسح ذرعه في الفتنة
فانتهت إليه الفتوى . وهو القائل عن نفسه : « قل رجل كنت أتعلم منه ما مات ،
حتى يميتني ويستغني » وبذلك صار الثقل . « لا يفتي مالك في المدينة » له كتاب
الموطأ في الحديث وهو أساس المذهب المالكي ، ورسالة في موعظة الرشيد .

محمد الشافعي

١٥٠ — ٢٠٤ هـ

نشأته وحياته

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس القرشي الشافعي نسبة إلى جد جده وأبوه
في فلسطين على مهد الفقر ، ونزل بعد عاين إلى مكة ، فنشأ في بني هذيل ودرج
بينهم ، وكانت أمه الأيم تموله مستعينة ببرفوى قراجه من قریش : وما كاد
يناهز الإدراك حتى أندر في الكاء والحفظ . قرأ القرآن ودرس العربية وراى
البادية في طلب اللغة والأدب ، وحفظ الموطأ وما أورب عمره على خمس عشرة سنة
ثم رحل في هذه السن إلى مالك فقرأ عليه الموطأ حفظاً . قال مالك : « إن
أحد يطلع بهذا الكلام » ، وفي سنة ١٩٥ وقد إلى بغداد فالتقت حوله علماءها

يأخذون عنه ، وفيهم أحمد بن حنبل ، ولقي محمد بن الحسن قبصره بالقياس :
ثم دخل مصر عام ١٩٩ فأتخذها دار إقامته ، وسكن القسطنطين وأملى تجميع
عمرو مذهبه الجديد : وعكف على العبادة والإقراء والتأليف حتى اصطفاه الله
بلواره فدفن بالقاهرة .

صفته وأهمه رقة

كان رضى الله عنه طويلاً نحيلاً ، خفيف المارضين ، حسن الصوت ،
والسمت ، فصيح اللطيق ، راجح العقل . قوى الحجة ، ثقة فى دينه كريماً
فى خلقه .

علمه وفضله

كان أققه الناس فى كتاب الله وسنة رسوله ، وأبصرهم بأصول العلم
والفقه ، وحجة فى اللغة ، وآية فى الأنساب والأخبار . وقد بلغ من السكانة
فى الأدب والمراية فى اللغة أن قرأ عليه الأصمى أشعار الهذليين . وقال
أحمد بن حنبل : « ما أحد يحمل عبيرة إلا وللشافى عليه مئة » .

توسط فى مذهبه بين أهل الرأى وأهل السنة . وكثر أشياعه فى الأمصار
فقساموا الخلفية مناسب التدريس والفتوى . وشجر الخلاف بين أتباع المذهبين ،
وتعددت المناظرات ، حتى نشأ من ذلك علم الخلاف والجدل . والراجح أن
الشافى أول من تكلم فى أصول الفقه وصنف فيه . وقد ذكر له صاحب
الفهرست ما يربى على مائة مؤلف ليس فى أيدي الناس منها إلا كتاب الأم
فى الفقه فى سبعة مجلدات ، والرسالة فى أصول الفقه ، ومسند الشافى فى الحديث .

أحمد بن حنبل

١٦٤ — ٢٤١ هـ

شأنه ومبانيه

أبو عبد الله بن حنبل الشيباني وكُند بفسطاط ، ونشأ بها يتيمًا . وطلب الحديث لست عشرة سنة ، وقد كثرت رواياته ، وعزّت قائلته ، وتميز بحججه ، فحجّج الأقطار الإسلامية في سبيل تلقيه وجمعه ، حتى حفظ ألف ألف حديث تنخل منها أربعين ألفاً ونيقاً فدونها في كتابه المسند وهو من أصحاب الشافعي وصفوة تلاميذه ، وقد قال فيه وهو راحل إلى مصر : « خرجت من فسطاط وما خلقت بها أتقى ولا أوثق من ابن حنبل » .

استنبط مذهبه من الكتاب والسنة وشابه بشيء من القياس ، نقل أنبأه لبعده عن الاجتهاد وتمسكه بالرواية . وتصدى هو وشيعته لمجادلة المسلمين ومناضلة الفلاسفة في عصر الرشيد والمأمون . ودعى إلى القول بخلق القرآن زمن المعتصم فابى ، فضرب تسعة وعشرين سوطاً حتى تقطر دمه وغاب رشده واعتل جسمه . ولم ينعم باله إلا في عهد المتوكل نصير السنة . وعاش ما عاش حتى نقله الله إلى دار كرامته فشيحه ثمانمائة ألف رجل وستون ألف امرأة . وكفى بذلك شهيداً على رفعة شأنه وعظم خطره .

العلوم العقلية

الفلسفة

كانت حرية الفكر في الإسلام سبباً في تعدد الفرق وظهور المذاهب . وهم يذهبون إلى تطبيق النصوص الدينية على الأحكام العقلية . وبنو العباس كاعلمت

أميل القياس والرأى . فاستفاض فيهم هذا المذهب . وانضوى المأمون إلى أهله وصدع بما لم يصدقوا به فقال بخلق القرآن . وضرّم نار الجدل بين السفة والاعتزال ، وزين له أن يتذرع بمنطق اليونان لتقهر خصومه ، فهب بترجمة الفلسفة وأمضى الركائب في طلبها ، وحدا الناس على النظر فيها والجدل بها . فنشأ من ذلك علم الكلام وكان مبدأ لظهور الفلسفة العربية .

أجل إن الفلسفة العربية طور من أطوار الفكر الإسلامى ، وحادث من تاريخ التمدن العربى ، فكان عدد الفلاسفة قليلاً ، وأثرهم فى الشرق ضئيلاً ، ولكنهم كانوا حلقة اتصال بين الفلسفة القديمة والفلسفة الحديثة ومنازل أوروبا والمامية يومئذ فى غياب الجبال ، التأهبة فى مجاهل القرون الوسطى ، هداها إلى هذه الحضارة العظمى وتلك الحياة الراقية .

أخذ المعتزلة من الفلسفة سلاحاً يمارعون به أهل السفة ، وأنحى هؤلاء بالظن عليهم وعليها ، وحذروا الناس منهم ومنها ، حتى أصبحت الفلسفة مرادفة للزندقة والقياسوف غرضاً للمقت والسخرية . كان ذلك سرّاً فى عهد المأمون والمتصم والواثق نصراء الفلسفة وظهراء الحكمة ، وجهرأ فى عهد المتوكل وأخلافه محبى السفة ويمبى البدعة فإنهم خففوا من إشراف الفلاسفة وشدوا من شكائهم وألجأوهم إلى التستر وعقد المجامع خفية : فكان من ذلك جماعة (إخوان الصفا وخلان الوفا) وهى أشبه بجماعة « الماسون » فى رسومها ورموزها . تألفت بالبصرة فى أواسط القرن الرابع للبحث فى ضروب الفلسفة ، والعمل على نشرها ، فكتبوا خمسين رسالة غفلاً ضمنوها جملة الفلسفة العربية ، وزينة الحكمة اليونانية وقد بشت فى الفلسفة روح الحياة ومهدت لمطريق الشيع . ووافق ذلك تغلب البويهيين على بغداد (٣٤٣) وم شيعيون ، ونصرتهم فى خذلان السنيين ، فأخذت الفلسفة تنفق وتذيع ، حتى أصابها ما أصاب سائر العلوم من الضعف والفتور .

أما تاريخ الفلسفة في الأندلس فهو أشبه بتاريخها في الشرق . انتقلت إليها زمن عبد الرحمن الأوسط (٢٢٨ هـ) وتشيع لها اقتداء بللمأمون قروب عهده منه . فتنشط للدرسا الأندلسيون وازداد إقبالهم عليها وانصرفهم إليها بوصول رسائل إخوان الصفا إليهم على يد أبي الحـكم عمرو الأكرمانى سنة ٤٥٨ فنبغ منهم الفلاسفة وكثروفيهم الحسكا . ولكن اضطهاد العامة لهم كان أكثر ، ووزرايتهم عليهم كانت أشد ؛ فاستبد للوك بهم مسيرة للشعب ، وتحبباً إلى الدماء ، وقيدوا عليهم أنفاسهم ، فإذا زل أحدم في كلمة رجموه أو أحرقوه . وناهيك بما فعله أبو يوسف المنصور الوحدى بهم في أواخر القرن السادس من تمزيق شملهم وتمزيق كتبهم .

وهكذا ظل ولاد الأندلس يسوقهم الجهل والاحتداد إلى مطاردة الفلسفة ومحاربتها حتى فرت من وجوههم لاذنة بيجرائهم الفرنجة . ولا بدع فلعلوم وأهلها دول تدول وسلطان يزول .

الفلاسفة

أول فيلسوف نعرفه من العرب يعقوب بن اسحق السكندى المتوفى سنة (٢٤٦) وكان معاصراً للمأمون بارعاً في الطب والفلسفة والحساب والمنطق والمهندسة والتجريم والألحان . وألف في تلك العلوم واحداً وثلاثين ومائتي كتاب هذا فيها حذو أرسطو . وكان أبرز الناس في الترجمة عن اليونانية . ويليـه أبو نصر الفارابى المتوفى سنة (٢٩٩) الملقب بالمعلم الثانى صاحب كتاب السياسة المدنية ، ومخترع القانون فى الموسيقى . ثم أبو على بن سينا وأبو حامد النزالى . وأما الأندلس فقد نبغ فيها أبو بكر باجه الخوفى سنة (٥٣٢) وتليذه ابن رشد ، وابن طفيل المتوفى سنة (٥٨٧) صاحب رسالة الحى بن يقظان ومحسبنا أن نترجم بثلاثة من أعلامهم

ابن سينا

٣٧٠ - ٤٢٨ هـ

شأنه ومبانيه

هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن سينا ويسميه الفرنج (avicenne) ولد بقرية من قرى بخارى كان أبوه عاملاً عليها لنوح بن منصور الساماني . ثم انتقل في طفولته إلى بخارى حفظ القرآن والأدب وشيئاً من مبادئ العلوم . وورد بخارى إذ ذاك أبو عبيد الله الغاتلي فقرأه كتاب إيسافوجي ، وخرجه في المنطق فبرز عليه فيه ، وبصره بمواضع منه . ثم رغب في علم الطب فلتقى أصوله على أبي سهل المسبجي ، ودرس فروعه وحلته حتى انتهت إليه الزعامة فيه . فقصده الأطباء من كل صوب يستشيرونه ويتقيسون منه . كل ذلك وسنه على ما قيل لم يتجاوز ست عشرة سنة . ثم أبرا الأمير نوح بن منصور الساماني من مرض برح به ، فقربه إليه وأذن له في الدخول إلى دار كتبه ، فقرأ فيها آمن الكتب وأجلها . ثم اتفق أن أحرق تلك المكتبة ففرد أبو علي بما فيها . ويقال إنه أحرقها ذلك عمداً .

وفي الثانية والعشرين من عمره توفي أبوه ففرج إلى قصبه خوارزم وأخذ يضرب في الأرض ، فوجد على جرجان وزاول التلميم وصنف كتاب القانون في الطب . ثم انقلب إلى همدان فقلد الوزارة لشمس الدولة بن بويه ، فالبث غير قليل حتى ثار عليه الجند ونهبوا ماله وسألوا الأمير قتله فاحتقن ببقية . ولم تهادهن المصائب بذلك فأنهم عند تاج الدولة بخيانة منكرة فسجنه في إحدى القلاع أربعة أشهر ولم ينجه إلا فواره متسكراً إلى علاء الدولة بأصبهان ، فأقام في حماه

وإدع النفس أحياناً ؛ ولكن تماقب الحوادث عليه أوهن عزمه ، واستبداد الشهوة به أنهك جسمه ، فأصيب بداء عياء نكّل عنه تدبيره وطبّه ، وتوفي بهمذان .

علم ومصفاته

لابن سينا القدم الراسخة في الطب واللكانة السامية في الفلسفة . أخذ بمبادئ أرسطو ولم يفتن من دينه ، ولم يشك بمذيقه . إلا أنه كان أبيقورياً مستهتراً . وقد نقل للفرنج عنه أكثر ما عندهم من كتب جالينوس وأبقراط وترجموا أكثر تأليفه إلى اللاتينية واعتمدوا عليها في بناء الفلسفة الحديثة وهي تبلغ مائة مؤلف ، وأشهرها كتاب القانون في الطب ، وكتاب الشفاء في الحكمة ، يقع الأول في أربعة عشر مجلد ، والثاني في ثمانية عشر .

حجة الإسلام الفزالي

١٥٠ — ٨٥٠

شأنه ومبانيه

ولد أبو حامد محمد بن حامد الفزالي بطوس ، وتلقى دروسه الأولية بها ثم قدم نيسابور فتخرج في أمد يسير على إمام الحرمين أبي للمال ، ولازمه حتى توفي . فوجد على الوزير نظام الملك بالمسكر فاحتق بقدمه وأعجب بعلومه . وناظر بحضرته جماعة من الأفاضل فظهر عليهم ظهوراً أثار ذكره . فتوؤس إليه للتدريس بالمدرسة النظامية ببغداد وأخذ نفسه بدرس الفلسفة فاشتغل بها وهو يعلم . ثم انقطع عن التدريس سنة ٤٨٨ ليتخصص لها ويتعمق فيها . فتبين له بعد طول البحث أن الفلسفة والدين ضدان . فناسب الفلاسفة الداء وحل عليهم بأسلحتهم ، وقارعهم بمحججهم . فلقب لذلك حجة الإسلام . ثم سلك

طريق التزهد ، ونهج سبيل التصوف ، فوطده على أساس الحكمة ، وأيده بحقائق العلم . ثم غادر بغداد فورد الشام وأورشليم والحجاز والإسكندرية ؛ وعزم نرحله إلى مراکش ليلقى الأمير يوسف بن تاشفين ، فجاءه فيه قبل سفره فماد إلى طوس واشتغل بالتعليم والتأليف . ثم اضطر أن يمارس التدريس ثانية بالمدرسة النظامية ، ولكنه ما عزم أن يرجع إلى وطنه فابتنى خانقاة للصوفية ومدرسة للعلوم الدينية ، وعكف على العبادة والإفادة حتى مضى لسبيله .

مؤلفاته

ألف التزالي كتاب البسيط والوسيط والوجيز في فقه الشافعى ، وكتاب إحياء علوم الدين في التصوف ، وهو مرتب على أربعة أقسام : العبادات والمعادن والهلكات والنجيات . وقد قيل في فضله : لو ذهبت كتب الإسلام وبقي (الإحياء) لأغنى عما ذهب ، وله كتاب تهافت الفلاسفة في الرد على فلاسفة اليونان وأنبياءهم ، وقد طبع أخيراً بمصر ، وكتاب مقاصد الفلاسفة في اللوحى نفسه

ابن رشد

٥٥١ — ٥٩٥

نشأته ومبانيه

هو الوليد محمد بن أحمد بن رشد ، ويسميه الفرنج Averroës ولد بقرطبة من بيت عريق في المجد أصيل في النشاء ، وتخرج على علماء عصره في الفقه والطب والفلسفة ، واضطلع إلى النظر في الحكمة حتى توسط بلحها وشارف غايها . وفي سنة ٥٤٨ قدمه ابن طفيل إلى أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وكان محبا لقلبه فله فخلص له كتب أرسطو . ثم تولى قضاء أشبيلية سنة ٥١٥ ورجع إلى موطنه بعد عشرين ، وشخص منه إلى مراکش بدعوة من أمير المؤمنين ليتخذ طبيبا له ولكنه ما لبث أن عاد إلى قرطبة قاضيا . ولما مات أبو يعقوب وخلفه ولده

يقوب للنصور أقر ابن رشد في مقامه ، وبالغ في إكرامه ، ولكن القهر أبى أن ينعم بال الحكم فسنى به أعداءه إلى الأمير ورموه عنده بالزندقة والروق ، ففناه هو وسائر الفلاسفة من أرضه . ثم عاد الأمير إلى نفسه فاستدعاه إلى مراکش واعتذر إليه ، وظاهر نعمته عليه . ولكن مالبث أن قفيه حمامه بمراكش .

فلسفته وكتبه

لوصح التماسخ قلنا إن روح أرسطو قمصت جسم ابن رشد لتجدد عهود الحكمة ، وتفسر غموض الفلاسفة . فإن حكيم العرب تمصب لحكيم اليونان ، وزعم أنه وصل بالعلم إلى أبد غاياته . فوقف قومه على شرح فلسفته وتلخيص كتبه واهتم الأوربيون بما كتب فترجموه وتعلموه ، فكان أساساً لحكمتهم ونبراساً لهمضتهم . وقد قال عنه الفيلسوف الفرنسي (إرنست رينان) في كتابه ابن رشد ومذهبه : « إنه أعظم فلاسفة القرون الوسطى ممن تبهم أرسطو ونهج سبيل الحرية في الفكر والقول » . ومذهب ابن رشد وأشباعه من تلاميذ أرسطو أقرب إلى مذهب الماديين والقائلين بالخلول : فيزعمون أن للمادة أزلية ، وأن الخلق حركة اضطرابية في هذه المادة ، والخلق هو تلك الحركة أو المحرك . ويرون أن الخلوقات تشارك للمادة في أزليتها لكونها منها . فإذا تجرد الإنسان العاقل لتحصيل العلم توصل بالتدرج إلى الاستفراق في الله ؛ وأن القول واحدة في البشر ترجع جميعها إلى العقل الأول الذي يسمونه (العقل الفاعل) ، وهذا العقل العالم هو وحده متصل بالله دون العقول الفردية ، فيرتب على هذه الفلسفة أن النفوس تموت مع أجسادها وأن لا خلود إلا للمادة فلا ثواب ولا عقاب ، وأن الخلق لا يعلم إلا كليات الحوادث دون جزئياتها : تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . وقد فبهذا للذهب حجة الإسلام الغزالي وكثير من علماء أوروبا . على أن ابن رشد كان يحرص الحزم كله على التوفيق بين الفلسفة والدين . فكتب

في ذلك كتابه « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » ، وكتاب « مناهج الأدلة في عقائد اللة » ، وعنى بالرد على « تهافت الفلاسفة » للفراي بكتاب سماه « تهافت التهافت » يقول في آخره . « لاشك أن هذا الرجل أخطأ على الشريعة كما أخطأ على الحكمة ، ولولا ضرورة طلب الحق مع أهله ما تكلمت في ذلك » وله غير ذلك مؤلفات كثيرة ككتاب الكليات في الطب ، وفلسفة أرسطو ، وقد فقدت أصول كتبه فلم يبق إلا ترجمتها اللاتينية أو العبرية .



الفصل السابع

القصص والمقامات في الأدب العربي^(١)

القصصُ فن من فنون الأدب الجلية، يقصد به ترويح النفس باللهو، وتثقيف العقل بالحكمة . وله عند الترويح مكانة مرفوعة ، وقواعد موضوعية . أما عند العرب فلا خطر له ولا غناية به ، لانصرافهم عما لارجح للدين منه ، ولا غناء للملك فيه ؛ وللاَسباب التي دعت إلى قصورهم في الشعر القصص ؛ ولأنه نوع من أنواع النثر ، ولقن السكتاني أو النثر القفى ظل في حكم المدم أزمان الجاهلية وصدر الإسلام حتى آخر الدولة الأموية ، حين وضع ابن المقفع الفارسي مناهج النثر وفكر في تدوين شيء من القصص . فكان ما ترجمه هو وأمثاله من نحو كلية ودمنة ، وهزار أفسانه (ألف خرافة) ودارا والصنم الذهب ، حُدَيّا العرب وعمودجا لهم في وضع ما وضوه منها .

ولما أنزف العرب وحمل الأعاجم عن انخفاء أعباء الخلافة قطعوا لياهم بالمغامرة والسامرة . فتنافس الندماء في حفظ الأقاصيص والأساطير ، وتسبق أدياب القرنين الثالث والرابع إلى وضعها يسامرون بها التذخيرة شفاها . واحتاج العامة من أهل الترف والبطالة إلى من يسامرهم كذلك في ديارهم وأملتهم وأعراسهم واشتدت هذه الحاجة عندما تولت المصائب والحن على العالم الإسلامي وأواخر العصر العباسي وبدء من عسف التسلطين من السلاجقة ، وعنف المتنيلين من المفلول ، وإخلاء الشعب في مصر إلى التبتل والمجون ، وتماطيه المحدثات من الحشيش والأفيون ؛ فتقدم إليهم القصص والمحدثون ، وهم لسوقة أشبه بالندمان

(١) راجع ل هذا الموضوع كتابنا : (في أصول الأدب) .

والمهرجين الملوك فحدثهم بما جموا من أقاصيص الشجران ، وأخبار الجان ، وأعمال السحرة ، مما تناقلته الأفراء من وراء الأجيال والأزمان ، وشاهده التجار والرحالون في أطراف البلدان . ثم عملت في هذه الأحاديث المبالغة وأماها الاختلاق حتى قبض الله لهذه السير من دونها على أسلوب الحديث من غير قاعدة ولا خطة . ثم تنوسيت أسماؤهم لطول العهد كما تنوسيت أسماء مؤلفي القصص الأفريقية القديمة ، فكان من ذلك قصص عنتره^(١) ، وبني هلال ، وسيف بن ذي يزن ، والأميرة ذات الحمة ، والظاهر بيبرس ، وعلى الزبيق المصري ، وفيروز شاه . وفي رأيي أن هذه القصص كتبت كلها بمصر في القرون الخامس والسادس والسابع للهجرة ، فبعضها حين نشوب الحرب الصليبية ، وبعضها بعد سقوط بغداد . أما أنها كتبت بمصر فهذا واضح من مواضع وقائمه ، وموضوعات حوادثها ، وأسماء أشخاصها . وأما أنها كتبت في هذه العهود فذلك بين من لثها المشوبة ، وأسمائها البتلة ، وخیالها الغريب القوي من أثر المحدثات . وحال الاجتماع يومئذ ، ونشوب الحروب الصليبية ، اقتضيا تدوين هذه القصص في وصف الوغى ، ومدح البطولة ، وتعجيد القادة ، إثارة للنفوس وتمجيسا للجنود ، كما كان للسودن يقولون في القرن الأول للهجرة^(٢) .

(١) قصة عنتره هي قصة حامية تمثل حياة العرب في الجاهلية تحيلا صادقا ، وتصف أخلاقهم وحروبهم وصفنا نالفا ، وتبحث في النفس الحية والنجدة والوفاء والسخاء فهي أفضل القصص العربية وأولها أن تسمى (إلياذة العرب) . أسلوبها خائق منسق ، وقد تذكرت الركاز أحيانا . وثلاثها مسجوع متكلف مطرز بقصائد بعضها مسدوع ، وبعضها مصنوع . والراجح في الرأي أنها كتبت مما سار على ألسنة الرواة والسير طوال السنين من أخبار العرب ووجهتها ، وتحت إلمالة وإبالة ، حتى انتهت إلى رجل حافظه يدعى يوسف ابن اسماعيل في عهد العزيز بالله الفاطمي (٣٦٥-٣٧٦) فأنقها بأمره الحماة فكتب من القصص بربية حدثت في بيته . ثم أحضرها تباعا في اثني وسبعين جزءا ، ونسبها إلى الأسمى لإجلال القدرما واحتمالا لفسرها .

(٢) ذكر ابن الأثير سنة ٧٧ هـ أن عتاب بن ورفاء سار في أخصائه قبل المرة بمعرضهم على القتال وقضى عليهم . ثم قال ابن النصار : فلم يبق أحد فقال : أجن من يروي عمر عنتره فلم يبق أحد الخ .

ذلك كان موهبة القصص في الأدب العربي وهو شيعة عموماً في الأدب الغربي ؛ فكلماتها وقد على أثر الملاحم ، وكلماتها ابتداءً بأخبار الشجعان وخطاطر البطولة . إلا أن القصص الغربية لاحظتها عناية الأدباء ، ورعاية النقد ، واتساع الحضارة ، وتقدم العلم ، فنمت وتقدمت . أما القصص العربية بمبناها الفني للحروف فظلت في حيز الطفولة ومهد الخمول يلمسها العامة ، ويأنف منها الخاصة ، ويصد عنها الأدباء والكتاب حتى قبروها مُدْرَجَةً في لقائف اللياليد . وإنما برع العرب في الحكايات والأمثال واللقامات .

الحكايات

ألف ليلة وليلة^(١)

فأما الحكايات فأخذوها عن الفرس . وأبدع ما أثر عن هؤلاء منها : كلستان السعدي ، وأصل ألف ليلة ليلة . وهذا الكتابان لا يزالان نموذج هذا الفن في الشرق والغرب . على أن العرب حينما اقتبسوا هذا الفن من الفرس توافروا عليه وتمكّنوا منه حتى جازروهم فيه وحتى شاطروهم الشهرة وجازوهم الأولوية . ولقد طغى ما أدخلوه في ألف ليلة وليلة على ما قتلوه عن الفرس منه فأخفاه . وأصبح الكتاب عنواناً عريضاً من عناوين الأدب العربي وأثراً خالداً من آثار بنييه . وأصله على الأرجح كتاب صغير للفرس دعوه (هزار أفسانه) وبفوه على حكاية الملك والوزير وابنته شهرزاد وجاريتها دينا زاد . وقد ترجمه العرب من الفهلوية إلى العربية آخر القرن الثالث للهجرة ، ثم دعام الإعجاب به إلى توسيعه وتغريبه فأضافوا إليه ما شاؤا من أساطير العرب والمفود واليهود وأخبار الخلفاء والأمراء والفرسان والأجواد في الجاهلية والإسلام . وبقي باب مفتوحاً لازدادة عليه حتى القرن العاشر للهجرة ، فشكل قصصه واستم بنيانه ، وتضامل ما فيه من (١) المرأ من حفا الكتاب بمنا علياً مفصلاً في تاريخه وتعليه في كتابنا : (في أصول الأدب) .

وضع القريس حتى فنى فيما وضع العرب من أفاصيص الجان ومخاطر الشجران
ونجمى الموانف وأعمال السحرة ، التى تستهوى القلب ، وتشغذ الخاطر ،
وتخص الخجلة .

ومزية الكتاب تمثيله لأخلاق العرب والمسلمين وعاداتهم وأنظمتهم
فى العصور الإسلامية الوسطى بالعراق ومصر والشام مما يفيد الكاتب الأجماعى
والفيلسوف للزورخ . ومن ثم عنى به القزنجى عناية خاصة فترجموه إلى لغاتهم ،
وأفردوه بأبحاثهم . أما إنشاؤه فمختلف باختلاف الأعصر والأقاليم : فأخبار
العرب ونوادير الخلفاء وما ترجم فى الصدر الأول تغلب فيه الصحة والقصاحة .
وأما ما وضعه القصاصون للتأخرون من عامة مصر والشام فتركك العبارة ، على
الألفاظ ، مبتذل الذراكيب ، إلا أن مساق الأحاديث جيد ، ورباط الحوادث متين .

الأمثال

كليات ودمنة

أما الأمثال فنشأها الشرق ؛ لأنه كان موطن الحكم للطلق والاستبداد
العتيف . انبعث فى صدور الضعفاء للمستبدين صدى خافتا لا تحتاج مكظوم
صامت لم يجدوا له متفاسا ولا طريقا إلى آذان الطغاة إلا هذه الحكايات والرموز
يسترون وراءها ما يريدون من نصيح وعظة . وقد بدأ ظهور هذا النوع فى الهند
ثم انتقل منها إلى الصين ثم إلى فارس فبلاد العرب فبلاد الإغريق . وأقدم
ما عرف منه أمثال لقمان الحكيم ، وإزوب الرومى ، ويديبا الهندى . وأشهر
من كتب فيه من أدباء العربية ابن القفج مترجم كلية ودمنة . وهذا الكتاب
من خيرة الكتب فى تفهيم الأخلاق بالمظة وريضة المقول بالحكمة : وضعه
بالغة السنكر بنية يديبا الهندى له بشليم الملك منذ عشرين قرنا ونيفا على ألسنة
البهاشم والطيور ، وعنده على اثنتى عشر بابا ثم ترجم إلى الفهلوية ، ونقله عنها إلى

للربية عبد الله بن القفيع ، وصدره بمقدمة بليغة في التعريف بالكتاب والتحريض على مطالعته ، ثم فقد أصله وترجماته إلا العربية ، فإنها بقيت أصلاً فترعت عنه الترجمات القديمة والحديثة . وزاد الكتاب بثوالى الزمن بما دخله من الأبواب الفارسية والعربية ، حتى بلغت أبوابه واحداً وعشرين باباً .

وقد جاء فى دائرة المعارف الإسلامية (وهى موسوعة كبيرة يتولى تأليفها طائفة من المستشرقين وينشرونها تباعاً بالفرنسية والألمانية والإنجليزية) أن مؤلف هذا الكتاب برهمى لا يعرف اسمه . ألفه فى كشير حوالى القرن الثالث قبل الميلاد فى مقدمة وخمسة أبواب وسماه (تفترة) على ما رواه هيرتال Hertal ، وهرتال هذا هو الذى نقله عن السنسكريتية ووضع له مقدمة وعلق عليه حواشى وطبعه فى ليبسك وبيرلين فى مجلدين سنة ١٩٠٩ م .

ولهذا الكتاب نسخة أخرى عنوانها (بتجة تفترة) ترجمها إلى الفهلوية برزويه طبيب أنوشروان بأسره . وأضاف إليها أبواباً من القصص الهندى ، ومن هذه الترجمة نقل ابن القفيع ترجمته للعربية وصدرها بمقدمة من وضعه . والراجع أنه أضاف إلى مقدمة برزويه ما يدل على الشك فى الأديان . وأضاف إلى الكتاب باب الفحص عن أمر دمنة وباب الناسك وضيقة . وفى بعض النسخ زيدَ على الكتاب بابان لا يعرف مصدرهما ، وهما باب مالك الحزين والبطلة ، وباب الحمامة والتطلب ومالك الحزين . انتهى .

ومن الناس من يميل به الظن إلى أنه من وضع عبد الله بن القفيع ، وما ناسبه إلى علماء الهند إلا أملاً فى رواجه وانتشاره ؛ ولكنى فى اعتقادنا ظن بعيد الاحتمال لأن حظ النقل والاحتذاء فى كل ما كتب ابن القفيع أبين من حظ الإنشاء والابتكار . وقد نظمته كثير من شعراء العرب كأبان اللاتقى وأبان الهبارية ، وعارضه سهل بن هرون بكتاب سماه (ثمة وعقرة) .

ثم اشتهر بالكتابة فى الأمثال أيضاً ابن الهبارية المتوفى سنة ٥٥٤ م ناظم

كتاب الصالح والباغم ، وهو منظومة في ألني بيت على أسلوب كلية ودمنة .
ثم ابن عرب شاه الممشقى للتوفى سنة ٨٥٤ صاحب كتاب فاكهة الخلفاء
ومفا كة الظرفاء ، وهو مجموعة من الأمثال والحكايات نهج فيها منهج كلية
ودمنة وجملها في عشرة أبواب ، إلا أن أسئالها يميها التتطويل والحشو ،
وإنشاءها يضعفه التمثل والتكلف .

المقامات وكتابها

للقامة حكاية قصيرة أنيقة الأسلوب تشتمل على عظة أو ملحمة . ومعنى
للقامة في الأصل اللقام أى موضع القيام ، ثم توسعوا فيها فامتملوها استعمال
المجلس والسكان ، ثم كثرت حتى سموا الجالسين في القامة مقامة كما سموهم مجلساً
إلى أن قيل لما يقام فيها من خطبة أو عظة وما أشبهها مقامة أو مجلس ، فيقال :
مقامات الخطباء ومقامات القصاص ، ومقامات الزهاد : وقد نشأ هذا النوع
من القصص في أواسط الدولة العباسية وهو عهد الترف الأدبي والإنشاء الاصناعي
الأنيق . وقد أجاده بديع الزمان إجادة أحلته منه محل الزعيم .

وليس الغرض من المقامة جمال القصص ولا حسن الوعظ ولا إفادة العلم ،
وإنما هي قطعة أدبية فنية يقصد بها « الفن للفن » وتجمع شوارد اللغة ونوادر
التركيب في أسلوب مسجوع أنيق الوشى يوجب أكثر مما يؤثر ، وبلد أكثر مما يفيد .
ولم تترأع قواعد الفن القصصى فيما كتب من هذا النوع ، فلم يمن كاتبوا المقامات
بتصور الحساكات وتحليل الأشخاص ، وإنما صرفوا همهم إلى تحمين اللفظ وتزيينه
وتدور المقامة على حادث عادى يستند إلى شخص معين هو ما يسمى في اصطلاح
الفن القصصى بالبطل ، كابى زيد السروجى في مقامات الحريرى ، وأبى الفتح
الإسكندرلى في مقامات البديع ، وبين هذا البطل وبين رجل آخر صلة وثيقة
ومعرفة قديمة ، فهو يراه في كل حادثة ، ويسمعه في كل مجلس ، ويقاها في كل

سر، ثم يروى للناس ما عليه من خير أو شر . ذلك هو الراوى ، ككيسى
ابن هشام فى مقامات البديع ، والحارث بن حماد فى مقامات الحريرى .

أما كتابها فقد علمت أن ابن دريد اخترق أربعين حديثاً عرضها عرضاً
تصورياً دقيقاً كانت الطور الأول لنشوء القامة . ثم جاء بديع الزمان الهمداني
المتوفى سنة ٣٩٨ هـ فأملئ أربعائة مقامة فى الكدية وغيرها نحلها أبا الفتح
الإسكندري على لسان عيسى بن هشام ولم يمتروا منها إلا على ثلاث وخمسين
مقامة . وقد مضى الكلام عنها فى ترجمته . ثم جاء بعدهم الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ هـ
فكتب خمسين مقامة نسبها إلى أبى زيد السروجي على لسان الحارث بن حماد ،
ونسبها على منوال البديع وقد تقدم القول فيها أيضاً . ثم عالج المقامات بمد
هذين التابعتين طائفة من الكتاب لم يدركوا شأواهما كالمقامات السرقطية لابن
الأشتر كوفى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ وهى خمسون مقامة أنشأها بقرطبة عند وقوعه على
ما أنشأ الحريرى بالبصرة ، وقد أنجب فيها خاطره وأسهر ناظره ولزم فى نثره لزوم
مالا يلزم . حدث فيها للنذر بن حماد عن السائب بن تمام . ومقامات الزمخشري
المتوفى سنة ٥٣٨ هـ وهى مشهورة والمقامات المسيحية لأبى العباس يحيى بن سعيد
ابن مارى النصراني البصري الطيب المتوفى سنة ٥٨٦ هـ نسبها على منوال
الحريرى . ثم مقامات أحمد بن الأعظم الرازى وهى اثنتا عشرة مقامة كتبها
سنة ٦٣٠ هـ وجعل الراوى فيها التمتع بين زنايع وغيره . والمقامات الزينية
لزين الدين بن حيقل الجزرى المتوفى سنة ٧٠٩ هـ وهى خمسون مقامة عارض بها
المقامات الحريرية . نسبها إلى أبى نصر المصرى وعزاروايتها إلى القاسم بن جبران
الدمشقي . ثم مقامات السيوطى وهى بالرسائل أشبه منها بالمقامات .

الباب الرابع

بعد سقوط بغداد

كيف غلفت القاهرة بغداد وقرطبة؟

انكسرت قتل العباسيين كما علمت في بغداد بعد عهد التتوكل لتنافس الفرس والترك، وندحار الشيمة والسنة، وذهب جلال الخلافة من النفوس، فاعتورتها الأرزاء واصطلحت عليها الأعداء، حتى قوض عرشها هلاك سنة ٦٥٦ هـ . وتضمنع أمر الأمويين في الأندلس بتقلب البربر وللوالى على ملسكهم، وتقسيمه بينهم إلى دويلات صغيرة سهل على الفرج لزدادها قطعة قطعة، حتى ابتلعوها لقمة سائفة سنة ٨٩٨ هـ . ودالت دولة الفاطميين في مصر والشام فوقعتا في أيدي الأيوبيين، ثم صارتا إلى المماليك، وظلتا تحت سلطانهم حتى دخلتا حكم الأتراك الممانيين ٩٢٣ هـ . فأنت ترى أن العالم الإسلامي أتى عليه ستون وخمسمائة عام لم يكن للعرب فيها لواء معقود ولا ظل ممدود، بل أصبحت ديارهم وآثارهم نهبا مقسمين للقول والترك والفرس والجر كس ثم الأسبان بعد قليل . وضع هؤلاء الجرم وهم وحشيون أثيون أيديهم على تراث العرب، فخرّبوا الدور وهتكوا المندور، ونجموا اللغة وآدابها وعلومها بصريق للكاتب، وتعطيل للدارس وتقويض للرصد، وتقتيل العلماء . ناهيك بما فعله التتار ببخارى وبغداد، والصليبيون بالشام . والفرنج بالأندلس ! فلو أن الزمان عفى على اللغة العربية والحقا بأعواتها السامية لما كان ذلك بدعا من القول ولا حدثا في التاريخ . ولكننا بقيت على مرغبة الحوادث لسانا للدين والعلم، ولغة للحكومة والأمة،

في بلاد المغرب ومصر والشام وبلاد العرب والجزيرة . ولولا نُصرة الترك وعصية
الفرس لسكنت لغة السليين كافة .

والفضل في بقائها على قناء أهلها إنما كان لذكر الحكيم، وللأزهر الشريف،
ولسلاطين مصر والشام من الأيوبيين والمماليك ؛ فقد كانوا لها رِداءً ، ولأبنائها
حرزاً، ولعلمائها وزراً ، من غارة للنول حينما اكتسحوا خراسان و فارس والعراق ؛
لأن الأيوبيين وإن كانوا أكراداً قد تكلموا بلغة العرب وتأدبوا بأدب العرب
ونبع فيهم الشاعر والمعلم واللؤرخ ، كالكاتب الأفضل ^(١) علي بن صلاح الدين
التوفي سنة ٦٠١ هـ وبهرام شاه صاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨ هـ ، والملك المؤيد
عماد الدين أبي القداء المتوفى سنة ٧٣٣ . وكذلك قل في المماليك فقد نبغ فيهم
أحد السلاطين في الشعر وهو قانصوه النوري المتوفى سنة ٩٢٢ هـ ، لأنهم اتخذوا
مصر وطناً ، والإسلام ديناً ، والعربية لغة ، وعضدوا الملاء وقربوا الأدباء وشدوا
أزر للمعالمين والمؤلفين حتى نبغ في ظلهم أولئك الأعلام الذين جمعوا شتات اللغة
والمعالم في الموسوعات والمبجمات ، وأقبلوا على علوم الأولين بالشرح والتلخيص ،
وهذبوا التاريخ ووضعوا فلسفته ، وأقاموا لشعر وزناً على لغة الممارفين بفضلهم ،
والمستمعين إلى أهلهم ، كما بن منظور صاحب لسان العرب ، والفيروز آبادي صاحب
القاموس ، وابن خلدون منشيء المقدمة ، والقلقشندي جامع صبح الأعشى .

(١) كان الملك الأفضل ضعيف الرأي كثير النقلة فطلبه عنه الماعل أبو بكر وأخوه العزيز
عنان على حلقه الشام ومصر ، فكتب إلى الخليفة الناصر العباسي كتاباً يشكو إليه ذلك فيه
وقد بدأه ببينين من الشعر أجاد في نظمهما كل الإجابة وجاء :

مولاي إن أبا بكر وصاحبه	عنان قد أخذ بالسيف حتى على
فانظر إلى حرف هذا الاسم كيف أتى	من الأواخر ما لاقى من الأول
يريد بأبي بكر عمه . ويشان أخاه . فأجابته الخليفة الناصر بقوله :	
واق كتابك يا ابن يوسف مطنا	بالصدق يغير أن أسطع طامر
خصبوا علياً حقه إذ لم يكن	بعد النبي له يسخره قاصر
قاسر فإن قدا عليه حسابهم	وابصر فناصرك الإمام الناصر

والشباب الطريف وصفى الدين الحلى ، وابن الوردى ، وابن ممتوق ،
والصفدى ، ولكن هؤلاء أفراد قسمتهم الأعصر فلم يستطيعوا إنهاض اللغة
الشكل وقد كُتبت يديها الجلود للمواثر ، فأُحمت من المهدل وخراسان وفارس وال عراق
وبلاد الروم والأندلس ، وبقيت في مصر والشام وبلاد العرب بقاء المريض قد
رُتقت عليه المنية ولم يبق فيه إلا القمام .

ولقد كان أسلوهم في الشعر والشعر كاسلوب من تقدمهم من متأخري العصر
المباسى ، ولكنهم في الغالب لم يحسنوا التقليد ، ولم يصيبوا الغرض ؛ فنبذوا
في اللفظ ، وتوغلوا في الصنعة ، واستجازوا الخروج عن الإعراب والعبث بالمعنى
إذا حال ذلك دون تورية أو صجعة أو جناس .

فلما أدال الله بنى عثمان من الممالك أصبحت الخلافة عبانية لا عباسية ،
وصارت عاصمة الإسلام القسطنطينية لا القاهرة ، واللغة الرسمية التركية لا العربية^(١)
ففسا في اللغة الدخيل ، وزاحتها العامية والتركية في الدواوين ، وذبت أساليبها
من النظم والنثر ، وتمكن القل من النفوس فخذت القرائح ، ونضب معين العلم ،
واطمأنت السكتب في الخزائن فلم يرعجها إلا اشتغال الأرضة في صفحاتها ،
وضرب الجهل على أبصار الشرقيين قموا ، وفدحتهم أعباء القل فرزحوا ، وطلال

(١) هل أن الأتراك في عهد الأول كانوا يتكلمون اللغة العربية ويتكلمون بها ويضعون
المؤلفات القليلة فيها كالتيروزابادى ، والبركوى المتوفى سنة ٩٨١ هـ وأبى السمود . والفنارى
وملاخسرو ، والنجاشى ، والقبيل ، وخوجه زاده ، وحاجى خليفة ، وطاعه كبرى ، وابن كاله
باشا صاحب مكتتاب التنبية على غلط الجاهل والتنبية .

وكان ملوك العثمانيين أنفسهم يتدرسون العربية وآدابها كما يتدرسون التركية وآدابها :
ومنهم من فرض الشعر العربى ورواه كالسلطان أحمد الأول ، فقد روى له قصيدة بطلماها :
طوى وصول ولا وصول إلى جرح القوادى بصرى لمنه
ومننا : يا حمرى بصرى ولا فى خدع إلى آثار من التسم عليه
ولم تضاف غاية علماء الترك باللغة العربية إلا في عهد السلطان محمود الثانى وابنه السلطان
عبد الحميد الأول حين أحياوا اللغة التركية وفروا بآواردها وبسطوا قواعدا وسورها اللغة
العثمانية (انظر مجلة المجمع العلمى العربى مجلد ٦ جزء ٧ ص ٢١) .

عليهم الأمد فنشام للناس ، وخيم عليهم الظلام ، فلم يستيقظوا إلا بمذامع
تأليبوني على أبواب القاهرة !

أعلام هذه المغازة

أغطشت سماء الأدب العربي في عصر المتول فسميت البصائر وضلت القرائح ،
ومشى الناس في دياجير الجهل حيارى لا يرون مظاهر الحياة حتى يضيئهم شارق
في سماء مصر ، أو يبارق في جو الشام . وذلك لأنهما البلدان اللذان حفظا وجود
الآفة ، ورفعا سقوط الأدب ، وجما شمل العلم ، ولولاهما لانتقطع ما بين الأديين :
التقديم والحديث . وما كان أرواحَ للنفس لو اتسع صدر هذا الكتاب لتراجم
مواطنيَّ وجيرتي ! ولكن البحث محدود والقلم موجز . ومهما يكن من شيء
فلن يفوتنا ذكر أسماؤهم مُعَقَّبَةً بأسماء معاصريهم في العراق ولبنان ،
اعترافاً لهذه النفوس الكبيرة المطفئة بالإحسان والفضل .

فن النابغين في الشعر والأدب التلعفري ، ولد بالموصل سنة ٥٩٣هـ واتصل
بالمالك الأشرف موسى ، ثم هلك سنة ٦٧٥هـ فربة قتيار . والشاب الظريف ،
ولد بمصر وتوفي بها قض الإهاب سنة ٦٨٨هـ والبوصيري صاحب البردة
في مدح الرسول ، ولد وتوفي بمصر سنة ٦٩٠هـ ، وابن نباتة المصري المتوفى
سنة ٧٦٨هـ وابن حجة المحوى زعيم الأدباء في عصره وصاحب خزانة الأدب ،
توفي سنة ٨٢٧هـ ، والتلقه شدي المصري جامع صبيح الأعشى المتوفى سنة ٨٨٢هـ ،
ثم صفى الدين الحلبي المتوفى سنة ٨٧٠هـ ، وابن ممتوق المتوفى سنة ١٠٨٧هـ .
وشمرهم منقل بقيود الصنعة ، محصور في دائرة التقليد ، تنلب فيه مظاهر
الضعف الضلعي كالجبين والملق والشكوى والإغراق والفتحة . إلا أن في بعضه
أفارة من الحسن وبقية من البيان . والنابغون في الآفة وعلومها ابن مالك صاحب
الآلفية المتوفى سنة ٦٧٣هـ ، وجمال الدين بن منظور صاحب لسان العرب المتوفى
سنة ٧١٩هـ وجمال الدين بن هشام صاحب المنى في النعم المتوفى سنة ٧٦٩هـ

والفيروز ابادى صاحب القاموس المتوفى سنة ٨١٧ هـ . وهؤلاء قد بسطوا قواعد
 اللغة واستوعبوا مواردها في الكتب والمعاجم . ونوابغ التاريخ والجنرافية ؛
 ابن أبي أصيبعة صاحب صيون الأنباء في طبقات الأطباء المتوفى سنة ٦٦٨ هـ ،
 وابن خلكان صاحب وفيات الأعيان للمتوفى سنة ٦٨١ هـ ، وأبو الفداء
 المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ، وشمس الدين الذهبي صاحب تاريخ الإسلام المتوفى سنة
 ٧٤٨ هـ ، والمقريزي صاحب . كتاب المواظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ؛
 المتوفى سنة ٨٤٥ هـ ، ثم ابن الطقطقي صاحب الفخرى المتوفى سنة ٧٠١ هـ ،
 وابن خلدون منشئ المقدمة المتوفى سنة ٨٠٨ هـ ، ولسان الدين بن الخطيب .
 المتوفى سنة ٧٧٦ هـ ، والمقري صاحب نفع الطيب المتوفى سنة ٩٠٤ هـ ،
 وطريقهم في التاريخ أميل إلى استيعاب الحوادث ، واستنباط السير ، والحكم
 بشئ من النقد ، والخطوض في بعض مسائل العلم والاجتماع . فكانوا بذلك
 خيراً من أسلافهم وأدنى منهم إلى مهج التاريخ القويم .

ونبع من العلماء أصحاب الأسفار العامة : النويرى صاحب نهاية الأرب
 في فنون الأدب المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ، وابن فضل الله العمري صاحب مسالك
 الأبصار المتوفى سنة ٧٤٨ هـ ، وجلال الدين السيوطي صاحب المؤلفات الجليلة
 المتوفى سنة ٦١١ هـ ، وكال الدين الدميري صاحب حياة الحيوان المتوفى سنة ٨٠٨ هـ .
 وهم أصحاب الفضل جميعاً في ضم شئ من العلم والأدب في أسفار أشبه بدوائر
 المعارف الحديثة . فأنت ترى أن الله جل شأنه لم يشأ أن يصيب لغة كتابه بالعم
 حين ألحقت عليها أرواء الدهر ، وتضوتها أعراض الهرم ، حفظاً لكتابه
 وصوناً لدينه . فكانت تنجب حيناً بعد حين علماً من أولئك الأعلام يحده
 منها ما اندرس ، ورأب فيها ما انصدع ، ويقفها من يد البلى والفساد .

نجوم سماء كلاً اقض كوكب بدا كوكب تأوى إليه كواكب
 وهانم أولاء ترجم بذوى الأثر البارز منهم واقفين الآن حد ذلك

صفي الدين الحلبي

٦٧٧ - ٧٥٠ هـ

نشأته وحياته

ولد صفي الدين أبو البركات عبد العزيز بن سرايا بالحلة في العراق وبها نشأ وتأدب . ثم دعاه اضطراب السلم واختلال الأمن إلى الهجرة إلى ماردين بالجزيرة ليلوذ بحمي للوك من آل أرتق (٦٦٣ - ٧١٢) ؛ فخلوا عقدة الخوف عن قلبه ، ونزل منهم في جناب مريع ، فقدمهم بقمع وعشرين قصيدة كل منها تسعة وعشرون بيتاً ، يبدأ كل بيت بحرف من حروف المعاء ويختم به ؛ وسماها (درر البحور في مدائح الملك للنصور) وهي للمروفة بالآرتقيات ، وفي سنة ٧٧٧ هـ ورد مصر فقتل بين يدي الملك الناصر بن قلاوون ومذحه خلاً يديه بمواثره ؛ وانقلب إلى ماردين ثم ذهب إلى بغداد فتوفي بها .

شعره

لا خلاف في أن صفي الدين زعيم الشعراء في عصره . ولا تزال في شعره بكة من فصاحة اللفظ وبقية من رشاقة الأسلوب . افتتن في الصنعة ما شاء ، وأجاد في القصائد الطوال وللقطوعات واللوشحات والأزجال ، وغال في المجون والأحماض ، ودخل في أحد عشر باباً من أبواب الشعر وعقد عليها ديوانه . واخترع في النظم أنواعاً ، منها اللوشح المضمن كقولهِ في تضمين بائية أبي نواس :
وحق الموى ما حلت يوماً عن الموى ولكن نجى في الحبة قد هوى
ومن كنت أرجو وصله قتل نوى وأضنى فؤادي بالقطيعة والدى

ليس في الموى عجب إن أصابني نصب
(حامل الموى تيب يستخفه الطرب)

فوزج من سمره

قال في الحاسة :

سل الرماح العوالي عن ممالينا
وسائل العرب والأراك ما فلت
لما سمينا فإ رقت عزائنا
يا يومَ وقعة زوراء العراق وقد
يُغمر ما ربطناها مسومة
وفتية إن قلّ أصنوا مسامهم
قوم إذا استخصموا كانوا فراعنة
تدرعوا القلّ جلباباً فإن حيت
إذا ادعوا جاءت الدنيا مصدقة
إنا لقوم أيت أخلاقنا شرفاً
بيض صنائنا ، سود وقائنا ،
لا يظهر العجز منا دون نيل مئى

وسائل البيض هل خاب الرجافينا .
في أرض قبر عبيد الله أيدينا
عما زوم ولا خابت مساعينا
دنيا الأعدى كما كانوا يدبونا
إلا لنفزو بها من بات ينزونا
قولنا أو دعوانا أجابونا
يوماً وإن حكوا كانوا موازيننا
نار الوغى خلتهم فيها مجانينا
وإن دعوا قالت الأيام آمينا
أن نبشى بالأذى من ليس يؤذينا
خضر مرابعنا ، حرّ مواضعنا
ولو رأينا للنالا في أمانينا

ابن منظور

٦٣٠ — ٥٧١٤

نشأته ومبائه

ولد جمال الدين محمد بن المكرم بالقاهرة في يوم الإثنين الثاني والعشرين من شهر
الحرم سنة ٦٣٠ هـ في بيت من بيوت العلم ، ودرس على شيوخ عصره كعبد الرحمن

أبي العليل ومضى بن حاتم وابن المقبر حتى نال من العلوم والأدب قطعاً
موفوراً جملة أهلاً للعمل في ديوان الإنشاء : والعمل في هذا الديوان يومئذ يقتضى
مشاركة في علوم وفنون كثيرة فصلها صاحب صبح الأعشى . ثم ولى قضاء
طرابلس الغرب حيناً من الدهر وهو فى أثناء ذلك لا يفتقر عن الدرس والتأليف
حتى انتقل إلى جوار ربه وله خمسمائة مجلد من تأليفه :

وكان ابن منظور صاحب جدو خلق وإرادة . وقد كان يتشيع فى غير رفض كما
يظهر من أسلوبه فى لسان العرب كما عرض ما يتصل بذلك . وقد توفى بالقاهرة .

مؤلفاته

لم يكن ابن منظور من أولى الاقتدار على الابتكار ، وإنما كان كجثة العلماء
فى عصره أميل إلى الجمع أو الاختصار . وقد قال الصفدى صلاح الدين :
« ما أعرف من كتب الأدب شيئاً إلا وقد اختصره جمال الدين بن الكرم » .
فمن مؤلفاته :

لسانه العرب

وهو ذلك المعجم الجامع الذى سوى بين دفتيه تهذيب الأزهري ومحكم
ابن سيده وصحاح الجوهري وجمهرة ابن دريد ونهاية ابن الأثير . وقد رتبته
للتوفى على أواخر الكلمات ونسقه تنسيقاً بديعاً لتسهيل الاستفادة منه . وتحرى
صحة النقل فى مادة اللفظ بالمحافظة على نصوص الرواة الأولين وتأنيدها بالشواهد
الصحيحة من القرآن والحديث والأمثال والشعر .

وقد ذكر مترجموه ومنهم الصفدى أن النسخة الأولى التى صكتها بخطه
الجميل من لسان العرب كانت فى ملك للقر الأشرف السكالى ناظر ديوان
الإنشاء بمصر ، وهى مجزأة إلى سبعة وعشرين جزءاً . ولكنها طبعست فى مصر
فى عشرين مجلداً سنة ١٣٠٠ هـ .

ومنها (كتاب سرور النفس بمدارك الحواس الخمس) وموضوعه كل ما يقع عليه الحس كالليل والنهار وأوصافهما ، والاصطباح ومدحه ، والملال وظهوره ، وانبلاج الفجر ، ورقة النسيم وقت السحر ، وتفريد الطيور على الشجر ، والشمس والكواكب وآراء النجمين وأهل الفلك الخ . . . وله غير ذلك طائفة من الكتب بين تهذيب واختصار كاختار الأغاني في الأخبار والتهاني . وهو يطبع اليوم في المطبع المصرية لتأليف والترجمة بتحقيق بعض الأدباء ، ومختصر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، ومختصر مفردات الجوهان للجاحظ ، ومختصر الينبية للنمالي ، ولطائف الذخيرة لابن بسام .

وقد كان يعاطى الشعر ويحمده ، ومن ذلك قوله :

ضع كتابي إذا أتاك على الأثر ض وقلبه في يديك لسانا
فلى خشمه وفي جانبيه قبل قد وضعتن توأما
كان قصدي بها مباشرة الأثر ض وكفيك بالتثاني إذا ما . .
وقوله :

بأنه إن جرت بوادي الأراك وقيل أغصانه الغضر فاك
فأبث إلى الملوك من بعضه فأنى والله مالى (سواك)
أبو الفداء

٦٧٢ — ٧٣٢ هـ

شأنه وحياته

هو الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن علي الأيوبي صاحب حماة . ولد بدمشق على عهد السراوة والفضل ورعي في حجر الرخاء والنسمة ، واستكمل حفظه من العلوم وتفوق في التاريخ والمهنة . وكان بطلامقداما . خدم الملك الناصر ابن قلاوون وهو بالكرك وساعده على محاربة التتار فوعده بحماة ووفى بوعده ،

خاقامه عليها سلطاناً مطلق الإدارة حرّ التصرف ، ولقبه بالملك الزّويد وأقدمه إلى مصر وأرّكبه بشمار السلطنة ، فشى الأمراء والكبراء في خدمته . وكان أبو القداء تحمل إليه في كل عام أفخر الهدايا من الخليل والرقيق والجواهر . وعاش ما عاش نصيراً للمضفاء ، ظهيراً للحماء ، ولوعا بالتأليف ، حتى استغفار له الله ما عنده .

مؤلفاته

لأبي النداء كتابان في التاريخ وتقسيم البلدان هما مرجع العرب والفرنج في تحقيق هذين العلمين . فالأول كتاب (المختصر في أخبار البشر) وهو تاريخ عام للأمم العربية يبلغ بها إلى سنة ٢٧٩ ، وقد تلخصه من عشرين كتاباً وثيقاً وحذا فيه حذو ابن الأثير في ترتيبه على السنين . ونحوى في نقل الحوادث الصدق والنقد . والآخر كتاب (تقويم البلدان) جمع فيه خلاصة ما كتب الأقدمون في الجغرافية والفلك ، وضبط الأسماء ، وحقق الأطوال والأعراض ، وعنى على الخصوص بوصف مصر وسورية وبلاد العرب وپارس . وقد اهتم به الفرنج فترجموه واعتمدوا عليه في الوقوف على الجغرافية العربية .

أبن خلدون

٧٢٣ — ٨٠٨ هـ

شأته وحياته

هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد المشهور بابن خلدون ؛ ينتهى نسبه إلى وائل من أقبال كندة . هاجر جده التاسع خلدون إلى الأندلس في أواخر القرن الثالث للهجرة وأقامت عشيرته في أشبيلية . ثم انتقلت إلى تونس حين الجلاء حيث ولد هذا العالم الكبير سنة ٨٧٣ هـ ودرج في مهذ السرواة والعلم ، وتأديب على أبيه ثم على غيره ؛ فجوّد القرآن وضرب في كل العلوم بسهم . وبرع في الفقه والعربية

وتبعه في التاريخ فاستعمل غوامضه واستقصى مباحثه ، حتى أصبح فيه قريح دهره ونسيج وحده . وطبعت نفسه في طفولته إلى خدمة السلاطين فالتصّل بكثير من ملوك الأندلس والمغرب ، وتقلد الكتابة والحجابة والقضاء ؛ إلا أنه كان قليل المسك في كل منصب تقلده لئزّة نفسه ومراحة قلبه وكثرة حساده .

فلما كانت سنة ٧٦٤ وفد على الأندلس فاهتزله الفنى بالله صاحب غرناطة وبثت اصته لاستقباله وإكرام وفادته ، وألزمه مجلسه وانفرد به دون وزيره . فحقد عليه هذا حقداً عرفه ابن خلدون ، فنادر الملك والوزير وشأنهما وعاد إلى وطنه . ثم أخذ يحول في الأرض ويطوف في البلاد حتى بلغ مصر سنة ٧٨٤م فقام بالتدريس في الجامع الأزهر واتصل بالسلطان برقوق فصرف حقه وولاه على منع منه قضاء المالكية ، فأقام للمدلة ، وحكم المنصفة ، وضرب على أيدي القضاء . فثار به تأرّم . واختلفوا عليه الأكافيب ورفضوا شكولهم إلى السلطان فلم يقم لكلامهم وزناً . ولكن ابن خلدون سمّ هذه الحياة المرة . وضجر من تلك المكائد المستمرة . ووافق ذلك غرق أسرته وهي قادمة إليه من تونس ، فالت منه هذه الحقة ، فاستغنى من القضاء وأدى فريضة الحج واهتزل في ضيعة له بالقيوم أنقطه السلطان إليها ، وانصرف إلى التدريس والتأليف . ثم عاد ثانية إلى القضاء ومعالجة المفاوئز ، فازال يولى ويعزل ، ويعصر ويخذل ، حتى وافاه أجله بمصر سنة ٨٠٨ هـ .

أخوه

قال فيه لسان الدين بن الخطيب : كان رجلاً قاضياً ، حسن الخلق ، جم الفضائل ، ظاهر الحياء ، وقور المجلس ، خاص الزى ، عزوفاً عن الضيم ، صعب المفاة ، خاطباً للحظ ، متقدماً في فنون عقلية وقلبية ، شديد البحث ، كثير الحفظ ، بارع الخط ، مُفرّجاً بالتجعة ، حسن المشرة ، إلى غير ذلك من الأوصاف التي تصدقها آراؤه وآثاره .

شهره وشعره

ظهر ابن خلدون في عصر كسدت فيه العلوم ودرست الآداب وأزهقت الصبائر روح الكتابة ، فهداه طبعه إلى الرجوع بالإنشاء إلى عهده والوقوف به عند حده . فرغب عن السجع وزهد في البديع وسار باللفظ وراء المعنى . وقد صرح بذلك في كلامه عن كتابته لأبي سالم أحد ملوك الأندلس إذ يقول : « وكان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل بدون أن يشاركني أحد من يتفضل بالكتابة في الأسجاع لضعف اتصافها ، وخفاء المعاني فيها على أكثر الناس بخلاف المرسل فانفردت به يومئذ ، وكان مستغرباً عند من هم من أهل هذه الصناعة . ثم أخذت نفسي بالشعر فانتالت على " منه محور ، توسلت بين الإجادة والقصور » وحكمه على نفسه من الحق والمراحة بحيث لا يحتاج إلى تعليق ولا تنقيب .

كتابته في التاريخ

نظر ابن خلدون في التاريخ نظرة مباحته ، وعلى حوائده ، ووضع كتابه المشهور (بالمعبر وديوان اللبث والخبير) وهو ثلاثة كتب في سبعة مجلدات يمتاز بما تضمنته من للخدمات الفلسفية في صدور الفصول عند الانتقال من دولة إلى دولة ، والمصراحة في القول ، والصدق في الرأي ، والإنصاف في الحكم .

على أن فضل الرجل وشهرته إنما هما بالكتاب الأول من هذا التاريخ وهو المعروف بالمقدمة . لاشتهاره على أبحاث مبتدعة متنوعة في الاجتماع والاقتصاد وفلسفة التاريخ ، واستنباط الأسباب والملل مما طالمه أو شاهده في حياته العظيمة ورحلاته المديدة . وتنقسم هذه المقدمة إلى ستة فصول : الأول في النشوء والارتقاء ، والثاني في الاجتماع ، والثالث في السياسة العملية ، والرابع في الهندسة الحربية ، والخامس في الاقتصاد السياسي ، والسادس في تاريخ آداب اللغة العربية ، فهي خزانة علم وأدب فضلاً عن أسلوبها الرشيق المنسق .

والراجح أن ابن خلدون أول إنسان استنبط فلسفة التاريخ وسماها طيعة
المران في الخليفة . وقد فصل في مقدمته واستشهد على كل ما كتب بالحوادث
التاريخية الصحيحة ، بمادل على سداد رأيه وصدق نظره وانفساح ذرعه
في الاستنباط والتحليل . على أن العلماء أخذوا عليه إخلاله بالقواعد التي وضعها
لكتابة التاريخ ، ولم يسلم من المآخذ التي أخذها على سابقيه . وسبعان
من تفرذ بالكمال !

السيدة عائشة الباعونية

المتوفا سنة ٩٢٢ هـ

نشأها ومبناها

هي السيدة الفاضلة الناصحة عائشة بنت يوسف بن أحمد الباعوني ، ولدت
بالصالحية بدمشق في بيت عريق في العلم والورع ، فقد كان أبوها وعمها وولدها
وأخوها من نوابغ العلماء في الفقه والحديث والتصوف والتاريخ والأدب ، فهلت
من حياضهم ، وجفت من رياضهم ، ثم تلقت الفقه والنحو والمروء على طائفة
من شيوخ عصرها كجمال الحق والدين إسماعيل الحوراني ، وعجي الدين الأرموي
ووردت بعد ذلك مصر فلهذت للعلامة أبي العباس القسطلاني شارح البخاري .
ثم عككت على التدريس والتأليف فانتفع بملها وفضلها خلق كثير . ثم انتقلت
إلى الدار الباقية بعد ما خلفت من الآثار كتاب الفتح المبين ، في مدح الأمن ،
وهو شرح لقصيدتها التي نظمها في علم البديع على منوال ابن حجة الحموي ، وكتاب
فيض الفضل ، وهو ديوان شعر في الدلائل النبوية ، وللورد الأهنى في المولد
الأسنى ، وهو قصيدة مؤند النبي صلى الله عليه وسلم اشتغل على رقائق الدرر والنظم .

منزلها في السمر والكتابة

يشير عاطفة الإعجاب في الرء أن يرى في هذا الصبر المظلم امرأة كالباغونية
تَبْدُ الرجال في العلم والأدب . ولا يحميها أن تكلف بالسجع ، وتتكلف البديع
وتُفَرِّق باللفظ ، وتقتصر إلهامها على الدائع النبوية فإن المرء صنع بيته . والشعر
الحق مرآة صاحبه وصورة قلبه . وقد علمنا كيف نشبت الشعراء في هذه العصور
بالصناعة اللفظية ، وانصرفوا إلى الماني الدينية ، فلا بدع إذا تخلفت هي بأخلاق
عصرها ، ونهجت حبيبه في نثرها وشعرها .

ممدوح منه كلامها

قالت في مقدمة شرح القديسية :

وبعد فهذه قصيدة صادرة عن ذات قناع ، شاهدة بسلامة الطباع ، مقبضة
بحسن البيان ، مبنية على أساس تقوى من الله ورضوان ، سافرة عن وجوه
البديع ، سامية بمدح الحبيب الشفيق ، مطلقة من قيود تسمية الأنواع ، مشرقة
الطوالع في أفق الإبداع ، موسومة بين القصائد النبويات ، بمقتضى الإلهام
الذي هو عمدة أهل الإشارات ، بالفتح المبين ، في مدح الأمين .

ومطلع هذه القصيدة :

في حسن مطلع أقدار بذى سلم	أصبحت في زمر العشاق كالعلم
أقول والسمع جارٍ جارحٌ مقل	والجارُ جارٍ بطل فيه متهم
ومنها في الجناس :	

يا سمدُ إن أبصرت هناك كاعظمه	وجئت سلفاً فسل عن أهلياً القدم
قم أقدار تهر طالعين على	سويلع حبيهم وانزل بحبيهم
ومنها في الاستخدام .	

واستوطنوا السمرنى فهم وموضعهم	ولا أبوح به يوماً لغيرهم
-------------------------------	--------------------------

ومنها في الضريق :

قالوا هو النيث ، قلت النيث آوَة يهي وخيث نداء لا يزال هي

ومنها في حسن الختام :

مدحت مجدك والإخلاص ملزى فيه وحسن امتداحي فيك مختمى

وقالت في جسر الشريعة لما بناء الظاهر برقوق :

بنى سلطاننا برقوق جسراً بأمر والأنام له مطيحه
مجاز في الحقيقة للبرايا وأمر بالمرور على الشريعة
ومن نظمها في وصف دمشق .

نزه الطرف في دمشق قفها كل مانشه هي وما تخار
هي في الأرض جنة فتأمل كيف تجري من تحتها الأنهار
كم سما في ربوعها كل قصر أشرفت من وجوهه الأفتار
وتفافيك بينها صادات خربت عند نطقها الأوتار
كلها روضة وماء زلال وقصور مشيدة ودوار



الباب الخامس

العصر الحديث

الفصل الأول

نظرة عامة

ما زال الزمن الجائر يفتق من أطراف الرقعة العربية حتى قصرها في أواخر
القرن الثامن عشر على العراق العربي والشام وبلاد العرب ومصر والسودان
والغرب : وفي تلك البلاد بقي النفس الأخير من أنفاس اللغة العربية يتردد
في وئاد وضئف ، حتى أخذ الله للشمس الحضارة أن تشرق ثانية على ربوع النيل ،
فأرفض عنها الوهن وسرت فيها الحياة ؛ ففي مصر كان ملاذها وغياها ، وفي مصر
كان بقاؤها وانبساطها !

كانت مصر في ذلك العهد تحت سلطان المماليك ، ونحت سيطرة
المماليك فعلا ، وكانت الأهواء المختلفة ، واققوى المتضاربة ، والأجناس المتباينة ،
تنخر في هيكل هذه الأمة البائسة ، فكان عددها لا يبلغ ثلاثة ملايين فشت
فيهم الأمية . واستولى عليهم الجهل وألعت عليهم الأوباء والسنون . واستغلهم
الظلم واستهدم الحكام . ووقفوا عن السير بأنفسهم ، وتمرك الفلك ، فنزاهم
على هذه الحال الأليمة نابليون .

غزا نابليون مصر سنة ١٧٩٨م ، وليس من شأننا أن نعرض لهذه الغزوة إلا
من جهة الأدبية فإن الجماعة المملكية التي سميت هذا التأييد العفا لم تدهم العلاقات

والعرب عن غرس بنور الحضارة في مصر ، فأنشأوا مدرستين وجريدتين^(١) ومسرحاً للتمثيل ، ومجماً علمياً^(٢) ، ومكتبة ، ومطبعة ، وسامل كيميائية ومراصد فلسكية ، وسهلوا للناس النظر فيها ، والوقوف عليها . فكان صانع هذه الجماعة أشبه بالقبس الرضاء مطع في ذلك الفمب الذى احللك في سماء مصر فيدده واستطاع الناس أن ينظروا ، ولكن ماذا رأوا ؟ رأوا أنهم في القرن التاسع عشر ، وأن الغرب واقف منهم موقف الإنسان الماقل من الحيوان الأعجم يرميهم بنفترات السخرية وهو دائب في سبيل الحياة الصحيحة ، مجذ في تذليل المادة ، فيتها ودشوا .

ولكن محمد على رأس الأسرة الخديوية لم يدش ، بل علم أن ما في الغرب من حضارة وحرارة إنما أساسه العلم . وأ كبر ما تركه القرنسيون بمصر من الآثار الصالحة والأبحاث النافذة على اضطراب حالهم وقصر احتلالهم . وكان في نفسه الطموح إلى الملك ، والاستعداد بحكم مصر والاستعداد له . فأخذ في تعليم المصريين وقد عز فيهم القارىء ، فأنشأ المدارس المختلفة الدرجات والغايات في اللدائن والقرى وساق الناس إليها قسراً . واستقدم طائفة من علماء فرنسا للتدريس والتأليف . كالككتور كلوت بك مؤسس المدرسة الطبية ، وجوماريك مدير البعثة المصرية . وبث بمن أنجبت تلك المدارس إلى فرنسا سنة ١٨٢٦ ليستفيدوا ويستز يلوا . فلما عاد أولئك الطلبة وكانوا أربعة وأربعين أخذوا

(١) الجريدتان هما (الأفعور المصرى) *La Décade Egyptienne* وبميت بذلك لأنها كانت تصدر كل أسبوع ، والأسبوع في اصطلاح التنويم الجمهورى الفرنسى كان عشرة أيام ، ثم ربد مصر *Le Courier d'Egypte* وقد كانوا ينشرون بالبرية (الخفيه) لإذاعة المهم مما يجرى في ديوان القضاء .

(٢) أنشأ جوتابارت «المجمع البحرى المصرى» في السنة التى دخل فيها مصر بمنزل حسن جرس في الدرب الجديد يسمى الناصرية ؛ وألفه من ثمانية وأربعين عضواً . وبهم إلهاميات وروبيج الثانى لطيبيات . والربع الثالث للاقتصاد السياسى ، والربع الرابع للأداب . وجعل رياسته للاستاذ منج ووكالته لتأليفون نفسه . وقد قام هذا المجمع بأبحاث قيمة كان ينشرها كل ثلاثة أشهر ، ثم أغلق هذا المجمع بخروج الجيش الفرنسى من مصر . وسنة ١٨٥٩ فكر جماعة من جالية الفرنسيين أن يبيدوه فأعادوه ، ولا يزال فلما يحيى النعمة بالعامرة .

في الترجمة والتعليم . ثم نالت البحوث بعد هؤلاء إلى أوروبا وكلمهم من الأزهر الشريف . وتلك يد أخرى لهذا للعهد الجليل على الألفه ساعدتها اليوم على النهوض كما حاما من قبل دون السقوط . وفتحت في القاهرة مدرسة الألسن ودار الترجمة ، وأقيمت المطبعة المصرية على أفاض المطبعة الأهلية التي جاء بها الفرنسيون إلى مصر وذهبت بذهاهم . وأنشئت الوقائع المصرية وهي أول صحيفة عربية في الشرق ، فكان ذلك كله وقوداً جزلاً للقبس الذي ألقاه نابليون بمصر ونفخ فيه محمد علي فذكا واشتمل وامتد لهيبه إلى الشام وإلى بلاد العرب فأيقظ النيام وبدد الظلام . وحذا الأمير بشير الشهابي في لبنان حذو محمد علي في مصر ، وأعانته على ذلك دعاة النصرانية من الأمريكيان والفرنسيين بإنشائهم المدارس والمطابع ، وتأليفهم الكتب ، وإصدارهم المجلات ، وتعليمهم التمثيل ، واعتمادهم في كل أولئك على اللغة العربية ، حتى تخرج في معاهدهم صفوة الكتاب والشراء والمترجمين والصحفيين من أهل لبنان ، فكانت القطاران على إحياء اللغة والعلم ، فترجت الكتب العلمية ، ونشرت المؤلفات العربية ، ودب في اللغة ديب الحياة ؛ إلا أن آدابها وعلومها لم تزل في يد العفاء ؛ لأن عمداً عالياً كان مصروف العلم إلى ما يُعزّزه ، كالعلوم الحربية والطبية والصناعية والرياضية ، قائماً من كتابه وعماله باللسان العامي ، والأسلوب الاصطلاحي . فكانت لغة الدواوين في عهده وعهد أخلافه خليطاً مبهماً معجماً من التركية والعربية . على أن اللغة المصرية لم تدم في ذلك العصر أنصاراً . فقد كان لها من أمثال الشيخ حسن المطار ، وبطرس كرامة ، والسيد علي الفرويش ، ورفاعة بك الطمطاوي ، من حفظة أكيانها وجددوا بياها . وأخذت هذه النهضة المباركة تنمو زويداً حتى ولى الأمر عباس ثم سعيد ، فخبأ أوارها ، ووقف تيارها ، لرغبة هذين الأميرين عن العلم والتعليم .

فلما جلس إسماعيل على أريكة الخديوية سنة ١٨٦٣ م فتح ما أغلق من
المعاهد وزاد عليها . فأنشأ المدارس للعلوم والمهندسة والطب والحرب ، وعاد إلى
إرسال البعث إلى أوروبا ، وأسس نظارة المعارف وعهد إليها أمر التعليم ، وأنشأ
المكتبة الخديوية ، وبنى مدرسة المعلمين ، وبسط يده للمؤلفين ، ونشر أوعية
المدنية والسكنية على ربوع البلاد ، ففرح إليها الأجانب للكسب والتجارة ،
وفيهم العلماء والأدباء ؛ فكان اختلاط هؤلاء المصريين ، وكثرة للطابع ،
ووفرة المدارس ، وانتشار الصحافة ، واقتباس التمثيل ، وترجمة العلوم ، والأندية
الأدبية ، والجامع العلمية ، وتعلم اللغات الأجنبية ، وهزل الحضارة الأوروبية ،
والحرية الشخصية ، كان كل أولئك سبباً في خصب القرائح ، وسعة المدارك ،
ونهوض اللغة ، وحياة الأدب .

ثم دهانا الاحتلال الإنجليزي سنة ١٨٨٢ م وكل شيء يتحضر للنهوض
ويتوئب إلى الرق ، فكأنما أقيمت ماء على نار ، أو أقت سداً في تيار . كانت
الحركة العلمية في أواخر عهد إسماعيل واسعة النطاق ، والمدارس وافرة العدد ،
واللغة العربية لسان التعليم ولنة التأليف ، فأخذ الإنجليز منذ اغتصبوا السلطان
يقطعون أسباب النهضة ، ويسيروا بالتعليم إلى وجهة أخرى . فأغفلوا البحوث ،
وأغلقوا مدرسة الألسن ، وأبطلوا المجانية ، وأحلموا اللغة العربية ، وجعلوا التعليم
كلمة بالإنجليزية ، وقصروه على تخريج عمال للحكومة لا إعداد رجال للشعب .
ولكن الأمة المصرية قد استطاعت أن تقف على رجلها ، وأن تمسح عينها
بيليها ، فلم ترض التسكوس والمالم يتقدم . فهب رجالها يطلبون سيادة لنتهم
في بلادهم ، ويقومون هم بتعليم أولادهم ، فمادت اللغة إلى المدارس ، ورجت
البعوث إلى أوروبا ، وكثرت المدارس الأهلية والأميرية . وشبت ثورة الاستقلال
في وجه الاحتلال سنة ١٩١٩ م وردد العالم العربي صداها ، فأبقت ما بقي من
شعور خامد ، ودفت النفوس الخائنة إلى طلب الحرية في الحكم ، والرأى ،

والقول ، والعقيدة حتى ظفرت مصر من ذلك بقسط موفور في دستورها القى
نافته سنة ١٩٢٣ م.

ثم تابعت الجهاد في سبيل حريتها واستقلالها حتى نالت قسطاً آخر بمهاجمة
سنة ١٩٣٦ . ولما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها في عام ١٩٤٥ طلبت مصر
من إنجلترا تغيير هذه المعاهدة فجرت بين الحكومتين المصرية والإنجليزية أحداث
طويلة لم تؤد إلى اتفاق ، لأن مصر أرادت أن تبنى المعاهدة الجديدة على أساسين
من وحدة مصر والسودان تحت التاج المصري ، وجلاء الجيش الإنجليزي عن
وادي النيل . وعارضت إنجلترا في الأساس الأول فالتجأت مصر إلى هيئة الأمم
المتحدة وغازتها دول الجامعة العربية . فلما عرضت قضيتها على مجلس الأمن
بأمريكا ، وتولى عرضها رئيس حكومتها ، وكان يومئذ المنفور له محمود فهمي
النقراشي ، قطع لسان الباطل بالحق ، وفند دعاوى الإنجليز بالحجج الدامغة ؛
ولكن مصانة الدول لسياسة الاستعمار على القضية فلم يفصل فيها حتى شبت ثورة
الجيش المصري بقيادة الضباط الأحرار في ٢٣ يوليو من سنة ١٩٥٢ فصصفت بالفساد
والاستبداد ، وطهرت البلاد من فجور الملك وشرور الحكم وطمعان النفي فظردت
ظارواً ثم أعلنت الجمهورية وحددت الملكية واضطرت الإنجليز إلى الجلاء عن
القناة بعد أن اتفقت الدولتان على أن يقرر السودان مصيره بنفسه فيما أن يستقل
بأمره وإما أن يتحد مع مصر ، وقد اختار الاستقلال وأعلن الجمهورية .

وفي شهر فبراير من عام ١٩٥٨ اندمجت مصر وسورية في وحدة تامة باسم
الجمهورية العربية المتحدة لم يقدر لها أن تعيش طويلاً . ثم انتهت ثورة الجزائر على
فرنسا بالاستقلال والجمهورية . وكذلك استقل لبنان وطبق على شعبه النظام
الجمهوري . وفي الرابع عشر من يوليو من سنة ١٩٥٨ ثار العراق على الملكية
وأعلن الجمهورية . ولا تزال فلسطين وجنوب الجزيرة العربية يتطلبون النجاة
من هذه السبيل ، ويتقربون الإصباح بعد الليل المظلم الطويل :

الفصل الثاني

وسائل النهضة الحديثة

كان من آثار الاحتلال الفرنسى ، وزعة الاستقلال عند محمد على ، أن أشرقت من جانب الغرب ومضات من نور المعرفة في آفاق مصر ولبنان فهبت البلاد تسير على ضوئها وتعمل على هداها - تلك الومضات هي الوسائل التي تفرع بها رأس الأسرة تملوية ووراثه على عرش مصر إلى ترقية الجيش وتنشئة الحكومة وتربية الشعب من طريق غير مباشر ، وأهم تلك الوسائل :

١- المدارس

لم يجد محمد على قياً يُعلِّم يومئذياً لأزهر من علوم الدين واللسان بغيته من علوم الحرب والطب والرياضة ، فأنشأ للدارس العلمية المختلفة وقسمها إلى ابتدائية وتجريبية وخاصة ، ووصل إليها وبين أوروبا بجلب العلماء منها وبث البعث إليها . فلما تعددت درجاتها وتنوعت أغراضها أنشأ لها إدارة خاصة في سنة ١٨٣٩ سميت ديوان المدارس كانت رياسته الأولى لمصطفى مختار بك من رجال النهضة العلمية الأولى . ومن أقوى المدارس الخاصة أنشأ في النهضة العلمية والأدبية مدرسة الطب ومدرسة الآلسن ومدرسة دارالعلوم . فأما مدرسة الطب فقد أنشئت لخدمة الجيش سنة ١٨٣٦ في أبي زعبل وأقيم بجانبها مستشفى لتدريب الطلاب ومعالجة المرضى . استقدم أساتبتهم من فرنسا برئاسة الدكتور كلوت بك ، واختير طلبتهم من المصريين وغيرهم . ثم نقلت في سنة ١٨٣٨ إلى قصر ابن الصبى بالقاهرة . وإلى هذه المدرسة يرجع أكثر الفضل في إحياء اللغة العربية ووصلها بالثقافة الحديثة ؛ لأن الأساتذة كانوا يقرنون دروسهم اللغة الفرنسية ثم تؤدي في الوقت نفسه إلى الطلاب باللغة

العربية ، وكان ذلك يضطر المترجمين من الفارسية والبنانيين والأرمن إلى البحث عن المصطلحات في المعجمات القروية والكتب الفنية القديمة .

وأما مدرسة الألسن فقد أنشأها محمد علي لتزجيج المترجمين حين اشتدت الحاجة إليهم في ترجمة الروس إلى الطلاب ، ونقل الكتب الطبية والمسكرية إلى العربية . وجعل إدارتها إلى المرحوم رفاة بك العظمى . حتى إذا خرجت طائفة من أفضل المترجمين تألف منهم قلم لترجمة سنة ١٨٤٢ برعاية رفاة بك اضطلع بترجمة كثير من الكتب العامية الأجنبية في مختلف العلوم الحديثة .

وأما دار العلوم فقد أسسها المرحوم علي مبارك باشا في سنة ١٨٧١ م بأمر الخديو اسماعيل ليتخصص طلابها في العلوم العربية ، ويشاركوا في بعض العلوم الدينية والعقلية ، ويأخذوا بقسط من الثقافة الحديثة ، وليعلموا بعد تخرجهم فيها اللغة والدين في مدارس الحكومة . وكان أساتذتها من نابي شيوخ الأزهر ، وتلاميذها من متقدمي طلابه . ولهذا المدرسة الفضل العظيم والأثر البالغ في ترقية اللغة وإنهاض الأدب وإشاعة الفصحى على ألسنة خريجها وأقلامهم في التعليم والتأليف والكتابة والشعر والخطابة . وقد ظلت مستقلة منذ إنشائها تحمل أمانتها وتؤدي رسالتها حتى ألحقت بجامعة القاهرة سنة ١٩٤٦ وسميت كلية دار العلوم .

٢ - الجامعة الأزهرية

الأزهر أول جامع في القاهرة ، وأقدم مدرسة في مصر ، ومن أعرق الجامعات الكبرى في العالم . بناء جوهر الصقلي بمدينة أخط القاهرة ، لإقامة الشرائع الدينية وتأيد الشيعة الدلوية من طريق الدين . وحشد إليه أساطين الفقه ونوابغ العلم من أقطار الأرض ، وأدر عليهم أخلاف الرزق ، ورفع عنهم أكلاف الحياة ، دون حساب ولا تقرير ، حتى جاء يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله ، وهو يهودي قد أسلم وتفقه ، فرتب لهم الوظائف وابتنى لهم المساكن على مقربة من الجامع . ثم أخذ هؤلاء الفقهاء يقرأون بعد كل صلاة لله الشريعة ، ويأخذون

في سبيل الوعظ ، وبعيداً عن إلى شيء من البحث ، ويشكلمون في مسائل الفقه والنحو ، ويعتقدون فيه مجالس المناظرة ، حتى دالت دولة الفاطميين ، وغلب على مصر زعيم الأيوبيين صلاح الدين سنة ٥٦٧ هـ وهو من أهل السنة فبايع المباسين ، وأحل الفقه الشافعي محل الفقه الشيعي في الأزهر . وقررفيه كذلك فقه أبي حنيفة لأنه مذهب الخلفاء في بغداد . ورأى صلاح الدين أن يؤلف قلوب المسلمين كافة فأجاز تدريس المذاهب الأربعة فيه . وجبر ذلك إلى بسط العلوم الفقهية والأدبية ، والإلمام بالعلوم الرياضية والطبيعية . وزها الأزهر في عهد المماليك بعد سقوط بغداد وانتقال الخلافة والثقافة إلى مصر ، فحفظ الأمن الزوال ، وعلومها من الانحلال ، وظل وحده يرسل أشعة العلم والدين إلى أنحاء العالم الإسلامي ، لا يخرج عالم إلا منه ، ولا ينبغ كاتب ولا شاعر إلا فيه . حتى أدر كته الفقه الشرعية العامة في عهد بفي حثان فتجدد العالم وتقدم العلم وارتقى التعليم وهو جامد على حاله القديم ، فاق على مذهب اللوروث . ومع ذلك قد كان رجالة في صدر العصر الحديث عدة نابايون في تنظيم عمله ، وساعد محمد على في تحقيق أمله ، وموتل الفقه والدين والآداب من عصف الحن وطغيان الجبهة وتقلب الأمية . ولكن مصر هبت من رقادها ، ولم تجد الأزهر كما كان كفواً لقيادتها وإرشادها . فقلت وجهها شطر الغرب تتركع من حياضه . وتغطف من رياضه ، حتى اتسعت مسافة الخلف بين التعليم الجديد والتعليم القديم ، وانتشرت في مصر ثقافتان مختلفتان تناهض إحداها الأخرى . ثقافة قائمة على الكتب القديمة والطرق العقيمة ، وثقافة مبنية على العلم الغربي والتعليم الحديث ؛ فلم يكن بد من إصلاح الأزهر ليشارك في النهضة العامة . بدأت الحكومة الخديوية ذلك في عهد شيخه الشيخ الإناباي سنة ١٣٠٥ هـ فأدخلت فيه بعض العلوم الحديثة بدل لأى ومشقة وقتوى شرعية . ثم تصدى الإمام الكبير محمد عبده لإصلاحه ، فوضع الأساس ، وحال الأزهريون بينه وبين البناء . ولكن السيل جارف والتيار قوى فلم يستطع أهل الوقوف في سبيله ، فالتقوا

السلاح ، وقبول الإصلاح ، ولكن إصلاحه استعصى على الصالحين لأمور سياسية وأخرى دنيوية . فأتروا العافية وفوضوا أمره إلى الزمن .

حتى جاءت ثورة ٢٣ يوليو من سنة ١٩٥٢ فرأى القاطنون بها أن العالم لا يصلح إلا بالدين ، وأن الدين لا يصلح إلا بالأزهر وأن الأزهر متى استكمل أداته التعليم وسائر حاجة العصر ، نهض بالشرق نهضة أعتيلة حرة تنشأ من قواه وتقوم على مزاياه وتتغلغل في أصوله . فأصدروا قانونا جديدا للأزهر جعل الجامع جامعة والدين سبيلا والعلم دليلا والعلماء قادة . ثم أتاحوا له بما أضافوا إلى كليياته الإسلامية والعربية كليات مدنية أخرى للمعاملات والإدارة والمهندسة والزراعة والطب أن يسند بيد الله أيدي العاملين في بناء المجتمع الصالح ، ويشارك بتقوى الله في تفريغ أزمة الضمير ، فيخرج العالم الذي يحمل فقته رسالة ومن بيانه دعوة والطبيب الذي يحمل من عيادته عبادة ومن مرضاه أخوة ، والمهندس الذي يحمل من عمله جهادا ومن خلقه قدوة ، والموظف الذي يؤثر رضا ربه على رضا نفسه في كل نزعة أو نزوة وقد أنشئت لهذه الكليات دور خاصة منفصلة عن الأزهر . ونمت موارده حتى بلغت في العام مئتا ألف من الجنيهات وزاد طلابه حتىنيفوا على عشرين ألف طالب يساعدهم بالمال والسكن ومن بينهم العربي والتركي والسوداني والمصري والإيراني والسعودي والعراقي والمصري والباكستاني والاندونيسي والشركسي والأفغاني وكلهم يتعلمون باللغة العربية ويتفنون بالثقافة الإسلامية ، ولهم لزاما قسمة مدينة على القرب من الأزهر يحذفها الطلاب الأغراب التذام والمأوى .

٣ - الجامعة المصرية

كان من أثر سوء النية الذي بدا من المحتلين في سياسة التعليم بمصر وحصره في دائرة ضيقة من نواحي الثقافة ، وقصره على تخريج الموظفين للحكومة ، أن صحت عزيمة المصريين الأحرار على أن يقوموا هم بتعليم أولادهم ، وأن يقيموا العلم الصحيح وزنا في بلادهم ، فاجتمعت طائفة منهم سنة ١٩٠٦ على إنشاء جامعة

أهلية تقضى حاجة البلاد من التعليم . وأهابوا بأبناء مصر أن يعاونوا ببذل المال على إنجاح هذا السعى الخطير ، فلبى المحسنون النداء وفي طليعتهم الأميرة فاطمة بنت إسماعيل . وفي سنة ١٩٠٨ افتتحت الجامعة المصرية وأسندت رئاسة الشرف فيها إلى الأمير أحمد فؤاد قبل أن يستوى على عرش مصر . فاستقدم إليها طائفة من علماء أوروبا ، واختار لها صفوة من أدباء مصر ، فألقوا على طلبتها من الأزهريين والموظفين محاضرات قيمة في الآداب والفلسفة : وكان من بين العلماء الأوربيين للتشرقون جويدي وتليبو ولتان قهوجوا هماسة الأدب العربي وتاريخه للنهج القويم الواضح .

وفي سنة ١٩٢٥ تولوا وزارة المعارف فشاوت الأبنية المغلقة ، واقتبست لها الأنظمة الأوربية الحديثة ، وضمت إليها كليات الحقوق والطب والهندسة والزراعة والتجارة والصيلة وطب الأسنان ، وكانت من قبل ذلك إنما تتألف من كلية العلوم وكلية الآداب ، ثم سميت بجامعة القاهرة . ولما اشتدت الرغبة في التعليم وازداد عدد الطلاب أنشئت في الإسكندرية جامعة ثانية سميت بجامعة الإسكندرية وأقيمت في القاهرة جامعة ثانية سميت بجامعة عين شمس . وفي أسيوط جامعة رابعة سميت بجامعة أسيوط . وعما لا ريب فيه أن هذه الجامعات الأربع وجامعة الأزهر وجامعة دمشق قد آتت نمار العلم ، ونشرن أضواء الثقافة ، ووصلن للناس بالحاضر ، وربطن الشرق بالغرب ، وقرن العلم بالعمل ، ووجهن الحضارة العربية الوجهة الصحيحة .

٤ - الطباعة

اخترع الطباعة بالحروف « حنا جومريج » الألماني سنة ١٤٤٠ ، فكان لاختراعه من الأثر في الأدب والحضارة ما كان . وما كادت تشتهر الطباعة بالحروف في أوروبا حتى صيغت منها قوالب اللغات الشرقية . وطبع أول كتاب باللغة العربية سنة ١٥١٤ م وأخذت المطبوعات الشرقية ولاسيما العربية تزداد شيئاً فشيئاً حتى

صدرت عن أكثر العواصم الأوربية . وكان منها المؤلفات الجليلة كالمهدين القديم
والجديد ، وزهرة المشتاق للأدريسي . وقانون ابن حينا ، ونحرر أصول إقليدس .
وما زالت تطبع فيها ناس الكتب المخطوطة إلى الآن . ثم دخلت الطباعة الشرق
عن طريق الآستانة ١٤٩٠ على يد عالم يهودى طبع بها مؤلفات دينية وعلمية ؛
ولسكن الحروف العربية لم تظهر فيها إلا سنة ١٧٠٨ م . ومن أشهر المطابع العربية
في الآستانة « مطبعة الجوائب » لأحد فارس الشدياق ؛ طبع فيها طائفة كبيرة
من عيون الكتب الأدبية . أما في البلاد العربية فكان السبق للبنان في استعمال
المطبعة بفضل دعاء المسيحية ؛ فقد أسس الرهبان اللبنانيون أول مطبعة بيروت في أوائل
القرن السابع عشر . ثم أسست بها المطبعة الكاثوليكية سنة ١٨٤٨ ، ولها الأثر
الجليل والفضل الجزيل في نشر المخطوطات العربية القديمة ، وطبع الكتب
الأدبية والعلمية ، وإتقان فن الطباعة العربية ، ثم تلت مصر لبنان فدخلها الطباعة
على يد نابليون سنة ١٧٩٨ م ، إذ جاء بمطبعة لطبع المنشورات والأوامر بالعربية وسماها
« للطبعة الأهلية » ثم ذهبت معه . وأقام محمد علي على أنقاضها للطبعة الأهلية
(مطبعة بولاق) سنة ١٨٢١ . وعهد بأدارتها إلى نقولا مسابكي السوري ،
وصبت حروفها على أجل قاعدة نسخة من مجموع مختلفة . ثم صبت ثانية على
قاعدة المرحوم جعفر بك كبير الخطاطين في مصر ، وهي السبعة الآن . وقد طبعت
نحو ثلثمائة كتاب في الرياضيات والطب والجراحة مما ترجم عن اللغات
الأجنبية وطبعت أهميات الكتب الأدبية بفضل (القسم الأدبي) الذى فصل
عنها ووصل بدار الكتب للصربية . ومنذ يومئذ اقتصر مطبعة بولاق على
طبع (الوقائع للصربية) والكتب للدرسية والأعمال الحكومية ، وهى الآن
أكبر مطبعة عربية في العالم . ثم انشئت بمد ذلك للطابع في مصر فسهلت
سبل الأدب وأدنت قلوب العلم ، وساعدت على انتشار القراءة .

٥ — الصحافة

الصحف مدارس متجولة في البلدان ، ليست محصورة بين جدران ، ولا يختص

بها مكان دون مكان . وهى أوسع دائرة للإرشاد من كل دوائر التعليم : تهذب عقول العامة ، وترتب أفكار الخاصة ، وتنهض المهتم القاعدة ، وتصلح الألسنة الفاسدة ، وتقرب الأمم المتباعدة . وهى سجل الأخبار ووعاء التاريخ وتقويم الزمن . وأول جريدة عربية بالمعنى الفنى المعروف هى الوقائع المصرية ، أنشأها الأمير محمد على سنة ١٨٢٨ بمعاونة الأستاذ رفاعة بك الطمطاوى ، وكانت تصدر أولاً بالتركية والعربية ، ثم حررت بالعربية وتولى تحريرها نخبة من أفاضل الكتاب كالشيخ حسن المطار ، والشيخ شهاب صاحب سفينة الملك ، والإمام محمد عبده ، والشيخ عيد الكرم سلمان ، وسعد زغلول . ولا تزال تصدر عن القاهرة ، ثلاث مرات فى الأسبوع . ثم ظهر بعد ذلك فى الشام جريدة مرآة الأحوال سنة ١٨٥٥ م وهى سياسية محررها رزق الله حسون الحلبي ؛ وحديقة الأخبار سنة ١٨٥٨ م لصاحبها خليل الخورى ؛ والجوائب فى الآستانة سنة ١٨٦٠ لأحمد فارس الشدياق ؛ وجريدة الرائد التونسى فى تونس سنة ١٨٦١ م : وفى زمن إسماعيل أصدر محمد على باشا البقل (اليسوب) وهى مجلة طبية شهرية بمعاونة الشيخ محمد السوقي وهى أول مجلة عربية ظهرت فى العالم . وفى سنة ١٨٦٦ ظهرت بمصر جريدة سياسية أدبية علمية وهى وادى النيل لأبى السعود أفندى ، كانت تصدر مرتين فى الأسبوع بالقاهرة . وفى سنة ١٨٦٩ أصدر إبراهيم بك اللوىلى ومحمد بك عثمان جلال جريدة (نزهة الأفكار) وكانت أسبوعية شديدة المهجة فأنفأها الخديو إسماعيل . وفى سنة ١٨٧٠ م صدرت مجلة روضة المدارس المصرية وهى مجلة علمية أدبية محررها نخبة من ذوى المسكنة فى العلم والأدب . ثم صدرت الأهرام سنة ١٨٧٦ م وسياستها عثمانية فرنسية ، ثم أصبحت بعد الحرب العالمية الأولى مصرية ، والوطن سنة ١٨٧٧ م وهى جريدة طائفية احتلالية . وعل منهاجها سارت جريدة مصر ؛ والمحررة لصاحبها أديب إسحق سنة ١٨٨٠ . وبعد الاحتلال ظهرت المقطم سنة ١٨٨٨ م وهى

احتلالية . والمزيد وهي إسلامية خديوية . ر" وأهمى إسلامية وطنية . والجريدة والشعب والسياسة والبلاغ والجهاد والتوحيد . الشرق والمصرى والكتلة والزمان والجريدة المسائية . وتلك هي كبرى الصحف اليومية والسياسية وكلها تصدر عن القاهرة . وأكثرها انقطع عن الظهور فلم يبق منها إلا الأهرام والأخبار والجمهورية والمساء . وهناك صحف أسبوعية مختلفة كالرسالة والثقافة وأخبار اليوم والمصور وآخر ساعة والتحرير ، وشهرية كالتفتيش والمنازل . والكتاب ومجلة الأزهر والمجلة في مصر ، والأديب والآداب في بيروت ، ومجلة تجمع ثقافة العربية في القاهرة ومجلة الجمع العلمي العربي في دمشق وأكثر المجلات الأدبية الأسبوعية والشهرية قد احتجبت لقلة العون من الحكومة وضعف الرغبة من القراء :

والبحث في سياسة هذه الصحف وتحريرها وتأثيرها يخرج بنا إلى التطويل . وبما لا بد من ذكره أن الفضل في تقدم الصحافة ورقق التحرير والترجمة إنما كان للبنانيين ، لسببهم إلى معرفة اللغات الأوروبية ، وغلطهم للأمم الغربية .

٦ — التمثيل

التمثيل بمناه الحديث لم تعرفه اللغة العربية إلا في أواسط القرن الماضي . وكان اللبنانيون أسبق الشرقيين إلى اقتباسه ؛ لتخرجهم في المدارس الأجنبية ، ودراستهم للآداب الإفريقية . وأول من فعل ذلك منهم مارون النقاش المتوفى سنة ١٨٥٥م قد مثل أول رواية عربية سنة ١٨٤٠م . ولما تبوأ إسماعيل مرش الخديوية شجع الأدياء ، وعضد العلماء ، وساعد الفنانين . وتم خفر قناة السويس في عهده فاحتفل بافتتاحها ذلك الاحتفال المشهور ، ورأى من بكرم الضيافة ألا يحرم ضيوفه الأوربيين مشاهدة التمثيل أثناء إقامتهم بمصر ، فابقى دار الأوبرا الخديوية واستقدم لها فرقة أجنبية . كانت روائية (عابدة) بالفرنسية . وورد مصر في أثر ذلك جماعة من أدياء لبنان وفيهم سليم النقاش وأديب إسحق ، فمثلوا في الاسكندرية بضع روايات على مسرح زيزينيا سنة ١٨٧١م فقللوا ، ونحلوا

عن الفرقة لأحدم يوسف خياط ، فقدم القاهرة واتصل بإسماعيل تفتح الأبرار وشهد أولى رواياته ، وكانت رواية (الظلوم) ، فظن أنهم يرضون به ففهم إلى وطنهم . وأقفلت الأبرار في وجه التمثيل العربي فلم تفتح بعد ذلك إلا لفرقة سليمان القرداحي وزميله الشيخ سلامة حجازي .

ولم يكن التمثيل في تلك الفترة الماضية شعبياً : وإنما كان حكومياً أرستقراطياً لا يحضره إلا الأعيان والحكام ، فلما بنى أسكندر فرج مسرحه في شارع عبدالعزيز بالقاهرة قوض إليه الشيخ سلامة حجازي أصبح للجمهور . وكان التمثيل حينئذ بعيداً عن السكال والدوق لا يرجع إلى فن ولا يعتمد على قاعدة ، وإنما كان أساسه التفاء والمجون استمالة العامة وإرضاء الدماء ، ولغة الروايات كانت سقيمة ملحونة مسجوعة . وأول خطوة خطاها هذا الفن في سبيل السكال كانت بفضل الفرقة التي ألها جورج أبيض بيون الخديوي عباس حلمي ، وضم إليها صفوف الممثلين الذين خرجهم الزمن وأرشدتهم التجارب . إلا أن هذه الفرقة انحلت بعد قليل لسوء الإدارة وقلة المال وزهادة الجمهور في التمثيل الفني . وظل التمثيل بعد ذلك يرهب ويظنون تبعاً للحوادث والظروف . على أن حاله الآن وإن لم ترض الباحث من كل وجه لا تدعو إلى اليأس ، فقد أنشأت وزارة الثقافة والإرشاد ممهداً للتمثيل وألفت فرقة حكومية وفرقا أخرى مختلفة تنفق عليها نرجو أن يكون لها أثر قوي في إنعاش المسرح بعد أن اعتدت عليه السينما وخذله الجمهور .

٧ - المجمام الأدبية

المجمع العلمي العربي بدمشق :

كان إخواننا في الجمهورية العربية السورية أسبق الأمم العربية إلى إنشاء المجمام العلمية على ضيق مواردهم وغل سواعدهم ، كما كان اللبنانيون أسبقها إلى الترجمة والصحافة والتمثيل فقد أنشأ المجمع العلمي العربي بدمشق في اليوم

الثامن من شهر يونيو سنة ١٩١٦م بدد دخول الأمة السورية في وصاية الدولة الفرنسية إجابة لمقترح الأستاذ محمد كرد على وزير المعارف السورية يومئذ لأغراض كانت إذ ذاك تدور حول مسائل تعود بأسرها على إنعاش الأدب العربية ، وتلقين أصول البحث والدرس لثبهاء المدارس . وقد عني هذا المجمع بوضع ما عرض عليه وضعه من الأنفاظ في المصطلحات العلمية الحديثة ، وأصلح بعض الأوضاع الإدارية ، وقوم ما أمكن لغة الدواوين ، وجمع بعض أغلاط الكتاب والشراء والخطباء ، وعاون عدة من المؤلفين والمترجمين على ما هم بسبيله ^(١) » ضم هذا المجمع صفوة العلماء والأدباء في الشام والعراق ومصر وطائفة من علماء للشرقيات في أوروبا . وأصدر مجلة لنشر دراساته ومحاضراته ومقالاته . وبعد أن اتحدت مصر وسورية في الجمهورية العربية المتحدة حينما من الدهر أصبح مجمع دمشق وجمع القاهرة مجعاً واحداً له مؤتمر سنوي واحد .

مجمع اللغة العربية بالقاهرة :

وفي ١٤ من شعبان سنة ١٣١٥ ٣٨ ديسمبر ١٩٣٢م صدر مرسوم ملكي بإنشاء مجمع ملكي للغة العربية يكون تابعاً لوزارة التربية والتعليم في القاهرة والنرض منه :

١ — « أن يحافظ على سلامة اللغة العربية وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها ، ملائمة على العموم لحاجات الحياة في العصر الحاضر ، وذلك بأن يحدد في معاجم أو تفاسير خاصة ، أو بغير ذلك من الطرق ما ينبغي استماله أو تجنبه من الأنفاظ والتراكيب .

٢ — أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية ، وأن ينشر أبحاثاً دقيقة في تاريخ بعض الكلمات وتغير مدلولاتها .

(١) ما بين التوسيع منقول من التقرير الرابع للمجمع .

٣ - أن ينظم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية .

٤ - أن يبحث كل ماله شأن في تقدم اللغة مما يسد إليه فيه بقرار من وزير المعارف العمومية « وهو مؤلف من «أربعين عضواً عاملاً يختارون من غير تقييد بالجنسية من بين العلماء المروفين بتبحرهم في اللغة العربية أو بأبحاثهم في قه هذه اللغة أو لهجاتها » وخسة وعشرين عضواً مراسلاً في مختلف البلدان العربية . ومن بين أعضائه العاملين اليوم ثلاثون عضواً مصرياً وعضوان أوريان فرنسي وإنجليزي، وعضوعن المغرب، وعضوعن تونس، وعضوعن المملكة العربية السعودية ، وعضوعن العراق ، يرأسهم الدكتور طه حسين . والجميع يتألف من هيتين . مؤتمر الجميع ويتكون من أعضائه جميعاً ويجتمع أربعة أسابيع متوالية في كل سنة . ومجلس الجميع ويتكون من الأعضاء المصريين ويجتمع مرة في كل أسبوع . والجميع مجلة تنشر ما يقره من البحوث القوية والمصطلحات العلمية صدر منها تسعة عشر جزءاً ، والجميع يبذل جهوده اليوم في وضع للمعجم اللغوي الكبير وقد أوشك أن يخرج مجلده الأول ، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ومصطلحات العلوم الحديثة . بعد أن وضع المعجم الوسيط في نحو ألف صفحة ونشره على الناس قتالوه بالثناء وحسن التقدير .

الجميع العلمي العراقي :

تألف في بغداد على غرار الجميع العربي بدمشق . ونشاطه مقصور على البحوث والمحاضرات ، ونشر المخطوطات -

الفصل الثالث النثر الكتابة

كان النافق في صدر هذا العصر من كتب السلف كتابان يمثلان مذهبين مختلفين في الكتابة : أحدهما مقامات الحريري ، والآخر مقدمة ابن خلدون ، فالأول يمثل الأسلوب الصناعي الاجوف للدوء ، والثاني يمثل الأسلوب الطبيعي العامر المحكم . وكانت القلوب لا تزال مأخوذة بسحر المقامات لذة صناعتها ، وذبوع طريقتها ، وقصور العقول عن البحث ، وعجز القرائح عن التوليد . ولكن النابغين من خريجي للدارس الدنية الحديثة الذين وقفوا على آداب الفرنجة آثروا الطريقة الخلدونية على الطريقة الفاضلية ، لجريانها مع الطبع ، وملاءمتها لروح العصر ، ومشابقتها لأساليب الفرنجة ، فظهرت مهذبة فيما كتب قاسم أمين ، وفتحي زغلول ، ولطفي السيد ، ومن جرى مجراهم . واغرد بالأسلوب البديهي رجال دار العلوم ومن يمتد بسبب إلى الأزهر من أمثال الشيوخ حمزة فتح الله ، وتوفيق البكري ، وحفي ناصف ، ومن هذا جنوم . وبدت على أساليب هؤلاء مظاهر التكلف فأسرفوا في الحماكة ، وأوغلوا في المنة وتشددوا في القياس ، وتصعبوا في استعمال اللغة ، كما بدت على أساليب أولئك مظاهر التطرف فتعجزوا في القواعد وناسعروا في اللغة ، واستغنوا بجمال الصياغة ، وهبطوا إلى مستوى العامة . وفي ذلك العهد نشأت على أفلام عرب لبنان النازحين إلى الأمريكتين طريقة ثالثة فيها الذكرة والطرافة والحركة والتنوع ، ولكن فيها الركاكز والتساهل والذخيل والمعجبة ؛ فكان من رد القلم الذي لا بد منه لهؤلاء الطرائق الثلاث أن تنشأ طريقة رابعة تأخذ من محاسنها وتخلو من مساوئها فترتضيها الأذواق جميعاً

تلك كانت طريقة إحياء الأسلوب العربي الخالص مكل النقص بما فاته من صور البيان لاقطاع أهله عن مسارة التمدن الفكري الحديث . استبان معالم هذه الطريقة في نثر النفلوطي ، كما استبان في شعر البارودي ، ثم نهجها الكتاب للوهوبون والشعراء المطبوعون فتميزت بالبرقة والهدوء والسلامة والرصانة والقصد . ثم نبعت طائفة من الكتاب جمعوا بين ثقافة الشرق القديم وثقافة الغرب الجديد فبلنوا بالنثر القفى منزلة لم يبلنوها في عصر من عصوره : فالأسلوب الذى كتب به للنفلوطي واليشري والرافعى وللزنى والقاد هو ثمرة التطور الحديث في الأدب والعلم والفن والحضارة . وهو وإن اختلف بين الكتاب في القوة والضعف ، والسمق والضعف ، والهدوء والتجوز ، والتركيز والانتشار ، يشترك في الصفات الجوهرية لفئة وهى الصحة والنقاء واللزوم ، وفى الخصائص الأصلية للإبلاغة وهى الأصالة والوجازة والتلازم ^(١) .

ولقد تعددت الأساليب فى هذا العصر ، فكان لكل طبقة أسلوب ، كالأدباء والفقهاء والحمامين والصحفيين . وتنوعت الأغراض ، فكتبوا فى القانون والسياسة والاجتماع ، ونسجوا على منوال ما ترجموه من القصص والروايات الأوروبية .

وعلى الجملة فللمذهب الكتابى الماصر يجمع كما قلت صفات اللغة الجوهرية وخصائص الإبلاغة الأصلية ، إلى تأثيره بللذاهب الأوروبية والعوامل الاجتماعية والمناخى الثقافية والمناخ الحضري . والكتاب الذين يتزعمونه اليوم أو يتبعونه نفر من الأدباء السكهول وطائفة من الأدباء الشباب ، توفر حظهم جميعاً من علوم اللسان ومفردات اللغة واستنزفوا الشباب فى تحصيل الأدب ومعارفاته ، حتى وقفوا على أطواره وكشفوا عن مخبأته . ويمتاز زعماء هذا المذهب بقسط عظيم من الثقافة الحديثة والاطلاع الواسع والبراعة العصبية فى التوفيق بين القديم المنيث والحديث المتولد ، والتأليف بين الشرق المتخلف والغرب المتطرف ، حتى يقرأهم القارئ البصير بمذاهب الكلام فلا يرجع أساليبهم إلى مذهب من مذاهب العرب

(١) انظر تفصيل ذلك فى كتابنا (دفاع من الإبلاغة) .

ولا إلى مذهب من مذاهب الفرنجة ؛ إنما هي أساليب مستقلة تقسم بالشخصية وتمتاز بالأصالة وتنفرد بمكان ظاهر بين أسلوب السلفيين القدي جدد ، وأسلوب التطرفين القدي ماع^(١) .

ولا بأس أن نشير هنا إلى أن هناك طاقة من ضعة الكتاب قعد بهم وهنُ السليقة وقلة الاطلاع عن مجارة اللبلاء ، فأخذوا يدعون إلى العامة باسم المذهب الجديد . ليس لمؤلاء « للتكاثين » رأى موفق نجده ، ولا مذهب مؤيد ثقافته ، وإنما هم يفكرون ويكتبون بأسلوب أحمى في لفظ عربى يتمر بين الحسن والركاكة . حسبنا أن نسجل هذه الظاهرة دون تعليق عليها ولا بيان لها .

الفن القصصى والروائى

سبق القول في حظ العرب من هذا الفن ، وقلنا إن قصورهم فيه كقصورهم في الشعر القصصى لأسباب واحدة ودواع متفقة . فلما أثمرت بواكير النهضة الحديثة اقتبس أدباؤنا فيما اقتبسوا من أدب الغرب القصة الأفرنجية بقواعدها ومناهجها وموضوعاتها . وكان أول من فعل ذلك اللبنانيون لسبقهم إلى مطالعة الأوربيين والأخذ عنهم ، كفرنسيس مرائش الحلبي المتوفى سنة ١٨٧٢ ، وسليم البستاني المتوفى سنة ١٨٨٤ م وجرجى زيدان المتوفى سنة ١٩١٤ . ثم طالعها الكتاب المصريون بمد ذلك علاج الحكاكة لما قرأوا من تلك القصص : أول ما ظهر طاقة من القصص وألفاصيص المترجمة ، بعضها كان أشبه بالاختصاص لبعده عن أصله بالحذف أو بالإضافة أو بالتغيير كقصص البان لنجيب الحداد ، والفضيلة لمصطفى المغولطى . واليؤساء لحافظ إبراهيم ، وبعضها دقيق الترجمة شديد المطابقة كمرغريت لذكور أحمد زكى ، وابن الطليعة لإبراهيم عبد القادر المازنى ، وآلام فرترورفايل وأفاصيص من الأدب الفرنسى لصاحب هذا الكتاب : وقد كانت هذه القصص المنقولة على علانها أساساً للنهضة القصصية الحديثة في الشرق العربى احتذاها الشباب واستوحاها الكتاب ، لأن المدرسة العربية في مصر وفى غير مصر

(١) أنظر كتابنا (دفاع عن البلاغة) .

خلت على أساليب البلاغة القديمة فلم يدخل في برامجها الأدبية تعليم الفن القصصى والروائى على الطريقة للرسمية في المدرسة الأوربية : فلما ارتقى الفن الكتابى فى الأسلوب الذى علمته فى الفصل السابق ، وأخذت القصة العربية تتميز بظاهنها وتنسقل بموضوعها ظهرت طائفة من القصص الفنية القوية كزئبب لمحمد حسين هيكل ، والأيام لطفه حسين . وإبراهيم الكاتب المازنى ، وسارة للعقاد ، وأهل الكهف لتوفيق الحكيم ، وبداية ونهاية للجيب محضوط .

أما للقامات فقد انفضى أمرها وذهب عصرها بذهاب الصناعة الفغظلية من الأدب الحديث . وكان آخر من قلد الحررى فيها الشيخ ناصيف اليازجى ، وقولا الترك من الكتاب اللبنانيين . أما المصريون فقد اقتبسوا الطريقة ، ولكنهم وسعوا الحادث ونوعوا الموضوع ، كما فعل محمد المولى فى حديث عيسى بن هشام وحافظ إبراهيم فى ليالى سطوح ، فقد احتفظا بالنهج والأسلوب ، وأسهبا فى الموضوع بالاستتباع والاستطراد حتى أصبح علمهما وسطاً بين المقامة والقصة . تلك حال الفن القصصى . وأما الفن الروائى أو المسرحى ، فظل غريباً عن الأدب العربى لا يأنفه ولا يعرفه حتى علمه من الأدب الغربى من طريق المشاهدة والنقل فبعت طائفة من الذين درسوا الآداب الغربية أوزاروا البلاد الأجنبية بآولونه بالحاكاة والاختداء دون أن يتجهزوا له بجهازهم ، ويستعينوا عليه بأدائه ، فالتوى عليهم وأعضل حتى كاد يسهمهم بالعجز عنه . اللهم إلا ما كان من أمر شوقى فقد حاول أن يسد النقص للوروث فى الشعر العربى فاستحدث الشعر التمثيلى وخطابه فى طريق الكمال خطوة موفقه بنظمه روايات : على بك الكبير ، وكليوباترة ، وجحون ليلى ، وفيرز، وعنترة . والسأهدى ، ثم توفاه الله قبل أن يبلغ به الناية . وعلى نهجه المريد سار الشاعر عزيز أباظة فى رواياته قيس وليلى والمعبسة ، والناصر وشجرة النهر . وقد أخذت الجمهورية العربية المتحدة تهىء للفن القصصى والروائى أسباب الوجود بكافأة الكتاب ومساعدة الممثلين فسى أن يسفر أهلها عن وادى الصباح فتتم بدامة الخديو إسماعيل ، فى إحياد هذا الفن الأدبى الجميل .

الفصل الرابع

أساطين النهضة الحديثة

في مصر والشام والعراق والمغرب

من نبغ من المصريين في هذا العصر وقوى هذه النهضة بروحه وروحه ،
الشيخ عبد الرحمن الجيزي صاحب التاريخ المعروف باسمه ، درس في الأزهر
دراسة كاملة ، ثم اتصل بالفرنسيين أيام احتلالهم مصر فاستكتبوه في الديوان
ثم انقطع للتأليف فصنف كتابه عجائب الآثار في التراجم والأخبار ثم توفي
سنة ١٨٢٥ م . ثم الشيخ محمد للهدى شيخ الجامع الأزهر وأحد أعضاء الديوان
الخصوصي ل نابوليون ، وأ. قطيحا ثم أسلم ودرس في الأزهر حتى رأسه . ألف
كتاب تحفة المستفيضة الآنس ، في نزعة المستنير الناعس ، وهو أشبه بألف ليلة
وليلة ، وكانت وفاته سنة ١٨١٥ م . ثم الشيخ حسن المطار وهو ناظم نثر ، وله
بالقاهرة ثم تلم بالأزهر واتصل بالفرنسيين ورحل إلى الشام فأحدث ذلك من فهمه
وزاد في علمه . ثم تولى التدريس في الأزهر ورقى إلى أن صار شيخا له ، وتوفي
سنة ١٨٣٣ م . ثم السيد علي المرويش شاعر الأمير عباس الأول ، نشأ في القاهرة
وعاش موفور الكرامة بشعره . وقد جمع شعره أحد تلاميذه في ديوان سماه :
الإشمار بمحمد الأشعار . وكانت وفاته سنة ١٨٥٣ م . ثم الشيخ شهاب الدين
صاحب سفيحة اللك ، وله بمكة ثم وفد إلى مصر ليتعلم في الأزهر فنبت في الأدب
والم الحساب والمهندسة واللوسيقى ، ثم اشتغل بالتحرير في الوقائع المصرية والتصحيح
في مطبعة بولاق حتى توفي سنة ١٨٥٧ م . ثم رفاعة بك الطمطاوى أحد أركان
النهضة العلمية ، ومدير للدرسة التجريبية ، ومفتي الوقائع المصرية ، وله بعلوم طاولت
في الأزهر ، وأرسله محمد علي فيمن أرسل إلى فرنسا فأنتم دراسته ثم عاد فمكف
على التحرير والترجمة والتأليف والتعليم حتى وافاه حمامه سنة ١٨٧٣ م . ثم

الشاعر محمود صفوت الساعاتى نشأ في القاهرة وتوفى بهاسنة ١٨٨٥ م . ثم الشيخ عبد المادى نجا الإيبارى الشاعر للطبوع والقوى الحجة وللؤلف الفاه ، ولد في أيار من أعمال الغربية ثم وقف العلم بالأزهر واتصل بإسماعيل فجه بإمامه ومفتيه . ثم أنه اليقين سنة ١٨٨٨ م . ثم العلامة الشيخ حسين للرصى شيخ المعلمين وعمدة المؤلفين : وصاحب الوسيلة الأدبية في العلوم العربية . تخرج في الأزهر وعلم به ورزقه مكفوفه نبصر من لطف الحس وذكاء القواد . توفى سنة ١٨٨٩ . ثم الأديب الشاعر عبد الله باشا فكري ناظر للمارف في عهد إسماعيل ، ومؤلف القوائد الفكرية للكتاب المصرية . توفى سنة ١٨٨٩ م . ثم للصالح الكبير على مبارك باشا منظم المدارس المصرية ، ومفتي المكتبة الخديوية (دار الكتب) ، ومؤلف الخطط التوفيقية ، وقصة علم الدين . شارك في علوم كثيرة ، وتقلب في مناصب خطيرة ، منذ ولاية محمد علي إلى عهد توفيق . ثم توفى سنة ١٨٩٣ م . ثم الأديب التقدير السيد عبد الله نديم خطيب الثورة العربية ، وله ترجمة خاصة . ثم المترجم البار محمد عثمان بك جلال ناقل أمثال لافونتين في كتابه الميون البواقظ ، ومترجم ترنوف وبول وفرجينى إلى العامية ، ومؤلف السياحة الخديوية في الأقاليم المصرية ، توفى سنة ١٨٩٨ م . ثم السيدة القاضة عائشة التيمورية ، نبغت في الشعر العربي والتركي وخلفت في كل منهما ديواناً . ولها غيرهما كتاب نتائج الأحوال في الأدب ولدت بمصر سنة ١٨٤٤ م ، وتوفيت بهاسنة ١٩٠٢ . ثم الاجتماعى الأملى والكتاب المفكر قاسم بك أمين محرر المرأة المصرية ، وأحد رسل الإصلاح الاجتماعى ، ومؤلف كتابي تحرير المرأة ، والمرأة الجديدة ، وأثرهما في النهضة النسائية معروف . توفى سنة ١٩٠٨ . ثم الخطيب الصدع ، والسياسى الحزب ، والوطنى الصادق ، والصحافى البار ، مصطفى باشا كامل ، وله ترجمة خاصة . ثم الفقيه المحقق ، والمترجم البار ، فضى باشا زغول ، شارح القانون المدنى ، ومؤلف كتاب الحمامة ، ومترجم

كتب جوستاف لويون، ومحرر القوانين المصرية، توفي سنة ١٩١٤ م. ثم الكاتب الرشيق السيد مصطفى اللؤلؤى ، وله ترجمة خاصة . ثم البقري القذ والحامى للذرة والأصولى البارغ ، والخطيب المصقع ، والكاتب النابغ والسياسى المحكم ، صمد باشا رغولبوله ترجمة خاصة. ثم الانوى للورخ المحقق أحمد باشا تيمور صاحب الخزانة التيمورية . ومعجم اللغة العامية ، والمؤلفات القيمة ، ولقالات الممتعة فى اللغة والتاريخ . توفي سنة ١٩٣٠ م . ثم الكاتب الناقد الرقيق محمد بك اللؤلؤى صاحب حديث عيسى بن هشام ، توفي سنة ١٩٣٠ م . وله ترجمة خاصة . ثم أمير الشعراء وخليفة المنفى أحمد بك شوق وله ترجمة خاصة . ثم شاعر النيل ، وأديب الشعب ، محمد حافظ بك إبراهيم وله ترجمة خاصة . ثم الأديب المطلع والمتقف الفايح أحمد زكى باشا صاحب الخزانة الزكية ، ومحبي المؤلفات العربية ، وناشر الثقافة الإسلامية ، توفي سنة ١٩٢٤ .

ومن نفع من اللبنانيين والسوريين المعلم الشاعر بطرس كرامه الحمصى مادم الأمير بشير الشهابى ومعلم ولده وموضع ثقته . جمع شعره فى ثلاثة دواوين ولم يطبع الا واحد منها . توفي سنة ١٨٥١ . ثم الفيلسوف الشاعر فرنسيس مرائش الحلبي أقدم دعاة الحديث ، وأول رسل التجديد ، ومؤلف طائفة من الكتب المفيدة . توفي ضرراً سنة ١٧٨٣ م . ثم الصحفي المنشئ أديب اسحق ، رئيس قلم الإنشاء فى نظارة المعارف المصرية على عهد توفيق ، ولد بدمشق ودرس فيها ثم رحل إلى مصر فلقى جمال الدين ، وكان له أثر ظاهر فى النهضة الأدبية الحديثة ، توفي سنة ١٨٨٥ م . ثم المصلح الاجتماعى والكاتب السياسى الشيخ عبد الرحمن السكواكى صاحب كتابين (طبائع الاستبداد) (وأم القرى) ، جاب أكثر الممالك الإسلامية ، ثم أتى عصاه بمصر سنة ١٩٠٢ م . ثم الكاتب الأديب جميل المدور صاحب حضارة الإسلام فى دار السلام ، ولد ببيروت وتوفى فيها سنة ١٩٠٧ م . ثم الأديب الكبير ، والصحفى البارغ ، والمترجم القدير ، الشيخ نجيب الحداد ، امتاز بمكثرة ما نقل ووضع من الروايات التمثيلية ، ثم توفي فى ريعان شبابه سنة ١٨٩٩ م .

ثم العلامة المؤرخ الحجة الفوى الثبت الشيخ طاهر الجزاىرى عالم دمشق وأديها
توفى سنة ١٩٢٥ م . ثم المؤرخ النابه ، والصحنى النابغ ، والقصى المبدع ،
جرى بك زيدان ، منشى الملال ، ومؤلف طائفة من الكتب القيمة
فى التاريخ والأدب ، واللغة والاجتماع ، ورائد الفن القصصى التاريخى فى الشرق . توفى
سنة ١٩١٤ م . ثم الفيلسوف الحق ، والصحنى المجلد ، الدكتور يقوب صروف
منشى المقتطف وأحد رسل العلم الحديث ، توفى سنة ١٩٠٧ م .

ومن نبغ فى المراق آل الألوسى ، وأشهرهم العلامة الفقيه شهاب الدين
الألوسى صاحب التفسير الشهير الموسوم بروح الممانى فى تسعة مجلدات . توفى
بينذ سنة ١٨٥٤ م . ثم حفيده السيد محمود شكرى الألوسى أديب المراق
ومؤلف كتب بلوغ الأرب فى أحوال العرب فى ثلاثة مجلدات ، توفى سنة ١٩٢٣ م .
ثم الشاعر الرقيق عبد الغفار الأخرس المتوفى سنة ١٨٧٣ م . ثم الشاعر الفيلسوف
جميل صدق الزهاوى المتوفى سنة ١٩٢٧ م ، وله ترجمة خاصة . ثم الشاعر الاجتماعى
معروف الرصافى المتوفى سنة ١٩٤٥ م وله ترجمة خاصة . ثم العلامة الفوى الأب
انستاس مارى الكرملى عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة المتوفى سنة ١٩٤٧ م .
ومن نبغ فى المغرب الكاتب السياسى المصلح محمد يريم مؤلف الرحلة
الموسومة بصفوة الاعتبار بمستودع الأمصار ، فى خمسة أجزاء . وفد إلى مصر
فأنشأ بها جريدة « الأعلام » وأخذها مقامه حتى توفى سنة ١٨٨٩ . ثم الوزير
العالم خير الدين باشا صاحب كتاب أفوه المسالك فى معرفة أحوال الممالك ، وهو
من خير ما كتب فى بابيه . سمى به كفايته إلى أن تقلد الوزارة فى تونس ،
والصدارة المظلى فى الآستانة ، وتوفى سنة ١٨٩٠ م . ثم السياسى المصلح
السيد عبد الحميد باديس الجزاىرى المتوفى سنة ١٩٤٠ م . ثم الشاعر الشاب الشاعر
الحزب أبو القاسم الشابى التونسى المتوفى سنة ١٩٣٤ .

ثم بقيت طائفة من نابغى الكتاب والشعراء والأدياء واخطباء ، آثرنا .
أن نخصهم بشئ من التفصيل والتحليل .

الكتاب

جمال الدين الأفغانى

مبائر وأعماله

ولد السيد محمد جمال الدين بن السيد صفدر بقرية أسد آباد من أعمال كابل ببلاد الأفغان في بيت كرم الأصل . يجمع إلى جلالة النسب إلى الحسين مؤدد الإمارة على بعض الأقاليم الأفغانية . ثم درج في بيئة تمتاز بطباع البداوة من حرية وحمية وأريحية وأهنة . ثم تحول أبوه إلى كابل وهو في الثامنة من عمره ف تلقى فيها مبادئ العلوم العربية والأدبية والشرعية والفقهية على منهاج محيط شامل . ثم حلق في مراحل حياته ومواطن رحلاته اللغات العربية والأردية والفارسية والتركية والفارسية ، وألم بالإنجليزية والرومية ، فأنصل منها بثقافة للشرق والغرب في القديم والحديث . ثم أخذ يطوف ماشاء الله أن يطوف في أقطار الهند وإيران والمجاز ومصر وتركيا وإنجلترا وفرنسا وروسيا فزاد بصراً بأحوال الدول وأخلاق الشعوب . ثم كان رضى الله عنه متواضع النفس لأنه عظيم ، جرىء الصدر لأنه نحر ، ندى الراحة لأنه زاهد ، ذرب اللسان لأنه قرض ، أجب الضيم لأنه أمير ، حاد الطبع لأنه مرهف ، صريح القول لأنه رجل . ولم يتغنى من وراء هذه الصفات - كما قال - إلا سكينة القلب . وكان يمدح الله على أن آتاه من الشجاعة ما يسيئه على أن يقول ما يعتقد ويضلل ما يقول^(١) . ومن امتزاج هذه الشائلك وتلك الوسائل فيه اتسعت حوله الأرض ، وامتد أمامه الأفق ، وانصرف همه البعيد عن النار والزوجة والعشيرة إلى الوطن الإسلامى كله ، والشرق الإنسانى

كله ، فجعل قصده ووكده أن يدعو إلى إنهاضها بالوحدة الإسلامية لتدفع غائلة
الاستعمار ، وبالحكومة الدستورية لتضع شريرة السبيل .

وقد آمن بهذه الدعوة إيمانه بالله حتى رأى في سبيلها السجن ورياضة والنفي
سياحة والقتل شهادة ^(١) !

وكان الذين يقفون من سيرة الأفغانى على المامش يظنون أنه قصر جهده
في تحقيق هذه الدعوة على الكتابة والخطابة . والواقع الذى لا شك فيه أنه فكر
ثم قدّر ثم دبر ، ولكن الوحدة كانت من الشتات بحيث لا تلتئم ، والاستبداد
كان من الثبات بحيث لا ينهزم .

تولى الوزارة وهو فى رفق شبابه لأمر الأفغان محمد أعظم ، فجمع نفسه على
الاستقلال ، وأدار أمره على الشورى ، فأوجس الإنجليز خيفة من هذه النزعة ،
فأرسلوا ذهبهم إلى منافسه فأضرم الثورة وفرق الكلمة وطرد الأمير . وخرج
السيد إلى الهند يبتغي السكينة عند تاجر صديق ، فاستقبله الإنجليز على الحدود ،
وأنزله بالإكراه ضيقاً على الحكومة . فسألهم الإقامة شهرين ، ولكنهم حين
رأوا إقبال الناس عليه ، وإصفاهم للتشديد إليه ، قصروا هذه المدة وأمره بالخروج .
وكادت الأعصاب الهندية المحدرة تنور حين قال لزعما الهندوه وهو راحل :

« وعزة الحق وسر العدل ، لو أن ملايينكم مسخت ذباباً لأخرجت الإنجليز
بطعنينا من الهند . ولو اقلبت سلاحى وخاضت البحر إلى الجزر البريطانية
لجذبتها إلى القاع » !

وفى الآستانة استقبله الصدر الأعظم استقبال التجلة ، وأحله أعيان الخنوة
محل الكرامة . ثم عين عضواً فى مجلس المعارف ، فرأى فى التعليم رآياً وخطب
فى الصناعة خطبة أحفظا عليه أعوان الجبل من رجال العلم وإخوان الضلال من
شيوخ الدين . وتولى قيادة الإرجاف شيخ الإسلام لحاجة فى نفسه ، فاقضى على
الرجل الأباطيل ، وبس حواله الثبات ، فلم يجد الأفغانى بداً من النزوح إلى القاهرة

وهنا وجد الصدر الأرحب في رياض باشا فتجلت عبقريته في التعليم والتفنية والتوجيه . وأوقد بالزيت المقدس شملته الوهاجة في البيت وفي القهوة : فمشا على ضوءها الهادي طلاب المعرفة وعشاق الحكمة من علماء وأدباء وساسة وقادة . ثم اتخذ من الحقل للماضي الذي أنشأ منارة لهذه الشعلة ، قسم الإخوان العاملين فيه شعباً لكل وزارة من وزارات الدولة شعبة . فشعبة الحرية تنظر في ظلمة الضباط المصريين ، وتنددر (ناظر الجهادية) أن ينصفهم من الضباط الجراكسة . وشعب الحقاينة والمالية والأشغال تنذر وزراءها أن يساروا المصريين بغيرهم في العمل والمرتب ، وراع أولى الأمر ما قرأوا في تقارير الشعب ، وما سمعوا من لفظ للوظفين ، وما رأوا من قلق للتقنين ، فاستدعاه الخديو توفيق وفاوضه في ذلك فقال له فيما قال : « إن سبيل الإصلاح أن يشترك الشعب في حكم البلاد عن طريق الشورى » . ثم ازداد جمال الدين إيماناً في حملته ، وانقلب الأدب كله أصداء لأحاديثه وأبواقاً لدعوته ، حتى انتهى الأمر — بعد جهاد ثمانى سنوات إلى أن ضاق الإنجليز بسمة نفوذه ، فزبدوا للخديو أن يخرج من مصر فأخرجه . وانتقلت الشعلة إلى باريس ، وسطعت في (العروة الوثقى) ، وظلت ألسنتها نمانية عشر شهراً تومض في جنبات الشرق كما تومض المنارة في ظلمات المحيط ، حتى دلت على أوكار الطغيان ونمت بأسرار القرصنة ، فاستقدمه شاه المعجم واستوزره ، فلما أشار عليه بالشورى أشاح بوجهه عنه . واستنار به قيصروس واستخبره ، فلما نبأه بمحدث الشورى نفر منه . واستدعاه خاقان الترك واستشاره ، فلما نصح له بالشورى وتقسيم الإمبراطورية إلى عشر خديويات يتولاها أمراء عثمانيون زوى عبد الحميد ما بين عينيه ، ولكنه أطفأ الجواب بالحكيم الشجاع ، وظل على إكرامه واحترامه أربع سنين حاول فيها أن يكبله بقيود للنصب والزواج فلم يستطع ، ولكن الموت استطاع أن يكبل الثائر الخليليغ الاستبداد أجله القدر فرض بالسرطان في الآستانة وتوفي به في اليوم التاسع من شهر مارس سنة ١٨٩٧ م

نموذج منه شره

كتب إلى عبد الله باشا فكرى يعتب عليه وقد بلغه أن رجلاً ذمه أمام الخديو على مسمع منه ، فسكت ولم يدافع عنه :

مولاي ! إن نسبتك إلى هوادة في الحق وأنت — تقدست جبلك — فطرت عليه وتعرض للضرر إليه ، فقد بثت يقيني بالشك . وإن توهمت فيك حيداً على الرشد ، وجوراً عن القصد وأنا موقن أنك ما زلت على السداد غير مفرط ولا مفرط قد استبدلت على بالجهل . ولو قلت : إنك من الذين تأخذهم في الحق لومة لائم ، وتصدم عن الصدق خشية ظالم ، وأنت تصدع به غير وان ولا ضجر ، ولو آلب الباطل السكوارث المردية ، وأجرى عليك الخطوب للوثة لكذبت نفسى وكذبتى من يسمع مقالتي ، لأن العالم والجاهل والنظن والنهي كلهم قد أجمعوا على طهارة سجيكت ، ونقاوة سريرتك ، واتفقوا على أن الفضائل حيث أنت ، والحق معك أينما كنت . لاتفارق للسكرام ولو اضطرت وأنت مجبول على الخير لا يحوم حولك شر أبداً ؛ ولا تصبر عليك قبيصة قصداً ، ولا تنه في قضاء حق ، ولا تنى عن شهادة صدق — ومع ذا وهذا وذاك إنك مع طمك بواقع أمرى ، وعرفانك بسررتى وسرى ، أراك ما ذوت عن حق كان واجباً عليك حمايته ، ولا صنت عهداً كانت عليك رعايته ، وكتمت للشهادة وأنت تعلم أنى ما أضمرت للخديو ولا للمصريين شراً ، ولا أسررت لأحد في خفيات صميرى شراً . وتركتنى وأنياب النذل اللثيم (فلان) حتى نهشنى نهش السبع الحرم العظيم ، ضئيلة منه على السيد إبراهيم الأقانى وإغراء من أعدائى أحزاب (فلان) ! ما هكذا الظن بك ، ولا المعروف من رشدك وسدادك ؛ ولا يطاوعنى لسانى — وإن كان قلبى مدعياً بعظم منزلتك فى الفضائل ، مقراً بشرف مقامك فى الكالات — أن أقول : عفا الله عما سلف ، إلا أن تصدع بالحق ، وتقيم الصدق ، وتظهر الشهادة لإزاحة شبهة ، وإدخالاً للباطل ،

واخزاه لشر وأهله . وأظنك قد فعلت أداء لقريضة الحق والعدل . ثم إنى
بأمولاي أذهب الآن إلى لندن ومنها إلى باريس مسلماً عليكم ، وداعياً لكم .
والسلام عليكم وعلى أخى الفاضل البار أمين بك .

الأستاذ الإمام محمد عبده

١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥ م)

نشأته ومبانيه

وُلد محمد عبده بن عبده بن حسن خير الله بمحلة نصر من إقليم البحيرة بمصر
ونشأ نشأة الأوساط من القرويين ، فاستظهر القرآن في كتاب القرية ، وأرسل
في طلب العلم إلى الجامع الأحمدي فالأزهر الشريف ، ولكنه مئى في أول دراسته
بمعلمين غير أكفاء لقنوه المسائل من غير تفهيم فستمها وفرّ . فلما ذاق حلاوة العلم
صبر على مرارة التعليم ، واستغرق وسعه في الدرس حتى نال في قليل من الزمن
كثيراً من العلم . ولم يكن منهاج التعليم الأزهرى في ذلك العهد كفيلاً بتخريج
الطالب كما كان الإمام صحيح الحكم ، وثيق الحجة ، ساهر البيان ، غزير العلم ،
كريم الخلق ، ثابت البصيرة ؛ ولكن السيد جمال الدين الأفغانى حكيم الشرق
وفيلسوف الإسلام هو الذى جعل بهذه الصفات وكله بذلك العلوم . ورد ذلك
الحكيم مصر فى عهد إسماعيل فورد شرعته أذكيا الطلاب ، فكانوا دعاة النهضة
الحديثة وهداة . وكان الإمام آثرهم عنده وأوفرهم حظاً منه ، حتى قال فيه وهو
مفارق مصر : إنى خلفت فى مصر خيراً كثيراً فى علم الشيخ محمد عبده .

فلما رحل عن مصر جمال الدين استأنف الأستاذ النظر فى العلوم واستقى الدين
من مشارعه الصافية حتى أصبح إماماً فى العلوم العقائدية والنقلية واللسانية ، فنال
درجة العالمية سنة ١٢٩٤ هـ . ثم اختير مدرسا للأدب والتاريخ بدار العلوم

ومدرسة الأسان ، وأسندت إليه بعد ذلك رئاسة تحرير الوقائع الرسمية وإصلاح
اللغة العربية :

ثم أخذت مبادئ الأفغانى تزكو فى القلوب وتهفو بالنفوس ، حتى أقضت
إلى الثورة العرابية ، وكان الأستاذ ممن شايع وبائع وأفقى بمخلع الضديو توفيقى
فحكم عليه بالنفى . فقصده سورية ولبت فيها ست سنين شرح فى أنفائها كتابى نهج
البلاغة ومقامات البديع . ثم غادرها إلى باريس حيث كان جمال الدين ، فأنشأ معاً
جريدة (العروة الوثقى) ونشرا بهادعوة الدين والعلم والأدب والإصلاح ؛ فاهتزت
لها القلوب الطليية فى العالم الإسلامى ، ولكنها لم تدم طويلا . واستهوى الأستاذ
مارأى وسمع من حضارة الغرب وعلموه فطمعت نفسه إلى الأخلفتها بتصويب ،
فأضنى الوسيلة إلى ذلك بتعلم اللسان الفرنسى فتعلمه فى بضعة أشهر .
ثم شمله الغفو الخديوى فماد إلى وطنه نير القلب غزير الملم محنك السن ، وعين
مستشاراً فى محكمة الاستئناف ، وعنى بتدريس البيان وتفسير القرآن بالازهر .
فكان درسه مجمعا لرجال القانون والأدب والصحافة والتعليم . وتولى منصب
الإفتاء فظل فيه حتى توفاه الله بالسرطان فى الإسكندرية ودفن بالقاهرة .

صفاته وأخلاقه

كان الأستاذ ربيع القامة ، أسمر اللون ، قوى البنية ، حاد البصر ، بليغ
المباراة ، فصيح اللسان ، ذكى القلب ، شديد المعارضة ، قوى المحافظة . وكان
أشبهه بابن خلدون فى كبر نفسه ، وصفاء عقله ، وبعد نظره ، وقوة جأشه وكرم
خلقه ، وصراحة قوله ، حتى فى خصوصية زيه . وقد كابد مثله فى رضا الحق
ومحاربه البدع سخط الخاصة وغضب العامة ، شأن زعماء الإصلاح فى كل أمة .

أثره فى اللغة والأدب

كانت اللغة فى عهده فريسة المعجة رهينة البلى فجاهد فى إنقاذها وإحيائها

حق جهاده : كان وهو يمرر الجريدة الرسمية يراقب ما ينشر في الصحف ويكتب في الدواوين ، ويدمج الفصول في نصوص الأساليب وخطأ القرا كيب ، وينشر نماذج من تلك الكتابات السقيمة العقيمة ويدل على عيوبها ، ويكتب غيرها في موضعها تعليمياً للكتاب وتدريباً للناشئة . ثم سلك في التدريس غير سبيل الأزهريين ، فقرأ كتابي عبد القاهر في البلاغة بأسلوب تلك الأسماع والقلوب ، وفسر كتاب الله بلسان رسوله . فكان في درسه خطيباً جزل للنطق قوى للمارضة لا تدركه حيلة ولا يرهقه حصر : فأفاد الطلاب ببيانه مثل ما أفادهم تبيينه . وهو الذي ساعد على إحياء الكتب العربية ، وسن في الأزهر تدريس الأدب فاعتضد في الأول بالإمام محمد محمود الشقيطي ، واعتمد في الثاني على أستاذنا سيد بن علي الرصني .

أثره في العلم والبرية

غام أفق الدين بسحب البدع والأضاليل ، فأطلع الأستاذ من فكره ووعده نيراً بدد غيوم الباطل ، وجدد رسوم الحق . ورأى العلم قد أخذ ينفخ إلى الدين رأسه ، فوقف يده ما موقف المؤلف للوفيق ، كما فعل ابن سينا وابن رشد من قبل ، وأخذ يفسر القرآن بلسان العلم والعقل ، وكتب رسالته في التوحيد بقلم عبد القاهر فحرب العقائد من الأفهام ، وحصر عنها خلال الإبهام . وسمع أسنة للبشرين والمستعمرين تمتد إلى جزر الإسلام بالإذك ، فقطعها بالأداة النواهض والحجج الملمزة . وكتاب (الإسلام والبنصرانية) وردده على هاتوا القرنين من تلك الأساحة التي أجهزت على تلك الشبهة المدفوعة .

وجلة القول أن الإمام محمداً كان من أولئك الأعلام المجتهدين والعلماء المحققين الذين يصطنعهم الله من خلقه لنصرة حقه ، فيجدون حبل الدين ، ويشيدون أركان العلم ، ويدفون عن الأرض الفساد .

أسلوب

للأستاذ في التوصل أسلوب خاص كأنه قطع الرياض ، تقرأ في الردود والمقالات : وقد بنحو في رسائله نحو ابن السيد في كتاب السجع وكتاب الصلوة ، ويقصد قصد الملاحظ في تأليفه ، فتساوق أغراضه ، وعترصف فقره . فهو متصرف في أنواع الكلام بليس كل معنى ما يلائمه من الأساليب . أما الشعر فما علمناه بقرضه . ولكن الناس رووا له أبياتاً قالها في سياق اللوت وهي :

ولست أبالى أن يقال عذراً أبلّ أوا كتظت عليه للآثم
واكن ديناً قد أردت صلاحه أحاذر أن تقضى عليه العاثم
فيارب إن قدرت رجعتي قريبة إلى عالم الأرواح واقض خاتم
فبارك على الإسلام وارزقه مرشداً رشيداً بضوء النهج والليل قائم

نموذج منه

كتب إلى بعض علماء الشام جواباً عن كتاب هناء فيه عنصّب الافناء ، وقد شكّا فيه الإمام ما كابد من عنت الشيوخ في سبيل الإصلاح :

أنصفني قومك إذ سُرّوا بنيلي الافناء ، ولعل ذلك لشعورهم بأنني أغير الناس على دين الله ، وأضرهم بالذخا من حماه ، وأدراهم بوجوه الترم عند سئوسها ، وأحذقهم في انتهازها لإبلاغ الحق أملة ، أو يبلع الكتاب أجله ، على أنهم مني بحيث لا يفسد نفوسهم الحسد ، ولا يتقاذف بأهوائهم اللدد . وكل ذي دين يشتهي أن يرى دينه مثل ما أحدث إليه عزيمتي ، وأخلص له في العمل لتحقيقه نيتي ، خصوصاً إن كفي فيه القتال ، ولم يكلف بشد رحال ولا بذل أموال .

أما قومي فأبعدهم عن أشدهم قرباً مني . وما أبعد الإنصاف منهم ؟ يظنون بي الظنون ، بل يترهبون بي ريب للنون ، تسرعاً منهم في الأحكام ، وذهاباً مع

الأوهام ، وولما بكثرة الكلام ، وتلذذاً بلوك اللام . أقول فلا يسمعون ، وأدعو فلا يستجيبون ، وأعمل فلا يهتدون ، وأريهم مصالحهم فلا يبصرون ، وأضع أيديهم عليها فلا يحسبون ، بل يفرون إلى حيث يهاكون . شأنهم الصياح والمويل ، والصخب والتهويل ، حتى إذا جاء حين العمل صدق فيهم قول القائل في مثلهم : لكن قوى وإن كانوا ذوي عدد ليسوا من الشرفى شئ . وإن هانا : وأقول ولا فى الخير .

وإنما مثل فيهم أخ جهله إخوته ، أو أب عقته ذريته ، أو ابن لم يمن عليه أبواه وعمومته ، مع حاجة الجميع إليه ، وقيام عَدم عليه . يهملون منافعهم بإيذائه ، ولو شاءوا لاستبقوا باستبقائه ، وهو يسى ويدأب ، ليظلم من يلبو ويبلب . على أنى أحد الله على الصبر ، وسمة الصدر ، إذا ضاقت الأمور ، وقوة العزم ، وثبات الحلم ، وإن كنت فى خوف من حلول الأجل ، قبل بلوغ الأمل ، خصوصاً عندما أرى العمل فى أرض ميتة وذابت عليها السماء مطراً ، لما أنبت زرعاً ولا أطلعت شجراً . أفرع لذكرى ذلك وأجزع ، ويكاد قلبي يتقطع : ثم أرجع إلى الله فأعلم أنه مع الصابرين ، وأنه لا يضيع أجر العاملين ، فيتلج صدرى وأمضى فى جهادى الدائم . ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً . . .

وليتنى كنت أشكو إلى الله جهل العاملين وحق الملعين ، فى مثل هذه الجاهلية التى بعث النبى صلى الله عليه وسلم نحو أحكامها ، وإزالة آلامها . تلك جاهلية كان الضلال فيها بعيداً ، ولكن كان فهم القوم جديداً ، لذلك طغى الملاح لهم ضوء الهدى أبصروه ، وعندما قرع أسماعهم صوت الهدى أجاوبه . كان القرآن يصدر أفئدتهم فقلين من شدتهم ويقل من شرهم ، ويفجر من صخر القسوة ينابيع الخلق والرحمة . وما كان أهل العقاد فهم إلا قليلاً عرفوا الحق فانكروه ، وطائفة كانوا يقرون منه خوف أن يعرفوه . ولو سمعوا أنفسهم ، ثم لم يجدوا بداً من أن ينصروه . وإن الجحود مع القوم كاليقين مع العلم ، كلاماً قليل فى بنى آدم . أما اليوم فإنما أشكو من قلة الأنهم ، وضد العقل ، واختلال نظام

الادراك وفساد الشهور عند الخاصة ، فلا تجذبهم فصاحة ولا تبلغ منهم بلاغة
وغاية ما يطلبون أن يمدحوا بما لم يفعلوا ، وأن يوصفوا بالعلم وإن لم يفعلوا ،
وأن تقضى حاجتهم إذا سألوا ، وأن ترفع مكانتهم وإن نزلوا . وإن استمداد
السامع الفهم يستلزمك المقال ، ويسدد الفكر للنضال في الجدال ، أما عيشك
فيمين لا يفهم فإنه يلغى منك ينبوع الكلام ، ويطمس عين الفكر ،
ويزهق روح العقل .

الشيخ علي يوسف

١٢٨٠ - ١٣٣١ هـ (١٩١٣ م)

شأته وهياته

ولهذا السامع التابه والصحنى التايخ فى بلدة بلصفورة من أعمال محافظة
جرجان من أسرة زكية المنرس رقيقة الحال ، ولم يكذب يحول على مواده الحول حتى
نجحه الموت فى أبيه ، فارتحلت به أمه إلى أخواله فى بنى عدى من أعمال منفلوط
حيث درج وشب وحفظ القرآن وشدا شيئاً من مبادئ العلوم . وفى عام ١٣٩٩ هـ
بشوا به إلى الأزهر ، فطلب العلم على طائفة من صفوة الأشيخ بضع سنين لم
فيها بالفقه والنحو والصرف والبلاغة والمنطق والتوحيد ومبادئ الفلسفة ، إلا أنه
أحس فى نفسه السمو والطموح ، ورأى فى الأزهر الجود والجود ، فصدف عن
حياة الأزهريين ووصل أسبابه ببعض أبناء السراة يساهمهم ويساهمهم ويقول
الشعر فيهم ، حتى هبط مصر المرحوم أحمد فارس الشدياق صاحب الجوائب
وأنشأ جريدة (القاهرة الحرة) فاقبل به الشيخ على وأعان على تحريرها فكسبه
ذلك ملكة القوق الكتاني ، وأسرار الفن الصحافي ، فأخرج صحيفة سماها
(الآداب) ظلت تصدر حتى سنة ١٣٠٧ هـ . وبومئذ أراد الله لهذه النفس الغلبة
والهمة الوثابة أن تحطم القيود وتتجاوز الحدود وتمتعل القدر ، فصحت مزيمته

الشيخ على أن يصدر هو والشيخ أحد ماضى أحد رفاقه فى الأزهر جريدة يومية سياسية دعاها « للؤيد » .

ظهر العدد الأول من هذه الصحيفة فى ربيع الآخر سنة ١٣٠٧ هـ أو فى أول ديسمبر سنة ١٨٨٩ م ولا عدة لها من مال ، ولا ناصر لها من حكومة ، ولا عون لها من حزب ، ولا مشجع لها من جمهور . فلقى الرجل فى سبيلها برزحاً شديداً وجهداً باهراً حتى أسفه الله حينئذ بصحبة الخماى المدره سعد افندى زغلول . والكتاب الألى إبراهيم افندى القانى وأضرابهما ، فأمدوه بالمال والكتابة ؛ ولكن الخلاف دب ديبه بين الشريكين فلم يتفقا إلا على أن يكون الؤيد خالصاً للشيخ على إذا أدى لشريكه مائة جنيه عيناً فكداد يصبح الأمر قوت يده لولا أن تلك اليد البيضاء يد سعد زغلول امتدت إليه ثانية فى أحلك ساعات اليأس ، فألقت إليه بصرة فيها لال كله . وسار للؤيد بمد ذلك فى طريق النجاح مسدد الخطى مؤيد العزيمة يحذوه (رياض) رئيس الحكومة بنفوذه ، ويمده أعيان البيان بالتهالات الممتعة ، كسعد بك زغلول . والشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، والسيد توفيق البكرى ، وفضى بك زغلول ، وإبراهيم بك اللوىلى ؛ وقاسم بك أمين ، وإسماعيل باشا أباضة ، ومصطفى لطفى اللفلولى . فانتشر فى العالم الإسلامى انتشاراً لم تعرفه صحيفة قبله . وبلغ ما يطبع منه فى اليوم ، وعهده عهد أمية وجهالة ، ثمانية آلاف نسخة . وأعلى فى الدفاع عن الإسلام والقياد عن المرش بلاء أرضى عن صاحبه الخليفة والخديو والأمة ، فجلوا اسمه بالآفتاب ، وزينوا صدره بالأوسمة ، وعطروا ذكره بالثناء ، ولكن تجار الفساد أرحجوا بينه وبين الأجانب فرموه بالتمصّب ، واستمدوا عليه القناصل ، فكان يتنلب على هذه المراقيل والباطيل بصدق عزمته وقوة حزمه . ثم أصر إلى آل السادات من الصوفية فكان لهذا الصهر قضية وشهرة ، ولكنه انتهى على ما عودده الله بالفالج والظفر فاسترد الزوجة ، واغتصب السجادة الوفاية .

وعُرف الشيخ على بالولاء للقصر والإخلاص في خدمة العرش حتى حل من يدو عبان محل الناصح الأمين . وآل أمر صحيفته إلى أن أصبحت من القصر . غذاه السلوك ولسانه الناطق . وعاش هذا الرجل المصاحي النافع على كثرة حاسديه وقوة منافسيه ولَدِدِ مخالفيه موفور الكرامة مرفوع للسكانة جليل الخطر في نفوس الجميع حتى اختاره الله إلى جواره في يوم السبت ٢٥ من أكتوبر سنة ١٩١٣ م .

أفقر وفقر

كان الشيخ على حظ عظيم من نبل الخلق وفي ذلك سر نجاحه . وكان دمث الطبع ، متواضع النفس ، رحب الصدر ، جم الرواة ، شديد الوفاء ، مرهف الذهن ، سريع الفطنة ، شديد الاتكاء على نفسه ؛ وكان بعيد الخور فرماه خصومه بالسكر والهس ، واسع الأناة في السياسة فرموه بالتلؤلؤ والخيانة ، وكان سباقاً إلى الفضل دُعَاء إلى الخير لا ينسى الناس له أثره في إنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية ، وجعل التعليم في المدارس باللغة العربية ، ولا يزالون يذكرون في ذلك قوله : « إن تعليم الأمة بلسانها ينقل العلم إليها ، أما تعليمها بلغة أخرى فإنما ينقل أفراداً منها إلى العلم » .

أسلوبه وعلمه

لم يجر الشيخ في دراسته الأزهرية إلى الغاية ، فلم يتعمق في علم ، ولم يتجسط في أدب . ولم يبرز في فن من فنون الحياة ، ولا في لغة من لغات الناس ؛ ومع ذلك كان أكتب الصحفيين جميعاً ؛ كان له أسلوب خاص لا يتميزه صفة ، ولا تمويهه صيغة ، ولا يجمله وشئ ، وإنما يسحرك بلطف مدخله ، وحسن ترسله ، وصداد بجنه ، ووثيق جنته ، وقوة أسرته ، وكان من الكتاب الجدليين (Polémiste) الذين أوتوا قوة الحجاج وشدة المعارضة وصدق النظر ، ولكم وقف الكتاب موقف جرير من الشعراء يجادلهم وحده حتى يقرعهم بالحق .

وقد طالع الشعر في صدر شبابه فلم تسترِض له قوافيه ، ولم يدُ شأوا الأزهرين فيه . وقد جمع ما نظمته في ديوان سماء نسمة السحر نشرته سنة ١٣٠٢ هـ .

نموذج من شعره

قال من رَدّه على خطبة الورد كرومر عميد الهوة البريطانية في مصر على عهده وهي التي ألقاها على مسرح الأبرار في حقبة وداعه :

تقفون والفلك المحرك دائر وتقدرون فضحك الأقدار !
وقف الخطباء مساء السبت للماضي موقف المثلين في دار التمثيل الكبرى
(الأوبرة الخديوية) يحكون على الماضي والمستقبل حكم الأقدار في السكائنات ،
ويبرمون وينقصون ، ويرفعون ويخفضون ، والناس يسمعون مختارين
أو مكهرين لأن فرسان ميدان الخطابة كانوا ثلاثة لا يزيدون ولا ينقصون ،
ولأن الوقت كان حراً لكل قائل لسمعوا ما يكرهون كما قالوا ما يحبون .
قلنا لأنهم وقفوا موقف المثلين لأنهم كانوا كذلك في حقيقة الواقع .
وقد مثلوا آخر فصل من رواية كثيرة الحوادث عديدة الفصول طويلة الزمان ،
بطل قائمها وفارس مممها ذلك القدي كان آخر الخطباء في الحقبة كلاماً
وأشدهم إيلاًماً وأكثرهم آلاماً .

وقف ليمثل آخر سلطة له في هذه الديار ولسان حاله يقول :

« ما في وقوفك ساعة من باس »

مثلياً في مكان هو أليق ما كان عظة لقائل ، ومظهر ألسلطان راحل ،
ومجد زائل ، وأصدق ما ضرب له الأمتال : « لكل مقام مقال » .

ومنها : أما الاحتفال نفسه فلم يكن مظاهرة سياسية لإكرام الرجل عند رحيله
كما أرادوا ، ولكنه انقلاب بما جرى فيه مظهر ألدائيك من الورد لم ير الرادون
ولم يرو الرادون مثله في مقام وداع كهذا للقمام !

دعنا من كون رئيس الاحتفال أخطأ في أنه لم يكن للكلم الأول وما عرف حتى الآن أن رئيس احتفال ورئيس وزارة مما يقدم عليه سواء في الكلام . ودعنا من كونه خطب بالفرنساوية ولم يجعل لغة البلاد نصيباً من كلامه في احتفال كهذا . ودعنا من زعمه أنه يمثل مع الحكومة في موقفه السواد الأعظم من الأمة المصرية ، والسواد الأعظم يخالفه في الرأي والقول . ودعنا من قول السكونت دى سريون إنه يتكلم عن فئة من الأوربيين بما تشعر من حسرات الاحتلال عليها ، أو هو أراد إنجاح السفارة الإنكليزية بباريس في وساطة له لدى حكومة الجمهورية بمد ما حالت هذه الحكومة دون إتمام ملك أسبانيا وكل إتمام تلاه من الدول الأجنبية عليه فهو ينتظر اللجيمون دى نور بصبر نافذ .

دعنا من كل هذا وانظر إلى خطبة اللورد السياسية التي جعلها بمثابة وصيته الأخيرة وخاتمة أعماله في مصر .

فيينا كانت الأمة المصرية واقعة موقف الآمل منتظرة من ذلك الراحل العظيم والشيخ الحكيم أن يصلح ما فرط منه نحو الشريعة الإسلامية بما قضى عليها من الجلود الأبدى ، ونحو الأمة المصرية بما وصفها به من القم السرمدى ؛ بينما هي ترجو من جنابه أن ينتهز هذه الفرصة السانحة ليأسو الجراح التي جرحها ، ويضمّد السكاوم التي فتحتها في جسمها بما تقدم وبما أراد أن يجعل وطنيتها أحجوبة بين الوطنيات ، وجامعتها كشكولاً بين الجامعات وبينما كان سمو أمير البلاد جعطف ويتلطف ويبالغ في إكرام الراحل عند رحيله متناسياً الحزازات السياسية التي طالما كان اللورد مهاجماً فيها غير عادل ولا متلطف ، وبينما كان كل هذا إذا يركن « البيروقراطية » التي نشأ عليها اللورد ومارسها كل حياته حتى برز فيها أكثر من كل مبرز في تواريخ الحكومات المطلقة قد انقصر بركانه وقذف بلفظه على الأحياء والأموات .

وقف اللورد خطيباً وهو يدافع كيد السقام ، وبجاذب داعى الخصام ، نجال في خاطره أنه مفارق قصر أيجرى من تحته الأشجار ، وملكا خضع لفيه الليل

والنهار ، وتارك خصوصاً قد يتوهمون أنهم نازعوه فغلبوه ، أو يتوهم هو أنه
حالمهم فأغضبوه .

وقف المورد وله فسان : نفس نزاعة إلى حب البقاء ، وأخرى تقول
كيف البقاء بعد الاستغناء ؟

وقد ذكر أصدقاءه القليلين كما يعلم ، وأعداءه الكثيرين كما يتوهم ، فسر
وساء ، وترخص وتشد ، وعدد وتدد ، ووعد وتوعد ، وأرغى وأزبد ، وحذر
وأثزر ، وحكم وقدر .

ربما أخرج المزين جوى الحزن ن إلى غير لائق بالسداد
مثلاً قامت الصلاة سليماً ن فأضحى على رقاب الجياد^(١)

إبراهيم المويلحي

١٢٦٢ — ١٣٢٣ هـ

تأثر وميات

ولد هذا الكاتب الكبير في بيت من بيوت التجارة الوطنية من أسرة ناعمة
العيش واسعة الثروة موصولة الجاه بالأسرة الخديوية للالسكة ، فتدرب منذ إقامته
على شئون التجارة وتعمرس في فنونها ، إلا أن طبعه القلق اللجوج ، ونفسه للتوثبة
الطموح ، لم يطاوعه على الرضا بالريح للشروع فتدفع بماله في وجوه (المضاربات)
فما ارتد إليه منه غير صفقة المنهون : فعاش عيشة الكفاف والتعفف حتى هبت
عليه نفحة من جود اسماعيل فجعله قاضياً في محكمة الاستئناف . ولكنه اختلف
هو ورئيسه اختلافاً لم يفته إلا باستقالاته . فقلده الخديو عملاً آخر ففاته فيه ماله
في التجارة والقضاء . وجاءت وزارة شريف تريدان تضع الدستور الأول فكان

(١) نشرت بالمؤيد في ٧ مايو من سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٧٥ .

الويليحي عن اختياروا لوضع (الملائمة الوطنية) ؛ ولكن آماله كانت تنفر له
 دأما عن وجوه القشل فابتنى الوسيلة إلى الرزق في الكتابة والنشر فأنشأ (جمعية
 للمعارف) لطبع الكتب القيمة وإذاعتها في مطبعة اشترها لنفسه . ثم اتفق مع
 المنفور له محمد بك عثمان جلال مترجم مُليو وصاحب الميون اليواظ ، على
 إنشاء جريدة (نزهة الأفكار) ؛ ولكن الخديو إسماعيل خشى شرها فأنهاها .
 فلما كانت سنة ١٢٩٦ هـ وخرج الخديو مغلوطاً من ملكه إلى إيطاليا أرسل في
 طلب إبراهيم ليتخذه كاتب رسائله ، فقام له بهذا العمل بضع سنين أنشأ في
 خلالها وهو في إيطاليا جريدتي « الاتحاد » و « الأنباء » فلم تنمما بالحياة غير قليل .
 ثم رحل إلى الآستانة سنة ١٣٠٤ فأكرم عبد الحميد وفادته وجعله عضواً في مجلس
 المعارف فلبث فيه تسع سنين اتصلت فيها أسيابه برجال (الماييت) ورؤساء
 الحكومة . ثم ارتد إلى مصر وقد خط الشيب في رأسه ، ونالت الأيام من
 جسمه ، فأنشأ (مصباح للشرق) وهي صحيفة أسبوعية كان يدبجها باللفظ الرشيق
 والأسلوب الأنيق ورسها بالسهام النافذة في الاجتماع والتقد والسياسة .
 فقصت حاجة في نفوس الأدياء ، ونهجت لهم الطريق السوي في الإنشاء ، ووطأت
 له مرأ كفاف الرؤساء والكبراء واستمر على إصدارها حتى طويت صحيفة حياته .

أسلوبه

كانت الكتابة في عهد الويليحي لا تزال ترسف في أغلال الصنعة ، وتكابد
 أعراض الوهن ، فلم يستطع قلعه أن يخرج عن سلطان البديع ، ولا أن يبرأ
 من تكلف الحلية الظاهرة . إلا أن تصرفه في الأمور ، وتقلبه في البلاد ،
 واختلاطه بألوان الناس ، واتصاله برجال البلاد ، ومقامته في السياسة ، وتغرسه
 في الصحافة ، فتت قريحته ، وذلت ممانيته ، وسهلت أحلوه وأمكتته من عنان
 البلاغة فصرتها حيث شاء ولا سيا في الرسائل ، فقد تفنن في جميع ضروبها وأحسن
 في سائر مناجيها . والويليحي على ما به من ضيق المضطرب في الماني ، وضعف

السليقة في الابتكار ، أشبه بالبارودي في الشعر : جدد مارس من أصاليب الكتابة ؛ وبين ما طمس من معالم البيان ، وكان ركناً شديداً من أركان هذه النهضة المباركة .

آثاره

جل ما أثر عنه مقالاته السياسية والاجتماعية التي نشرها فيما أنشأ من المصنف كنزحة الأفكار والاتحاد والأياء ومصباح الشرق ، أوفياً أعلن عليه منها قضايا الخلقين في إنجلترا والعروة الوثقى في فرنسا . وله غير ذلك كتاب « التراج بعد الشدة » في وزارة رياض باشا ، وكتاب « ما هنا لك » وصف فيه حال الأستانة ورجال اللابيين قبل الدستور العثماني .

حفي ناصف

١٢٧٢ - ١٣٣٧ هـ

نشأته وحياته

ولد محمد حفي ناصف بن الشيخ إسماعيل ناصف عام ١٢٧٢ للهجرة في ضاحية من ضواحي القاهرة تسمى بركة الحج يتيماً فقيراً ، فسكفه خاله وجدته لأبيه . ثم دخل كتاب القرية فتململ مبادئ القراءة والكتابة وحفظ جزءاً من القرآن . ثم فر إلى الأزهر في الحادية عشرة من عمره فكث فيه ثلاث عشرة سنة ؛ ثم سلك نفسه في الماخلين (دار العلوم) تنقف علومها وعين أستاذاً للغة العربية في المدارس الأميرية . ثم اختير للتدريس في مدرسة الحقوق فوقع في نفسه أن يشارك طلبتها في دروسهم . فدرس القانون وترك التدريس وانتخب كاتباً للقائب العمومي . ثم عين قاضياً سنة ١٨٩٢ م في المحاكم الأهلية وبلغ من أمره في القضاء أن صار وكيلاً لمحكمة طنطا الأهلية . وفي غضون ذلك اعتدب للتدريس

الأدب العربي في الجامعة المصرية وهي أهلية ، فألقى فيه محاضرات عميمة جمعت في كتاب خاص . ولما أقعد الشيخ حمزة فتح الله مفتش اللغة العربية الأكبر في وزارة المعارف خلفه الأستاذ حفي بك ، فازهرت دولة الأدب واعتز جانب اللغة . وقضى هذه الفترة القصيرة في التقريب والتتبع حتى شارف الستين فأحيل على اللماش وما عمر بعد ذلك إلا ثلاث سنين . ثم وافاه أجله في أواخر نوفمبر من سنة ١٩١٩ م ودفن في مقبرة الشافعي .

أخوه

كان رحمه الله فكه الحديث ، مليح العبارة ، حاضر البديهة ، سريع الجواب ، كثير الدعابة ، رضى الخلق ، مشاركاً في كل علم وفن ، جارياً مع القديم والحديث .

نثره وشعره

حفي بك ناصف ركن من أركان النهضة الأدبية الحديثة . أحيائها ببحوثه ومؤلفاته ، وقواها بقصائده ومقالاته . وهو ضليع في فنون اللغة ، خبير بقواعد اللسان ، بصير بأسرار الكلام ونقده . وأسلوبه في الرسائل يجري على منهاج المتأخرين من كتاب العصر المباسي في الكلف بالسجع والقصد إلى البديع . له أسلوب مرسل في المقالات يجرده من زخرف الصناعة فيسيل رقة وسلامة . أما شعره فمنظم من الأسلوب النثري للنظوم ، تكثر فيه اللوح والحسنات اللفظية ويظهر الضعف في تراكيبه أحياناً ، إلا أنه على الجملة سلس مطبوع .

مؤلفاته

له مع غيره سلسلة في قواعد اللغة كانت تدرس في المدارس المصرية ، وكتاب (ميزات لغة العرب) قدمه إلى مؤتمر للشرقيين الذي أقيم فيها سنة ١٨٨٦م وقد كان كاتب سر الوفد الذي مثل مصر في هذا المؤتمر ، وكتاب

حياة الامة العربية) وهو مجموع محاضراته التي ألقاها في الجامعة المصرية ، وكتاب القطار السريع في علم البديع ، ورسالة البحث وللناظرة ، وأخسرى في المنطق ، وكتاب الأمثال العامية ، وبديع الامة العامية . وأكثر كتبه غير مطبوع .

نموذج منه مشعره

قال يخاطب أحد الرؤساء :

أحييت آمالي وكنت أمتها	من طول ما لاقيت من إخواني
أدلى بإخلاص لم وأذود عن	أعراضهم بموارحي ولساني
مخضتهم ودي قلما أيسروا	كانت بداية أمرهم نسياني
حسبي من الدنيا صديق ثابت	فرد فكفه ولا احتياج لثاني

وقال أيضاً :

أهضى معي إن حلن حيني تجلبي	وما نلتها إلا بطول عناد
ويمزقني ألا أرى لى حيلة	لإعطائها من يسحق عطائي
إذا ورثت المئون أبنام غني	وجاهاً ، فإشقى بنى الحكاء

ومن ثمره رسالة عزى بها الشيخ على يوسف في ولده .

خفف الله لوعتك ، وأرقأ دعمتك ، وجنبك الجزع ، ووقاك الملح ، وألمحك الصبر ، وأجزل لك الأجر ، ورزقك من البنين ، في مستقبل السنين ، ما تقر به حينك ، ويقوى به غناك . وأنت والحمد لله في قوة ، وبقية من الفتوة ، تمسكتك من الأوبة ، بخير البتوة . على أن لك في عالم السياسة ، وضروب الكياسة ، في هذه البلاد ، ألوانا من الأولاد ، وآثاراً كبرى ، تضمن لك الذكرى ، وتجمل لك على مدى السنين ، لسان صدق في الآخرين . والسلام عليك ورحمة الله .

باحثة البادية

١٨٨٣ — ١٩١٨ م

نشأتها وعيانتها

هي السيدة الفاضلة ملك ناصف بنت الشاعر والكاتب حفي بك ناصف .
ولدت بالقاهرة يوم الاثنين من شهر ديسمبر سنة ١٨٨٦ وتلقت مبادئ العلوم
في مدارس أولية مختلفة . ثم دخلت للمدرسة السنية في أكتوبر من سنة ١٨٩٣ م
ونالت منها الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠٠ م وهي أول سنة تخدمت فيها الفتيات
للصريات إلى نيل هذه الشهادة . ثم انتقلت إلى قسم اللغات من هذه المدرسة
فدالت منها إجازة التدريس ومارست بعد ذلك التعليم في مدارس البنات الأميرية .
وفي سنة ١٩٠٧ م بقى بها عيذ الستار البازل وهو سرى من سرارة قبيلة الرماح
بالقيوم ، فترك التدريس وعكفت على الكتابة والتأليف ، وعاشت مع زوجها
حيثما الزوجة المحلصة البرة حتى توفيت بالحمى الإسبانية في أكتوبر من سنة
١٩١٨ م وهي في زهرة العمر ونضرة الشبيبة .

مطهرها في العلم

أظهر ما تدل عليه كتابة الباحثة من أخلاقها عنوبة الروح وسراوة الخلق
وذكاء الطبع وحمية الدين والرغبة في الإصلاح . تهديها والها الكرم منذ طفولتها
فقد أباها بآدبه ، ووثقت فيها من روحه ، فأخذت تعالج القريض وهي في الحادية عشرة
من عمرها . ثم توافرت على صناعة الإنشاء فبلت منها مكانة يحسد عليها
الرجال . عيّنت يئهاض المرأة المصرية بعد قاسم أمين ، فكانت أول مصرية
مسجلة جاهرت بالدعوة العامة إلى هذا العمل في بيئة لا تزال رجسية . ألفت في هذا
للوضوع سلسلة من المحاضرات في إدارة الجريدة التي كان يصدرها حزب الأمة

وبرأس تحريرها الأستاذ أحمد لطفي السيد ، وكُتبت عنه طائفة من المقالات في هذه الصحيفة بإمضاء « باحثة البادية » فصار لقباً غلب عليها .

جمعت هذه المقالات في كتاب عنوانه « النسائيات » ونشرت منه جزء الأول . ثم شرعت في آخر حياتها تؤلف كتاباً مطولاً سمته « حقوق النساء » أنجزت منه ثلاث مقالات ثم حالت المنية دون إتمامه :

نموذج من كلامها

من قولها في كتب النسائيات :

ما أتقى الهواء ، وأعذب لواء ، وأصفى السماء في القرى ! وما أكذب الحياة وأقرب الوفاة في المدن ! القرى جبهة لأنها على الفطرة . أما المدن فلا تدم أترأ لتكلف والرياء . أين دوى الكهرباء ، ومن خرير لواء ، والدخان المتعاقدفوق للداخلين ، من جولاً ترى فيه إلا تخليق الصقور وإلا رموس النحل الباسقات ! وأين وحل الشوارع وعثيها من أرض كسيت بيساط النبات ؟ وأين الراحة للبعثة من مقاذير المنازل وروث الدواب من شذى أزهار الحقول ؟ بل ما أضل البصريريد الجولان فيرده من هنا جدار ومن هناك سور ، من نظر تسرحه حيث شئت فلا تجد إلا اللاهاية في القضاء !

ومن قصائدها في حال المرأة قصيدة مطلها :

أَعْلَتْ أَقْلَامِي وَحِينَا مَطْعَمِي	فِي النَّصَحِ وَالْمَأْمُولِ لَمْ يَتَحَقَّقِ
أَيْسَوْزَكُمَ أَنْ تَسْمَعُوا لِبَنَاتِكُمْ	صَوْتاً يَهْزِمُ دَاءَ عَطْفِ الْمَشْرِقِ ؟
أَبْسِرْكُمْ أَنْ تَسْتَمِرَّ بَنَاتُكُمْ	رَهْنُ الْأَسَارِ وَهَنْ جَهْلِ مَطْبِقِ ؟
هَلْ تَطْلُبُونَ مِنَ الْفَتَاةِ سَقُورَهَا ؟	حَسَنٌ ، وَلَكِنْ أَيْنَ بَيْنَكُمْ التَّقَى ؟
لَا تَنْتَقِ الْفَتَيَاتُ كُشْفَ وَجُوهِهَا	لَكِنْ فَسَادَ الطَّبِيعِ مِنْكُمْ تَنْتَقِ
تَغْشَى الْفَتَاةَ حَبَائِلُ مَنْصُوبَةٍ	غَشِيَتْ بِهَا فِي الْكَلَامِ بَرُوقُ

لا تظفروا بل أصلحوا فتياتكم وبناتكم وتسايقوا للأليف
ودموا النساء وشأنهن فإنما يدرى اغلاص من الشقاوة من شقى
ليس السفور مع العفاف بضائر وبدونه فرط التحجب لا يبق

مصطفى لطفى المنفلوطى

١٨٧٦ - ١٩٢٤ م

شأته وميانه



ولد السيد مصطفى لطفى
بمنفلوط من أعمال محافظة أسيوط
سنة ١٢٩٣ هـ - ١٨٧٦ م ونشأ
في بيت كريم بالدين جليل بالقدرة
توارث أهله قضاء الشريعة ونقابة
الصوفية قرابة مائتي سنة . ونهج
المنفلوطى سبيل آبائه في التماقة
فحفظ القرآن في المكتب . وتلقى

العلم بالأزهر ، ولكنه كان على الكره من ورع قلبه ورعاية أبيه لا يلتقي بالله
كثيراً لغير علوم اللسان وفنون الأدب . فهو يحفظ الأشعار ويتصيد الشوارد
ويصوغ القريض وينشئ الرسائل ، وتسير له شهرة في الأزهر بذكاء الترجمة
وروعة الأسلوب فيقر به الأستاذ محمد عبده ، ويرسم له الطريقة المثلى إلى الغاية من
الأدب والحياة . ثم يستفيد المنفلوطى من قربه إلى الإمام صلته بسمه بأشاز غلول ،
ومن زلفاه لدى هذين العظميين نفوذه لدى صاحب (المؤيد) ، وهؤلاء الثلاثة كانوا

أقوى العناصر في تكوين المفلوطى الأديب بعد استمدا فطرته وإرشاد والده .
وفي أثناء طلبه في الأزهر نسب إليه أنه هجا الخديو عباس حلى الثانى بقصيدة
نشرها فى إحدى الصحف الأسبوعية فحكم عليه من أجلها بالحبس وقضى فى السجن
مدة للمقوبة . ولما قبض الله الإمام إلى رحمته جزع المفلوطى فيه على رجائه وسنده ،
وارتد مقطوع الرجاء إلى بلده . ثم نعى الله عائر أمه بعد فترة من الزمن ، فهب
يبتنى فى جريدة (المؤيد) الوسيلة والتجج . ثم صارت إلى سعد باشا وزارة
المعارف فينبه محرراً عربياً لها . ولما تحول إلى وزارة الحفانية (العدل) حول ممة
وولاء فيها مثل هذا للنصب . ثم انتقل الحكم إلى غير حزبه فنقل من عمله ،
حتى إذا قام البرلمان عينه سعد باشا فى وظيفة كتابية بمجلس النواب ظل فيها
حتى وفاة الله وهو فى العقد الخامس من عمره .

أظهر

كان المفلوطى قطعة موسيقية فى ظاهره وباطنه ؛ فهو مؤلف الخلق ، متلائم
الذوق ، متناسق الفكر ، منسق الأسلوب ، منسجم الزى ، لا تلمح فى قوله
ولا فى فعله شذوذ العبقرية ولا نشوز الفدامة . كان صحيح التفهم فى بطة ، سليم
الفكر فى جهد ، دقيق الحس فى سكون ، هيب اللسان فى تحفظ ؛ وهذه الخلال
تظهر صاحبها للناس فى مظاهر انبى الجاهل ، فهو لذلك كان يتقى المجالس ويتجنب
الجدل ويكره الخطابة : ثم هو إلى ذلك رقيق القلب عف الضمير سليم الصدر
صحيح العقيدة نفاع اليد وزع العقل والفضل والموهوب بين أسرته ووطنه وإنسانيته .

أسلوبه وأدبه

كان المفلوطى أديباً موهوباً ، حظ الطبع فى أدبه أكثر من حظ الصنعة ؛
لأن الصنعة لا تخلق أديباً مبتكراً ولا أديباً ممتازاً ولا طريقة مستقلة ؛ وكان النثر
القفى على عهده لوناً حائلاً من أدب القاضى الفاضل ، أو أثر أماناتلن ابن خلدون ؛

ولسكنك لا تستطيع أن تقول إن أسلوبه كان مضروباً على أحد القالبين ، إنما كان أسلوب للفلوطنى فى عصره كأسلوب ابن خلدون فى عصره ، بديعاً أنشأه الطبع القوى على غير مثال .

عالج للفلوطنى الأقصوصة أول الناس وبلغ فى إجادتها شأواً أما كان ينتظر من نشأه كنشأته فى جيل كجيله . وسر القديوع فى أدب الفلوطنى أنه ظهر على فترة من الأدب اللباب . وفاجأ الناس بهذا القصص الرائع الذى يصف الألم ويمثل الميوب فى أسلوب طلى وبيان عذب وسياق مطرد ولفظ مختار . أما صفة الخلود فيه فيمنع من تيقها أمران : ضعف الأداة وضيق الثقافة . أما ضعف الأداة فلأن للفلوطنى لم يكن واسع العلم بلثته ولا قوى البصر بأدبها . لذلك نجد فى تمييزه الخطأ والفضول ووضع اللفظ فى غير موضعه . وأما ضيق الثقافة فلأنه لم يتوفر على تحصيل علوم الشرق ، ولم يتصل اتصالاً مباشراً بعلوم الغرب . لذلك تلمح فى تفسيره السطحية والسذاجة والإحالة . وجهة القول أن للفلوطنى فى النثر كان كالبارودى فى الشعر : كلاماً أحياء وجدد ، ونهج وعبد ، ونقل الأسلوب من حال إلى حال .

مؤلفاته ومترجماته

له كتاب (النظرات) فى ثلاثة أجزاء جمع فيه ما نشره فى المؤيد من الفصول فى النقد والاجتماع والوصف والقصص . وكتاب (العبرات) وهو مجموع من الأقاصيص المقولة واللوذوعة . ثم (مختارات الفلوطنى) من أشعار المتقدين ومقالاتهم . وقد ترجم له بعض أصدقائه عن الفرنسية : تحت ظلال الزيتون (مجدولين) لألفونس كار ، وبول وفرجينى (الفضيلة) لبرناردى سان بيير ، وسيرانود برجرالك (الشاعر) لأدمون رستان ، فصاغها بأسلوبه البليغ الرصين صياغة حرة لم يتقيد فيها بالأصملى ، فأضافت إلى ثراء الأدب العربى ثروة ، وكانت للفن القصصى الحديث قوة وقوة .

تموزج صه شره

التنى والفقير

مررت لية أمس برجل بئس ، فرأيتة واضماً يده على بطنه كأنما يشكو
السا ، فرثيت لحاله ، وسألته ماله ، فشكا إلى ألم الجوع ، ففتأته عنه ببعض ما قدرت
عليه ، ثم تركته وذهبت إلى صديق لى من أرباب الثراء والنعمة فأدهشنى أنى
رأيتة واضماً يده على بطنه ، وأنه يشكو من الألم ما يشكو ذلك البائس الفقير ،
فسألته عما به ، فشكا إلى بطنه ، فقلت : يا لامجب الواء على ذلك التنى ذلك
الفقير ما فضل عن حاجته عن الطعام ماشكا واحد منهما سقما ولا أسأ . ولقد
كان جديراً به أن يتناول من الطعام ما يشبع جوعته ويطفى غلته ؛ واسكنه
كان حجاباً لنفسه مغالياً بها فضم إلى مائدته ما اختلصه من صحفة الفقير ، فماقيه
الله على قسوته بالبطنة ؛ حتى لا يهنى للظالم ظله ، ولا يطيب له عيشه ،
وهكذا يصدق للتل القائل . بطنة التنى انتقام الجوع الفقير .

ما ضنت السماء بئائها ، ولا شعت الأرض بئائها ، ولكن حسد القوى
الضعيف عليهما فزواهما عنه واحتجبهما دونه ، فأصبح فقيراً معدماً شاكياً
متظلماً ، غرماؤه لليا سير الأغنياء ، لا الأرض والسماء .

ما أظلم الأقوياء من الإنسان ، وما أقسى قلوبهم ! ينام أحدهم ملء جنبه
على فراشه الوثير ولا يخلقه في مضجعه أنه يسمع أنين جاره ، وهو يعد برداً وقرأ ،
ويجلس أمام مائدة حافلة بصنوف الطعام ، قديده وشوائه ، حاره وحامضه ،
ولا ينفص عليه شهواته علمه أن بين أقربائه وذوى رحمه من تتوالب أحشائه
شوقاً إلى ففات تلك اللائدة ، ويسيل لعابه تلهفاً عن فضلاتها ، بل إن بينهم
من لا يتخالط الرحمة قلبه ، ولا يستقد الحياء لسانه ، فيظل يسرد على مسمع الفقير
أحاديث نيمته ، وربما استعان به على عد ما تشتعل عليه خزانته من الذهب ،
وصناديقه من الجواهر ، وغرفة من الأثاث والرياش ، ليكسر قلبه ويغنص عليه
عيشه ، ويبغض إليه حياته ؛ وكأنه يقول فى كل كلمة من كلماته وحركة

من حركاته : « أنا سعيد لأنى غنى . وأنت شقى لأنك فقير » .
لا أستطيع أن أتصور أن الإنسان إنسان حتى أراه محسناً ، لأنى لا أعتقد
غضلاً صحيحاً بين الإنسان والحيوان إلا الإحسان . وإنى أرى الناس ثلاثة :
رجل يحسن إلى غيره ليتخذ إحسانه إليه سبيلاً إلى الإحسان إلى نفسه ، وهو
للسبب الجبار الذى لا يفهم من الإحسان إلا أنه يستفيد الإنسان . ورجل يحسن
إلى نفسه ، ولا يحسن إلى غيره ، وهذا الشرير الذى لو علم أن اقدم السائل
يستحيل إلى ذهب جامد قدح فى سبيله الناس جميعاً ، ورجل لا يحسن إلى نفسه
ولا إلى غيره ، وهذا البخيل الذى يجمع بطنه ليشبع صندوقه .
أما الرابع الذى يحسن إلى غيره ويحسن إلى نفسه فلا أعلم له مكاناً ،
ولا أجد إليه سبيلاً . وأحسب أنه هو الذى كان يفتش عنه الفيلسوف اليونانى
ديوجين الكلبى حينما سئل ما يصنع بمصباحه وكان يدور به فى بياض النهار
قال : « أفتش عن إنسان » .

عبد العزيز شاويش

للتوفى سنة ١٩٢٩ م

تأثر وحياته

ولعبد العزيز بن خليل شاويش فى الإسكندرية من أسرة مغربية الأصل
تشغف بالتجارة . ثم تعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن فى أحد
الكتاتيب ، ثم طلب علوم الدين والربية فى جامع الشيخ بالإسكندرية فشدوا
شيثاً منها أهله إلى أن يقدا إلى القاهرة ويدخل الجامع الأزهر . وكان أذكى
الأزهريين يومئذ يمدون أنفسهم إلى الدخول فى (دار العلوم) لأنها كانت أقصر
الطرق إلى التعليم والحمامة ، وأنجع الوسائل إلى التجدد والرفاهية ، فدخلها الشيخ
عبد العزيز ، واشتهر بين لداته بالجد والاستقامة ، والنيرة على الدين والكرامة

ولما نال إجازتها تولى التدريس في مدرسة الناصرية ودحّا من الدهر ، ثم اختير في بعثة إلى إنجلترا ليتخصص في التربية والآداب ، فعلم اللغة الإنجليزية وأطلع منها على الآداب الأوروبية فازداد علمه واكتمل بيانه وتنوعت ثقافته . ثم رجع إلى مصر فعين مفتشاً بوزارة المعارف - وعاد ثانية إلى إنجلترا ليعلم اللغة العربية في جامعة (أكسفورد) ثم انتهى أمره إلى أن يعود إلى مصر ويرجع إلى التدريس وكان بينه وبين زميله للرحوم عاطف بركات منافسة في الطلب وفي الوظيفة؛ وكان بين عاطف بركات وبين وزير المعارف وهو يومئذ سعد باشا زغلول قرابة واشجة . فظن الشيخ عبد العزيز أن لهذه القرابة أثرًا في تقديم منافسه عليه فاستقال من العمل في وزارة المعارف سنة ٨-١٩ وانضوى إلى لواء الحزب الوطني . ثم أصبح بعد موت الزعيم مصطفى باشا كامل رئيساً لتحرير (الواء) . ثم جرت عليه صراحته في التحرير وشجاعته في الحق وحماسته في السياسة ، متاعب كثيرة منها الحكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر في جريمة من جرائم الرأي . فلما خلّصه من رحل إلى أوروبا . وشبت الحرب العالمية الأولى فشق عليه الرجوع فظل هناك خمس مكاره الفربة من فراق الأهل وإلحاح الفقر وخذلان الصديق ، حتى وقتلها الحرب فعاد إلى وطنه مضمض الآمال خائر القوى ، فتجهت له بمض الوجوه ، وانقبضت عنه أكثر الأيدي ، وحاول أن يعود إلى السياسة من طريق البرلمان فلم يفلح ، فانصرف إلى اكتساب الرزق من ناسية الصحافة حتى أدرسته رعاية الملك فؤاد فعين مراقباً للتعليم الأولى في وزارة المعارف ؛ فاضطلع بأعباء هذا المنصب للرهق بضع سنين ثم أصابته علة القلب فتوفاه الله في يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر يناير من سنة ١٩٢٩ .

امهوقه

كان رحمه الله جميل السمات حسن الشارة متواضع النفس حلوا الحديث لطيف الروح شديد الحياء ندى الراحة ، جريئاً في النطق عن دينه ، شجاعاً في الادياد

من وطنه ، صريحاً في الإبانة عن رأيه . سباقاً إلى كريم الساعى ، فشارك في كثير من الأعمال الخيرية كتأسيس جمعية للواسة الإسلامية بالإسكندرية ، وإنشاء المدرسة الإعدادية الثانوية بالقاهرة . وقد كان في طبعه حدة تظهر على قلمه أو لسانه إذا أودى في كرامته أو وطنيته أو عقيدته .

أسلوبه

كان أسلوبه خطائياً يؤثر بالباطفة أكثر مما يؤثر بالمطلق . وكان يجرى فيه مجرى الأسلوب للنسوب إلى الإمام على في نهج البلاغة . وهو من الكتاب القلائل الذين أطلعوا على آداب الفرنجة وتأثروا بها . وكانوا وسطاً بين المذهبين القديم والحديث . وكان من علماء العربية وفقهاء الدين وأعلام الصحافة فمالج الموضوعات الدينية والسياسية بالأسلوب الجزل والصنعة المقبولة ، إلا أنه كان كأكثر معاصريه قليل العناية باختيار اللفظة المناسبة والاقتصار على الجملة الفدالة .

مؤلفاته

من مؤلفاته التي نعرفها كتاب (غنية المؤمنين) في التربية العائلية والعملية ؛ وكتاب (الإسلام دين الفطرة) للدفاع عن الدين وبيان بعض أحكامه وكتاب (أسرار القرآن) فسر فيه بعض آي الذكر الحكيم تفسيراً ملائماً لروح العصر .

نموذج من شعره

قال في فاتحة مقالاته في جريدة الأواء يوم استقال من وزارة المعارف :
« بمونك اللهم قد استدرت حياة زأدها الجبن وجو: العنية ، ومطيتها الدهان والتليس . في أسواقها النافقة تشتري نفيسات النفوس ، بزوف الفؤوس ، وتباع القسم والسرائر بالانقسام وهز الرءوس ، وبمسك اللهم استقبل فاتمة الحياة الجديدة ، حياة العراحة في القول ، حياة الجهر بالرأى ، حياة الإرشاد

العام ، حياة الاسمانه فى سبيل الدفاع عن البلاد العزيزة . أستقبل هذه الحياة بعد أن قضيت فى ساجتها ثمانى حجج ، بلغت فيها ذلك المنصب الذى كنت فيه ما بين محمود عليه ومرجوفه . أستقبل هذه الحياة المنفوقة بالخطر ، مبريا فى ميدانها ، فأما إلى الصدر ، وإما إلى القبر . موقفا بما أعد الله لعباده العاملين الخالصين ، من النقر والفتح البين .

ومن مقاله بعنوان « مدرسو اللغة العربية المصريون فى بلاد الإنجليز » :

« نصح إلى المستردنوب أيام سافرت إلى أكسفورد ، أن أتحدى بما أراه من الأخلاق الفاضلة فى تلك الأمة العظيمة ، فإذا جرى ؟ ذهبت إلى تلك الديار فوجدت الناس متمسكين بدينهم فزادونى تمسكا بدينى . رأيتهم شديدى الحرص على لغتهم فزادونى حرصا على لغتى . أبصرتهم يتفانون فى الدفاع عن بلادهم ويحرمون على الأجانب الاستيلاء على بعض شئونهم أو التصرف فى اموالهم وراقبهم فأخذت أحاسنهم فى هذه البلاد السيئة العظيمة بالاحتلال وأشياعه . رأيتهم يحبون الراحة ، ولا يمشون متعبين ، ولا يتهيبون متعبين ، مادام الحق لهم فأخذت أحاسنهم فى تلك الفضائل التى نصح بها إلى عميدهم بنظارة المعارف العمومية ! أبصرتهم يحبون العمل ويكرهون الكسل ، ومحضون على الفضيلة ، فعدت إلى بلادى ، ثم صرت أشتغل بهمة لا تعرف الملل ولا الانقطاع ، فكان حقا على الإنجليز أن يرفعوا عقيرتهم ، ويقوم خطباؤهم وشعراؤهم بالإفاضة والإسهاب فى مدح من نصح فى تعليمهم ومحاكاةهم فى فضائلهم ، ممن رحلون إلى بلادهم من المصريين .



الأدباء

ناصريف اليازجى

١٨٠٠ - ١٨٧١ م

نشأته ومبائه

ولد ناصريف بن عبد الله اليازجى بكفر شيما من قرى لبنان ونشأ في بيت فضل وعلم وأدب، وبدأ يتعلم المبادئ على أحد القساوسة، ومبادئ الطب على أبيه، وصبت نفسه إلى الآداب فطلق يطلبها ويحصلها، والكتب يومئذ نادرة وتجارها بائنة ومطلبها بعيد. فكان إذا وقع في يده مخطوط حفظه أو نسخه أو تلصقه، حتى غزرت مادته، وكلت آلته، وبلغ حظه من الثنور والفظوم، فاحتسبته الأمير بشير الشهابى وهو في أوج عزه فكتب له ولزمه اثنتى عشرة سنة حتى أخرج من بلاده سنة ١٨٤٠، فنزل الشيخ بأهله إلى بيروت واقطع إلى اللطائف والتأليف والتدريس ومراعاة الأدباء ومساواة الشعراء حتى منى في أعقاب عمره بفالج نصفى عطل شطره الأيسر. ثم نجح في بكر أولاده الشيخ حبيب، فضممت هذه الناجمة قواه وهذت ركبه ولم يمش بعده إلا يسيراً.

شعره وشعره

ترسم الشيخ خطوات الحريرى واتبع نهجه، فأولع بالبدیع، واقنع فى الصناعة، وكلف بالتریب. وعالج المقامات فأنشأ منها ستین مقامة أجاد فیها التقليد وأتقن الاحتذاء وبلغ من الخلیة الفظلیة الغایة. وأعجب بالمتنبى فى الشعر كما أعجب بالحریرى فى النثر، ولكن تقلیده لأنى الطیب كان أضعف، وتخلفه

عن مجاراته كان أظهر : فبجاه شعره على طول معالجته له وقوه طبعه فيه أشبه بشعر
الحريري وأخراجه ، وبخاصة تلك القصائد التي تشكف فيها للتاريخ الشعري ، وقد
قال في ذلك وأسرف حتى كان يضمن اليهين ثمانية وعشرين تاريخاً أو ينظم
القصيدة فيلزم في كل شطرة من شطراتها تاريخاً كقصيدته في تهنية إبراهيم باشا
بفتح عكاه ، أو ينظم القصيدة كلها من الحروف للهمة كقوله :

حول در حل ورد عدل له شعر ورد

على أن له قصائد تهب عليك من خلال آياتها فصحت أي الطيب فيجزل
لفظها ويقوى أسلوبها وتفيض بالمعاني للبشكرة والحكم البالغة والأمثال السائرة .
عظم ومؤلفاته

آثار اليازجي تدل على مادة غزيرة في اللغة ، واطلاع واسع في الأدب ،
وإتقان عجيب لعلوم اللسان . فله كتاب مجمع البحرين وهو مجموع مقاماته الستين
التي قلدها الحريري . وله (الجمان) (وجوف القرا) وما أرجوزتان أوأولاهما
في الصرف وأخرهما في النحو ، (وفصل الخطاب) وهو مختصر في النحو والصرف ،
(وعقد الجمان) في علم البيان ، (وقطعة الدائرة) في العروض والقوافي ، (وقطب
الصناعة) في المنطق . ثم دواوين شعره وهي (ضعة الرمان) و (فاكهة التلعثم
في مراسلة الأدباء) وثالث القمرين) . وأكثر كتبه مؤلف على نمط مدرسي
ولا تزال تدرس في معظم المدارس اللبنانية المسيحية .

نموذج منه كالماء

قال من قصيدته يمدح بها أسعد باشا قائد جيش البلاد العربية :

بناء الملى بين القنا والبوارق على سهوات النيل تحت البوارق
ولله سرّ في المباد وإنما قليل محل السر بين الخلائق
يقب هذا الدهر أحوالنا كما تقلب فيها لاحقاً إثر سابق

وولوا اختيار الهوة ابن سريرا لما اعدته في الماني الدقائق
 كريم تولى الأمر يصلح أمره كفتق تولته أنامل رائق
 أقام السرايا يفر الموج خيلها بكل لواء فوق لبنان خائق
 بحث أهل الغرب في كل ليلة بما فعلت غاراته في المشرق
 فيحجب من أفضاله كل عاقل ويتن على أفضاله كل ناطق
 تضيق بحمار الشعر عنه وتستحي يبحر لما في بحر كفية غارق

أحمد فارس الشدياق

١٨٠٤ - ١٨٨٧ م

نشأته ومباده

ولد هذا الكاتب القوي في عشقوت من أعمال لبنان من أسرة مارونية. ثم دخل مدرسة هين ورقة فالتقى بمبادئ القراءة ، وشدا شيقاً من اللغة والنحو على أخيه أسعد . وبدأ يقرض الشعر وهو في العاشرة من عمره . وصفت قصته منذ طفولته إلى حفظ المفردات والمترادفات فحصل منها قطعاً وفهد أظهر أثره بعد في خطبه وكتبه . وحدث أن أخاه أسعد وهو وليه وصفيه ترك مذهب والده واعتقد المذهب الإنجيلي فاضطهده عشيرته وكتبته حتى مات مقهوراً في محبسه . فشق ذلك على فارس فخرج مضاضاً إلى مصر نعت حماية الرسالين الأمريكان وروعايتهم ، قضى بها حقبة من الدهر بين تعلم وتعليم . ثم بحث به الأمريكان سنة ١٨٣٤ إلى مالطة ليصحح ما ترجمه مطبعتهم فيها . وأرسلت في طلبه وهو هناك جمعية التوراة بلندن ليحضر ترجمتها العربية فرحل إليها وأقام بلندن ما أقام ثم انصرف عنها إلى باريس ، وكان يزورها يومئذ أحمد باشا باي تونس فأنصل به الشدياق ومدحه فنفق لديه ، وظاهر الأدهر قصه عليه ، حتى قال الشاعر : « ما كنت

أحسب أن المهر ترك للشعر سوقاً ينفق فيها « ثم اعتنق الإسلام وهو في تونس
وسمى نفسه أحد . وظل يكتب في الرائد التونسي ويتقلب في نعمة الباي ، وفضله
يظهر وذكره يذبح حتى طلبته الصدارة العظمى فرحل إلى الأستانة وأنشأ جريدة
« الجوائب » وأودع فيها من فنون النثر وعيون الشعر وضروب السياسة ما رواه
لسان الحمد ، وتفاقلته برُدُ الشرق والغرب . وكان في سياسة الشرق مرجحاً وحجة .
فسمى إليه المجد والثراء ، وخطب وده الأمراء والعلماء ، وكافأته الدولة المالية
بالألقاب والأوسمة . ثم تخلى عن إدارة الجوائب لولده سليم وهو في أعقاب عمره ،
فزالَت تصدر عن براعة ولهاقة وقوة حتى عطلت سنة ١٨٨٤ على أثر الحوادث
السودانية ، ثم ورد الشدياق مصر وقد تنفس به العمر وخذ وجهه الكبير ،
فأحسن للصربون وأميرهم لقاءه ووفادته ، وأكرموا منواه وإقامته ، ثم ارتد
إلى الأستانة فوافته بها منيته .

نثره وشعره

كان الشدياق متضلماً من فنون الأدب ، متصرفاً في فنون الإنشاء من
هزل ومجون ووعظ وأدب وسياسة . حافظاً لمفردات اللسان ، بصيراً بمذهب
البيان ، يحميد النظم والنثر . وكان أسلوبه منسجم التراكيب ، متساق للماني ،
موفور الازدواج ، شديد الإطناب ، كثير الاستطراد ، ظاهر للبانة . أما شعره
فأدنى رتبة وأقل جودة وأضعف ابتكاراً من نثره . فهو في النثر مجيد وفي النظم
مقلد وفي كليهما بالنسبة إلى أهل عصره سابق مجيد .

مؤلفاته

له غير التفصيل التي نشرتها الجوائب في ثلاث وعشرين سنة كتب قيمة
تدل على سمة اطلاعه وطول باعه . وأشهرها :
كتاب (سر الايال في القلب والإبدال) وهو كتاب لتوى تحليلى يشتمل

على سرد الأفعال للتداوة والأشياء المستعملة واستدراك ما فات صاحب القاموس من ألق أو مثل أو إيضاح عبارة أو تنسيق مادة . وقد طبع بالآستانة سنة ١٢٨٤ هـ ثم كتاب (الساق على الساق فيما هو الفاريق) والفاريق كلمة نحتها من فارس الشدياق وأطلقها على نفسه . أنشأ هذا الكتاب الضخم في أثناء سياحته في أوروبا فوصف فيه أسفاره وأخباره وما كابدته في صدر سياحته ، وندد برجال الكنيسة أخذاً منهم بشار أخيه . ثم أورد الألفاظ المترادفة في كل موضع على حدة كأصناف للأكل وللشروب وللشموم والحلى والجواهر ، وذلك أجل ما في السكتاب . وقد يؤخذ على المؤلف جرأته على الأدب وتطرفه في المجون واستعماله من الألفاظ ما لا يصدر عن مثله ، ولا يليق بفضله .

ثم كتاب (الجاسوس على القاموس) جمع فيه المأخذ التي أخذها على قاموس الفيروز آبادي . ثم (كشف الخبايا عن أوروبا) وهو وصف شامل لسياحته في البلاد الأوروبية . و (الواسطة في أحوال مالطة) وهو وصف لهذه الجزيرة أراضيها وأهلها وساحرها وماضيها .

موضوع صمد كرم

من الناس من يبالغ في مدح وطنه ، ويحن إليه حنينة إلى بسكنه ، فيصف مروجيه ورياضه ، وبروجه وحياضه ، ووهاده وجباله ، وتلاعه وتلاله ، وبربعه ودياره ، ونباته وأشجاره ، وبقوله ونماره ، ودوحه وأطياره ، وطيب هوائه ، ولذته مائه ، ويزعم أن فصوله كلها كالربيع حسناً ، وأن جميع أقطاره تنفذ في بركة ويمنا ، وأن شهراً فيه خير من ألف عام في غيره ، وأن كل بلد مستمد من خبره ، وبحسب الحاجة إلى ميره ثم يزفر زفير المائمه الحيران ، ويصرخ صراخ الولمان : ألا إن حب الوطن من الإيمان . لقد جبت السهول والحزون ، وركبت الدلول والأثمون ، وطوفت في الأمصار ، وجولت في الأقطار ، وضربت في مناكب الأرض مستقصياً ، واختبرت أحوال من عليها مستفتياً ؛ فلم أجد عيشاً هنئياً إلا في بلادى . هي البلاد

طلعت تغزلت بها الشعراء ، فقال فيها فلان أيماناً ، وقال فيها فلان قصيدة غراء ،
واسمع ما قيل في جدائها ونواخيرها ، وبلايلها وعصافيرها ، ونحوائلها وأزاهيرها ،
وعرووحها وقصورها ، ومصانمها وودورها ، وطلبها ومراتبها ، وزكاتها ومواقفها ،
وفي أريج آفاقها ، وبهيج أشفاقها ، ونفزة حدائقها ، وبهجة شقائقها ، فإذا
قلت له : كيف جارك الأذى ؟ له كان لك عوناً وخذناً قال : وعلى أنه
شر جار ، وهو على البلاد عار وشنار . فكيف جاره الذي يليه ؟ عسى أنه
من تواقفه وتصافيه ! قال وعلى أنه شر من أخيه . فكيف أهل الحارة طراً ؟
قال : وعلى أنهم كانوا كلمهم على شراً ، ولم أجد منهم إلا ضرراً . فكيف
أهل المدن والأصفار ! قال : وبلى لهم أولوغين وغش وتزوير وإخفار ،
ما تعامل منهم من أحد إلا وبميك بالكبد والسكد والخسار . هذه جملة
سكان البلاد ، الحاضر منهم والباد ، فلا تسكنن من السؤال ، ولا يخطر
ببالك غير هذه الحال . فإن شئت قلت له . ولكن كيف اشتعلت بلادكم
على تلك الحسن ، وأهلها على هذه المساوىء الشوائب ؟ قال : إن أهلها الأولين ،
كانوا من الخيرين ، فخرنوها وزرعوها ، وعمروها وأمرعوها ، ثم فسد الزمان
فجاءت خلفاتهم قاسدة ، لكن بقيت تلك الحسن فيها قائمة . ولكن
مامنى الزمان ؟ وهو لم يكن صالحاً قط منذ خلق الإنسان ، والتواريخ على ذلك
شاهدة ، ونصوصها عليه متساندة متضادة ، ثم فكيف فسدت الناس وأنت
بقيت من بينهم صالحاً ، ترى كل من سواك طالحاً ، ولو كنت من الصالحين ،
لما رأيت في غيرك خلقاً بشين . فإنا نلظ في هبوب الناس من كانت
أسوأ منهم حالاً .

ومن بك ذا فم مرّ مريض يحد مرّاً به الماء الزلال
كذلك قال الشاعر الحكيم : فأنت في طعنك على جنسك إلا ملهم .
وإن امرأ يحسب جميع أهل بلاده دونه ، لجدير بأن يشيوا فتوته ويذموا جنونه .

بطرس البستاني

١٨١٩ - ١٨٨٣ م

نشأته وحياته

ولد العالم الضليح والفقير الحق بطرس بن بولس البستاني للاروفى بقرية من قرى لبنان تسمى الدبية على عهد الأمير بشير . ثم أدخل مدرسة عين ورقة فلبث فيها عشر سنين تعلم في أثنائها العربية والسريانية واللاتينية والإيطالية ، وتفقه في الفلسفة واللاهوت والفقه ، وتبحر في التاريخ والجغرافية والحساب ؛ ووقع في نفسه أن يخدم الكنيسة ، ولكن بداله فأحجم وانصرف إلى التعليم . ثم وفد إلى بيروت واتصل بدعاة للذهب الإنجيلي من الأمريكان فدرس على بعض أساتذتهم الانجليزية والعربية واليونانية وبعض العلوم الحديثة ، ثم دخل في محلتهم ودعا بدموتهم وساعدهم على ترجمة التوراة . ثم أنشأ في سنة ١٨٦٣ مدرسة عالية سماها (للمدرسة الوطنية) نالت بحسن إدارته وعظيم عنايته شهرة مستفيضة ، ففقطر إليها الناس من الشام ومصر والآستانة واليونان والعراق . ثم تخلى عن رياستها لابنه سليم البستاني وتفرغ هو للمطالعة والكتابة والتأليف ، ففرغ عام ١٧٩٩ من تأليف معجمه المحيط . وفي سنة ١٨٨٠ أنشأ مجلة علمية أدبية سياسية دعاها الجنان وعهد بإدارتها وكتابتها إلى ابنه سليم ؛ ثم عززها بعد بصحبة الجنة وجريدة الجنبية وشرع بعد ذلك في وضع (دائرة المعارف) وهو عمل خطير يُعجز الفرد ويدور بالجماعة في قبيل كقبيله وجبل كجبله . ولكن حذقه لأشهر اللغات ، واعتصامه بالصبر والثبات ، ذلاله العقاب وسهلا عليه الصعاب ، فأصدر منها ستة مجلدات . ونزل به موت النجاة وهو يعمل في السابعة فقام به من بعده بنوه وقد الشرق بموته ركناً من أركان نهضته وعلماً من أعلام هذه .

علمه وفضله

نبغ البستاني في عصر نشأت فيه الجهالة وغشى الناس الظلام غملاً للصباح
وأناط الطريق ، ونصب نفسه لهداية والهداية فألف الكتب ، وأصدر الصحف ،
وأناط للدارس ، وملأ حياته النافذة بمجامل الآثار وخطير الأعمال ، وفي ذلك دليل
على نفس عبقرية وعزيمة فنية وإرادة قوية فمن تلك الآثار الخالدة : محيط المحيط
وهو معجم لنوى على النمط الحديث استوعب فيه قاموس القيروز ابدى وصاح
الجوهري ورتبه على حروف المعجم باعتبار الحرف الأول من الثلاثي المجرد ،
وجمع فيه كثيراً من الكلمات العامية وما يقابلها من اللغة الفصحى . وكشف عن
أصول كثيرة من الكلمات الأعجمية التي لم تعرف من قبل ، ووضع طائفة من
المصطلحات للعلوم الحديثة . وقد استخرج منه لطلاب المدارس مقتصرأ سماه قطر
المحيط . ومنها دائرة المعارف ، وقد أصدر منها ثمانية مجلدات وأتم ابنه
سليم السابع والثامن وقضى نحبه في التاسع ، فأتمه بنوه الباقون بمونة ابن عمهم
سليمان البستاني مترجم الأليانة ، ثم وقف عليهم عند ذلك . فلما وفد إلى القاهرة
سليمان البستاني أراد أن يتم هذا العمل الجليل فأصدر هو ورجلان من بني عمومته
الجزائريين الماشر والحادي عشر ، ثم حال قصص الأداة دون التمام .

وللبستاني غير هذين الآتين العظميين كشف الحجاب في علم الحساب ،
ومفتاح المصباح في الصرف والنحو ، وعدد عديد من اللغات والرسائل .



إبراهيم اليازجي

١٨٧٤ - ١٩٠٦ هـ

نشأته ومبانيه

وُلد العلامة اللغوي الناقد الكاتب الشيخ إبراهيم بن ناصيف اليازجي ببيروت عام ١٨٤٧ م في بيت معصور بالفصل ، مشهور بالأدب ، وتلقى العلم عن أبيه الشيخ ناصيف حميد الأسرة اليازجية ، ثم مكث على كتب اللغة والأدب ، فأتقن علوم اللسان ، وعرف مطارح الإساءة والإحسان ، وحفظ كثيراً من جيد الفثور والمنظوم . ثم قام بتدريس اللغة العربية في المدرسة البطريركية . حتى إذا قام الآباء اليسوعيون على ترجمة التوراة منافسة للترجمة الأمريكية التي قام بها المرسلون الأمريكيون عهدوا إليه بضبط أقطاها وتنقيح عباراتها فقصى في هذا العمل تسع سنين كان في أثناءها يعالج النظم والنثر والبحث والتقد ، ويشتر ما يريد من ذلك في المجلات التي شارك في تحريرها كالمضج والطبيب في بيروت . ثم هاجر إلى القاهرة في عام ١٨٩٥ م ، وأنشأ مجلة البيان سنة ١٨٩٧ مع الدكتور بشارة زؤل . ثم استقل بمجلة أخرى (الضياء) وظل يصدرها إلى أن انتقل إلى دار القرار سنة ١٩٠٦ .

أدبه وعلمه

كان الشيخ إبراهيم علياً بأسرار العربية ، عارفاً بمفرداتها وقراءتها ، حافظاً لنوادرها وشواردها ، واقفاً على صحيحها وفاسدها . فكان يتمتع الكتاب والشعراء في مجاليه البيان والضياء ، يلهم على الخطأ ويرشدهم إلى الصواب . وكثيراً ما كان يحتدم الجدل بينه في الضياء وبين الشنقيطي في مصباح الشرق ، لتحرير لفظة ، أو تصحيح رواية ، أو تنقيح نص : وبفضل هذا التعمق شمر

الادباء بمراقبة النقد فأخذوا أنفسهم بالتدقيق والترويق والمراجعة واستفاد الملمون مما أحصاه من الأخطاء الشائعة في لغة الصحف والكتب ، تصويبها في مؤلفات الأساتذة وكراسات التلاميذ . ورأى اليازجى محصول المنشئين والصحفيين من اللغة قليلا فاختار لهم طائفة من التماييز البليغة المأثورة في كتاب سماه (نجمة الرائد في المترادف والمتوارد) فاجمع ما أحصاه من الأغاليط المتداولة على السنة الأدباء في كتاب سماه (لغة الجرائد) . والشيخ إبراهيم بيد ذلك طويل الباع في الصنائع ، له شعر جزل محكم ، ونثر مطبوع رائع .

عزج من كلامه

كتب يرمى بعض أصدقائه :

من علم أن القضاء واقع ، وأن الأعمار رهائن المصارع ، فلم يصحب دهره على غرة ، ولم يفر من الأقدار بقرة ؛ لم تكبر عليه الرزية إذا اغتالت ، ولم يطمئن إلى السلامة وإن طالت ، فلن للدر رقعة وهبة ، وإن ليالي كنة ووثبة . ومنك من أدرك مبادئ الأمور ومصايرها ، وعرف موارد الحياة ومصادرها ، وإنما الموت طور من أطوار الوجود ، وآخر أعمال الحياة في الوجود . ولا أزيدك علما بالكون وشرائعه ؛ والكائن وطبائعه ، إنما هي ذكرى لمن فجأه الرزء فشقه ، وحل بساحته القضاء فأذهله . وحسى من التعزية على بما عندك من موارد العلم المتاح ، ومن التأسية ماتمله من حال مخاطبك وهو سائل الجراح ، وما أخلقني بأن أقول : إن رزءك هذا قد زادني شجنا على أشجاني ، ونكأ ما تماثل من قرحة أحرزاني . ولكني قد صيرني الدهر إلى حال ، لا تعمل فيها حال ، ولا أبالي معها بسلم ولا قتال ، فكأنما إياي عنى أبو الطيب حيث قال :

رماني الدهر بالارزاء حتى فؤادى فى غشاء من نبال
فصرت إذا أصابنى سهام فكسرت الاتصال على النصال

حمزة فتح الله

١٤٨٩ - ١٩١٨ م

نشأته وعمله

ولد الأستاذ الفاضل الشيخ حمزة فتح الله بالاسكندرية عام ١٨٤٩ ونشأ بها نشأة الأوساط ، حفظ القرآن ودرس العلوم الشرعية واللغوية ، ثم هزم الرحلة إلى تونس فلبث فيها بضع سنين حرر في أثناءها جريدة الرائد التونسي . ثم عاد إلى الإسكندرية واتصل بالعلامة توفيق ، فأوصى إليه أن يحرر جريدة الاعتدال حام الثورة العربية فبدأ من عرشه وتأييداً لسياسته ، فما حال عليها الحول .

وفي سنة ١٨٨٦ مثل الحكومة المصرية في مؤتمر للشرقيين الذي انعقد في فيينا كما مثلها مرة أخرى في هذا المؤتمر نفسه حين اجتمع في استكهلم سنة ١٨٨٩ . ثم رأى أن يزاول التعليم بمد الصحافة فبين سنة ١٨٨٨ مدرسا بـ مدرسة الألسن فدار العلوم . ثم انتقل إلى التدريس فكتب به إلى أن أحيل إلى الماش سنة ١٩١٢ م فمكف على البحث والقراءة حتى وافاه أجله في إبريل من سنة ١٩١٨ م وقد كف بصره .

أفوقه وعلمه

كان رحمه الله سليم الصدر ، كريم الخلق ، خيورا على اللغة ، ولوعا بالأدب ، متزيا بالبحث ، فسرت هذه الصفات إلى أكثر تلايقه ، فرفعوا شأن اللغة ، وأحيوا موات الأدب . ألف كتاب (الواهب الفتحية في علوم اللغة العربية) أثناء تدريس بدار العلوم . ثم كانت له اليد الطولى في تنقيح الكتب التراثية بالمعارف . عالج النظم على طريقة المتقدمين ، والذثر على طريقة المتأخرين ، فكان وسطا في الحالين ، كما يتضح لك ذلك من هذين النموذجين :

نموزج سه كهوم

خير ما أترعه من الشر قصيدة أنشدها في مؤتمر للشرقيين يقول
في مطلعها :

تجد السرى يا أخى العود والنباب انساك وعشاء إغشاب وإخباب
ومنها في الحكم :

ومن يرُد نيل مجد وهو في دعة فقد بنى من صفاء دَرِّ أحلاب
ولله في موطن كالد في صدف والتبر في معدن والذبح في غاب
والسيف مثل المعازن كان متنبهاً وزامر الحى لا يحظى بإطراب
وأزهده الناس في علم وصاحبه أدنى الأوبة من أهل وأحاب

وكتب إلى السيد عبد الحميد البكرى معتزلاً :

مولاي : أما الشوق إلى رؤيتك فشديد ، وصل فؤادك عن صديق حميم ،
ودود صميم ، وخلة لا يزيدها تماذب التآوين ، وتآلق التبرين ، إلا وثوقاً في العراء
وإحكاماً في البنا ، ونماء في الفراس ، ونشيداً في العاثم . ولا يظن سيدي أن
عدم ازديارى ساحة الشربة ، واجتلائى طلعه للينة ، لتفاس أو تقصير ، فإن
لى في ذلك معذرة اقتضت التأخير . والسيد اطلال الله بقاءه أجدر من قبل معذرة
صديقه ، وأغضى عن ريث استدعته الضرورة . وبعد فرجاني من مقامكم السامى
ألا تكون معذرتى هذه عائقاً لكم عن زيارتى ، فكم منة طوقتموها ، ولكم
فيها قول البداة ، وعلى دوام الشكران والسلام .



الخطابة والخطباء

ظلت الخطابة في أول هذا العصر على ما كانت عليه في آخر العصر العباسي لا تعتمد على الجوامع والبيوع ، ولا يقوم بها إلا فئة جاهلة ناقلة فلما دعا داعي الثورة لثرائية ظهرت الخطابة السياسية على ألسنة زعمائها ، وأشهرهم السيد عبد الله نديم والشيخ محمد عبده وأديب إسحق والقاضي . ثم مرّ عليها كثير من الوعاظ والأدباء وأقاموا المجمع الأسبوعية للخطابة في الأخلاق والدين والاجتماع والسياسة . ولكن الخطابة لم تجل عنها أعقاب العلة للزمنة إلا في عهد الزعيم الوطني الكبير مصطفى باشا كامل للتوفى سنة ١٩٠٨ م ، فقد كانت له أمضى سلاح في جهاده . وأقوى معين في إيقاظ بلاده . ومنذ قيامه بالدعوة الوطنية ، ونهوضه بالحركة الاستقلالية ، أخذ شابا بلا ولا سيا المحامين يتدربون عليها حتى نهج منهم الآن طائفة صالحة . وامل الشرق لم يشهد في عصر من عصوره خطيبا حافل القريحة ، قوى المعارضة ، جمهوري الصوت ، قبل المنفور له سعد زغلول . وإنا للتوقع للخطابة في عهد نظامنا الدستوري رقياً سريعاً ؛ فإن الحرية السياسية ، والمناقشات الحزبية ، والمناقشات البرلمانية ، من أبلغ العوامل أثراً في رقي الخطابة . ولولاها ما كان ديمستين في اليونان ، ولا شيشرون في الرومان ، ولا علي في العرب .

عبد الله نديم

المتوفى سنة ١٨٩٦ م

نشأته ومبانيه

ولد السيد عبد الله بن مصباح بن إبراهيم في الاسكندرية ، ونشأ بها نشأة الأوساط فتعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن في الكتاب وهو يومئذ

المدرسة الأولى لأبناء الشعب . ولما أُنِيعَ دخل معهد الاسكتلندية في جامع الشيخ فأدرك قسماً موفوراً من علوم الدين واللغة . ووطنى ميله الأدبى على ميوله الأخرى فحفظ الأشعار وروى الأخبار وطالع النظم والنثر . ثم داخل العلماء وطارح الأدباء حتى شغفه ذلك عن المكوف على المدرس . وأعجبه طلب الرزق عن متابعة الطلب في المعهد فانصرف منه إلى تعلم فن البرق (التلغراف) فتعلمه وتكسب عن طريقه حيناً من الدهر في (تلغرافات الحكومة) ؟ ثم فصل عن هذا العمل فعمل في التجارة في مدينة المنصورة فلم ترجح تجارته ولم يسلم رأس ماله فساد إلى الاسكندرية وكان أولو الفضل قد أسسوا في ذلك الحين جمعية إسلامية خيرية لإنشاء المدارس للبنين والبنات فشارك النديم في هذا العمل وتولى نظارة المدرسة الأولى لهذه الجمعية . وأمدته الحكومة بالمكان والمال على الاتكون مقصورة على المسلمين ؛ ثم جعلها الخديو توفيق تحت رعايته . وكانت هذه الجمعية من المحارب السياسية والاجتماعية يجتمع فيها الناس ليلاً ليسموا الخطب في مختلف الشؤون من أمثال عبد الله نديم ، وأحمد سمير ، وأديب إسحق ، وإبراهيم القانى .

ثم ألف السيد عبد الله رواية تمثيلية عنوانها (مصر وظالم التوفيق) مثلها طلاب هذه المدرسة ، كان منازها الأسمى على تفهم مصر وتحكم الأجنبي بها . ثم أخذت آراء الأفاضل تهفو بالنفوس وتصصف بالردوس ، فشغل النديم عن الجمعية والمدرسة وأنشأ جريدة (التنكيك والتبكيك) وهي أسبوعية كانت تلبس الجعد ثوب الهزل . ثم استبدل بها (الطوائف) فكانت بوقاً من أبواق الثورة العريضة ، وميداناً من ميادين الحركة الوطنية . وكان هو خطيب الثورة الصارم اللسان الجريء . الجنان القوي الأثر . ولما خبت نارها وقُبض مشعلوها اختفى عبد الله نديم عشر سنين قضاه متسكراً في كل زى ، متقلداً في كل بلد ، حتى قبض عليه فحبس أياماً وغفا عنه الخديو على أن يخرج من مصر إلى حيث شاء . فأقام في فلسطين حقبة من الزمن عاد بعدها إلى القاهرة مطلق السراح ، فأناشأ بها مجلة أدبية سماها (الأستاذ) انتشرت في مختلف البينات والجهل اغتشاراً عجبياً أقض مضاجع

الحكومة ففتته مرة أخرى من البلاد . فرحل إلى الأستانة وفتح عند السلطان
فدين مقتشاً للطبوعات في الباب العالي وظل في منصبه إلى أن قبضه الله إليه .

اغترقه ومواقبه

كان السيد عبد الله نديماً خطيباً موهوباً ذلي اللسان ، فصيح العبارة ،
حاضر البدنية ، سريع التمكن ، شديد التمسك ، عاضه الله من قلة العلم وضيق
الاطلاع سلامة الطبع في الأدب وساحة القرعة في الكتابة وغزارة البحر
في الخطابة . تم تقلبت به الأحوال السياسية والاجتماعية فانصلت أسبابه رجال
الحكم ، وطال اختلاطه بقيادة الشعب ، وكثر اضطرابه في مختلف الأرض .
وتخلط طبقات الناس قبلاً أخلاقهم وسر أهواءهم . وكان لذلك كله أثر بالغ
في علمه بمخبرات الضمائر ، ومقتضيات الأحوال ، وأخذ بأعنة الكلام يصرفه
في أي معنى شاء ، حتى قال فيه السيد جمال الدين الافغانى : « ما رأيت طول
حياتي مثل النديم في توقد الدهن وصفاء القرعة وشدة المارضة ووضوح الدليل
ووضع الانقاط وضماً محكما يبرز معانيها إذا خطب أو كتب » .

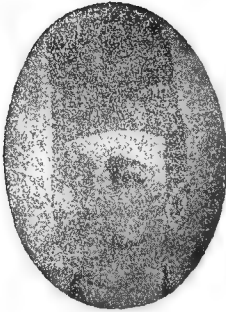
مخبره من كلامه

قال من رسالة له حمد فيها أن يقتبس الفاصلة الثانية من القرآن :
لا حول ولا قوة إلا بالله ، اشبه المراقب بالله ، واستبدل الحلول بالمر ، وقدم
لرقيق على الحر ، وسبع الدر بالخر ، والغز بالحش ، وأظهر كل لثيم كبره ، إن
في ذلك لعبرة . سمعاً سمعاً ، فالوشاة إن سمعوا لا يقولوا ، ويعجبون أن يحمدا بما
لم يفعلوا ، فكيف تشترون منهم القار في صفة المنبر ، وقد بدت البضاء من
أفواههم وما تحفى صدورهم أكبر . عجيب لهم وقد دخلوا دارنا وهم عنها
مرضون . فلما أحسوا بأسنا إنزاهم منها يركضون . وأنت يا عزيز العليا ، ووحيد
الدنيا ، قد بينت لك فعلهم ، فبارحة من الله لنت لهم . ولكنهم طعنوا في عميم
طولك ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك .

مصطفى كامل

١٨٧٤ - ١٩٠٨

نشأته ومبانيه



ولد زعيم النهضة المصرية
وموظف الروح الوطنية ، مصطفى
كامل بالقاهرة سنة ١٨٧٤ م في
بيت اشتهر بكرم الأهل وعفة
النفس وصحة الدين ، ثم تلقى
دروسه الابتدائية والثانوية في
المدارس المصرية ، ثم دخل
مدرسة الحقوق فنال إجازتها
وسنة لم تتجاوز التاسعة عشرة .
وكان في أثناء الطلب قد اشتهر

بين الطلاب والكتاب بقوته في الكتابة وقدرته على الخطابة ، فنشر كثير أمن
المقالات السياسية في صحيفتي الأهرام والمؤيد ، وأصدر مجلة أدبية شهيرة سماها
(مجلة المدرسة) أشرفت فيها نفسه السكرية إنشراق النفس الزعيمة ، فتهاوت
على ضوئه طلاب المدارس العليا يؤيدون دعوته ويرددون كلمته ويترسمون خطاه .
ولما نال شهادة الحقوق لم يتجه إلى العمل في القضاء ولا في المحاماة ، وإنما اتجه إلى
خدمة وطنه من طريق السياسة والمصحافة ، فسافر إلى أوروبا مراراً يدعو إلى مصر
بالكتابة في صحفها والخطابة في محافلها : ودخل رجال السياسة في فرنسا وإنجلترا
يستمد منهم التوجيه والعون ، ومن هؤلاء أمه الروحية السيدة جوليت آدم الفرنسية
التي يقول لها في بعض رسائله : « إنني لا أزال صغيراً ، ولكن لي أملاً كبيراً .
أريد أن أوقف في مصر الشبيخة مصر الفتاة . هم يقولون إن وطني لا وجود له ، وأنا

أقول إنه موجود بدليل ما أشر له في نفسي من الحب الشديد الذى سيتقلب على كل حب سواء .

ثم أنشأ (الواء) في ثلاث نسخ : بالريية والإمجليزية والفرنسية ، فدافع بها عن بلاده ، وجاهد في سبيل حريتها حق جهاده ، حتى أدرك وهو فى طرارة الشباب زعامة الأمة وثقة العرش ورضا الخلافة وخصوصة المحتل . وكان فى مقدوره إذا شاء أن يستغل هذه القوى العظيمة فى سبيل الثراء والحكم ، ولكنه زهد فى ذلك كله زهادة الحكيم ، فعاش للبدا والفكرة ، ومات للقدوة والعبرة : ولما بلغ هذا الجهاد المتصل وهذا الجهد المرهق من جسده الفاحل ألف (الحزب الوطنى) ليحمل عنه الأمانة ويبلغ بهد الرسالة ، ولكن المنية لم تمهله بعد ذلك إلا أياما فاختارته رضى الله عنه وهو دون السابعة والثلاثين من عمره :

مصطفى كامل الخطيب

كان مصطفى كامل خطيباً طلق البديهة ، رائق المنطق ، ندى الصوت ، عذب النبرة ، أنيق اللمحة ، لا يتلصك ولا يلحن ولا يتأثم وكان كاتباً حلو اللفظ رقيق الأسلوب ، قوى الروح ، صادق الفكرة ، نبيل الغرض ، وبهذه المزايا الموهوبة والمكسوبة ، استطاع أن يحى الموات ، ويجمع الشتات ، وينعش خلود الشعب بالأمال المطمعة ، ويقارع طغيان المحتل بالحجج الملمزة .

نحمرزج من مطب

قال من خطبة له ألقاها بالإسكندرية فى ٢٣ أكتوبر من سنة ١٩٠١ :
بلادى ! بلادى ! لك حى وفؤادى ، لك حياى ووجودى ، لك دى ونفسى !
لك عقل ولسانى ، لك لبى وجفائى ، فأنت الحياة ، ولا حياة إلا بك يا مصر !
يقول الجيلاء والفقراء فى الإدراك إنى مشهور فى حبها ! وهل يستطيع مصرى ألا يهور فى حب مصر ؟ إنه مهما أحبها ، فلا يبلغ الدرجة التى يدعو إليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها .

أما أيها اللاثمون ! انظروها وتأملوها ، وطوفوها ، وأقروا بحسب ما ضيأها ،
واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض : هل خلق الله وطناً أعلى مقاماً ،
وأسمى شأنًا ، وأجمل طبيعة ، وأجل آثارًا ، وأغنى تربة ، وأصفى سماء ،
وأعذب ماء ، وأدعى للحب والشفق من هذا الوطن العزيز ؟

أسألوا العالم كله بيجكم بصوت واحد : إن مصر جنة الدنيا ، وإن شعبها
الذي يسكنها وبقواشها لأكرم الشعوب إذا أعزها ، وأكبرها جناية عليها
وعلى نفسه إذا تسامح في حقها ، وسلم أزمته للأجنبي :

سعد زغلول

المتوفى سنة ١٩٢٧ م

تأثير ومبادئ



ولد سعد زغلول في (إبيانة) من
أعمال محافظة الغربية وتلقى في كتاب
القرية مبادئ الثقافة العامة وأولها
حفظ القرآن الكريم ؛ ثم أرسله أبوه
إلى الأزهر فدرس علوم الدين واللغة
والمنطق ثم صار له في الجدول والمناظرة
شهرة . وانصل بالسيد جمال الدين
الأفغانى حين هبط مصر فلزمه وأخذ
عنه وتأثر به . وكان سعد بفطرته محبوبا
على مناصرة الحق ومجاهدة الباطل
ومحاربة النقص . عين بعد أن ترك

الأزهر محرراً في الوقائع المصرية مع أستاذه الإمام فكان يكتب في الاستبداد

والاشورى والأخلاق ، وينفذ الأحكام التى كانت تصدرها بونهن (المجالس للغة)
ثم عين ناظرًا لقلم قضايا الجيرة ، وكان حكمه حكم القاضى الجزئى فقبل الحق من عدله
وعقنه فى حى أمين . ثم أصنى لقضية الحق فى الثورة المرافية ففصل من وظيفته
وسجن فى (الضبطية) سبعة أشهر . ولما أطلق من سجنه زاول المحاماة ، ولم يكن
يشترط فى مزاولتها حينئذ إلا أداء امتحان فى المحكة فكان أول محام أقرته
المحاكم الأهلية فى مصر .

ثم اختير نائب قاض فى محكة الاستئناف . ويومئذ درس الفرنسية وقال
إجازة الحقوق ، فبرع القضاء الأوربيين بالذهن الفواص والدرس المحيط والاستنباط
الدقيق والحكم الموفق . وفى سنة ١٩٠٦ م عين ناظرًا للمعارف العمومية وكانت
العلوم كلها تدرس فى اللغة الإنجليزية فجعلها تدرس فى اللغة العربية ، وكان من
ذلك أن ترجمت العلوم وألفت الكتب وانتعشت الثقافة . ثم عين ناظرًا (للعقانية)
فجدد فى إصلاح نظم القضاء وتنقيح مواد القوانين لتلائم المصروند الحاجة .
ثم أقبل من الوزارة فانتخبته الأمة نائبًا عنها فى (الجمعية التشريعية) فكان
بمحججه الملمزة وأجوبته المفتحة رهبة الوزراء ودعشة النواب ومتجبه الأفتدة .

ولما أعلنت الهدنة فى الحرب المالية الأولى ووضعت قضية العالم كله على
مكاتب الغالبين فى (فرساي) تحركت مصر للطالبة بحقها فى تقرير مصيرها
وولكت عنها وفداً يقدم مطالبها ويحقق رغائبها برئاسة سعد باشا زغلول ، ففتته
السلطة العسكرية الإنجليزية فى نفر من محبيه إلى جزيرة مالطة ، فثار الشعب
المصرى ثورته المعروفة سنة ١٩١٩ . وكان من آثارها أن أطلق المعتقلون وخلى
بينهم وبين مؤتمر الصلح فى باريس .

وفى سنة ١٩٢٠ م دعت الحكومة للبريطانية إلى لندن لتفاوضه الرأى فى المطالب
المصرية فشخص إليها مع بعض أعضاء الوفد . ولكن المفاوضات لم تسفر عن تحقيق
الأمانى القومية فقطعها وعاد إلى مصر فقابلته الأمة بمقابلة الفاتح الظافر . واستأنف

الجهاد على الخطبة التي رسمها فأقضى مضاجع الانجليز فنفوه مرة أخرى إلى جزيرة
سيشل مع نفر من أصحابه فلبثوا فيها مدة ، ثم نقل هو إلى جبل طارق . وأطلق
سراحهم جميعاً بعد ذلك ، فشخص سعد باشا إلى فرنسا من فورهِ فظل فيها حينما
ثم ارتد إلى مصر . وكانت الحكومة البريطانية قد أعلنت من جانبها تصريح
٢٨ فبراير من سنة ١٩٢٢ بتصفاته الأربعة ، فأعلن الملك فؤاد الأول استقلال
البلاد وأصدر المرسوم في سنة ١٩٢٣ . وأسفر الانتخاب عن فوز الوفد بالكثرة
فتولى سعد رئاسة الوزارة في أوائل سنة ١٩٢٤ م ، ثم اعتزلها من السنة نفسها
وتولى رئاسة مجلس النواب وظل فيها حتى اختار الله له ما عنده .

مركزه في الخطابة

لم ير التاريخ للعصرى ، بل الشرق ، قبل سعد خطيباً ، بليل اللسان ، رفيع
الصوت ، حافل البديهة ، دافع الحجة ، أتيق اللهجة ، رائع البيان ، حسن السميت ،
يزاوج بين للنطق والشعر ، ويماقب بين الألفاظ والامتناع ، ويراوح بين الجدل
والهزل ، ويتصرف في فنون القول تصرف الشاعر برقة الأسلوب ، والفيلسوف
بدقة الفكر ، وللوسيقى بحال الإيقاع .

ذلك لأن سعداً كان رجل جلال وجلد . تفرس منذ الحداثة بشدائد الحياة
ومكاره العمل ، وراض نفسه منذ المراهقة على أدبي اللسان والقلم ، وتنفس به
العمر في ميادين الحق . فتشكلت عبرته الموهوبة بالمعرفة ، وتنمقت بالتجربة ،
وتقوت بالمرانة ، حتى كان منه ذلك الخطيب المرتجل الذي يهضب ^(١) بالكلام
أربع ساعات متواليات ، لا يملأ ، ولا يملج ، ولا يتكثر باللفظ ، ولا يستعين
بالتكرار ، ولا يطرد نشاط السامع . وكان مع ذلك يخطف كما يكتب ، ويكتب
كما يخطف ، متوخياً في الأمرين براعة التفكير ، وبلاغة الأداء ، وجمال الأخيلة
وابتكار التمايز ، وحمّة الأقيسة ، وقوة الأدلة .

(١) فلان يهضب بالشعر أو بالخطب : يسبح بها سحاً .

نموزج من شعره

وجه رحه الله هذا الغداء إلى الأمة المصرية عقب عودته إلى مصر في صدر
سنة ١٩٢٩ م :

رحبت الأمة بعودة نوابها ترحيباً فاق كل ترحيب ، وأعجز وصف كل
كاتب وخطيب ، فقد أتى أفرادها من كل ناحية بدافع من ضائرم النيرة ،
وباعث من شعورهم الحى ، ترتعش أعصابهم حماسة ، وتنفق قلوبهم بالوطنية
الصادقة ، للاكتفاف حول من اتخذوهم رمز أمانتهم ، وعنوان مبادئهم .
ولقد رأيت آيات الحكمة والكرامة والثبات تجعلى فينا استقبلنا به من مظاهر
الفرح الباهر — تلك الصفات التى تضمن للشعوب تقدمها وللأُمم سعادتها ،
وشمرت من قبلات الترحيب التى غفرونا بها بحرارة قلب ينفض فى جسم
شنب عظيم . وقد اشترك الأموات والأحياء فى أن يملوا على المجموع وكل فرد
واجبه نحو الوطن العزيز ، وأجمع الكل على مطالبتنا بمواصلة السير فى الطريق
الذى سنه الحق القويم . وإن الشرف والكرامة والإخلاص لوطننا القدس لمأ
يوجب علينا طاعة هذا الأمر الكريم ، ولفترام هذا الطريق المستقيم .

إننا نشكر البلاد جميعها ، قريبا وبسيدها ، على حلة الثقة التى زينتنا بها ،
ونقسم بالوطن وشماره للقدسة — وشاركتنا فى هذا القسم العظيم أحبابنا
المنصرون فى جهادهم — إننا لا ندخر شيئا من وسعنا لتحقيق هذه الثقة الغالية ،
ولا نتحول لحظة واحدة من الفرض الذى وضمناه نصب عيوننا حتى نصل إليه .
إننا لم نعد إلا لنقوى بجزائرم مواطنينا الكرام عزائمنا ، وشد أزرنابائعمادم
الخيرين ، ونتمتع بمرآهم بمدلول هذه النية ، وتأكدا من أن الاشتراك فى المفاوضات
الرسمية التى دعمتها الوزارة الحديدة له متفق مع المبادئ التى وضممتها الأمة ،

وعاهدناها على احترامها ، ومع الخططة التي رسمتها وتمسكنا بمبادئها .
ولاشيء أحب إلى قلوبنا من أن نخدم بلادنا بالاتفاق مع كل هيئة مستقلة
لأن تسترشد بإرادة الأمة ، وعاملة على تحقيق غايتها السامية .

لم يبق علينا إلا أن نهود كل منا إلى عمله ، ويقول كل شأنه ، فالتلميذ إلى
مدرسته ، والفلاح إلى مزرعته ، والصانع إلى مصنعه . والتاجر إلى متجره ،
والكاتب إلى مكتبه ، والمرأة إلى إدارتها بينها . وعلى الكل من غنى وقصر
أن يباشر عمله ، مراقباً أعمالنا ، واضحاً نصب عينيه للقصد الأسمى ، وأن يعتقد
أنه يزيد بما يعمل في كنوز الوطن كنزاً ، ويضم إلى قواه قوة .

إلى العمل جميعاً ، لرفع منار الوطن ، ونمل كلته ، ولنحن معاً !



الفصل الخامس

الشعر

لم يزل الأدب من عناية الأسراء العلويين مازال العلم . فظل الشعر — على قدرته — كما كان في العصر الماضي أسير التقليد والصنعة . ثم أدركته نفحة من المحبة العامة في عهد الخديو إسماعيل ، فتردد ذكره على ألسنة شعرائه ، وندمائه ، كالسيد علي أبي النصر^(١) والشيخ علي البني^(٢) وأخذت هذه الحركة تنطرد بالإقبال على أمهات كتب الأدب الباقية ، والرجوع إلى منابع الشعر الصافية . وكان البارودي أول من أقام عمود الشعر وجدد دارس القريض ، فترسم خطى الفحول من شعراء المباسين ، وحاكاء الناشئون من شعراء العصر ، وابتغوا الوسيلة إلى ذلك بحفظ المختار من أشعار المجاهدين والإسلاميين ، فأخصبت القرائح ، وأدركت السلائق ، وصحت الأذواق ، وجرى الشعر جزل القفط ، بحكم النسخ ، متين القافية ، مشرق الماني ، متخففاً من أتعال البديع وأوزار الصنعة ، ثم نزع الشعراء إلى الاستقلال والحرية والتجديد بتأثير الحضارة الأوربية ، وتعلم اللغات الأجنبية ، ونشاط الحركة العلمية . وقصدوا إلى اكتفاء النفوس وتحليل الأشخاص ، وتعليل الأشياء ، ومناجاة الطبيعة . وحاد أكثرهم عن الأساليب المتبعة كالاستهلال

(١) ولد السيد علي أبو النصر في منفوط ، وتوفي في عهد إسماعيل ، وقال المخطوط له به دواش على جوائزه ، ووافقه في أسفاره . ثم كانت وفاته سنة ١٨٨٠ م وله ديوان شعر .
مديح : —

(٢) كان الشيخ علي البني لطيف المباشرة فكاهة المفاخرة ، خفيف الروح ، فخره الخديو إسماعيل ، وجعله شاعره ومسارمه ومسايره . توفي سنة ١٨٩٦ م دون أن يكون شعراً في كتابه .

بمقدمة خارجة من الموضوع في النزول أو غيره تحتاج إلى تخلص ؛ ونظروا إلى القصيدة كلها كأنها كائن حتى تساعد أجزائه على غرض معين ؛ وقروا من الأغراض القديمة كالمدح والتعزير والمجاء والمجون ، لتغير البيئة واختلاف التربية وجرت ألسنتهم بالمنايا العامة ، كرتاء عبد مفقود ، واعتقاد عيب موجود ، وطلب استقلال منشود . ولكن تقدم الشعر في الجملة كان أبداً من تقدم الفن ، لأن الثقافة العلمية في مصر كانت أسبق من الثقافة الأدبية ، ولأن الشعر لا يزال من ضروب السكال التي لا تند في وسائل الكسب ولا في صميم الحياة .

وبما يعلل النفس أسفاً ودهشة أن شعراء اليوم مُنُوا بالجمود والأذهان نائرة ، وأصيبوا بالإقصاء وأسباب القول وافرة ؛ فالشعب مضطرب الشعور ناثق الفكر يجاهد في سبيل وجوده وحرية بلده وماله ، وهم قاصدون تحت الجبل يبتاعون ويتعطون على دفء الشمس تاركين الجيش من غير موسيقى اللهم إلا أصداحات من أمير الشعراء شوقي وشاعر النيل حافظ ، يرسلونها الحين بعد الحين فتجلبو صداً انطواطر ، ونحيب موات القلوب . فلما توفى الله في سنة ١٩٢٢ حافظاً وشوقياً ، وكان اسمهما علمين على الشعر في العهد الأخير ، تسابقت القرائح للشابة إلى ملء مكانيهما ، فنشط في مصر القريض ، وتجابت الأفراس النواهي بالآغايد ، وشرقت الصحف والمجلات بفيض هذه القرائح ، ولكن أصواتها للعامية الرخوة لم تملأ الأسماع ولم تطرد الوحشة . ولاحت في لبنان للهجرة مواهب النبوغ ودلائل القيادة ؛ ولكن البعد يبدد الصوت القوي ، والاعتراق يوهن الحبل الجهادي . والزمن الذي يحبس الأشياء فينبق البهرج الزائف ، وينتد الحق المبرمج ، هو الذي يعرف مكان هذه الجهود ، من عالم القناء أو من عالم الملود .

الشعراء محمود سامي البارودي

المتوفى — ١٩٠٤ م

نشأته وحياته

هو ابن حسن بك حسني مدير دققة وبربر على عهد محمد علي باشا . وُلد بالقاهرة وشبَّ في نعمة أبيه . ولم يكد يحبو السابعة حتى فجعته الموت فيه بدققة فمضى بتأديبه بعض أهله . وأدخلوه المدرسة الحربية فتعلم الفنون العسكرية وخرج منها ضابطاً ، وكان وهو غرض الحدائنة مولماً بحفظ الشعر وإنشاده . ولا تعلم مصدر هذا الميل فيه ، فأخذ نفسه بدرس دواوين النحول من شعراء العرب حتى شب فصيح اللسان ، مطبوعاً على الإعراب دون علم بالنحو . ثم فاض ما حفظ على لسانه فانتقل يرائي للشعر في الأغراض المختلفة . وسافر إلى الأستانة فدرس اللغتين التركية والفارسية ، وتضلع من آدابها حتى عدَّ من شعرائها . واتصل هناك بالعميدو إسماعيل عام ١٢٧٩ هـ ، فألفقه بمحاشيته وعاد به إلى مصر ، فتدرَّج في الرتب الحربية حتى ما سنة ١٢٩٤ هـ إلى رتبة (لواء) . ورحل في أثناء ذلك إلى فرنسا وإنجلترا ، فزاد قوة في أدبه ، وخبرة في فنّه . وكان أحد ضباط الحملة المصرية التي ساعدت الدولة العلية أثناء ثورة البلقان وإقريطش ، فأبلى فيها بلاءً حسناً . فلما عاد إلى مصر نقل إلى المناصب الإدارية فوُلّي مديراً للشرقية ثم رئيساً للضبطية . وفي عهد توفيق تقلد نظارة الأوقاف ووصل إلى رتبة (فريق) وتولى نظارة الجهادية قبيل الثورة العراقية . ورأس النظارة بمد شريف باشا ، فما لبث غير قليل حتى ثار هع الثورة واستطار شرر الفتنة ، وأكثُر الناس على أن البارودي أول من فتح بابها وتدرَّع جلبابها ، ولكن شهره يبرئه من ذلك كما سيحيى .

وسكنت الثورة باحتلال الإنجليز وادى النيل وقبض على مثيري الفتنة وحُكِمَ عليهم بالنفى إلى جزيرة سرنديب (سيلان) وفيهم الشاعر. فلُتِفَ في مقاهه سبعة عشر عاماً وبعض عام تعلم في أثنائها اللغة الإنجليزية ، ونظم بدائع شعره في العربية . ثم وصته رحمة الخديو عباس الثانى ففاداه سنة ١٣٢٧ هـ ومنحه التمتع بالحقوق المدنية فلم يشب بعدها إلا خمس سنين قضاه في سكون الشيوخوخة وادعاً قائماً بين مطالعة الكتب ، ومحادثة المعجب ، ومعالجة القريض . وقد كف بصره قبيل موته .

شعره

إن كان لإمرئ القيس فضل في تمهيد الشعر وتقصيده ، وإبشار في ترقيته وتجويده ، فلبارودى كل الفضل في إحيائه وتجديده . كان الشعر في عهده صورة مشوهة من آثار القرون الأخيرة للظلمة ؛ نظم مرتبك ، وتكلف باد ، وصناعة فاشية ، ومعنى سقيم ، فجلاه في خاطره وحمله على لسانه ، فجاء بمفرد اللفظ نقياً للسنشف . تقصص البارودى شعر ابن المعتز وأبي فراس والرضى والطرائى وأمثالهم من الفحول ، فارتسم شعرهم على لوح قلبه ، وانعش في صنعة ذهنه ؛ وصادف ذلك معه شعوراً فياضاً وذوقاً سليماً ، فاستخرج من مجموع تلك الأساليب أسلوبه الرائق الفصيح . قللك نحس وأنت تقرأ قصيدة من نظمه أن أرواح أولئك الفحول تحوم حول روحه ، وتخلق فوق أبياته ^(١) .

ما كان البارودى مبتكر معان ولا مبتدع أساليب ، ولكنه كان رائض قواف وصائع قريض : قد كَلِفَ بالنفحة ؛ وانصرف إلى الصنعة ، فأثر للحنى العائيل في اللفظ الحزل ، على للحنى البليغ في اللفظ الثث ، وقد أجاد وأبدع في الغنر والجماسة والوصف .

(١) إشارة إلى أن البارودى كثيراً ما يجمع على سنان مؤلفات الشعراء والناظم دون أن يصر لكثرة عنونه .

مؤلفاته

له كتاب (مختارات البارودي) في أربعة أجزاء وهو مجموع ما اختاره بين شاعراً من شعراء العصر الميماسي في أغراض مختلفة . وقد نهج في اختياره طريقة في نظمه ، فأثر حسن اللفظ والمعنى ، وحسن اللفظ ، على حسن المعنى وقبح المعنى ، وله (ديوان شعر) في جزأين قد طبع في مصر .

نموذج من شعره

قال في الحاسة والفخر :

ولا مقلٌ إلا للناصلُ والبُردُ	ونقع كلِّج البحر خضت غيابه
وينقل طوراً في المبحاج فيسودُّ	صبرت له والموت يحمر تاراه
وما كنت إلا الليث أنهضه الطوى	فما كنت إلا الليث أنهضه الطوى
ضروب وقلب القرن في صدره يعدو	ضؤل ولا بطلان همس من الونى
ولا لبة إلا وسيفي لما عقد	فما مهجة إلا ورعى ضميرها

وقال برئى زوجته :

تقوى على رد الحبيب الغادى	لا لوعتى تدع الفؤاد ولا يدي
كانت خلاصة عدتى وعهادى ؟	يا دهرُ فيمَ فبجعتى بحليلة
أفلا رحمت من الأسى أولادى ؟	إن كنت لم ترحم ضناى ليدها
رغى التجلُّد وهو غيرُ جاد	ومن البلية أن يسام أخو الأسى
أسفاً ليُمدك أو يلين ميهادى	هيات بمدك أن تفرجوا نحي
والدمع فيك مُلازم لوسادى	ولمى عليك مُصاحب لمسرق
وإذا أويتُ فانتِ آخرُ زادى	فإذا انتبعتُ فانتِ أولُ ذكرى

وقال من قصيدة أخرى ينشوق :

ردوا على الصبي من عمرى الخالى .

وهل يعود سوادُ الآمة البالى !

من يدُر من بات مسروراً بذكره
يا غاضبين علينا هل إلى عِدَّة
غبتم فأظلم يوى بعد فُرقتكم
فاليوم لا رَسى طوعُ القِياد ولا
أيتُ مفرداً في رأس شاهقة
مثل القَطائى فوق المِربأ العالى

وقال يخاطب مؤجبي الثورة المِراية :

نصحت قوى : قلت الحرب مفعمة
فخالفتوى وشبهوها مكابرة
تأتى الأمور على ما ليس في خَلَد
حتى إذا لم يعد في الأمر منزلة
أجبت إذ هفتوا باسمي ومن شئى
وقال من قصيدة بعد عودته من المنى ، ومروره بقصر الجزيرة فذكر
عهد إسماعيل .

هل بالحنى عن سرير الملك من يزغ
هذى الجزيرة فانظر هل ترى أحداً
أضحت خلاء وكانت قبل منزلة
فلا يجيب يرد القول عن نيا
وهى :

زالا فما بكت الدنيا لفرقتهم
والهركالبحر لا ينفك ذا كدر
لو كان المرء فكر في عواقبه
ما شاب أخلاقه عرض ولا طمع

إسماعيل صبرى

١٨٥٤ - ١٩٢٣ هـ

نشأته ومبانيه

ولد هذا الشاعر الفنان ودرّج على ضفاف النيل ، وشب في عهد إسماعيل
عهد الحضارة والعمارة والأدب ، فدخل المدارس النظامية الحديثة ، وتنقل في مدارجها
من (المتدلين) إلى (التجيزية) إلى (مدرسة الإدارة) حتى شارب الثامنة
عشرة من عمره ، وكانت جواكير النهضة الأدبية قد بدت في (روضة المدارس)
وهي مجلة للطلاب ينشئها صفوة الكتاب في ذلك العهد كرفاعة بك ، والشيخ
حسين الرضى أستاذ البارودى ، وعبد الله فكرى ، وصالح مجدى ، وكانت
تصدر مرتين في الشهر حافقة بمختلف الموضوعات والمختبرات من نثر ونظم ،
فكان صبرى يديم النظر فيها ، ويحاول الاقتباس منها والاقتداء بها ، وله من ذات
نفسه ملكة قوية تدفمه ، وقرحة سخية ترفده ، وذوق سليم يرشده ، فنظم
بعض القصائد تهنئة للتخديو نشرها في هذه المجلة وعمره إذ ذاك ستة عشر عاماً .
ثم رحل إلى فرنسا مع البعثة المصرية يستكمل حفظه من العلوم في جامعة « إكس »
خلال منها إجازة الحقوق سنة ١٨٧٨ م ، لابس في أثناء ذلك الحضارة الأوربية ،
وتذوق الآداب الفرنسية ، وصادفت مواهب التريزية هناك يامن الجلال والعلم والفن
فازدادت نموًا وخصبًا . فلما رجع إلى مصر انسلك في طريق القضاء قطع مراحل
واحدة فواحدة حتى أشرف منه على الناية . فخرج إلى الإدارة فعولى محافظة
الاسكندرية ثم نقل إلى وكالة الحفانية فشنلها حيناً من الدهر ، ثم تقضى يده
جملة من خدمة الحكومة سنة ١٩٠٧ لبلوغه سن التقاعد . ولزم داره يدارس
أصحابه الأدب ويساجلهم القريض ، ويرسل عواطف قلبه وخواطر فكره
أنشأ موقمة على قيثارة شعره . وكانت داره منتدى للشعراء ومناوبة للأدباء

يغدون إليها لمر فينشدونه أشماوم فيقدها نقد الصيرف، وبهذه هم ذيب العلم،
حتى نمتوه بالأستاذية، وأقروا له بالأولية. وظل على هذه الحال إلى أن مضى بداه
القلب، فغالبه بضع سنين ثم صرعه سنة ١٩٩٣ وهو في التاسعة والستين من عمره.

شعره

عهدنا بالشمراء الوجدانيين يفيضون في زهرة الشباب وريبع العمر حين
تكون المواقف مشوبة، والشعر مضطربة، والآمال موفورة، والحياة
منضورة؛ ولكن صبرى وهو شاعر وجداني محض لم ينبغ إلا وهو آخذ بمخفق
الأربعين. فلم تتدفق قريحته في صباه كالبارودي، وإنما حفلت على مرور الزمان
وطول للرانة وإدمان النظر. لم يكن شعره في الشباب إلا تقليداً لم يحكم،
وتفكيراً لم يفضج، ومحاولة لم تم: ولكن الله قد رزقه أذناً موسيقية وذوقاً
سليماً^(١) وطبيعة نافذة، فصاغه من الألفاظ للتخيرة، وللعاني المبكرة، وسار
وراء البحترى بنشد الحب والموت، والجمال والصدقة، وبهزج تلك المقطوعات
الثنائية التي شفت من روحه، وكشفت عن طبعه، وأحلت من أنداده محل
الزيميم. كان صبرى كما قال معمران أكثر ما ينظم لخطرة تخطر على باله من مثل
حادثة يشهدها، أو خبر ذى بال يسمعه، أو كتاب يطلعه؛ وكان شديد النقد
لشعره، كثير التبديل والتحويل فيه، حتى إذا استقام على ما يريد ذوقه السليم
من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب أهمله ثم نسيه. وكان ينظم المعنى الذي يعرض
له في يتبين عادة إلى أربعة إلى ستة. وقلما يزيد على هذا القدر إلا حيث يقصد
قصيدة وهو نادر:

(١) قال الأستاذ الرافعي في مجلة المصنف: لم يكن في مصر ممن يحسن ذوق البيان ويعبر
أنداد الألفاظ بعضها من بني وألوان دلائها كالبارودي وصبرى وإبراهيم اللويحي والشيخ
محمد عبده رحمه الله جميعاً، فالبارودي يذوق بالسليقة، وصبرى بالمعاطفة واللويحي بالظرف
والشيخ بالمعبرة والتفاد. وذلك شيء ركب الله في طبيعة صبرى ولم يحصل بالدرس أكثر
مما حصله بالحي، ومن أجله كان يفضل البحترى على غيره.

نموذج من شعره

قال في النزل ويقال إنه في الأندلس (١) :

يا لواء الحسن ، أحزاب الهوى	أيقظوا الفتنة في ظل اللواء
فرقتهم في المسوى ثاراتهم	طاحى الأمر وصوى الأبرياء
إن هذا الحسن كالماء الذى	فيه للأنفس رى وشفاء
لا تذوى بضنا عن ورده	دون بعض ، واحلى بين الغناء
أنتيم الحسن فيه ازدحت	سفن الآمال يزجها الرجاء
يقذف الشوق بها في مأج	بين الجين : عناء وشقاء
شدة تمنى وتانى شدة	تقتضها شدة ، هل من رجاء
سامى آمال أنفضاء الهوى	بقبول من سجاياك رخاء
وتجلى واجلى قوم الهوى	تحت عرش الشمس بالحكم سواء
أقبل نسل تقبل الدنيا وما	ضمته من معيدات الهناء
واسفرى ، تلك حل ما خلقت	لتوارى بلاثام أو خبساء
واخترى بين الندى يحلقوا	أن روعاً راح في الدادى وجاء
وانطق ، يفر إذا حدثنا	نار القهر هليبا ما نشاء
وابسى ، من مكان هذا ثره	يملا الدنيا ابتسامة وازدهاء
لا تخاف شطاطا من أنفـس	تعثر العبوة فيها بالحياء
راضة النغوة من أخلاقنا	وارتضى آدابنا صدق الولاء
فلو امتلئت أمانينا إلى	ملك ما كدرت ذاك الصفاء
أنت روحانية ، لا تدعى	أن هذا الشكل من طين وماء
وانزهى عن جسمك الثوب بين	للملا تكوين سكان السماء
وأرى الدنيا جناحى ملك	خلف تمثال معوَّج من ضياء

وقال في ساعة الوداع :

أرى أنت خاذل ساعة النوى دمع يقلب في غد أم نصوى
ويك ! قل لي متى أراك بجنى راضياً عن مكانك الهجور
ساعة البين قطعة أنت قدت للمحبين من عذاب السمر
لا تخينى ، روحى القداء لما سمعك غداً من صحيفة المقدور
وقال :

أقصر فؤادى فما الذكرى بواقعة ولا بشافة في رد ما كانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمناً حمل العصابة فاحقق وحدك الآننا
وقال :

نسى تذكرونا الشهاب وعهده هيفاء مرهفة القوام فندكر
تثب القلوب إلى الروس إذا بدت وتطل من حدق الميون وتظفر
وقال فى الصداقة :

إذا خانى خيل قديم وعفى وفوقت يوماً فى مقاتله سهى
تمرض طيف الود بينى وبينه فكسر سهى فاشتيت ولم أرم
وقال :

ياموت خذ ما بقى الأ يام والساعات منى
بينى وبينك خطوة إن تخطها فرجت عنى
وقال يبايى الله :

يارب أين ترى تقام جهنم للظالمين غداً وللأشرار
لم يبق عفوك فى السموات الجلى والأرض شبراً خالياً للعار
يارب أهلى لفضلك واكفى شطط العقول وفنتة الأمكار
ومر الوجود يشف عنك لى أرى غضب الاطيف ورحمة الجبار
يا عالم الأسرار حبى بحسنة على بأنك عالم الأسرار
أخلق برحمتك التى تسع الورى الا تضيق بأعظم الأوزار

أحمد شوقي

المتوفى سنة ١٩٣٢ م

نشأته وحياته



ولد أحمد شوقي بن أحمد شوقي
بالقاهرة ونشأ بها . أما أصله فقد
سم أباه يرده إلى الأكراد فالعرب
ويقول إن والده قدّم هذه الديار يافعاً
يحمل وصاة من أحمد باشا الجزائر إلى
والى مصر محمد على باشا فأدخله في
معيته، وظل يتقلب في المناصب السامية
حتى أقامه سعيد باشا أميناً للجدارك
المصرية^(١) .

وأقرب كان أبوه متلاقاً فأعلاك
ما ورث عن أبيه فسكفلة في المهدي

جدته لأمه وكانت إحدى وصائف القصر في عهد إسماعيل . ولما بلغ الرابعة
من عمره ، أدخل في مكتب الشيخ صالح في حي الحنفى ، ثم تاق بعد ذلك
دروسه الابتدائية والثانوية وتقدم إلى مدرسة الحقوق في سن ١٠ سنة فقصى
بها عامين . ثم عدل إلى قسم الترجمة الذى أنشئ فيها فقصى به عامين آخرين
نال بهما ثم أدمها النهائية . ثم ضمنه التلويح توفيق إلى معيته واشتغله إلى فرنسا
على نفقته ليدرّس الحقوق والآداب فدرس عامين في (منبلييه) وعامين في باريس
ثم عاد إلى منصبه في المعية التلويحية . وظل يتدرج في المناصب حتى تولى رئاسة

(١) مقدسة الطبعة الأولى لدوتوان (الشوقيات) .

القلم الأنرجمي في عهد الخديو عباس الثاني . ونفق لدى هذا الأمير حتى كانت شفاعته عند ذوى الحكم لا ترد وإشارته لا تخالف . ولما شبت الحرب العالمية الأولى خلعت إنجلترا بقوة الاحتلال الخديو عن عرش مصر . ورأى أولو الأمر يومئذ أن ينادر شوق البلاد ، فاختار برشلونة من أعمال أسبانيا مقراً له ولأسرته ولم يمد إلى مصر إلا بعد أن عاد للسلام إلى العالم . ولكن صلته الوثيقة بالنظام القديم ، ومدامحه المروية في الخديو المنفى . مازالت توحى بينه وبين القصر أسباب الثقة والتقريب . فانصرف الشاعر بإلهامه وأنشاه إلى الشعب ، بذود عن حوضه ، ويهتف بمجده ، ويعرب عن شعوره ، ويقل عن طبعه ، ويغنى بمجاده ، حتى حدث له مصر والعرب هذه اليد ، فأقاموا له في دار الأوبرا الملكية مهرجاناً عاماً لتكريمه اشترك فيه رجال مصر وأقطاب الدول العربية برعاية صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول . ولم يزل شوقي مهبط الوحي والإلهام ، وموضوع الإكبار والإكرام ، حتى انتقل إلى جوار الله في سنة ١٩٣٢ ، فأقامت له وزارة المعارف وطاقمة من أعيان الفضل والأدب ، حفلة تأبين بدار الأوبرا الملكية دعت إليها أقطاب العلم والأدب في الأقطار العربية ورعاها الملك بنائب عنه .

شوقي الشاعر

يكاد النقاد يجمعون على أن شوقي كان تمويضاً جاداً من عشرة قرون خلعت من تاريخ العرب بعد المنتهى لم يظهر فيها شاعر موهوب يصل ما انقطع من وحى الشعر ، ويحمد ما اندرس من نهج الأدب . كان شوقي يقل شعره عن طبع دقيق ، وحس صادق ، وذوق سليم ، وروح قوى ، فيأتى به مطرد السلك محكم السبك لا يشوبه ضعف ولا انحراف ولا تجوز ولا قلق . وهو كالمتنبى في أنه تصرف بين الناس فلا يمس أوليائهم ، وخالف دهمهم ، حتى عرف كيف يصف طبائعهم ، ويصور مغازعهم . وهو مثله في إرسال البيت النادر ، والمثل السائر ، والحكمة العالية ، مستخلصاً ذلك مما

يسوق من معاني للدح أو الوصف أو الرثاء ، دون أن يتوخاه أو يقصد إليه — وهو كذلك مثله في أن يبتغى بفيض المني البعيد للبتكر فيضانا يفرق فيه القهن أحيانا ، فلا يصل إلى قاع ، ولا يرسى إلى ساحل . أما معانيه فكثيرها مخلوق وقليلها مطروق . وأما ألغائه فأغماط من القول تختلف مادة وصفا باختلاف اللواقب ، وأكثرها عليه رونق طبعه ، ونور غفره ، وعذوبة روحه . وقد يعنى طبعه أحيانا فيرسل شعره كما يحى فيأتى بما لا يتفق مع فضله .

وشوقى يحافظ في دينه ولسنته وفنه ، يكثر التردد لأسماء الأنبياء والخلفاء والكتب للزفة ، والأماكن المقدسة ، ويؤثر النسيج على منوال الفحول من شعراء بنى العباس ، والنظم في البحور الطويلة . ولما ينظم في الأوزان للمستحذنة أو بنوع القافية في القصيدة . على أن هذه المحافظة لم تمنعه من تكميل نقص الشعر العربي ، فقد ظل شعرنا إلى عهده غنائيا (lyrique) يستمد الشاعر من طبعه ، وينقله عن قلبه ، حتى جاء هو فنظم ما يشبه الشعر القصصى (Epique) في طول النفس ووطنية الموضوع وعمومية الحادث ، كارجوزته (دول العرب) وقصيدته في (وادى النيل) .

ثم عالج الشعر التمثيلي ، فنظم رواياته للعروفة : مصرع كليو بطرة ، ومجنون ليلى ، وقبيز ، وعلى الكبير ، وعقرة ، والس هدى ، فكان بهذا التجديد الشاعر العربي المكامل . وقد جمع شعره في ديوان يقع في أربعة أجزاء . وله غيره في الشعر كتاب (عطاء الإسلام) وجملة من القصائد للأطفال والأغاني . ولشوقى نثر مسجوع لا يختلف عن الشعر إلا في الوزن ، جمع طائفة كبيرة منه في كتاب سماه (أسواق الذهب) . وله من النثر للرسائل قصص منها : لا يس ، وورقة الآس ، ومذكرات بنتامور ، وأميرة الأندلس :

مفوض من شعره

قال من قصيدة يصف فيها دمشق :

أمنت بالله واستغنيت جنته دمشق روح وجبات وربحان

قال الرقاق وقد هبت خائلها
جرى وصفق يلقانا بها (بردى)
دخلتها وحواشيها زمردة
والخورق (دمر) أو حول (هانتها)
و (ربة) الواد في جلياب راقصة
والطير تصدح من خلف الميون بها
وأقبلت بالنبات الأرض مختلفاً
وقد صنّى (بردى) لارج فابتدعت
ثم اشدت لم يزل عنها الهلال ولا
الأرض دار ، لها (النضياء) بستان
كما تلقاك دون الخلد رضوان
والشمس فوق لجين للاء عتيان
حور كواشف عن ساق وولدان
الساق كاسية والنعير عريان
والحيوت كما للطير ألحان
أفوافه فهو أصباغ واللوان
لدى مستور حواشيه أفنان
جفت من للاء أذنان وأردان
وقال يصف رحلة إلى الأندلس من قصيدة طوية :

اختلاف النهار والليل ينسى
وصفا لي ملاوة من شباب
عصفت كالعباءة العوب ومرت
وسلامصر : هل سلا القاب عنها
كلما مرت اليبالى عليه
مستطار إذا البواخر رئت
أحرام على بلايله اللهو
ومنها :

كل دار أحتى بالأهل إلا
ومنها :

وطنى لو شملت بالخلد عنه
شهد الله لم ينب عن جفونى
نازعنى إليه فى الخلد نفسى
شخصه ساعة ولم يحل حوى

محمد حافظ إبراهيم

١٨٧٠ — ١٩٣٢ م

نشأته ومبائه

ولد محمد حافظ إبراهيم في ديروط من أعمال محافظة أسيوط حوالي سنة ١٨٧٠ إذ كان أبوه إبراهيم فحشى من المهندسين المشرفين على بناء قطارها. ولا كان عمره سنتين توفي أبوه فقيراً في ديروط فانتقلت به أمه إلى القاهرة فكنهه خاله وأدخله (المدرسة الخيرية) فدرسة للبتليان فالمدرسة الخديوية . ثم انتقل خاله إلى طنطا فذهله معه ؛ فقصى فيها بضع سنين متبطلا يزجى فراغه بالقراءة ، ويدفع ملاله بالقرىض .

ولم يستطع خاله لسبب ما أن يحلوه عنه غمة اليأس وذلة اليم ، فكان لا يفتأ متبرماً بالعيش ، متأفكاً بالناس ، متجنباً حتى القدر ، لا ينشئ الشعر إلا في ذاك . ثم دفنته الحاجة إلى مكاتب المحامين فتنابها بالعمل فيها حيناً ، حتى أسعفته الفرص فدخل المدرسة العصرية ، وخرج منها ضابطاً بالجيش . ثم نقل إلى الشرطة ، ثم أعيد إلى الجيش ، وأشخص إلى السودان في الحملة المصرية بقيادة كوشلر فبقى هناك زمناً كان لا ينفك فيه متبرماً متمرداً ، يلح في العودة إلى مصر . فلما أخفق مساه تار مع فئة من الضباط سنة ١٨٩٩ ، فحوكم وأحيل إلى الاستيداع ، ومنه إلى المأش .

عاد حافظ كما كان يضطرب في الحياة المهمة ، لا يستريح لامل ، ولا يستقر على أمر ، ولا يشوف إلى غاية ، وإنما يضطرب نهاره من قهوة إلى قهوة ، ويتقلب ليله من مجلس إلى مجلس ، وينشئ إلى ظل الإمام محمد عبده فينتفع بحماه ويمش على رفده ، وينشئ مع ذلك أهواء النعمة ، يسامر أهلها بمذهب حديثه ، وينادهم برفيق شعره . وفي سنة ١٩١١ عينه أحمد حشمت باشا وزير المعارف

يومئذ رئيساً لقسم الأدبي بدار الكتب المصرية ، ثم وكيلًا للدار ، وظل في هذا المنصب حتى خرج إلى التقاعد في صدر سنة ١٩٣٢ وتولى صيف السنة نفسها .

حافظ المؤيد

حاش حافظ بحكم طفولته الشاردة للمهنة عيش الكسل والتبطل . لا يميل إلى علم ، ولا ينشط إلى عمل كدأب الناس قديماً من أضراب مسلم بن الوليد ، وأبي نواس ، ممن عاشوا صنائع الملوك ، وحائل على الجوائز ، ووسائل للهو ، كان ميلاً الأدبي ميلاً اليوم ، كما كانت حياته للمادية حياة الساعة . رأى الآمال تنهافت حيناً من الدهر على أريكة الخديوية في مصر وعرش الخلافة في الآستانة ، فمرى لسانه بالشعر للطبوع ، في مدح عباس وتنجيد عبد الحميد . ثم انصل بالإمام محمد عبده وشيعته من سراة البلاد وشيوخ الأمة ، ولهم يومئذ في الإنجليز رجاء موصول وظن حسن ، فصدرت عنه في هذه الفترة قصائد في رثاء الملكة فكتوريا ، وتتويج الملك إدوارد السابع ، ووداع الورد كرومر ، عبر بها عن الرأي الأرستقراطي في ذلك الحين . ثم خلص لشعب فلاس دهماء ، ونخالط زعماء ، واندفع بقوة الوطنية الدافقة الشابة إلى لواء مصطفى كامل فمزج شكواه بشكوى البلاد ، وضرب على أوتار القلوب أناشيد الجهاد ، ونظم آماني الشباب من حبات قلبه ، وترجم أحاديث النفوس ببيان شعره .

عكف منذ شب على دواوين الشعر ، وأجزاء (الأناني) يندخلها ويقتلها ويساود النظر فيها . حتى بلغ من مختار الرواية ومصطفى الكلام ما لا غاية بعده . ثم قنع من فروع الثقافة الأخرى بنصف من المسائل الأولية ينقلها عن السماع ويأخذها من الصحف إذا ظن أنها تدخل بوجه من الوجوه فيما يمتنيه من ابتكار الأعمار وصوغ القريض .

حافظ الشاعر

صياغة حافظ هي موهبته الأولى ومزيته الظاهرة . وهو في ذلك ثاني الخمسة (١) الذين تيقظت على دعوتهم نهضة الشعر ، وتجددت على صنعتهم بلاغة القصيد . ولعله انفرد عن هؤلاء جميعاً بالصدق في تمييزه عن هموم قلبه ، وتفسيده لأمانى شعبه ، وتصويره مساوئ عصره . أما الروح وللوضوح فأصداء مذمومة من الماضي في فردياته . وآراء مقتبسة من الحاضر في اجتماعياته . كان إذا تهيأ للشعر عمد إلى الآراء التي تختلج حيفت في النفوس ، وتستفيض في الجماع ، وتتردد في الصحف ، فيجدها في ياله ، ويدبرها في خاطره ، ثم يكون همه بعد ذلك أن يصوغها فيحسن الصوغ ، ويسبكها فيجيد السبك ، وتقرأ بعد ذلك أو تسمع فإذا نسق مطرد وأسلوب سائغ ، وشئ كأنك سمعته من قبل ولكن عليه طابع حافظ . ووجهه (٢) .

نموذج من شعره

قال على لسان اللغة العربية تلى حفظها بين أهلها

رجعت للنفس فأنهت حصاني	وناديت قومي فاحتببت حياتي
رموني بمقم في الشباب وليتي	عقت فلم أجزع أقول عدائي
ولدت وللم آجد امرأسي	رجالاً وأكفأ وأدت بنتاي
وسمت كتاب الله لفظاً وغاية	وما خفت عن أي به وعظمت
فكيف أضيق اليوم عن وصف آله	وتناسق أسماء الخمر طرات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن	فهل سألوا الفواص عن صدقائي
فما ويحكم أبلي وتبلى محاسني	ومنسكم وإن عز الدواء أساني

(١) البارودي وصدي وشوق وحافظ ومطران .

(٢) راجع ما كتبناه عنه في وهي الرسالة الجزء الأول من أسرار الأدب (شوق وحافظ)

فلا تكلفني الزمان فإنني
أرى لرجال الغرب عزاً ومنعةً
أتوا أهلهم بالمعجزات تفنناً
ومن خمرياته :

أوشك اليك أن يصيح ونفسى
يا غلام ، للدم والكأس والطا
أطلق للشمس من غياهب هذا الـ
وأذن الصبح أن يلوح ليعنى
وادع ندمان خلوتى واتفانى
واسقنا يا غلام حتى ترانا
خمرة قليل لأنهم عمروها
وقال من قصيده (عادة اليابان) :

لا تلم كفى إذا السيف نيا
رب ساع مبصر في سبه
مرحباً بالعلب ييلونى إذا
حقى الدهر وولوا أنقى
إيه يادنيا عيسى أو قابسى
أنا لولا أن لى من أمقى
أمة قد فت فى سامعها
تمشق الألقاب فى غير الملا
وهى والأحداث تسهدفا
لا تبالى لمب القوم بها
صح منى الزم والذهر أبى
أخطأ التوفيق فى طلبها
كانت العلياء فيه السبا
أوتر الحسنى عقت الأدبا
لا أرى بركك إلا خلبا
خاذلا ما بت أشكو النوبا
بنفسها الأهل وحب الغربا
وتفدى بالنفوس الزنبا
تمشق اللهو وتهوى الطربا
أم بها صرف الأيالى لمبا

جميل صدق الزهاوى

١٨٦٣ — ١٩٣٦ م

شأته ومبادئه

ولد جميل صدق الزهاوى فى يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر يونيو سنة ١٨٦٣ م ببغداد لأبوين كرديين كريمين ، ثم نشأ فى أسرة تميزت بالدين والفقه والأدب . فقد كان أبوه محمد فيضى الزهاوى مفتياً لمدار السلام وأخوه فقياً من فقهاءها . وكان أخوه - كما حدثنى جميل - لا يتذوق الأدب ، فكان يذوده عن رواية الشعر ، ويصده عن دراسة اللغة ، ويأبى عناده هو ، وتسامح أبيه ، إلا أن يديم النظر فى الأدب وروى القريحة على القريض . كان هم أخيه وأمل أبيه أن يستقيم على عمود أسرته فيكون صاحب قضاء وقته ، ولكنه استقام على محوم طريقته فكان صاحب شعر وفلسفة . وكان العراق أيام الزهاوى ترى السلطان سنى الحكومة ، فالتعليم اللدنى فيه كان تابساً فى لغته وطريقته وغاية لسياسة الأجنبي وهواه ؛ فلم يخرج إلا رجال جيش أو رجال إدارة ، أما التعليم الدينى فظل فى محوم الجوامع ، عربى اللسان ، حر النزعة ، طليق الفكرة ، فتتلف الزهاوى بهذه الثقافة وتنفس على أعصابه الشاعرة أمواج العروبة - سلها على بغداد البوادرى للملحة . ثم نزع عرق المم والخال من السكرية فجاهد وجالد وغامر . ثم ابتلى وهو فى الخامسة والعشرين من عمره بداء فى النضاع الشوكى لازمه بقية حياته . ورمى بمد ذلك بالشلل فى رجله فبرم واكتأب وتشام ! ثم مئ فى عصره بفساد السلطان واستطالة الجمل ، وانحلال الخلق ، فدفعته هذه العوامل كلها إلى مواقف المصلحين من الإنذار والنصيحة .

لم يخلد الزهاوى إلى التبطل كما كثر أهل الشعر ، وإنما غامر فى خطير الأمور ، فمئ فى بغداد عضواً فى مجلس المعارف ، ثم مديراً لمطبعة الحكومة ، ثم محرراً بالجزيرة

الرسمية ، ثم انتخب عضواً في محكمة الاستئناف . ودماه الخليفة حين نبه ذكره إلى الأمانة فعرك فيها لسان النقد وأفض بها مضاميع التجسس ، فانتفض أمره وساء مقامه . ولما أعلن الدستور العثماني عين رئيساً لقسم الفلسفة الإسلامية في (الكتبة لللكي) ثم مدرساً للآداب العربية في (دار الفنون) ثم عاد إلى بغداد فعين أستاذاً للشريعة في مدرسة الحقوق . ثم انتخب نائباً عن العراق في (مجلس للبعوثان) وهو في خلال ذلك كله لا يفتر ليله عن الشر والقراءة ، ولا يكل نهاره عن الحديث والكتابة . حتى غلب الترك في الحرب العالمية الأولى وقام هرش فيصل في العراق فكان الشأن لأصحاب الجيش وأقطاب السياسة . أما الزهاوي وأمثاله من رجال الفكر والشر فأتخذوا طريقهم على الهامش . اللهم إلا زمناً يسيراً عينه فيه لللك فيصل الأول عضواً بمجلس الأعيان العراقي ، ثم تغل عنه لجرأة شعره وصراحة رأيه ، فكان لا يفتك شاكياً ذلك الحرمان متصاعلاً على نفسه مع انسراق القوى واستحكام العلل ، حتى توفاه الله ببغداد في أواخر فبراير من عام ١٩٣٦ .

الزهاوي العالم

كان الزهاوي في صدر شبابه ينظر في العلوم الطبيعية والفلسفية ، ووسيلته إلى ذلك ما تترجم من اللغات في الكتب والمجلات ، لأنه لم يعرف من اللغات إلا العربية والفارسية والتركية والكردية ، وكلها لا تصل فكر الإنسان بالثقافة الحديثة . ومع ذلك استبطن دخائل هذه العلوم بسفه الناقد حتى ألف كتاب (الكائنات) في الفلسفة ، وكتاب (الجاذبية وتمايلها) في الطبيعة ذهب فيها مذهباً خاصاً خالف به أقطاب العلم وجهابذة النظر كقوله : إن علة الجاذبية ليست جاذب للمادة للمادة ، وإنما هي دفنها إليها بسبب ما تشعه من الالكترونات وسواء أنهض دليله أم دحض فإنه يدل على النظر الثاقب والفكر المستقل .

الزهاوى الشاعر

والزهاوى شاعر من شعراء الفسكرة ، له البصيرة الناقدة ، والقطعة النافذة ، وليس له الأذن التى تمسق ، ولا القريحة التى تصنع . فاللفظ قد لا يخفى ، والوزن قد لا ينق ، والأسلوب قد لا يفسد ، ولكن الفسكرة الحية الجريئة تنبع من الأبيات المتخالفة جميع الأمواج المزبلة بين الشواطئ المهارة . وكان الزهاوى كمشوق حريصاً على متابعة المعر ومسايرة التطور . ومنشأ هذا الحرص فيما طبع مرن يطالب التجدد ، وحس مرهف يأنف التخلف . ويزبد الزهاوى أن النخز يزهاه والنيه يذهب به فيحب الثناء ويبغض القدر ، فهو لفرقة من صفه التقدم يسبق الشباب إلى التعديد ، وانفوره من مسرة الجود يذهب بالرأى إلى التطرف ، ولطامحه فى نباهة الذكر يحارى ميول الخاصة ويمارض هوى العامة . ومن ثم كان أكثر شعره تشبيهاً على الاستبداد بمهاجمة أهل الحكم ، وزراية على الجود بمعاربة أهل الدين ، ونمطاً للتأخر بمصادمة مألوف الأمة .

نموذج من شعره

قال من قصيدة بعنوان الجهل والعلم :

يريد أناس فرقة الشعب جهلهم	فلا عطفت بالبين تلك المهادس
ونحن الألى ما فرق الدين بيننا	وإن كثرت بعض الأركان الدس
فمشاوعاشت من عصور كثيرة	جوامعنا فى جنهن اللحناس
ولا يدم الإنسان طول حياته	صديقاً يواسى أو عدواً يماس
ولكننا عشنا جميعين أعصرأ	كلانا أخو صدق نلانا مؤاس
وإنما نحن عسا والمهائم عندنا	لها حرمة عموده والفلاس
سنحيا نعم فى وحدة عربية	لها العلم نثنام لها العدل سانس
ونترس فى قلب الشيبة جراً	على الصدق حباً أن تطيب العرائس

وساعدنا فيما نحاول دولة
أقول لشعري أيها الشرع صل وجل
أغفلت أن الجهل في الناس جاهر
يلبس شعري اليوم إصلاحة أمة
ستحيك يا شعري فأفتر حكومة
حكومة عدل مهد الأرض حكمها
وليس لها في للترين معارض
ومن خطراته :

إن الصراحة تنفي
أخوالها قبل أن يم
وعند من هو غر
كم جامع للكنوز
وقد تموت فضاء
لا تبين فليس الـ
إننا نعيش بمصر
ما ليس تنفي الرموز
حل الأداة يروز
يموز ما لا يموز
يفنى وتبقى الكنوز
ولا تموت هجوز
بجانب شيخا يموز
فيه الجسور يفوز

لقد مشيت بليل
فما بدت كثيرا
من لي بماء براد
طلبت شيئا قليلا
وكم صحبت خليلا
كل الأحبة أعدا
لا خير لي من بلادى
داج بنير دليل
حق ضللت سبيل
به أهل فليس
فلم أفرز بالليل
فكان غير خليل
في عند خطاب جليل
وأسرت وقبيل

خاتمة

في الاستشراق والمستشرقين

يراد بالاستشراق اليوم دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأدبه وأغانيه وآدابه وعلمه وعاداته ومعتقداته وأساطيره ؛ ولكنه في المصور الوسيطة كان به صديقه دراسة العربية لعلها بالدين ، ودراسة العربية لملاقاتها بالعلم ؛ إذ بينا كان الشرق من أدناه إلى أعلاه مغموراً بما تشبه منائر بغداد والقاهرة من أضواء المدنية والعلو ؛ كان الغرب من بحر إلى بحره إلى بحره في غياهب من الجهل السكثيف والبربرية الجلوح . وكان حظه من الثقافة يوشك ما تضمنه حصون الأمراء المتوحشين من الكتب ، وما يعلمه بعض الرهبان للسالكين من قشور العلم . وانقضى القرنان التاسع والعاشر للميلاد وأولئك الأمراء في قصورهم يتبعجون بالأمية ويرتدون في السماء ، وهؤلاء الرهبان في دورهم يحضون الكتائب من روائع الكتب لينسخوا على صفحاتها المصعقة كتب الدين . حتى أزال الله النشأة عن بعض الميرون ، فأروا من وراء هذا الظلام الداجي بقعة من المغرب تسطع فيها شمس المشرق . فلما تبينوا أن البقعة هي جزء من أسبانيا ، وأن النور قبس من نور بغداد ، استيقظ في نفوسهم طموح الكمال الإنساني ، فطلبوا العلم فلم يجدوه إلا عند العرب .

ففي سنة ١١٣٠م أنشئت في طليطلة مدرسة لترجمة تولاها الأسقف ريموند ، أخذت تنقل جلائل الأسفار العربية إلى اللاتينية ، وعانهم على ذلك اليهود . فبعت هذه الترجمة في أوروبا الخادمة شعوراً لطيفاً وروحاً طيبة . وتعافرت عناب هذا اليهود القليل قواعداً أخرى لترجمة طوال القرون الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر حتى بلغ ما ترجمه من العربية يومئذ ثمانية كتب كأحصائها الدكتور (سكلارك) في كتابه تاريخ الطب العربي ، وأحصائها غيره أربعمائة . وكان أكثر ما ترجم

في هذه العهود كتب الرازي وأبي القاسم الزهراوي وابن رشد وابن سينا، وما نقل إلى العربية من اليونانية لجالينوس وأبقراط وأفلاطون وأرسطو وأقليدس الخ... وغلت هذه الكتب للفقوة منهاجاً للتعليم في جامعات أوروبا خمسة قرون أوسنة، واحتفظ بعضها بقوته وقيمتها حتى القرن التاسع عشر.

قال المؤرخ الإنجليزي مارفي كتابه فلسفة التاريخ: «إن مدارس العرب في أسبانيا كانت هي مصادر العلوم، وكان الطلاب الأوربيون يهرعون إليها من كل قطر يخفون فيها العلوم الطبيعية والرياضية وما وراء الطبيعة». وكذلك أصبح جنوبي إيطاليا منذ احتل العرب، واسطة لنقل الثقافة إلى أوروبا. وعمن وردت تلك للناسل الراهب (جربرت القرنس)، فانه يبد أن ثقف علوم اللاهوت في (أوربا) مسقط رأسه جاب عقاب البرانس والوادي الكبير حتى ورد أشيلية، فدرس فيها وفي قرطبة الرياضيات والفلك ثلاث سنين. ثم ارتد إلى قومه ينشر فيهم نور الشرق وثقافة العرب فرموه بالسكر والكفر، ولكنه ارتقى إلى سدة البابوية سنة ٩٩٩م باسم سلفستر الثاني. كذلك تخرج على علماء قرطبة (شاذلي) ملك ليون وأستوريا، وأولع بمض علماء إيطاليا بالعربية، وعدوها لغة الأدب العالي، وأوصى قومه الراهب روجر بيكون الإنجليزي بتعلم اللغة العربية وقال: «إن الله يؤتي الحكمة من يشاء ولم يشأ أن يؤتيها اللاتين، وإنما آتاها اليهود والإغريق والعرب».

على أن الاستشراق لم يبق محصوراً في دائرة الانتفاع بعلوم العرب ومدنية الشرق. وإنما خرج عنها إلى أغراض تجارية وأستعمارية أودينية، فأقبلت الأمم الأوربية القوية بحكم هذه الدوافع تتنافس في تعرف الشرق وإرتياد أقطاره، وكشف آثاره، وفتح كنوزه، وإحياء أدبه، وطبع كتبه، وإبرازته، ثم صار الاستشراق فناً قائماً بنفسه، يطلب به الوقوف على لغات الشرق وميتها وحياها، والاطلاع المباشر على آدابها وفنونها. وفي سبيل ذلك أسسوا للطابع^(١)

(١) من أول ما طبع في العربية (المجموع المبارك) والتاريخ لابن العميد للعروف بالمسكين، وكتاب (تاريخ الدول) لابن الجبري و (فهم الجواهر) لسعيد بن البطريق، ثم تاريخ أبي الفداء ومقامات الحريري.

وأنشأوا المكتبات^(١) وأنشأوا الجمعيات^(٢) وأقاموا المؤتمرات^(٣) وأصدروا المجلات ، وجمعوا المخطوطات ، ونشروا نقاس الكتب ، وعلقوا عليها الحواشي وذيّلوها بالفهارس المختلفة للأسماء وللوضوعات والأمكنة ، ثم كتبوا البحوث القيمة في تحقيق الألفاظ ، وتحرير الأصول وتصحيح الأخطاء ، وكشف الجهول على الأسلوب العلمي الصحيح ، ولتتبع المنطق الحديث ، فكانوا في ذلك قدوة لعلمى اللغة ومؤرخى الأدب من العرب ، في تحضير اللادة ، وتنظيم البحث ، وتوضيح الحق ، وتحرى الصواب ، وتقصي القروع .

أشهر المستشرقين

اشتهر من المستشرقين الفرنسيين فيقيم Vetez المتوفى ١٦٦٧م ، وهو طبيب الدوق دورليان ، نقل إلى الفرنسية تاريخ ابن السكّين ، وتيمورلنك لابن عربشاه ، وعالم المنطق ، والأمراض العقلية لابن سينا ، واللامية للطبراني وهربلوت Herblot

(١) كان في مكتبات أوروبا ، مطلع القرن التاسع عشر ، مائتان وخمسون ألف مجلد ، موزعة في أربعين : لينجراد وباريس وبرلين ولندن وليفزج ومونيخ وينا ولبدن وكفورج وأمبرج ودين وأكبرج والاسكريال ، وميلانو ورومة ، وبرستون الخ .
(٢) من الجمعيات الآسيوية وألعمها الجمعية الآسيوية التي أنشئت في بنافيا طامسة جاوة سنة ١٧٨١ ثم الجمعية الآسيوية البنغالية التي أسسها السير وليم جونز في كلكتا عام ١٧٨٤ ولعبرت بحوثها من عصرين مجلداً ظهرت فيها بين سنة ١٧٨٨ ، وسنة ١٨٣٦ ، ولها مجلة الجمعية الآسيوية للبنغال) صدر بعدها الأول سنة ١٨٣٢ ولا تزال تصدر .
وفي ١٥ من مارس تألفت في لندن لجنة لتبسيط الفرائض الشرعية بريانا .

ومن أعضائها النابيين مرجليوث ، وبراون ، ودلس روس ، ونيسكسون ، وجب ، وفرص .
وفي سنة ١٨٧٠ أيضاً للعثمانيون الفرنسيون الجمعية الآسيوية تحت رعاية الدوق دورليان وسلفتر دسامي ، وانفردوا لها مجلة عنوانها (المراجعة الآسيوية) Le Journal Asiatique
لعمرت فصولاً قيمة في العرب والعربية . وكذلك حذت أمريكا وروسيا والنمسا وإيطاليا وبلجيكا وهولندا والدانمارك حذو إنجلترا وفرنسا فأنشأوا الجمعيات وأصدروا المجلات ، وتكاتفوا جميعاً على إظهار فضائل الإسلام وإعلان مفاخر العربية . راجع كتاب (المستشرقون) للأستاذ جيب الطيبي .

(٣) أقام المستشرقون تسعة عشر مؤتمراً في أمهات مدن الغرب أولها أقيم في باريس سنة ١٨٧٣ ، وآخرها أقيم في باريس سنة ١٩٠٨ ، وكانوا يدعون إلى كل مؤتمر أقطاب لآداب العربية في أقطار العالم يبدلون فيها بما أعدوا من البحوث الأدبية والتاريخية والآثرية وغيرها ، وكان لمرحط مونفور من شهود هذه المؤتمرات وجهودها .

المتوفى سنة ١٦٩٦ ، كان أميناً لـ *سرلويس الرابع عشر* وأستاذاً *للعربية* في معهد
 غرنا ، ألف (*المكتبة الشرقية*) وهو معجم جامع لما في الشرق من فلسفة وأدب
 واجتماع . وسريو *Sédillo* المتوفى ١٨٣٢ كان متخصصاً في علم الفلك عند العرب
 وقد نشر نيذة في الهندسة لابن الهيثم ١٨٣٤ و (علم الرياضيات وجامع المساويء
 والنهايات) في الآداب الفلكية لأبي الحسن علي . وكوسين *دي برسفال depercéval*
 المتوفى ١٨٣٥ نقل تاريخ صقلية تحت حكم المسلمين ، ونشر المخطوط السبع وأمثال
 لقمان . وطبع الجداول الفلكية من الزيج الحاكبي ، ومقامات الحريري ، وترجم
 الجزء الناقص من ترجمة جلال لألف ليلة وليلة . وسلفسترو ساسي المتوفى
 سنة ١٨٣٨ ، برع في اللغتين العربية والفارسية وتخرج عليه فيها طائفة من أعلام
 الاستشراق في الغرب . ألف في البرية كتاباً سماه (*الأنيس المنيد* لطلاب
 المستفيد) اختار فيه صفوة من المفردات والمفردات ، وكتب شرحاً وجيزاً على مقامات
 الحريري ، ونشر كلية ودمنة وألفية ابن مالك ورحلة عبد اللطيف البندري .
 ثم ألف ثلاث مذكرات قدمها إلى الجامع عن مصر الإسلامية إلى الاحتلال
 الفرنسي . ومارسل : المتوفى سنة ١٨٥٤ كان مترجم الحملة الفرنسية في مصر ،
 ألف كتاباً في وصف مصر واختار طائفة من الشعر العربي ، له مقالات قيمة
 عن ابن ميمون ، وابن سينا ، والضايري ، والقزويني . نشرها في *الجملة الآسيوية* .
 وكريمبر المتوفى سنة ١٨٥٧ أخذ العربية عن دسامي ، وانتخب عضواً في *الجمع القوي*
 الفرنسي ثم محرراً في *الجملة الآسيوية* . نقل إلى الفرنسية بعض كتاب *السلوك* لـ *العريزي* ،
 ونشر مقدمة ابن خلدون في ستة أقسام فرنسية وعربية ومنتخبات من أمثال الميداني ،
 وكتاب الروضتين لابن شامة . وله أبحاث في *الجملة الآسيوية* عن النبطيين والعباسيين
 والفاطميين . وكتاب الأغاني ، وذوق الشرقيين في السكتب ، وحياة السمودي وآثاره
 ومن أشهر المستشرقين الألمانين فريتاغ المتوفى سنة ١٨٦١ تلقى العربية عن
 دسامي ، وعين أستاذاً لها في كلية بونه . نقل ديوان الحامسة لأبي تمام بشرح
 التبريزي . وزبدة الطلب في تاريخ حلب لابن النديم ، وفاكهة الخلفاء لابن

عرب شاه . وقد وضع معجما عربيا لاتينيا في أربعة أجزاء . وجوساف فلوميل المتوفى سنة ١٨٧٠ نشر كشف الظنون ، والفهرست لابن القديم ، ومؤنس الوحيد قشماي ، وطبقات الحنفية لقطولينا . والقرآن . وفليشر المتوفى ١٨٨٨ ، ألف في الآداب الشرقية كتباً كثيرة ، ونشر تفسير البيضاوي والمفصل لاربخشري . وفردناند وستيلر المتوفى سنة ١٨٩٠ ، نشر طبقات الحفاظ للذهبي ، وسيرتابن هشام ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، ومعجم البلدان لياقوت . ونلري المتوفى سنة ١٩٣١ ألف في الألمانية تاريخ القرآن ، وتاريخ عروة بن الورد ، وبحثاً في الشعر الجاهلي ، وبحثاً في المملكات السبع وغير ذلك .

ومن اشتهر من الإنجليز أودورولين المتوفى سنة ١٨٧٤ عاش بمصر صدر شبابه ثم وضع كتاباً في وصف مصر ، وكتاباً آخر في عادات المصريين وشمائلهم ترجم أكثره في مجلة الرسالة وطبع مجموعاً في مطبعتها سنة ١٩٤٩ ، ومعجماً عربياً إنجليزياً ، ثم ترجم ألف ليلة وليلة إلى الإنجليزية . ووليم موير المتوفى سنة ١٩٠٥ ومن مؤلفاته حياة النبي ، والتاريخ الإسلامي ، وتاريخ الخلافة ؛ وهي من المراجع المعتمدة في الجامعات الإنجليزية والهندية .

ومن اشتهر من الإيطاليين دافيرستارونا المتوفى سنة ١٩٣١ ولد في تونس ودرس في رومة ، وكان له بالذهب المالكي والشافعي علم واسع . عين في سنة ١٩١٠ أستاذاً للفلسفة بالجامعة المصرية ، فألقى بها محاضرات قيمة . وتيسر المتوفى سنة ١٩٣٨ ، وقد دعي في سنة ١٩٠٩ لإلقاء محاضرات في تاريخ أدب اللغة العربية بالجامعة المصرية فأقاد بخبرته وطريقته كثير من الناس . وقد عنى بالمسائل الجغرافية والفلسفية عند العرب . واغناطيوس جويري المتوفى سنة ١٩٢٥ وقد انتدبه الجامعة المصرية كذلك سنة ١٩٠٨ للتدريس فيها فألقى دروسه باللغة الفصحى . وإذا أردت استعلاء هذا الموضوع فقرأ كتاب المستشرقين (للأستاذ نجيب العقيد) قد ألم بتاريخ الاستشراق إلماًما يقع لائق وينفي عن المزيد .

ذيل

في تفسير ما ورد في الكتاب من الألفاظ الغريبة والتراكيب الغامضة

صفحة	ملاحظة
٣	كتب الله : حرزه ورجته . مرك المحسوب : شدتها وأذاها . التحلة : للذهب واللبانة . السن النضاجة .
٧	الغري بالسكون : الجماعة يتقدمون في الأمر
٩	الطر : للطر : يسمونها . يرمونها . أخلفت النساء : أطمعت في الفتيه ولم تعمل . الترابية الواجعة : للفتيك . الطينية : الوجعة . البناء بالمرأة : الترجوع منها .
١١	الاستقراء : تتبع الحوادث بالملاحظة لتكون منها حكما . الأقواء : جمع قوه وهو سقوط نجم في الغرب وتلوع نجم بجباله من ساحته في الشرق كل ثلاثة عشر يوما ، وكانوا يخيفون أعاجيل الطبيعة من للطر والرياح إلى الساقيتهم ويقولون مطرنا ينوء كذا .
١٤	الرم : السدود بين ق الرادى لحبس للياه خلفها وهي المراتات . وسيل الرم سيل عظيم حدم مره كان أهل سبأ في اليمن قد بنوه فأغرقهم وبرزهم في البلاد .
١٦	للثائرة : الماكة في الحسب والنسب .
١٨	عن : اسم رجل ، وبلقة : اسم امرأة
١٩	الجنة : ما نسج عرشا ، والسنى : ما مد من خيوط الكتوب طولاً . القدرج القل : أكبر الأصبه في الفرس . القطر : ما يترك حاجته والنفاحته . خفت العين : البسوة والنبضه على رأى والنسب والصدقة على رأى آخره . الأقيل : جمع قيل وهو لك الصنيم . يشدأزرها : يقربها ويؤيدها والأزرد التنهر . الحامير : النصب . والصفاح : السيوف . والنفز : القرع من الأرض . حسن الثارة : جبل الميتة .
٢٠	صدف عن الدنيا : زهد فيها

« تكرم » .

الحنف: أردأ الخمر. ورائح السهم: ألق
عليه الرئس. الرث: اللطاة. الحوية: القب

٢٥ سدة يجه: خزانه والتأمن عليه:

الحرس: البحر. والخور: الضف.

التواكل: أن يسكل كل على الآخر.

أحداث البحر: نوابه. القرض:

الحنف. تاوره. تنفاوه.

٣٠ يزدحمهم: يستغفهم. عفو البنية وفيض

الخالل: ارتجالاً من فيروية. للتأد:

للوج. أساعى. أحاجى وأخائل.

٣٢ وعوة الصحراء: سموتها وتومرها:

الساة الملاية.

٣٤ الحقة: ميدان السباق. القباطى

التور والآتوب والطناسى التي

اشتهرت مصر بهنما قبل الإسلام

وبعده. مفرداً قبيلة وقد وردت

بهذا اللفظ في قول زهير بن أبي سلمى:

ليأينك منى منطلق قدح

بق كما دلى القبطية الردك

٣٤ التيث هنا: القبل والرمي: والوسى:

أول سطر للريح. والرائد: من يشه

أمله في طلب الرمي: الأسحم هنا:

الصحاب الأسود اللون. المجزة:

الفرس الشديد الضل. أئمز الجرى

لها: أي يسعوا أشده. الأكرع: جمع

كراع: أطراف القوائم. الحال: التوب

التاعم من ثياب المين.

٣٥ الصوار: التطيع من بقر الوحش.

الجزى: نوع من العدو. الاجلال:

جمع جل: وهو ما يوضع فوق ظهر

الفرس سائراً له. القردب: الطويل

٢١ حاج: منظر. وساج: ساكن والأبراج

اثنا عشر ربما تقابلها الشمس في طريقها

طوال السنة. اللدلة: المسحوة على

خلاف القياس وهي البسطة.

البصائر: جمع بصيرة وهي العلم والمبرة

ورد الماء: انما يقرب. وسدوته:

رجع. ومعناه هنا الموت وعدم الرجوع

منه. القابر: الختم. البيلة: القفر.

أجدكيا منصوب على نزع الباء ومعناه

أجد مشكاً هنا؟ أو منصوب على

المصدر ومعناه مالكا؟ أجدكيا مشكاً

هنا؟ الكرى: النوم. والصدى:

الصوت. والطار: الحرة. الدولة: البكاء.

٢٢ الأضلاء: الأعضاء بعد البلى والتفريق:

والصبياء: الخمر. واستهزى الهوى:

أمن فيه واسترسل. النجسة: طلب

الكلا في موضعه. الارتداد: البعث

من المكان المناسب للاحتجاج. وعفو

الرأى: طابعه. واكتنم بأدبنا:

أغفر زلتنا. والبادرة: ما يبدو منك

هند النضب. الوقس: الكسر.

والصفاء: الحير. والتضم: كسر

الغنى بأطراف الأسنان. والمضم:

النظم. للقلس: القرس المعروف بالطويل

القوائم. والهاقق الكاعل. والتجاء:

مالة السيف.

٢٣ الشايحة: الفروع. وعداء: هلندى:

فرس طويل شديد. والتهد: القرس

الجميل الجسم للفرس. والقطب:

جمع خطبة: وهي طريقة السيف في منته.

القة: جمع جليل وهي النظام من الأيل:

والتيب: جمع ثابته وهي الثالثة المسنة

٢٤ تمحاً: تكلف الجفء وهو إخراج

صوت مع ربح من فة عند الشبح

صفحة

الضخم من التيران . القرا : النابر
الروق : القرن . الأخنس : متفخذ
قصة الألف . القيل : طويل القيل .
ضاديت منه . عادي بين الصيدين تابع
العدو في طلق واحد . فتفاء الجناحين :
ليتهما في طول . القوة . السرية التي
تختلف كل شيء . طاماً فرسه :
وخزه وحركته مدو . الشمال : السرية
الخفية . الأليم وأورال : موشان .
الخران : جمع خزن بالضم والفتح :
ذكر الأرف . جبرث . اختفت في
أحجارها . أبيت الفن : كلة ينهي
بها للولوك ، أي خضت بما تلقن به :
تمتلك . تضيق . الأفرح : بنو فرح
ابن عوف وكانوا قد وشوا به إلى
التمان ، فجادع . ثقات : المولومهم جاعة
وصى النبل في اليد . الأمة الذين
والاستقامة . لصاب وبيرة : ماء ان على
طريق نكا والألال : جبل . السماء :
طائر أكبر من الحطاسير الطيران .
خصوصاً حيونها : ضيفات . رذايا .
جمع رذية ، وصى للطروح المتفرد من
الإبل المالك في أتنا الطريق .

٣٦ الحن : جمع حنية : وصى النوس . الهر :
هاء جلى يصعب الإبل في مشافرها
وقرواتها .
الضال : المائر المذهب . السيب :
الطاه : التصريد : الشرب دون الزى .
كنع السك بالضم : تراكم وروق .
رث الحبل : يل . والمراد السد .
مع الضمى : يلغ آخر عاتيه . الصبة
يقتح فسكون : الشجرة تنطق في شيء
حال فسكون كالضبة عليه ، وهو الشجر
المتعلق كالإبل مثلاً . مفود . اسم
جبل . الأناب : شجرة . الم : الضم

صفحة

الحرم : للنوع قطع سوله :
كابة : موضع . لم تحيط : لم
تصيب فروعه وتضرب بالعمى فتكسر .
لم يتضد . لم يقطع . طرس : اسم أخ
الشاعر : رمط بنى السوداء أصاب
أخيه عبد الله .
٣٧ الأمايف . للثاقون على نصر : بعضهم
لبس . قبال : مائة ومقابلة . فزية :
حي من بنى جسم .
القصدة : الجبان يقصد من نصرته لومه .
الصياحى جمع صياحة : شوك يسوى
بها الحائك نسجه . البو : ولد الناقة
أو البقرة بمعنى جلده نبتاً فتجد راحته
فيه فتدرك البق له . البرم . من لا يدخل
مع القوم في ليسر ضنا بالجزر ، وكانوا
يطمون لمومها للفرار . تناوحت الريح :
عبثت كل ناحية ، وذلك زمن الفتاة .
النضاة : الشجر الشائك . القسريع :
نبات خبث لا تقربه الدواب . للعضد :
التطم . كيش الأزار : قصيه ، وذلك
كناية عن الفقة والتجدة . طلاع أنجد :
كناية عن انتقام الصواب : السيد
الصدر : القتب القرس في صلاته ،
يريد به فرسه : القفلى . النظم اللازق
بالساعد أو الساق . الجبل : الضخم .
الشوى الأطراف . النسا : عصب يجرى
في النضد والساق . والفتق : للقبض ،
للتنقبض . للقد : المتق .

٣٨ للصدر : الأسد . الجبل ثمود .
موشان . طعا به قلبه : ذهب به كل
منه . شطولها : يمدو صالما . للشر
من الرجال : المصدق القى يستجبه الناس
ما أفت أم ما ذكرها ؟ ما استهامة
القصبة . وأم للإصراب يعني بله أى
ما شألك ، بل ما أدامنى قد ذكرها لك

والشيخ هجر الرياح ، ومعنى اللال لا يد
الكريم إلا الكريم . لاح الشيء :
لحه وأصره . والياغ : التلال .
والفرور : من أصابه البرد ، يسطلها
يمتدنان بها .
٤٢ والأسم الناجي : الليل الشديد السواد .
وكف مبيدة : مظلة . المجان .
البيش الكرام من الإبل ، يستوى فيه
للذكر وللؤث والجمع . الأوارك .
جمع أرك ، وهي التي رمت الأراك .
الومة : للفازة . جيشا : فريدا .
وللتفوق : السرح . القد : المدو .
حاس عليه الكرى : غاملا على
الاستمارة . العيجان : النبور على حرمة .
الريشة : الطليمة . تاج : اسم مكان
وما تمر وما قبل : أي لا تنفرد ولا تضر
وأحاب يث مع الليل : أحباب غير
أثية أحدثها القى .
والرسل . الطالب الراهب من اة :
تصرفها الأناهل : كناية عن اللوث .
٤٣ المصائل جمع حصية : وهي ما كسبه
الرء من حنات وحيات . يقسم
أمره : يديره . حيث أنه : تكتله
ونقده . والواثل : الناجي . والواثل
للنجم . تركت الموازل : تكتله
الحوادث . الفايور نهر بين رأس عين
والقرات . والكاس ما يبي به من
التوردة وأغلاطها : الغورنق والصدير :
صهران عريان جاهليان : والسا :
الرع القرية . الديور : الرع القرية .
والوث به . فحيت به .
الكلكل : الصدر . أنجل : انكشف
الإصباح : الصبح ومثل : أفضل . منار
الثل : عكة . ويذبل جبل في نجد

ومى من ربيعة وأنت من نعيم :
الغليب . البئر : الجسرة : الناقة القوية :
الرادف : كل شيء يكون خلف
الراكب . الغيب : السير السريع
الرجب : خفغان القلب .
٣٩ القعدة : الفرس الحسن الجسم . البواء
السواء والكعب . شمسها : ضميرها
ونحسها . السادية : القوم يمدون وكذلك
الغيل . سوم الجراد اللشاره في طلب
الرمي . وزعتها : كفتها ومنعتها . ساء
الجر : اختراها . الأيسار : القين
يسرون الفداخ في المقامرة .
أفليه . أيضا . هالت لمامتنا : ففرنا
واختطفنا . الهامة : فيها يزعم العرب طائر
كالوب يخرج من قبر القتيل إذ لم
سذ يتأوله فلا يزال يصيح ويقول
اسألوني حتى يتأوله .
١٠ لام ابن عكك ؟ أصله ابن عكك
غلخت اللام الخافضة في لمن الكلام .
البيان : القائم بالأسر والسقية : الحاجة .
الزواء الضيق والشدة .
زهد على مائة : زيادة عليها .
٤١ سفوان : اسم مكان . والكاهة القرسان
جمع كى . الحدقان : الحوادث .
القادح : جمع قدام . والمراد بالروح
هنا الحرب . وأبيش فياض : نق من
السيوب كريم . والمتفون طالبو المعروف .
ما تيب فواضله : ما تنقطع صلاياه .
للقامات : جمع مقامة وهي الجماعة في
عسى واحد . والالتياح . التمدلى
للوشح . للكترون . الأتياح . ومن
يتربهم : يقصدهم من الفقراء . لم يلحموا :
لم يقدوا في الأمر . ولم يألوا : لم يصبروا .
المطى : الرمح نسبة إل الفضل وهي
جزيرة في البحرين شهت بسدل الرياح

حكمة

٤٤ الركنات الأحباش . والنجد :
القصر العر . والأوبد : الوحوش
ومنى ليد الأوبد أنه يلحقها فيسهاين
القرار فكأنه قيسما .
والهيق : الضخم . والسكر : كثير
السكر . والقر : شديد القر الأبطالان :
الحامران . والأرخاء : الجرى .
والسرحان : القتب . والتغريب : الضو
والقتل : التلب .
الحدوج : جمع حدج وهو مركب النساء
كالخفة . والحلايا : السفن العظام .
والنواص : مياه الماء ويجريه في
البحال . وود : اسم مكان
حدوية : نسبة إلى حدول رجل كان
مشهورا بسنح السفن . وإيق يائن :
رجل ملاح كان يخذ السفن الكبيرة .
الحباب : اللوج . والميزوم . المصدر
وللغالب : لاعب النبال وهي لعبة كان
يلعبها سيان الأعراب ، يخشون الله
في الغراب ثم يقدونه بأيديهم ويقولون :
أين هو ؟
الثلثاء : لاء التثنية لا كمثورة فيه .
وللزن الحباب . والجوش : اسم
جبل . ودايس : عظم .
الغباب جم لصب : وهي حقوق في
الجبل ، والفارس . البارد . الكواكب
ما طال من قبات ، والنيات السيم :
للكتيل التام . والأسل جمع أسيل
أكثر النهار .
صر خفه : تاه وتسكر . والرائين :
الأثوف . لليسم : أثر الوسم وهو
الس . استفاد : اقتس . الشجاج : الحية
سم : حش ونيب .
٤٥ ينضون منهم : يمانون عهد الثلاثة :
عهد الثلاثة والتدرج .

صفحة

٤٦ شام البرق : نظره .
والتقل : الجبال . والجلال هنا : المتفرق .
٤٧ فصل بالجنود : رجل بها . تهرأ لحة :
تطلع وسط . وجنة شجرة : قصعة
ملأى . وطنة مسخرة : سرية .
٤٨ مساجة العراء : أن يتناشد الشاعر أن
يتأ فيأ أو خطر أن يخطأ فيأ الأول
ويكمل الثاني .
لها : يتر الوحش . سقط القوى :
متقطع الرمل : والفرخول وحول :
موضان في بلاد العرب .
أزمنت : تومت . أجل : ترقى . أعمار
القلب . أجزاؤه مقسمة إلى عشرة .
الظليقة : التليح . وسل ثابك : الخ
كتابة من اللقارة .
٤٩ كذلك جدي : حلى .
جبل وأعر : موضان بالغام .
وحوران : كورة من أعمال دمشق .
والآل : السرايا ، والقبائل : الحجابات
للغوية ، وعاة وهيزر : يذان بالشام .
والعرب : يلب السكا الواسع وكل منخل
إلى بلاد الروم حوب . لاء التانيخ القى
لا ينقطع . المرأة وفو للثقة . أشراف
القوم وكبارهم : طأ طأ من إشرافه : خشن
تعاليه . طلائخ الخشن : السعة والتيمم .
درج بالتمية ينتها : صبي بها .
٥٠ كلتي : دمين . وجم ناسب : مصعب :
ويطه الكواكب : كتابة من طول الليل
أراح : رد . وعازب : يبيد . الأخائب :
الأخلاق من الناس .
البيض : السيوف . القنول : التلوم :
الفرع : الجبال . الأعلام : القنول
غير عازب . غير ذامة ولا غائبة .
رفاق القتال : كناية من القرب .
والحجرات جمع حجرة : وهي مقدار الأبرار

صفحة

طيب المجزة . كناية من اللغة ، ويوم
السبب سيد الصانين ، وكان من عادة
الضائف أن يحموا ملوكهم في برغ
أخصان الرمان . خربة لازب . أى
شئ ثابت لازم .

٥٧ الجبة : الثنى ، ورحب الأناة : حليم
وراجع الحصة : وافر القل .
القفز الحوشى . ما يتعاضد الكاتب
لتراجه أو تله ، وجر الحديث فاحشه
ولمسل الشعر تكلفه .

٥٨ السحيل . للتقول قتلا واحداً : ولأبرم
للتقول على اثنين ، وما مستطرا
الضيف والقرى . منتم اسم امرأة
عطارة اشترى منها قوم عطراً وتمالفا
على قتال مدوم : وجعلوا آية الحلف
ففى الأبدى وذلك السرر وفالوا حتى
قتلوا . فسررت التل في التؤم يسر
منتم القتلا لئال للوروث . والأقال
والزعم للشرط الأذن .

٥٩ خبط دعواء : تسير على غير مدى
كالثالة التي لا تبصر أمامها . يفره :
يحفظه .

٥٦ تلف الشعر . تله وأتته . ايضت
ميناء : كناية من المسى .

٥٧ الترق : الخوف . للألك : الرسالة .
وتأنسكل : تخرق من الضرب . الأناة :
واحدة الأتل ، شجر عظيم صلب .
ونعت الأناة : كناية من الضرب
والنية . وأملت الإبل : أفت وحت .
الومل : تبس الجبل . قتل جمع قتول :
وهو الكثير القتل .

الأردم : من يرمق في عينه . والسليم :
للدوخ ، سى بذلك تفاؤلا ببعثه .

صفحة

والسبد ، السمر . النقة : الصداقة
ومهد : اسم امرأة .
تردد الشعر : تنير وتقلب .

٤٨ الكلا . النصب : والضميرق لما يهود
على نافته . والوجى : وجع الشف
ورقة من كثرة السير .

تراعى : تدرجين . والفواضل :
الطبايا . ماتت ما تنقطع . أغربة العرب :
سوقاتها . سحر حرب : مضرمها
ومعشها . الصر : شمس صر الناقة حتى
لا يرضها ابنها .

٥٩ ترم على القلوب : تضيها . يتغامرون
يحمى بعضهم بعضاً على القتال .

٦٠ الأشطان : الحبال التي يرفع بها الماء
من البئر . واليان . الصدر . والأدم
الفرس الأسود . بثرة : بحره : أملاء .
ازور : مال . التحصم . حين الفرس
ليوق له صاحبه . ويك . اسم فعل
مضارع بمعنى أعجب والكاف للضباب .
الشيظلة : الفرس الطويل ، والأجرد
قصير الشعر . الحف : اللون . ألقى
خباءك : ألبسه .

لأبالك : جلة يراد بها التلبية لا التصفى .
تلاحظوا : نظروا بعضهم بعضاً
بمؤخر عينه من شدته المول . معم غول :
كرم الأسماء والأحوال . ساهمة الوجود :
٦١ عابسة . الحياء . الطاء . أخذ وجهه : صارق
طريقه حاد البادرة : سمرع الضرب . خوة :
اسم امرأة .

٦٢ حوجاء مرقال : ناقة عديدة السرجة .
التناق : الجوارح من الطير . والتعائب
من الخيل . الوظيف : مستند القراع
والساق من الخيل والإبل وفيهما .

صفحة

المورد المجد: الطريق الموطوء للمستوى،
 الشئون : شمرات طوال عند مذبح
 البحر . وصباية : نسبة إلى صباب
 وهو خل مشهور . موجدة الترا :
 قوية الظاهر . الوحدة : سمة الخطوط .
 مولوة : اليد صباة التي سميته الاطلاع :
 التيق الطويل . التلاح : بجارى المياه
 من زروس الجبال إلى الأودية . استغفد :
 طلب الرشد وهو المونة : الحانوت :
 حانة الخمار . الطريف : المال المكسوب
 التله : المال الموروث . البجع المجد :
 الصل يا فطران . بنوفراء : كناية عن
 انقراء . الطراب : البية من الجبل .

٦٣ الدجن : ليلس القبح الأرض وأفعال
 المياه . البهكة : الرأة الفضة .
 الحطب من الخيل : المتحطب النظام ،
 وذلك مدح له : سيد النقى : الكتب .
 يتاء الكرام : يصطلحهم ، والبقيلة :
 كرام المال . الطول : الخيل القوية طول
 العناية ترمى فيه ، ولثنيان : طرقة ،
 الموت أعداد النفوس : أى بهدما ،
 فلكل نفس مونة . طريقة قومه :
 كيمم ورئيسهم .

٦٥ شمر البنية : قياس الفرعة .
 انظرنا : أ . ملنا . الخاروق : جمع خرقا
 وهو سيفين خشب يلعب به الصبيان .
 والجهول : مناه القعدة والسفه . لبن
 القننة : كناية من القل ، الغسف :
 الغلام والموان .

٦٦ ارتجلها عنق السامة : أتعسما ارتجالا .
 ينضح من قومه : يدافع عنهم .

صفحة

٦٧ لييد منها : ليقص منها . اسئل من
 قلبه الشبهة أخرج للفتنة . الأرقم :
 بطون من قلب . وينتون : يائنون .
 وإخاء : إلحاح .

٦٨ رقت الكلام : زروه وزخرفه .
 لا تفلنا على فرائك : أى لا تفلنا أنا
 نحمل فرائك ، ملك مقسط : عادل .
 النحلة : الأمر . والأمله : الجناحة
 وللقد ملا . الطيخ : الكبير
 والناشئ : الناضج : الخلف : الخائفة .
 والكفلاء : جمع كفل وهو الضامن :
 الحناح : القلب . وكنتمة : قيلة .
 الرقاء : صوت البحر . والنجاء :
 الإسراع في البحر . والواثل : الحارب
 القزع . والحرة : الأرض ذات الحجارة
 السود . والرجلاء النخيلة القديمة :
 والطود : الجبل . المعرين : الفقراء .

٦٩ مشيع القلب : شجاع . القزاز : من
 يزرع القمح . ويتدد عليه فيه . والجفام :
 التكتل للامور ، والقرصة : التضييق
 في . لا يلجون : فلان يطبع إنالم
 يكن له ففاز في مكارم الأمور :
 والربوار : الفساد .

٧٠ أنظمت الشجرة : أسيت بأمر نظيم .

٧١ لا تليق بما تحك شيئا : لا تبق .
 آليت : حلفت .

٧٢ استغفروه : طلبوا منه الغفران وهو طمام
 الضيف : صرف الحديث : التخطي
 الزور . السنة : الجاهة . القصرت
 الأرض : تقيض من عدم المطر .

صفحة	صفحة
٩٨	حد بأحدناير . فاقه حدناير . وحدناير :
	بدت حرافها من المزال ليلة سنير :
	باردة . تبورت النجوم : أى ولى أكثر
	الليل . كسر البيت : بجانبه .
	وجاليت : نهر صفة .
٩٩	٧٤
الصفى فى الأسوان : البيع والقمراء	منه الزجر : يكلفه . الصدى : الجدى
١٠٧	من الإنسان بعد موته .
أنفخ رأسه إليه . حركه تمجبا	٧٥
واستهزاء .	ترق . تمود . الألق : العام والموراء :
١١٠	السكنة أو القصة القبيصة ، الأود :
الفرزمة . أول عهد الشاعر بهذه الشعر	الأموجاج .
أشنى على الفطر : أشرف عليه .	للروح : نبات الرحبان . سقط على
١١٤	يده : لدم .
للزاد (بالضم) : اسم الفطر الجديدة	٧٦
الطعم : السكر (يتبع السين والكاف) :	أوهان اللية : حبالها . ناي القافية :
لويذ يتخذ من النر والقوت .	لأفها .
١١٥	٧٧
القطن جمع القطن . وم أهل الدار .	اليافع : الغلام إذا ترعرع وشارب
١١٦	البلوع وامل : استق المرة بعد المرة .
المنوارب : جمع حارب . وهو الكحل .	وتنهل : تشرب أول الشرب .
للسطار : أقرة الصارعة اشار بها .	لأطروق : المصاب .
الفتاة الغفيرة : العجيلة .	٨٠
١١٧	الحرم المكطوم : الماء الحار المحبوس .
الألق : جمع ألق . ألقها الحار . الأعبار :	الأيلال : رحلتان تجارتان أفريش على
جمع هير ، وهو الحار .	الشاة لايمى ولى الصيف لموران .
١١٩	٨١
وحلى ترعية : يهدى رعاية الإبل .	يؤرتوى البار : بهلونها .
المراتر : النضام والقتال . وهو	٨٧
مستأمن هراش السكالك القاف :	الجرح بالفتح : الخرز الباني والسينى
عدم الاختلاق .	فيه يياس وسواد . منجياً : مفرقا
١٢١	ممر ١٠ على حسب الموائد .
الهرمل : شعر صعب لا حوله له	٨٩
ومنتقم (أولى) : الفباش : فجر	الصاام جمع صمدح : وهو البليم القوى
الرجل بما ليس عنده . صنى البيت :	السفان : الخضر : النى والمير .
مال وجنب . اللامة : المرح .	٩٠
١٢٣	أعلاى طايه عدولا طائفة .
ابن الأوى : وذلك إذا استكمل	٩٢
اليام الثانى : لى لى لى لى لى لى	المسد : جمع صيب وهو بحر يفة . لخل
البرل : بارل وهو اليمبر لى لى لى	لقد فرح حوسها : والاعاءة : سجاره
	ييس ولاق .

صفحة	صفحة
٢٤٩ انته دمزهها : تكفكفها	بدخوله في السنة التاسعة . التناهي
١٥٠ الجرس هنا يعني التجم أمثل قوله : أشرفهم .	جمع قنص : وهو الظيم من الإبل .
٢٥١ ترقى الحجر : من قولهم ترقى العظم أخذ ما عليه من اللحم نهياً بأسنانه .	١٧٥ كسه : ضرب ديرة يسد لعمه وطرده . النفل (بالفتح) : التنبية
النز : المرر ، ولز : الكتان .	١٧٦ كس القيان : السم .
١٥٢ مختلفة : رسالة ، عبد القار : قبة .	١٣٧ طارت قسه شماعاً : تبددت من الخوف أو نحوه . لن تراعى : لن تفرسى . والفنخ : القله ، والبراع :
١٥٤ لا يطبون : لا يمدون . جلق :	البيان . يتسط : يموت من غير هلة سقط للناح : رديته .
اسم دسقى . وهم الأنوف . كناية عن الضلالة .	١٣٨ الثليل : الفرع . أجم للزوف :
١٥٦ الجنب . الضريب . مصى وأمراسي المنج : إخراج الماء من البئر . وأمرس البكرة . أعاد حليها المديج : الأسى الطبيب . الأوامس : القبور حرمه الكلاب : لبعته . العرف : للزوف .	كرحه . والموراء : الكلمة الصحيحة وكره : تناهى . فندى والمدى :
١٥٧ الحفيظة : النضب ، خلاخره :	رطوبة الجو ، والمراد بهما للزوف :
فرغ باله .	والغود : للزوف النامة . وعقة النذر :
١٥٨ البوانق : الأوامس . نولة . لعلق .	ما بقي فيها من الزوف ذلك كناية عن الجذب . الفتن : الفتن . الوراء :
١٥٩ تع لساء : يزور النساء ويعبين بمخمر : يبرد .	الحمامة .
١٦٠ تولت : طلبت النجاة . أرحك :	١٣٩ تفرموا : حلكوا . الزوة الحجر
يعنى خبرتي . تلوو النجم ، أقل .	٢٤٠ يقضى : يسد خياشيمي . فتاول بقوس : دافع بهم ولمس .
الكلمب : الفناء الناعد . والمصر	١٤٣ مجة الحب : أوله وأصله . وانها : العدة . للنادح للنازول .
من بلغت شابها . الماش : روس الضمام .	١٤٥ لا جباخلم : لا لا تفعلوا ذلك . والدين :
١٦١ سبط الحسان : بذته .	أصل الصليان وهو من البقول .
١٦٢ القارم : القدر . والذكر : الشديد القتال . حدهم الحق : سراح الإجابة عند النداء . عيانو الفنا : كارهون للفن . ألق : أبهة الضيم . شمس	اليواصر : العدة .
	١٤٦ متوا يده السيامة : أصيوبا .
	١٤٧ كساروية : ملاهى . ويب خيرك ، الويب كالويل وزناً وسى ، لما لك :
	دعاء للمأثر لينهى .
	١٤٨ فوز : مات . الآلة الحفيدة : الشمس

صفحة

الثرة : رونق الشباب . والياش
القيب .
١٧٥ تنوض : تنحرك . مبدعي الضحى :
الصباح الرقيم الصوت . الأمان : القيد :
السكينة : الجريئة من كل شيء . وفرضه
الثقة : أمارت : أسالت . السكران
بالسكر : الفصل : الفوداء : طوبه
النهر والنق : أنجيت بالبناء للجهول :
رفضت . الرحايلب : جم زحولة
وهي المكان المنحدر المناس .
الصفصف : المتوحي من الأرض .
الفتنن : جم خنن وهو الزلق .
الأحفاش : جم خنن وهو الجير
الضعيف : استنار من الجبان . الثأى :
الصدح . ورأيه : أصلحه .
١٧٦ الجين الماء الجارى . لوث العامة : لثها
وتكبرها .
١٧٧ ظم حياته . من يوم ولادته إلى يوم
وفاته . يعبو السادسة : يطارها .
١٧٨ أختل ذروعه : أفرغ يده . الكل :
العب .
١٧٩ للزروع والرمية : الرجل من الطول
والنصر . للغب : الشديدا الطول
نخافة . الشعر الرجل : ألقى كأنه شط
فتكسر قليلا ليس بسبط ولا جمد .
القبضة : شمر الرأس والرداد ليد
أفترقت من ذات نفسها فركها ولا
تركها متقومة . الحجاب الأزج :
للتنس الطويل الزافر الشعر . القرن :
اتصال شعر الحاجبين وضده البجع .
أقن العين : سائل الأنف مرتفع
الوسط . الأدمع : الشديد سواد

صفحة

البدولة : ألباء الحسام . عجلة :
عامة . المساحى : القؤوس .
١٦٥ مقذع : مقش . فكباء حرجب :
ربيع يردت شديدة الحبوب . المستبح :
التلج . سروات الذيب : ظهور الجبال :
١٦٦ وتظف الرجل : أنهم بريية . والبيط
الحجم . النساء : النزة . للصبر .
واحد للصبران : الأمان . والأقن :
البنون أو شبهه . يحمره القروع :
نار الثرى . يتجباب : يتكشف .
والثم : الثبار .
١٦٧ صر خده : أنه من الناس كبرا .
الأناوح . جم أخدح وهو خجل
الحنن من الوريد .
١٦٨ يرى قرنه من كذب : ينازل خصمه
من قرب .
١٦٩ القلبة : الناقة . والرما : جمع راع .
أوت النار أو الحرب : أضرمها .
١٦٩ للفرغ : التفلدون أبوهم صرغ .
والوزنر : كثير الإثم .
١٧٠ كيش للجهل : قائد الجيش . قيس
مرة : ومن قوة . القطين . الخدم
والحمم والأتابع . الست : هيئة
أهل الخير .
١٧٢ الضراعة : اقل .
١٧٣ السكرابيس : جم كرابيس وهو الثوب
الحسن القليل من القطن . وغيب
العين : طماع .
١٧٤ الضجيجية : البقرة والخشونة .
الاعتراض : صوية للرأس . ريق

صفحة

المعدة . كـت الحية : كشيها .
 خلع القم : واسمه . الأهلج ذو
 الثنبل وهو رولق الأسنان وماؤها .
 والفلج : فرق بين الثنبل . للسرية :
 خيط الفم الذي بين الصدر والسرة .
 الدمية : للصورة من الباج . الباذن .
 ذو القم : للماسك الذي يمسك به
 بضاً . الكراديس وهو س النظام .
 شق الكفين والقدمين : خليطها
 ولحيهما . سائل الأطراف : طويل
 الأصابع . غصان الأخمين : متجاني
 أعين القدم والأخص هو الموضع الذي
 لاتناه الأرض من وسط القدم . مسج
 القدمين : أمسها : القطع : رمل
 الرجل بقوة . التككؤ : الميل إلى
 سنن المشى وقصده . المون . الرلق
 والوراء ذريح الملية . واسم الخطو .
 من صيب : من طلو . بضه بأعداله
 يستعمل جميع فة التكلم لا يقتصر على
 نمرك الفنتين .

١٨٠ يند : ينفرد ويعبرد .

٢٨١ مات حطب أفقه . مات على فراشه لأن
 العرب يزعمون أن روح الرئيس
 تخرج من أفقه فإن جرح خرجت من
 جرحه . هي الوطيس : اشتدت
 الحرب والوطيس . التنور والمركبة .
 معدة على دخن : سكود لملأ لصلح
 والحن : الحقد . رقا بالقرارير
 حم ضرورة . وهي المرأة تشبهها لها
 بالزجاج لضمها . الحن : زوج
 البنت أو زوج الأخت . لمه أخته :
 لاته .

١٨٧ شامت الوجوه : ابحت .

صفحة

١٨٢ الرجاء : مائة الناس . الناس : ظلام
 الليل . الببال جمع سبال وهو طرف
 الثعلب .

١٨٤ آس بين الناس : ساو بينهم . التلق :
 الضجر والتضرب .

١٨٥ أذعنوا النفوس : كفوها وأردها .
 نلوس الجرة ثم سألها : البجرة خشية
 في رأسها كفة تضاد بها الظباء .
 وفوسها التلي : بأفها ومارسها .
 يضرب حفا للتل ليزال القوم عن
 رأيهم ثم يرجع إلى قلوبهم ويضطر إلى
 الوقوف . استوتق الأمر : أمكن
 وانتظم .

١٨٧ الماء المروي : الذين الذي لا يلب
 له . والزعرة : جمع نازع وهو رافع
 الماء من البئر . الأغطان الميلل .
 والركن : بئر غير مطوية . القنح : النياق
 مرحت عينه : أبيضت حالها . ض
 الأبدى : كتابة من القدم . يسي لسم
 طرقة : يمشا . خيل شم : جمع
 شموس وهو الذي يخرج ظهره ولا يكاد
 يستقر . وأقلل : جمع ذلول وهو
 للروى الطبع .

١٨٨ ركابها : ركبها برجة

١٨٩ خريت فيه برق أشب . أي خفي
 اللباس نفسه غير مريح .

١٩٠ الرأي الجيبيج : المازم . واللسان
 القرب : الحاد . لم الحمت : جمع
 للفرق .

١٩١ دلج الليل : حير أكثر الليل لقنارة .
 كنس كنوساً . تتيب واستتر .
 ومكاس الرويب : حال التكرار

صفحة

جلت ذلك دبر أذن : لم أصغ إليه
ولم أصرح عليه .

١٩٤ تنكب قوسه : جعلها على منكبه .

ذم : اسم فرس أو ناقة . لغيا .

جمنها . حطم : مسرع . الوض :

خفة يقطع عليها اللحم . المصلي :

القديد . الأروع : الذئب . الهوى :

المصراء . والمروج منها كناية

من الخبرة والمبر والجلادة :

سكنولهم : ملاح النتائج . الرمد :

القديد . البكر : القيق من الإبل .

الثنان : جمع شت وهو الجهد

البابس يعلق في الخباء فإذا دلت

الإبل منه حرك فنفرت من صوته

(أى لا يتخاف مما لا يخيف) فررت :

أى اختبرت فوجدت ذكياً : الكتانة :

جبة السهام . . عجم عيدائها ، مضها

لينظر أيها أسلب ، أمرها : أقولها .

١٩٥ الإيضاح : نوع من السم : السلة :

شجرة القرظ تصبغ بالأرض

أو بالصم ليدها ثمرها . ومعى

الجملة أنهم كهذه الشجرة لا يتغير

منها إلا بالشفة ، غرائب الإبل تضرب

أشد الضرب عند الحرب . وعند

الغلاظ ، لا أخلق : لا أقدر ولا أفضل .

فريت : قطعت ،

١٩٧ الألوكة السود : أعلام المباسين .

١٩٨ محور : ترجع ،

١٩٩ الألوين : جم فيقة ومى العين .

رعتنا : رستنا ، الطير . بارحة : كناية

من سوء الحال . الأسار : القيد :

٢٠١ أوسعهم حاراً : كناية من السؤدد

والعزف .

صفحة

لا تنفخوا : نفس عليه خيرا : حسده
عليه ولم يره له أملا . تصالون
لواذا : تهرون خفية .

٢٠٢ الظلم : ذكر الضام . . أحرمها

وأسودها : مجبها وعمرها . تنو :

تخضع . وتجب القلوب : تخفق .

فلخرن له . أدلاء .

٢٠٤ الجريرة : القنب : فسدوا كباركم :

اجلوم سادة لكم : السادة : سؤاله

الناس استجداء .

٢٠٥ ضم لفرم : جمع متفرقهم :

٢١٠ يشون : يتصبون . ولسرا : ضباً

ولسراً . آل : هدم .

٢١١ آرية لبة إلى الآريين وم قدما

الجلس الهندى الأورى .

٢١٣ الفلج : النصر . الكيت : الإذلال .

٢١٤ الجنة : طائفة من الجن .

٢١٦ قم : قهر وذل . تلكاً : أبطأ

وتوقف .

٢١٧ للزوجة : اتفاق الأسكيات وزناً

لا روبا . للقم جم ملحة ومى

ما حسن من الأحداث .

٢٢٠ النظام : الشدائد . والشغام :

الشغام . اشكيناك : أزلنا شكيناك

وأهتناك : قبلنا متابعك .

٢٢١ الحفيظة : القصب وللوجدة . مروة

هذا القصب . يربد الحفلة . خيم

القصد : السيف .

بجملد وشازع . ويد : غلب
ومادى : وأباً . وينى : يحضر
ومحج .

٢٣٠ أنياً : مقرباً . الفايغ : شال يحدث
في أحد شقي البدن ليبتل إحساسه .
٢٣٠ بلفت به الملة : اشتعت .
بجاة : مزاح وهزل .

٢٣١ قل تلم . وشابة : حد . على رسول
يرقى وتؤدة .

٢٣٢ لساظتك . ياريتك ومارمك .
المصارمة : المفاضة . يديل : أدال
الله فلا تدين فلان بجله الكثرة عليه .
اقتل : البض .

٢٣٢ المجادة : وسط الطريق . البيات .
الطرق الصغار تغلب من المجادة .
المجاهرة : حسن الله والمظهر . يقتل :
يقطعه بالبلابة .

٢٣٣ المفلج : الطرق . يقول : يصد .
اضطلع بكنا : احدهه ونهش به .
عشارها . جم المشرافين القس مضى .
على حنبا عشرة أشهر . التوتنج :
مرض مؤلم من أمراض المعدة . التقرس
دام بأخذ في لمس الرجل .
الديباجة هنا حسن الأسلوب .
الوشى : نقش الثوب من كل لون .
القرار : اللال الذى تقرب عليه
التصال لتصلح .

٢٣٥ بحث : مت إلى فلان بكنا وصل إليه
وتوسل . خلول : خيانة . استسالك :
أسطلاكك . حلب حطرها : مربك
خيرها وشمرها . ظال ذو ثلاث شمب :
دخان جهنم على وجه التشبيه .

٢٣٦ حل بصورك : أحبك . سريع : مجل

المرج : هجر سهل وهو التناد .
المرك المرأة التى لا تملك نفسها من
زوجها .

٢٣٧ الآن . طرف مطلق بأمن أى الآن
أمن الأحمر والأسود .

٢٣٤ باب الأرباب : تفر من تنوز بحر
قزوين وكانت مدينة شهيرة تعرف
الآن بدويند . الثارب . الموج .

تمود : تسوق . ولسكنا البحر :
توسنقاء . البحرين : البحر والمطر .
٢٣٥ الثمال : من يمول عليه . وسروك .

جمع الجمع لرسى وهو السعى
ذو المروءة . وسروك جمع سرية
وهى الرقبة القدر . القلب .

السكر . والظفر . النابة . واليد :
النمة . والأعضاء : الأوهان .
والجوارح : الأعضاء . والمجايب :

المادم . والنين : القعب . والراحة
سد الثعب . سدائزاد : كتابة من
الحية . النين : القوة : والبار :

الدين . للرالى ما يرتقى به .
الثنية الفنية من التوف . والثاب .
الثافة المسنة . الجيش الأخضر :

كتابة من المعيشة الطيبة والمحبوب
الأصفر : القعب . فودى . جالب
راسى والبدو الأزرق : الشديد

الساواة . الموت الأحمر : القتل
بالسيف .
٢٣٦ أحجن للال : ضه إلى نفسه .
تلفت : تعبشت . الضلة : الحاجة

النفس .
٢٣٩ الأساود جمع أسود : وهو العظيم
من الميقات . التنادح : القتل .

والياه الذى لا يبرأ منه . عارى :

صفحة

المحاشاة والقهاء : بقية الروح في
جسم المرنى : الإرجاء : هذه الأخص
والصفة .
أصغلتين : عقل المرأة حيسا من
الزواج .
٢٣٩ القنواء : السرعة والقهاب إلى الناية .
من : أسيب .
٢٤٠ همام البرق : نظاره . الإيمان : البريق .
٢٤١ حوارب : جسم عارلة وهي الصليح
والجليل .
٢٤٢ ألقى مصاه : كناية عن الإطاعة بعد
الظن . وهو الساعة : بسرعة من
غير كلمة . ابن يمدتها : السالم بالكى .
المتن له . والبيعة : باطن العى .
٢٤٣ السكدة : السدول . السباط : القى .
للمصطف وما يوضع عليه الطعام .
الأشراف : العلامات .
٢٤٤ لغة : الحبة . حلة الرجل تبه
ومذهبه . النخلة : النوع أو المذهب .
الأزر : الظاهر والظاهر . القلوب :
التعزير : ألق حيا : الرمية . حراً
ويزاً : سريراً وكتناً . مطارف :
جسم مطرف وهو رداء مرمين الخز
في طرفه حذان . تمزى : تلصق .
المانون . جسم عاف وهو طالع
الرزق .
٢٤٥ خشرة الفمن : ما ثبت في التربة من
الصب . كاسيدى : رجل من معد
يشرب به المثل في حسن الصحت
ويعرج للرأى .
٢٤٦ القتلات : جمع خلافة وهي التوب
- الرقيق : الأحاجى : جمع أسبية وهي

صفحة

السكامة الفلانة يتساحى الناس بها .
٢٤٧ التنويل : السطاة . الأختار : القصد
والزيارة .
٢٤٨ السنية : الجوع .
٢٥٠ مؤاناة : مساعدة . الأنيبة المطانية :
الحيام للشروبة .
٢٥٢ يتيلون . يشبهون . نهر من : قضى .
هيئت : مجزئ . دهملة الفرج :
سفينته .
٢٥٤ أشعر الرج . شهره . اليهود :
الأعلام .
٢٥٥ السكاة : الأبطال .
٢٥٦ حبة : [حسراً] حدائق . الأختار :
التياب البالية .
٢٥٧ أنيل : الحارث . النواطم : جمع
لناطور وهو حائط الحرم والنيل .
يتمن : أمثلة بطونين . الصيغة
جاء أسد . وهو المبرم . الوزيرة
جاء كل جيس : حذاء كل رجل
دنى . عام . جدم يلمه وهو ما يلم
به من البشر : سابة البثور : طية
وأخره . طهتها : قام بها .
٢٥٨ الرسل هنا : الأول . وحشرت
المقوم رسل : طرفة . الدنى :
مدائن كسرى وهي إلى جسد مدائن .
الايير : إيوان أسرى . والشمس :
الباله الصلابة . هوى : لمره
مقصود في طلق حال : مضمون
في قصر مقيد . حصر العيون
ويضئ : يردعها حائرة حسنة
لأولها . خلطه ومكس مكالان .

صفحة

حال : جمع حة ، وهي مكان النزول
والقرية . القياس . القارة . عيسى
قبة من اليمن : والبصرة طائي
عنى : شموه أضاء ليس : صرد
بليت . الدرس : راية القوس .
إغراض جرس : سكوت . للشيخ :
البلل . يتل اربابى : يزجاد .
وتتراقم تصصم ، أبو القوث : ابن
البصرة . ولم يصد : أى لم يصب
دون الرى : والسكراة : مكان .
الطلس : أخذ القى : فى تهزعة
أشوا الليل : أضاءه .

٢٥٩ الحوب : السكاون والسكان الولى .
وأرمن جلس : جبل شاعلى . يتظن
الخج : ينكته القادى عليه إنسا
مزجيا يراق حيه أو بطليق ذوجه .
الدمقس : الحسرى . ورضوى
ولدى : جبلان . البرس : القطن .
التكس : الوضع . ووقوف :
جمع واقف . وخنس : مسترون :
القيان : القتيان : يرجس :
يتنن . وحو ولس : جمع حواء
ولساء لوداء القفة ، وكانت حقة
ستجنت . فخرى لأمها مند
أهل : يجرى إلى قصة سيف بن ذى
يزن واستناده يكسرى فى طرد
أربط ملكة الحيفة من اليمن بمد
أن ملكها ، والبصرة كالعلم عنى .
السنج : الأصل .

٢٦٠ حالية الضارى ، لاية الحلى
شون . الجسدان : الليل والتهار .
٢٦١ الضلال : النافة السرية . لم أحمده
أى لم أحمده :

صفحة

٢٦٢ لد حالى : تقي . الطرق : الله
خوضته الإبل وروى فيه : السكة :
الحجة والى . فرق (بالهمز) :
الخر .

٢٦٥ القم القيلار . الرجة : الرجوع إلى
الهدى . بد للوت . نائلة : رائحة .
٢٦٧ نقى : فرجى وخفى .

٢٦٧ صرخده : أماله من الناس من كبر :
السيفة : الطيبة . الأون :
أشود الجيلار والجاس .

٢٦٩ الوظيفة : للرب من مال أو مقام :
وفرقة جسة : الوفرة ما سأل طي
الأذين من الفرس ، والجسة
ما كان فيها التواء وتقبض .

٢٧١ اليم : البحر . الآل : السراج
تعب : تعلم .

تأيل : دلائل على النجاح .

٢٧٢ تقى عنه : حطى فيه . ذلة : جرأة .

٢٧٤ شرب على وتره : جرى على طريقه .
الحق : وعاء الخمر الكبير . الحلف
(والتفج) : الرلق .

للطفة : الخمر القديمة . الزاج :
مزج الخمر بالماء .

٢٧٥ الصباه : الخمر . الأصباح :
شرب الخمر صباحا .

البا : جمع مائة ، وهي البقرة
الوحشية . تدرجها : تحتلها القلائس :
جمع للسلوة وهي من أغلبية الرأس
كالقبة . تهز باللو . شرب بها :

٢٨٧ الفلاة : القوب الرقيق .
 ٢٨٧ الخندس : الخلام . النجل : آلة الحصاد حثت : منعت .
 ٢٨٧ أسرار الوجه . الخلوطة : القى العجبة : العجى : الرعفران . فبيلة : القبادية قرية بالشام . أخطأ : جمع خط وهو شرب من البسط . الاستبرق : غليظ الديباج . النفذات : الأمكنة للرفضة ، الفصيل : الحصان مجازاً . أعتق : ملوول شلخ .
 ٢٨٨ ماله عليه : ساعده : العطل : المحفر من الزيتة . شرع . سواء . راد النسي . أوله . الطفل : قليل الغروب . الرسيم : نوع من سم الإبل . الألبق : جمع فاقة .
 ٢٨٩ المحتد : الأسل . المهدى : طالب المطاء . أكت : أذل . الفضاضة المنقصة . فكأن لد : كأنها لد زالت .
 ٢٩١ الأوبم الأدراس : للتنازل المقفرة . للشكة : الكوة غير النافذة . التبراس : للأصباح .
 ٢٩٢ حصف عطفه : قوى . الكلف : شيء يملو الوجه كالسمسم . أجباد الكبراص : رهب الحسان .
 ٢٩٣ التتاد : شجر شائك . الوفرة : لال الكثير . تخلق : لديباينة : ميل لصنعي وجهه ، وذلك كناية عن الأبتذل . سرمد : دائم . يقدح : يثقل . نجاج : جمع فج وهو الطريق الواسع بين جبلين .

صفحة
 في الماء تبتل . أجمت : أرحيت . السراج : للماوية الساعمة .
 ٢٧٦ السرقة : جمع سرى وهو السرقة السحر . الطيرة : ما يتقادم به من الفأل الردى .
 ٢٧٧ المهربان : حيد القرس . التبان : جمع لينة وهي لفتية ، التكنة : النقطة البيضاء في الأسود . الخالصان : الناس من الأخدان يستوى فيه الواحد والجماعة يلصون : يلصون .
 ٢٧٩ الأندريون : زهر أصفر في وسطه ظل أسود وهو عباد الشمس . الختالية : أخلط من الطيب . الدكن : جمع أدكن ، وهو اللؤلؤ إلى السواد . القود ، الرأة : الشابة . يفسد : يبسط . لواء : نسمة . الرعاء : الحبل .
 ٢٨٠ رائق ، مستعار من رقيق الطائر إذا خفق بجناحيه ولم يطر . الورس : نبات كالسمسم أسفر يزدح باليمن ويصبع به . مززعج . عرك . شول : قص . تمشق : السر . تفضى إلا الله . سور : جمع سوراء . وهي للثلاثة : روان : نواظر . بين دنا : بين بين أى ظهر . ومنه للثل (قد بين المسبح قى ميتين) تمشق : غلوط بهه . يسي : أدكن . صلر ، رومان طله : وارط طله . رهي : لينة إلى الريح . حثت : حرك . الصبح : سفحة مدفورة من الصلر يضرب بها على أخرى للتراب . شذوات : تنريد .

صفحة	صفحة
مصبوغ بالصنفر وهو نبت أصفر يصبح به . عاج : مال .	٢٩٥ يتزاور : يزوج ويثمل
٣١١ البير حمار الوحش . ساف : شم . المزاي : نبت طيب الرائحة . العود : السنن من الإبل أديم الأرض : سلعها . الرهت : ما على من الظلام	٢٩٦ الفث من السلام : الفائه . المبك للطرق : جمع جبك . الجواشن : القروع . ريق الثنيث : أوله
٣١١ الفرقان : كوكبان متلازمان . للديج : السائر آخر الليل . العري مأسدة جانب القرات . الصلال : جمع صل وهو الحية المبيضة	٢٩٧ لبب : ذو لبب وهو الصوت . تدعي : تنلس . الثبير : النبار
٣١٧ للسوة : ثم الباسيون لا تهازم السواد طمأ وعصاراً	٢٩٨ الحدود : الأحكام الشرعية
٣١٦ الفلق : الصباح . الأرق : السواد والسحر . السف : شدة الظلام : تجرها . مستدرها .	٢٩٩ علود عمره : عقد الصدفة . يتصقم : يتكاثف العصب : الرواش منقول الخيل ومطو ركوبها . أغم وطابه : ملا وطاه . أخلاف : جمع خلف وهو حلة ضرع الناقة أشمل حايه الكبك : أغراه به . لم يبق له وزناً : لم يحل به .
٣١٧ الثيان : للثنيات . الدهوات : جمع لماء وهي أقصى سفك الشم . ذو القرون : يولس عليه السلام . والقرون الموت . الجداء جمع جدى . السراحين : جمع سرحان وهو القتب .	٣٠٠ يلبش سومه . غيب . الإحاة : التكلم بالحوال . القتلان : الإنس والجن . تلبيه : تذله وتفضنه . كيت الجر : ما فيها سواد وحررة
٣١٨ مخوم النداء : لم يضحح عما يريد . يأسو الجرح : يشفه	٣٠٢ يبييه : يفتنه : قرن الشمس : قرصها
٣١٩ أخياخ : عثاقون خاسوا : فكسوا وهدروا . التماس نمش . البجاس : التماس . مخ الصع : سكب . الرم : القزاة	٣٠٣ لمعلمته نفسه : اخنس به لواصع : جمع لاصع وهو الموى المحرق .
٣٢٣ الجملة : حبة من فضة على شكل الؤلؤة . الرخا : التزال الأبيض	٣٠٤ السرار : آخر الشهر وهو الخاق . الإسار : القيد . الإمام : البطل . المسو : القرب حيثاً بعد شيء . المنبور : آلة القرب ذات علق ملوول وستة أوتار من نحاس . لا يتركوه : لا يلبق به . ينزل مصون شمره : يبتذله .
٣٢٤ الرديق : رمع منسوب إلى رديته	٣٠٥ الرءاء . القضاء ٣٠٦ الباب : عظم الماء . مصفر :

صفحة	صفحة
٣٤٩	وهي امرأة كانت تنظف الزجاج :
٣٤٩	الغلب : خطوط السيف
٣٤٩	السواقي : المطاش . يلى :
٣٤٩	يشموى
٣٤٩	شوازي : مرتضات . خزرأ :
٣٤٩	جمع أخزر وهو شقيق العين . حفرة
٣٤٩	آذانها : لطيفة صغيرة . لب الأبطال :
٣٤٩	ضامرات البعلون والمصور . الألسر
٣٤٩	جمع لسر وهي لغة في بطن سائر
٣٤٩	الأناس من أهله . الخلق : الغلب .
٣٤٩	الخال : بقية الجسم المأكول . القصور :
٣٤٩	الأسد
٣٤٩	ذات ينهما : الصلة والقرابة .
٣٤٩	شافية القبل ، طوياته
٣٤٩	الأسى : النجاة . أبيت : القطع
٣٤٩	الندرسن : ورد أبيس على قوى
٣٤٩	الرائحة .
٣٤٩	الرقوم . شجرة في النار يطعم منها
٣٤٩	أهلها . والفصل : ما يسيل من
٣٤٩	جلود أهل النار . السنا : الرقة
٣٤٩	والسني : الضوء . الفذل : مؤخر
٣٤٩	الرأس . الملاوة : أعلى الرأس
٣٤٩	أو السني .
٣٤٩	عناج فصلة : آناه بطله . الفذك :
٣٤٩	دابه . يعزى جلد لها . أى بليس فروا
٣٤٩	مسحور : ملاؤ . سربت أخصانها :
٣٤٩	امتدت وطالت
٣٤٩	نفرى : تسكشم . الضمارم :
٣٤٩	البحار
٣٤٩	اللى : الرقيق . الهرة : نجوم كثيرة
٣٤٩	لا ترى بمجرد العسر ، وإنما ينتشر
٣٤٩	شوقها فيرى كأنه خط أبيس
٣٤٩	الغلب : يريق الأسنان . واللس :
٣٤٩	سرة في الشفة . الوساء : رابية
٣٤٩	س ومن لينة . الرضاب : الرقيق :
٣٤٩	الليل مضط القواب . لاج بجره .
٣٤٩	للجوزاء : برج من أبراج السماء .
٣٤٩	أفسكرت الغيب : هوت وكس الطت .
٣٤٩	الافرنج : جوى السيف ووشيه .
٣٤٩	الربطة : الملاوة .
٣٤٩	عمى الثيت : سقط . الحيا : للطر
٣٤٩	الثوب للعلم : المنقوش : كثر له :
٣٤٩	ستر . يرما : ضجرا . الففاء :
٣٤٩	الغلاء والبل
٣٤٩	الدير : جماعة النحل . الضرب : الحمر :
٣٤٩	أن يتعلم منه الحمر لشدة . السباق :
٣٤٩	النزع والانتصار .
٣٤٩	الاسنان : من اسنان الفرس
٣٤٩	وهو فسه وعدوه وانطاه
٣٤٩	الصبور : الفرس صاصحاً . الأباك :
٣٤٩	الشجر اللد : الحنة . الخلال :
٣٤٩	للطر بالخرق . تلجاد : سم
٣٤٩	مؤدر وهو آلة التامة في حشة .
٣٤٩	الطام (فاصح) : دوى .
٣٥٥	الشذا : الرائحة
٣٥٦	الإثم : الفجر عاراً
٣٥٨	للزواة : الصبيح
٣٥٩	الشفوة : النومة . الروح : بالفتح (
٣٥٩	للصامدة . الإيوان : الصفة العظيمة .
٣٥٩	الأوار : الظم .
٣٦٠	مؤلفة : علة . تجم لها : استلبها
٣٦٠	بوجه كريمة . تناس : دوى وينراج
٣٦١	اللس : المساحة . ساره امرأة :

صفحة	صفحة
الأوراق الرسمية . الساعات . الأشياء التيمة نسبة إلى ماد . أخفان الرواة : جمع خفل لقبه الجرب . للتقريب : مختلفات الأحاديث . الجرح والتعديل في الحديث : تنص الراوي أو تركيته ٣٨٠ كل عليها : فيه . الجيد الماتر : المط السى .	خالط جوفه ، استمرى الفساد : تقام وعظم . للعارب . موارد الشارين . ٣٦٣ قبح في كسريته : اقزوى واحتبس : يراذين : جمع يردون وهو حابة دون الفرس و فوق الحمار ٣٦٤ حياه : عطاء . نقيه : مداراة . حبيا عليه . عطفا عليه . سليل السان : طوبه وحديثه . التطنس : التأق في كل شيء . ٣٦٥ عني : كلف الناء . من عليه : عدد له ما أعطاه . واث : أغنى : التنب . للحال ٣٦٦ السواد : ما بين البصرة والكوفة وما حولها من القرى . التبط : جبل من الجبل يتلون بالطاغ من الفرانج و قيل أنهم عرب . يصرجون : لا يرون فيه سراجاً ولا بأساً ٣٦٧ لأخذت عليه : أكتفته . مراغ . منعجب ٣٦٨ أراد على كما . له عليه . التجهيه : المقابلة المكروه ٣٧٧ الثبر الفار : غير المأدوم . السارية : السود ٣٧٥ القضا : شجر عظيم من الأثل . طس : طرى . العين : الثمر . تتجه العين : تزدريه : الساغ : سهل دخوله في اللقى . الها : جمع لحاة لما بين قطع أصل اللسان إلى أقصى الحلق ٣٧٨ أضناه : أسبغه وأحاله ٣٧٩ سواوة للدوك : مسامرة لهم . للكوكبات : القنود . والجلات :
٣٨٧ الرية : لا بالطويل ولا بالتصير . يرتسخ : يتزع إلى السجم في الفاظ من الفاظهم ٣٨٣ أحظ : أغضب . ما هم : ما لبث . اليتين : اللوت ٣٨٤ حسن البزة : حسن الهيئة . أنفسح خبره : طال به . أمر : أتى بالناذر ٣٨٥ الصمت : هيئة أهل الضيق ٣٨٧ أنصوى إليه . انضم . مدح : باهر . أمنى الركائب في طلبها : أطال السفر في البحث عنها . حياء إلى كذا : دعاه إليه . العابية : الحاترة . طهراء لصراء . إشراف : تعالى . يشكأتم : الشكينة المدينة القديمة في قم الفرس . غفلا : لم يسم واضموها الدور : الدروس ٣٨٨ الرماه : جماعة الناس . ولا بدع : لا غربة ٣٩٠ لسكرته : لسكر وجين : أيقورى : شهران نسبة إلى أيقور أحد فلاصة اليونان ، مستقر : لا يزال بما فعل ٣٩١ غافله : دار الصوفية . توسط باحتها وحارث غايها : كنانيان من الصلح منها . خض : ذهب ٣٩٢ التناضح : انتقال النفس الناطقة من جسد إلى بدن آخر . تلمست : انفلت	

صفحة	صفحة
٤١٧	أو ليست . الحلولة : فرقة من
٤١٦	للتصوفة تقول إن الله حال في
٤١٨	كل شيء متحد بكل جزء وتجاوز
	أن يطلق على كل شيء أنه الله .
	٤٠١ انتكست فله ، انتكس أمره . الأرزاء :
	للصائب ، عن على اللغة : عاها .
	٤٠٢ النمرة : الغيلا . والكبير ، الرد :
	النون ، الوزر : للبيأ .
	٤٠٣ رقت عليه اللية : رفرقت عليه
	كالطائر ، واقاء : بقية الروح
	الأرضة : دودة تأكل الخشب
	والكتب . وزحوا : هلكوا من الإعياء .
	٤٠٤ أظلمت . أظلمت ، دايح : جمع
	ديحور وهو الظلام . شارق :
	كوكب ، بارق : برق ، ما كان
	أروح : ما كان أسر .
	٤٠٥ نخوتها : تنقصتها .
	٤٠٦ بق الفصاحة : قليل منها . الإحاض :
	الانتقال من الجد إلى المزل .
	٤٠٩ السراوة . للرودة والخطأ :
	٤١٠ أقيال : جمع قيل وهو الملك من
	ملوك حير .
٤١٧	اتالت على : عابت وكثرت .
٤١٦	أرفض منها الرهن : زل الضف .
٤١٨	ذكا : احتل . الغناء : البلى .
	خيا : عده ، الأريكة : سرير
	متجد مزين ، خبا أو أوارها : ضف
	شأنها .
٤١٩	القائمة : القليلة .
٤٣٠	الناثق : الراجح .
٤٣٧	تجلو منها أعقاب الله : تبرأ من بقاياها .
٤٣٨	ديعتين : احتلب الناس في اليونان ولد
	سنة ٣٨٤ وتولى سنة ٣٧٢ قبل الميلاد .
	شيفرون : ألصق خطباء الرومان ولد
	سنة ١٠٦ وتولى سنة ٤٣ قبل الميلاد .
	الاسقاء ، أسقى الشاعر : انقطع شعره .
٤٤٠	هبل في قصة أبيه : دى . يحمو
	لما به : ينازعها .
٤٤٤	أحرام أجرام ، يبلغ الكتاب
	أجله : يبلغ الحكم أمده . القد :
	القصومة الشديدة .
٤٥٢	رجال لا يات . موقوف البلاط الشافى
	أيام الخلافة .

